النوافذ المفتوحة

مذكرات شريف حتاتة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

حتاتة، شريف.
النوافذ المفتوحة: مذكرات شريف حتاتة. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٥٩٢ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٢ ٨٨٨ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ حتاتة، شريف ـ المذكرات.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٨٦٣/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -888 - 2
ديوى ٩٢٠

النوافذ المفتوحة

مذكرات شريف حتاته

د. شريف حتاته



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : النوافذ المفتوحة
المؤلف : د. شريف حتاتة
الطبعة الأولى : ٢٠١١

الاخراج الفنى : صبرى عبدالواحد
تصميم الغلاف : ماجدة عبدالعليم

الفصل الأول

فتاة اسمها روزالند

عقل الإنسان يستطيع أن يعود إلى الوراء عشرات السنين. مع ذلك أنا لا أعرف عن مراحل حياتى المبكرة إلا القليل. عندما أسمع أصدقائى يتحدثون عن ذكرياتهم أشعر أنه ينقصنى شىء، كأنه لم تكن لى طفولة، أو مراهقة، أو شباب مثل الآخرين.

هذه الحقيقة تؤرقنى. حاولت مراراً أن أسبر أغوار الماضى، أن أعرف لنفسى تاريخاً، لأستعيد ما ضاع منى، أن أتذكر الأشياء التى كانت تتحدث عنها جدتى (أم أبى) أو أمى، أو عمتى، أو عمى الكبير، أو غيرهم من الناس الذين كانوا مقربين إلى.

شاءت الظروف ألاّ تكون حياتى عادية، أن أغيب فى السجون، والمنافى مدداً طويلة، ولما عدت كانت قد تفككت الروابط القديمة، ولم تتكرر تلك الجلسات الأسرية التى نحكى فيها عن كل شىء.

فى السنين الأخيرة عدت إلى هذه المحاولة من جديد. بحثت فى الأدراج، والملفات، والأوراق المحفوظة فى البيت. فحصت الصور، والوثائق، والرسائل الموضوعة فى المظاريف. ترددت على قريتى، وقمت بزيارة الأماكن التى عشت فيها.

لكن ظلت الوسيلة المتاحة لى أكثر من غيرها التنقيب فى أعماق النفس، كأننى أعيد إلى الحياة ما دفن فيها. لعب الخيال دوراً أساسياً والتخيلات إذا ما تكررت تعنى أن هناك حقيقة تتحرك فى ذهنى مثل البعوض فى ليالى الصيف. تظهر، وتختفى، لتظهر من جديد، وأحياناً تحترق على مصباحى الصاعق لتسقط نهائياً فى بئر الليل. إنها كالأشباح، أو الأوهام لها ملامح الحياة، وصفاتها الواقعية، تبعث إلى الوجود لأسباب قد تظل خفية. فهى موجودة بلا وجود فعلى، غائبة بلا غياب نهائى، لكنها أساسية فى فهم ما حدث لى خلال السنين. فمن لا يعرف الوهم، لا يعرف الحقيقة، ولا شىء مؤكد بصفة نهائية.

عدت إلى الماضى عشرات المرات، لكن ظلت الطفولة، والمراهقة، والشباب صوراً واهية، أغذيها بالخيال، حتى تعود إلى. أردت أن تكون لى طفولة، فصنعتها، وصرت أرعاها لأبقى

عليها. أردت أن يهدأ بالى، أن أحتمى فى اليقين، ولكن سرعان ما عاد إلى قلقى. هكذا تأكد عندى أن الذين يعرفون الحقيقة دائمًا لا يعرفون أى شىء.

بذلت جهدًا لأعود إلى الحلقة الأولى فى السلسلة الطويلة يوم أن انزلقت فيه من رحم أمى إلى الدنيا. ثمة شعور بالخوف وأنا أطل برأسى من جسمها. أول خطوة فى طريقى المستقل، أستنشق فيها رائحة المخاض، والدم.

لحظة واحدة تكفينى للقفز فوق مسافات الزمن، لحظة يطل فيها الطفل من ملامح الوجه، فى الصورة المعلقة على الجدار، أو فى المرآة، أو من عينى عندما أضحك، أو أفرح بما كتبت. لكن فى أغلب الأحيان أبحث عنه، فلا أجده. فالجنين ثمرة النكاح، أما الطفل فهو يروى بالحب وفى غيابه يجف. تختطفه عقارب الساعة قبل الأوان، وفى حياتى أنا ظل الطفل محاصرًا فى مكان ما من النفس، هاربًا من النزاع الذى دب بين أبى وأمى منذ البدء. بين أبى وأمى ضاع الحب قبل أن أعيشه، فضاعت منى السذاجة الأولى المرسومة بالألوان. ضاع منى الشجر، والورد، والفأر، والقط. أصبحت رجلاً جادًا، ودخلت السجن. أصبحت طبيبًا، ومناضلاً، وصاحب روايات، وكتب، تنتابنى لحظات الرضا، والغرور، وتلح علىَّ لحظات الشك لتقول بصوتها الهامس: " أنت لم تصنع فى حياتك شيئًا ".

قالت لى أمى أننى ولدت يوم الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣، فى ذلك الجزء الأخير من الليل الذى يقبضون فيه على أصحاب الفكر.. دقت الساعة دقات أربع. ماتت الدقة الأخيرة، وساد الصمت، وفى الصمت ارتفع صوت صراخ، صوت امرأة تلد تلاه صوت المطر والريح.

السرير عال، و له عواميد، وأمى تطل من بينها على الطبيب. عيناها زرقاوان، زرقة عميقة مثل بحيرات الشمال فى موسم الصيف. بينى وبين عينيها إعجاب، ومسافة لم أتخطها خلال السنين. لكنى الآن قريب منها. هى فى سن التسعين، وأنا تجاوزت الستين. وصلنا إلى سن الشيخوخة نحن الاثنان. أتأمل جسمها، وخطواتها تتعثر وهى تسير بتلك المشية المترنحة القصيرة. فى قلبى تختلط الأحاسيس، الحب، والضيق، وشعور بالذنب لأننى أهملتها سنين.

صرخت صرخة ثانية، وثالثة فقد انحشر رأسى فى حوضها. ظللت ساكنًا، مغلق العينين، لا أبذل جهدًا لأريحها. لم أسمع صرخاتها فى تلك الليلة. بعد ذلك رأيتها تتألم كثيرًا. كان يكفى أن أربت على كتفها ولكنى لم أفعل. شىء كالجدار أبقى العواطف فى الأعماق الدفينة، وبالتدريج نضب معينها. هكذا منذ الطفولة ضاع الدفء الحميم.

شعرت بشىء بارد الملمس يلتف حول جسمى، فانكمشت فى مكانى كالقنفذ. بعد قليل تردد صوت كالترباس يغلق وانتابنى إحساس بالقيود تلفنى، لكنى ظللت مستكينًا، لا أقاوم، فى حالة من الشلل الكامل. شعرت برأسى ينضغط بين ذراعين صلبتين، وأخذ جسمى يهبط من مكانه. بعد قليل سقط على جفونى نور باهت، لكنى لم أفتحها. كنت خائفًا، لا أريد أن أجازف بأى

حركة تأتى قبل أوانها. تردد صوت الترباس مرة ثانية، وزالت من حول رأسى قبضة الصلب. لمحت شيئًا كالنور الأصفر يتراقص. صعدت صرخة من أعماقى فقد أدركت أن الحياة بدأت، لكن بدلاً من أن أصرخ شهقت شهقة ملأت رئتى بهواء لم يكن نقيًا. كان محملاً بأنفاس الساهرين، بروائح الليزول، والدم، والعرق فى المفارش. كدت أختنق، فصرخت. فتحت إحدى النساء الواقفات إلى جوارى ضلفة صغيرة فى الشباك تسرب منها تيار من الهواء النقى، فسكت. انتزعتنى يد قوية من المكان الذى كنت أرقد فيه، ورفعتنى من قدمى. اندس إصبع بقطعة من الشاش ماسحًا على حلقى، وعلى فمى من الداخل، ثم وجدت نفسى غاطسًا فى حمام من الماء الدافئ. نظرت إلى أسفل، فلمحت شيئًا بارزًا يطفو على سطحه. لم أدرك أنه عضو مهم سيمنحنى امتيازات.

الزمن يحمل فى ثناياه كل المراحل. تتداخل فاقدة الترتيب أحيانًا ودون فواصل، فأعيش الأمس كأنه اليوم أو أنساه تمامًا. كان يروق لأمى أن تتحدث عما حدث لى أثناء الولادة، أن تتذكر المتاعب. وفى تلك الأمسية كنا جالسين على الشرفة. قالت " استخرجوك. بجفت من أحشائى. رأسك الكبير انحشر فى عظامى". أنصت إليها بأذن شاردة. أشجار الكافور العالية ترتعش أوراقها فى الضوء الوردى للشمس الغاربة، وتلقى بظلالها على جدران البيت. انتقلنا إليه سنة ١٩٣١ قرب نهاية الأزمة الكبرى. استأجره أبى بخمسة جنيهات شهريًا بعد أن باع الورثة البيت الكبير فى حى الزمالك بخمسة آلاف جنيه.

كان سنى إذ ذاك سبع سنين. فقد ولدت مع الاستقلال وعهد " الملك فؤاد "، مع الدستور وحكومة الوفد الأولى برئاسة " سعد زغلول " لكنى لم أكن أعلم شيئًا عن كل هذا.

لاحظت وأنا جالس على الشرفة أن أمى حزينة، لكنها عندما تبتسم تصبح كل ملامحها مضيئة. احتفظت بأفكارى دون أن أعبر عنها بالكلام. كان هذا شأننا دائمًا، لا نبوح بما يضطرب فى الأعماق. مددت ساقى فوق البلاط، وأخذت رشفة من الشاى. تأملت الحقول يحيط بها النيل من كل جانب، واللسان الأخضر يمتد داخل المياه أمام كوبرى " إمبابة " يمر عليه قطار الصعيد، فينثر دخانه، وعزبة الزمالك تنمو فيها بيوت من الطين كالفطر الداكن، ودار العمدة يحيطها حوش كبير مزدحم بالبط، والأوز، والماعز، والدجاج، وتتوسطه مضخة للمياه. ألمح النساء متجمعات فى ركن من أركانه يغسلن الملابس أو يبططن أقراص الروث، ويتركنها لتجف فى الشمس.

رنت من أمى إحدى ضحكاتها النادرة. رغم كل شىء ظل رنينها دافئًا، خاليًا من المرارة:

"ولدت برأس مدبب مثل أهرامات "الجيزة". ملامحك كانت منتفخة، وعينك اليمنى مختفية خلف ورم لونه أزرق داكن. ظننت أنك فاقد البصر فيها، فأصابتنى حالة من الفزع ولكن الممرضة طمأنتنى، وسرعان مازالت كل آثار الولادة لأجد نفسى أحتضن طفلاً وسيمًا، عيناه

سوداوان، وشعره غزير الخصلات، وناعم. عندما أدفعك أمامى فى العربة يوقفنى المارة السائرون فى الحديقة، ويصيحون بإعجاب "انظر كم هو جميل. أترى عينيه"؟.

تمر يدى على الجزء الأصلع من رأسى، وتنغرس أصابعى فى الحفرة الصغيرة التى تركها " الجفت ". تنجذب إليها بقوة لا إرادية. تبحث تضاريس الرأس. تستكشف ما طرأ عليه من تغيير. هذه الحفرة لا يعرف عن وجودها أحد سواى حتى نوال. حتى رجال المباحث، أو المخابرات، أو الجوازات والجنسية، لم يسجلوها كعلامة مميزة فى ملفى الخاص. ترى كم من الحفر مازالت مستترة لأننى لم أنزع عنها الغلالة؟

ولدت فى الظلام الذى يسبق الشفق. أشجار المدينة تتساقط أوراقها. ترقد على الشوارع، والميادين المبللة بالمطر. مساحات صفراء، وحمراء، وبنية اللون تمتد إلى الأفق، وفى الصباح بعد أن هدأ كل شىء، وسكن صفير الريح انصرف الطبيب حاملاً حقيبته، تاركًا وراءه رائحة التبغ و"ماء الكولونيا". عندما هبط على السلالم تعثرت خطواته فسمعت إحدى قدميه تصطدم بالخشب. بعد ذلك بقليل فتحت أبواب البيوت ثم أغلقت. سار الناس فى الشوارع وداسوا بأقدامهم فوق أوراق الشجر. لم أر جمال الخريف، ولا زحام الناس وهم يهرولون إلى العمل. لم أستنشق رائحة بقايا الخبز والسمك التى ألقوا بها إلى القطط. كنت نائمًا إلى جوار أمى فى السرير يلمع نحاسه بوميض حذر.

البيت الذى ولدت فيه لم يختلف فى شىء عن باقى بيوت الحى، تنتصب فى صف طويل مثل العلب تعلوها الأسطح المثلثة، وتغطيها طبقة من القرميد لونها أحمر تحت رماد السحب، مغسول فى سيول المطر، يشوبه عند الأركان سواد الدخان، والطحلب. البيوت لها نوافذ كالعيون المغمضة، اثنتان فى الدور الأرضى، ومثلهما فى الدور الأول، وواحدة فى منتصف المثلث العلوى أسفل السقف حيث تختبئ حجرة صغيرة يسميها الإنجليز "أتيك". نافذة صغيرة تبدو مثل العين المفردة فى رأس الحيوان القلقوفى الذى يحكى عنه فى الأساطير الإغريقية.

عندما تنبعث صورة هذا البيت خلف جفون السهر القلقة يهيأ إلىَّ أننى لن أخطئه إذا ما مررت أمامه رغم التغيرات التى حدثت له. فالقرميد الذى صنع منه السطح أصبح يشبه القشور الداكنة التى تغطى جسم السمك. أما الطوب الأحمر الذى بنى به البيت فقد أصبغ عليه الضباب، المشبع بالدخان وغازات الكبريت لونًا أصفر. أحجار المشاية تحطمت وتناثرت، وغطاها الطين، والحشيش لم يبق من سندسه شىء. باب الحديقة يئن من الصدأ عندما يدخل منه بائع اللبن ليضع الزجاجة على عتبة البيت، فأفتح عينى، وأسمع خطواته وهى تبتعد. الزهور فى أحواضها الصغيرة فقدت ألوانها، أو جفت، أو ماتت ما عدا بعض الزهور البيضاء تذكرنى بالجنازات، والأصوات الهامسة.

كانت الكآبة مسيطرة على حياة الأسرة التى ولدت فيها، كآبة الفقر تجسدت فى كتل الأثاث، فى الأسرة العالية، فى الخزانات المكتظة بالملابس، والمجلات القديمة والأحذية، والأدوات المكسورة، وقصاصات الورق، فى المطبخ المظلم تنتشر منه رائحة السمك، فى المقاعد المنخفضة تتهاوى أسلاكها تحت ثقل الجسم فمن يهبط فيها يصعب عليه أن يرتفع دون مساعدة. ربما لذلك ظل جدى جالسًا فى مقعده ثلاث سنوات قبل أن يموت. لم أره ولكن كلما التفت حولى كنت ألمح صورته تطل على، فقد وزعوا صوره على جدران البيت. كان يرتدى قبعة مستديرة يبرز من تحتها أنفه المدبب. مات قبل أن أولد، ولكنى كنت أشعر أنه يلاحقنى طوال اليوم. عندما أرقد أراه يحملق فى وجهى فأغلق عينى بسرعة وأتظاهر بالنوم.

القتامة أحاطت بخطواتى الأولى. فى ذهنى أرى النهار موصولاً بالليل، ومصابيح النور الكهربائى مضاءة دائمًا. على السلك الأبيض ذباب يغط فى النوم، ويستيقظ بين الحين والحين ليدور حوله. الناس فى هذا البيت يتحركون على أطراف الضوء، فيظهر منهم أنف، أو كتف، أو طرف أذن، أو قدم تهتز ساقها فوق الساق الأخرى، أو يد تمتد لترفع كوبًا ثم تنسحب كأنهم يحيون على هامش الدنيا. لا أعرف أين ينامون، وإلى أين يذهبون، ومتى يعودون. لا يصلنى شىء مما يقولونه. أجلس معهم فى حجرة الجلوس أو حول مائدة الطعام كأننى لست منهم. تربط بينهم علاقات أنا خارج عن نطاقها. الكلمات تروح وتجىء ولكنها لا تعنى بالنسبة إلى شيئًا، كأنهم يفتحون ويغلقون أفواههم دون أن يخرج منها صوت، ثم فجأة يختفون كأنهم انسحبوا إلى جحورهم.

جدتى (أم أمى) أنفها حاد مدبب، وشعرها يسقط حول وجهها فى جداول مرهقة، رمادية اللون، عينها اليمنى منسحبة فى قاع المحجر، مختفية خلف جفنيها الملتصقتين تطل منهما بعض الرموش. شفتاها رفيعتان، شاحبتان تضمهما كأنها تخشى أن يفلت من بينهما صوت. فى المرات القليلة التى تتحدث فيها إلى تصلنى الكلمات مكتومة كأنها تصعد من جوفها. تخلط الكلمات الإنجليزية بكلمات من لغة أخرى جاءت بها من شرق أوروبا. أحس أنها غريبة، منفية، منقولة من دنيا أخرى، كالمهاجرة تركت على محطة للسكة الحديد لتنتظر القطار الذى لا يجىء.

لم يقم بينى وبينها أى ود. ربما نفور الطفل من الشيخوخة، أو من العين الغائبة عن مكانها، أو من الرموش القليلة البارزة من لحم الجفن. كلانا يتفادى الآخر. لا نتلامس حتى باليد. تحتفظ بنفسها بعيدة منزوية فى ركن بحساسية الشخص الذى يشعر بإعراض الآخرين عنه. ظلت بالنسبة إلىَّ نوعًا من اللغز. أمى لم تحك عنها أبدًا وأنا صغير، ولا بعد أن كبرت، ودخلت الجامعة، ثم صرت طبيبًا. وعندما عدت بعد غيبة طويلة لم يأت ذكرها على لسانها.

غير أنى منذ شهور كنت أزور أمى فى البيت. ذهبت إليها أنا و"نوال". أثناء الحديث صمتت لحظة ثم قالت: "أفكر فى أمى وأبى هذه الأيام" فضحكنا. أحسسنا بشىء من الغرابة فى هذا

الكلام الذى يصدر عادة عن الأطفال، أو الشباب. أما هى فقد تجاوزت عقدها التاسع. فى البيت الذى تسكنه تلتها ثلاثة أجيال. شاركتنا الضحك بصوتها الرنان ثم صمتت والتفتت إلى كأنها تبحث عن سند لكلامها. من عينيها تطل الحكمة الحزينة للأيام. كلما اقتربت من الموت تاقت إلى الأبوين.

جدتى (أم أمى) لم تحتل حيزًا فى حياتى على عكس ما يحدث عادة عند الأطفال.. تركتها وأنا طفل، ولم أعد إليها بعد ذلك. لا أعرف متى ماتت، وكيف، ولا أذكر كيف جاءنى خبر وفاتها. أصبح أمرًا مفروغًا منه منذ زمن، بديهية من بديهيات الحياة لا تحتاج إلى تعليق أو كلام. ماتت فى

"لندن"، ودفنت هناك فى قبر لم أره أبدًا.

لكن على مدار الأيام تجمعت لدى معلومات متفرقة أخذت أربط بينها، مثال ذلك أن اسم أسرتها فى الأصل لم يكن إنجليزيًا، وإنما "ألمانيًا"، أو "بولنديًا" أو شيئًا من هذا القبيل، إنها هربت من بلادها وهى بنت ربما بسبب الاضطهاد، أو الفقر، أو ظروف أخرى مشابهة، إنها جاءت إلى لندن حيث عملت عند رجل كان صاحب حانوت لحياكة ملابس الرجال، وبعد مدة من الوقت عرض عليها الزواج وقبلته، فلم تكن تملك شيئًا فى الحياة، وأنه فى آخر أيامه أصيب بمرض فى القلب، ومات، ثم لحقت به بعد ست أو سبع سنوات.

لكن منذ ما يقرب من ثلاث سنوات سافرت إلى "لندن" حاملاً معى الترجمة الإنجليزية لرواية "الشبكة". خطر فى بالى أن أبحث عن بقايا أسرة والدتى. كنت أعرف أن أخاها الأصغر يدعى "جون تايلور"، فأثناء الحرب العالمية الثانية عمل صولاً فى الطيران، وأرسل إلى إحدى القواعد الحربية البريطانية فى مصر. زارنا عدة مرات لكن بعد سنة نقل إلى مكان آخر، ولم أره بعد ذلك.

بحثت عن اسمه فى دليل التليفونات، وعثرت عليه. هكذا فى إحدى الأمسيات وجدت نفسى جالسًا معه فى حديقة منزله أشرب الشاى، ونسترجع ما فات. رجل فى سن الخامسة والستين ملىء بالحيوية والشباب. لم تطل جلستنا فى هذا اليوم فقد كانت لدى ارتباطات. اتفقنا على لقاء آخر يحضر فيه أولاده، ولسبب ما تأجل الميعاد، وسافرت دون أن أراه مرة ثانية. بعد ذلك سمعت من أمى أنه أصيب بأزمة قلبية مفاجئة ومات.

أثناء الجلسة القصيرة التى جمعت بينى وبينه عرفت منه أن جدتى نشأت فى أسرة كبيرة العدد قليلة الموارد اسمها "شنيدر" وعاشت فى مدينة صغيرة على الحدود الألمانية البولندية. هذه الأسرة كانت تنتمى إلى الأقلية اليهودية فى ألمانيا وتعمل فى مهنة التطريز، والنسيج اليدوى، إنها لم تهرب وحدها، وإنما مع أخيها الأكبر وزوجته الشابة التى اقترن بها رغم اعتراض أبيه لأنها لم تكن من ديانته.

إذن لم تكن جدتى من أسرة فقيرة فحسب وإنما كانت فوق ذلك من أصل يهودى وكان أبى بالطبع يعرف كل ذلك. وأبى كان ابنًا من أبناء الإقطاع من أسرة مصرية لها ارتباطات بعدد كبير من الشخصيات البارزة فى ذلك الوقت، فلابد أنه أخفى عن أهله هذه الحقائق، وساعدته أمى بالصمت حتى تتفادى المشاكل. فى إحدى الجلسات قالت لى فجأة "تزوجت أباك حتى أهرب من الفقر"، وأضافت ضاحكة "كان وسيمًا وسامة الشيطان".

هل كانت الحقائق التى حدثنى عنها خالى "جون تايلور" غائبة عن ذهنى؟ ربما سمعتها من قبل عرضًا ثم نحيتها جانبًا، ودفنتها فى الأعماق. لم أكن حريصًا على إبرازها، وإنما على العكس كنت أحرص على نسيانها. فالفقر فى أسرتى كان عورة العورات لكن الأهم من ذلك أن جدتى كانت يهودية الأصل، وأنا أنتمى إلى طبقة ليس بينها وبين أمثالها أى ود. ترى فيهم فئة لا يؤمن جانبها. قد يتعاملون معها ولكن اضطرارًا وبطريقة يختفى فى ثناياها الازدراء، فكيف يمكن أن تقبل أسرتى فى صفوفها امرأة تجرى فى عروقها هذه الدماء؟.

فيما بعد اعتنقت الأفكار الاشتراكية، وأصبحت لا أفرق بين الناس على أساس الدين أو العرق أو الجنس. كان من المفروض ألا يضيرنى كون جدتى من الفقراء، أو من أصل يهودى، لكنى كنت متأثرًا بالبيئة، وبالأسرة التى نشأت فيها. ثم زاد على ذلك اعتبار مهم يتعلق بنشاطى السياسى، فليس من المفيد أن تتضح حقيقة أن جدتى (أم أمى) يهودية خصوصًا أن أحد الأسلحة التى استخدمت للهجوم على الاشتراكية فى مصر هو الزعم بأن الفكر الاشتراكى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالصهيونية. لذلك أصبحت أخجل من كشف هذه الحقيقة.

هكذا تصرفنا جميعًا كأن المرأة العجوز لم يكن لها وجود. دفناها وهى لا تزال حية، أنا، وأمى، وأبى، وربما آخرون. وعندما ماتت لم يكن موتها بالنسبة إلينا حدثًا يسأل عنه ولو من باب الفضول. لم يخطر على بالى عندما سافرت إلى "لندن" أن أسأل خالى "جون تايلور" عن قبرها لأزوره، ولو إرضاء لأمى. أحيانًا أتخيله وقد انزوى فى أحد المدافن اللندنية الضخمة مربعًا من الحجر كتب عليه اسمها، وتاريخ الميلاد، وتاريخ الوفاة.

لو كانت زنجية، أو حبشية، أو سليلة إحدى قبائل الرعاة، أو حتى غسالة، أو جارية لهان الأمر. ربما أبديت اعتزازى بها، وتاجرت بأصلها المتواضع. ففى هذا العصر من المفيد أن ينبع السياسى من صفوف الشعب، حتى وإن وقف ضد مصالحه فيما بعد. لذلك فرجال السياسة وعلى الأخص فى اليسار كثيرًا ما يبرزون انتماءهم للطبقات الكادحة، وكأن هذا فى ذاته يضفى عليهم شرعية لا تتمتع به الفئات الأخرى فى المجتمع.

كانت جدتى من أصل متواضع لكن ليس من النوع الذى ينفع فى السياسة. كانت بالنسبة للأسرة عورة ينبغى إخفاؤها. لا أحد تساءل عما بذلته فى حياتها من جهد حتى ترعى أسرة من ثلاثة أبناء، وأربع بنات، ولا أحد يعرف ما عانته فى حياتها. عاشت غريبة طوال حياتها

وكأنها رغم كل شىء تحن لما فات، ولا تستطيع أن تنساه. مات زوجها بعد الحرب تاركًا إياها لترعى الأطفال، وعندما كبروا وتفرقوا فى أعمالهم لحقت به كأنها أدت المهمة ومن حقها آن ترتاح.

شق أبناؤها وبناتها طريقهم بنجاح. أقاموا ورشة لحياكة ملابس الرجال، وتوسعوا فيها إلى أن تحولت إلى مصنع يعتمد على الآلات. ثم تفرعوا فى عدة اتجاهات مستفيدين من الزواج لتنويع النشاط والدخول فى صناعة القبعات، والأحذية، وملابس النساء، وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية صاروا من أكبر الموردين للجيش البريطانى يملكون عشرات الملايين من الجنيهات، يسافرون إلى مختلف عواصم العالم، ويقيمون فى أجنحة الفنادق الفاخرة، ويعقدون الصفقات الضخمة عن طريق المحادثات التليفونية والبرقيات.

قابلت إحدى خالاتى سنة ١٩٥١ فى "باريس". كانت مقيمة هى وزوجها فى فندق "جورج سنك" (أى جورج الخامس). وكنت إذ ذاك لاجئًا فى "باريس"، هاربًا من سجن الملك فاروق، والإقطاع. كانت تتحدث إلى من طرف أنفها، وتشير بإصبعها المتعالى هنا وهناك، ولكن نطقها ظل كما هو، نطق عامة الشعب، لهجة الإنجليز الذين لم يصبهم قسط من التعليم له وزن. كانت تعلم أننى هارب من السجن، "شيوعى" كما وصفتنى فى بداية اللقاء. نطقت الكلمة بحركة من الفم فيها اعوجاج، ثم أضافت أنها مشغولة للغاية وأنها لا تهتم بالسياسة إطلاقًا. فسألتها إن كانت تعطى صوتها فى الانتخابات، ولمن. بدا عليها الضيق من سؤالى، والرغبة فى أن ينتهى اللقاء بأسرع وقت. حاول زوجها أن يصلح الجو. أعطانى بطاقته، وأبدى استعداده لمساعدتى إذا لزم الأمر وطلب منى أن أتصل بهما مرة أخرى لنتناول طعام الغداء فى إحدى الضواحى، فألقت ناحيته بنظرة مانعة صارمة، لم ينطق بعدها بحرف. انصرفت حاملاً معى صورة ملامحها الباردة، والمساحيق، والفرو. عندما خرجت إلى الشارع كان المطر ينهمر من السماء. جلست فى أحد المقاهى أحتسى القهوة الساخنة، وأطل من الزجاج على المدينة المغسولة فى المياه، وفجأة توقف المطر، وبزغت الشمس، فلمعت فى النوافذ، وعلى أسفلت الشوارع، وفوق أوراق الشجر الخضراء. سرت على الرصيف العريض أملأ رئتى بالهواء، سعيدًا بالسماء الصافية، والأشجار وحركة قدمى فوق الأرض. كان يوم عيد ميلادى. عمرى ثمان وعشرون سنة. لا يوجد فى جيبى سوى عشر فرنكات، وإيصال الإيجار المدفوع مقابل حجرة صغيرة تطل على نهر "السين"، واشتراك فى مترو الأنفاق، وعلبة سجائر "جولواز" نصفها فارغ، لكن أمامى كانت تمتد المدينة إلى آخر مداها لامعة تحت الشمس.

لم تر جدتى شيئًا من ذلك، ولم تسمع عنه. كانت جدتى الأولى فى الحياة، وللجدة فى حياة الأطفال مكانة خاصة. أما هى فلم تبق منها إلا صورة باهتة، بائسة لامرأة قضت عمرها فى هذه الدنيا، ثم ماتت دون أن تعرف لماذا ولدت، ولماذا عاشت، ولماذا طواها النسيان مع ملايين الناس قبل أن تطوى معهم تحت التراب.

مع أمى أيضًا ظل البعد قائمًا ولكنه بعد من نوع آخر. فأنا قريب منها قرب التلامس. فى الليل أنام إلى جوارها. وفى النهار ترعانى. مع ذلك يوجد بيننا شىء كالجدار يخترقه الحب أحيانًا، وأحيانًا يتوارى. أنا لا أستطيع أن أسترجع رائحة جسمها، ولا ملمس حضنها، وكأنها لم تضمنى بين ذراعيها، ولا أستطيع أن أقول عن نفسى إننى كنت أشعر بالراحة عندما أسند رأسى على صدرها، أو باللذة عندما أرضع من ثديها. لم أتق إلى حضنها أبدًا، ولم تنشأ بيننا تلك الألفة الحسية التى تنشأ عادة بين الابن والأم.

لم يكن السبب الوحيد لهذا البرود العاطفى فى علاقتنا تلك التربية الإنجليزية المتأصلة فيها، والتى تعتبر إظهار العواطف مسألة ممجوجة. كانت هناك أسباب أخرى، فالنزاع المستمر، بينها وبين أبى كانت سمة من سمات حياتنا الأسرية. تورطت فى زواج كان مفعمًا بالمشاكل. تركت وطنها وسافرت آلاف الأميال لتحيا فى بيئة مختلفة تمامًا عن تلك التى ألفتها فى بلادها. انفصلت عن أمها وإخوتها، وأخواتها، والأصدقاء، وعن المحيط الذى عاشت وتربت فيه لتجد نفسها فى جو غريب، معاد للإنجليز، فى أسرة عاداتها، وتقاليدها، وقيمها فى الحياة مختلفة تمامًا عما تؤمن به، وتمارسه فأحست بالغربة القاسية. الواقع الذى أصبحت تعيش فيه لم تكن له أدنى علاقة بالأحلام التى تخيلتها فى بداية زواجها، فقد انشغل أبى عنها بموائد الميسر، والسهر مع الخليلات، والخلان..

هكذا تحولت الأحلام إلى كوابيس، وامتلأ قلبها بمشاعر الظلم. لم يكن من السهل أن تخترق الحصار. حرقت مراكبها، فأصبحت العودة مستعصية. لم تكن مؤهلة للقيام بعمل يقيم أودها. وجدت نفسها غارقة فى مأساة. كانت ترى أن المذنب الأساسى هو ذلك الرجل الذى أغواها بالرحيل، ثم تخلى عنها وهى مقصوصة الجناح لا تملك إلا الخضوع لوضعها الشاذ.

المسافة بينى وبينها قامت منذ البداية. غالب الظن أنها كانت تحمل إزائى عاطفة مزدوجة، تقربها إلى مشاعر الحب، وتبعدها عنى كراهية مستترة فى الأعماق، فأنا ابن ذلك الأب الذى أخذ يختبر جاذبيته مع النساء الأخريات بينما ما زالت تحملنى فى بطنها وتنتظر آلام الولادة.

كنت أشعر نحوها بعواطف فيها الازدواج نفسه. كانت امرأة جذابة. أنفها مستقيم، وخطوط وجهها أخاذة. جمالها من النوع الجاد، ولما تأملت صورتها فيما بعد أدركت أن نظرتها فيها كبرياء.

وضعت صورتها فى برواز، وحملتها معى إلى بيت أقمته فى قرية "القضابة"[1]، ولأننى لا أهوى تعليق الصور العائلية على الجدران، بحثت عن مكان لها فى أحد الأدراج. بين الحين والحين أقع عليها صدفة، فأخرجها من مكانها، ليعود إلى صوتها وهى تنادينى فى الصباح. لا

---

(١) اسم قريتى فى مركز بسيون ـ محافظة الغربية.

مع أمى أيضًا ظل البعد قائمًا ولكنه بعد من نوع آخر. فأنا قريب منها قرب التلامس. فى الليل أنام إلى جوارها. وفى النهار ترعانى. مع ذلك يوجد بيننا شىء كالجدار يخترقه الحب أحيانًا، وأحيانًا يتوارى. أنا لا أستطيع أن أسترجع رائحة جسمها، ولا ملمس حضنها، وكأنها لم تضمنى بين ذراعيها، ولا أستطيع أن أقول عن نفسى إننى كنت أشعر بالراحة عندما أسند رأسى على صدرها، أو باللذة عندما أرضع من ثديها. لم أتق إلى حضنها أبدًا، ولم تنشأ بيننا تلك الألفة الحسية التى تنشأ عادة بين الابن والأم.

لم يكن السبب الوحيد لهذا البرود العاطفى فى علاقتنا تلك التربية الإنجليزية المتأصلة فيها، والتى تعتبر إظهار العواطف مسألة ممجوجة. كانت هناك أسباب أخرى، فالنزاع المستمر، بينها وبين أبى كانت سمة من سمات حياتنا الأسرية. تورطت فى زواج كان مفعمًا بالمشاكل. تركت وطنها وسافرت آلاف الأميال لتحيا فى بيئة مختلفة تمامًا عن تلك التى ألفتها فى بلادها. انفصلت عن أمها وإخوتها، وأخواتها، والأصدقاء، وعن المحيط الذى عاشت وتربت فيه لتجد نفسها فى جو غريب، معاد للإنجليز، فى أسرة عاداتها، وتقاليدها، وقيمها فى الحياة مختلفة تمامًا عما تؤمن به، وتمارسه فأحست بالغربة القاسية. الواقع الذى أصبحت تعيش فيه لم تكن له أدنى علاقة بالأحلام التى تخيلتها فى بداية زواجها، فقد انشغل أبى عنها بموائد الميسر، والسهر مع الخليلات، والخلان..

هكذا تحولت الأحلام إلى كوابيس، وامتلأ قلبها بمشاعر الظلم. لم يكن من السهل أن تخترق الحصار. حرقت مراكبها، فأصبحت العودة مستعصية. لم تكن مؤهلة للقيام بعمل يقيم أودها. وجدت نفسها غارقة فى مأساة. كانت ترى أن المذنب الأساسى هو ذلك الرجل الذى أغواها بالرحيل، ثم تخلى عنها وهى مقصوصة الجناح لا تملك إلا الخضوع لوضعها الشاذ.

المسافة بينى وبينها قامت منذ البداية. غالب الظن أنها كانت تحمل إزائى عاطفة مزدوجة، تقربها إلى مشاعر الحب، وتبعدها عنى كراهية مستترة فى الأعماق، فأنا ابن ذلك الأب الذى أخذ يختبر جاذبيته مع النساء الأخريات بينما ما زالت تحملنى فى بطنها وتنتظر آلام الولادة.

كنت أشعر نحوها بعواطف فيها الازدواج نفسه. كانت امرأة جذابة. أنفها مستقيم، وخطوط وجهها أخاذة. جمالها من النوع الجاد، ولما تأملت صورتها فيما بعد أدركت أن نظرتها فيها كبرياء.

وضعت صورتها فى برواز، وحملتها معى إلى بيت أقمته فى قرية "القضابة"[1]، ولأننى لا أهوى تعليق الصور العائلية على الجدران، بحثت عن مكان لها فى أحد الأدراج. بين الحين والحين أقع عليها صدفة، فأخرجها من مكانها، ليعود إلى صوتها وهى تنادينى فى الصباح. لا

(١) اسم قريتى فى مركز بسيون ـ محافظة الغربية.

أستطيع أن أسترجع رنينه الخاص فهو يصل إلى مخترقًا طبقات اللحاف. أرفع عن وجهى الغطاء فأراها واقفة تطل على فى صمت. فى شعرها شريط من الشيب يبرق فى الضوء، وفى عينيها تلك النظرة من اللوم والحزن التى لا أنساها.

تجلس أمامى حتى أبتلع قطع السمك المقلية فى الزيد تلمع بلونها البنى الداكن فى ضوء الكهرباء. عندما أعرض عنها أرى الوهج الغاضب يصعد إلى خدودها فأبتلع القطع الباقية بحماس. قبل أن أخرج إلى الحديقة تطمئن على تسريحة شعرى، وهندامى، ولمعان الحذاء. فى المساء تصعد معى على درجات السلم. أسمع أنين الخشب تحت أقدامنا، كالصوت الشاكى من طول العذاب. لا مفر من الحمام الساخن، وتنظيف أذنى بقطعة من القطن ملفوفة حول عود الثقاب، وإزالة ما تراكم تحت أظافرى من سواد. بعد ذلك أرتدى منامة الصوف أو القطن حسب الموسم. فى ليالى الصيف ألمح الشمس عالية فى السماء قبل أن تسحب الستارة لأصبح كالطير المحبوس فى قفص. أسمع صريرها الحاد وهى تتحرك فوق العامود. ألقى بنظرة أخيرة يائسة على جمال الكون. أتوسل إليها حتى تترك الستارة مفتوحة. تقول "لن يأتيك النوم". كلمات ثلاث تنطق بها كالحكم. أقرأ النقاء الصارم فى عينيها، فأرفع الغطاء فوق رأسى حتى لا أرى القرص الذهبى للشمس معلقا فى السماء، وحتى لا أسمع صوت العصافير فى الأشجار، أو وقع الكرة المطاطية تصطدم مرة بالحائط، ومرة بالرصيف يتبعه صراخ الأطفال.

هكذا أخذت تغرس فى أول دروس الخضوع للنظام. من بعض النواحى كانت تعدنى إعدادًا جيدًا للطريق الوعر الذى سرت عليه. لم أدرك ذلك إلا بعد أن مرت السنون، ليتولى هذه المهمة المشرفون على مراحل التعليم، والقائمون على مؤسسات الفكر، والدين، وضباط الأمن والسجون، والمسئولون فى حركة اليسار.

هكذا ظلت الصورة الغالبة للبيت الذى ولدت فيه، والذى قضيت فيه السنوات الأولى من حياتى محاطة بظلال كئيبة، ظلال الأيام المتشابهة الرتيبة.. صرامة رمادية متكررة خالية من البهجة والدفء، فالناس الذين يسكنون هذا البيت تكاد تنعدم علاقتى بهم. أراهم يتحركون على أطراف الوعى فلا يبقى منهم كيان مستقر. هذا ما عدا الفتاة المسماة "روزى" (اختصار "روزاليند") خالتى، وأخت أمى الصغيرة، قطعة من الشمس انفصلت عنه وسقطت بيننا فى البيت.

"روز" لم تنمح من ذهنى. ظلت نابضة فيه. أستطيع أن أبعث ملامحها أمامى بتفاصيلها. شعر طويل، وغزير لونه كثمار الكستناء، وبشرة بيضاء، ناعمة أشعر بنعومتها عندما تحتوينى فى حضنها. أستسلم للذة القرب منها فهى تدخلنى فى عالمها الحسى، يزيد من إحساسى به حرمانى من دفء الأحاسيس. كنت كالزورق الصغير التائه فى بحر رمادى، وكانت هى مثل سفينة الأحلام فى ثوبها الوردى. تشتعل أعماقها بقوة تلقائية تفيض حولها. تجلس فى المقعد

المنخفض وتدعونى إليها بعينيها. لم أر بياضًا كبياض عينيها فيه زرقة صافية، ولم أر سوادًا كسواد مقلتيها فيه كثافة لامعة تسلطها على. ربما الخيال أضفى ما أراه عليهما، أو اختلطت عيناها مع عيون أخرى جذبتنى إليها، فالحياة تدور فى دوائر حلزونية. كل شىء فيها يرتبط بغيره. ذكراها تعيد إلى طفولتى الحقيقية. لحظات السعادة فيها، ولحظات المعرفة. تعيد إلى إنسانة أحببتها، فتاة فى عينيها دعوة لاكتشافها. عندما أتكئ على ساقها، وأنظر إليها ألمح شيئًا فى عنقها، نقطة وحيدة ضائعة، حسنة تشع جاذبية لأنها وحدها، فريدة من نوعها، سمراء، نابضة.

هذه الفتاة تهبنى الدفء الذى كنت أبحث عنه، وترضى عندى احتياجى للعاطفة، للاقتراب من جسمها. فبينى وبين أمى ظلت الهوة قائمة ربما لأننى لم أرضع من لبن ثديها. جف وأنا أبحث عنه فى صدرها. لكن الأهم من ذلك إحساسى ببعدها. لا تكاد تلف ذراعيها حولى حتى تبعدنى بيديها. شىء فيها ينفر من التصاقى بها. أما أنا فلم أحب الأشياء التى تتعلق بجسمها. ما عدا العينين، وملامح وجهها، وكلماتها فى السنين الأخيرة من عمرها. أحيانًا يخطر على بالى إنها لم تحب أبى حتى فى بداية حبهما. انجذبت إلى وسامة تقاطيعه، إلى لون عينيه، وجلده، إلى المال، وأسطورة الأسرة التى ينتمى إليها. لم يكن بينهما حنان المعرفة، وكنت أنا نتاج هذه العلاقة القلقة العارضة، رمز العبودية، والأحلام الضائعة.

كانت "روزى" مختلفة عن غيرها. مثلى متعطشة للعواطف، واللمسات الحسية التى حرمت منها فى هذا البيت. فهى ضائعة وسط العدد الكبير، ومشاكل المعيشة، والضيق. الجميع منهمكون فى البحث عن لقمة العيش. أما جدتى فهى مجرد امرأة عجوز تقضى النهار فى ركنها، وتحتاج إلى من ينتشلها من ذكرياتها، من حياة انقضت دون أن تجنى ثمارها.

أنا و"روز" نحيا فى صحراء مجدبة ونبحث عن المياه الجوفية الدافئة. تفصل بيننا فجوة عمرية طولها أحد عشر عامًا، ويجمع بيننا البحث عن الينابيع المتدفقة، عن وسيلة للتغلب على القتامة التى يحياها أهل البيت. يستيقظون فى الصباح. يضعون رءوسهم تحت الصنابير تسيل منها مياه باردة كالثلج أسمع وشوشتها فى المواسير. يتناولون إفطارًا من الرنجة، أو البيض والشاى باللبن، ثم يهرولون من باب البيت متجهين إلى مكان ما. عند آخر النهار يعودون بعد أن تغرب الشمس، ويسود الظلام. يخلعون قبعاتهم، وستراتهم، وأحذيتهم، وأربطة أعناقهم، ويجلسون على المقاعد أمام المدفأة، أو حول مائدة الطعام. فى أجسامهم رائحة العرق والدخان، وبعد قليل يدعكون عيونهم بأيديهم ويتثاءبون ثم يقومون إلى الفراش مغلقين أبوابهم.

جسدت "روزى" الأشياء التى لم أجدها عندهم. نقضى الساعات الطويلة سويًا فى ركن من أركان البيت، أو فى الحديقة الخلفية، أو فى أى مكان هادئ نهتدى إليه ليدور بيننا حديث طويل. أقنعتنى أننى أستطيع أن أخرج وحدى دون رقيب رغم النواهى، والمحاذير. شجعتنى على

اختراق الحدود الصارمة. أنتظرها على الرصيف أمام الباب الحديدى للحديقة ساعة عودتها من المدرسة. أركز عينى على الطريق حتى تلتقطانها منذ اللحظة التى تظهر فيها. تتبعانها نقطة صغيرة تنمو بالتدريج. أتخيلها قبل أن تصبح شيئًا مرئيًا عند المنحنى. أراها عشرات المرات آتية بخطواتها الواثبة، حاملة الحقيبة فى إحدى يديها. أعرف أن فى الحقيبة هدية تحملها إلى، قطع الحلوى الصغيرة المصنوعة من السكر، و"الجيلاتين" فى شكل عرائس، أو دببة أو أسماك أو عصافير أو أفيال لها خراطيم، أو قلم ملون عند آخره قطعة من المطاط المزيل، أو صورة للأسد، واللبؤة وأشبالهما فى غابة استوائية. ألمحها نقطة متحركة ملونة على سطح الجليد، المريلة الوردية، والشعر يتماوج كالشعلة فى الريح. عندما تقترب يصلنى بريق عينيها فانطلق نحوها، وأعود ممسكًا بيدها كأننى عثرت على شىء ثمين.

كان عمرى إذ ذاك أربع سنين. أرتدى سراويل من القطيفة السوداء وحذاءً مغلقًا بزرار من الصدف. شعرى طويل نما حتى وصل أسفل الأذنين، وفى عينى شىء كالتساؤل. هكذا أبدو فى الصور القديمة التى جمعها ابنى، ووضعها فى الدرج أسفل سريره.

فى يوم من الأيام قررت أمى أن تذهب فى زيارة إلى إحدى صديقاتها. قالت لى قبل أن تخرج أنها ربما تأخرت قليلاً، فهى تريد أن تبتاع بعض حاجاتها، وطلبت منى ألا أبتعد عن البيت، فأدركت أنه أمامى فسحة من الوقت للتجول.

انتظرت حتى تأكدت أنها لن ترانى إذا ما تلفتت، ثم انطلقت فى الشارع الطويل. فوق رأسى تتعانق الأشجار العالية، فكأننى أتقدم فى نفق من صنع الطبيعة. جذوع الشجر كالعواميد السود، تنقسم إلى فروع ثم إلى شعيرات رفيعة تربط جدران النفق. أوراق الشجر الخضراء تتخللها فجوات تطل منها زرقة السماء أو أشعات للشمس لونها عسلى. كل شىء من حولى ساكن، يكاد لا يتحرك، وإذا تحرك يصدر عنه همس كصوت التنفس. أتتبع العصافير، رءوسها بنية اللون، وأعناقها زرقاء. لا أشعر بقدمى، أو بجسمى وأنا أسير. تتوالى إلى جوارى أسوار البيوت تتسلقها الزهور البيضاء، وبالبنفسجية، ويتسلل منها عطر قوى. يتراءى أمامى عند نهاية النفق الذى صنعته الأشجار بأغصانها المتشابكة فجوة مفتوحة يضيئها نور ذهبى، فأجد نفسى مدفوعًا إلى السير نحوه. عندما وصلت إليه وجدت ميدانًا صغيرًا، وجاءتنى أصوات تغنى، جذبنى صفاؤها، والسعادة التى تتجلى فى رنينها، كأنها تغنى للسماء، والحياة، والأشجار العالية، للعصافير تضرب بأجنحتها فى الريح فأخذت خطواتى تسرع فوق الطريق.

بعد قليل وجدت نفسى بالقرب من مبنى توحى أحجاره الحمراء، الداكنة بالعراقة. فى واجهته نافذة كبيرة من الزجاج الملون. السطح المثلث يحمل عند قمته صليبًا مغطى بقشرة ذهبية ترفرف حوله أسراب من الحمام ترتفع وتنخفض فى طيرانها بدفعات من أجنحتها، تسير مع حركة الأصوات الصاعدة والهابطة على السلم الموسيقى. الباب الكبير يفغر فاهه

كاشفًا عن حلقه. أرى ضلفتيه المصنوعتين من الخشب يتدلى من أحدهما يد الترباس الحديدى، ومن الأخرى سلسلة.

اقتربت من الباب بخطوات حذرة خوفًا من أن يبتلعنى فى جوفه. فى الداخل جموع متزاحمة ملأوا الصالة الضخمة والدهاليز، وارتكنوا بظهورهم على العواميد، أو جلسوا على الدكك الخشبية. وفى اللحظة التى توقفت فيها لأشاهد ما يدور فوجئت بالجالسين يقفون، بالأناشيد تنتهى، وبالأصوات تتلاشى، بالجموع تتدفق من الباب متجهة إلى الحوش الخارجى، فأطلقت ساقى للريح. اقترب منى الجمع فلاحظت أن بعض الرجال يرتدون سترات طويلة، داكنة اللون، شقت ذيولها من الخلف، وقبعات عالية، لكن أغلب الرجال كانوا يرتدون الملابس العادية. أما النساء فكانت أثوابهن زاهية. لفتت نظرى واحدة منهن كانت تسير وسط جموع الناس، ومن خلفها مجموعة من الغلمان، والبنات الصغار أمسكن بذيل ثوبها الأبيض الطويل. ارتفعت أصداء موسيقية من داخل المبنى، فأخذت تتقدم على وقعها بخطوات بطيئة. فى يدها كانت تمسك بباقة من الزهور البنفسجية، وبيدها الأخرى تتأبط ذراع أحد الرجال من ذوى القبعات العالية، والسترات الطويلة. كان يضع زهرة بيضاء فى عروة السترة، هبطت عليها نحلة فأخذ ينحيها بحركة مذعورة من يده. رنت ضحكات المرأة الشابة عالية، وساد الهرج فى موكب الأطفال فأفلت ذيل الفستان من أيديهم. ألقت إليه الشابة السائرة إلى جواره بنظرة فاحصة كأنها تتساءل عن شىء طرأ على ذهنها ثم أفاقت للناس السائرين حولها فابتسمت فى شرود. عندما اقتربت من الباب الخارجى ارتفع صوت موسيقى الأورغ، كأنه يودعها وصعدت أنغامها حتى القبة العالية، ثم ارتدت عنها بصفير كالريح يمر فى عشرات الأنابيب.

التقت نظراتى بنظرة الشابة التى أصبحت على مقربة منى. ترددت لحظة وهى تسير ثم مالت ناحيتى وانحنت على. أحسست بشفتيها الدافئتين، وبنظرة عينيها تصب فى عينى. أمسكت بيدى وجعلتنى أسير إلى جوارها خارج باب الحوش إلى الرصيف. همس فى أذنها الرجل ذو الشارب الكثيف فأطلقت يدى من يدها. تراجعت خطوة ونزعت زهرة بنفسجية من الباقة التى كانت ممسكة بها، وأدخلتها بيد ترتعش قليلاً بين فتحات قميصى. وبعدها أمطرت السماء حبات بيض سقطت على الرءوس والأكتاف، وغطتها كالبرد فى الصقيع.

فى المساء قصصت على "روزى" الأحداث التى انحفرت فى ذهنى. أوضحت لى أن المبنى الكبير "هو الكنيسة" فلما سألتها عن "الرب" قالت "إنه كائن يسكن فى السماوات ويشرف على إدارة شئون الدنيا من عليائه، مثل الأب الذى يدير أمور البيت". وحيث إن أبى كان دائم الغياب لم أفهم هذه المسألة جيدًا، ولكننى أومأت برأسى موافقًا وقررت أن أفكر فيها. أضافت أن هذا الكائن ليس له جسم، ولا وجه، ولا يستطيع أحد أن يراه، وإن كان يمكننا أن نركع وأن نصلى له حتى يرضى عنا، ويحمينا، وأثناء الصلاة نستطيع أن نطلب منه ما نريد، فيحقق مطلبنا، أو

يقرر ألا يستجيب. ثم قالت إن بعض الناس يسمعون صوتًا هامسًا فى ظلام الليل، أو عندما يسيرون وحدهم فى الأماكن الخلوية، صوتًا ينبئهم بحادث سيقع لهم، أو ينهاهم عن شىء "أما أنت فلا زلت صغيرًا، وبريئًا، لا تقترف الآثام مثل الناس الكبار. لذلك فهو منصرف عنك إلى الذين يستحقون العقاب على ذنوبهم".

بعد أن فكرت في كلامها صرت أشعر بعدم ارتياح، كأن هناك قوة خفية تتربص بى. ولما صرحت لها بمخاوفى حاولت أن تلهينى بأشياء أخرى. قالت إن الرب خلق الكون فى ستة أيام ثم استراح، فسألتها هل الرب يتعب مثل الإنسان، فيحتاج إلى إجازة. ربتت على رأسى ووعدتنى أنْ تفكر فى الإجابة، فلم يخطر على بالها السؤال من قبل. حضنتنى، وقبلتنى فشعرت بلذة طاغية وهى تضمنى إلى صدرها لا يفصل بينه وبين خدى سوى الصوف الناعم. استطردت فى الأسئلة آملاً أن تحتضننى كلما تفتق ذهنى عن سؤال جديد. سألتها كيف خلق الإنسان. أجابت بصوت هامس "عجن الماء والطين، ونفخ فى العجين، فكان الإنسان "آدم" فى الأول ثم "حواء". أتت من ضلعه بقدرة الإله. ثم خلق معهما كل الكائنات الحية من النملة إلى الفيل، ويسر لهم سبل الحياة".

أستمع إليها بإنصات "وهل أنا مثل "آدم" ينقصنى ضلع فى إحدى الناحيتين؟" تضحك، وتشير لأخلع القميص وأمد جسمى فوق السرير. أصابعها تنتقل بخفة من ضلع إلى ضلع. تقطب جبينها وتقول ضاحكة. "صنع "حواء" من ضلع "آدم"، وترك من جاءوا بعده دون أن يقتطع منهم شيئًا". تمد يدها إلى عنقها وتشرع فى فك أزرار ردائها الصوفى. أفاجأ بصدرها العارى ينكشف أمام عينى، بثديها النافر، والحلمة الوردية. قلبى يدق بشعور غريب. تمسك بيدى وتقول "عد ضلوعى دون أن تضغط عليها" أحس بنعومة جسمها وأنا أعد "واحد، اثنان، ثلاثة" وعند الرابع تصطدم يدى بنهدها فتتقلب على جنبها وتجعلنى أبدأ من جديد.

هكذا اكتشفت أن ضلوعى مثل ضلوعها عددها اثنا عشر بالتحديد. فانغرست أولى بذور الشك فى عقلى الصغير. وعندما كبرت قرأت فى التوراة أن المرأة هى التى أثارت إحدى أهم الأسئلة فى التاريخ. قالت "لآدم" "ولماذا لا تأكل من شجرة المعرفة؟". كما عرفت أن آلهة المعرفة عند قدماء المصريين كانت امرأة تدعى "إيزيس"، وارتفعت بفكرها، وشجاعتها، وخلقها فوق مستوى الآلهة الآخرين.

بعد أن دار بينى وبين "روزى" ذلك الحديث عن الرب صرت أحوم حول الكنيسة كلما استطعت. كنت أبحث عن خالق الكون لعلى أصادفه. فى مرة من المرات فوجئت به يخرج من باب الكنيسة. ظننت أنه ضاق من حبسته خلف الجدران وأراد أن يستنشق الهواء الطلق. أخفيت نفسى وراء صف من الشجيرات، وأخذت أتطلع إليه. كان يرتدى ثوبًا أسود يصل إلى قدميه، وطاقية تبرز من تحتها شعيرات قليلة. حول خصره - ام عريض تدلت منه بعض

المفاتيح. سار مباشرة نحو المكان الذى كنت أختبئ فيه. كانت عيناه تطلان أسفل حاجبيه بنظرة شيطانية خضراء، فأطلقت ساقى للريح، وقبل أن يستطيع اللحاق بى كنت قد خرجت من الباب الحديدى، وأخذت أعدو بأقصى سرعة فوق الرصيف حتى وصلت إلى البيت. دخلت على "روزى" لاهثًا وهى تستذكر دروسها. نظرت إلى بشىء من الريبة. أجلستنى إلى جوارها، وبعد أن هدأت أنفاسى سألتها عن الرجل الغريب الذى رأيته يخرج من باب الكنيسة ويتجه دون تردد إلى المكان الذى كنت مستترًا فيه. قالت: "ربما هو الشيطان يهرب من دعوات الناس المجتمعين للصلاة فى الكنيسة" ولكن عندما وصفته لها بالتفصيل تملكها الضحك، وقالت: "إنه القسيس".

ظل الشيطان يتراءى لى مدة طويلة فى شكل هذا الرجل ذى العينين الخضراوين الشرستين، والملامح القاسية، يرتدى ثوبًا أسود اللون، ويحمل فى يده سبحة طويلة. تذكرت أنه كان يعلق فوق صدره صليبًا فضيًا وأن الشعر كان ينبت من فتحات أنفه وأذنيه.

عدت أقترب من الكنيسة بخطوات حذرة بعد أن استعدت جسارتى الأولى. فى أحد الأيام لمحت أطفال الكورس يقفون بالقرب من أحواض الورد. تطلعت إلى عيونهم الصافية، ووددت أن أنضم إليهم لأشاركهم أغانيهم، وأرتدى الملابس الطويلة البيضاء التى يتشحون بها. هكذا أصبحت الكنيسة مكانًا يثير عندى الطمأنينة. لكن ظل الخوف عندى مرتبطًا بالقسيس أو بذلك الرب الذى تأتى سيرته أحيانًا، والذى قالت لى " روزى " إنه يراقب الناس من طرف خفى. وحيث إننى تصورت أن الرب رجل عجوز مثل القسيس كان الخوف مرتبطًا عندى بكبار السن.

كانت الطمأنينة تتسلل إلى من الأطفال الذين فكرت أن أشاركهم أغانيهم، من الجلسات الطويلة مع "روزى" والأحاديث الهامسة التى تدور بيننا، من صوت الأشجار الظليلة فى الحوش الخلفى للكنيسة، ورنين الأجراس يصل إلى كل يوم أحد وأنا راقد فى سريرى، من رفرفة الحمام حول الصليب، وهديله..

كنت أتسلل إلى الحديقة التى تحيط بالمبنى الكبير ذى النوافذ الملونة تبدو كعيون تنين أسطورى فى القصص القديمة. تنتابنى لحظة من الخوف سرعان ما تتبدد عندما أستغرق فى أصوات الطبيعة، أو فى اللعب بالطين، أصنع منه عجينًا، وأنفخ فيه بصبر لعله يتحول إلى شىء حى بين يدى. فمنذ هذا السن المبكر استهوتنى قصة الخلق. سألت "روزى" كيف ولدت، فاحمر وجهها قليلاً ثم قالت "من بطن أمك". فبدا لى الأمر عجيبًا، وأخذت ألح عليها حتى أعرف كيف دخلت فيه، وعندما ضيقت عليها الخناق، زاد ارتباكها ونهرتنى برفق: "لا تلح على بالأسئلة، ستعرف كل هذا فيما بعد.. إنه الرب يصنع أشياء كثيرة". فظللت لفترة من الزمن أعتقد أن الرب هو الذى أدخلنى فى بطن أمى، وأنا صغير. ثم أصبحت المشكلة بالنسبة إلى أن

أتبين كيف خرجت من بطنها، وذات مساء كنت معها فى غرفتها فسألتها، وفى هذه المرة بدا عليها الضيق. ترددت كأنها تفكر فى الأمر. ظللت واقفًا أمامها شاخصًا إليها بعينى، وأخيرًا قالت فى صوت خفيض "توجد فتحة صغيرة عند أسفل البطن تتسع أثناء الولادة حتى تفسح الطريق لنزول الطفل". فسألتها إن كانت لديها فتحة مثل أمى، فأجابت بسرعة "نعم كل البنات، لديهن هذه الفتحة التى يلدن منها أطفالهن بعد الزواج". فطلبت منها أن ترينى فتحتها، لكنى فوجئت بها تصفعنى على وجهى، فبكيت بكاءً مرًا، ومنذ تلك اللحظة توقفت عن توجيه الأسئلة إليها. بعد هذا الحادث بيومين، عادت من المدرسة فى ساعة مبكرة فوجدتنى أجلس وحدى على قطعة من الحجر فى الحوش الخلفى. ضمتنى بين ذراعيها. أحسست بدموعها تسقط على وجهى فانتابنى ألم تحت الضلوع. قبلتنى كأنها تطلب منى أن أغفر لها، وبعد قليل مسحت دموعها وأمسكت بيدى قائلة "هيا بنا" فتبعتها دون أن أسألها. ذهبنا إلى إحدى الحدائق العامة القريبة ولعبنا بالكرة، ورأيت وجهها يشرق من جديد.

لكن الأسئلة لم تكف عن التسلل إلى ذهنى. لماذا لم يخلقنى الرب من الطين مثل "آدم"؟. ولماذا أدخلنى فى بطن أمى لأبقى فيه، ثم أخرج من جديد. وهذه الفتحة التى حدثتنى عنها "روزى"، ترى ما هى؟ فأنا لى فتحة تطرد فضلات جسمى. لذلك تصر أمى على أن أجلس على المرحاض كل يوم بعد الإفطار. ترى هل هبطت أنا من بطن أمى مع الفضلات؟ أصابتنى هذه الفكرة بالضيق. ولكن بعد أن مر بعض الوقت تبخرت هذه التساؤلات من نفسها، وانتقلت إلى أشياء أخرى استحوذت على.

شىء واحد نسيت أن أسأل عنه. تلك الحبات البيض التى أمطرت بها العروس وهى تخرج من باب الكنيسة. لم أعرف ما هى إلى أن رحلت إلى مصر فى السفينة التى أخذتنا إلى الإسكندرية.

فعندما وصلت إلى مصر، واندمجت فى حياة "الدوار" الكبير فى قريتنا "القضابة" صرت أجلس إلى جوار جدتى على الأرض أمام "الطبلية" تضع عليها مصفاة مستديرة وتفرغ فيها كمية كبيرة من تلك الحبات البيض التى هبطت من السماء على موكب العروسين، وهما يخرجان من باب الكنيسة.. تقلبها بين يديها، وتقذف بها فى الهواء، وتنفخ فيها. بعد ذلك تسكبها من المصفاة على الطبلية، وتقلب فيها من جديد باحثة عن حبات سود، وقطع من القش، وحصوات صغيرة تلتقطها، وتلقى بها على تراب الحوش. فسألتها بنطقى العربى الركيك:

"إيه دى؟"

ابتسمت كاشفة عن أسنانها الصفراء الطويلة. فى عينيها ذلك البريق الساحر الذى يكاد لا يفارقهما. لا تقرأ، ولا تكتب. لغتها هى لغة الفلاحين فيه ثقل فى نطق الحروف، وصور غريبة.

تنطق "القاف" "جيم"، والجيم تعطشه بشدة. تنظر إلى كأنها تقول: "من أين جئت يا بنى الصغير؟". فى ملامحها ذلك الخليط من الصرامة، والطيبة، من الحنان، والخشونة الذى عاملتنى به منذ أن ولجت البوابة الكبيرة. قالت:

"اسمه أرز يا بنى".

ربتت على رأسى قبل أن تميل مرة أخرى فوق الحبات المنثورة على الطبلية لتفحصها عن قرب. وجهها العجوز ينم عن الجدية، عن ذلك الكبرياء المتواضع الذى تتقبل به أمور الحياة، والذى يجعلها إن طلبت شيئًا لا تطلبه إلا مرة وحيدة، فيجيبونها إلى ما تريد.

تذكرت الرب الذى كانت تحدثنى عنه خالتى الإنجليزية. لكن الرب ذكر، وليس أنثى. فيها رجولة ولكنها فى كل الأحوال أنثى. امرأة عجوز، لكننى أأتنس إليها. أتأملها وأنا جالس إلى جوارها، فيها هدوء، وفيها سكينة. تعجن العجين بين يديها. تصنع الفطائر، والكعك، و" البكاكين ". إنها القوة المحركة فى البيت. مع ذلك فالرب الرسمى هو ذلك الرجل الذى يرتدى العمامة، والجبة، وقفطانًا من الصوف أو الحرير. حول قدميه " بلغة " مصنوعة من الجلد، أو حذاء برقبة طويلة مزودة " بأوستيك " حتى تدخل جدتى قدمه فيها دون عناء كبير. أسمع خطواته وهى تذرع الأرض فى الغرفة العلوية.

جدتى هى القائمة على كل شىء تطعم، وتسقى، ترعى، وتحمى، وتدير شئون البيت. أحببتها وأنا صغير، ابتسامتها الساخرة، وطيبتها ويديها. تبث فى الطمأنينة، وأستنشق فى ملابسها رائحة الخبز الخارج من الفرن أقراصًا مستديرة.

لم تتوقف دنياى عند الكنيسة. فقد صارت تتسع مع كل خطوة جديدة. الشارع الذى نسكن فيه طويل، يمتد إلى الأفق، أفكر فى امتداده كثيرًا، وأتساءل ما الذى عساى أن أجده هناك إذا ما وصلت إليه. ترددت فالمسافة تبدو بعيدة، ثم أخذت أغامر قليلاً. فى كل يوم أضيف خطوات إلى المسيرة. وفى أحد الأيام وجدت نفسى عند تقاطع رئيسى يصب فيه شارعنا ويلتقى عنده بطريق عريض يمتد ناحية اليسار، صاعدًا فوق هضبة كالشريط الأسود وسط الاخضرار العميق، ويمتد ناحية اليمين امتدادًا عاديًا لا ارتفاع ولا هبوط فيه.

ربما لذلك اخترت ناحية اليمين. فقد بدا الاستواء أقل خطورة من تلك الهضبة التى سترتفع بى دون أن أرى ما تخفيه. أو ربما يكون السبب الحقيقى فى انصرافى عنها هى تلك الأصوات التى سمعتها تأتينى من ناحية اليمين. كانت أصواتًا غريبة لم أسمعها من قبل فأردت أن أعرف المصدر الذى تنبعث منه، أو لأنه عندما أدرت وجهى ناحية اليمين لمحت بعض الحوانيت، ورجالاً، ونساءً، وأطفالاً، يدخلون فيها، ويخرجون منها محملين، بينما على يسارى، وأمامى لم أر سوى أشجارٍ وبيوتٍ.

وجدت نفسى أعدو فوق الطريق متخطيًا الناس، والحوانيت، دون أن أتوقف لحظة لأرى ما فيها. كنت أريد أن أستكشف مصدر تلك الأصوات وأن أعود إلى البيت دون تأخير يلفت نظر أمى إلى، ويعرضنى لحساب عسير. فقد حدث مرة أن تأخرت فى العودة وكادت أن تنكشف حقيقة الجولات التى أقوم بها دون إذن لولا أن هبت "روزى" إلى نجدتى مدعية أنها أرسلتنى للبحث عن كراسة ضاعت منها فى حديقة الحى القريبة منا. ألقت إلى أمى بإحدى نظراتها الزرقاء النافذة، فارتجف قلبى، وأخذ يدق دقات قوية جعلتنى أتقهقر خشية أن تسمعها، لكنها أشفقت على وتركتنى دون أن تسألنى شيئًا.

ثبتت عينى على الرصيف المبلل برذاذ المطر حتى لا أصطدم بعامود، أو سلة حديدية، أو صندوق أحمر للبريد، وانطلقت كالقذيفة. وجدت نفسى سائرًا فوق كوبرى مرتفع تنحدر الأرض تحته فى وادٍ عميق يمتد بين صفين من التلال. فى الوادى عشرات الخطوط السود تلتقى، وتفترق لتلتقى من جديد، أو تنحنى، أو تميل ثم تتفرق فى مختلف الاتجاهات سائرة بين التلال لتختفى تحت أشجار الغابات الكثيفة أو فى فتحات مظلمة محفورة فيها. فوق الخطوط السود تتحرك أجسام طويلة داكنة أو رمادية اللون تشبه الديدان. تزحف ببطء شديد، أو تتقهقر إلى الخلف، أو تنحنى فى أحد الاتجاهات، أو تنطلق بسرعة تاركة وراءها سحبًا من الدخان، وصفيرًا حادًا يتردد فى جنبات الوادى. على مسافة صغيرة من هذه الحركة الدائبة مبنى ضخم له سقف يرتفع فى نصف دائرة وتختفى تحته الديدان لتظهر من الجانب الآخر بعد قليل. وعلى الناحية اليمنى كشك ينتصب على عواميد، مزودًا بواجهة زجاجية، وسقف معدنى متعرج.

خلف زجاج النافذة وقف رجل بدا مرتفع القوام. كان يرتدى "كاسكيتة"، وسترة زرقاء تشبه المعطف القصير، ويتتبع بنظراته حركة الأجسام الطويلة الزاحفة فى الوادى. يداه تنتقلان بين عدد كبير من المقابض المعدنية. يشد على مقبض من المقابض ويتركه فى وضع مائل، أو يعيده بعد قليل إلى ما كان عليه. خلع " الكاسكيتة " ومرر يده على رأسه المغطاة بفروة من الشعر الأبيض، وانسحب إلى الوراء قليلاً يراقب الحركة الدائبة التى لا تتوقف على الخطوط السود، ثم كأنه اطمأن إلى سير الأمور فى الوادى، أخرج من جيب السترة كيسًا كالجراب تناول منه قليلاً من الدخان ودسه فى غليون كبير. وضع الغليون بين شفتيه، وأشعله بعود من الثقاب ساحبًا منه أنفاسًا متتالية حتى اختفى وجهه خلف سحب الدخان.

تأملته من مكانى فوق الكوبرى، يقف أحيانًا دون حركة، إلا حركة شفتيه حول الغليون، وحركة الدخان الصاعد من فمه وكأنه تمثال يحترق من الداخل، أو يميل إلى الأمام ليمسك بأحد المقابض ثم يلقى بجذعه إلى الوراء. أرى ذراعه القوية المشدودة، وعضلات الكتف البارزة تحت نسيج المعطف. ملامحه فيها مهابة القابض على ناصية الأمور، المتحكم فيها. يساير

حركة الديدان الزاحفة فى الوادى تجر فقرات جسمها من ورائها كأنها مصابة بداء، تصرخ مصدرة صفاراتها العالية فى استغاثة، طاردة سحب الدخان السود بأنفاسها اللاهثة، سائرة كأنها تستجيب لإشارات خفية يرسلها هذا الرجل المنتصب فى مكانه.

أقف مشدوهاً أمام المنظر المثير، أمام الدنيا تدار كلها من هذا الكشك الصغير. أنا نقطة صغيرة فى الكون العريض.. عصفور محلق فى الفراغ فوق الوادى العميق. الكوبرى عملاق ضخم يحملنى على كتفه، له ضلوع من حديد، وسيقان مغروسة فى الصخر منذ زمن بعيد. أطل من مكانى فى السماء على الحشرات الزاحفة العليلة، أو المنطلقة بقوة لاهثة نحو جحورها المظلمة لتختفى فيها. أنا فى حلم غريب لا أستطيع أن أنتزع نفسى منه، منبهر بما أراه، متوجس خيفة من قوة لا أدركها محيطة بى... هذا الرجل المهيب يصعد الدخان من فمه وهو ثابت كالتمثال الحجرى، ترى هل هو الرب الذى حدثتنى عنه "روزى" منذ أسابيع، وهل ترك مسكنه فى الكنيسة ليشرف على هذه الكائنات الغريبة. أم أن هناك أكثر من رب، رب فى الكنيسة، ورب آخر يشرف على الوادى، والتلال، والأشياء الأخرى الموجودة فيه؟ ترى أين ينتهى العالم الممتد أمام عينى؟ أين تنتهى صفوف التلال، وإلى أين يمتد الوادى الذى أراه أمامى، ومن خلفى؟ وإذا سرت فيه هل سأقع من عليه عند الطرف البعيد؟

أنا طفل فى بيت بلا أطفال آخرين. أتأمل ما يدور حولى، وانتظر "روزى" حتى تعود فأتحدث إليها. إنها معلمتى الأولى، ومصدر إلهامى. فتاة فيها حيوية الحياة، ولكن لا تعرف الكثير عن كثير مما يشغل بالى، ولكن كنت سعيد الحظ، فلولاها لأصبحت طفولتى الأولى جرداء تماماً.

جاء يوم الإجازة. حتى الآن أستطيع أن أشعر بملمس يدها. أشد عليه بفارغ الصبر. أتوق إلى دفء الأصابع تتشابك، وصوت الخطوات المنتظمة على الأرض، ولذة الحركة فى الجسم، إلى السير المشترك تحت الأشجار، والاكتشاف المشترك لما يمتد أمامنا. نقف أمام حانوت وقف أمامه جمع من الأطفال. ندفع بالباب فيتردد صوت الجرس المعلق أعلاه. تبتاع بعض الكراريس، والأقلام وشريطاً للشعر. تبتسم لصاحب الدكان، رجل عجوز له شارب أبيض وعينان تنظران إلى الناس بفهم. يلف الكراريس والأقلام فى الورق، ويشد عليه بالدوبار. تدفع الحساب. يفتح الدرج فأسمع رنين النقود المعدنية تسقط فى القاع. يمسك بكيس من الورق ويلتفت إلى إناء من الزجاج ملقياً نظرة جانبية سريعة ناحيتى. أصابعه الخشنة تسقط الحلوى فى كيس الورق. أرى شاربه ينتفض وهو يهمس بالعدد. "روزى" تهم بدفع الثمن، فيهز رأسه بهدوء رافضاً، متجاهلاً يدها الممدودة بقطعة النقود. عيناه تلمعان تحت شعر حاجبيه المصبوغ بلون أسود. يضع يده على كتفى ويقول: "عندما تكبر سأتقاضى منك أنت الثمن"، فأنظر إليه بتساؤل. ترى هل هو الرب يدير حانوتاً للحلوى؟.

على الكوبرى وقفنا جنبًا إلى جنب. يدى فى يدها كالعصفور فى العش. صوتها يرن فى أذنى بصفاء. منذ أن سمعته صرت حساسًا لرنين الأصوات. تقول "هذه الخطوط السود قضبان، وهذا الذى يسير فوقها قطار يجر العربات. وفى العربات بضائع للسوق، وركاب. الرجل الذى يقف فى "الكابينة" دوره أن يشد على المقابض التى تراها فتتحرك القضبان من مكانها ويسير القطار على الخط المخصص لمساره مارًا بالمحطات التى يتوجه إليها ركابه. وعند محطة النهاية يهبط جميع الركاب الذين لم يهبطوا فى المحطات السابقة، وبعد فترة من الراحة يعود القطار من حيث جاء مارًا بالمحطات نفسها التى توقف عندها فى الذهاب. هكذا تتوجه القطارات إلى أنحاء البلاد، إلى المدن المختلفة مثل "ليفربول" و"ليدز" و"برايتون" و"ساوثهامبتون"، ومدن أخرى كثيرة فى "إنجلترا". ترفع ساعدها وتشير بإصبعها إلى قاع الوادى يمتد تحت أقدامنا. فى صوتها تزداد نبرة الحماس كلما اندمجت فى حركة القطارات تسير فوق القضبان ثم تنحنى فى مختلف الاتجاهات. "أترى الدخان الذى يرتفع من القاطرة؟ هل تعرف لماذا يخرج من جوفها بهذه الكميات؟ إنها تحرق الفحم مثل المدفأة التى توجد فى بيتنا، وتحوله إلى دخان. والحرارة التى تتولد عن الاحتراق تحول الماء فى الخزان إلى بخار، والبخار ينضغط فى أنابيب، ليصب فى العجلات ويدفعها إلى الدوران. أول من اخترع الآلة البخارية رجل مهندس كان اسمه "جايمز وات". هكذا أصبح فى إمكان الناس أن يسافروا إلى بلاد بعيدة فى عربات تجرها القاطرة التى تسير بضغط البخار".

مع الأيام حملتنى قدماى إلى أماكن أخرى لا أستطيع أن أحدد أين كانت، ولا الطريق الذى اجتزته حتى وصلت إليها، فلم يبق منها فى ذهنى سوى مجرى للمياه، وشواطئ، وأشجار تحيط به أحيانًا، وأحيانًا تتركه للمساحات، لطيران الطيور، بعضها له صدر بنى منفوش، وبعضها ملون بزرقة البحر فى "مرسى مطروح"، بعضها له ذيل طويل ينتفض عندما تقفز من غصن إلى غصن، وبعضها كبير يحوم حول المكان الذى أجلس فيه. أحمل معى بوصة طويلة يتدلى من طرفها خيط، وكرة من الفلين حمراء اللون تصعد، وتهبط مع الأمواج الصغيرة التى يثيرها الريح. فى آخر الخيط لا يوجد شىء، لا صنارة، ولا طعم. أرى نفسى فى صفحة النهر الصافية. أرتدى سراويلاً قصيرًا من التيل، وحزامًا من الجلد، وقميصًا يتدلى ذيله المبلل بالماء. أتأمل وجهى، وعينى، والسماء، والأشجار فتنعكس مثل الصور السحرية، وتنكسر أحيانًا مع الموج، أو مع حجرة يلقيها صبى صغير، ثم تعود. أتتبع الأجسام الفضية المشوقة تروح وتجىء باندفاعاتها السريعة، أو تتوقف لتحملق فى بعيونها الزجاجية المفتوحة. السماء فوق رأسى نقية، والجو كالبللور، وأشعات الشمس تتسرب من بين أوراق الشجر فتختلط بقعًا ذهبية بالظلال الخضراء. وساعة الغروب أحيا بين عالمين، بين بركان يذوب فى النهر، وبركان عند الأفق، فى لهيب الألوان، والسحب، والزرقة الزاحفة لليل.

أنا سعيد، منهمك، متوحد مع الطيور الطائرة، المغردة فى الغصون، مع الأسماك تغير اتجاهها بضربة فجائية من الذيل، أو تسبح منفوخة "كالبالون"، مع الكون الواسع الممتد. أشعر بدفء الشمس البرتقالى فوق جفونى، وعلى الجزء العارى المكشوف من جسمى أعلى السراويل، وقدماى غارقتان فى المياه. أنا هنا منذ الصباح. الأصيل جاء وراح، وبعد قليل إن لم أسرع سيقسط الليل. أنا هائم فى هذا العالم الرقراق، غير متنبه إلى زحف الساعات، إلى ضرورة الانصراف قبل أن يقترب قرص الشمس من المروج الخضراء، ليصبغها بلون الذهب، أو الورد، أو يتركها للظلال تزحف عليها كالغطاء.

عالمى واسع فى الخيال، وفى الواقع محدود الآفاق. فأنا لا أتحرك فى أكثر من مساحة قطرها ثلاث كيلو مترات، تحتوى البيوت، والشوارع، والحوانيت، والكنيسة والكوبرى المعلق فوق خطوط السكة الحديد، والقطارات، والجدول أو النهر تجرى فى أعماقه الأسماك. أما فى البيت فعلاقاتى تقتصر على ثلاثة أفراد، أمى، وجدتى، وخالتى "روزى". عندما أبحث فى ذهنى عن الآخرين، أحتار، كأنهم كانوا أشباحًا فتبخروا، كالفجوات التى أعجز عن ملئها، كالمسافة التى كنت أجتازها حتى أصل إلى شاطئ النهر، سقطت من الذاكرة هى أيضًا، كأننى أقفز فوقها، أو أستيقظ من النوم لأجد نفسى هناك.

ربما لم يكن جلوسى على الشاطئ الجميل سوى حلم يطاردنى فى مختلف الأوقات. ولكن كيف؟ فأنا أحس بالمياه تتحرك حول قدمى وبين الأصابع، وأرى عيون السمك الصفراء فى منتصفها دائرة واسعة كالفراغ، وأعرف أن الشاطئ الأخضر ينحدر فجأة فى بعض الأماكن، وأنه لابد من الاحتياط حتى لا أتدحرج، وأقع فى النهر، وأن الأشجار ترفع قامتها للسماء، أو تنحنى فوق النهر كالنساء الباكيات، وأن الطيور تقفز من مكان إلى مكان، تلتقط قطع الخبز، وتبحث بمنقارها عن الديدان، وتلقى ناحيتى بنظرات فيها تساؤل كأنها تقول: "أيها الطفل الصغير، ماذا تفعل هنا فى هذا المكان؟".

هذه الفجوات تتخلل ذكرياتى دائمًا. أحيانًا أضيق بها، يغمرنى إحساس بشىء ضاع، وأحيانًا أرتاح. أقول لنفسى عقلى لم يرد أن يكبل نفسه بأثقال لا يحتاجها. ولكن كيف أدرى؟ كيف أعرف قيمة ما بقى، وقيمة ما ضاع؟

الفصل الثانى

البيت الكبير

لا أتذكر أول سيجارة دخنتها. ربما كان ذلك فى إعدادى طب، وفى "الأوتوبيس"، ولا أول مرة ارتديت فيها البنطال الطويل، ولا اسم أول امرأة ضاجعتها. دفنتها فى أعماقى وأكملت الطريق. ظل اسمها مجهولاً لدى، ربما سمعته دون أن ألتفت إليه، فلم تكن ممن يهتم الناس بأسمائهم. لم توقع باسمها فى جريدة حكومية. لم تكن ممن يشير إليهم الناس وهى سائرة فى طريقها.

نسيتها تمامًا كأن لم يكن لها وجود، لكن فى الأيام الأخيرة بعثت فجأة من جديد. كنت فى قريتى "القضابة"، فى المكان الذى أول ما جاءت، جاءت إليه. هدم الدوار القديم الذى بناه جدى، لكنى أقمت على جزء من أرضه بيتًا لى، أنسحب إليه من صخب المدينة، لأقرأ، وأكتب، ولأعود إلى أيام الطفولة، إلى الطبيعة.

حول قدميها كانت ترتدى خفا من الجلد له كعب ضئيل. تركته عند الباب الكبير، وصعدت الدرجات عارية القدمين إلى الدور العلوى. شابة فلاحة عذراء أو متزوجة، أو مطلقة لا أدرى. خادمة مهمتها التنظيف، وعمل كل ما يمكن أن يوكل إليها. الدور العلوى فى المبنى الرئيسى كان يحتوى على عدد من حجرات النوم تحيط بصالة فسيحة. فى هذه الصالة الفسيحة كانت تتركز الحياة الداخلية للأسرة. فجدى مات، والرجال ينامون فى السلاملك الخارجى، أو يسهرون على المصاطب فى الحوش الضخم تحت الضوء الأبيض "لكلوبات" الكيروسين. أما النساء فكانت حياتهن فى الدوار الداخلى، فى المطابخ، وغرف العجين، والخبيز. فى "الزريبة"، وعشش الفراخ، وأبراج الحمام، وغرف الخزين، والأحواش الداخلية الكبيرة، وفى جزء من الحديقة مستور لا تنفذ إليه العيون.

لكن فى ساعات الراحة يتجمعن هنا فى الصالة الكبيرة، يستخدمنها للجلوس، والاضطجاع، أو لخطف لحظات من النوم، لحياكة الملابس، وشرب القهوة المنضجة على "الكانون"، أو لتناول أكواب الشاى الصغيرة الغامقة اللون، أو للثرثرة، والنميمة، وضرب الودع، أو استقبال "أم خضر" التى كانت تقوم بدور الداية، والخاطبة، والبلانة، ووظائف أخرى مختلفة

داخل زمام "القضابة" وأحيانًا فى "الفرزدق"[١]، و"صالحجر"[٢]، و"بسيون"[٣]، وإذا ضمن عدم حضور أحد الرجال بشكل مفاجئ قد يلعبن " الكوتشينة "، ويستمعن إلى "الغرامافون" الذى كان قد ابتاعه أبى من "روما". فعالم التسلية فى مثل هذه البيوت كان أوسع مما يظن الكثيرون.

كانت هذه الصالة من الأماكن المفضلة لدى. فى الصباح يتركها الجميع. نساء الأسرة يوزعن أنفسهن على المطبخ، والفرن، والحظيرة، ومخازن الغلال، والمرافق المختلفة التى تحيط بدوار كانت تمتد أراضيه على مساحة سبعة فدادين وثلاثة قراريط، فيخيم عليها جو من الهدوء والسكينة. الأصوات التى تصلنى تصل بعيدة مكتومة. الأرائك الممتدة حول الجدران بياضاتها تبث فىَّ شعورًا بالراحة، كأننى فى مكان لا علاقة له بالدنيا وما فيها. السقف العالى مصنوع من عروق الخشب الطويلة تتدلى منها الفوانيس، وعلى النوافذ قضبان حديدية تمسح عليها فروع الشجر الأخضر عندما تميل، أو تطل منها العصافير لحظة ثم تطير. ومن بعيد يصل إلى ذلك الصوت المطمئن للأيادى تبطط العجين، ورنين الأوانى النحاسية، وأزيز الصدأ فى الأبواب الخشبية الضخمة التى تفصل بين الأحواش الداخلية.

أستمتع بالصمت، والظلال، وجو القدم العريق. أشعر أن لى جذورًا، وأن لى تاريخًا فأستغرق فيه، أو أقرأ فى كتاب أحضرته معى من المدينة. وهنا جاءت المرأة الشابة الفلاحة الموكل إليها تنظيف البيت. فى البداية لم ألاحظ وجودها. تنتقل من حجرة إلى حجرة على قدميها العاريتين. أحيانًا أسمع رفرفة جلبابها على البساط، أو الحصير، أو صوت مقعد تنقله من مكانه، أو صرير السرير عندما تقلب المرتبة عليه. ولكن مع الأيام أخذت أحاسيسى تنتبه إليها. وبعد قليل صرت أتتبعها بعينى لحظة قصيرة، فألمح تلك المشية اللدنة لبنات الريف، والنظرة المتأملة العميقة فى سواد عينيها، أو ردفها يتموج تحت الجلباب الطويل، أو صدرها النافر تنسدل عليه الطرحة الخفيفة. استيقظت فى أشياء غامضة لا عهد لى بها، أو ربما لم أتبينها قبل هذه اللحظة بالتحديد، تخللها إحساس بالرهبة جاءنى من إيحاءات الإثم والتجريم، أو من عينيها السوداوين تواجهاننى لحظة دون أن يرمش لهما جفن، أو الخوف مما أفكر فيه دون أن يكون واضحًا لدى. ولكن بالتدريج انبعث فى داخلى شىء كالاحتراق البطىء.

لم يبق على السفر إلا مدة قصيرة. كلما مرت الساعات زادت النار التى اشتعلت فىَّ، فذابت بقايا الحرص المغروسة فىَّ. أنا أدرك خطأ ما أفكر فيه ولكن الرغبات الهوجاء استولت علىّ يشجعها وضعى فى هذه الأسرة الكبيرة، والحماية التى تجلبها إلى. فمهما فعلت لن تنطق هذه الفتاة بكلمة، أو هكذا على الأقل يهمس إلى منطقى الدفين، لأن كل كلمة لن تكون إلا وبالاً عليها.

تحصنت بشجاعة الحماية الطبقية رغم مخاوفى، وأسكت فى نفسى تأنيب الضمير، وفى ذلك الصباح جلست أنتظرها فى الصالة العلوية. مر الوقت كأنه مثقل بآلاف العراقيل. هيئ

(١)، (٢)، (٣) قرى مجاورة للقضابة تابعة إذ ذاك لمركز كفر الزيات.

لى أنها لن تأتى فى هذا اليوم بالتحديد. حجزوها عن المجىء أو مرضت، أو آحست بشىء فى نظرات عينى، أو فى القلق الذى استولى على وجعلنى أحس بوجودها فى كل دقيقة. ولكن أخيرًا صعدت الدرجات بذلك الحفيف الهامس للقدمين، ثم اجتازت الصالة التى أجلس فيها ملقية على تحية الصباح دون أن تتلكأ أو تتوقف لمدة ثانية. دلفت بالقرب منى إلى حجرة النوم الكبيرة التى تنام فيها جدتى. لمحتها ترفع الناموسية فوق العواميد. جاءتنى رائحة الحلبة، والتراب، وشيئًا آخر كحرارة الجسم القوى، ودق قلبى مثل الطبل دقات عنيفة، فلم أتعد بعد عامى الرابع عشر إلا بقليل. ثم جاءت اللحظة، لحظة لم أعد أرى أو أحس فيها سوى بالدماء الصاعدة إلى رأسى، الهابطة إلى بطنى، المتدفقة فى شريان عميق جعلنى كالحصان الجامح يكسر اللجام وينطلق. اقتربت من الحجرة التى دخلت فيها بخطى حثيثة سائرًا كاللص. كانت واقفة فى سكون مسندة يدها على عامود السرير كأنها تستريح، أو تنتظر وقوع الحدث الوشيك أحست به بغريزة من يعتدى عليه دائمًا فيستطيع أن يستشف النية المبيتة قبل أن تتحول إلى تنفيذ. استدارت لحظة وصولى إلى أسفل الدرجتين اللتين تفصلان الصالة عن الحجرة التى وقفت فيها ونظرت إلى بملء عينيها. وجهها فى بياض مفارش السرير، فيه سكون الموت، أو الخوف الفظيع. صعدت الدرجتين بخطوة بطيئة، وسرت نحوها، ودون أن أنتظر وضعت ذراعى حولها، وجذبتها إلىّ. أشعر بجسمها قريبًا منى والنهدين. لم تقاوم. لمحت النبض فى عنقها كالموجة الخفية. وجهها بارد كالثلج أحس به على خدى قبل أن تتراجع خطوة لتفصل بيننا.

لا أعرف كيف أصبحت فوقها على السرير. أتذكر صوت السراويل يتمزق بين يدى وظلاً داكنًا ينكشف بين ساقيها. وأتذكر أننى لمست بطنها العارية بجسمى. لذة حادة وانتفاضة هزتنى سريعًا ثم لا شىء. زحف على بعدها إحساس بالكآبة، والإثم. رفعت البنطال فوق القميص، وأحكمت الأزرار بأصابع ترتجف فتخطئ العروة قبل أن تعود إليها، ثم انسحبت دون أن أنظر إليها. كانت واقفة إلى جوار السرير مخفضة وجهها إلى الأرض، ممسكة بالعامود بين يديها كأنها تتعلق به. عبرت الصالة، وهبطت فوق السلم بخطوات متعثرة كأن الطاقة أفرغت من جسمى. دلفت إلى الحديقة لا ألوى على شىء يلفنى الإحساس بقتامة الدنيا، وببلولة سخيفة لزجة بين ساقى.

سافرت فى فجر اليوم التالى متذرعًا بضرورة شراء حقيبة جديدة للمدرسة. لم أرها بعد ذلك، ولم أسأل من هى. ظلت مجهولة بالنسبة إلى. أحيانًا يخطر فى بالى أن أبحث عنها، ثم يبدو لى الخاطر سخيفًا. تركت وراءها أثرًا يصعب تحديده، شعورًا بالندم ينمو كلما مرت السنون ربما لأننى لم أستطع أن أكفر عنه بشىء، وصورة لوجهها الشاحب تطل من عينيه نظرة حزن على المصير.

قضيت السنين الخمس من طفولتى فى "لندن" قبل أن نبحر فى السفينة، أخطو خطواتى الأولى، أرصد ما يدور، وأختبر قدراتى. أصبحت أجيد اللغة الإنجليزية، وضربت بجذورى فى حضارة مختلفة عن تلك التى ارتبطت بها بعد ذلك. هكذا أتيح لى منذ البداية أن أدرك نسبية الأشياء، فأنا وليد الاختلاط. أصبحت الجنسية، أو الديانة، أو اللون، منذ البداية أقل أهمية عندى من جوهر الإنسان. كان أبى رجلاً مصريًا من قرية "القضابة". جاء إلى "إنجلترا" فى فترة مبكرة من حياته والتحق بالمدرسة تمهيدًا لدخول الجامعة. ميزوه عن إخوته لأسباب لا أعرفها، ربما قربه من أمه "عائشة"، كانت تحبه أكثر من كل أولادها وبناتها، ومجموعهم ثمانية، بخلاف الطفلة الأولى التى ماتت بعد أن كبرت وأصبحت شابة. تنطق اسمه بصوتها المبحوح وهى تقول " "فتح الله" كان مختلفًا عن إخوته،" وتلمع عيناها. تأخذه معها إلى الحظيرة فى الصباح. تصف الطواجن الفخارية الداكنة انتظارًا لحلب المواشى. يأتيه الصوت المتقطع للسائل يندفع فى الأوانى ويراه يلمع ببياضه فى الظلال. تنحى الطاجن الأول جانبًا وتعطيه الطاجن الثانى يشعر به دافئًا بين كفيه، ويلمح فقاقيع الهواء لآلئ على سطح الطاجن تتسرب بين شفتيه بملمس القطيفة. فى أنفه الروائح النافذة للروث ترتفع مع بخاره، للدروع المبللة، والحطب، والحلبة، والخبز "المرحرح" الطازج.

أورثنى كل هذا، وأورثنى معه جدتى العجوز، والطمأنينة أشعر بها عندما أدفن وجهى فى صدرها الضامر. أورثنى إياه رغم شهادة ميلادى الصادرة من " سمارست هاوس" بياناتها المكتوبة بالآلة الكاتبة الإنجليزية وورقها الأصفر مطبوع بحروف حمراء لونها فاقع، ففى ذلك الوقت كانت مصر تحت الحماية البريطانية، ليس لها قنصل فى لندن، ولا قنصلية ولا سفارة.

هذا الأصل المزدوج كان له أثر عميق فى حياتى. تآلفت عناصره فى بعض الأحيان، وفى أوقات أخرى تصارعت لتنفى بعضها وتنتج ما عداها. ترتبت عليها أشياء كثيرة، ومنها ما حدث لى فى نهاية سنة ١٩٦٣. أفرج عنى إذ ذاك بعد قضاء الحكم بعشر سنين سجن مع الأشغال الشاقة لأفاجأ بأننى أصبحت من ساقطى القيد، ولا أستطيع أن أتصرف فى حياتى، فبدون شهادة ميلاد لا أحد مستعد للاعتراف بوجودى حتى وإن كنت أقف أمامه، وأتحدث إليه، وأمد إليه يدى ليتأكد أننى لست روحًا هائمة، وإنما كيان مادى من لحم، ودم. فموظف الأرشيف الذى كان يحتفظ بملف خدمتى فى وزارة الصحة أضاعه. أكل عليه "ساندوتشاته" ثم ألقاه من النافذة إلى الحوش الخلفى. ومع الملف ضاعت كل أوراقى. لذلك وجدت نفسى واقفًا أمام الرجل العجوز ينظر إلى من خلف عويناته.. قطعتان من الزجاج المتسخ يربط بينهما سلك صدئ يبيت فى الخط المحفور عند أعلى أنفه حيث يلتقى حاجباه. عيناه الباهتتان تطلان على بلا إحساس وتبثان فى كل ما فيهما وفيه من كآبة. عندما تحدثت معه لمع خلف الزجاج شىء يشبه الوميض الخافت، ثم عادا كما كانا. لونهما كالتراب المالح، جف فى الشمس، وأصبح عاجزًا. جسمه الضئيل محشور فى الكشك الخشبى كالمدفون فى تابوت "البدروم" مع الورق،

ومن فوقه تسعة أدوار من الإسمنت، والحديد، والأحجار كأنه يحمل المجمع على كتفيه بكل أقسامه، بشئونه الإدارية، والمالية، والقروية، والوقائية، والتخطيطية، وبالمراحيض، تنبعث منها رائحة البول، مختلطة بالبوتاجاز، والحلبة، واليانسون، والشاى، والقهوة على الريحة يصنعها الفراشون الذين رست عليهم عطاءات " البوفيه ". يجلس خلف مكتب صغير من الخشب غطته أكوام الملفات، وطبقات التراب وبقع متناثرة من الحبر، وبقايا طعام، وإلى جواره كوب شاى بدا وكأنه ثابت لا يتحرك من مكانه.

استولى على الغضب بعد أن انتزعت منه اعترافًا بضياع الملف الخاص بى. فكرت أن أقدم فيه شكوى، أو أن أضع أصابعى حول عنقه وأضغط، أو أن أوجه إليه لكمة بقبضتى. ولكن سرعان ما تبخرت كل هذه الاحتمالات. تبدد الغضب وحل محله اليأس. لا جدوى من كل ذلك. قال لى بصوته الحيادى الخافت إنه لم يكن موظف الأرشيف الوحيد الذى عمل فى هذا المكان. ثم هناك الفراش الذى ينقل الملفات عندما يعاد ترتيبها.

تركت الرجل محاطًا برائحة الأوراق القديمة، وفضلات الفئران، والتراب، ومضيت. صعدت درجات "البدروم"، وخرجت إلى الشمس. انتابتنى لحظة إشفاق عليه. لكن الرجل أوقعنى فى ورطة ما بعدها ورطة. ألغى وجودى الرسمى ومولدى، ومدد الخدمة السابقة التى أحتاج إليها للاستفادة من قرار "عبد الناصر" باعتبار فترات السجن ضمن الخدمة للذين اعتقلوا أو سجنوا لأسباب سياسية. على الآن أن أستعيد هذا الوجود الرسمى من جديد، أن أقدم الدليل على أن الشخص الذى ولد، وكبر، وحلف اليمين ليصبح طبيبًا، ثم اعترض على نوع الحياة التى نعيشها فأصبح سجينًا، ثم أفرج عنه، وأصبح ينتظر قرار إعادته إلى العمل من جديد، أن هذا الشخص الذى يتنفس، ويأكل، ويكتب أوراقًا، ويوقع عليها، موجود، وله اسم، وتاريخ، وحقوق، والسبيل الوحيد إلى ذلك هى الأوراق التى ضاعت فى ملف الخدمة، أما ما عدا هذا فليس له قيمة عند السلطات، حتى وإن كانت هى التى اتخذت مختلف القرارات بشأنه وتحكمت فى حياته، وحتى إن كانت هى، أو أحد موظفيها هو الذى أضاع الدليل على كيانه الرسمى، فمن حق السلطات أن تحييه أو تميته، بل وأن تدفنه وهو ما زال على قيد الحياة.

بدأت بتجميع مدد الخدمة القديمة. قضيت عشرة أيام أبحث فى أرشيف المجموعة الصحية فى " بولاق " فقد عملت فى هذه المجموعة لمدة ثلاثة شهور سنة ١٩٤٩. كان أرشيف المجموعة، كما هى العادة، أكوامًا من الملفات والدفاتر والأوراق المكدسة فى " البدروم " الذى ربما لم تطأه قدم منذ سنين. هناك على ضوء فانوس كنت أحمله معى كل يوم عثرت على دفتر المرتبات، وفى دفتر المرتبات وجدت اسمى وقد سجل أمامه مبلغ ثلاثة عشر جنيهًا مصريًا تقاضيتها على التوالى فى شهور فبراير، ومارس، وإبريل، قبل أن أختفى مرة أخرى عن عيون البوليس. كان مدير المجموعة يعرفنى، فوافق على أن يكتب لى شهادة بمدة الخدمة هذه، وأن

يختمها بختم النسر. بعد ذلك استخرجت شهادة بمدة الامتياز فى القصر العينى من الشئون المالية والإدارية للمستشفى.هكذا أصبح عندى الدليل بأن خدمتى بدأت سنة ١٩٤٧.

. ولكن أصعب المعضلات كانت تلك المتعلقة بشهادة الميلاد، فأنا لست من مواليد القاهرة، أو الجيزة، أو "القضابة" أو من مواليد مصر كلها. والسجل المدنى لا يعرف عنى شيئًا، أو هكذا يقول. سدت أمامى جميع السبل فطرأت على ذهنى فكرة. كتبت خطابًا إلى "سمارسيت هاوس". أطلب فيها ثلاثة صور رسمية من شهادة ميلادى الإنجليزية، وخطاب آخر إلى خالى "جون تايلور" أشرح فيه ظروفى، راجيًا إياه أن يدفع الرسوم المطلوبة مقابل إرسال هذه الصور إلى، ففى ذلك الحين، أى فى سنة ١٩٦٤، كان تحويل النقود إلى الخارج يتطلب إجراءات معقدة للغاية. وبعد خمسة عشر يومًا من ورود خطابى إلى السلطات الإنجليزية وصلتنى الصور الثلاث الرسمية من شهادة الميلاد الإنجليزية ورسالة تفيد أن المتبقى من المبلغ الذى دفعه خالى "جون تايلور" هو ثلاث شلنات وثمانية بنسات موجودة فى الحفظ والصون إلى حين وصول تعليماتى بكيفية التصرف فيها، فأخذت صورة واحدة من الشهادة وتوجهت مرة أخرى إلى السجل المدنى، وبعد ما يقرب من شهر ونصف تسلمت نسخة من شهادة الميلاد المصرية.

منذ ذلك اليوم أحتفظ فى بيتى بملف مخصوص أضع فيه صورة رسمية من كل الأوراق التى تخصنى. وعلى الملف كتبت: "عندى ملف، إذن أنا موجود".

كان سنى يوم أن وطئت قدماى أرض مصر خمس سنين وثلاثة شهور وخمسة أيام. شىء ما يقول لى أننى جئت إلى هذا المكان من قبل. رائحة الميناء فى الإسكندرية، ولون البحر، و"البامبوطية" بسراويلاتهم الواسعة، واللهجة الصعيدية تتناثر كلماتها مع الموج، والريح، والرجل الطويل القامة يرتدى الجبة، والقفطان، وعمامة حمراء تستوى على رأسه الكبير أعلى شعر الحاجبين يلتقيان فوق الأنف فى خط أسود. لم أكن أعرف آنذاك أننى هبطت فى هذه الميناء من قبل، وأنا رضيع، وأنه حملنى بين ذراعيه، وتطلع إلى وجهى، وعينى، وإلى خط الحاجبين الكث أعلى الأنف المربع الصغير. كنت حفيده الأول، فاستقبلنى بفرحة أحجم عن إظهارها كما كانت عادة أجدادنا فى ذلك الوقت. ربما كان عنده إحساس آخر دفنه فى الأعماق. فأنا ابن الإنجليزية، والأمة المصرية ثارت ضد جيوش الاحتلال، ثم نالت الدستور، وتشكلت أول حكومة مصرية منذ أيام عرابى. إنه من أصحاب الإقطاع فى محافظة الغربية يملك الفدادين، والدوائر، والسلاملك، والحراملك وهو شارى بيت "الخواجة خريمى" تاجر القطن اليونانى، والمالك للمحالج الأربعة فى قرية "القضابة"، بيت حديث من الطوب الأحمر أقيم على قطعة من الأرض العالية أمام الترعة يقضى فيه رجال الأسرة ليالى الأنس مع همسات الغوازى وزجاجات البراندى القبرصى. وهو الساكن فى قصر يواجه "نادى الجزيرة"، ويجاور قصور الأمراء من العائلة المالكة. مع ذلك فإنه شأن العديد من أقرانه ليس غريبًا عن أمانى الأمة، يتحرك حول أطرافها ويتحدث عنها بحرص أصحاب المصالح، مشدودًا إلى الإنجليز بالخوف من الجماهير

التى حملت معاول الثورة وهدمت قضبان السكة الحديد، معاديًا لهم لأنهم يحددون سعر القطن ويشاركونه الربح ويحكمون وادى النيل. ففى أسرته سقط الشهداء، وحكم شيخ معمم من أقربائه إقليم "المنيا" وأعلن استقلالها(١) ثم بينه وبين "سعد زغلول"(٢) صلة مصاهرة متينة.

لم أعرف أننى جئت إلى مصر قبل ذلك وسنى ستة شهور ونصف، أننى رقدت بين ذراعيه وتطلعت إلى وجهه بمقلتين سوداوين ورثتهما عنه عن طريق ابنه. أننى مددت يدى إلى لحيته وأغلقت عليها قبضتى، وشددتها إلى لتشهق عمتى "فردوس" وتضرب على صدرها كأننى مسست " شرف العيلة "، وليضحك الرجل بأعلى " حسه "، فكل شىء مباح للحفيد الأول حتى شد اللحية السوداء لرب الأسرة.

فى المرة الأولى لم أبق غير بضعة شهور سافرنا بعدها إلى "لندن" ليحصل أبى على "الماجستير" فى الاقتصاد من كلية "كرايست" (أى المسيح) فى جامعة "كامبريدج". عدنا إلى إنجلترا هذه المرة على ذات الباخرة التى جئنا بها. عندما عبرنا مضيق "جبل طارق" وأصبحت فى المحيط الأطلسى، قامت عاصفة هوجاء، وكادت الأمواج أن تبتلعنا. أما أنا فظللت لا أشعر بشىء. أرضع من زجاجة اللبن، وأتجشأ عندما تسندنى أمى على كتفها، وتربت على ظهرى عدة مرات، أو أتأمل وجهها بتلك النظرة الثابتة المركزة التى أطل بها على الأشياء. عيناى قطعة من الليل الأسود تضىء فى كل منهما نجمة.

فى السنة الثانية من عمرى أصبت ببعض اللين فى العظام فلم أقف على قدمى، ولم أمش إلا فى وقت متأخر. عندما كبرت وأصبحت طبيبًا أدركت ما حدث لى فى هذا الوقت ففى ساقى قدر من الاعوجاج، وفى قدمى حالة بحثت عنها فى قاموس اللغة العربية فوجدت أنه يطلق عليها تعبير "القدم الأرح"، وهى القدم التى ترتكز على الأرض بجميع أجزاء البطن عند الوقوف أو المشى. لذلك عندما أسير أضع قدمى كلها على الأرض، وكأن لا شىء يستطيع أن يجعلنى أحيد عن الهدف الذى أسعى إليه.

مرت أكثر من خمس سنوات قبل أن نعود إلى مصر فى المرة الثانية لنستقر فيها. هذه المرة هبطت على الدرجات بقدمين ثابتتين، وسرت فوق الرصيف حتى أصبحت أمام الرجل المرتفع القوام الذى أشارت إليه أمى ونحن واقفين على ظهر الباخرة قائلة بالإنجليزية "يور جرانبا" أى "جدك". عندما وصلت بالقرب منه رفعت رأسى ناظرًا إلى أعلى. قال: "الحمد لله على السلامة"، وانحنى. شعرت بلحيته على خدى. لم أتحرك، ولم أقل شيئًا، فلم أعرف ما الذى قصده بهذه الكلمات بينما وقف أبى إلى جوارى يتحدث إليه بألفاظ بدت لى كالحشرجة.

---

(١) الشيخ أحمد حتاتة

(٢) خال ستى عائشة

لكن جاء اليوم الذى أصبحت فيه أجلس إلى جوار جدتى، لأسأل عن الحبات البيض المنثورة فوق الطبلية الموضوعة أمامها ناطقًا الكلمات العربية التى تعلمتها بتلك اللكنة الأجنبية التى لازمتنى إلى أن دخلت الجامعة.

"إيه دى يا نينة؟".

فترد على جدتى "عائشة" أم أبى:

"هذا أرز يا بنى".

هكذا انتهت مرحلة لتبدأ مرحلة. ظل فيها أبى غائبًا فى مكان ما، فلم أشعر بوجوده، ولا أستطيع أن أسترجع ملامحه الشابة، وأتذكر حدثًا يتعلق به، أو حتى انطباعًا غرسه فى. أنا لم أجرب وجود الأب فى الطفولة، ولم أتعرض لممارسات السلطة الأبوية التى قهرت غيرى، ومن الصعب أن أعرف إن كنت قد كسبت أو خسرت شيئًا بسبب غيابه. أمى هى التى قهرتنى، ولكن نادرًا ما يقهر الابن من أمه بالقدر الذى يقهر به من أبيه. لم يبق لى منه فى هذه الفترة سوى إحساس غامض بثغرة لا سبيل إلى ملئها. فى أعماقى رغبة فى الاقتراب من ذلك الشاب الذى أرى صورته فوق رأسى على رف المكتبة فى حجرتنا، يطل وجهه على بروحه الودودة، بالابتسامة فى العينين والتطلع إلى شىء بعيد ضاع منه. لم أعرفه إلا بعد أن أصبح شيخًا ناضجًا. فرقت بيننا الظروف، ظروفه هو، وظروفى أنا، وحتى بعد أن عدت ظللت منشغلاً ومنصرفًا عنه، وعندما مات كنت فى "الهند". جاءتنى برقية من أخى تقول: "احضر حالاً والدك فى خطر" ثم فى اليوم التالى برقية ثانية توفى الوالد إلى رحمة الله أعزيك من القلب". "عادل" وبعدها بشهر أحسست أنه راح، فبكيت. تذكرت أن حياته تبددت، أنه لم يسىء إلىّ، وأنه وقف إلى جانبى فى أيام الخطر، فجاءنى ذلك الندم الذى يعاودنى فى بعض الأيام لأنه بعد أن مات تذكرت ما فات على أن أفعله من أجله.

الباب الحديدى لبيت جدى يطل على "نادى الإنجليز" أو نادى "الجزيرة" كما سمى بعد معاهدة ١٩٣٦، وتسلل بعض الأعضاء من علية القوم إليه، على أرض "الجولف" والدوران الخاص بسباق الخيل. قضبانه ترتفع فى الفراغ مثل الرماح فيها وحشية تختلط برقة السماء الصافية. الممشى العريض يمتد كالشاطئ الرملى إلى سلم البيت درجاته الرخامية والعتبة أمواج بيضاء تحمل الباب السميك المحفور بالحشوات العربية. المنزل أقرب إلى القصر الريفى منه إلى بيت فى المدينة، مكون من طابقين كبيرين فى شكل مستطيل، وسطح له جدار منخفض يعلوه خزان لحفظ المياه. الحديقة تحيط جدرانه الوردية بالسندس الأخضر، والأشجار المزهرة، والنخيل، بأحواض من الورد الأحمر، والأبيض، وببرك مستديرة وردها بلون الشاى. إلى جوار السور العالى تمتد الزهور الصفراء، والبنفسجية، وخطوط من الشيح تفصل بين الزهور وبين المشايات المفروشة بالزلط، وعند طرف الحديقة الغربى قرب الشارع الضيق الذى

يفصل بينها وبين قصر الأمير "عمرو إبراهيم" مبنى منخفض يرقد فى ظل أشجار الكافور العالية، ويأوى حظائر الخيل.

أقف بقدمين عاريتين فوق العتبة الرخامية الواسعة التى تهبط منه الدرجات فى شكل نصف دائرى. أستمتع بملمس الشمس على جسمى تتسلل أشعاته من مسام النسيج القطنى. أخذ جلدى يتغير تحت لفح الشمس ويتحول على الوجه والذراعين، والساقين إلى لون ما بين الخمرى، والأسمر، لكن بقيت المساحات المحمية تحت البنطال القصير، والقميص بيضاء كما هى. كلما خلعت ملابسى أمام المرآة البيضاوية الكبيرة المحاطة بإفريز من الخشب أكدت لى الحدود بين اللونين التبدل فى البيئة المحيطة بى من وسط إنجليزى بورجوازى صغير إلى مجتمع الإقطاع المصرى المعارض للأتراك، والإنجليز. فالاختلاط المبكر بحضارتين بينهما هوة عميقة كان

لابد أن يترك آثاره، والانتماء الموزع بين طبقتين إحداهما بورجوازية صغيرة هويتها إنجليزية، "بروتستانتية" والأخرى إقطاعية كبيرة مصرية، ومسلمة وريفية، بذر بذور الصراعات الأولى، والتوافقات الأولى فى تكوينى.

الحديقة التى تمتد أمام عينى لم تعد شرخًا ضيقًا بين البيوت الصغيرة، المتلاصقة فى حى "ستوك نيونجتون" الفقير، وإنما مساحة واسعة تقترب من ربع الفدان تقع فى موقع فريد، وفى حى يسكنه الحكام الإنجليز، وأفراد من الأسرة المالكة، والبشاوات، وأثرياء الأجانب. بعد أن مات جدى بيعت هذه الأرض بثلاثة آلاف أو ربما خمسة آلاف من الجنيهات المصرية تم توزيعها على الورثة، أى على خمسة من الرجال، واثنتين من النساء خلاف ستى "عائشة". أما جدى "محمد" فقد توارى تحت التراب فى مدفن الأسرة المطل على الحقول الخضراء عند الحدود القبلية لقرية "القضابة".

مرت عشرات السنين وبعد أن سكتت مدافع الحرب العالمية الثانية، أخذ "الخواجة" الذى كان قد اشتراها يشعر بالقلق مثل عدد من أقرانه فباع قطعة الأرض لتاجر من المصريين ليقيم عليها عمارتين من الشقق السكنية الفاخرة، وكان هذا آخر عهدى بـ"بيت الجزيرة".

لكن فى إحدى أمسيات سنة ١٩٧٢ شاءت الظروف أن أقوم بزيارة رجل أمريكى كان قد جاء إلى مصر للقيام بدراسة ميدانية عن مشكلة السكان موفدًا من جامعة "ميتشجان". كانت وظيفته الرسمية محررًا علميًا فى "المجلة الميدانية" لهذه الجامعة[1]. التقيت به عدة مرات من خلال عملى فى المجلس الأعلى للسكان، فدعانى لأتناول معه العشاء فى بيته.

---

(١) أغلب الظن أنه كان يعمل فى السى آى أيه" أصبح فيما بعد "رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة "برينستون" ثم رئيس جامعة بيروت الأمريكية.

كانت الساعة قد قاربت على العاشرة مساءً عندما أوقفت سيارتى "الفيات" على الرصيف المقابل للعمارة التى حددها لى قائلاً: "شارع سراى الجزيرة رقم كذا". كانت الضاحية تغط فى صمت عميق بدا لى غريبًا، ولكنى تنبهت إلى أننا فى بداية شهر سبتمبر، أن أغلب سكان هذا الحى "الراقى" سافروا فى إجازة الصيف.

هبطت من السيارة. أغلقت أبوابها واجتزت الشارع يلمع أسفلته الأسود تحت المصابيح، وتتحرك فوقه ظلال الأشجار. عيناى تدوران على المبانى، والحدائق، والأسوار، وأنفى يستنشق رائحة بعيدة كالتمرحنة تختبئ فى الظلام. دلفت بين العواميد إلى المدخل الواسع، وفجأة قفز ذهنى إلى الوراء لأقف بقدمى العاريتين فوق رخام العتبة العريضة أمام الباب المحفور فى الخشب. الشمس تهبط خلف أشجار الكافور العالية، والطيور البيضاء تغرس منقارها الأصفر فى الأرض الطرية باحثة عن الديدان، ملقية ناحيتى بنظرات هادئة من عيونها الصغيرة. فى النادى المجاور أسمع الكرات الصلبة تصطدم بالكعوب المعدنية لمضارب "الجولف"، فيصلنى صوتها، قبل أن تصبح نقطة بيضاء فى الزرقة الشاسعة، وألمح الرجال ذوى البشرة الحمراء، والبناطيل الخاكية القصيرة، والخوذات يطاردون الكرات بهمة عسكرية.

أفقت لنفسى وأنا أضغط على مفتاح الجرس لأسمع صوته الموسيقى الهادئ يتردد فى الداخل. فتح لى خادم نوبى، وقادنى إلى غرفة كبيرة تطل نوافذها على أنوار المدينة. اخترت مقعدًا وثيرًا احتوى عضلاتى، وعظامى، وشراايينى المرهقة من أقداح القهوة، والسجائر، ومن إحباط الوظيفة الحكومية التى كنت أقوم بها.

تركت جسمى للمقعد فأخذ التوتر يزول عنى بالتدريج. تذكرت أنه لا يوجد فى بيتى مقعد واحد مريح. أرى الأصدقاء يتململون فى جلستهم عندما يحضرون لزيارتى، فيمر فى ذهنى خاطر. ترى هل يأتون فى المرة القادمة؟. عاودنى التوتر من جديد. أطللت من النافذة على الليل الصامت، على الأضواء تتلألأ خلف أوراق الشجر. فى يدى كأس من "الجين".. والجريب فروت" أخذت أرتشف منه، ومع الرشفات سرى فى جسمى شعور من الراحة. يتأرجح عقلى بين تلك الأيام البعيدة للطفولة وهذه الجلسة مع رجل أبحث فى عينيه الزرقاوين اللامباليتين عما يختبئ وراءهما. يتأملنى من مسافة، وأنا أرد على الأسئلة التى يوجهها إلى عن عمل المجلس بنصف عقلى، وينفلت نصف عقلى الآخر إلى أيام البراءة. ففى هذا المكان كان يقوم البيت الذى جئت إليه طفلاً يسبح بحواسه فى الهدوء المخيم على الضاحية، فى السكون الذى لا مثيل له ليوم يقترب من نهايته. أستمع إلى المخلوقات يصمت الواحد منها بعد الآخر ليصبح العالم معلقًا على خيط، كأن أنفاس الحياة توقفت. شيء من الحزن العميق لا يحس، ولا يرى، مختبئ فى هذه الساعة الأخيرة من النهار، فهذه الرقة الجميلة لابد زائلة.

أرفع الكأس وأبتلع منه جرعة. أغرق الإحساس بزوال الأشياء الجميلة، بانتصار اللهجة المغرورة التى يتحدث بها الرجل الأمريكى المنتصب أمامى، يسند ظهره على المكتبة وراءه، ممسكًا فى يده بكأس كبير لونه أزرق يلوح به ناحيتى، وهو يقول: "نحن نساعدكم على إنقاذ

أطفالكم من الجوع. نفعل ما نستطيعه، أما بعد ذلك فلابد أن تعتمدوا على جهودكم". أتساءل، ترى ما هو عمله الحقيقى؟ أهو مثل الكثيرين الذين وفدوا على البلاد فى السنوات الأخيرة بعد أن استنشقوا رائحة الهزيمة؟ يتساءلون عما قد يقدم عليه "السادات" إزاء السخط المتزايد فى البلاد نتيجة استمرار الاحتلال الإسرائيلى.

أحملق فى الكتب المنظمة صفوفًا فوق الرفوف. كانت الرفوف فى مكتبة عمى مزدحمة بالكتب. ورقها أصفر قديم وحروفها عربية، ومن بينها قصص "السندباد" و"ألف ليلة وليلة". كنت لا أستطيع أن أقرأ ما فيها. أكتفى بالحملقة فى الصور المرسومة. أقف على مقعد وأسحبها من فوق الرفوف ثم أعيدها إلى مكانها قبل أن يعود عمى من الخارج، ليجلس خلف مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل يصحح أوراق الامتحان التى عاد بها فى مظاريف كبيرة صفراء مختومة بالشمع الأحمر.

عمى صاحب الحجرة أكبر أبناء الأسرة. تخرج من دار العلوم، ثم تخلى عن العمامة، والجبة، والقفطان ليرتدى الملابس العصرية: طربوش لونه أحمر قان، ورباط عنق فى شكل "فيونكة" بنفسجية أو سوداء كبيرة تتدلى فوق القميص. أما السترة فصوفها إنجليزى من نوع "التويد" تتخلل نسيجها مربعات كبيرة. تحت السترة "صديرى"، وفى الجيب الصغير للصديرى ساعة مربوطة فى العروة الأخيرة "بكاتينة" تنحدر على بطنه التى ظلت حتى وفاته فى سن الواحدة والتسعين مستوية مثل لوح من الخشب. حذاؤه المدبب يبرق دائمًا من فرط التلميع بقطعة من اللباد يحتفظ بها فى درج المكتب، وحول الحذاء "جيتر" من الجلد الناعم لونه أبيض أو سمنى يدفئ به قدميه. فى عروة السترة وردة حمراء يقطفها من الحديقة قبل أن يخرج إلى عمله، وفى يده منشة مصنوعة من ذيل حصان ناصع البياض يتجمع شعره الممتلئ فى خصلة عند المقبض المصنوع من العاج.

ظلت هذه الصورة عالقة بذهنى منذ تلك الأيام. كان شديد الأناقة يهتم بهندامه، ويرتدى ملابس تعكس الادعاء الأريستوقراطى "للصالونات" رغم الأصل الريفى الذى نبع منه. يتحدث بتلك اللهجة الرصينة لأساتذة اللغة العربية الذين تخرجوا فى "دار العلوم"، فهم يعتبرون أنفسهم فى مرتبة أعلى من "الأزهر" بحكم شىء من العصرية. كانوا نخبة مختارة تعتز بمكانتها المميزة فى نظام التعليم، وتحمل شعلة اللغة العربية أداة لمقاومة الإنجليز، ومفتشيهم، وجهازهم الإدارى العتيد.

كان عمى يمتلك زوجًا من الجياد المطهمة "وكاريتة" من النوع السريع الذى تهواه أسر النبلاء يقودها بنفسه فى شوارع المدينة. وقد رأيته مرة وهو يختال بها فى شارع "قصر النيل". لكن عندما ساءت أحوال الأسرة بسبب البذخ الإقطاعى أفصح عن روح عملية فتزوج من حكيمة وصلت إلى وظيفة مدير بيت الممرضات فى القصر العينى وظلت فى وظيفتها إلى أن أحيلت

إلى المعاش. كما أوصل جميع أبنائه وبناته فى التعليم إلى الجامعة، وصاروا يعملون فى مختلف المجالات.

قضى بعض الوقت فى إنجلترا موفدًا فى بعثة تعليمية وعاد منها يتحدث قليلاً باللغة الإنجليزية، وهى ميزة كان يحرص على إبرازها كلما سنحت له الفرصة لذلك. فى بعض الأيام يدعو أمى إلى تناول الشاى فى حجرة المكتب الخاصة به، أو على الشرفة، أو فى الحديقة، ويتحدث إليها بالإنجليزية ناطقًا الكلمات بلهجة ريفية مصرية فتخفى أمى ضحكاتها فى "الفنجان". يعاملنا نحن الاثنين بمنتهى الرقة، ربما ليظهر أنه رجل متمدين، ومن " الأريستوقراط ". ويهتم بنا اهتمامًا كبيرًا، وأنا بالذات، فقد كنت فى ذلك الوقت الحفيد الذكر الوحيد فى الأسرة، والوريث المنتظر لكل ما كانت تفخر به من مكانة، فى بيئة تستمد قيمها من ملكية الأرض، وعلاقاتها. لكن عندما وصلت إلى سن المراهقة كان وضعنا قد تدهور فظللت خالى البال عن الإرث الذى كان من المفروض أن تهبنى إياه أسرتى. أما هو فقد كان هذا فى الغالب مصدر اهتمامه بى.

كان ينتهى من طعام الغداء حوالى الساعة الرابعة والنصف أو الخامسة، فقد تمسك طوال حياته بعادة منتشرة بين كثير من أسر الريف، وهى الاكتفاء بوجبتين. بعد فترة قصيرة من الراحة يرسل أحد الخدم ليستدعينى. وعندما أدخل عليه فى حجرة المكتب يجلسنى على الأريكة إلى جواره، ويخرج من حقيبته أقلامًا جديدة مبرية بعناية، وأوراقًا بيضاء، وكراريس. يقضى معى ساعة كل يوم يعلمنى أثناءها كتابة الحروف الأبجدية، فأتطلع بانبهار إلى الخط الفارسى الجميل الذى يكتب به، بينما حروفى أنا تظل تميل، أو تنبعج، أو تتعرج بين السطور. يرشدنى فى رسم بعض الصور الملونة، شجرة، أو برتقالة، أو ديك أو أى شىء يفكر فيه. يحدثنى بصوته الذكورى الجاف عن المدرسة التى سألتحق بها فأتطلع إلى أنفه الحاد، وعينيه الصغيرتين وأتابع حديثه بإنصات. يحكى لى عن تاريخ الأسرة التى أنتمى إليها، كيف جاءت من الجزيرة العربية إلى صعيد مصر حيث حطت رحالها، ثم كيف نزحت من الصعيد بعد نصف قرن أو أكثر ليستقر بها الحال فى إحدى قرى محافظة الغربية هى "القضابة". فى صوته رنين الفخر عندما يحدثنى عن كل ذلك، وشاربه الأشقر المشوب بحمرة خفيفة يهتز فى كبرياء.

عند آخر الحديقة قرب "البوابة" الخلفية، والحظيرة شارع ضيق لا أتذكر أننى رأيت أحدًا يمشى فيه. على الجانب الآخر من هذا الشارع كان يوجد قصر يمتلكه أمير من الأسرة المالكة يدعى "عمرو إبراهيم". مبنى يتكون من دور واحد أبيض اللون، مدخله مزدان بعواميد فيها رشاقة أنثوية، ونوافذه مغطاة بالحديد المشغول، وبسواتر داكنة محفورة فى الخشب بدقة. القصر صغير ومع ذلك توحى عواميده، ونوافذه، وحديقته، والذوق الذى دخل فى تكوينه بالثراء، كأنه أقيم ليأوى امرأة جميلة كانت تتمتع لدى صاحبه بمكانة خاصة. كلما خرجت إلى

الشارع أحوم حوله. أتخيله قصر من القصور حبست فيه أميرة أو جنية، أو مخلوقًا من المخلوقات العجيبة التى أرى صورها فى قصص "السندباد" و"ألف ليلة وليلة".

لم أجرؤ على أكثر من الدوران حوله، وتأمله من على الرصيف المقابل له، فأمامه كان يقف رجال أقوياء لهم شوارب، يرتدون الملابس المزركشة بالقصب ويتدجون بالسيوف العريضة، والخناجر.

كان لابد أن أصبح كهلاً تجاوز الأربعين حتى أدخل من بابه ففى ليلة من ليالى صيف سنة ١٩٦٤ دق جرس التليفون فى بيتنا فى الزمالك حيث كنت أقيم مع أمى بعد أن تزوج أبى من امرأة ثانية. كان المتحدث رجلاً اسمه "أحمد فؤاد" تعرفت عليه وأنا طالب فى السنة النهائية للجامعة. شاركنا أنا وهو فى فرقة تجديف رباعية مع اثنين من زملائه فى كلية الحقوق، كما جمعت بيننا جميعًا العضوية فى تنظيم يسارى واحد هو "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى". ولكن بعد سنة ١٩٥٢ قرر أن الصعود على موجة ثورة ٢٣ يوليو هو أفضل السبل لتحقيق أهدافه، وأثناء الفترة التى سجنت فيها فى عهد "عبد الناصر" أصبح رئيسًا لإحدى البنوك المؤممة الكبيرة، فبعدت بيننا المسافة.

صوته المعدنى الرفيع يأتينى خلال السماعة. لم أتبين من هو فى البداية. اقترح على أن أزوره، فاتفقنا على موعد فى مكتبه. ذهبت إليه وأنا لا أدرى ما الذى دفعه إلى لقائى. بعد أن فرغنا من شرب القهوة، والسؤال عن الصحة، والأحوال أخذ يشرح لى المرحلة التى وصلت إليها ثورة ٢٣ يوليو، وضرورة وجود تنظيم طليعى يقود خطواتها فى الاتجاه الاشتراكى. أوضح لى أن " عبد الناصر " مهتم بالاستفادة من كل الطاقات المرتبطة بأهداف الثورة، وعرض على الانضمام إلى الفرع الذى أوكل إليه تكوينه، فطلبت منه مهلة للتفكير.

مر أسبوعان، وأنا صامت فاتصل بى وسألنى عن الموضوع الذى عرضه على. أبديت استعدادى للانضمام إلى التنظيم، فأبلغنى أن هناك لقاء سيتم بينى وبين بعض المسئولين، وطلب منى أن أتوجه بعد يومين إلى منزل أعطانى رقمه وقال إنه يقع أمام "نادى الجزيرة".

كان الموعد المحدد لى فى الثامنة والنصف مساءً، وكان الجو جميلاً، فقررت أن أسير على قدمى من كوبرى "قصر النيل" حتى العنوان الذى أعطاه لى. عندما أصبحت على مقربة منه أخذت أدقق النظر فى الأرقام المكتوبة على اللوحات تلمع فى الضوء الهابط عليها من مصابيح الشارع. فوجئت بأن الرقم الذى أقصده هو قصر. ألقيت على الرقم نظرة ثانية حتى أتأكد أننى لم أخطئ المكان، ثم سرت بخطوات متأنية مخترقًا الباب الحديدى المفتوح على مصراعيه دون حراسة، وفى تلك اللحظة أدركت أننى أصبحت داخل المكان الذى كنت أحوم حوله وأنا طفل صغير. خطواتى تنتقل فوق الرمال المبللة بصوت خشن يبدو عاليًا فى صمت الليل. كدت أن أصل إلى أسفل المدخل تمتد درجاته الرخامية فى انحناءة بيضاوية الشكل صاعدة إلى

العتبة. الضوء الواهن المنبعث من مصابيح البوابة يتحرك على جدران القصر مثل ظلال الأشباح، فيتزايد إحساسى بالغموض المحيط بالمكان، كأنه يخفى فى أحشائه أسرارًا. عاودنى الشك الذى انتابنى عندما وجدت نفسى أمام الباب الخارجى، لكن إذا خرجت، وعدت مرة ثانية سأثير الريبة، فلابد أن هناك من يتتبعنى من بعيد. خيالى استيقظ، فأنا طفل صغير، أقف أمام باب القصر وأتوجس خيفة من عيون الحراس، وشواربهم الكثيفة، وسيوفهم، وأنا رجل ناضج تحدى القضبان، ولم يجفل أمامها.

استأنفت قدماى وقعها الخشن فوق الرمال. هيئ إلى أنه فى أية لحظة سينطلق كلب من جوف الظلام. أشعر بأسنانه تنغرس فى لحم الساق. أستدير وأقفز على ظهره ممسكًا بعنقه المكتنز بين أصابعى، ضاغطًا بكل قواى. اختفى الصوت الخشن تحت قدمى، وحل محله حفيف الرخام. وصلت إلى آخر الدرج، وفجأة ظهر أمامى رجلان. خرجا من أعماق الظلام كأنهما جزء منه انفصلا عنه فى تلك اللحظة. عندما اقتربت منهما أحسست أنى رأيتهما من قبل: تقاطيع الوجه، وتربيعة الأكتاف، والملابس المكواة بعناية، والأحذية الغليظة. إنهما من حراس الوزارات، أو رجال المباحث، أو فراشى مكاتب كبار الشخصيات. فيهما تلك النظرة الحجرية المفعمة باللا إحساس. تفرست سريعًا فى الملامح لا إقبال فيها ولا انسحاب، واقفة جامدة فى مكانها ونظراتها باردة. شعرت أن عيناى تصطدمان بحائط. ربما لو كنت من ذوى النفوذ والمكانة لتحركا ليعبرا عن ترحاب العبيد بالسيد القادم. ترى هل أنا فى حاجة إلى ذلك؟ ترددت لحظة متوقعًا أن ينطق أحدهما. اكتفى الرجل المنتصب على يسار المدخل بإشارة من يده نحو الصالة الممتدة أمامى، نحو مساحة كبيرة فارغة تمامًا فيما عدا بعض الأوانى النحاسية تحتوى على نباتات خضراء تلمع أوراقها الداكنة فى الضوء الضعيف الهابط من نجفة كريستال تتدلى من السقف العالى، وتمثال من الخشب ينتصب فى أحد الأركان يبدو بلا ملامح، وأشياء طويلة معدنية تشبه رماح الفرسان، وسيوف، وخناجر معلقة على الجدران، وبساط كبير نحلت أطرافه، وبهتت ألوانه يغطى مساحة الأرض الواسعة، ويخفى سطح الخشب الذى فقد طلاؤه.

بعد لحظة تردد خطوت إلى الداخل، وعبرت البساط إلى الجانب الآخر من الصالة، لأجد رجلاً ثالثًا يتميز بالملامح ذاتها، وكأن طول العمر فى مثل هذه المهام يطبع الإنسان بطابع متشابه. كان يقف أمام باب مغلق مشبكًا يديه أمامه كأنه يستعد للصلاة. نطق ثلاث كلمات هى "لحظة من فضلك" ثم استدار، ونقر على الباب مرهفًا السمع بتلك الرهبة التى تبدو على الخدم أمام المسئولين الكبار. بعد لحظة بدا عليه وكأنه سمع صوتًا يأتى من الداخل، ففتح الباب عن آخره، وأفسح لى مكانًا لأمر منه. خطوت فوق العتبة، أكاد لا أرى إلى أين أنا ذاهب. رأيت ثلاثة رجال يقفون صفًا واحدًا فى حجرة خالية من كل شىء سوى مكتب انتصب وراءهم. كان الضوء هنا أيضًا خافتًا. وجدت نفسى واقفًا أمامهم فجأة فقد كانت المسافة بينهم وبين

الباب لا تزيد على بضع خطوات كأنهم يتقبلون العزاء فى سرادق، ولأن الضوء كان خافتًا فضلاً عن السرعة التى تم بها كل شىء لم أتبين ملامح الوجوه التى اصطفت أمامى، ولكن عندما أمعنت النظر فى الرجل الذى جاءت وقفتى فى مواجهته تبينت أنه وزير التعليم العالى، ربما لأنى رأيت صوره فى الجرائد. أما الرجلان الآخران فكانا مجهولين بالنسبة إلى تمامًا، وكانت الوجوه الثلاثة تبدو غريبة، غير إنسانية فى الضوء الخافت تشبه تماثيل من الشمع فى متحف للجرائم..

مد وزير التعليم العالى يده إلى فجأة، وتحركت يدى أنا أيضًا دون أن أدرى وبعده مد الرجل الثانى يده إلى ثم تبعه الثالث فتصافحنا بتلك الحركة الآلية الباردة دون أن يبدو عليهم أقل انفعال ينم عن الترحيب، أو الحماس أو الضيق بهذا اللقاء. لم يقل أحد من الرجال الثلاثة كلمة، فظللت أقف أمامهم صامتًا. توقعت أن هناك شيئًا آخر لابد حادث، لكن الصمت طال دون أن ينطق أحد بكلمة، لا هم ولا أنا. فى ظروف أخرى لما بقيت هكذا منتظرًا، ولكن كان الموقف غريبا، وشاذا، وغير متوقع تمامًا. فأنا خارج منذ قليل من السجن. دخلت وأنا سنى خمس وعشرون سنة، وخرجت بعد أن تجاوزت الأربعين إلى عالم كدت أن أنساه، إلى أشياء جديدة على تمامًا. يملؤنى الحماس وحسن النية الساذجة. الثورة جاءت ولا شىء يستطيع الآن أن يقف أمامها. هكذا كنت أرى الوضع الذى أصبح قائمًا. عجزت عن فهم ما يدور أمامى، فهل هذه هى الطريقة التى يستقبلون بها الأعضاء الجدد أمثالى فى التنظيم الطليعى الاشتراكى الذى يريد عبد الناصر إنشاءه؟!

لم أدرك ما هو المطلوب منى بعد ذلك. ثم فجأة أدركت أن المطلوب قد انتهى. فقد أخذوا يتحدثون فيما بينهم كأننى غير موجود. لمحت أحدهم ينظر إلى من طرف خفى، فهززت رأسى نحوه بتحية سريعة، واستدرت خارجًا من الباب. قدماى فوق الخشب لهما صدى أجوف، تلاها حفيف الرخام، ثم الرمل الخشن. أسرع الخطوة كلما اقتربت من الباب المفضى إلى الشارع كأنى أهرب من حصار جديد يدبر فى الحجر المظلمة التى تركتها ورائى. وجدت نفسى سائرًا على الرصيف تحت السماء الواسعة أملأ رئتى بنسيم الليل كأن شيئًا ثقيلاً ربض على صدرى. تملكنى شعور بالإهانة، فأخذ الغضب يصعد فى جسمى مثل موجة من الدماء الساخنة ترتفع كالطوفان نحو رأسى.

هكذا تم تدشينى فى التنظيم الطليعى الذى شرع "عبد الناصر" فى بنائه ليكون الدينامو المحرك لقوى الثورة. كان لابد أن يمر بعض الوقت حتى أفيق إلى الواقع، إلى مشاكل الفئة التى تحكم، إلى أن جميع الذين دخلوا القصر فى تلك الليلة لم يعاملوا بالأسلوب نفسه. فالمنطق الذى ساد كان منطق السلطة القابضة على ناصية الأمور عندما تواجه بأمثالى.

لم أفهم مغزى ما جرى فى تلك الليلة إلا بعد أن انقضت سنوات، بل، ربما لم أفهمه تمامًا إلا عندما جلست لاسترجع كل ما حدث أثناءها حتى أكتب عنه. ذلك الصمت الغريب الذى ساد

بينى وبين الرجال الثلاثة، بماذا أفسره؟ لماذا لم يفاتحنى أحد بالكلام، أو يسألنى سؤالاً، أو يقدم لى الترحيب المتوقع فى لقاء مثل هذا؟ ثمة هوة كانت قائمة بيننا، هوة فى الفهم لم تتجاوزها قيادات الثورة. عندما وافقت على انضمامى للتنظيم الطليعى ظنت أننى بذلك تحولت إلى موظف يبحث عن مكان له. كانوا يتوقعون منى إذن أن أبدأ بالكلام، أن أشكرهم مثلاً على قبولى فى صفوف الحزب الذى يشرعون فى بنائه. أما أنا فكنت خالى البال عن ذلك. أنا ثائر جاء ليلتقى بالثوار حتى وإن شاءت الظروف أن يتم اللقاء بين شخص كان فى السجن، وأشخاص أصبحوا وزراء.

لم أستطع أن أتصرف وفقًا للمنطق الذى كان فى أذهانهم والذى ظل يحاصرهم حتى أسقطهم "السادات"، أن أتحول فى تلك اللحظة إلى موظف يقف أمام رؤسائه. أما هم فقد عجزوا فى تلك الليلة، بل وطوال حياتهم أن يتحولوا من موظفين فى الدولة يتلقون أو يعطون الأوامر، إلى ثوار يخوضون المعارك فظلت الهوة قائمة بيننا.

على الجانب الآخر من قصر "عمرو إبراهيم" كان يوجد سراى "لطف الله" يمتد على النيل من "نادى الجزيرة " حتى كوبرى "أبى العلاء" أى من شارع "سراى الجزيرة" حتى شارع "فؤاد"، ويحتل مساحة من الأرض تصل إلى ثمانية أو تسعة فدادين. فوق هذه المساحة توزعت مبان، وحدائق القصر. المبنى الرئيسى له جناحان، أحدهما للصيف، والآخر للشتاء. من خلفه توجد الاستراحات الخاصة بالضيوف والمرافق، والحظائر، ومساكن الخدم. بالقرب من شارع "فؤاد" صالة للحفلات الراقصة جدرانها منقوشة بالرسومات الملونة، وماء الذهب. السقف يرتكز على عواميد وأقواس بعضها مصنوع من المرمر، وبعضها من الرخام حسب موضعها من البناء، والصالة تسع ما يزيد على ألف من المدعوين والمدعوات. المبانى كلها مقامة على الطراز نفسه يجمع بين العواميد الفرعونية تنتهى فى شكل زهرة اللوتس، والمعمار العربى الإسلامى بأقواسه، وأبراجه، ونوافذه المغطاة بالمشربيات، وهى محاطة من كل جانب بالحدائق والنافورات، وأحواض من المياه مبطنة بالموزايكو الإيطالى، والفسيفساء تسبح فيها أسماك الزينة، وتختال من حولها الطواويس.

كان هذا الخليط المعمارى الذى تجلى فى كل المنشآت يعود أساسًا إلى أسرة "لطف الله" التى كانت تنتمى إلى أقباط الصعيد وإلى أغناهم. فقد شقت طريقها فى عمليات جباية الضرائب، والرقابة المالية، والحسابات واضعة نفسها فى خدمة الخديوى، والأسرة الحاكمة، والبنوك الأجنبية والمصارف التى غزت البلاد بعد أن تحطمت مشاريع "محمد على" أمام تواطؤ الدول الاستعمارية. هكذا جمعت إحدى أكبر الثروات فى مصر...

بين "سراى لطف الله" وقصر "عمرو إبراهيم" طريق يمتد بين الاثنين، ويبدأ هو أيضا من شارع "سراى الجزيرة" ليصب فى شارع فؤاد الذى سمى ٢٦ يوليو بعد ثورة الضباط. فى هذا

الطريق كانت تسير قضبان الترام رقم ٧ خدمة لزوار النادى. ففى تلك الأيام لم تكن "الأتوبيسات" قد جاءت إلى مصر. أما السيارات فكانت بدعة لا تمتلكها سوى أقلية من الرأسماليين الأجانب أو بعض النبلاء الذين يعيشون فى أعلى المستويات. يلتفت إليها المارة عندما تسير فى الشوارع مصدرة أصواتا كالفرقعات. كان أغنياء المصريين، والأتراك، وأغلب الأجانب يتنقلون فى الحناطير، والكاريتات، والسوارس[١] وكانت الأسر تتبارى فى امتلاك الجياد الأصيلة تنطلق "بالكاريتات" فأراها مسرعة أمامى رافعة أقدامها بتلك الحركة القوية الرشيقة الدالة على السلالة التى تجرى فى دمائها.

كنت أحب الترام رقم ٧ بشكل خاص: ألوان اللافتة الحمراء، والزرقاء، والبيضاء زاهية، فيها فرحة الاحتفال كأن هناك عيدا أو مهرجانا يحمل إليه الناس مندفعا فوق قضبانه. ألتقط الرنين المرح للجرس يضغط عليه السائق بقدمه كأنه يدق على آلة موسيقية، وهو يقف منتصبا فى المقدمة كالجندى المقدام مرتديا طربوشه الأحمر، وسترته الخاكية تلمع أزرارها النحاسية فى شمس النهار. كلما زادت السرعة؛ ودقت الأجراس أشعر بقلبى ينتفخ بالسعادة، فأنا كالطائر فى الريح أنطلق على جناحى، أقف إلى جوار السائق وأتطلع إليه، أحسده على يديه تمسكان عجلة القيادة وتديرانها ذات اليسار، وذات اليمين فيهتز الترام من ناحية إلى ناحية، أو يصرخ بالألم عند دوران القضبان. فى الصيف عندما أركب فيه ينعشنى الهواء الرطب المندفع إليه فهو مفتوح على الجانبين، وتتبدد الحرارة التى تراكمت فى جسمى تحت لفح الشمس، وفى الشتاء يلسع البرد أذنى، وأنفى ويجعل الدماء الساخنة تجرى فى الشرايين.

لا أنسى شكل الترام، وألوانه وبهجة الإحساس بانطلاقه يسابق البيوت، والشوارع والناس ويتعداهم فكأننى أنا القائد. يظل مرتبطا فى ذهنى بالسعادة، "باللونا بارك" وألعابه، بالمراجيح، والحدائق والضحك، بلحظات خالية من القلق، بالحركة الحرة المنطلقة التى لا يعوقها عائق.

البيت الكبير الذى جئت إليه كان يبث فى شعورا متناقضا. إنه واضح فى ذهنى، وغامض، راسخ فوق القلب، بثقل يكاد لا يقاوم، ثقل الحجم الضخم، والأركان المختفية فى الظلام، والناس الكبار والخدم والغربة التى تحيط بى من كل جانب فلا أحد يقترب منى ليشرح لى ما يجرى أمامى. مع ذلك فى الشتاء تحمينى جدرانه من البرد، من نباح الكلاب، وظلام الليل، وفى الصيف آوى إلى حجراته فتبث فى جسمى الراحة من القيظ والتراب. أحتمى خلف جدرانه، وأغلق عينى فى أركانه المنزوية خلف السواتر. على النوافذ الكبيرة قضبان لا تفرض حصارا علىّ، وإنما تقينى من عدوان محتمل. عندما أستيقظ فى الصباح أرى أعواد الياسمين تلتف حولها وأوراقه المغطاة بالندى تلمع فى ضوء الشمس، وفى الليالى الحارة يأتينى رحيقها

(١) عربة يجرها حصان أو بغل ويركب فيها الجمهور.. سميت على اسم الرجل الذى أنشأ المشروع وأسس الشركة لتنفيذه.

قويا أو ضعيفا أو عابرا عندما يبدل النسيم اتجاهه. الأسقف عالية والغرف واسعة يخيم عليها الصمت وأستنشق فيها رائحة الطعام يصعد من أسفل السلم، رائحة الملوخية والأرز المعمر ولحم الضأن، فإذا تبددت عادت إلى أنفى رائحة الملابس المغسولة والوبر، والخشب فى الجو الرطب.

جسمى الصغير ينتقل كالفراشة فى الظلام. تلتقط عيناى لمعة الأوانى فى ضوء القمر يتسلل من شقوق النوافذ، وتلتقط أذنى صوت الفئران تتردد أقدامها على خشب الأرض. أنا كالإلكترون الذى أفلت من جاذبية النواة، يتحرك فى المساحات. راح الإحساس بالاختناق والقيود فى الغرف الضيقة المزدحمة بالأثاث التى عرفتها فى لندن. هنا أشعر بالارتياح، بمجال للتنفس. لا يوجد بينى وبين أحد فى هذا المنزل الضخم ارتباط، ولا تستطيع أمى أن تحكم القيود التى فرضتها على من قبل. هى موجودة دائما وفى كل الأوقات لكن فى هذه الفترة تبدو كأنها غابت عن حياة "الدوار"، أو كأنها اختفت منه أو ربما لأنها عنصر ثابت لا تتناوله التغييرات، سقطت من الذاكرة، فالعادة تجعل عقلى يتغاضى عن الناس، أو ينساهم، ليترسب فيه الأشخاص الذين أدخلوا فى حياتى عنصرا مختلفا، أو أشبعوا احتياجا خاصا. كذلك الحال بالنسبة للأحداث التى ظلت حية فى الأعماق فالجديد يحفز على الالتقاط، على الانتقال خطوة أخرى فى المشوار.

حتى اليوم تعود إلى روائح البيت القديم، رائحة الخشب فى الجو الرطب مختلطة بالدخان الصاعد فى الأفران، بالصابون فى المفارش، بالمسك المختفى فى ثنايا الملابس، بماء الورد والبخور، والقهوة، والمستكة، والحبهان. تشبعت بها الجدران، والأبواب، وقطع الأثاث، ومفارش السرير والمقاعد والأدراج. دخلت فى تكوينها وكأنها كانت فيها منذ البداية لتصبح جزءا من النسيج أو الخشب، أو الدهان. تتسرب إلى جسمى من كل المسام، أتعرفْ عليها أحيانا عندما أدخل بيتا من البيوت القديمة للأعيان. تملأ الأنف، و"الرئتين" والقلب والأحشاء وتتنقل فى الشرايين والأعصاب مثل البلسم الشافى. تزحف مع السكينة فأمتصها حتى الأعماق. أترك نفسى لسحرها الهادئ . أجلس على الأريكة المرتفعة المتشحة بالبياضات، والأغطية الصوفية الحمراء، فيها دفء النسيج اليدوى المغزول بمهارة. أسند ظهرى للوسادة وأرهف سمعى للأصوات، للعصافير تبنى أعشاشها حول النافذة، وتزقزق بلا انقطاع، للأيدى تبطط العجين فوق الطبالى، وحوافر الخيول تسرع فوق الشارع لرنين الأجراس، للمياه توشوش فى المواسير عندما يمتلئ الخزان، للنساء يثرثرن فى الصالة أصواتهن كالهمهمة المتصلة لا يقطعها سوى صوت جدتى المكتوم ينادى الخادمة السمراء، "حليمة... حليمة... راحت فين الولية دى"؟.

أصعد إلى حجرة جدى عندما يكون غائبا. أتأمل السرير العريض ينتصف الحجرة. يرتفع فوق الأرض مسافة، فعندما أقف إلى جواره يصل ذقنى إليه بالكاد. له أربعة عواميد وعليه مرتبتان من القطن الطرى، ووسادات طويلة تمتد من جانب إلى جانب، ولحاف يغطيه تماما.

الناموسية رفيعة تلتف حول إطار معدنى معلق أعلاه، فتسقط بشكل مستقيم على كل النواحى حتى تفسح مكانا كافيا للراقد. إلى جوار السرير مقعد منخفض، ظهره عال، وعليه سجادة صلاة، وقرب الجدار تسريحة سطحها المصنوع من الرخام وضع فوقه إبريق من النحاس، وطست من الصينى، وعلى مسافة صغيرة منها حمالة من الخشب الداكن عليها مناشف.

فى أحد الأيام صعدت إلى الدور العلوى ظانا أن الحجرة خالية، وأننى أستطيع أن أتسلل إليها كما تعودت أن أفعل عندما يترك جدى "الدوار". أقضى فيها بعض الوقت متنقلا بين الأشياء. أتطلع إلى نفسى فى المرآة، أو أعبث بالسبحة التى يتركها على المنضدة المربعة، المرصعة بالأصداف، أو أفتح الدولاب ببطء حتى لا يئن فينبه أحد من الناس إلى وجودى فى هذا المكان وأفحص زجاجات العطر، وعلب النشوق، والدخان، والأساور، والكردان، والشيلان الملونة التى لم تعد جدتى ترتديها.

لم يصدر عن الباب أى صوت وأنا أدفعه أمامى. أدخلت رأسى لأطل من الفتحة، فلمحت جدى منتصبا قرب السرير. كان يقف على قدمين عاريتين مرتديا جلباب النوم، وعلى رأسه طاقية. أرى ملامحه من الجانب، الأنف المدبب قليلا، والحاجبين البارزتين القويتين، واللحية السوداء. خطوت إلى داخل الحجرة دون أن أغلق الباب ورائى. رمش بعينيه كأنه لاحظ دخولى، ولكنه لم يلتفت إلىّ. ظل يتمتم بصوت خفيض، لم أتبين سوى كلمة واحدة هى "الله" يعلو صوته كلما نطق بها بين الكلمات. تقدمت فوق البساط بخطوات حذرة. درت حو له أشاهد الرجل المهيب من مختلف الجهات، وهو ينتصب، ويضع يديه على صدره، أو خلف أذنيه ثم ينحنى، ويسجد مخفضا هامته حتى الأرض كأنه يتوسل ويتضرع إلى كائن لا أراه، ويكاد ينهار أمامه. ظللت واقفا بالقرب منه لا أحرك ساكنا. أحسست أنه يرمقنى من طرف خفى، فأكملت خطواتى حتى أصبحت وراءه. أتتبعه من الخلف وهو ينتصب، وينحنى، ويركع، ويسجد كالجبل العتيد الذى أصابه الإعياء، فبالنسبة إلىّ كان الرجل العملاق عنوانا للرهبة الصامتة، والرأس المرفوعة، والقوام الذى لا ينحنى، رجل يعمل حسابه فى كل اللحظات، إذن ما هى هذه الحالة الغريبة التى أصابته؟ لم أربط بين ما يفعله، وبين ما شاهدته فى الكنيسة. كلما سجد على الأرض رأيت مؤخرته ترتفع فى الهواء، وظهره العريض يستوى أمامى . حركة الانتصاب، والانحناء، ثم السجود فوق الأرض تذكرنى بخالتى "روزى" عندما كانت تلعب معى، وتقلد حركات الحصان، أو البغل، أو الحمار، أمتطى ظهرها، وأصرخ من الفرحة، ونضحك بأعلى أصواتنا.

عيناى تتبعان حركة الصعود، والهبوط، والخواطر تروح وتجىء حول فكرة أضاءت فى ذهنى. عندما يسجد الرجل على الأرض تتبدد الرهبة، ويتلاشى الخوف الذى يبثهما فى وهو يجتاز الصالة، أو يهبط على السلم، أو يتربع فوق الأريكة وسط ضيوفه فزاد إغراؤها وأصبحت

لا تقاوم. هكذا فى قفزة فجائية طارت معها البقية الباقية من الحذر المتأصل فى أعماقى امتطيت ظهره غارسا أصابعى فى عنقه حتى لا أسقط من مكانى. اجتاحتنى موجة من الفرحة العارمة ضاعت فى ثناياها كل المخاوف. أصبحت فوق الرجل العملاق، وهو يسجد من تحتى. راح الإحساس بالضآلة التى كان يبعثها فى أعماقى. أضغط بركبتى وألف ساقى من حوله صائحا، "شى شى"

ولكن موجة السعادة لم تدم طويلا، فقد بدا لى فجأة أن شيئا كالجبل يموج تحتى، ثم جاءنى صوت كزئير الأسد الغاضب. فى لحظة وجدت نفسى ملقى على الأرض، أرتكز على أحد مرفقى، وأتطلع بقلب واجف ملأه الرعب إلى الرجل وقد مال علىّ والشرر يتطاير من عينيه، كأنه يوشك أن يسحقنى بقدميه، أو بيديه، كالوحش الكاسر الذى سينقض علىّ فأغلقت عينى وأخذت أبكى بصوت عال مستنجدا بأمى أو جدتى، أو بأى شخص آخر يخف لنجدتى قبل أن تقع الكارثة التى أراها واقعة لا محالة.

لكن فى لحظة وسط الدموع لمحت الوجه الذى يطل علىّ تتلاشى منه الكراهية، وتتراخى خطوطه المتقلصة بالعنف الضارى. عاد إليه هدوءه فتحولت الأصوات الباكية الصادرة عنى إلى مجرد أنين يتردد على فترات ثم سكنت تماما. فى عينيه لمحت نظرة غريبة لم ألمحها من قبل، كأنه لا يغفر لى فحسب، وإنما يطلب منى أنا الغفران. انحنى علىَّ ورفعنى بيديه ثم أوقفنى على الأرض. ظل ساكنا لحظة طويلة كأنه ينتظر، ثم ربت على رأسى. يده تلمسنى وكأنه يخشى من لمساتها علىَّ. أمسك بكتفى وقادنى حتى الباب. عندما وصلنا إليه توقف. وضع إصبعه الكبير تحت ذقنى، ورفع وجهى إليه وتفرس فى ملامحى لحظة، ثم سمعته يقول فى صوت خفيض:

"اذهب، ولا تبالى، ولكن إياك من فعل ما فعلته مرة ثانية، وإلا غضب الله عليك غضبا شديدا وأنزل عليك أقسى العقاب".

لم أفهم ما كان يقصده بالضبط، فاللغة العربية كانت لا تزال تستعصى علىّ. مع ذلك فقد ارتبط الغضب، والعقاب فى ذهنى بإله المسلمين، وبهذا الرجل الطويل القامة المهيب. ظللت فى أعماقى أنفر من الساجدين وأستريب فيهم، فأنا لا أستطيع أن أؤمن جانبهم. إنهم يتوسلون ويتضرعون إلى قوى كبرى لا يرونها بعيونهم، لكنهم فى اللحظة نفسها قد ينقضون على وأنا أعزل لا أملك وسيلة للذود عن نفسى، ولا أعرف الذنب الذى اقترفته، فعندما قفزت فوق الظهر العريض لجدى كنت مدفوعا بتلك الرغبة فى اللعب معه التى تتملك كل الأطفال.

أنا فى "دوار" الأسرة الكبيرة كالنبات الذى نقل من تربته. الناس يروحون ويجيئون من حولى ولكن نادرا ما يلتفتون إلىّ. الرجال أجسامهم طويلة، وشواربهم كثة وملامحهم فيها حدة. لا يبتسمون ولا يضحكون. يمسكون فى أيديهم بعصاة إذا خرجوا من البيت وأحيانا يحتفظون

بها طوال الليل والنهار. يرتدون العمم المستديرة أو الطرابيش ويتحدثون بلغة لا ألتقط منها إلا القليل. أما النساء فهن يعاملننى بحنان فيه حذر، وأحيانا بكراهية يسترنها بالحنان الظاهرى أستشفها بغريزة الطفل الذى لا يخطئ إحساسه، أو ألمسها مباشرة فى دفعة من اليد، أو قرصة تختفى فى الحضن. ثم لماذا تظل أصواتهم هامسة، وعيونهم حزينة، ونظراتهم منكسرة لا يرفعونها إلى وجوه الآخرين؟ ولماذا يرتدين الملابس السوداء، فإذا ما اجتمعن سويا يبدين مثل أسراب الغربان. إنهن مثل جدتى الإنجليزية لا أنس إليهن ما عدا جدتى، أم أبى التى نشأت بينى وبينها علاقة نمت مع الأيام.

ظلت أمى هى الملجأ ولكن أمى ضائعة فى هذا البلد، والحزن لا يفارقها إلا نادرا. لم تتعود أن تخفى ما تشعر به، فأقرأه على وجهها. تفتقد العواطف التى كان يمكن أن تعوضها عن الغربة فأبى دائم السفر، يتنقل بين البلاد فى جولات للتفتيش على التعاون الزراعى، فضلا عن إن علاقته بها أخذت تفتر بسرعة أو ربما كانت فاترة منذ أن التقيا فى "لندرة" كما كان ينطقها الناس فى ذلك الوقت. لا تستطيع أن تتسلى بالحديث مع غيرها، فأنا طفل ألتقط اللغات بسهولة، أما هى فاللغة العربية تستعصى عليها، ولا يوجد سوى عمتى "فردوس" التى تعلمت الإنجليزية فى المدرسة لتسرى عنها فى الليالى المظلمة المضاءة بمشعل الكيروسين. لكن سرعان ما تركت "الدوار" وسافرت مع زوجها ضابط البوليس إلى الإسكندرية.

كانت أمى شخصية قوية فتحملت ظروفها القاسية بقدر كبير من الصبر والثبات. ثم هناك الكبرياء كان يحول دون رجوعها إلى بلادها، فقد عارضت أسرتها هذا الزواج من رجل مصرى، وسفرها معه إلى بلد غريب، فكيف تتراجع بعد هذا عن القرار الذى تمسكت به، وكيف تعترف بالفشل فى زواجها لتبدأ حياتها من جديد، بعد أن أصبح طفلها الأول صبيا تجاوز الخمس سنين؟ ربما لو كانت تستطيع أن تقوم بعمل خارج البيت لحزمت أمرها، وطلبت الطلاق لتعود إلى موطنها الأصلى، ولكنها لم تعمل أبدا فى حياتها، ولم تتدرب على شىء سوى العمل المنزلى. ثم الطلاق من رجل مسلم ليس من الأمور اليسيرة خصوصا بالنسبة لامرأة شابة قليلة التجربة. لن تجد من يقف إلى جوارها أو يساندها فى هذا البلد الغريب، ومن يدرى كيف ستتصرف الأسرة الإقطاعية التى تحيا فى كنفها للذود عما يريده ابنها المدلل، وحمايته وفقا للأعراف، ومن أين لها بالموارد حتى تنتزع حقوقها، إن كانت لها حقوق، أو تسافر، أو تدبر أمور حياتها عندما تعود إلى بلادها؟

لذلك كله قررت ألا تجازف، أن تبقى حيث هى، أن تتحمل النتائج التى ترتبت على زواجها. لم يعد لها الآن سوى ذلك الصبى الصغير، وهى امرأة لها شخصية، وفيها طاقات، وشباب، كما أنها ولدت وكبرت فى العصر الذى بسطت فيه الإمبراطورية البريطانية نفوذها على جميع القارات رافعة ألوية التقشف، والتضحية فى عصر المثل الأعلى "الفيكتورى" المتجسد فى الرجل

الإنجليزى حاكم المستعمرات، وامرأته الفاضلة تصحبه فى أسفاره، ترعى البيت وتحافظ على الأسرة وعلى الأخلاق، وتذهب إلى الكنيسة وتركع لله.

كانت امرأة عادية من عامة الناس لكنها آمنت بأن العمل المتواصل هو سر النجاح، تضعه فى مصاف الإله، بل ربما ترفعه أعلى من ذلك، فهى تؤمن بوجود الله، ولكنها لا تعيره اهتماما، ولا تؤدى طقوس العبادة، ولا تذكره إلا لماما، أما العمل فهو شغلها الشاغل، فالعمل فى رأيها مفتاح المال، والمال معناه السلطان، والعمل لا يستقيم إلا بالمواعيد الصارمة فى الأكل، والنوم، والاستيقاظ. العمل هو إحساس بقيمة الوقت، والحرص على عدم تبديده فى النزهات، والملذات، والاهتمام بالمظاهر. العمل هو صحة الأبدان، وتفادى الإفراط فى الطعام، والشراب والسهر، هو الاقتصاد الأكمل فى كل الأشياء، هو الاعتدال، هو التقشف الذى يصلب العود، وينمى القدرة على تحمل المصاعب. العمل هو المبادئ "الكالفينية" فى الأخلاق، وفى الطباع وفى التصرفات اليومية للحياة.

هذا ما غرسته فىّ خلال السنوات بإصرار. أخضعت كل شىء فى حياتى للنظام الذى تراه. النوم يتم فى مواعيد لا يجوز أن أحيد عنها مهما كانت الأعذار، والأكل كذلك له قواعد فى المواعيد والكميات، والأصناف، وفى عدم الالتفات إلى شىء آخر أثناء الجلوس أمام الأطباق، والترتيب فى الهندام، والدواليب، والأدراج لها أحكام، والحمام لا سبيل إلى الإفلات منه حتى إذا أصبت بالبرد أو الزكام أو قدر كبير من الإرهاق، وفى كل مساء لابد من أن تنظف أذنى بقطعة من القطن حول عود من الثقاب، وأهم من ذلك كله تلك الرغبة الحارقة التى أشعلتها فى أعماقى نحو الإنجاز، وإتقان العمل والتفوق، فهى النموذج الذى رأيته أمامى منذ أن صرت ألاحظ الأشياء، تنشد الكمال فى كل الأمور. تشربت بروح العصاميين العتاة، بديانة العمل، والمكسب، والمال فى خدمة الله، وأخذت تصبه فىّ بكل ما فى جسمها وعقلها من قوة وعناد.

أدركت فائدة كل ذلك فيما بعد عندما دخلت فى معترك الحياة وواجهت الصعاب. لا سبيل إلى إنكار ما وهبته إياى من عادات، وقيم الحضارة العصرية التى بنيت على أنظمة رأس المال، ولكن جاء اليوم الذى تساءلت فيه عن أثر كل ذلك على الخيال، والفن والابتكار، على التكوين الوجدانى، وعلى ذلك الجزء التلقائى من الإنسان الذى يسمح باللعب والضحك والمرح، بالطفولة كمرحلة يجب أن تظل نابضة فى الأعماق.

حتى بعد أن أصبحت رجلا ناضجا ظل طبعها عالقا بى، مطبوعا فى الأعماق كالقدر لا فكاك منه، كأننى خاضع لقوى لا إرادية أقوى من قواى، كالقطار يسير على قضبان حديدية، تحدد مساره. أقاوم بالوعى، بالإرادة الحرة النابعة من تجربة أخرى فى الحياة، فأنجح أحيانا، وفى أغلب الأحوال أفشل فى الفكاك.

ضاعت طفولتى قبل الأوان. لفترات طويلة فى الحياة لم أعرف المرح، أو الضحك أو التلقائية. لدى رسالة فى الحياة، وهى النجاح. أنا لست مثل سائر الناس، أنا إله صغير، والإله الذى يضحك يكف عن كونه إله.

كنت كثير السؤال عن كل ما يحيط بى... قالت لى أمى ضاحكة.. "فى فترة من الفترات كنا نسميك "واى". (أى "لماذا" بالإنجليزية). لكن لا أحد كان يجيب على تساؤلاتى، فأمى ضجرة فى أغلب الأحوال بحكم ظروفها القاسية والآخرون رأيهم أن الطفل ليس من حقه السؤال، واجبه الصمت، وطاعة الكبار، وفى "الدوار" لا يوجد غيرى من الأطفال، فأنا أول الأحفاد، والحفيدات، أما الآخرون فقد أتوا فيما بعد، وربما من كل ذلك نشأ ميلى إلى الانطواء، إلى المشاهدة والإنصات، إلى تخزين ما يدور حولى فى الأعماق.

صرتُ أتجول وحدى فى كل مكان. عند آخر الحديقة بالقرب من قصر "عمرو إبراهيم" كانت توجد الحظيرة فيها جوادان مطهمان يجران العربة التى يستقلها جدى عندما يذهب لقضاء بعض الأعمال، أو زيارة الأقرباء وسائر الناس الذين يعرفهم، فهو رجل واسع الصلات، عينه "الملك فؤاد" ناظرا على بعض أملاكه، ولكنه كان ذا نزعة شديدة إلى الاستقلال، كارها للوظائف. لذلك بعد مرور سنة بالكاد طلب إعفاءه من "النظارة" ليعود رجلا حرا لا علاقة له بالدولة، أو السراى، يخرج فى الصباح ليعود ساعة الغدَاء، وأحيانا يبقى فى الخارج حتّى آخر النهار. فى الليل يختفى عن الأنظار إذا لم يحضر أحد لزيارته فلا أعرف إن كان قد ذهب للسهر فى مكان ما، أم آثر البقاءِ فى الحجرةِ العلوية الكبيرة التى تشاركه جدتى "عائشة" إياها فأكاد لا أراه.

عند الحظيرة كنت أقضى أسعد أوقاتى، بعيدا عن النواهى والمحذورات، فلا يوجد مراقب يعرف ما أفعله، ويعطينى أوامر. وحدى مع الأشجار، والسماء، والجوادين، و"عم حسين"، سائق العربة، رجل عجوز، طيب القلب، وضع نفسه طوع إرادتى، فأنا حفيد الأكابر، لابد أن يرضينى تفاديا للشكاوى، لكن ربما السبب الأهم فى العلاقة التى نشأت بينى وبينه هو زوال الفوارق، فالطفولة لا تعرف التفرقة بين الناس. هكذا قامت بينى وبين "عم حسين" تلك العلاقة الحميمة التى تقوم بين عجوز يقترب من نهاية الحياة، وطفل ما زال فى بداياتها.

ما أن أبتلع إفطارى حتى أنطلق إلى المبنى المنخفض تظلله أشجار الكافور. أجد الرجل جالسا على دكة خشبية تغضنت ألواحها، وكساها الزمن بلون الرماد، فكأنه هو، وهى كتلة واحدة. أحيانا أجده ممسكا بإبرة كبيرة مقوسة بين أصابعه المعروقة يغرسها فى السرج ثم يشد وراءها الخيط، أو رافعا ساق الحصان من الخلف، منحنيا فوق الحافر، أو مطبقا بيده على فرشاة خشنة يمر بها على الفروة اللامعة، أو بمشط أسنانه العريضة توجد بينها مسافات يشده فى شعر العرف الطويل، فيرفع الحصان رأسه فجأة، ويخطو إلى الخلف بخطوة خاطفة.

الرجل قليل الكلام. صوته المبحوح يغمغم ببضعة كلمات خلف الشارب الأبيض الكث يخفى فمه تماما، فإذا فتحه يبدو كالكهف يختفى فيه عدد من الأسنان الصفراء. أحيانا نظل غارقين فى الصمت، كل منا منهمك فى عالمه الخاص. وجهه يطل علىّ كالتمثال تجاعيده محفورة بعمق، على الجبهة، وفوق الخد، وجلده تشوبه صفرة مريضة يتحول إلى لون الرماد إذا جاء البرد. عندما أحدثه تلتفت إلى عينه اليمنى زحف جفنها فوق البياض تاركا فتحة صغيرة تطل منها الحدقة الصفراء مثل عين القط العجوز. نظرتها الثاقبة فيها ود أما عينه اليسرى فقد غطتها سحابة ، يتركها تسرح كما تشاء كأن شيئا ما ضاع منها، فصارت تبحث عنه فى كل اتجاه.

رغم القوام القصير المنكسر، ورغم قبح الملامح أنجذب إليه. عندما يبتسم يضىء الوجه، وتلمع العين اليمنى، فإذا ضحك سرى من حوله الدفء. فى ضحكته شىء يشف كالمياه النقية فوق الصخور. يقترب منه الحصان، ويحنى رأسه كاشفا عن أسنانه كأنه يعبر هو أيضا عن سروره، ويقفز الديك فوق الكشك وينفش ريشه ناظرا إليه بعينين فيهما فضول قبل أن يصيح صيحته الطويلة المبحوحة.. أمد إليه ذراعى فيرفعنى على ظهر الحصان، أشعر بفروته الساخنة تحت لحم الفخذ وهو يدور بى عدة دورات. الرجل العجوز يبعث فى شعورا بالاطمئنان. عالمه قريب إلى. أرتاح إلى عينه السليمة تتأملنى وكأنه اكتشف شخصا مهما للغاية. تقاطيعه ليست فيها الحدة والعدوان اللذان أحس بهما متربصين تحت الهدوء الظاهرى لساكنى الدوار، هدوء النمر فى حديقة الحيوان يرقد فى قفصه بلا حراك، شاخصا بوجهه بعيدا عن الزوار، متجاهلا إياهم. أرتاح إلى جسمه المنحنى، وذراعيه القويتين ترفعاننى برفق فوق الحصان، أو مقعد العربة الحنطور، أو "الكاريته" فتنطلق بى مع رنين الأجراس. إنه رغم سنه يسير فوق الأرض بخطوة الفارس القديم ملتصقا بها، ممتطيا تضاريسها وأمواجها بحركة الواصل لأسرارها، زاحفا كالزورق الشراعى ينزلق فوق النهر. كان ابن الطبيعة يتصرف فى كل الأمور بلا عنت. انبثق من الأرض وظل قريبا منها كأنها الأم التى لا ينفصل عنها، معه لا أخاف أنياب الكلب الذى أحضره عمى إلى البيت، ولا ظلمة الليل، ولا صهيل الجواد، ولا حركة عينيه، وهما ترنوان إلىّ كأنهما تضمران لى الشر، ولا صوت الرعد فى شهر الخماسين، ولا ملمس الضفدعة يرفعها من البركة ليضعها بين كفى.

علمنى أن أمشط عرف الحصان، وأدعك على فروته بالفرشاة فيرتعش الجلد بلذة الاحتكاك، أن ألمس الدائرة البيضاء على جبهته فيحنى رأسه ويمط شفتيه إلى كأنه سيهمس إلىّ بشىء. أجلس على مقعد الحنطور العالى إلى جواره، أتأمل عضلات الحصان، تتموج تحت الجلد، أضحك، وأصيح، أرخى اللجام فتنطلق الحوافر بوقعها السريع ويكاد يتطاير الشرر فوق الطريق. أستشعر لذة عصيان الأوامر، ونشوة الكرباج يطرقع فى الفضاء، والسرعة تجعل العربة تنطلق كالريح.

علمنى كيف أطعم الفم بحزم البرسيم فأشهدها ترتفع بين الشفتين إلى الحلق بينما يرنو إلى الجواد بخبث، أو يطل من عينيه التساؤل أو القلق، أو الود أو حزن مفاجئ كأنه يشفق على مصيره. علمنى أن أقترب من الحياة ، من الأشجار والبساتين، من الكلاب، والخيل، والضفادع، والعصافير، أن أقوم بأشياء بدت صعبة فأزداد ثقة بقدراتى.

أصبح المأوى الذى ألجأ إليه. هكذا عندما غضب منى جدى، وهددنى بعقاب من الله لأننى قفزت على ظهره وهو يسجد للصلاة هبطت إلى الحديقة وانطلقت بسرعة نحو جزئها الخلفى، فأخذ يربت على رأسى قائلا:

" لا تخف يا بنى، جدك لن يؤذيك أبدا فأنت قرة عينه".

لم يستطع أحد أن يقنعنى بالعودة إلى "الدوار" وإذ جاء الليل لم أوافق على الدخول فى الفراش إلا عندما جلس إلى جوارى على مقعد قديم منهار من الخيزران جاء به من مكان ما قرب البوابة الخلفية. ولأول مرة فى تاريخ الأسرة دخل سائق "الحنطور" من باب البيت، ليجلس فى إحدى حجرات النوم، وكأنه نفذ إلى محراب مقدس لم تطأه قدم غريبة من قبل.

أستطيع أن أبعثه فى ذهنى وكأنه لا زال حيا، أن أجعله ينتصب أمامى لأتأمله بلحمه ودمه ووجهه المتغضن، وبطربوشه الأحمر القصير. عندما يتملكنى القلق أو الضيق أذهب إلى شارع الجبلايا قرب كوبرى الجلاء لأستقل أحد الحناطير. أجلس على المقعد الجلدى. أسند رأسى على الظهر المنبعج. أتحسس الأزرار المثبتة فى الجلد بكف يدى، وأغلق جفونى تاركا نفسى لحركة العربة تسير، لوقع الحوافر المنتظم فوق الأسفلت، لرنين الأجراس المرح، وضوء القمر يختفى خلف السحب ليظهر من جديد، للأشجار أرنو إليها لحظة وهى تمر فوق رأسى بتلك الحركة السابحة السريعة. يتسلل إلىّ شعور عميق بالراحة، بالزمن القديم، بأصابعه الخشنة تلتف حول ذراعى وتقودنى برفق إلى عالم المتعة، والنشوة والحماس للأشياء البسيطة، إلى الريح يبعثر خصلات شعرى فأزيحها من أمام عينى، وأحملق كالمسحور فى الطريق.

آخر النهار كنت أعود ممزق الملابس، مغطى بالتراب والطين وقش التبن، وأوراق البرسيم فتنظر إلىّ أمى بمزيج من اليأس والضيق. أستسلم ليديها تفعل بى ما تريد، تدعك، وتغسل، وتشطف بهمة الطاقة المكبوتة فى جسمها فأحس بجلدى كاللحم الجريح. تمشط شعرى وتقص أظافرى، وتزيل من تحتها الشحم والطين، ثم تجعلنى أرتدى ملابس النوم، وأتناول وجبة خفيفة من الحساء، واللحم أو الدجاج المسلوق، وبرتقالة أو أصبعا من الموز، أو أى فاكهة أخرى كالجوافة أو البلح، أو التين. بعد ذلك أرقد فى السرير وفى أنفى رائحة الفراش النظيف.

أثناء النهار أنا حر، وإن كنت لا أخرج من حديقة "الدوار" إلا مع "عم حسين" فى "الحنطور" أو هكذا يظنون، فبعد أن مضت عدة شهور أصبحت أجتاز الشارع العريض الذى يمتد بالطول أمام الحديقة وأنتقل إلى الناحية الأخرى لأقف عند فتحة صغيرة فى السور. من هنا أستطيع

أن أشاهد سباق الخيل، فنقطة البداية توجد على بعد خطوات من هذه الفتحة. كانت مكونة من ماسورتين طويلتين فوق الأرض تصل بينهما عارضة حديدية وباب يمتد من اليمين إلى اليسار عند أعلى الماسورتين فى شكل عارضة ثانية تهبط منها قضبان، وجهاز يرفع الباب إلى أعلى عندما تندفع الطلقة من مسدس القيام فاتحا الطريق أمام الجياد.

قلبى يدق مع صوت الانفجار، مع الحوافر يتردد صداها على الأرض مثل الرعد ويتلاشى بالتدريج، ثم يعلو مرة أخرى عندما تقترب من شريط النهاية. أرى الفرسان طيورا زاهية الألوان تعلقت بظهور الخيل، يمدون أعناقهم إلى الأمام بتلك الحركة المشدودة إلى آخر مداها، ويقتربون من أذن الجياد ليهمسوا فيها بشىء. لغة سرية لا يعرفها أحد سواهم، لها إشاراتها وأصواتها ورموزها فحصان السباق ليس ذكيا فحسب لكنه أيضا حيوان عظيم يهوى التحدى والتفوق ومغالبة الصعاب. يشحذ قدراته إلى أقصى مداها حتى ينتصر. هذا إن كان أصيلا. الحصان الأصيل لا يتميز بقدراته الجسمية وحدها، وإنما بالإرادة، بالقلب الكبير والشجاعة، بالحساسية المفرطة لأقل إشارة، بالقدرة الفائقة على اقتحام الصفوف حتى وهو محاصر، وقبل ذلك كله بالكبرياء العظيم الذى لا يقبل الإهانة..

فى يومى السبت والأحد أبتلع طعامى وأهبط على السلم لأجتاز الشارع كالقذيفة لأحتل مكانى أمام الثغرة، أو لأخترقها سائرا وسط الزحام إلى أى مكان يحلو لى أن أختاره. تدربت على تفادى عيون الرجال الذين يرتدون "الكاسكيتات" والشارات، ويلوحون يسارا ويمينا مصدرين الأوامر بإخلاء الطريق.

أصبحت أكتشف المراقبين والمسئولين والإداريين من كل الأنواع. ربما ساعدنى فى ذلك جسمى الصغير، والمعرفة الدقيقة بالأماكن التى أتحرك فيها. أقف بالقرب من أرض السباق حابسا أنفاسى فى انتظار صوت الطلقة. أتطلع مشدوها إلى الجياد تشبه أمواج البحر المنطلقة إلى الشاطئ بتلك الحركة المنسابة المندفعة كأن لا شىء يستطيع أن يقف فى طريقها. لونها أسود كالليل، أو بنى، أو أحمر، أو نحاسى، أو أبيض، أو رمادى، مشوب بزرقة خفيفة. الأعراف تطاير فى الريح كالدخان أو النار، أو الرذاذ والعيون تدور بحركتها المجنونة كأن الحصان لم يعد يحتمل العذاب الذى أطبق على قلبه الكبير. الأجسام تطير فوق الحشيش الأخضر، فترتفع الأصوات فى "الاستاد" المزدحم بآلاف الناس كالهدير يتضاعف كلما اقتربت الجياد من الرايات المرفوعة عند شريط النهاية. جو فيه حمى خفية وظاهرة أراها، وألمسها وأحسها فى أعماقى. يخطف خيالى بألوانه، وسمائه وشمسه، بالمساحات الخضراء، والأصوات الراعدة فوق الأرض، الهادرة عند "الاستاد"، بذلك السعى العنيد المندفع للحصان وراكبه نحو هدف لا يريان غيره، وكأنهما جسم واحد، وروح واحدة، وإرادة واحدة التحمت فى هذه الرغبة العارمة للنصر.

وعندما ينتهى السباق أتأمل الحصان الفائز يختال أمامى وعلى ظهره رجل كالقرد يتعلق به، يبتسم فتومض أسنانه. عندئذ يفتر حماسى، وتعود الأشياءعادية كما كانت.

كان من الطبيعى ألا يتنبه أحد إلى الشاب الذى حضر من صعيد مصر ليحل مكان مساعد الطباخ بعد إعادته إلى "دوار" القرية للعمل هناك. أما أنا فقد لمحته لأول مرة وهو خارج من الباب الخلفى. جلده الأسود صدمنى فقد رأيت ألوانا من البشرة مختلفة، ولكنى لم أكن قد رأيت سوادا مثل هذا من قبل كالفحم أو ربما حتى أكثر سوادا. يرتدى قفطانا أبيض من القطن، وحزاما أحمر كالدم، وطربوشا أكثر احمرارا منه. عيناه الجاحظتان قليلا يثبتهما على الأرض فإذا رفعهما أطلت منهما نظرة الخاضع للقدر، نظرة فيها استجداء، وخوف.

إلى جانب مساعدة الطباخ كانت مهمته تنظيف الدور الأول فى البيت. فى هذا الدور حجرة جلوس كبيرة مفروشة على الطراز العربى، بمقاعد، ومناضد، وأرائك محفورة "بالأرابيسك" مطعمة بالصدف، ومغطاة بالقطيفة الداكنة المرسوم عليها جوامع، ومشايخ، وقوافل من الأعراب، وجمال محملة وواحات فيها أشجار ونخيل وثمر. فى الأركان أوان نحاسية، وصقور محنطة وعلى الجدران صور عائلية فيها رجال خدودهم موردة، وذقونهم تحيط بها اللحى، يطلون من أعلى بنظرة جامدة كأنهم غير راضين عما يدور.

إلى جوار حجرة الجلوس هذه كانت تقع غرفة للطعام، وضعت فيها مائدة مستطيلة محاطة باثنى عشر مقعدا لها ظهور عالية، ومساند جانبية وكأنها عروش صغيرة الحجم، وعند الجدار البعيد خزانتان بينهما مسافة، تكشف واجهتهما الزجاجية عن محتوياتهما فتظهر من خلفها أشياء كثيرة مختلفة موضوعة بلا ترتيب، أوان، وأطباق مصنوعة من الصينى وأدوات للطعام فضية، وأقداح للشاى والقهوة، وأكواب من الكريستال مذهبة الطرف، وشفاشق، وسلاطين، وشواية قديمة للخبز.

أما الغرفة الثالثة فكانت مكتب عمى أستاذ اللغة العربية. على الجانب المواجه لهذه الغرف، ثلاث غرف أخرى مخصصة للنوم، كل منها مزودة بسريرين، ودولاب، وكنبة، وتسريحة وطسط وإبريق للغسيل، وقرب السلم الخلفى حمام واسع الأرجاء من الرخام الأبيض به مغطسان ساقطان فى الأرض وزير، وأوان نحاسية كبيرة، وعدة طسوط وقطع صابون مربعة كبيرة ولوف، وقبقاب وطبليتان منخفضتين من الخشب الأبيض.

كان الشاب الأسود يبدأ فى التنظيف بعد الإفطار مباشرة عندما تصبح الغرف خالية، وينتهى حوالى الواحدة بعد الظهر فتشرع الخادمتان فى إعداد مائدة الطعام. أثناء عملية التنظيف لم يكن يوجد فى الدور الأرضى أحد سواه، ولأننى كنت أشعر بالوحدة فى بعض الأيام، وأبحث عن وسائل مختلفة لقضاء الوقت، ولأن لونه الأسود الفاحم الذى لم أر مثله من قبل جذب انتباهى، أخذت أدخل عليه بين الحين والحين لأجده منكبا على عمله فى اجتهاد. لم

يكن هو يقول شيئا على الإطلاق، ولا أذكر أنه حدث بيننا حتى تبادل للنظرات، فعيناه شاخصتان فى الأرض لا يرفعهما إلا عندما يوجههما إلى شىء يمسك به بين يديه ليزيل عنه التراب، ولكن بعد أن تكرر دخولى عليه بدأ يؤتى بعض الحركات التى زادت من الفضول الذى سيطر علىّ.

أثناء عملية التنظيف كان يرتدى الصدارى، وسراويلاً واسعا يصل تحت الركبتين، فصار ينزل سراويله لمدة لحظة كأنه يفحص شيئا فى نفسه، وفى هذه الأثناء كنت ألمح الجزء من جسمه الذى يقع تحت بطنه، فأفاجأ بالفارق الضخم بين ما يوجد عنده، وما يوجد عندى، وتنتابنى حالة أقرب ما تكون إلى الخوف أو الرهبة ممتزجة برغبة فى أن أرى ما يعرضه من مكان أقرب.

لم يكن يفعل ما يمكن أن يثير حفيظتى، فبعد قليل يستر نفسه دون أن يتلفت إلىّ، ويواصل ما كان يقوم به من قبل. أحيانا يهمس لنفسه، أو يبتسم، فتظهر أسنانه البيض لتضفى على وجهه إشراقا، وعلى ملامحه قدرا من جاذبية الرجل الأسمر، وبعد أن تكررت هذه الأشياء عدة مرات بدأت أمعن النظر فيما يفعل، ثم صرت أقترب منه حتى أستطيع أن أرى ما يكشف عنه خصوصا وأن عضوه كان ينتصب ويصبح ضخما مما استحوذ على اهتمامى كشىء غريب لم يسبق أن رأيت مثله، وعندما رأى هذا يبدو أنه تشجع، وقرر أن يخطو خطوة أخرى. أخذ يشير إلى الجزء المكشوف من جسمه وكأنه يعرض علىّ أن أفحصه. يترك السراويل يقع على الأرض فيظل نصفه الأسفل عاريا لمدة أطول وفى هذه الأثناء أدقق النظر فى الشىء الأسود البارز أمامه، ثم أخذ يخطو ناحيتى بحركة تكاد لا ترى حتى لم تعد تفصلنا عن بعضنا سوى خطوة، لكن كلما بدا أنه اقترب أتراجع أنا بظهرى ملقيا نظرة خاطفة على باب الغرفة، فتبدو عليه علامات الضيق، ويكرر الإشارة إلى الجزء المنتصب فى بطنه كأنه يلح علىّ بأن أقدم على فحصه، وبالفعل فى إحدى المرات دنوت منه بخطوة فيها تردد ثم توقفت على مسافة قصيرة وأخذت أتطلع إلى عضلاته المشدودة فى توتر، فمد يده إلىّ وأخذ يخلع سراويله وفى هذه الأثناء نظرت إلى وجهه وهو يميل علىّ فأصبت برجفة. جحظت عيناه بشكل غريب وأصبح بياضهما أحمر. أحسست بأنفاسه الساخنة على خدى. شفتاه المتورمتان يغطيهما جلد لونه أزرق، وسطحه متشقق، وفوق الشقوق بقايا اللعاب الأبيض. أصبحت كالأرنب الصغير أو العصفور الذى وقع فى شرك الصياد لأول مرة، مشلولا بلا قدرة على الفعل، أو التحرك بينما أصابعه تعبث بجزئى الأسفل. أنظر إلى سواده العارى كالمغنط، وخلف ضلوعى أشعر بقلبى ينتفض. فجأة أدارنى بحيث أصبح خلف ظهرى ثم أخذ يحرك شيئا بين فخذى ويضغط. سمعت أنفاسه تلهث، وتسرع فى لحظة، وبعدها سقط سائل دافئ، ولزج الملمس على جلدى العارى. أحسست بالضيق، وبأن جسمى تلوث، ثم امتزج الضيق بالتوتر، وعادت إلىّ قدرتى على التصرف. رفعت السراويل والبنطال القصير من حول قدمى إلى خصرى، وانطلقت من الغرفة

ممسكا بهما بين يدى، دون أن ألقى إليه بنظرة، فقد كنت أريد أن أبتعد عن المكان وعنه بأقصى سرعة. وجدت باب الحمام أمامى فدلفت منه. استولت علىّ رغبة شديدة فى البكاء والقىء، وارتفع سائل أصفر من جوفى اختلط بالدموع التى أخذت تنهمر على وجهى. تركت "البنطال" و"السراويل" يسقطان من حول جسمى، وبحثت عن كوز ملأته بالماء البارد من إناء ترك إلى جوار المغطس وقد امتلأ حتى نصفه. سيطر علىّ خوف غامض كأننى ارتكبت إثما كبيرا أخشى أن يتنبه إليه أحد أفراد الأسرة، فيقع علىّ ذلك العقاب الفظيع الذى هددنى به جدى. وجهه يرنوا لى فى الخيال، ولكن بعد قليل احتل مكانه وجه أمى، فارتبكت وأنا ألقى بالماء على الأجزاء المكشوفة من جسمى، فاضت كميات كبيرة منه فى الحذاء، وعلى السراويل، والجوارب. أصبحت ملابسى مبللة تماما تسقط منها نقاط الماء، ويصدر عن حذائى صوت عندما أخطو فوق الرخام. جففت نفسى قدر الإمكان بمنشفة وجدتها معلقة على الحامل فى الحمام، وتسللت إلى الحديقة بحرص حتى لا يرانى أحد من الخدم، أو من أفراد الأسرة.

كانت ساعة ظهيرة فأخفيت نفسى فى ركن منزو سطعت فيه الشمس بقوة. كنت أنتفض ربما من البرد، أو من الرعب، أو من كليهما معا. خطر فى بالى أن ألجأ إلى أمى، ولكن تبدد هذا الخاطر بسرعة. تخيلت الاستنكار الذى ستصبه علىّ وأنا ما زلت مهزوزا، مضطربا إلى أبعد الحدود فى حاجة إلى المواساة، إلى فهم الأشياء، إلى الاطمئنان فى عالم تتربص فيه الوحوش بأمثالى، أكثر من حاجتى إلى اللوم. فكرت فى "عم حسين" وفى وجهه الطيب ولكن حس فى داخلى ينبئنى أنه ليس الشخص المناسب، ثم هناك الخجل، وصعوبة الخوض فى حدث استشف أنه محاط بتلك التعقيدات المبهمة التى تتعلق بالمحظور. فى أعماقى شعور لا أعرف من أين جاءنى، ولا لماذا. شعور بأن هناك مناطق فى الجسم يجب أن تظل مستورة يلتصق بها الإثم، بأننى اقتربت من منطقة محرمة رغم أن أحدًا لم يتحدث معى عنها، يطلق عليها أسماء غريبة مثل "العصفورة"، أو يشار إليها بكلمات غامضة، أو يتوقف الكلام حولها إذا ما سألت عنها، أو فتحت موضوعها. فكم من المرات قوبلت فيها بالصمت المضطرب أو النظرة التى تهرب، أو احمرار الوجه، أو الصوت الغاضب الآمر بالسكوت عندما أقترب من أمور تتعلق بالجنس، مهما كانت عادية كأننى مسست سلكا كهربائيا، فيه شحنه.

لم أر أثرا للشاب بعد هذا اليوم، أو على الأقل لا أتذكر أننى رأيته منذ اللحظة التى تسللت فيها بسرعة من حجرة الجلوس. ربما هرب من البيت خوفا من أن ينكشف أمره، أو أسقطه عقلى من الوجود بتلك القدرة على إسقاط بعض الأشياء، لكنه ظل حيا فى عقلى الباطن تاركا أثره الذى لم ينمح إلا بعد سنوات طويلة، ففى بعض الليالى يهاجمنى كابوس، عبد أسود ينتظرنى فى شارع جانبى، أو فى ركن مجهول. يبرز فجأة وسط الغيوم، وينقض علىّ. أحاول أن أفلت منه لكن تلتصق قدمى بالأرض. يكاد يلحق بى، يمد إلىّ يده أو قضيبه لا أعرف، فأصرخ وأستيقظ من النوم غارقا فى العرق المتصبب منى.

زحفت هذه التجربة على حياتى بأشكال أخرى، فأنا لا أفرق بين الناس على أساس الجنس، أو الديانة أو اللون، ولى أصدقاء كثيرون من السود، لكنى ظللت سنين طويلة أشمئز من فكرة السكنى معهم فى بيت واحد أو الاقتراب من امرأة جلدها أسود إلى أن بددت حياتى بقايا هذا الإحساس العنصرى.

قال لى أبى إن "عم حسين" كان شابا عندما التحق بخدمة الأسرة وإنه كان يوصله إلى المدرسة كل يوم. هكذا قام الرجل على خدمة ثلاثة أجيال، ثم مات جدى وانتقلنا إلى شقة خاصة للسكنى. كان هذا آخر عهدى بسائق الحنطور العجوز ذاب فى غياهب النسيان، اختفى من الوجود ولم أعرف أين ذهب، وإلى أين سارت به الأمور. أحيانا كانت تنبعث صورته أمامى بوجهه المتغضن، والطربوش، وعينه اليمنى تحملق ناحيتى فى ود، ثم بعد لحظة يختفى كالشبح العجوز.

لكن مرت السنون وفى إحدى الليالى عاد. كان ذلك فى نهاية الستينيات فى مدينة الإسكندرية. كنت قد تزوجت من نوال السعداوى إذ ذاك وأصبح لنا ابن عمره خمس سنوات، وكانت معنا ابنتها من زواجها الأول، فتاة تطل عيناها العسليتان على ما يدور من حولها بنظرة فيها تأمل.

فى تلك الليلة ذهبنا إلى دار للعروض السينمائية لنشاهد فيلما "لشارلى شابلن". عندما خرجنا من الصالة كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا. سرنا فى شارع "الحرية" على الأقدام، وفى الطريق أخذنا نتداول حول أفضل الوسائل للوصول إلى البيت، فقد كانت مواردنا محدودة. طرحنا جانبا فكرة الركوب فى سيارة للأجرة، فانحنينا فى شارع "صفية زغلول" مسرعين الخطوة حتى نلحق بآخر ترام، وفى تلك اللحظة تردد فى أذنى الرنين المتصل لجرس "الحنطور" يفسح الطريق لنفسه، أو يحاول أن يجذب أنظار أمثالنا من العائدين فى هذه الساعة المتأخرة من الليل. البيوت ساكنة، مغلقة "الشبابيك" والشوارع خالية يلمع سوادها بنعومة فأشعر بالمدينة تفتح أحضانها لنسبر غورها. جاءنى رنين الجرس مرة أخرى يوقظ شيئا فى أعماقى، فرحة قديمة، ضاعت ثم عادت لتحتضن معها نظرة الفتاة، وثرثرة الصبى ويده الدافئة فى يدى، وسحر القمر الزاحف كلما قلت أضواء الشارع.

رفعت يدى فى الهواء، وناديت على الرجل الجالس فوق المقعد، وقد انحنى بجسمه إلى الأمام، فشد على اللجام بحركة آلية مدربة، وأدار رأسه إلى الخلف ملقيا بنظرة من فوق الكتف، باحثا عن مصدر النداء. وقفنا فى الشارع رافعين رءوسنا إلى الرجل القابع فوق العربة، يطل علينا بنظرة فيها ترقب. سألته، "بكم المشوار من هنا حتى محطة "بولكلى"؟." صمت لحظة طويلة يفكر، ويتفرس فى شكلنا قبل أن يجيب، وظللنا نحن ننظر إلى أعلى كأننا ننتظر حكما سيصدر . سمعت صوته المبحوح يتسلل من خلف شاربه بصعوبة كأن الكلمات تسقط داخل جسمه لتختلط بأزيز الأنفاس فى الصدر المرهق.

"نروحوها بجنيه يا بيه".

رأيت ملامح نوال تتقبض ثم قالت:

"لأ كتير يا سطة، هو "تاكسى" .

نظر إليها بضيق من أعلى المقعد .

"أحسن من التاكسى يا ست، هو الحصان مش لازم يأكل زى صاحبه؟"

قلت: "ينفع أربعين قرش يا سطة بدل ما تروح فاضى؟" .

ألمح عينى الصبى تتطلعان إليه فى رجاء، ثم تجيئنى كلمات الرجل من مكان ما تحت الطربوش.

"عشان خاطر البيه الصغير، ربنا يخليهولكم نروحوها بستين قرش"

سادت لحظة صمت مشحونة بالترقب كأن مصيرنا جميعا بات معلقا على الكلمة التى سأقولها. حملقت فى وجه الرجل المتغضن، وفى عينه الوحيدة وهى تطرف. انتابنى إحساس مبهم بأننى رأيته من قبل. عينا الصبى مسمرتان علىّ، لا أراهما، ولكنى أشعر بهما كأنه صب كيانه فى نظراته.

قلت: "ماشى يا عم.. ستين قرشًا.. ويمكن ربنا يكرمك كمان" ففى تلك اللحظة جاءنى هاتف يهمس فى أذنى "إذا طلب أى شىء لا تتردد" .

صعد الصبى دون انتظار ليستقر إلى جواره على المقعد، فألقى العجوز ناحيته بنظرة جانبية كأنه يتذكر، ثم عاد يحملق أمامه. أمسك اللجام بين يديه، وانتظر دون حركة حتى يسمع ما يدل على أن كلا منا أخذ مكانه، ثم هز اللجام مرتين، وأطلق لسانه تحت سقف حلقه بصوت صلب متكرر فتحرك الحصان، وتحركت معه العربة بقفزة.

مرّ الوقت دون أن يقول أحد منا شيئا كأننا استغرقنا فى الليل الجميل، يضيئه القمر الأبيض، فى الأشجار تنتصب على جانبى الشارع، وتلقى علينا بظلالها كلما مرت العربة تحت أغصانها فتحجز القمر تارة وتارة تطلقه، فى وقع الحوافر فوق الإسفلت يتخلله صوت الهواء فى السيور الجلدية وصريرها المتقطع، فى الحركة المريحة الهادئة للعجلات الكبيرة تدور بدوران الزمن فوق أرضه. فى لحظة ما تنبهت إلى صوت الصبى فى الليل كالنسمة ثم تنبهت إلى العجوز يرد عليه. يتحدثان فى همس يكاد لا يسمع وكأنهما يخشيان على الليل من شىء يعكر صفوه، أو يبدد تلك الحالة من النشوة الصوفية، وكأننا جزء لا يتجزأ من الكون الذى نسبح فيه أنا ونوال والفتاة، والرجل العجوز والصبى والحصان والأشجار والعجلات والقمر يضىء حركتنا المنسابة فوق الطريق كأننا معلقون فى النظام الكونى بخيوط حسية يخشى من

تمزيقها. لحظة فى الوجود قد يتغاضى عنها العظماء والزعماء، وأبطال التاريخ، ويدركها الرجل البسيط أو الطفل، أو العجوز، أو الحيوانات، أو الطيور بالفطرة، سر من أسرار السعادة لم أعه إلا بعد أن تقلبت على جمر الطموح فاتضح لى أن سعادة الوجود قد لا يفصل بينها وبينى سوى سياج نفسى أنا صانعه.

صار الحديث بين الطفل، والعجوز سهلا. لم أتبين الكلمات ولكن فى لحظة من اللحظات أدركت أن سائق الحنطور لم يعد ممسكا باللجام بين يديه. سمعت الصبى يضحك ضحكات طارت فى الهواء فوق رءوسنا، ولمحت أصابعه ترخى اللجام الطويل فتتموج عضلات الحصان تحت فروته، وفجأة تردد صهيل الحيوان مرتين فسمعت الصبى يسأل العجوز بنبرة متوترة.

"لماذا يزعق؟"

مال عليه العجوز قائلا.

"أصله بيستعجب من خفة ايديك".

فسمعت ضحكات الصبى تطير نحو القمر فى رنات متواصلة.

الأسرة التى كنت أنتمى إليها لم تكن من الطبقات المتوسطة، أو الفقيرة، مما جعل الاندماج فى المجتمع المصرى أمرًا أصعب. كانت أسرة إقطاعية منعزلة بطبيعتها عن المجتمع المحيط بها أو على الأقل عن الطبقات التى تشكل الأغلبية ولم تدخل مثل غيرها فى قلب المعارك ضد الحماية البريطانية رغم صلاتها الأسرية بعدد كبير من العناصر المختلفة فى قيادة الحركة الوطنية.

كانت ترتكز إلى قاعدة ريفية تستقى منها سلطانها، قاعدة كبيرة العدد إلى الحد الذى جعلها لا ترأس القرية التى تنتمى إليها فحسب، وإنما تشكل أيضا جزءا أساسيا من جسمها ومن الدماء التى تجرى فى شرايينها. فالفئة العليا الغنية فى هذه الأسرة الممتدة كانت محصورة العدد أما الأغلبية فكانت مكونة من فلاحين فقراء، أو متوسطى الحال، أو من عمال زراعيين موسميين يطلق عليهم "تملية". إذن فرص الاختلاط مع مختلف شرائح الريف قائمة، لكن طبيعة العلاقات فى المجتمع الريفى، وداخل الأسرة نفسها تحول دون الاختلاط الحقيقى، فهى علاقات قائمة على خضوع الفقراء للأغنياء، والحفاظ على فاصل بين الفئتين حتى ولو شارك الجميع فى الجلسات المسائية الواسعة التى تعقد فى الأحواش الداخلية. كما كانت قائمة على الفصل التام بين الجنسين. ومكان الأطفال فى مثل هذه البيئة مع النساء فى البيت.

كانت هناك عوامل أخرى زادت من عزلتى. ففى المدينة يكاد لا يوجد من حولى مجتمع أختلط به. "البيت الكبير" يصنع حدودى الطبيعة، والبيت فى ضاحية غنية حكر على الأمراء والنبلاء والإنجليز، إذن لا اختلاط مع جيران، أو أطفال آخرين، أو ناس عاديين. القرية لا

أزورها إلا نادرا، وفيها تبعدنى العادات والتقاليد واللغة عن باقى الأطفال الذين يجرون حفاة، ويرتدون الجلابيب. وهذه العزلة كانت تتأكد كلما سافرت إليها، وكلما سرت فى حواريها بين صفوف الأكواخ الطينية.

لم أعرف إلا بعد أن مضت السنون أن اسم القرية هو "القضابة" وأن هذا الاسم له جذور فرعونية، ولم أعرف أن اسم الترعة التى تطل عليها هى "الباجورية" ولا أنها تتبع مركز "كفر الزيات"، فى محافظة الغربية وتتمتع بأهمية خاصة نظرا لوضعها كبؤرة للمواصلات النهرية تحتوى على أربعة محالج كبيرة أقامها تاجر قطن يونانى كان اسمه "خوريمى".

الخواجة "خوريمى" هذا هو الذى باع مساحة أربعة عشر فدانا تمتد واجهتها على شاطئ الترعة خارج حدود القرية بقليل، إلى جد أبى "يوسف"... وعندما مات "يوسف" ترك هذا الإرث نصيبا لاثنين من أولاده الذكور "خليفة" الجبار كما كانوا يطلقون عليه، وجدى "محمد" الذى قيل عنه إنه كان "أطيب بكثير" من أخيه. وعلى مساحة سبعة فدادين أقام جدى "محمد" الدوار والسلاملك وحظائر الخيل والأبقار والجاموس، ومخازن الغلال والحبوب ومخزن للحنطور، والسروجية، وقاعات لإعداد الطعام وأفران للخبيز، ومضيفة لها حوش داخلى كبير، وحديقة فواكه "ومضخة للمياه العذبة" وساقية.

فى ذلك الوقت، ولسنوات طويلة بعده لم أكن أعرف كل هذا. زرت "القضابة" عدة مرات. أكلت الفطير والبط والأرز المعمر بالحمام فى الطواجن الفخارية. سمعت عن البئر المحفورة فى الأرض الذى كان يستخدمه "خليفة" الجبار لتأديب الفلاحين العصاة. ركبت الجحش ذى الفروة الوبرية بسرجه المصنوع من اللباد، والجلد الطرى، والمزين بدوائر نحاسية وشراشيب حمراء مثل خصل الشعر الأنثوية. رأيت الرءوس تنحنى عندما أمر فى الحوارى الضيقة وشهدت الغوازى تخرجن من باب السلاملك قبل الفجر بقليل. عشت أحداثا وتجارب ولكنها ظلت كلها تتأرجح حول أطراف عقلى فزاد فى أعماقى إحساس بالفراغ. عشت طوال السنين على أكف الراحة، ولكن شيئا ما كان ينقصنى، وحزن غامض كان يزحف علىّ. هل هو غياب العواطف، والدفء والإئتناس بصحبة الأصحاب أم شىء أبعد من ذلك؟ أهو غياب الجذور الضاربة فى مكان ما من أرض الأسلاف أو الهوية، أو الانتماء؟ وما هى هذه الأشياء؟ هل هى ضرورية، ولماذا؟ كلمة الهوية، أو الانتماء هذه، ماذا تعنى؟ ألم يوجد أناس أعطوا الكثير دون أن تكون لهم جذور ثابتة فى أحد الأوطان؟ نشأت منذ البداية أعانى من الوحدة، وأعانى الاغتراب وربما هذه الحقيقة تفسر الكثير مما جرى لى فيما بعد.

فى أحد أيام الصيف كنت أقف على العتبة الرخامية للبيت الكبير أمام الباب المفضى إلى صالة الاستقبال مترددا بين العودة إلى الحجرات الرطبة المريحة، وبين الخروج إلى الحديقة، وفى اللحظة التى حسمت فيها الأمر، وتأهبت للهبوط على الدرج العريض وصل صوت حوافر

للخيل تتوقف خارج المدخل الرئيسى. خلال القضبان الحديدية لمحت عربة سوداء اللون تعكس أجزاؤها المعدنية أشعة الشمس. بعد قليل هبط من العربة شخصان رجل، وامرأة. هرول أحد الصبية الذين يعملون فى الحديقة إلى الباب وفتحه بسرعة، ثم وقف محنيا رأسه كأنه يعرف مقامهما عند أهل البيت. تقدم الرجل بخطوات طويلة، متكئا على عصاته فى كبرياء. تحت الطربوش القصير ذى اللون الأحمر القانى أطلت عيناه بنظرة من لا يعجبه حال الدنيا، وما فيها. الملامح تعكس نوعا من الازدراء المتعالى لكل الأشياء بجفونها المنتفخة اللامبالية، والأنف الأفطس تفصل بينه وبين الفم العريض المضغوط الشفتين مسافة يغطيها شارب أشيب شذبت شعيراته. على جانبى الوجه خدان بارزان تحت الجلد الأسمر الشاحب قليلاً. صعد الدرجات بخطواته المتأنية، ومن ورائه المرأة ترتدى ثوبا طويلا من الحرير الأسود، وطرحه بيضاء نسيجها رفيع، وحذاءً أنيقا يغلق بأزرار من الصدف. عندما أصبحا فوق العتبة أسرع هو الخطوة كأنه يريد أن يبتعد عن الشمس الحارقة بينما تلكأت هى ناظرة إلىّ بشىء من الفضول. لمحت أنفا مدببا وعينين تبرقان بضوء أخضر مثل القطط فى الظلام وعندما تجاوزتنى سمعتها تقول:

"يا سعد باشا، هذا هو ابن الإنجليزية"

هبطت على الجملة ثقيلة، وغاصت فى الأعماق. لم أتنبه إليها فى حينها لأننى لم أدرك ما تعنيه، ولكن جاء اليوم الذى عادت إلىّ فيه، مع تلك الكلمات الغاضبة التى ألقاها علينا الأستاذ "ديرى" فى مدرج "على باشا إبراهيم" بكلية الطب. كان أحد الطلبة قد كتب على السبورة بالإنجليزية: "أيها الكلاب الإنجليز أخرجوا من بلادنا". اليوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ والمطر ينهمر خارج الشبابيك. "مايلز لامبسون" يرتدى قبعته السوداء الطويلة تمهيدا للذهاب إلى قصر عابدين، ليطلب من الملك تكوين حكومة جديدة يرأسها حزب الوفد لمواجهة القيادات التى تسعى إلى التحالف مع الألمان الزاحفين على مصر. عدت فى لحظة خاطفة طفلا صغيرا ترن فى أذنيه الكلمات التى نطقت بها "صفية هانم زغلول" قبل أن تدلف من الباب لتلحق بزوجها الزعيم.

انتابنى إحساس بالضيق، ففى صوتها ما يوحى بالكراهية أو على الأقل بنبرة مهينة. وكأنها توجه سبة إلىّ. عندما سألت جدتى معنى ما نطقت به صمتت لحظة قبل أن تجيب. "إنها تعنى أن أمك جاءت من بلد الإنجليز" فأدركت أن هناك شيئا يجعل هذه المرأة لا تحب أمى، ولا تحبنى أنا بالتبعية. غرست فى أعماقى إحساسا بأننى لست مثل الآخرين، وغرست شعورا بالتفرقة كرهته وأنا ما زلت صغيرا، فحتى هذه اللحظة لم يكن وصف الناس بأنهم مصريون أو إنجليز يعنينى. إنهم كانوا جميعا بالنسبة إلىّ ناس لا أفرق بينهم إلا بالقدر الذى يصيبنى منهم شىء يرضينى أو يسبب لى الضيق.

الفصل الثالث

كان اسمه "كوسة"

استقرت عمتى "فردوس" فى ضاحية "فليمنج" بمدينة الإسكندرية حيث استأجر زوجها بيتًا جميلاً إلى جوار البحر، فدعت أمى لقضاء بعض الوقت هناك. قبلت أمى الدعوة بفرحة. وجدت فيها فرصة للاستمتاع بجو المدينة الجميل، بشوارعها تصعد، وتهبط فوق التلال البيضاء، وفرصة للابتعاد عن حياتها المغلقة فى كنف الأسرة الكبيرة.

فى هذا البيت خرجت حياتى أنا أيضًا عن مجراها المعتاد. أصعد إلى سطحه لأشاهد زرقة البحر يلمع فى أشعة الشمس. نذهب فى نزهة على "الكورنيش" فأسير فوق الرمال، وأتتبع الأمواج تسقط بفورانها الأبيض على صخور الشاطئ. أجرى هنا وهناك باحثًا عن القواقع، والأصداف، وأغرس قدمى فى برودة المياه. أتتبع زوارق الصيد، والسفن تجتاز الآفاق. ولأول مرة منذ أن جئت إلى مصر أجد نفسى مقيمًا مع غيرى من الأطفال أقضى معهم اليوم كله خارج الجدران نمرح فى الحديقة هنا، وهناك. نركب المراجيح وندفع بعضنا البعض إلى أن يحل بنا الإرهاق فيتملكنى الإحساس وأنا منتصب فوق المرجيحة بأننى طائر في الهواء وتعلو ضحكاتنا فى الجو الصامت. عندما أرفع رأسى إلى أعلى أرى السماء نسيجًا أخضر تشابكت أوراقه كأننى فى غابة، فإذا وصلت المرجيحة إلى آخر مداها يتبدل الغطاء فوق رأسى من الأخضر الداكن إلى الزرقة تمتد بلا نهاية. نعيد الكرة مرة بعد المرة دون أن يصيبنا الملل. قلبى يدق فى عنفوان، والشهقات تملؤنى برائحة الأرض والنبات.

كنا ثلاثة أطفال، أنا واثنتان من البنات، وكان الفارق بينى وبينهما سنة أو سنتين. نلعب طوال النهار فى الحديقة لعبة الاستغماية أو الأولى أو نجرى خلف كرة كبيرة من المطاط، أو نركب الدراجات التى ابتاعها عمى لنا من محل أروزدى باك..[(١)] ولكن فى بعض الأحيان كان يصيبنا الملل من تكرار الألعاب فتتفتق ذهننا عن لعبة جديدة قديمة قدم الإنسان. أقمنا عشة من القش والأغصان فى ركن بعيد يختفى خلف الأشجار، وصرنا نأوى إليه ساعة الأصيل

(١) محل كبير مملوك لأحد رجال الأعمال من اليهود.

عندما ينسحب الناس لأخذ قسط من الراحة، فتسكن الضاحية تماما ولا يسمع فيها سوى طنين النحل، أو صرخة الحدأة تطير عاليا فى السماء. وحتى نستريح نحن أيضا فى هذه الساعة مثل الكبار وضعنا الأغطية فوق الأرض، ومن فوقها المساند، ثم أضفنا بعض الأطباق، والأدوات المنزلية، والأكواب كأننا نقيم بيتا للسكنى، وقد استولت علينا فى هذه الأثناء تلك النشوة المتوترة التى تصيب الأطفال عندما يختفون عن أعين الكبار ليستغرقوا فى عالمهم الخاص. عندما تنتهى هذه الترتيبات نرقد فى العشة لبعض الوقت. نتحدث عن مختلف الأشياء بِأصوات هامسة، أو نلعب بالكرات الزجاجية الملونة، أو ننام إلى أن تعود حركة الحياة إلى الضاحية. والنوم يتطلب ارتداء ملابس خاصة، فنقلنا من أدراج الدولاب الموضوع فى المخزن بعض القمصان، والمنامات القديمة التى وجدناها هناك.

هكذا قبل الرقاد كنا نخلع ملابس النهار لنرتدى هذه الأشياء، وحيث إن العرى إحساس لذيذ فى كل الأعمار خصوصا عندما يشتد الحر، كنا نجلس أو نرقد لبعض الوقت دون ملابس، نحتضن بعضنا، ونفحص أجزاءنا، ونقارن. أثناء هذا اكتشفت أن جسم البنت يختلف عن جسمى وأنه فى الجزء الأسفل من بطنها يوجد ذلك الشق الذى سمعت عنه من قبل، وفى أحد الأيام جلست إلى جوار البنت الكبرى وأخذت أفحصها بينما وقفت أختها تتأملنا عن كثب ثم وضعت يدى على الشق وأخذت أتلمسه فاستسلمت البنت للمساتى كأنها تشعر باللذة، ولكن بينما انهمكنا فى هذه اللعبة فوجئت ببولها الساخن يسقط على ساقى وعندما تلفت لأقوم من جلستى لمحت وجه أمى يطل علينا باهتمام.

لا أتذكر ما حدث بعد ذلك. أحسست بيدها تطبق علىّ، وتجرنى خارج العشة، وبصوتها يصرخ فى غضب "أيها الشيطان الصغير سألقنك درسا" ثم أضيف إلى صراخ أمى بكاؤنا نحن الثلاث فقد أمسكت بضفائر البنتين لتجرهما معى. حالت الدموع دون أن أرى أمامى، فارتطمت بسلم الشرفة، وسقطت على وجهى. لا أعرف كيف قطعنا المسافة إلى البيت. هناك وجدنا عمتى تجلس فى مقعد، وقد أخذت تقص أظافر القدم كاشفة عن فخذها الأبيض الممتلئ. أنزلت ساقها بسرعة وبدا عليها الانزعاج ونحن نندفع من نافذة الشرفة إلى الحجرة، كتلة واحدة متصارعة تصرخ، فيشق صراخها صمت الضاحية. أطلقت أمى سراحنا، ثم استدارت وانهالت علىّ بالصفعات، ولم تتوقف إلا بعد أن تدخلت عمتى، وحالت بيننا بجسمها، فانهارت على الأريكة باكية. جلست عمتى إلى جوارها تهدئ من روعها، فانتهزت الفرصة وهربت من الحجرة، صاعدا الدرجات بأقصى سرعة. توقفت عند أعلى السلم مطلا عليهم منتظرا ما الذى سيحدث. لم يمض وقت طويل قبل أن تصل إلىّ طرقعة الصفعات التى أخذت تنهال بها عمتى على كل جزء من جسم البنتين وقد ارتفع صراخهما المفزع كأن وحشا انقض عليهما وأخذ يفتك بهما، فجلست على الدرج، وأخذت أبكى حظنا السيئ.

-فى اليوم التالى ساد فى البيت صمت البيوت التى هجرها أهلها. كل منا محبوس فى حجرته، أنا وحدى والبنتان فى حجرة أخرى. الخادمة تحمل إلينا الطعام، والشراب ثم تغلق علينا الباب بالمفتاح لكن عند آخر النهار رق قلب عمتى فأخرجتنا لنتناول العشاء جالسين حول المائدة فى صمت لا يقطعه سوى رنين الملاعق فى أطباق الحساء، أو المياه يسكبها الخادم فى أكواب الزجاج، وبالتدريج عادت الأمور إلى مجراها ، وإن ظلت العيون تتبعنا منذ ذلك اليوم فى كل تحركاتنا.

لم يبق من هذه الحادثة آثار ظاهرة ما عدا بعض الكدمات سرعان ما اختفت من جسمى ولكن آثارها الباطنة طالت أكثر من ذلك، تركت وراءها إحساسا عميقا بالظلم الواضح، فأنا لم أفهم لماذا تفجرت تلك الزوبعة من الغضب، والرغبة فى العقاب، وكراهية لأمى دامت عدة أيام، تمنيت فيها أن تختفى من الحياة، حتى أدركت أننى قد أظل وحدى إذا ماتت، وخجلاً متأصلاً من البنات ومن كل ما يتعلق بهن، وشعور آخر ظل يلازمنى إزاءهن عدة سنوات، نوع من النفور، أو القرف انبعث فى لحظة أن سقط بول البنت الصغيرة على ساقى فظلت رائحته عالقة بى أستنشقه وأنا راقد فى سريرى.

هذا الشعور إزاء البنات بدأ ينقضى بعد صداقة ربطتنى بفتاة كانت تلميذة فى المدرسة الإيطالية للبنات. كنت أنا فى المدرسة الإرسالية الإنجليزية بشارع "طومان باى" فى ضاحية الزيتون. أعود كل يوم حوالى الساعة الرابعة مساءً راكبًا فى القطار الكهربائى (المترو) من محطة "روكسى" إلى نهاية الخط عند تقاطع شارعى فؤاد الأول وعماد الدين. أقف فى الجزء الخلفى من العربة حيث المقصورة الخاصة بالسيدات فهو يخلو عادة من الركاب. يتدفق إلىّ الهواء، وأتتبع البيوت، والشوارع، والناس دون عائق، ولكن فى ذلك اليوم وجدت إحدى الفتيات تقف عند الحاجز الجانبى بعيدا عن السلم الذى يصعد منه الركاب. لم ألتفت إليها سوى لحظة خاطفة تبينت فيها أن شعرها الطويل سواده لامع وأنها ترتدى مريلة بها مربعات صغيرة حمراء، ثم انشغلت بمناظر الطريق تمر بسرعة إلى جوارى. كنت أستعجل العودة إلى البيت، فرائحة الطعام فى أنفى، وأنواعه تتبدل فى الخيال. أفكر فى الاحتمالات فيسيل لعابى. قبل أن يصل القطار إلى محطة النهاية وقفت الفتاة أمامى على السلم ممسكة بالحاجز، وقبل أن تتوقف العربة تماما قفزت إلى الرصيف، وانطلقت كأنها تريد أن تلحق بوسيلة أخرى للمواصلات، وفى تلك اللحظة سقط منها كيس صغير، وتدحرج فوق الأرض قرب حذائى. انحنيت والتقطته بيدى، ولكن تدفق الركاب حال دون أن أهبط وراءها. أخيرا أفلتت من الزحام، واندفعت نحو الاتجاه الذى بدا لى أنها سارت فيه. أخذت أبحث عنها عند التقاطع، ولكنها كانت قد اختفت.

وضعت الكيس فى حقيبتى وركبت الترام إلى "الزمالك". جلست على المقعد وأخذت أسترجع ملامح الفتاة حتى أتمكن من إعادة الكيس إليها إذا التقيت بها مرة ثانية. أتخيلها واقفة إلى جوار الحاجز، مسندة يدها عليه، قصيرة إلى حد ما، أو ربما متوسطة الطول،

جسمها يميل إلى الامتلاء دون أن يتخطى حدوده إلى البدانة، عيناها الواسعتان تتحركان ببطء كأنها تبحث عن شىء دون استعجال ولونهما رمادى مختلط بزرقة خفيفة. هكذا عادت إلى ملامحها مع المحطات، وأنا جالس على الدكة تاركا عقلى يسرح مع الحركة البطيئة المتأرجحة للترام. عندما وصل إلى جامع "أبى العلاء" كان شكلها قد استقر فى ذهنى، كأننى كنت أرسمها على ورقة بيضاء وأضيف بعض اللمسات إلى أن اكتملت صورتها، وعندما انتهيت من عملية الاسترجاع أحسست برغبة ملحة فى أن ألتقى بها من جديد حتى أعيد إليها كيسها الضائع.

أصبح الركوب فى القطار يثير فى شحنة توقع، أخرجت المشوار من إطاره العادى. مرت الأيام دون أن ألتقى بها، أو ألمح من يشبهها، ولو من بعيد. كان فيها شىء متميز، يبعدها عن احتمال التشابه مع الفتيات اللائى أراهن فى الطريق، شىء فى نظرة العينين، واستقامة الرأس فوق الكتفين، وكأنها إذا دخلت أى مكان لابد أن تلفت النظر إليها.

منذ أول لقاء احتلت حيزًا فى نفسى. هذا هو ما أحسست به يوم أن وجدتها تقف فى ذات المكان من القطار. عرفتها على الفور، دون لحظة تردد أو تساؤل، كأن الزمن توقف منذ عدة أسابيع وتركنا فى هذا القطار، أنا إلى جوار السلم وهى على الجانب الآخر. انتفض قلبى مرة واحدة ثم انطلق بدقاته. أخيرا أستطيع أن أعيد إليها كيسها، لكنى ظللت غارقا فى عينيها، وظلت هى تنظر الىّ. مر بعض الوقت، أو هكذا خيل إلىّ قبل أن تضىء ابتسامة فى عينيها فسرى دفؤها إلىّ ونسيت الكيس فى غياهب الحقيبة. أحسست بالدماء الساخنة تصعد إلى وجهى وبلسانى يتأهب ليقول شيئا لكن ظلت الكلمات مشروعا يصارع ليخرج من بين شفتى.. فى لحظة بدا عليها الضيق ثم زمت شفتيها الحمراوين الممتلئتين كأنها حزمت أمرها، وقالت:

أنا اسمى "جابرييلا" وأنت؟

خرج صوتى من أساره واجتاز المساحة بيننا متحشرجا، واهنا.

"شريف"

ضحكت ضحكة طويلة منغمة، تصعد وتهبط، لتصعد من جديد ثم ساد الصمت فجأة فبدا لى أن الحديث سينقطع تماما. فى قلبى يأس واضطراب، شىء أقوى منى يربط لسانى، ويحول المسافة بيننا إلى جبل لا يريد أن ينزاح. من طرف عينى أرى السائرين فى الشارع، وعواميد النور، وعربة عليها كوم من الزبالة. طفل يطل علينا من زجاج المقصورة المغلق واضعا إصبعه فى فمه، يتأملنا بنظرة ثاقبة من مقلتيه السوداوين اللامعتين كأنه ينتظر هو الآخر ما الذى سيحدث بعد ذلك وفجأة تذكرت الكيس المدفون فى الحقيبة الراقدة على الأرض إلى جوارى، فمددت يدى إليه كالغريق تمتد أصابعه إلى أى شىء يمسك به. ملت عليها وفتحتها بأصابع زاد ارتعاشها وهى تبحث عن الكيس دون جدوى. ترى هل نسيته عندما أخرجته فى البيت ووضعته أمامى لأفحصه على مهل؟ غاص قلبى تحت الضلوع، وكدت أفقد توازنى مع انحناءة سريعة

للعربة فوق القضبان. أمسكت بالحاجز لأمنع جسمى من السقوط، وبسرعة قلبت الحقيبة فانسكبت محتوياته. تدحرجت المسطرة الجديدة واستقرت على السلم لحظة ثم طيرتها حركة الاهتزاز لتسقط تحت العجلات، لكنى لم أبال. عيناى ما زالتا تبحثان عن الكيس، لمحته منزويا فى أحد الأركان أخضر فاتح ينغلق بمشبك من الفضة فى شكل ثعبان، فتحته فى البيت منذ اليوم الأول، وصرت أفتحه بعد ذلك مرارا. وجدت فيه قلم حبر فى حجم السيجارة، وجنيها من الذهب عليها صورة الملك "فؤاد" وثلاثة أوراق نقدية من فئة الجنيهات، ومنديلا مشغولا بالألوان، ومرآة بيضاوية لها إطار. تمر الأشياء على يدى وأنا أعيدها إلى مكانها تاركة رائحة عطر خفيف. كلما قرّبت أصابعى إلى أنفى تجيئنى صورتها وهى تقف فى القطار وقد تطاير شعرها.

وقفت ومددت إليها يدى بالكيس فأشرقت الابتسامة من جديد، وانتفض اللنى كاللهب فى الرماد الداكن. رموشها السوداء تلتف حول بحيرة العينين الساكنة. تناولت منى الكيس، فأحسست بأصابعها ترقد فى كفى لحظة خاطفة.

وجدت نفسى أهبط من القطار سائرا إلى جوارها. تشابكت يدانا ونحن نعبر الشارع كأن كلا منا حريص على الآخر. توقفت خطواتنا عند ناصية شارع "فؤاد الأول" و"عماد الدين" قرب صيدلية "دلمار" ثم سارت بنا على الرصيف فى اتجاه الإسعاف. اجتزنا شارع "الملكة نازلى" وبعد قليل أصبحنا فى حى بولاق. لم نشعر بالناس يتزاحمون فوق الرصيف، أو بتعب المسافة التى عبرناها من محطة "عماد الدين". رائحة الخبز الطازج تأتينا من الفرن "البلدى" يفتح فمه الأسود ليستقبل أقراص العجين، رجل يدس مغرفة طويلة فى فتحة الإناء النحاسى، ويقلب الفول بحركة دائرية من ذراعه، أرى عينيه المرهقتين تطلان علينا قبل أن يدس المغرفة فى الإناء مرة ثانية، عقب سيجارة يتدحرج أمام قدمى وصبى صغير أشعث الشعر، نحيل الوجه والجسم ينقض عليه، بائع الجوافة يضع الثمار الصفراء فى سلة تتدلى من شرفة عالية، وصوت حجارة النرد تطرقع فى العلب الخشبية مع نداءات اللاعبين "بنج جهار".. شيش يك".

قبل جامع "أبى العلاء" مباشرة خمارة تفوح منها رائحة "البوظة" فيها عفونة، وفى صالتها المظلمة يجلس الناس على الدكك الخشبية كالأشباح لكننا فى عالم آخر ليس فيه سوى أنا وهى، وخطواتنا فوق الرصيف، وحديث يتدفق من بين شفتيها عن الموسيقى، والبالية. تريد أن تصبح راقصة، مثل "ايزادورا دانكان". أهز رأسى وأصمت لأننى لا أعرف من هى "ايزادورا دانكان" هذه التى تذكى الشعلة المنتفضة فى بحر عينيها. تتوقف فجأة وتقول إن سواد عينى جميل، فيخفق قلبى، فأبدا لم يتحدث إلىّ أحد بهذه الطريقة. نجتاز الكوبرى الحديدى، تتوقف لحظة متكئة على الدرابزين، مولية وجهها للريح. أشعر بذراعها حول كتفى، بدموعها تمسحها بظهر يدها وتنطرها بعيدا. تجرى فوق الكوبرى ضاحكة، صاعدة بصوتها المنغم فوق السلم

الموسيقى. تشير إلى فأجرى خلفها وهى تطير كالغزال بسرعة غريبة. تتوقف لألحق بها وتقول: "أمى تكرهنى. عندما يأتى الطبيب أسمعها تهمس فى أذنه. "لولاها لما تزوجت أباها، ضحيت بكل شىء من أجلها". أحتار وتصيبنى غصة، فأبتلع ريقى. كيف يمكن أن تكره الأم هذه الفتاة الجميلة؟!

جفت "جابرييلا" الدموع فى عينيها فعادت الفرحة إلىّ. أحببتها فى تلك اللحظة. أحببتها كما لم أحب أى فتاة، فلم أكن أريد منها إلا وجودها.

وصلنا إلى "نادى التوفيقية". توقفت عن السير، وتركت يدى تفلت من يدها. أصبت بالدهشة كأن فكرة الفراق لم تخطر على بالى فكيف تنتهى هذه السعادة السائرة فى شرايينى قلت: "لا تذهبى" وسكتت، فأمسكت بيدى وقبلتها ثم قالت:

"انتظرنى عند محطة "روكسى" باكر ساعة العودة من المدرسة"، ثم استدارت وابتعدت مسرعة بقدمين تكادان لا تلمسان الأرض. لمحت ساقيها من الخلف فيهما استدارة قوية فعاد إلىّ كلامها عن الرقص. عبرت كوبرى "الزمالك" عائدا إلى البيت وصوتها يتردد فى أذنى مع كل خطوة، "غدا فى محطة روكسى".

سألتنى أمى عن سبب عودتى متأخرا إلى هذا الحد، فقلت "مباراة لكرة السلة بيننا وبين الفريق الإيطالى". بدا فى عينيها أنها صدقتنى. كانت الدماء تجرى فى وجهى من الانفعال الذى أصابنى فظنت أنه المجهود الذى بذلته فى الملعب، لكن قلبى أصابته غمة، فلم أكن تعودت أن أكذب عليها. أدركت أن الحديث عما جرى أمر غير مستحب، مفعم بالخطر، وأكبر المخاطر بالنسبة إلىّ هى أن تنقطع صلتى بهذه الفتاة، وأقلها هى كلمات قاسية عن الأخلاق تبدد الإحساس الجميل الذى احتوانى. انسحبت بسرعة إلى غرفتى وفى ذهنى وجه "جابرييلا" وهى تتحدث أو تضحك، أو تقفز بخطواتها الواثبة فوق الأرض، صور تمر أمامى مثل نوافذ القطار، عندما يتحرك من مكانه.

حافظت على سرى كأنه كنز ثمين، أخرجه من مكانه الدفين، أقلبه بين يدى بتأن، أفحصه بلذة البخيل، ثم أعيده إليه بحرص الحريص على محو كل آثاره حتى لا يهتدى إليه غيرى. أعيش فى عالمى الخاص، كل شىء فيه طوع إرادتى أبعثه فى خيالى كما أريد فى النهار، والليل، فى الأمسيات الصامتة للضاحية، أو قبل الفجر بقليل، أستيقظ معه يطل بشحوبه الحزين فأراه جميلا، فما يحدث الآن مختلف، وجديد، كالحمى اللذيذة، أو السحر، كالينبوع يملأ البئر ويزيل الشعور بالوحدة الصارمة. إنه ملكى أنا، لا يشاركنى فيه أحد، فهو خيال، وهو ظل أبعثه إلى الحياة ويتحرك معى حيث أشاء، فإذا أحسست بالخطر أدفنه بسرعة فى أعماقى وأسحب عليه غطاء السرية

فى تلك الليلة نمت نوما متقطعا. تقلبت فى الفراش إلى أن نالنى التعب، وسقطت فى بئر عميق. حملنى زورق الأحلام فى كهوف جوها رطب، وصخورها مرجان، سمعت صيحة الديك فى عزبة "الزمالك"، وزقزقة العصافير حول النوافذ، وجاءنى صوت باب الشقة يفتح ويغلق فى حرص، فعرفت أن أبى عاد بعد السهر فى الخارج. لا أعرف أين ذهب، ولا لماذا عاد. أتساءل أحيانا بينى وبين نفسى ثم يضيع السؤال قبل أن أجد له إجابة، فأنا لا أراه سوى أيام الإجازات نائما فى سريره، أو جالسا يتناول إفطاره وقد شردت عيناه.

فى اليوم التالى استيقظت مع الفجر وهو يزحف فوق السماء. ظللت راقدا تحت الغطاء أطل من النافذة المفتوحة على الأشجار تبدو أغصانها كالعناكب العملاقة فى الضوء الشاحب. أنام دائما وكأنى فى العراء، بينى وبين السماء لا أضع حواجز، أتأمل النجوم من فوق الوسادة، أتتبع القمر فى مختلف أطواره، هلالا رفيعا مثل إبرة الجراحة، نصف دائرة من الفضة الخالصة، أو بدرا يطل بوجهه البارد.

بعد قليل زحفت علىّ الهواجس، فأنا لا أعرف أين توجد محطة "روكسى" التى حددتها للقائنا. ربما أخطأت المكان، أو لم تحضر لسبب ما، أو تأخرت. أشعر بنفسى عاجزا، محاصرا، أعانى عذابا، ساذجا، مضطربا، عذاب الطفل الذى أصبح مراهقا، عذاب أعزل بلا سلاح يكشف عن قلبى النابض أضعه على كفى وأنا سائر.

قمت من رقدتى، ودلفت إلى الحمام. دعكت أسنانى بالفرشاة، واغتسلت بالماء البارد، وعندما جاءت أمى لتوقظنى وجدتنى جالسا على مقعد فى الشرفة، وقد ارتديت ملابس المدرسة: البنطال الطويل الذى أصبح واسعا بعد أن أصابتنى نحافة المراهق، والسترة البنية اللون المزدانة بشريط أصفر حول أطرافها، ورباط العنق المربوط بعناية تتعانق فيه اللونان بذاتهما. ألقت إلى بنظرة فيها تساؤل ثم قالت:

"مالك استيقظت مبكرا؟"

تزايد الاضطراب فى أعماقى. بالأمس كذبت عليها، والكذبة الأولى تقود إلى الثانية. رغم الارتباك تفتق ذهنى فجأة عن إجابة.

"كنت أستذكر دروسى، فبالأمس أصابنى شىء من التعب بعد العشاء".

ظهر على وجهها القلق. تميل على وتسألنى عن أعراض التعب فيزداد ارتباكى. أحس معها دائما أننى محاصر. أوضحت لها أن المسألة بسيطة للغاية، قليل من المغص دام بعض الوقت ثم اختفى، ولم يعد له أثر. كررت لها هذه الحقيقة عدة مرات ولكنها لم تكف عن التساؤل إلا بعد أن عبرت عن رغبتى فى تناول الإفطار، فتركتنى لحالى، وبعد قليل سمعت صوتها ينادينى من الداخل.

فى المطبخ جلست على المقعد العالى أمام المائدة معرضا عن إفطارى، ففى داخلى حمى تشتعل. شىء لم أعهده من قبل يجعلنى زاهدا عن كل شىء ما عدا تلك الفتاة التى تتحرك فى خيالى. قلبى ينتفض تحت الضلوع، وعند أسفل البطن إرهاصات غامضة.

فى المدرسة رغم الاضطراب الذى أصابنى ظللت أتتبع الدروس بإنصات. ثبتُّ نظراتى على السبورة السوداء دون أن أسرح، لكن فى لحظة من اللحظات رأيت وجهها أمامى، وعاد إلىّ ذلك التطلع المشتعل إلى شىء آت. أصبحت كلمات الدروس همهمة بعيدة تصل إلى من خلف سياج لكن لحسن الحظ بعد قليل دق جرس النهاية، ففوجئ المدرس بى أنطلق من الباب قبل أن يأذن لنا بالانصراف. هبطت مهرولا على الدرج مجتازا الحوش فى لمح البصر. جاءنى خاطر مزعج وأنا أجرى بأقصى سرعة فى الشارع، قالت: "فى موعد خروج المدرسة" لكن من أين لى أننا ننصرف فى وقت واحد؟

سألت أحد الصبية عن محطة "روكسى" فأشار إليها بذراعه الممدودة، ثم انطلق يجرى. وصلت إليها دون عناء. لم أجد "لجابرييلا" أثرا على الرصيف، ولا فى مكان قريب منه، فأخذت أذرعه بخطوة بطيئة. بين الحين والحين أتوقف لأدور حول المحطة بعينى لعلى ألتقطها آتية من بعيد، أو مختفية فى مكان لم أتنبه إليه، وبينما أنا منهمك فى هذا البحث المحموم سمعت صوت صدمة عنيفة على مقربة منى تبعه صمت كأن كل الأشياء توقفت عن الحركة، ثم تلاه صياح، وأقدام تجرى فوق الطريق. التفت إلى جوارى لأجد رجلا يرقد على جانب، كأنه نائم. تحت رأسه لمحت خيطا أحمر اللون يزحف ببطء فوق الإسفلت. كان يخفى وجهه تحت ذراع مدها فى اتجاه الرصيف بينما ثنى الأخرى تحت رأسه. جسمه ملفوف حول نفسه كأنه أراد أن يتفادى الصدمة المباغتة. يبدو ضئيل الحجم، بائسًا فى سترته وبنطاله الممزق يكشف عن جزء من ساقه. حذاؤه المرقع واسع يكاد ينخلع من قدمه. لمحت رجالا يجرون فوق الطريق ويلوحون بعصبية إلى سيارة مسرعة. تعالت أصواتهم بصراخ عاجز ثم تحول بعد قليل إلى جلبة صاخبة تختلط فيها التعليقات باللعنات على مرتكبى الحادث. ظل الرجل راقدا حيث هو فوق إسفلت الطريق مثل طفل طريد، أعياه البحث عن مكان يحتمى فيه. حول عنقه ياقة متسخة قديمة، ورباط رفيع، داكن، وبالقرب كيس من الورق أفلت من يده، وتحت وجهه خيط من الدم الأحمر أخذ يتحول إلى بركة قاتمة.

تقهقرت بضع خطوات إلى الوراء وأسندت ظهرى على عامود. أحسست بجسمى يرتعش، وبالعرق البارد يسيل تحت القميص. انتابتنى رغبة فى القىء أخذت تصعد فى الحلق ثم تهبط لتصعد من جديد. أنزلت الحقيبة على الأرض إلى جوارى، وظللت واقفا حيث أنا، وقد تسمرت عيناى على الجسم الضئيل، واليد السمراء تمد أصابعها نحو الكيس وكأنها تتعلق ببقية باقية من الأمل. فمى يجف بالتدريج، وطرف لسانى مثل قطعة من الخشب تمر على الشفتين بحركة بطيئة. التفت إلى المظلة التى تتوسط الرصيف باحثا عن مقعد حتى أجلس عليه، فالتقت

عيناى بعينيها. لم أتحرك من مكانى. نظرت إليها كأنها فتاة مجهولة وقعت نظراتى عليها بالصدفة. بدت عليها الدهشة لحظة، ثم اقتربت منى. وضعت يدها على ذراعى فسكنت الرعشة التى استولت على. انحنت ورفعت الحقيبة من فوق الأرض. عبرنا الطريق متجهين إلى مساحة من الحشيش وضعت فيها دكك خشبية، وبعض المراجيح. دفعت الباب بيدها، وأدخلتنى، ثم دخلت هى حاملة الحقيبتين.

طوال طريق العودة ظللنا صامتين. أحسست هذا اليوم أنها تشعر بى، إنها صديقتى منذ زمن بعيد. لم تحاول أن تخفف على بالأسئلة أو التعليق عما جرى للرجل المسكين، لكن عندما وصلنا إلى نادى التوفيقية قالت لى:

"لا يوجد أحد فى البيت. أمى سافرت إلى "الإسكندرية". اصعد معى، واسترح قليلا، لقد أعدت لنا الطاهية نوعا من الرقاق المحشو بالكريمة".

صعدنا إلى الدور الثانى، إلى شقة صغيرة بدت لى جميلة أو ربما حجرتها هى التى استحوذت على إعجابى، فيها زهور، ورسومات للأطفال معلقة على الجدران، وستائر ملونة وعلبة شيكولاته ماركة "بيروجينا" قاومتها لمدة قصيرة ثم تركت لنفسى العنان.

أغلقت الباب وعلقت مريلتها على شماعة فى الدولاب. أختارت أسطوانة ووضعتها على قرص الفونوغراف. قالت بالية "لريمسكى كورساكوف" ثم اختفت لتعود بعد قليل مرتدية ثوبا مثل "الكيمونو" اليابانى، وخفا من القماش، فوجئت بها تنحنى وتنزع حذائى.

عندما رقدنا على السرير اكتشفت أن جسمها قوى تحت الثياب. قبلتنى وقبلتها فتعثرت شفتاى. فى أحضانها اكتشفت جمال الأنثى، وضاع منى الرعب. لم أمارس معها الجنس. كنت لا أزال صغير السن. ترى هل أشفقت على من عالم كالبركان، أم أنها لم تكن راغبة فى ذلك؟ أرادت فقط أن تحتضن إنسانا. كانت غريزتها سليمة، فيها شبق وفيها حياء. روضت فىَّ العنف الكامن فى الصبيان وأزالت شعورا بالإثم ارتبط فى ذهنى بالبنات، ثم تركتنى أسير فى الحياة أكثر قدرة على فهم، وعلى حب النساء.

مات جدى بعد وفاة "سعد زغلول" بثلاث سنوات، هكذا قالت لى عمتى "فردوس"، فكيف حدث هذا دون أن أتنبه إليه؟ كيف دفن رجل مثله تحت التراب دون أن تصلنى أقل الأصداء. رجل كانت تهتز الأرض تحت أقدامه كيف اختفى هكذا فى صمت؟ لابد أن الحدث الجلل صاحبته أشياء، جنازة وصوان وعزاء، وقرآن يتلى بالليل، والنهار، و"قرص" توزع على الفقراء، ولطم على الخدود وصراخ وتمزيق للملابس، ونساء يرتدين السواد، ويتزاحمن فى غرف الدوار، ورجال مرتفعو القوام يمشون بالعصاة، ويلتحفون بالجبة والقفطان، وعلى وجوههم سيماء الحزن.

ربما مات فى البلد أو أثناء السنة التى سافرنا فيها إلى "روما" ليعمل أبى ملحقا فى السفارة وإلا كيف أفسر أننى لم ألاحظ شيئا من كل هذا؟ لم ألاحظ أن الرجل اختفى وترك "الدوار" الكبير فى "القضابة"، والقصر فى شارع "سراى الجزيرة" لزوجته "عائشة" سليلة أسرة "بركات" ولخمسة من الأولاد وثلاث بنات ولدوا فى بطنها منذ الزواج.

أثناء حياته لم تقم بينى وبينه صلة ما عدا السقف الواحد الذى كنا ننام تحته، وحادثة ركوبى على ظهره أثناء الصلاة، واستقباله لنا ساعة العودة فى الميناء.

مع ذلك لم يمض دون أن يترك أثره على. عندما أتذكره بقوامه الطويل، وعينيه السوداوين، والجبة والقفطان، يزحف علىّ إحساس بالراحة، كأننى اهتديت عن طريقه إلى جزء من الأنا، إلى القرية، والترعة، والبيت الذى أقمته هناك، إلى الشجرة الوارفة الظل عند مدخل "الدوار"، إلى الجذع والجذور والتراب. فأدرك أن لى جذورًا وأنه ترك لى أشياء، ترك لى الأرض، والنبات، ترك لى جدتى "عائشة"، فعندما مات انسحبت لتقضى حياتها فى "دوار" القرية. لم تعد مشغولة بالرجل، براحاته وجاياته. أصبحت أزورها هناك، وأقضى معها جزءا من الإجازات وأستطعم لأول مرة، وبشكل حقيقى معنى الطفولة، والرعاية، والسعادة فى الحياة فقد كانت نقطة الدفء الوحيدة التى حملتها معى من تلك الأيام. أجلس إلى جوارها على الكنبة البيضاء، أقشر لها الفستق وعين الجمل، واللوز، وأحشو بها ثمار التين الجاف، أضعها على كف يدها فتدفعها إلى فمها وتمضغها ببطء. تتحدث إلىّ بصوتها الهادئ. تنطق "القاف" جيم وتقول "يوه"، وتضحك بضحكتها المرحة الماكرة. جسمها المنكمش، ملتحف بالسواد، وعيناها صغيرتان كالخرز اللامع. تستيقظ قبل الفجر رغم داء السرطان الذى أصاب ذراعها. أسمع أنينها الوحدانى فى الليل الصامت وخطواتها تهبط ببطء فوق الدرجات. قبل أن نستيقظ تدور دورتها حول المطبخ، والفرن، وغرف العجين وإعداد الطعام، وحظيرة المواشى، ومخزن الغلال، تطمئن على حلب الجاموس ونظافة الأوانى، تشرف على استخراج قدرة الفول من التبن المشتعل فى الجورة منذ المساء، تصدر أوامرها بصرف الغلال، وذبح البط، والفراخ، ثم تبحث عنى أينما أكون، فى الحوش الكبير، أو عند "طلمبة" المياه، أو تحت شجرة الجميز عند البوابة ومثلما كانت تفعل مع أبى تصطحبنى فى جولتها الثانية قبل الإفطار. ندخل فى حظيرة المواشى. تضع بين يدى إناء فخاريا من اللبن ينزلق بين شفتى ناعما دسم الملمس، أشرب منه وأترك ما تبقى جانبا. ندلف من الباب ونجتاز الأحواش الداخلية للسكن. تمسك بيدى فأحس بالأمان فى كفها الخشن. أستنشق رائحة الملابس خليطا من المسك والخبيز واللبن، أشتاق إليه أحيانا وأنا فى الطائرة، أو القطار أو سائرا فى الشارع، أو جالسا فى مكتبى. أفكر فيه عندما يتفاقم الصراع، ويزداد. رائحة فريدة من نوعها تقضى على القلق، تجعلنى أريد أن أدفن وجهى فى ثنايا الجلباب لأمتص ما كانت تحتويه المرأة من عطاء. أسير إلى جوارها فى الحديقة ندلف بين أشجار الجوافة، والرمان، والليمون ثم نخطو تحت تكعيبة العنب. صوتها يأتينى مثل جريان

الماء فى مساقى الزمن، فيه سلام لا ينقطع وهى تحكى عن تذكير النخيل وأنواع البلح، عن الجبن "الأريش" ومش الغنم، عن جمال الترعة فى ضوء القمر. تلتفت إلى فجأة وتبتسم" كان جدك يقول: "التفتى إلى هذا الولد" مشيرا إليك، "فهو ليس مثلهم. سيسير فوق دروب الخطر". أتطلع إليها فى نهم. لا أفهم مغزى الكلام، ولكنى أشعر فيه بأشياء تخصنى أنا، إنها تميزنى أنا، لا فى الطعام وطواجن اللبن وحدها، وإنما أيضا فى الأمل.

جدى يذكرنى دائما بجذورى القديمة فى الوطن، بالثورة ضد الإنجليز، بانتفاضات الفلاحين وقطع قضبان السكة الحديد، برجل اسمه الشيخ "أحمد حتاتة" أعلن استقلال المنيا، عن مصر المحتلة. أرى فى خيالى القصر الكبير، وسيدات يرتدين اليشمك والجلباب الطويل، ورجالا فيهم مزيج من الوحشية والطيبة يسيرون فوق الأرض بخطوات غريرة كأنهم يعرفون، الأسئلة ويعرفون الإجابة فالإنسان ليس وحده فى هذه الدنيا، توجد إلى جواره الملائكة والشياطين والعفاريت، وأهم من هذا كله يوجد الإله "العلى القدير". الاعتراف بهذه الحقائق يكفيهم وبعد ذلك يتصرفون فى حياتهم وفقا لما يحقق مصالحهم ويرضيهم. أرى "سعد باشا" يطل بوجهه الصارم على من تحت الطربوش القصير، كانت تربطه بجدتى "عائشة" صلة قرابة وطيدة، وكانت لها منزلة خاصة لديه يزورها كلما سمحت له مشاغله الكثيرة. أرى أرض "القضابة" "والفرزدق"، "وصالحجر" إحدى عواصم الملك "رمسيس" وغيرها من القرى التى عدت إليها بعد سنوات، أرى اللبلاب يصعد على الزريبة ويغطيها، واللبن الأبيض يعلوه فوران الحليب، والجبن القديم، والسريس، والجعضيض، والبصل الأخضر، والفلفل الحريف، والفأس الملقاة تحت شجرة التوت ينام بجوارها "عم تليمة" وقد وضع ذراعه على عينيه، والبنات يغسلن الأوانى فى الترعة فيلمع نحاسها فى شمس الأصيل. أرى الدكك العالية فى حوش السلاملك تدور حول الجدران، وقد فرشت عليها السجاجيد، وأغطية حمراء لها شراشيب، وجلود للخراف صوفية بيضاء ومساند للظهر، والذراعين وفى منتصفها دكة عريضة أعلى من غيرها يجلس عليها جدى، فألمحه من بعيد يشير بإصبعه إلى شىء، ويحرك السبحة بين يديه، ومن حوله صفان طويلان من الأعيان، والفلاحين، والوعاظ، ورجال الدين. أرى القهوة "المُرة" تمر عليهم فى المظاريف يسكبها أحد الخدم من أبريق بزبوزه طويل ثم أرى أغلب الزوار ينسحبون قبل صلاة العشاء ليبقى منهم عدد قليل يؤدون صلاة العشاء مع جدى فى البهو الداخلى، ثم تأتى صوانى الطعام النحاسية الكبيرة محمولة على رءوس البنات، مغطاة بالمشنات، فأنسحب بدورى إلى البيت الداخلى لأتناول العشاء مع النساء. أرى نفسى فى بعض الأيام مستيقظا قبل الفجر مخترقا الأبواب الكبيرة ثم جالسا على المصطبة المبنية بطول الجدار الخارجى للسلاملك لأشاهد الغوازى وهن تتسللن من بيت "خريمى" لتستقلن "الحنطور" المغلق المنتظر عند بوابة الترعة قبل ذهاب الفلاحين إلى "الغيط".

أرى كل هذا، وغيره. أرى كل الأشياء التى اختزنت فى مثل الشفرة الوراثية، تلك التى أصبحت أعيها وتلك التى ما زالت تخفى علىّ معانيها فقد مات جدى ولكنه ترك قطعة من الأرض أمام الترعة والنيل أقمت عليها بيتى لأكتب فيه، ولأهرب من التطاحن الذى أصبح سمة المدينة، وترك لى إحساسا بالاستمرار يريحنى. الحياة لم تنقطع بوفاته، فقد جئت لأنه جاء وهو لا يزال قريبا منى، أكتب على بعد قليل من القبر الذى دفن فيه هو، وجدتى، وعمى الكبير الذى علمنى كتابة الحروف العربية فى الكراريس، ومن بعده جاء أبى ليدفن فى المدينة وقد يأتى دورى لأموت قريبا أو بعد سنين، ولكن لى ابن يشبهنى عندما كنت فى سن العشرين: الحاجبان اللذان يلتقيان فى خط كثيف أعلى الأنف ونظرة العينين. إحساس يخفف من وطأة الموت، يؤكده وينفيه.

مات جدى وانتقلنا من بيت الأسرة إلى شقة فى الزمالك مكونة من خمس غرف تحيط بها الحقول. حول الحقول يلتف النيل كالحزام العريض، أخضر عميق، أو أزرق خفيف، أو ترابى فى الشتاء، وفى الصيف أحمر مثل السائل البركانى يتدفق من مكان عميق، أتتبع تغيراته من نافذتى، أو أقترب منه سائرا إلى جواره كالصديق القديم. أذهب إلى المدرسة تلميذا فى "الكلية الإرسالية الإنجليزية". التعليم فيها باللغة الإنجليزية واللغة الثانية هى الفرنسية أما العربية فلا أحد يتحدث بها، لا فى الفصل، ولا فى الحوش، ولا حتى أثناء الألعاب الرياضية. المدرسة تتبع الكنيسة البروتستانتية فى إنجلترا، والمدرسون فيها قساوسة يرتدون الملابس العادية، وأربطة العنق الداكنة المعقودة داخل الياقات "المنشية" والأحذية المتينة ماركة "ساكسون" أو "كنج". بعضهم يضع ياقة القساوسة البيضاء المستديرة حول عنقه عندما يؤم الصلاة، أو يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، أو يحضر احتفالا رسميا فى الكلية.

أذهب إلى الفجالة فى "الأوتوبيس" الخاص. مبانى المدرسة قديمة متهدمة من عهد مضى، تشبه المصانع أو المخازن الموروثة من بدايات الثورة الصناعية، ولكن الحوش واسع نلعب فيه بالكرة المطاطية، أو بالكرات الزجاجية الملونة صنعت أمى كيسا من التيل لها يغلق بشريط وطرزت عليه اسمى باللغة الإنجليزية، أضعها فيها حتى لا تضيع، ومعها أحيانا بعض الكرات الكبيرة الحجم، المصنوعة من الصلب تشبه "الرومان بلى" فهى ثقيلة تتدحرج فوق الأرض دون أن تنحرف من مسارها وتساعد على "التنشين" الدقيق. أختار الأنواع المرتفعة الثمن، زجاجها بلورى، وألوانها زاهية، فأنا من أسرة ميسورة نسبيا. أما زملائى فى المدرسة فأغلبهم من أولاد الحرفيين، والصناع والتجار الأجانب الذين ينتمون إلى الفئات تحت المتوسطة: يونانيون، وإيطاليون، وأتراك، ولبنانيون، ويهود وجنسيات أخرى عديدة، فقد كانت الإدارة تفخر بوجود أكثر من عشرين جنسية مختلفة فى هذه المدرسة.

أفرغ كيسى من محتوياته على الرمل الأصفر الذى يغطى حوش المدرسة فتشع الكرات الزجاجية الملونة فى ضوء الشمس الصباحية. تحدق فيها العيون المجتمعة حولها بمزيج من الإعجاب والحسرة. عندما نلعب أكسب أحيانا وأحيانا أخسر ولكن فى كل الحالات أعود بعدد أقل من ذلك الذى كنت أحمله عندما خرجت من البيت. أتبرع بها لأصحاب الأكياس الصغيرة المصنوعة من الخرق البالية، أو تسرق منى، أو تضيع أثناء اللعب، خصوصا مع ذلك التلميذ الذى ينتمى إلى أسرة لبنانية اسمها "كوسة". رأسه صغير مضغوط على الجانبين يحمله مثل رأس الطير على عنق طويل يتأرجح إلى الأمام والى الخلف وهو سائر يلقى بنظرات خاطفة فى كل الاتجاهات من عينين فيهما يقظة الحيوانات السريعة. شعره ناعم ملتصق بالجمجمة يضع عليه "الفازلين" ثم يصففه فى المرآة بمشط صغير يحمله معه فى الجيب. بشرته دائما بيضاء شاحبة وجسمه مثل كلاب الصيد من النوع السلوقى، يجرى بسرعة فائقة ويجيد اللعب بالكرة أيا كان نوعها، تلك المصنوعة من الجوارب أو المطاط أو الجلد، ولكنه يحتار إلى حد ما فى كرة القدم المعتادة فقد تعلم اللعب فى حوارى السيدة. حذاؤه المدبب لونه مثل لون بنطاله فيبدو كالحافر الطويل، متآكل عند النعل فى عدة مواضع كأنه رتقها بعد أن أصابها التلف.

أهبط على الدرج فى الصباح، لأنتظر الأوتوبيس فوق رصيف الشارع وتقف أمى على الشرفة حتى أصعد إليه. جسمه المنتفخ مدهون باللونين البنى والأصفر مثل السترة التى أرتديها وغطاء الرأس ورباط العنق، فالاهتمام بالشكل والنظام الذى تميزت به أمى طوال حياتها سائد فى هذه المدرسة، فهى جزء من حضارة الإنجليز، التى ينبغى نقلها إلى البلاد المستعمرة. تركز جهودها بالذات على الأقباط والجاليات الأجنبية المستوطنة بوصفها ركائز للغزو الذى جاء إلى البلاد من أقطار الشمال المستعمرة.

لماذا اختارها أبى دون سواها؟ غالب الظن هو أن الاقتراح جاء من أمى، ففى رأيها أن التعليم الإنجليزى هو أرقى ما يستطيع أن يناله أى شاب، وأفضل إعداد للمستقبل الناجح الذى تأمل أن يكون من نصيبى، وغالب الظن هو أن أبى وافقها من باب التكاسل، ولأن مصاريفها كانت أقل بكثير من المدارس المماثلة ومن بينها كلية "فيكتوريا". ففى ذلك الوقت كانت الظروف المالية للأسرة قد تدهورت. اكتشف أبى أن جزءا من ميراث الجد مرهون للبنوك العقارية، وأن هناك ديونا واجبة السداد، كما أن موارده أخذت تنضب لأنه لم يقم بأى عمل يمكن أن يرفع به دخله، ولم يشرف على الأرض الزراعية التى ورثها عن أبيه وإنما ترك إدارتها للأخ الأكبر الذى كان يعتبر أغلب خراج الأرض ضمن مستحقاته ينهل منه كما يريد ثم يتفضل بتوزيع ما تبقى على أشقائه، وشقيقاته.

كان أبى موظفا فى وزارة الزراعة ينفر من العمل ويهرب منه كلما أمكن ذلك. صلاته العائلية تضمن أن لا يسأل لكنه فى الوقت نفسه يكره التزلف والسير فى الركاب. كان فيه

كبرياء الأسرة الكبيرة وظل بعيدا عن السياسة لا يستفيد من علاقاته الواسعة بعدد كبير من رجال الحكم. انشغل بملذاته، بالسهر مع الخلان، والخليلات واشتهر بالجاذبية والوسامة، وحب الحياة، ولكن قبل هذا أو ذاك كان عاشقا محموما لألعاب القمار، فغدا من المتخصصين فى البوكر والبريدج والكونكان، يقضى الساعات الطويلة فى نادى "سليمان باشا" جالسا على الموائد الخضراء مستغرقا بكل كيانه فى الورق الملون اللامع ينزلق فوق الجوخ الأخضر بحركته الناعمة. هادئ لا ينفعل، وفى داخله تلك الحمى التى تظل تشتعل حتى يتردد أذان الفجر، ويحمله الريح فوق المدينة النائمة. عندئذ يتمطع، ويتثاءب، وينظر حوله كأنه أفاق، ثم يقوم شاحب الوجه، ويقود سيارته فى شوارع القاهرة الصامتة.

مع ذلك كان يتمتع بنوع من التحكم فى النفس ونزعاتها. وضع لنفسه حدودا لم يتخطاها حتى يجنبنا المشاكل، ويوفر لنا احتياجاتنا. كان قادرا على شد لجامه وإلا لما تمتعنا بذلك القدر من الاستقرار الذى ظل قائما. رأيته فيما بعد أمام مائدة القمار، وشاهدت ذلك الاستغراق الذى كان يمتص كل كيانه، فأدركت مدى الإرادة التى كان يحتاج إليها حتى يضمن ذلك.

كان اقتطاع المال منه أمرا صعبا للغاية، يصرف علينا ويوفر لنا أساسيات الحياة وقليلا من كمالياتها ولكنه يصرف بحساب، وبطريقة تتناسب مع الجزء المتبقى من موارده، وهذا الجزء محدود دائما كأنه كان يجنبه منذ البداية ولا يمسه مهما كانت الحالة. أمى تشكو من المبالغ التى يصرفها خارج المنزل، وكثيرا ما كانا يتشاجران حول هذه المسألة، فهى مضطرة إلى التدبير فى كل خردلة. أراها جالسة أمامى تخيط ثيابى، أو وهى تفحصها باهتمام بعد أن تجمعها "الخادمة" "أم السعد" من حبل الغسيل، تسد فيها الثقوب وهى بادئة فتبدو جديدة دائما. هكذا أيضا مع الطعام، وأدوات المنزل وتجهيزاته، لذلك نشأت أكره التبذير، وتبديد الموارد، والبذخ والمظاهر الكاذبة.

أبى لم يكن يملك فى الواقع ما يسمح له بالبذخ. كان يكسب من المقامرة أو على الأقل لا يصاب بالخسائر فعندما كبرت وجلست إلى جواره أثناء اللعب اكتشفت أنه يقامر بأعصاب باردة. ينقلب إلى شخص آخر، سيد نفسه، قوى الإرادة، دقيق الحسابات، من الرجل الكسول، صاحب النزوات، والمحب للملذات إلى شخصية مختلفة لا يترك الزمام يفلت منه أبدا، يغلى كالمرجل فى الداخل وعلى السطح يبدو هادئا وكأن ملامحه تحولت إلى قناع. إذا قامر يقامر على أساس، وإذا أحجم يكون تراجعه فى الوقت المناسب. فى تلك اللحظات كان يثير عندى نوعا من الإعجاب، فقد تعودت أن أراه على نحو مختلف .

هكذا لم تصل بنا الأمور إلى العوز أو الإفلاس. البيت مفتوح والطعام موجود والملابس واثنان من الخدم يوفران لنا كل الخدمات. الكتب والأسطوانات أبتاعها مهما كان ثمنها. أمى تعمل بلا كلل لتبقى البيت فى أحسن حال. الثقب فى الجراب ترتقه وهو لا يزال فى حجم رأس

الدبوس، ورغيف الخبز "البلدى" يقسم على أرباع فإذا بقى منه جزء يستخدم لصنع "الفتة" بالثوم والخل، أو يقلى بالسمن الذى يأتينا فى "الصفائح" من البلد ويؤكل مع حساء العدس، والدجاج. تلميذتها النجيبة هى الخادمة "أم السعد" تلك المرأة الفلاحة القوية ذات الفك العنيد، والجسم المربع التى أتتنا من "كفر عشوش" وهى لا تزال فتاة فى سن الاثنتى عشرة. ذهنها يتفتق باستمرار عن وسائل للتوفير، عن وسيلة لصنع أشياء جديدة من أشياء غدت غير صالحة، مناشف صغيرة من مناشف كبيرة، أثواب للأطفال من أثواب الكبار، مفارش للشاى مشغولة بالإبرة من البياضات. أياديهما تولد الأشياء من فراغ، مثل أيادى الساحرة، وكل شىء يصنعانه بإتقان، فيه طعم، وجمال ونظام. فى هذا الجو نشأت أحترم جهد الإنسان. أكره اليد العاطلة والإسراف، أؤمن بالعمل، وأتحمل الحرمان.

لم تكن هذه الأشياء تشغلنى كثيرا، فالحياة تسير رغم كل شىء دون عناء كبير وأنا منصرف إلى القراءة والموسيقى، وإلى محاولة دائبة للتميز عن أقرانى فى الفصل. فى كل امتحان يأتى ترتيبى الأول، وأعود من المدرسة حاملا شارة التفوق فوق المريلة، أو السترة البنية اللون. أنال من أمى قبلة واحدة، وألمح فى عينيها بريق الكبرياء كأنها تقول لنفسها "هذا ما صنعته يداى".

ربما لم أشعر بالحرمان لأن الأطفال الآخرين فى المدرسة لم يأتوا من صفوف الأغنياء، فيبدو أن الإرسالية كانت عازمة على توجيه جهودها للتأثير على القطاعات المحدودة الدخل نسبيا وسط الأقليات. أتذكر عيون الأطفال عندما كنا نجلس فى المقصف على الدكك الخشبية فيخرج كل منا طعامه من الكيس أو السلة ويضعه على المنضدة أمامه. أرى وجه الصبى "كوسة" وعيناه تنظران إلى طاسات العامود وأنا أفتحه لأجد صدر الدجاجة المحمرة والخس ذى الأوراق الخضراء تلمع عليه نقاط المياه، والتفاحة الحمراء، والحلويات المحشوة بمسحوق الكستناء. كذلك كان حال صديقى الأرمنى "إدوار أسادوريان" الذى زرته فى بيته فى شقة مظلمة لا يدخلها الضوء، أو أشعة شمس، فيها حجرة نوم واحدة، وصالة صغيرة وحمام تطل على حارة متفرعة من شارع الملكة نازلى بالقرب من محطة "باب الحديد"، فى الدور الأول من عمارة اسودت من دخان القطارات. عندما أدخلها أستنشق رائحة الهواء الراكد، والرطوبة، والملابس القديمة والمرحاض.

مثل كل الأطفال كانت لى أحلام. ربما كنت أكثر سذاجة من الكثيرين، وربما ظللت هكذا بحكم نشأتى بعيدا عن المجتمع وحياتى المحدودة المحمية خلف الجدران، وكان الصبى "كوسة" يمثل نقيضى تماما، فهو لا يتنبه أبدا إلى ما يقال فى الفصل حتى عندما نقترب من الامتحان، ولا يستذكر دروسه أو ينفذ الواجبات فى أوانها. المدرسون لا يطيقونه لكن كانت فيه جاذبية خاصة بالنسبة لنا نحن الأطفال، مشتقة من عصيان الأوامر وتفتق ذهنه عن مختلف الآثام.

كان بالنسبة إلينا كالشيطان يقاوم كل القيود، والنواهى والمحذورات، ولا يرضى أبدا بالخضوع للنظام والحدود بين الأشياء. لم يكن من أولئك الذين يهدأ لهم بال. فى كل يوم يتفتق ذهنه عن لعبة يخرجنا بها عن التكرار الممل للأشياء، وتعطينا فرصة لممارسة الحرية المفقودة، وروح الابتكار. بالتدريج اتضح أننا جميعا من أنصار الشيطان بما فيهم أنا، رغم وجهى البرئ، ونظراتى المتأملة، وميلى إلى طاعة الأوامر. ففى مرة من المرات حرضنا على الخروج من المدرسة أثناء فسحة الغداء للطواف على الورش المنتشرة فى حى "الفجالة"، ومرة أخرى لزيارة المكتبات. فى المرة الأولى، حتى يتحقق ذلك قام باستدراج البواب بحجة وجود تلميذ أغمى عليه فى الفناء، أما فى المرة الثانية فقد أشعل النار فى بعض الأوراق التى وضعها خلف جدار. فى المرتين كانت النتيجة اثنتى عشرة ضربة بالخيزرانة وصفحات تنقل من كتاب بعد انتهاء يوم الدراسة. أما فى المرة الثالثة فقد قادنا إلى محطة السكة الحديد لنشاهد القطارات فتأخرنا عن حصة التاريخ التى تبدأ مباشرة بعد فسحة الغداء، وهكذا اضطررت أن أكذب على أمى وأن أدعى وجود رحلة إلى "القناطر" تنظمها المدرسة يوم الإجازة الأسبوعية، أى الأحد، بينما كنت فى الواقع معاقبا بالحضور إلى المدرسة، والجلوس فى الفصل لنقل عشرين صفحة من كتاب التاريخ. هكذا انقلبت دراسة التاريخ إلى عقاب.

لكن الحرية، ومعرفة الأشياء الجديدة تجذب كل الناس، وإتيان الأعمال الخارقة للعادة لها مذاق خاص، و"كوسة" كان يدرك كل هذا بغريزة مدفونة فى الأعماق. كل اقتراحاته تشعل الخيال وتثير الحماس، ولذلك رغم كل ما حدث لنا بسببه لم نكرهه أو ننفض عنه، أو نتعظ حتى نتفادى العقاب. ظللنا نقع فى براثنه المرة تلو المرة.

فى أحد الأيام أثناء استراحة الصباح جمع عددا من التلاميذ، والتلميذات، وأعلن عليهم نبأ هاما، أنه منذ الباكر ستتاح لهم فرصة خوض تجربة من نوع خاص، هى تجربة الطيران فى الهواء.

وقفنا حوله نتتبع ما يقوله باهتمام، ونتطلع إلى قوامه يرتفع كالنخلة الطويلة وسط الشجيرات. وجهه الشاحب تكسوه حمرة خفيفة من الانفعال، وعيناه تتحركان بقلق هنا وهناك.

فى تلك الليلة ظل عقلى مشحونا بصور الطيور، والفراشات تمد أجنحتها فى الزرقة الصافية للسماء، بجسمى المتوتر المستيقظ تبرز له جناحان لترفعانه عاليا فوق المدينة والعمارات. أرى البيوت والأشجار وشريط النهر اللامع، والترام يزحف فوق الأرض كالسلحفاة، والناس كالنمل فى الشوارع. حمى داخلية، اشتعلت فى كل جزء منى كالفيضان يصعد إلى عقلى الذى رفض النوم، ولم يختطف منه سوى لحظات وعندما رن جرس المنبه الذى تضعه أمى فى الصالة ألقيت بغطاء السرير جانبا، وأسرعت إلى الحمام.

جلست أمام المائدة فى المطبخ أبتلع اللبن الحليب الساخن وذهنى سارح. أحرقت لسانى، وحلقى وفاض جزء منه على بنطالى المكوى بعناية فأصرت على أن أستبدله بآخر. على وجهها ظهرت علامات الغضب. أخذت تتشكى من أعمال البيت، ومن إهمالى الذى يضيف إليها أعباءً وتنعى حظها العاثر الذى جاء بها إلى مصر.

لم تكن الحصص فى ذلك اليوم سوى عذابا طويلا يجر قدميه. اللحظات تمر مثل سائل ثقيل ينسكب من ثقب لكن أخيرا جاءت فترة الظهيرة المكرسة لتدريب فريق كرة السلة، فاندفعت بأقصى سرعة ممكنة إلى ركن قصى فى الحوش كان قد حدده "كوسة" للقيام بالتجربة . وجدت جمعا صغيرا من الأولاد والبنات وقد التفوا حوله، وأخذوا يتطلعون إليه فى صمت بينما وقف هو بينهم يمشط شعره كالبطل يستعد للمثول أمام جمهوره. عندما اكتمل العدد الذى كان ينتظره طلب منّا أن نفسح له مساحة كافية تمكنه من توضيح ما هو مطلوب منا فخطونا إلى الخلف لنكوّن دائرة أوسع ثم وقفنا ننتظر.

بدأ بمقدمة قال فيها إن الخيال هو أفكار تحلق فوق المستوى العادى للأمور، إنه طريقنا لاكتشاف ما لم نكن نعرف بوجوده، ثم أضاف أن التحليق فى المستويات العليا يحتاج إلى أجنحة قوية ترفع الإنسان نحو السماء، وتطير به خارج الحدود، أن هناك رجلاً من الأعراب صنع جناحين وأوثقهما بذراعيه ليصبح مثل الطيور، ثم صعد على قمة جبل عال، وألقى بنفسه من فوقه لكنه سقط على الأرض ومات على الفور، لأنه لم يتمكن من تحريك الجناحين بالقوة المطلوبة. بعده جاء أخوان اسمهما "رايت" صنعا طائرة تدور فيها المراوح بقوة الوقود وتمكنا بذلك من الصعود، والطيران لمدة عشر دقائق، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الطائرة معروفة. إنها نتاج الخيال الذى جعل الإنسان يحاول أن يفعل ما تفعله الطيور، رغم أنه غير مزود بجناحين، أما هو فقد درس الطيارات فى الصور بإمعان، وقارن بين أنواعها، واقتنع أنه فى إمكانه أن يطير إذا ما استطاع أن يقلد حركة المراوح، ثم بذل عدة محاولات ونجح أخيرا فى الطيران لمدة قصيرة صعد أثناءها من سطح الأرض إلى الشقة التى يسكن فيها.

وقفنا أمامه مشدوهين نمتص ما يقوله بإنصات، وكأن الدنيا كلها لم يعد فيها إلا "كوسة" وأفكاره المثيرة تطير بنا حول الحوش، وفوق الأشجار، وترفعنا حتى أسطح المنازل ومنها إلى السحب، لنعود إلى مبنى المدرسة القديم مخترقين النوافذ والأبهاء، والممرات، والفصول بينما يتتبعنا الناس مبهورين. هكذا سيصبح كل منا طائرا يحلق كما يريد، وبطلا تتجه إليه الأنظار.

وقف أربعة منا عند أضلاع المستطيل الذى رسمه على الأرض. أمسك اثنان منهم بذراعى الصبى الذى أراد أن يطير بينما وقف الاثنان الآخران وراءهما وقد لفا أيديهما حول ساقيه وعندما لوح "كوسة" بيديه أخذ الصبى يدير ذراعيه مثل المروحة، ثم أعطى "كوسة" الإشارة المتفق عليها فترك الأربعة جسم الصبى، وتقهقروا بسرعة إلى الوراء ليفسحوا له الطريق، ولكن

بدلا من أن يرتفع جسمه فى الهواء سقط على الأرض سقطة قوية. سمعنا صوت ارتطام جسم الصبى بالأرض فأصابنا الفزع، أما هو فلم يصرخ أو حتى يئن وكأن الدهشة أو "الخضة" شلت أحباله الصوتية. ظل راقدا حيث هو، ثم جلس القرفصاء. رأينا الدم يسيل من أنفه وشفتيه اللتين بدأتا تتورمان، فأصبح منظره مثيرا للشفقة والقلق.

انتقلت نظراتنا إلى "كوسة" الذى كان لا يزال يقف بهدوء مثل قائد الجيش يتأمل نتيجة التعليمات التى أصدرها منذ قليل، وكأنه لم يحدث شىء. كان فيها تساؤل، واندهاش، وحيرة بل وعدم تصديق كأنه لم يكن مسئولا عما حدث للصبى وإنما عوامل أخرى غريبة، فقد أكد لنا أنه تمكن شخصيا من الطيران بهذه الوسيلة. كيف إذن تفشل التجربة نفسها مع هذا الصبى؟ لابد أن العيب فيه. أخذنا ننظر إليه بشىء من الضيق رغم الدم الذى يسيل فوق القميص، ورغم أنفه وشفتيه المتورمتين وعلامات الألم البادية عليه.

تقدم "كوسة" إلى الأمام خطوتين. أخرج منديله المتسخ من جيبه، وأخذ يضمد جراح الصبى الجالس القرفصاء واضعا كفيه على أرض الحوش دون أن يبدى أى حركة، أو يهم بالقيام من المكان الذى استقر فيه. مال عليه، وضع يديه تحت إبطيه، ورفعه عن الأرض بدفعة قوية، ثم سار به حتى صف الصنابير النحاسية التى تبرز من الجدار الخلفى للحوش فوق حوض طويل من الإسمنت، وبعد أن مر بعض الوقت عاد به إلى حيث كنا لا نزال واقفين، وقد بدا على الصبى أنه أفاق بعض الشىء من الصدمة التى تعرض لها. أجلسه "كوسة" على مصطبة حجرية وتقدم نحونا بخطوات واثقة كأن كل ما حدث لا يعنى بالنسبة إليه أى شىء، قال: "إنه لم يحرك ذراعيه بالسرعة الكافية، فلا سبيل إلى الطيران إلا بتحريك الذراعين بقوة، مثلما يحدث مع المراوح فى الطائرة، فمن منكم يريد أن يعيد التجربة؟".

وقفنا ننظر إليه دون أن يحرك أحد منا ساكنا. كان التردد باديا علينا، لكن "كوسة" لم يكن ممن يهزمون بسهولة. نظر إلينا وفى عينيه الصغيرتين القلقتين لمعة تحد، أو ربما سخرية. لاحظت أن لونهما تغير وأصبح قاتما كالبحر وقت العاصفة، سمعته يقول:

"أتخافون؟!"

خرج أحد الصبية من الصفوف، وقد انتفخ صدره كالديك الصغير يخطو خطواته الأولى الوجلة فى العراك أو امتطاء الدجاج. نظرة العينين البريئة تطل من بين رموشه السود الطويلة.

بدأت التجربة من جديد لتنتهى إلى كارثة ثانية، وفى هذه المرة فقد الولد إحدى أسنانه، لكن "كوسة" كان مصرا ألا يعترف بالهزيمة. المسألة كلها كما قال تتوقف على قوة العضلات، ولسبب ما لم يخطر على بال أحد منا أن يطلب من "كوسة" أن يقوم بما ادعى أنه يقوم به كل مساء. كان قد استولى علينا نوع من الهوس الجماعى الذى حال دون رؤية الأشياء. لا أحد يريد

أن يشذ عن الإجماع، أن يطلب الطلب الحاسم الذى لا يوجد طلب معقول سواه وهو أن ينفذ صاحب الاقتراح تجربة الطيران فى الهواء.

قبل أن يأتى موعد الانصراف كان هناك طابور طويل من الضحايا الذين يعانون من كسور فى الأسنان، أو تورم الأنف، والشفتين، وملامح الوجه، أو جروح عند الفك، أو تحت فروة الرأس، أو فى الحواجب، أو كدمات، أو سحجات، أو جذع فى أصابع اليد أو ما عداها من الإصابات، يشبهون الجرحى العائدين من الحرب، ومن بينهم إحدى البنات، صبية فيها شقاوة، مربعة الجسم، مكتنزة الردفين، لا تكف عن الحركة والجرى فى كل الاتجاهات، اشتهرت فى المدرسة بأنها قفزت مرة من المرات فوق السور لتبتاع البطاطا من بائع متجول، ثم عادت قبل أن يتنبه إليها مدرس الألعاب.

عدت إلى البيت فى ذلك اليوم مخضبا بالدماء، فأصيبت أمى بحالة من الفزع سرعان ما انقلب إلى الغضب الشديد منى ومن المدرسة، ومن كل ما يتعلق بالحياة. اصطحبتنى إلى الحمام، وضمدت جراحى بالماء الدافئ والليزول لكن بعد أن هدأت أخذت تحتضننى، وتقبلنى بإشفاق، ولما ألحت علىَّ بالسؤال أفهمتها أننى اصطدمت بأحد الأحجار وأنا أجرى بأقصى سرعة فسقطت على وجهى. لم يخطر على بالى أبدا أن أبوح بما جرى فهناك قانون للأخلاق يمنعنى من إفشاء السر ويفرض علىَّ حماية "كوسة" من كل الأضرار. أحسست بنوع من الفخر وأنا أتصدى لنظراتها الفاحصة. مهما جرى فإن "كوسة" يتمتع فى حياتنا بمكانة خاصة، فهو عنصر اقتحام ومغامرات، ومشعل للخيال فى عقولنا الغضة.

يبدو أن الحجج التى سقتها فى ذلك المساء ترددت فى أكثر من مكان، بعد الحادث بأيام تقدم أحد أولياء الأمور بشكوى إلى ناظر المدرسة يتهم فيها المراقبين فى الحوش بالإهمال. قام الناظر بالتحقيق، واكتشف أن كل المصابين ينتمون إلى فصل واحد دون سواه، فاستدعى عددا منا ليسمع أقوالهم. لم يعترف أحد منا بما حدث حتى الصبية التى أصيبت بجرح غائر فى الحاجب أصرت على أن أحد المارة ألقى بحجارة من فوق السور سقطت على وجهها وهى تلعب فى الحوش. أثار موقفها هذا إعجابا واسع النطاق. كلما اجتازت الحوش، أو وقفت فى الفصل تلمع العيون، وتتبعها الهمسات. انتابنا الإحساس بأننا اشتركنا فى مغامرة كبرى تستحق كل التضحيات وتقوى الروابط الخفية التى تجمع بيننا فى مواجهة السلطات.

من تحت راس "كوسة" أصابتنا النكبات، مع ذلك ظل ملهمنا فى أجمل اللحظات، ولكن فى يوم من الأيام اختفى "كوسة" عن الأنظار. بحثت عنه فى كل مكان، فى الفصل وفى دورات المياه، وفى صالة الاحتفالات ولكنه ظل مختفيا تماما. سألت عنه كل تلاميذ وتلميذات الفصل. لا أحد يعرف ما جرى له. أصبح موضوعه هدفا للتكهنات. ربما غاب بسبب المرض أو ذهب إلى مدرسة أخرى، أو سافر، فمن يعلم، ألم يكن دائما غريب الأطوار؟

لم أره بعد ذلك، وظل لغز اختفائه يشغلنى. كلما نظرت إلى درجه الخالى ينتبانى حزن غامض، كأننى فقدت شخصا عزيزا فى حياتى، أو ضاع منى حلم، حلم الطيران الذى ظل يراودنى كلما تتبعت حركة الطيور والعصافير، وكلما تلمست بقايا الجرح الذى ترك خطا أبيض خلف حاجبى اليمين.

مرت الأسابيع. كان ذلك فى الخريف، فى يوم فيه سحاب ورذاذ مستمر من المطر الرفيع. كنت واقفا تحت مظلة من التيل أشاهد الذين يلعبون الكرة، يندفعون بذلك الحماس الذى لا يرى شيئا فى الوجود سوى الكرة تتحرك بين أقدام اللاعبين، فكأنهم كائنات غريبة بعثت من الطين. وقف إلى جوارى "ادوار أسادوريان" صامتا متجهما يتتبع اللعب بتلك الجدية التى يفعل بها كل شىء. التفت إلىّ وقال دون مقدمات.

"أتعرف "كوسة"؟ "

سألت:

"ماله؟"

قال:

"مات".

لم أفهم. مر بعض الوقت قبل أن تصل كلمة "مات" إلى مستوى الإدراك.

"كيف؟"

"كان عنده مرض فى الصدر، هكذا شرحت لى أمى، فقد أصيبت هى نفسها بهذا الداء. التقيت بأخته فى سوق الخضار".

نظرت إليه كأنى مازلت لا أفهم.

" "كوسة"؟ مات؟! "

تركت المكان الذى كنت أقف فيه، وسرت فى الحوش أضرب الأحجار الصغيرة بطرف الحذاء. أصابعى المدفونة فى جيب السراويل يتسلل إليها برد الشتاء. نظرت إلى أعلى. طائر وحيد يحوم حول رأسى حدأة أو ربما غراب. أدركت فجأة أن حلم الطيران قد مات.

الفصل الرابع

طالب الطب المجتهد

ربما بدأ شبابى منذ الصباح الذى ركبت فيه أوتوبيس الثورنيكروفت[1]، من ميدان "العتبة الخضراء" متجها إلى محطة "الزعفران". كان ذلك فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩. أنا لا أذكر اليوم بالضبط، أذكر فقط أن الميدان كانت تتوسطه حديقة، وأشجار وتتخلله دكك من الخشب يجلس عليها الناس فى شمس الصباح، أن الأوتوبيس كان جسمه ضخما ولونه أخضر كالجرادة الحبلى بمئات البويضات، إننى اخترت مكانا فى الدرجة الأولى بالقرب من الباب الأمامى حيث أتلقى الهواء المنعش الذى يندفع خلاله، وأن المقعد بجوارى ظل خاليا إلى أن وصلنا إلى محطة "الزعفران".

كان ذهنى صافيا، فلا قلق ولا توقعات، ولا خوف من مجهول. دلفت إلى ممشى طويل يبدأ عند الرصيف سائرا بين صفين من الشجيرات المقصوصة بعناية. وجدت نفسى فى حوش مترامى الأطراف مبعثر الأجزاء تغطيه الرمال الطازجة بلونها الأصفر. فى الحوش، عدد من المبانى ذات الطراز القديم بنوافذها العالية وسواترها تقشر طلاؤها مع مرور الأيام.

كانت كلية العلوم تحتل هذه المبانى الملحقة بقصر "الزعفران" أحد القصور التى توارثتها أسرة "محمد على" من جيل إلى جيل، فلما أصابها القدم، وأخذت تنهار تبرع بها "الملك فؤاد" للجامعة. أما القصر نفسه فربما تهدم وسقط أنقاضا أو ظل مختبئًا عن الأنظار خلف أشجار الكازوارنيا، والكافور.

كان المجتمع الجامعى غريبا علىَّ فأنا أنتمى إلى وسط مختلف. أتحدث اللغة العربية بلكنة أجنبية فيفصل بينى وبينه سياج زجاجى أطل من خلاله على الطلبة والطالبات وهم يتحدثون، ويضحكون ويتحركون هنا وهناك بحيوية المقبل على مرحلة جديدة فى الحياة تفتح أمامه أبواب الحرية، وآفاق المستقبل فى فترة صعدت فيها القوى الوطنية لتواجه المحتل بعزم جديد.

(١) أوتوبيس شركة ثورنيكروفت الذى كان عامة الناس يسمونه السانتيكروفت.

لكن لا شىء من ذلك انعكس علىّ فأنا منعزل عن زملائى فى الكلية، عن حياتهم واهتماماتهم، ما عدا تلك التى تتعلق بالدراسة فى هذه السنة الإعدادية التى تسبق الدخول إلى كلية الطب. أمشى على الصراط المستقيم، مواظبا على الحضور يوميا، مسجلا بدقة ما يلقى علينا فى قاعات المحاضرات، والمعامل الملحقة بالكلية، حتى امتلأت الدفاتر الحكومية ذات الأوراق الصفراء القديمة التى جلبها والدى من مخازن الوزارة بما كنت أكتبه. ألتقط المعانى والمصطلحات دون عناء بسبب معرفتى باللغة الإنجليزية لكن رغم روح الاجتهاد لم أكن ممن يجلسون فى الصفوف الأمامية ويحملون حقيبة، أولئك الذين يطلق عليهم الطلبة وصف "الصمامين". على العكس كنت أتعمد الوصول متأخرا عن الآخرين ثم أصعد الدرجات، حتى أجلس فى الصفوف الخلفية فمن هنا أستطيع أن أطل على الجميع، أن أتتبع ما يدور كأننى فى حلبة أو فى صالة أشاهد مسرحية، أو أن ألقى بنظرة من النوافذ على الأشجار، والبساتين والمساحات المفتوحة التى كانت تحيط إذ ذاك بالكلية، أو أسرح فى طالبة اسمها "علية" كنت أتبادل معها أحيانا حديثا سريعا فى "الأوتوبيس" كأننا نختطف اللحظات قبل أن تلتفت إلينا العيون المحيطة بنا. عندما نقترب من محطة الكلية نتوقف عن الكلام. تهبط هى على الدرجات ثم إلى الرصيف وأنا من خلفها ونفترق فى صمت. لا يودع أحدنا الآخر كأنه لا توجد بيننا أدنى علاقة. تمر الأسابيع دون أن نلتقى ودون أن تتطور الصلة التى نشأت بيننا منذ اليوم الذى جاءت فيها جلستى إلى جوارها، ومع ذلك تظل تلك اللحظات الخاطفة مشحونة بتوتر لذيذ يؤججه جهلى بها، والمسافات التى تفصلنا عن بعضنا. لم تكن جميلة ولكن كان فى عينيها صفاء، وفى تصرفاتها إقبال.

فى المعمل أقوم بتشريح الضفادع، أصلبها فوق قطعة من الخشب وأنقب فى أحشائها. فى أنفى رائحة الفورمالين وفى خيالى وجه "علية". أخلط المواد الكيميائية فى أنبوبة من الزجاج وأقوم بتسخينها على المشعل فتختلط ألوانها كالدخان الصاعد من فوهة بركان.

لم أكن مولعا بالاختبارات المعملية. كنت أفضل التعامل مع الأفكار فمنذ الطفولة لم أتعود الأعمال اليدوية. كل شىء يتعلق بالتفاصيل اليومية لحياتى جاهز، فأمى تسهر على كل ما احتاج إليه. ليس مطلوبا منى سوى أن آكل، وأشرب، وأقرأ فى الكتب، وأنام. خلقت فى ذلك العجز الذى يعانى منه المثقفون عجز التعامل مع اليدين. غرست فى شعورًا بالنقص فى مواجهة أبسط الأعمال التى نحتاج أحيانا إلى القيام بها مثل دق مسمار فى الجدار، أو إصلاح مصباح كهربائى أو تركيب "جلدة" فى "الحنفية" ولم أتخلص من هذه المشكلة إلا بعد أن أصبحت رب أسرة لى بيت، ولا أستطيع أن أدفع تكاليف الإصلاح نتيجة صعود سعر الأعمال الحرفية.

فيما عدا ذلك كنت أبذل جهودا مضنية مدفوعا بالقيم والعادات الضاربة بجذورها فى الطفولة، بالسعى إلى الحصول على درجات عالية فى هذه السنة الإعدادية التى تكرس لدراسة

العلوم كضمان للقبول فى كلية الطب البشرى، فالذين يتخلفون فى الترتيب، وفى الدرجات العلمية يصبح مآلهم كلية الصيدلة أو طب الأسنان.

لكنى لم أفكر أبدا فى مثل هذا الاحتمال بالنسبة إلىّ فقد التحقت بالسنة الإعدادية على أساس أنها تقود إلى مهنة الطب البشرى دون سواها. كنت كالقطار الذى امتطى قضبانا حديدية لا تعترضها تحويلات يمكن أن تحرفه عن المحطة التى يتجه إليها.

كان من المفروض أن تؤدى دراسة العلوم الأربعة المقررة علينا، وهى الفيزياء والكيمياء، وعلم الحيوان، وعلم النبات إلى فتح شهيتى للمعرفة العلمية، والقوانين الكونية، لكن لم يحدث شىء من هذا. كانت فترة ركود، واستغراق فى الجزئيات والتفاصيل الدقيقة دون إيجاد الرباط القائم بينها، فأغلقت أمامى أبواب التساؤل، وتبددت التأملات التى كانت قد استحوذت علىّ فى المرحلة الثانوية. استولت الدراسة على ساعات النهار والليل وعلى الطاقة الذهنية. لم أعط لنفسى الفرصة أو ربما نظام الدراسة لم يتح لى الفرصة لكى أتوقف، وأعمل عقلى فى المعلومات والمعارف التى تلقى علينا، فأسلوب التلقين الذى كان متبعا عجز عن إحياء الرغبة فى توسيع آفاق المعرفة، أو تنمية القدرات على التحليل، أو على فهم العلاقة بين حقائق العلم، ومظاهر الحياة المختلفة. انسقت فى اتجاه الحفظ سعيا وراء التفوق، والوصول إلى الأهداف التى وضعتها لنفسى، فكل ما هو مطلوب منا هو الحفظ، ثم صب المعلومات فوق أوراق الامتحان النهائية. ربما كنت أتصرف وأفكر أكثر من غيرى، فمعرفتى باللغة الإنجليزية تسهل علىّ الأمور، تقلل من الجهد المطلوب وتعطينى ثقة أكبر فى قدراتى. مع ذلك هذه السنة لم تؤثر كثيرا فى تكوينى العقلى فيما عدا لفت نظرى إلى شىء اسمه العلم يفتح الباب لمعرفة ما يدور فى الطبيعة والكون، لكن لا أحد من الأساتذة اجتهد لكى يبين أهمية المعلومات العلمية التى ندرسها، أو مغزاها أو تأثيرها على حياتنا، لا أحد كان يحفزنا إلى التساؤل عما يتم فى الطبيعة، وكيف، ولماذا، أو عن الكائنات الحية المحيطة بنا، والعلاقات القائمة بينها، أو عن الكون الواسع الذى تتحرك فيه الإلكترونات، والذرات، وتخترقه الأمواج، والشحنات، وتدور فى مساحاته اللانهائية الشموس، والنجوم والأجرام، كيف نشأ، وإلى أين يسير، أو عن أهمية الاكتشافات العلمية التى يشار إليها فى المحاضرات، وأثرها على المجتمع والناس؟ هذه الكائنات النباتية، والحيوانية التى نقرأ عنها فى الكتب أو نشرحها بالمشارط الرفيعة، أو نضعها تحت عدسات الميكروسكوب كيف ولدت، وكيف تطورت، وما هى التوازنات والتناقضات والعلاقات القائمة بينها؟ عشرات الأسئلة التى أستطيع أن أفكر فيها الآن وأجيب على بعضها، وأدرك أهميتها، لكنها كانت إذ ذاك أسئلة لم يتطرق إليها أحد، ولم تطرأ على بالى إلا نادرا وبشكل عارض سرعان ما أنساه. أحيانا كانت تثور فى ذهنى بعض الخواطر، مثالها أن نظرية "داروين" عن تطور الكائنات الحية تتناقض مع قصة الخلق فى الكتب السماوية، مع ذلك لا نناقش هذا التناقض، نتهرب من التساؤل عنه، أو إذا كانت المادة الحية أو العضوية تطور

فيزيائى كيمائى للمادة الجامدة غير العضوية فهل سيستطيع العلماء تخليقها ؟ ما عمر الحياة على الأرض، وهل توجد حياة فى الكواكب الأخرى؟

كانت تراودنى هذه الأسئلة ثم تتبدد دون إجابة، أو تغرق تحت أكوام المحفوظات، أو فى زحمة الإعداد المحموم للامتحان. أتأمل الكون الواسع لحظة خاطفة قبل أن أنام، أو وأنا سائر على شاطئ النهر وقدماى تنتقلان فوق الإسفلت أو عندما ألمح طفلا صغيرا وضعوه فى المهد تحت الشمس فأندهش أمام أسرار الحياة لا أعرف شيئا عنها، ولكن المسألة كانت تنتهى عند هذا الحد، لتظل العلوم التى درستها بلا معنى.

أصدقائى الذين اخترتهم يغلب عليهم الطابع الأجنبى المختلط بشىء من الروح المصرية، شاب لبنانى الأصل يدعى "هنرى مصور" تعلم فى مدارس "الليسيه" وآخر مصرى قبطى خريج "الجيزويت" (الآباء اليسوعيين) اسمه "فؤاد نجيب رزق الله". كانا يتحدثان الفرنسية، فانتهزت الفرصة لأتعمق فى هذه اللغة درست مبادئها فى المرحلة الثانوية. صرت أبتاع الروايات الفرنسية إلى أن أصبحت قادرا على القراءة دون اللجوء إلى القاموس إلا فى الحالات الاستثنائية.

أما اللغة العربية فقد اتفق أبى منذ بداية السنة مع أحد المدرسين من خريجى "دار العلوم" على الحضور إلى منزلنا مرتين فى الأسبوع لإعطائى دروسًا خصوصية. رجل فى الثلاثينيات من عمره يعمل موظفا فى الإدارة التى يرأسها أبى. عندما نفتح باب الشقة يدخل على أطراف أصابعه كأنه أصبح فى حضرة الآلهة الذين يسيرون أمور الكون. جسمه يميل إلى البدانة، وطبعه إلى الهدوء، يرتدى طربوشا أحمر اللون وسترة بصفين تظل أزرارها مغلقة بإحكام طوال الدرس الذى يدوم ما يقرب من الساعة ونصف الساعة. يعاملنى بحرص وبأدب شديدين، وعندما يجتاز الصالة الكبيرة متجها إلى باب الخروج يتقدم بإحدى كتفيه كأنه يفسح طريقا لنفسه، وتظل عيناه مثبتتين أمامه خوفا من وقوعهما على ما لا ينبغى أن تقع نظرتهما عليه.

ظهرت نتيجة الامتحان فى أغسطس سنة ١٩٤٠. جاء ترتيبى الثانى على الدفعة، فحصلت على مجانية التفوق وأعفى أبى من دفع مصاريف التعليم فى الجامعة التى كانت فى ذلك الوقت عشرين جنيها فى السنة، أما المكانة الأولى فقد كانت من نصيب صديقى القبطى "فؤاد نجيب رزق الله".

احتفلنا سويا بهذا الانتصار أنا و"فؤاد" و"هنرى مصور" الذى جاء ترتيبه التاسع عشر. جلسنا فى "جزيرة الشاى" وسط حديقة الحيوان. نسيم رطب ينساب إلينا رغم حرارة الصيف، نطعم البط، والبجع الأبيض لقيمات من لباب الخبز، نستمتع بلحظة سعادة غامرة، فالمستقبل أمامنا مشرق وقلوبنا صافية لا تحمل الهموم.

ما زال هذا اليوم ماثلا فى خيالى، الأشجار والخضرة والطيور تنزلق فوق المياه وتحملق فينا بتلك النظرة الغريبة فى عيونها السود وكأنها لا تلتقط شيئا مما يدور حولها، ثم تندفع إلينا بحركة سريعة ضاربة سطح المياه بجناحيها عندما نلقى إليها بالخبز. "وفؤاد نجيب" ببشرته السمراء وملامحه المصرية الأصيلة يتأملها فى استغراق.

القطار يندفع فوق القضبان، مصفقا بعنف كلما أجتاز التفرعات التى تسبق المحطات. إنه ""الإكسبريس السريع" يصفر "هوو هوو" مزهوا بالسرعة التى وصل إليها، ملفتا الأنظار إليه، منبها الناس إلى قدومه، وضرورة الابتعاد عن طريقه، متحديا الكون بعنفوانه. أقف فى الممر مسندا ظهرى على الفاصل الخشبى فألمح جلبابًا أحمر يميل وسط الخضرة الممتدة حتى خط الأفق، أو عيون الجاموس تتطلع إلىّ عند المزلقانات" وسط زحام الحمير، والأطفال والناس.

عدت منذ عدة شهور من "باريس" حاملا جواز سفر مصرى، باسم غير اسمى فأنا هارب من السجن. هبطت فى ميناء "بورسعيد" لأجد ضابطًا من الضباط الأحرار ينتظرنى. ركبنا السيارة التى حضر بها، وانطلقنا إلى القاهرة، وهناك تواريت كالشبح فى زحام الملايين، فأنا أحمل على كتفى حكما غيابيا بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أصدرتها محكمة أمن الدولة العليا برئاسة "الطنطاوى" بك الشهير فلا أستطيع أن أتحرك بحرية، أن أظهر وأعيش مثل باقى المواطنين الذين استبشروا خيرا بثورة ٢٣ يوليو وبخلع "الملك فاروق" عن عرشه، فعندما أتى الضباط الأحرار إلى الحكم كان الجناح اليمينى هو الغالب فى صفوفهم رغم عداؤهم للاستعمار وأعوانه، فأصدرت السلطة الجديدة قانونا بالعفو العام عن المسجونين السياسيين أفرجت فيه عن الإخوان المسلمين لكنها لم تطبقه على الشيوعيين. كانت حجتها فى ذلك أن "جريمة الشيوعيين اجتماعية وليست سياسية"!!؟ هكذا ظللت مطاردا فى ظل العهد الجديد وعندما عدت من فرنسا انتقلت إلى "طنطا" لأباشر العمل السياسى فى وجه بحرى متجولا بين مدنه وقراه .

أخذ القطار يقترب من ضواحى القاهرة. الشوارع والحوارى برك آسنة حول مساكن تتزاحم فوقها عشش الفراخ، وتتدلى ملابس مغسولة من شرفاتها. ألمح الأطفال يلعبون وسط المجارى الطافحة، ولافتة كتب عليها "مدينة الزهور".

رأيته واقفا مثلى يطل من النافذة بنظرة فيها شرود. عرفته على الفور، البشرة السمراء والشارب الصغير. ما زال يفرق شعره من ناحية اليمين وما زالت تحلق حول ملامحه سحابة الحزن المصرى القديم. اقتربت منه وقلت:

"د. فؤاد" على ما أظن"؟

التفت إلىَّ. بدت عليه الحيرة لحظة، أضاء بعدها بريق المعرفة فى عينيه. هتف.

أنت يا شريف؟!" لمعت أسنانه البيضاء فى الوجه الأسمر ثم اختفت. نظر إلىّ ثم سألنى.

"أين أنت منذ أن كنا....؟"

توقف، ولم يكمل كلامه فقلت ضاحكا.

"سمعت أننى سجنت، وأننى هربت من السجن أليس كذلك؟"

هز رأسه دون أن يعلق، فاستطردت.

"وما زلت هاربا. عدت من فرنسا سرا، والبوليس يبحث عنى".

بدا عليه التردد كأنه يواجه موقفا لم يعهده، ولا يعرف كيف يتصرف إزاءه. ظل واقفا دون حركة فقد أخذ على غرة، ولكن بعد لحظة عاد البريق إلى عينيه كأن إحساسا بالمغامرة، بشىء فيه لذة الجدة والخطر زحف عليه، قال:

"احك لى. كيف حدث كل هذا؟"

فحكيت.

لم تكن أمامنا فسحة من الوقت. بدأ القطار يبطئ إيذانا بدخوله إلى محطة القاهرة. خيم علينا الصمت لحظة طويلة. يطل من النافذة كأنه يفكر فيما قصصته عليه. التفت إلىّ وفى عينيه نظرة جد، قال.

"لابد أن تكتب كل هذا؟ أن تسجله".

"أتظن أن حياتى تهم الآخرين"؟

قال..

"لا شك فهى مختلفة".

"لكنى ما زلت شابا فى سن الثلاثين والمذكرات تكتب عادة قرب نهاية الحياة، ولا أظن أننى سأكتب فحياتى أخذت طريقا آخر".

صمت ثم قال.

"ربما فيما بعد، لا أحد يعرف".

توقفنا عن الكلام. سمعت صوت فرامل القطار، واحتكاك العجلات بالقضبان. همست بسرعة.

"أنا هارب من حكم والأفضل ألا نهبط فى المحطة سويا فقد يرانا رجال الأمن. ربما التقينا فى ظروف أفضل، وداعا وإلى اللقاء".

نظر إلىّ دون عجلة، مد يده إلى يدى وقال:

"جود لاك"[1].

سار فى الممر نحو باب العربة. لمحت ظهره المنحنى. استدرت وسرت فى الاتجاه المضاد. توقف القطار وهبطت على الرصيف. بحثت عيناى عنه. كان قد اختفى وسط الزحام. سرت بخطوة متمهلة، تغمرنى سعادة مفاجئة كأننى وجدت صديقا فى بلد بلا أصدقاء. ترى هل هو راض عن حياته؟ قال لى إنه يعمل مندوبًا للدعاية فى شركة "باير". يمر على الأطباء فى عياداتهم حاملا حقيبته، يجلس فى صالة الانتظار حتى يأذنوا له بالدخول ليعرض عليهم عينات، ونشرات عن الأدوية التى تقوم الشركة بإنتاجها. فى كل يوم يزور خمسة أو ستة من الأطباء ثم يعود آخر النهار إلى الزوجة والأطفال، أما أنا فمطارد، أحيا فى خطر، وأنتقل من مكان إلى مكان، أتعب أحيانا، وأخاف. ترى هل أنا على استعداد لتبادل الأدوار؟ فكرت فى السؤال وأنا أدلف من باب المحطة. لوحت إلى إحدى سيارات الأجرة فتوقفت. ركبت إلى جوار السائق. كلمة منى وكلمة منه جعلتنى أنهمك فى الحوار وبعد قليل كنت قد نسيت السؤال.

فى السنة الثانية لكلية الطب[2] جاء ترتيبى الأول عل الدفعة المكونة من ثلاثمائة طالب وطالبة، ثمرة الجهد، والسهر فى سكون الليل. على لوحة من الرخام الأبيض تنتصب فى حوش الكلية حفروا اسمى بالخط الفارسى بين أسماء الحاصلين على الميدالية الذهبية، وكتبوا إلى جوار الاسم سنة ١٩٤٢. لا أتذكر من أسماء الحاصلين قبلى على هذه الميدالية سوى اسم الأستاذ "بول غاليونجى" أصبح مشهورا فيما بعد كأخصائى لأمراض الغدد الصماء، وكأحد الباحثين المرموقين فى تاريخ الطب عند قدماء المصريين.

فى يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٦٤ بعد أن مر على خروجى من السجن عام بالتقريب كنت جالسا فى صالة البيت، أمامى كوب من الشاى أعدته لى أمى لأتناوله قبل أن أهبط من الشقة متجها إلى عملى فى وزارة الصحة. فى يدى مظروف أخرجته من صندوق البريد منذ يومين ونسيته فى جيب السترة، صغير الحجم، مصنوعا من الورق البنى الذى تستخدمه الإدارات الحكومية، مغطى بأختام كثيرة، كأنه قام برحلة طويلة. الاسم والعنوان مكتوبان بخط منمنم ردىء. أدركت أنه صادر من جهة "ميرى". خفق قلبى بخوف مبهم صنعته سنين المطاردة فخطاب يأتينى من السلطة لا يمكن أن يكون فيه خير، لا يمكن أن يكون سوى ضربة جديدة توجه إلىّ، عقابًا على حرية تفكيرى.

أخرجت الورقة المطوية الملتصقة بالصمغ الذى أغلق به المظروف، شددت عليه بحرص حتى أصبح حرا بين يدى ثم فتحته وأخذت أقرأ.

---

(١) أتمنى لك حظًا طيبًا.

(٢) النقل يتم من السنة الأولى إلى الثانية دون امتحان.

جامعة القاهرة

كلية الطب

مكتب شئون الطلبة

"السيد الدكتور شريف فتح الله حتاتة"

تحية طيبة وبعد،

نرجو منكم الحضور إلى مكتب مدير إدارة شئون الطلبة بالكلية لاستلام الميدالية الذهبية التى منحت لكم فى علم الفسيولوجية سنة ١٩٤٢ علما بأننا سنضطر إلى إيداعها فى مخازن الجامعة إن لم تحضروا فى بحر خمسة عشر يوما من تسلمكم لهذا الخطاب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

مدير إدارة شئون الطلبة

صادر ١٩٦٤/١١/١٣ برقم ٤٧٥١

أعدت الخطاب إلى مكانه فى جيب السترة. ارتشفت ما تبقى من كوب الشاى، وقمت. ترى كيف عرفوا فى إدارة الكلية أنه أفرج عنى؟ أم أن سبب الخطاب المرسل إلى هو فعلا اضطرارهم إلى إيداع الميدالية فى مخازن الجامعة إن لم أتقدم لاستلامها منهم. لابد أن أحد الموظفين كان يقوم بجرد العهدة فاكتشف أنها كانت عندهم منذ اثنتين وعشرين سنة.

قدت سيارتى الفيات ١٣٠٠ مخترقا حى الزمالك، ثم الجزيرة. اجتزت كوبرى قصر النيل، وانحنيت يمينا على شارع الكورنيش. منذ ما يقرب من ربع قرن كنت أركب دراجتى وأنطلق على هذا الطريق متوجها إلى الكلية، فألمح النيل يتدفق قويا بين شاطئيه.

كان زملائى الطلبة يسخرون منى، فهل يليق بطالب فى كلية الطب أن يركب دراجة مثله مثل الفراشين، وبائعى اللبن، وصبية الفرانين يحملون على رءوسهم أرغفة الخبز فوق الجريد، لكنى لم أكن أهتم بالشكليات التى يهتمون بها. كانت الشكليات التى أهتم بها ضمن الموروث الإنجليزى، طريقة الأكل، وآداب المائدة، إفساح الطريق أمام الطالبات عندما تصعدن إلى "الأوتوبيس"، تنظيف الحذاء بانتظام حتى يظل كالمرآة أستطيع أن أرى وجهى فيه، التحفظ فى الحديث، والروح العملية فى حياتى اليومية. الدراجة تحملنى من بيتى فى الزمالك إلى الكلية فى اثنتى عشرة دقيقة بدلا من ساعة كاملة فى "الترام" أو "الأوتوبيس" مارا "بشارع فؤاد الأول"، ثم "العتبة الخضراء" وشارع "القصر العينى"، وهى لا تكلفنى سوى قروش قليلة مصاريف صيانة كل شهر، وتوفر علىّ ما يزيد عن تسعين دقيقة يوميا أضيفها إلى رصيد المذاكرة، أو أقتسمها بينها وبين الراحة، والترفيه. لم أكن مولعا بالمظاهر التى تمثل سيادة القيم

الإقطاعية فى المجتمع المصرى. فى نفسى ذلك العناد الذى أورثتنى أمى إياه، والذى كثيرا ما يتصف به أولئك الذين يعيشون فى عزلة عن الآخرين، ويتبعون نمطا خاصا فى حياتهم .

تركت السيارة فى حوش الكلية، وصعدت سلم الإدارة. دلفت من باب مفتوح على يمينى لأجد نفسى فى حجرة كبيرة جلس فيها عدد من الموظفين، واصلوا الأحاديث التى انهمكوا فيها دون أن يلتفت إلى أحدهم. سألت أقربهم عن "مدير شئون الطلبة" فأشار إلى رجل جلس خلف مكتب زاد حجمه عن مكاتب الآخرين. كان يشرب كوبا من الشاى ويتطلع أمامه بنظرة لا ترى شيئا. تقدمت نحوه ووقفت أمامه ملقيا عليه تحية الصباح ثم شرحت له السبب الذى من أجله حضرت، فانتزع نفسه بصعوبة من الحملقة فى الفراغ، وأشار بإحدى يديه إلى مكان فى آخر الصالة، ثم عاد إلى كوب الشاى. خرجت إلى الصالة، لمحت بابا مغلقا عند الطرف الآخر، فاتجهت إليه. نقرت نقرتين ودخلت. خلف المكتب جلس رجل أصلع الرأس يرتدى نظارات سميكة. جسمه الضئيل متحصن خلف متاريس الملفات. كان يفحص بعض الأوراق فكاد أنفه أن يندس بين السطور، قلت: "صباح الخير"، ثم جلست على أحد المقعدين الموضوعين أمام مكتبه، وأوضحت له سبب الزيارة. ألقى إلىّ بنظرة ملولة. ظننت أنه لم يلتقط منى ما أقوله فهممت باستئناف الكلام، ولكنه قام وفتح خزانة خشبية قديمة مزدحمة بالأشياء، وأخرج من تحتها علبة مغطاة بالتراب، أخذ ينفخ فيها فارتفعت منها سحابة غبار. وضعها فوق المكتب، وفتح دفترا كبير للسجلات أخذ يقلب فى صفحاته. مر الوقت دون أن يتوقف إصبعه فى مكان ما فكاد أن يصيبنى اليأس، ولكن فجأة رفع رأسه، وأشار إلىّ بالاقتراب، وضع أصبعا قصيرا مصبوغا بالنيكوتين عند أحد السطور، وقال: "وقع هنا.." بعد أن وقعت أغلق الدفتر بصوت مسموع كأنه يضع نهاية لهذا الموضوع. ناولنى العلبة ثم عاد إلى الأوراق المكومة أمامه. تلفتُّ قبل أن أخرج من باب الغرفة فوجدته يدس ظفره الطويل فى فتحة الأذن بحركة دائرية ويستخرج منها شيئا فحصه بتركيز ثم ألقى به خلف ظهره.

هبطت على الدرجات إلى حوش الكلية حاملا العلبة بين يدى. عندما وصلت إلى السيارة توقفت لأفحصها قبل أن أجلس خلف عجلة القيادة. كانت مغطاة بطبقة من القطيفة الخضراء بهت لونها. فتحت الغطاء كاشفا عن الميدالية، ذهبية مستديرة ترقد على أرضية من الحرير الأبيض. رفعتها وقرأت اسمى منقوشا عليها بالخط الكوفى، والتاريخ ديسمبر سنة ١٩٤٣. لمعت فى أشعة الشمس الصباحية فعاد إلى الإحساس بأننى لست شخصا عاديا. قدت سيارتى فى شوارع المدينة كالعائد إلى وطنه بعد غياب طويل أتوقف عند الإشارات فأكتشف أن الوجوه تبتسم إلىّ.

كل يوم خميس كنت أذهب مع صديقى اللبنانى "هنرى مصور" لحضور حفل للسينما فى التاسعة مساءً. منه تعلمت التدخين. كان أبى يعطينى خمسين قرشا فى الأسبوع مصاريف جيب، فأشترى بهم الفول السودانى والشيكولاته، وتذكرة السينما الأسبوعية، وبالإضافة إلى

كل ذلك سيجارتين "فرط" أدخن واحدة منهما فى الصباح مع صديقى وأنا ذاهب إلى الكلية فى الأوتوبيس والثانية فى الحوش ما بين المحاضرة الأخيرة وحصة الدراسات العملية.

كان والد صديقى يمتلك سيارة "شيفروليه" سوداء اللون يسمح له باستخدامها فى بعض الأوقات، ومنها ليلة الخميس. أرتدى بزة أنيقة، وربطة عنق، وأهبط إلى الشارع عندما أسمع النفير يتردد فى شارعنا الهادئ المهجور. أجلس فى مكانى فتنساب السيارة بين صفين من الفوانيس. أشعر أننا نجتاز عالما أسطوريا مسكونا بالكائنات.

لم يبق فى ذهنى شىء عن الأحاديث التى كانت تدور بيننا، أتذكر أننا كنا نضحك كثيرا وأن كل شىء كان يبعث على السرور، فقد كان صديقى "هنرى مصور" رجلا يعشق الضحك والاستمتاع.

صباح يوم ١٨ يونيو ١٩٨١ وصلنا أنا و"نوال" إلى نيويورك، قادمين من "بوسطون" حيث حضرنا مؤتمرا عن "الدين وحركة النساء فى عالم اليوم"، وفى المساء دعينا إلى التحدث سويا أمام حشد كبير من العرب الأمريكيين فاخترنا موضوع تجربتنا ككاتبين متزوجين يعملان سويا فى مجال القضايا العامة.

كانت الصالة الكبيرة مزدحمة بما يزيد عن ألف من النساء والرجال. بعد أن انتهينا من الندوة، والإجابة على التساؤلات قام الحاضرون بتحيتنا وقوفا. كادت الدموع تسقط من عينى، ففى بلادنا كنا ممنوعين من الحديث إلى الناس فى اجتماعات عامة..

التف الناس حولنا كأنهم يحاصروننا حتى لا نغادر المكان. أرى العيون، والابتسامات، أرى الإشراق والود تعبر عنهما الوجوه والأيدى الممدودة للسلام، أريد أن أفلت منهم وأحن إلى البقاء، أن أنهل من هذا الدفء، أن أتحدث وأضحك معهم، أن أشعر بنفسى موضع تقدير.

تقدم إلىّ رجل قصير القامة برز أنفه الكبير من تحت العوينات، ورأسه الأصلع يلمع تحت ضوء المصابيح. لمحت ابتسامته الهادئة فوق الشفاه، وأحسست بيده العريضة تلتف حول يدى. قال بصوت هامس النبرات، "ألا تذكرنى؟" لمح نظرة التساؤل فى عينى، فظل صامتا لحظة ثم أضاف:

"أنا هنرى مصور".

عدت إلى الوراء بقفزة واحدة هائلة تقطع السنين فى لمح البصر. قبل أن يتدخل شخص آخر أضاف بسرعة.

"أعمل الآن طبيبا للأطفال فى "نيويورك" .

أخرج بطاقته من المحفظة، ووضع خطا تحت أرقام التليفونات بقلمه "الكارتييه".

"أريد أن أراك قبل أن تغادر "نيويورك" .

بحثت فى وجهه عن ملامح الولد "الشقى" الذى كنت أعرفه. ترى أين راحت؟! كأنه قرأ أفكارى ضحك فعادت إلىّ ضحكات الطفل عبر السنوات. تصورته وهو يرتدى معطفا قصيرا من التيل الأبيض، ويفحص بطن أحد الأطفال. ألمح أصابعه قصت أظافرها فى شكل هلال، وربطة العنق، والياقة. كان أنيقا على الدوام، يعشق الرقص، وكرة السلة، والأفلام، وكان شبابه خاليا من المنغصات. تفرغ لمهنته، ولفرص الاستمتاع، ولم ينشغل أبدا بالسياسة، أو القضايا العامة، أو حتى بالعلم والبحث الجاد. حصل على الدكتوراه حتى يستطيع أن يمارس الطب بنجاح، ويحقق المستوى الذى تعود عليه منذ صباه، فقد كان أبوه من أغنياء "لبنان" ، لكن عندما رأيته فى ذلك المساء بدا كأنه مثقل بالهموم، ضائع، أو ربما كان هذا مجرد إحساس لا علاقة له بالواقع. لم تتح لى فرصة لكى أسأله. سافرت فى اليوم التالى، ولم أره بعد ذلك، فالزمن يجرى مثل النهر المنطلق من أعلى الجبال، لا يترك للإنسان فرصة الحديث الهادئ حتى مع أصدقاء الشباب.

دخلت من باب كلية الطب الحديدى الكبير حاملا معطفى الأبيض وحقيبة من الجلد صغيرة بنية اللون. حيانى الحارس قائلا: "صباح الخير يا دكتور" فأحسست بقلبى ينتفخ خلف الضلوع. أحنيت رأسى قليلاً ورددت التحية. سرت نحو مدرج "على إبراهيم" بخطوة بطيئة تتناسب مع اللقب الجديد الذى أضفاه علىّ الحارس. جلست على دكة خشبية فى الجزء الأعلى من المدرج. فتحت "الأجندا" وكتبت "علم التشريح" بالإنجليزية، لمحت التاريخ المطبوع على الصفحة بحروف سوداء صغيرة ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٠.

فى تلك الأيام كانت اهتماماتى محدودة، وحياتى بسيطة، وكنت مواظبا على الحضور إلى الكلية، وعلى المحاضرات والحصص العملية. بعد أن مرت عدة شهور قمت بشراء الدراجة لتسهل علىّ الانتقالات وتوفر لى وسيلة لممارسة الرياضة. مرة فى الأسبوع أذهب إلى إحدى دور العرض لأشاهد فيملا سينمائيا. أقرأ بعض الروايات أو الكتب العلمية باللغة الإنجليزية، وأستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية تملؤنى بشعور من النشوة والراحة النفسية.

لم تكن علاقتى بالفتيات تتعدى الصداقات الأسرية، ولم أعرف الجنس فى هذه الفترة ربما بسبب الخجل الذى تأصل فىّ وغياب أى نوع من أنواع الحياة الاجتماعية حتى فى حدود تلك التى تعرفها الأسر المصرية لكن كان لى زميل فى الكلية ربطت بينى وبينه علاقة صداقة أساسها حبنا نحن الاثنين للموسيقى. كان يعزف على القيثارة ببراعة وكنا نسميه "محمود بلااليكه".[1] لا أعرف من أين جاءته هذه الهواية، ولكنها استحوذت عليه، وجعلته يهمل الدراسة

(١) البلااليكة أداة موسيقية شائعة فى روسيا واليونان وبعض بلدان أوروبا الشرقية.

فهو لا يحضر إلا نادرا إلى الكلية، وأحيانا يختفى تماما عدة أسابيع دون أن يظهر له أثر. كان شخصا مرحا لا يكف عن الضحك، والمزاح، ويقضى جزءا كبيرًا من وقته فى الملاعب حيث كان يمارس مختلف أنواع الرياضة.

دعانى إلى مسكنه عدة مرات لأستمع إليه وهو يعزف على القيثارة. يحيا فى شقة صغيرة فى بيت من ثلاثة أدوار ينزوى فى حارة تتوغل مسافة طويلة فى أحشاء حى بولاق. تكاد تتلامس البيوت عبر الحارة، وتتدلى منها الثياب المنشورة بعد الغسيل فتتساقط نقاط المياه على المارة، تصحبها أحيانا أشياء أخرى أقل نظافة تندفع من النوافذ دون أن تعرف من أين جاءت فتقف عاجزا عن الاحتجاج، مغتاظا من الجمود الظاهر على وجوه الأطفال والنساء وكأن لا علاقة لهم بما سقط منذ لحظات.

كنت أحب حى "بولاق"، فهو يذكرنى بالفتاة الإيطالية "جابرييلا". هنا رائحة الخبز فى الأفران، والمحلات الصغيرة تُطل بعيونها على السائرين فى الحارة، والناس يتدفقون من كل الفجوات كأن الأرض تنبت الحياة، والحركة، ودفء الأصوات. كل شىء هنا يختلف عما هو عليه فى حى الزمالك حيث الصمت، والشوارع الخالية، والأبواب والنوافذ المغلقة على الناس، والبيوت الباردة الصماء.

أصعد إلى الدور الثانى فى البيت على السلم المتآكل. أدخل من الباب المفتوح لأجد زحاما من الشباب يجلسون على المقاعد المرصوصة فى الصالة ومن بينهم صديقى يحتضن قيثارته.

كنت أذهب إليه يوم الخميس حوالى الساعة الرابعة لأستمع إلى عزفه لمدة ساعة أو أكثر ثم أنصرف. يلح على لأبقى وأتناول معهم زجاجة من البراندى أو الزبيب مع الترمس المملح، والفول السودانى، والزيتون الأخضر المشبع بالبهارات، ولكنى أعتذر بأن هناك من ينتظرنى فى الزمالك. يضحك، ويغمز بعينيه ثم يتساءل "حلوة؟" أبتسم فى شىء من الخجل نافيا، ومؤكدا ظنونه فى آن واحد، ثم أنصرف مسرعا الخطوة، شاقا طريقى وسط زحام السائرين فى الحارة.

فى أحد الأيام بعد أن انتهى من العزف، وهممت بالانصراف، أمسك بذراعى، وضغط عليها ضغطة خفيفة، ثم مال على أذنى وهمس بصوت تسللت إليه نبرة توتر.

"انتظر، نريدك معنا فى أمر هام".

جلست من جديد وقد انتابنى خليط من الفضول والاضطراب. ترى ما هو هذا الأمر الهام؟ تتبعته وهو يدور على الآخرين، ويهمس فى أذنهم، فيبتسمون ابتسامة العارف بالأمور، وبعد مدة عاد إلىّ، وجلس إلى جوارى، فلما سألته عن الأمر الهام أوضح لى أنه اتفق مع إحدى الفتيات لكى تحضر إلى الشقة، وتبقى معهم فيها لبعض الوقت.

أحسست بخوف غامض. تزاحمت فى ذهنى الخواطر، جاءت إلىّ صورة أحد أصدقائى، ابن الأسرة المغربية الإنجليزية، التى تربطنا بها علاقات قديمة.. دخلت عليه فى غرفته مرة لأفاجأ به جالسا فى مقعده وجزؤه الأسفل عار، رافعا ساقيه إلى أعلى، وقد أمسك فى يده بحقنة كبيرة، وفى يده الأخرى بعضوه التناسلى. لمحت خصيتيه وقد تورمتا بشكل غير عادى حتى أصبحت كل منهما فى حجم البرتقالة.

قمت بحركة تنم عن قرار بالانصراف السريع، فهرول إلىّ صديقى وشدنى من ذراعى هامسا. "ابقى معنا يا أخى، ماذا تخاف؟ البنت مضمونة جدا"، ثم أجلسنى على المقعد من جديد. لم تكن لى تجربة سابقة من هذا القبيل. استولى علىّ شعور بالرهبة شل تفكيرى، فظللت حيث أنا دون أن أتحرك. كيف سأتصرف معها عندما يغلق علينا الباب لنصبح وحدنا أنا وهى؟ لا أعرفها فكيف أدخل عليها؟ جلست صامتا لا أتحدث إلى غيرى فزاد توترى، صاعدا وهابطا فى جسمى فى أمواج. أدور بعينى حول الصالة كالباحث عن شىء ينقذه من ورطة وقع فيها. ألمح العيون تتذبذب فى حركة سريعة، وارتعاشة الساق أو القدم العصبية. هربت الدماء من وجوه الجالسين فبدت شاحبة عليلة. فى أذنى ترن الضحكات العالية يحاولون بها إخفاء الاضطراب الذى استولى عليهم. لكن غلبنى الفضول والرغبة فى الجسد الأنثوى الذى صرت أتخيله يدعونى إليه. بعد قليل دلفت الفتاة من باب الشقة يصطحبها شقيق صديقى الأصغر منه. كانت سمراء البشرة، مكحلة العينين ترتدى "بلوزة" خضراء وجوبه بنية اللون، ملابسها وحذاؤها، وشعرها الأشعث المدهون يدل على أنها فقيرة. تمسك بين أصابعها بحقيبة صغيرة، وتضغط عليها كأنها تخشى عليها من الضياع. فحصتها العيون وهى تمر بسرعة إلى حجرة النوم.

كنا أحد عشر شابا منتظرين دورنا للدخول عليها. بعد أن رأيتها زاد التردد الذى استولى علىّ. ظللت جالسا أفحص الخارجين من الحجرة التى اختفت فيها، زاد شحوبهم. فى الأصابع ارتعاشة ألمحها عندما يشعلون لفافات التبغ بعود من الكبريت وعلى الشفاة ابتسامة واهنة كالذى يحاول أن يخفى الهزيمة.

أشار إلى صديقى بالدخول. أخذت نفسا عميقا، وقمت. وضع يده على ظهرى ودفعنى برفق فى اتجاه الحجرة ولكن عندما وصلت إلى الباب تنبهت إلى السيجارة التى أشعلتها منذ لحظة. خرجت إلى عتبة الشقة. ألقيت بها على الأرض، وضغطت عليها تحت حذائى ثم عدت ففتح الباب، وأغلقه ورائى بسرعة. فوجئت بالفتاة راقدة على السرير، عارية تماما، وقد وضعت بين ساقيها ملاءة بيضاء تخللتها بقع صفراء اللون. كانت تشيح بوجهها ناحية النافذة كأنها لا تريد أن ترى من يدخل إليها.

جلست إلى جوارها. أدركت أنها راحت فى النوم كمن يغفو لحظات ليستريح. تأملت وجهها، بدا لى شابا وعجوزا. بشرتها أصبحت كالحة اللون، وعلى جبهتها نقاط من العرق. فتحت عينيها ونظرت إلىّ كمن لم يعد يرى أو يدرك ما يدور. وجدت نفسى غارقا فى ننى العين الذى اتسع، واسود كأنها أصبحت تخشى من توالى أجساد الذكور. أخرجت من جيب البنطال قطعة فضية بعشرة قروش وضعتها على الكوميدينو. تتبعت عيناها حركة يدى بفتور، وارتعشت شفتاها كأنها تريد أن تقول شيئا ثم راحت فى النوم من جديد فقمت وخرجت من الباب. ومنذ ذلك اليوم توقفت عن الحضور إلى شقة صديقى. فقد بدت لى ألحان قيثارته قبيحة.

حمانى انهماكى فى الدراسة من أشياء كثيرة، أو ربما حصر حياتى فى حدود ضيقة لا تجربة فيها. بالطبع كانت هناك أشياء تحدث لى، ربما لم أتنبه إليها، سقطت مثل الحجر الثقيل يغوص فى المياه حتى القاع، فيبدو كأنه اختفى نهائيا، لكنها كانت قليلة، ولم تغير من مجرى الحياة الذى سرت فيه. كان العالم يضطرب بأحداث الحرب العالمية الثانية، ولكن ماعدا بعض الأخبار المتفرقة ألتقطها بالصدفة عندما أعبث بمؤشر المذياع باحثا عن حفلة موسيقية، لم أكن أتتبع ولو من بعيد تلك التطورات الخطيرة التى وصل صداها، وتأثيرها على أصغر وأبعد بلاد الكرة الأرضية. هكذا سمعت عن "ستالينجراد" وعن المعارك التى تخوضها الجيوش السوفيتيه، عن غارات الطائرات الألمانية على "لندن" لكن هذه الأحداث ظلت كالظلال تجتاز الجزء الخلفى البعيد من عقلى المنهمك فى آلاف التفاصيل الخاصة بتركيب الجسم، وأعضائه، ونسيجه لتختفى تمامًا.

مرة فى الأسبوع عندما أذهب إلى السينما أشاهد أفلام شركة مصر الأخبارية. أرى الكبارى تفجرها قوات المقاومة الشعبية فى فرنسا أو هولندا، أو شبه الجزيرة الإيطالية، أو القنابل تسقط من الطائرات اليابانية على بوارج الأسطول الأمريكى فى "بيرل هاربور" أو الدبابات الألمانية تزحف فوق رمال الصحراء الليبية، ولا أنسى فيلم "الدكتاتور العظيم" الذى أنتجه، وأخرجه وقام بالدور الرئيسى فيه الممثل "شارلى شابلن" فجعل ملايين المشاهدين فى كل أنحاء العالم يسخرون من شخصية هتلر ويضحكون من قلوبهم ليلعب الفن دوره فى تحطيم أسطورة الزعيم الذى لا يعرف الهزيمة.

كان أستاذ علم التشريح رجلا إيرلنديا يدعى "جون ديرى" تخرجت على يديه أجيال متعاقبة من الأطباء المصريين. كان رجلا ممتلئ الحيوية رغم سنوات عمره السبعين. قامته مستقيمة وعيناه كالفصين الزرقاوين تشعان وسط إطار النظارة الأسود السميك. يمشى بخطوة نشيطة، ويروح ويجىء بحركة دائبة طوال الساعة التى تستغرقها محاضرة التشريح. يحكى القصص ويلوح بيديه الكبيرتين ليمثل دور الطالب البليد، أو المدعى، أو المتسرع، أو الفهلوى، مجسدا نماذج من الطلبة بقدرة بارعة على التمثيل، وعلى السخرية من بعض أنواع السلوك السائدة بين طلبة الكلية.

كان يبذل جهدا مستمرا لتنوير العقول التى لم تتح لها فرصة لإرساء معلوماتها ومناهجها فى التفكير على أسس علمية. أسلوبه فى التدريس يتميز بالبساطة والوضوح والتركيز على ما هو مهم، دون الاهتمام بالتفاصيل التى تحفظ عن ظهر قلب. يردد باستمرار كلمة واحدة، ويلح عليها، "واى" أى "لماذا" بالإنجليزية "لا تنسى دائما "واى".. "واى".. "واى".. إنها أهم كلمة فى القاموس، مفتاح المعرفة والوصول إلى الحقيقة. إنها كلمة بسيطة، ولكنها ستفتح أمامكم عوالم بلا حدود."

فى علم التشريح كان الاعتماد أساسًا على الحفظ، والتخزين، وكان الأستاذ "ديرى" عدوا لهذه الأساليب، فلكل عضو، أو عضلة، أو عصب، أو شريان أو وريد علاقات بما يحيط به، ونسيج أو تكوين يتناسب مع الدور الذى يؤديه والأسلوب العلمى الصحيح يربط بين الأشياء ويبحث عن القانون والتفسير.

لم أكن أدرك مغزى الأفكار التى كان يحاول تلقيننا أو على الأقل لم أكن أدرك كل أبعادها، ومراميها فقد كان نظام التدريس الذى خضعت له منذ سنين مبنيا على أسس مختلفة تماما، على الحفظ الذى هو وسيلة الإعداد للامتحان.

ربما أيقظ "ديرى" فى أعماقى حنينا إلى التساؤل غرق تحت جبال التفاصيل فنسيته. لذلك كنت معجبا بأسلوبه، شغوفا بسماعه، مهتما بنظرته إلى الأمور.

فى أحد أيام شهر فبراير كانت السماء فيه مثقلة بالسحب. كان الهواء يدفع أمامه قطرات المطر فتتردد على زجاج النوافذ بعنف، ثم تتراجع فيسود صمت غريب. دخل علينا "ديرى" فى المدرج وسط همهمة الأحاديث، وأخذ يمسح السبورة. لم أنتبه إلى أن هناك شيئا ليس عاديًا، ولكن عندما استدار لمحت وجهه هرب منه اللون الوردى الناتج عن زجاجات الويسكى الإيرلاندية التى كان يحتسيها ليحل محله وجه آخر سحنته كادت أن تصبح رمادية اللون، وفجأة ساد الصمت، كأن الحاضرين أدركوا أنهم سيشاهدون حدثا خطيرا.

كان المدرج مزدحما بمئات الطلبة والطالبات فحتى الذين اعتادوا "الزوغان" قرروا أن يتحملوا سماع المحاضرة حتى يحتموا من المطر الغزير. جلسوا فوق الدكك الخشبية يلمع طلاؤها فى ضوء الكهرباء الذى أضيىء ليبدد الظلمة المخيمة علينا. أراهم من مكانى العالى صفوفا متراصة من الرءوس، والأقفية، والأكتاف ترتفع درجة فوق درجة، ونصف دائرة فوق نصف دائرة من الصف القصير الأمامى، الذى يدور حول المنصة، والسبورة السوداء العريضة إلى الصف الأخير بالقرب من النوافذ المطلة على الحوش.

الوجوه كلها تتجه إلى الأمام، إلى الأستاذ "ديرى" حيث يقف منتصبا على المنصة وسط الصمت. الأفواه مغلقة فلا كلمة ولا همسة ولا حتى صوت التنفس، والأجسام تجمدت فى مكانها، فلا قدم تنقل نفسها من مكان إلى مكان، ولا إصبع يفتح أزرار السترة، أو يخط بالقلم،

ولا جفن يطرف فوق العين المحدقة إليه. الدنيا توقفت عند اللحظة التى استدار فيها الأستاذ "ديرى" ليواجه الحشد الجالس فوق خشب المدرجات، بعد أن قرأ الكلمات المكتوبة بالطباشير الأزرق فوق السبورة تقول:

" أيها الإنجليز الكلاب أخرجوا من بلادنا"،

الكراريس تعرض صفحاتها البيضاء فى استسلام، والأقلام راقدة إلى جوارها، والعيون مصوبة نحو الرجل المنتصب على المنصة كالتمثال. تركزت اللحظة كلها فى الغضب القاتم يطل من عينين صارت زرقتهما الصافية مثل البحر العاصف، بلا لون ثابت، رمادية، أو خضراء، أو داكنة، لا أعرف، عينان تواجهان العيون التى تهبط نظراتها من أعلى المدرجات، وكأنها لم تعد تبصر، عيون حيوان أصم، أو وليد ضخم استيقظ لأول مرة ليسجل ما يجرى أمامه دون أن يدركه تماما، عيون غريبة فيها توجس واندهاش وخوف، عيون تبلد فيها الإحساس من المفاجأة، أو بفعل القهر المتراكم منذ زمن بعيد.

أخذ يروح ويجىء على المنصة بمعطفه الأبيض الناصع البياض يصل إلى أعلى الركبة، وقميصه الأزرق الأنيق، وربطة عنقه المعقودة بعناية. الغضب المكتوم فى أعماقه يظهر فى العصبية المحكومة التى يحرك بها يديه الكبيرتين، وفى النظرات الحانقة من عينيه الزرقاوين، فى نبرات صوته تتردد مثل الكرباج فى الصمت المخيم على المدرج وتأتينى من بعيد واضحة المقاطع كالسهام التى لا أراها: "من الذى كتب هذه الكلمات؟ إذ كان فيكم رجل، رجل واحد، فليتقدم. لقد وقفت على هذه المنصة السنة تلو السنة أعلمكم، وأعلم من سبقوكم بنية الجسم وأجهزته، وأعضاءه، أعلمكم كيف تستخدمون عقولكم، ولكنكم لا تستحقون هذا العناء. "أيها الإنجليز الكلاب أخرجوا من بلادنا." من كتب هذا الكلام؟ لماذا لا ينطق أحد منكم؟ أليس بينكم رجل؟ رجل واحد فقط؟ أنتم الكلاب، ولابد أن تحكموا بالسياط، فعندما ترتفع السياط تسكتون، وعندما تعاملون باللين تتمردون. اعلموا جيدا أنكم ستنهارون إذا خرج الإنجليز من بلادكم، فقد علموكم كل شىء، وغدا سترتفع الهروات فى الشوارع، وسنرى إن كان فيكم رجل حقيقى؟!"

تدفقت الكلمات مثل سيل من الحديد المنصهر على أجساد من حجر، فلم يتحرك أحد، ولم ينطق أحد. استمرت العيون تحدّق فيه بتلك النظرة البهيمية الغريبة كأنه يتحدث عن أشياء لا يفهمونها، ولا تمت إليهم بصلة، أو كأنه ينطق لغة أخرى غير تلك التى يتكلمون بها، فانطلق خارجا من القاعة كالهارب تاركا وراءه الحشد الصامت.

ظلوا جالسين بضعة دقائق حيث هم كأنهم تسمروا على المقاعد، ثم تململوا. ارتفع منهم صوت همهمة ثم أخذوا ينصرفون فى مجموعات صغيرة صامتة، كأنهم يتفادون الكلام عما جرى.

انتظرت حتى كاد المدرج أن يفرغ من الطلبة. فى أعماقى اضطراب، شىء يتهدد السكينة التى تعودتها، حيرة يتخللها إحساس بالمهانة. قمت وخرجت من المدرج إلى البهو الخارجى. وقفت لحظات مترددا بين البقاء فى الكلية، أو العودة إلى المنزل، ثم جزمت أمرى ودلفت من باب المشرحة لأحتمى فى الأشياء التى تعودتها. جلست على المقعد أتفرس فى وجه الجثة الراقدة فوق اللوحة الرخامية. بالأمس أزحت القشرة الجلدية السمراء من على الوجه، فظهرت من تحته العضلات حزما من الألياف تلتف حول العينين، والأنف، والفم، تصب فيهم، وتخرج منهم فى نسيج بالغ الدقة، بالغ الإتقان، تتسلل خلاله الأعصاب، والشرايين المحقونة بصبغة وردية اللون.

هنا أستغرق فى عالمى الخاص، أنفصل عما يدور حولى لأبقى وحدى أمام الجثة الممددة فوق الرخام. أجلس بالساعات متوغلا بالمشرط الحاد فى أعماق الجسم الإنسانى، أنفذ إلى أسراره مزيلا ستارا بعد ستار، أبحث عنها فى أعماق هذه الجثة الصامتة، الفاقدة كل قدرة على الحركة المحدقة فىّ. هنا تختلط رائحة الموت المعقم بالأنفاس تطلق بخارها فى الجو البارد المحاصر بين الأرضية المبلطة بالأحجار الكبيرة البيضاء والجدران والنوافذ التى لا تدخلها أشعة شمس واحدة، ورخام المناضد ترقد عليه الجثث السمراء صفوفا متراصة، ينحنى فوقها الطلبة بالمشارط تقطع فى أحشائها. بين الحين والحين ترتفع الضحكات هنا أو هناك كأن الجثث الراقدة أمامنا وهم من الأوهام، وكأن الموت لا يطل علينا بوجهه الكالح. هنا الموت والحياة متجاوران تجسدهما الأجساد التى تتحرك، وتنطق بالكلام، والأجساد التى تظل راقدة فوق الرخام، وعندما ننسحب فى آخر النهار يبقى الموت وحده سائدا فى الصمت والظلام.

فى ذلك اليوم ظلت الرءوس منكسة، والصمت مخيما فوق المساحات كأن الموت انتصر بعد طول عراك وربما لأول مرة زحفت علىّ تساؤلات لم تخطر على بالى من قبل. الأستاذ "ديرى" من أين جاءته هذه الجسارة لكى ينعتنا جميعا بالكلاب دون أن ننبس ببنت شفة؟ فى أعماقى اضطراب عرفته من قبل ولكن ليس على هذا المنوال، إحساس بالخطر غامض، بأن فى حياتى أشياء أصبحت مهددة. تزعزع الاستقرار النفسى الذى عشت به حتى الآن. " أيها الإنجليز الكلاب أخرجوا من بلادنا" . أمى أنا إنجليزية والطلبة يناصبونها العداء، لماذا؟ والأستاذ "ديرى"، كيف يتحول من أب يحنو علينا إلى كائن آخر يكاد يقترب من الوحش الكاسر؟ المشرط الذى أبحث به فى أعماق الإنسان لا يجيب على هذه التساؤلات. إنه يتتبع الشريان بعد أن ضاع منه النبض، وتوقفت فيه حركة الدماء.

عدت من الكلية فى ذلك اليوم، وجلست فى حجرتى دون أن أفتح كتاب. ترى ما الذى يجرى من حولى، وما هو هذا الصراع؟ هؤلاء الطلبة أين أنا منهم وأين أنا من الأستاذ "ديرى"؟

لم أكتشف ما دار فى هذا اليوم على نطاق البلاد إلا عندما شاركت فى النضال السياسى وعرفت أنه فى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ اقتحم المندوب السامى "مايلز لامبسون" قصر عابدين. وقفت قوة من الدبابات الإنجليزية فى الميدان الكبير وهو يقدم إنذاره إلى الملك "فاروق" مطالبا إياه باستدعاء "النحاس" باشا لتكوين الحكومة، ففى ذلك الحين كانت قد تفاقمت مخاوف الإنجليز من مؤامرات القصر، وبعض رجال السياسة مع المحور لأنها كانت تعرض سيطرتهم على البلاد لخطر حقيقى إزاء زحف الجيوش الألمانية السريع عبر الصحراء الغربية.

أدى حادث ٤ فبراير وأدت الكلمات المكتوبة على السبورة فى مدرج "على إبراهيم" والإهانة التى وجهها الأستاذ "ديرى" للطلبة إلى كشف التناقض الذى كنت أحمله فى تكوينى بين نشأتى الإنجليزية، وبين المجتمع المصرى المستعمر الذى أنتمى إليه لكن مر كل هذا دون أن يغير فى المسار الذى اخترته لنفسى.

فى هذه الفترة وقعت بين يدى رواية باللغة الإنجليزية عن حياة طبيب يمارس مهنته فى الريف. الرواية تتتبع حياته منذ اللحظة التى يحضر فيها إلى المقاطعة الريفية التى سيقيم ويعمل فيها إلى أن يصبح رجلا مسنا فقد زوجته وأصبح وحيدا، يعوضه عن فقدانها الناس الذين عاش بينهم سنين طويلة، فرغم الصعوبات والمعارك ظل متمسكا بقيمه الإنسانية، واضعا نفسه فى خدمة الذين يحتاجون إليه. الرواية كان اسمها "القلعة" للكاتب "أ.ح. كرونين" حولت إلى فيلم سينمائى ظلت أحداثه، ومناظره عالقة بخيالى.

كنت أتخيل نفسى ذاهبا إلى قريتى "القضابة" لأعمل هناك بين فقراء الفلاحين ألمحهم سائرين فى الحوارى، أو جالسين أمام أكواخهم، أو رافعين فئوسهم ليضربوا بها فى الأرض التى يملكها جدى الكبير فى "عزبة الكوادى".. كان هذا الميل إلى الخدمة الإنسانية امتدادًا للتفكير الذى غرسته فى التعاليم المسيحية التى تلقيتها وأنا فى المدرسة الإرسالية أثناء مرحلة التعليم الإعدادى والثانوى فعشت فى هذه الأحلام، وشغلتنى بصورها الباهرة عن التضحية، وعن البائسين الذين سأنقذهم بمهارتى العلمية. وفى إحدى الأمسيات حدثت أمى عن المستقبل الجميل الذى ينتظرنى فلم يبد عليها الاقتناع. أحسست أنها تقابل حماسى ببرود شديد مما جعل المسافة بينها وبينى تزداد، ولأنى كنت فى حاجة إلى التعبير عما يضطرب فى أعماقى لجأت إلى صديقى "هنرى مصور" معتقدا أننى سأجد عنده ما لم أجده عند أمى من تشجيع وتفهم للأشياء التى ملكت على خيالى ولكنه سخر منى، فعدت إلى القوقعة التى أطللت منها برأسى وقررت أن ألوذ بصمتى المعتاد.

بعد ذلك بأسابيع كنت جالسا فى المشرحة منهمكا فى تتبع أحد الشرايين الرفيعة بمشرطى. لم ألاحظ أن جميع الموجودين انصرفوا بهدوء من الباب متوجهين إلى الخارج حتى لم يبق أحد سواى فى العنبر، وأنه فى هذه الأثناء كان قد تجمع جمهور غفير من الطلبة فى

الحوش. لم ألاحظ أيضا أنه فى لحظة ما فتح باب المشرحة لتدلف منه مجموعة من الطلبة ساروا فى اتجاه المنضدة التى أجلس إلى جوارها. لم ألمحهم وهم يقتربون منى فالجثة كانت راقدة على ظهرها، بينما رفعت ساقاها فى الهواء، وأوثقت قدماها بقطعة من الشاش حتى تنكشف المنطقة التى تختبئ بين الفخذين، وأستطيع أن أصل بمشرطى إلى كشف الأجزاء المختلفة للجهاز التناسلى، مما حال دون أن أرى ما يحدث أمامى.

كنت منهمكا فى عملية الاستكشاف هذه لكن عندما اقتربوا منى انتابنى إحساس بأن شخصًا ما يراقب ما أفعله، فرفعت رأسى لأجد دائرة من العيون تطل علىّ فى استطلاع، كأنها ترى مشهدا لم يسبق لها أن رأته قبل ذلك.

ظللنا هكذا لحظة طويلة، أنظر إليهم، وهم ينظرون إلىّ ثم انفصل عن الجمع طالب طويل القامة تخفى سترته الداكنة جسما يوحى بقوة غير عادية. رأسه خال من الشعر ماعدا حول الأذنين، وجبهته صغيرة منسحبة إلى الوراء، بارزة عند الحاجبين يطل من تحتهما بريق التأهب للعراك.

غمغم فى صوت خشن.

"ماذا تفعل هنا؟"

"أقوم بتشريح الجثة، كما ترى".

"ولماذا لم تخرج مع الآخرين" ؟

"لأننى لا أريد أن أخرج".

حملق فىّ كأنه لأول وهلة لم يستوعب ما قلته، ثم قال: "عندما ينادى الوطن عليك أن تترك كل شىء آخر".

"لم أسمع أى نداء ولم يقل لى أحد شيئا".

تردد لحظة ثم اقترب منى مهددا..

"لا نريد أن نسمع فلسفة، تفضل اخرج من هنا".

"وإذا لم أخرج؟"..

"ستخرج سواء أردت أو لم ترد".

تطلعت إلى الوجوه المحيطة بى من كل جانب تطل منها الكراهية. قمت من على المقعد، مسحت المشرط على قطعة من القماش، ووضعته فى الكيس، خلعت المعطف، وألقيت به فوق كتفى، تناولت الكتاب المفتوح من فوق للمنضدة، والكيس، ووضعتهما فى حقيبة يد صغيرة كانت معى، صوبت نظرة خاطفة ناحية العملاق الأسمر قبل أن أنصرف فزمجر.

"ماذا تنتظر"؟

اخترقت العنبر سائرا بين صفوف المناضد والجثث يتبعنى الجمع الصغير من الطلبة. دلفت من الباب إلى الحوش لأجد نفسى محشورا بين الأجسام. كانت قطع من الطوب تتطاير فوق الرءوس، وهتاف يعلو فى الهواء مثل موجات الرعد. تقدمت بخطوات بطيئة، متعثرة إلى أن وجدت نفسى فجأة فى الصفوف الأولى أمام مدخل الكلية فاصطدمت نظراتى بكتلة سوداء تمتد فى الشارع. لمحت مئات الوجوه ترتدى الخوذات فتبدو مثل كرات المطاط الرمادية اللون تطفو فوق مياه المجارى. أحسست بيد قوية تطبق على ذراعى وتشدنى إلى الخلف. صرخ صوت فى أذنى.

"أين أنت ذاهب؟"..

فالتفت إلى جوارى. لمحت وجه، "هنرى" هربت منه الدماء والفزع يطل من عينيه أصبحتا مساحتين من السواد. قال:

"أمجنون أنت؟ خطوة أخرى وسينهالون عليك بالعصى".

"أريد أن أعود إلى البيت" .

"على نقالة أم على قدميك؟"

سحبنى من ذراعى. اخترقنا الحشود سائرين فى الاتجاه العكسى حتى أصبحنا قرب السور الخلفى الذى يطل على قصر "محمد على" فارتخت قبضته، وفكت أصابعه إسارها. توقفنا، فأخرج علبة سجائر من جيبه وشد منها لفافة وضعها بين شفتيه كانتا ترتعشان. أمسك بلفافة ثانية وقدمها إلىّ.

"خذ دخن سيجارة. سيبت ركبى يا شيخ".

بعد ذلك اليوم ظللت أفكر فى الأحداث التى هزت حياتنا فى الكلية. أسرح فيها وأنا جالس فى المدرج أثناء المحاضرة التى يلقيها علينا أستاذ علم وظائف الأعضاء الروسى الأبيض "ج.أ أنريب، أو فى المعمل أتفرس خلال المجهر فى بويضات "البلهارسيا هيماتوبيوم" تبدو كالشبح وسط الكائنات السابحة فى نقطة البول الموضوعة على شريحة من الزجاج، أو وأنا أبحث عن عقد العصب "السيمباتاوى" ينحدر فى عنق الجثة بالقرب من العامود الفقرى. يتراءى أمامى وجه العملاق الأسمر الذى أخرجنى من المشرحة، فأتذكر كيف خضعت لتهديده. لم أجرؤ على مواجهته رغم اقتناعى بعدم الانضمام إلى المظاهرة. لم أسأل نفسى لماذا قامت، ولم أتقص أسباب الغليان الذى اجتاح جو الكلية وحياة الطلبة. ظللت متقوقعا فى ركنى ممسكا بالأشياء التى أعرفها بقبضة لا تضعف ومع ذلك زاد التوتر الذى أصبحت أعانيه من حياة العزلة التى اخترتها، أو التى فرضت علىّ بحكم النشأة. لماذا أعانى من الخوف إلى درجة ترعش جسمى،

ولماذا أظل بعيدا عن حركة الطلبة غريبا عنهم؟ خرجوا من المشرحة وبقيت أنا وحدى. تركوا المدرجات، والمعامل، وغادروا صالات المتحف. حركة تمرد عاتية ضد من؟ ضد الإنجليز؟ لا أعرف شيئا عن تاريخ مصر، عن احتلال دام منذ ١٨٨٢، عن شعب سئم هذا الاحتلال يرى خيرات بلاده تعبر البحار لتذهب إليهم. سئم الوجوه الغريبة تفوح منها رائحة الجعة والنيكوتين. سئم أجسام السكارى تترنح خارجة من المواخير، وأحزاب تلعب لعبة القصر والإستعمار، وتبيع الاستقلال مقابل المناصب الصغيرة والفتات التى يلقى بها من فوق المائدة.

رحبت بعض "الجماهير" بجيوش النازية دون أن تدرك خطورتها، وراجت تيارات "مصر الفتاة"، والإخوان المسلمين، ووجدت دسائس الملك "فاروق"، "وعلى ماهر"، وغيرهما تأييدا لدى الكثيرين.

أما أنا فالتفوق العلمى، وليس الاستقلال هو أسمى أمانى. الإنجليز بالنسبة إلىّ مثل أحتذيه لذلك أظل وحيدا فى العنبر الكبير ممسكا بالمشرط، وأمامى كتاب التشريح، وكأنه لا يوجد فى الوجود شىء أهم من العصب السيمباتوى، والمرارة، والمصارين. لكن ربما لأول مرة اهتز يقينى بأنه لا يوجد ما يستحق أن أهتم به خارج الإعداد لمهنة الطبيب.

طوال هذه السنين ظل الحزن مخيما على جو البيت فالمشاحنات بين أمى وأبى مستمرة تكاد تتكرر يوميا كأن بينهما ثأرًا قديمًا لا سبيل إلى شفاء غليله إلا بتحطيم كل ما يربط بينهما. لم أكن أتدخل إلا نادرا عندما يكادان يتماسكان بالأيدى، وأخشى على أمى، مما قد يصيبها رغم أن أبى لم يكن ميالا للعنف. كانت أمى هى البادئة عادة فهى تشعر أن أبى يهملها، ويعيش حياته بعيدا عن البيت. أصبحت كل كلمة منه قابلة للتأويل، وكل لفتة أو تصرف مثيرة للضيق، وكان هو أيضا يعاملها بطريقة جافة خالية من الود والرقة. مع ذلك كان يحاول أن يتفادى الصدام المباشر حتى تسير الأمور بأكبر قدر ممكن من الهدوء، ويتفرغ للحياة التى يريدها، لكن نادرا ما كان ينجح فى ذلك فقد قررت أمى ألا تستكين وأن تنتقم لنفسها إزاء الإهانة اليومية التى تشعر بها، فتحولت كل مسألة صغيرة إلى سبب للنزاع العنيف.

فى هذا الجو كان لابد أن يضيع رونق الإنجازات التى أحققها، أن يتبدد إحساسى بها سريعا، دون أن تتاح لى فرصة للاستمتاع بها، واستيعابها. أحيا فى صحراء جافة ينقصنى فيها الغذاء الروحى، والعواطف، والتقدير، فيظل الشك فى قيمة ما أفعله، أو أنجزه مصدر قلق. أتساءل دائما، ما الذى فعلته خلال كل هذه السنين؟ ظللت عاجزا عن رؤية الأشياء الإيجابية فى نفسى، وفى الآخرين فالكأس الذى لا يملأ، لا يفيض، غير راض عن المجتمع الذى انتمى إليه وعن حياتى، حاملا فى أعماقى حزنا عميقا. جعلتنى حالة القلق هذه دائم التساؤل، دائم التفكير فى أحوالى، وجعلتنى شخصا لا يستقبل فرص السعادة بشكل تلقائى.

انتقلت إلى السنة الثالثة فى كلية الطب، وكما هى عادتى منذ اليوم الأول فيها انتظمت فى الدراسة والتحصيل. كنت أتميز بقدرة على التركيز فيما أفعله، ومع ذلك أحسست أن شيئا ما قد تغير. صرت أسرح وأعانى من الملل أثناء ساعات الاستذكار الطويلة. ضقت من الوحدة التى أحيا فيها، من الكلمات المطبوعة على الورق، من صمت الجدارن، فبحثت عن البشر، وانضممت إلى مجموعة من أربعة طلبة، صرنا نذاكر سويا.

فى البداية كنا نسهر فى بيوتنا بالتناوب حتى تتوزع أعباء الاستضافة اليومية، لكن بعد أن مرت عدة أسابيع اتضح أن هناك بيوتا أكثر قدرة من غيرها على توفير الظروف التى تريحنا. كان اثنان من أعضاء المجموعة من أبناء الأسر التى تملك منازل مستقلة "أى فيلل" بينما الآخرون وأنا منهم مقيمون فى شقق، وفى "الفيلا" كان من السهل تخصيص غرفة بملحقاتها تقع فى ركن منزو من البيت، أو فى الحديقة فلا تسمع أصواتنا، ولا نسبب إزعاجا لباقى المقيمين فيه، مما يعطينا قدرا من الحرية للضحك والتهريج، أو سماع الأغانى، أو حتى الزعيق. كما أن أصحاب "الفيلل" كانوا يوفرون لنا كل ما نحتاج إليه من خدمات بسبب إمكانياتهم المادية ووفرة الخدم، والغرف مما كان يسمح لنا بالمبيت.

لا أنسى ما حدث عندما حضر أصدقائى إلى بيتنا. كانت شقتنا مكونة من خمس غرف وصالة، لكن الحجرة المخصصة لى كانت صغيرة الحجم تحتوى دولابا، وسريرا ومنضدة وعدة مقاعد. الشقة واسعة فيها غرفة مكتب، وصالون وحجرة طعام. أثاثها وثير، ومقاعدها مريحة، ولكن أمى كعادتها تمسكت بنظامها الصارم، وأصرت على أن حجرتى مناسبة لمجموعة من الطلبة مثلنا، فهى تخشى أن ندخل شيئا من الفوضى فى بيتها، أن تقع سيجارة على البساط "البوخارى" أو أن تنسكب القهوة على الأغطية، وهى من أنصار الاستهلاك القليل، وهذا يعنى أن المشروبات الساخنة، أو الباردة لها مواعيد، وأنها ليست على استعداد لتقديم الوجبات الساخنة للجميع. يضاف إلى ذلك أن الغرفة المخصصة لنا لم تكن مريحة، فمساحتها محدودة، تفرض علينا أن نظل دون حركة، والمقاعد من ذلك النوع المستقيم، الصلب الذى يسبب آلاما للجسد إذا طالت الجلسة عليها.

فى نظر أمى كان كل هذا من شأنه أن يوفر الجو الصارم الذى يتفق مع الانكباب على التحصيل. أحسست أن أصدقائى تململوا. لم يقل أحد منهم شيئا، لكن لم يعاودوا التجربة بعد أن تجمعنا فى بيتنا ثلاث أو أربع مرات. أصبحنا نتواعد على اللقاء عند اثنين منهم من أصحاب "الفيلل" حتى لا تنفرط المجموعة التى حرصنا على تكوينها من أشخاص يوجد بينهم قدر من الإنسجام.

أدخلتنى هذه الخطوة فى جو مختلف يوفر فرصا للثرثرة، والمرح والترفيه، فأحسست بالراحة، لكن لم يفارقنى القلق، وزاد عليه شعور آخر، فقد فقدت حياة الدراسة، والتفوق جزءا

من رونقها. صرت أتطلع إلى أشياء أخرى ربما هى الصداقة، أو العواطف، ولكنى كنت عاجزا عن تحديدها.

فى إجازة نصف السنة دعانى أحد زملائى فى الكلية إلى قضاء بعض الوقت فى الإسكندرية. لم أكن أعرفه جيدا ولكن الفكرة استهوتنى. سأرى المدينة التى أحببتها منذ أن كنت طفلا يقضى شهور الصيف على شواطئها الجميلة، وسأكون وحدى بعيدا عن الرقابة اليومية لأمى. قال لى إنه يملك "كابينة" فى "المندرة" وأننا نستطيع أن نقيم فيها لأى مدة. لم يخطر على بالى أن أسأله عن ظروف الإقامة فكنت متحمسا للفكرة، لكن عندما وصلنا فوجئت بأن المكان الذى دعيت للإقامة فيه عبارة عن كشك قديم متهدم وسط رمال "المندرة" مكون من حجرة وحيدة فيها سريرين ومرتبتين قذرتين، ومنضدة متهالكة، ومقعد. بعد أن تفقدت الكشك سألت عن دورة المياه فقادنى إلى دورة من البوص تحيط بحفرة إلى جوارها برميل يملأ بالمياه من "حنفية".

غاص قلبى لكنى لم أقل شيئا. لم أرد أن أجرح شعوره. كنت أتمتع بقدر كبير من الجلد، والقدرة على التحمل بفضل تربية أمى. لم أفهم لماذا دعانى لأقضى معه الإجازة فى مثل هذا المكان غير المريح، ربما الصحبة، أو ربما لأنى كنت أغنى منه، فطول المدة التى قضيناها سويا لم يخطر على بالى أن أحاسبه على المصاريف. كنا نأكل سويا، ونصرف سويا. كان مولعا بالأكلات الشعبية الفول والطعمية والمخللات، والكشرى والطحال وما إلى ذلك، وكان يذهب إلى السوق وحده ويبتاع ما يريده.

استيقظت ذات صباح وأنا أعانى من المغص الشديد. صرت أسرع الخطوة إلى المرحاض المنصوب فى الخلاء لأفرغ ما فى أمعائى، وأتقيأ سائلاً أصفر. ظللت راقدا النهار والليل. لم يتركنى ولكن المكان لم يكن يصلح لرعاية شخص مريض فالطعام، والشراب مشكلة، ولا توجد أجزخانة إلا عند محطة الترام. بعد أن مر يومان أصبحت حالتى سيئة. أصبت بهزال شديد، وارتعاش. كان المشوار من الكشك حتى دورة المياه مرهقا للغاية. فكرت فى العودة فورا إلى القاهرة، لكن كيف أعود فى هذه الحالة السيئة، وماذا أحكى لأمى عن الورطة التى وقعت فيها وكأنى طفل لم يتعود بعد أن يتحمل المسئولية؟ ثم هنا أشعر بنوع من الراحة النفسية. أفعل ما أريد بعيدًا عن نظام الحياة الصارم الذى تفرضه على.

قررت أن أبقى، وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة أحسست بتحسن طفيف. انقطع الإسهال وأصبحت قادرا على التجول، فتذكرت أنه منذ سنوات قام أبى بتأجير شقة فى بيت من أربعة أدوار قضينا فيها شهور الصيف، وأن الأسرة مالكة البيت تسكن فى مكان قريب.

كان رب الأسرة رجلا تجاوز سن الستين وزوجته تصغره بعشرين سنة، قصيرة القامة، مربعة الجسم عندما تسير تتدحرج فوق الأرض، وتميل من ناحية إلى ناحية مثل البطة

السمينة. بشرتها فيها ذلك البياض الرخامى الذى يميز النساء اللائى لا يعرضن أنفسهن للشمس، ويقضين حياتهن فى الظل بين جدران البيت، وعيناها واسعتان تحيطهما الرموش الطويلة المكحلة، وتطلان من بينهما بسواد براق مثل عينى "إبليس".

كان قد أنجب الرجل منها سبع بنات وصبيا جاء فى آخر المطاف، فأضافت ثمانية أطفال إلى ثلاثة صبيان ولدوا من زوجة سابقة، ماتت وتركتهم فكبروا، وغدوا فى سن الشباب.

رحبوا بى ترحيبا حارا. لاحظت الأم الهزال الذى كان قد أصابنى فسألتنى عن أسبابه ولما حكيت لها ما جرى ألحت على حتى أقيم عندهم عدة أيام أتلقى فيها الرعاية المطلوبة حتى أشفى.

لاقت دعوتها هوى فى نفسى ووافقت دون تردد. أنا وحدى وقد يحدث لى أى شىء دون أن أجد من ألجأ إليه، فالمكان الذى أبيت فيه محاط بالأكشاك الخالية، لا يحضر أصحابها إلا فى شهور الصيف، والحوانيت كلها مغلقة حتى تلك التى توجد على الكورنيش.

عدت إلى الكشك. جمعت أشيائى ووضعتها فى الحقيبة. تركت رسالة لصديقى على المنضدة أخبرته فيها أننى انتقلت إلى مكان آخر دون أن أذكر شيئا عن عنوانى الجديد.

منحونى الرعاية التى تجيدها الأسر المصرية عندما تريد أن تقول للضيف إنه عزيز. صرت محاطًا بالأم وبناتها السبع كالديك الصغير بين الأفراخ، كل ما أحتاج إليه يأتينى دون أن أطلب شيئا. خصصوا لى حجرة تطل على البحر، وتدخلها الشمس فى الصباح، وتزقزق من حولها العصافير، وأصرت الأم على أن أظل راقدا فى السرير بينما يحملن حساء الدجاج، والنعناع الساخن، والحلبة، والجنزبيل إلى. بالتدريج صرت أتنزه على شاطئ البحر، أو فى الحديقة معرضا جسمى لعوامل الطبيعة لترد إلى ما ضاع منى أثناء نوبات الإسهال والقىء، فزاد وزنى وكست جلدى سمرة صحية جميلة.

عندما تحسنت نقلونى من الحجرة التى خصصوها لى، حتى يعود الأب والأم إلى المكان الذى كانا ينامان فيه، فصرت أحتل جزءا من غرفة واسعة، وضع فيه دولاب وسرير. المساحة المتبقية من الغرفة تحتلها ثلاث من الأخوات تفصلنى عن رؤيتهن ستارة من قماش أخضر سميك، أحيانا كنت أسمع همسهن، وضحكاتهن المكتومة فى الليل، فيتأجج خيالى بعشرات الصور المثيرة.

من بين البنات الثلاث اللائى كُن ينمن فى هذه الغرفة الكبيرة فتاة فى سن الخامسة عشرة عيناها عسليتان، وشعرها الكستنائى يميل إلى الاحمرار قليلا مما يضفى عليه وهجا قويا كالهالة المضيئة تحملها معها أينما تسير. كانت قليلة الكلام تميل إلى الصمت وإلى التأمل فألمح عينيها مثبتتين على شىء تحدق فيه وكأن به قوة تجذبها إليه. لفتت نظرى من أول لحظة. كنت

أجلس مع أمها فى الحديقة فجاءت لتسلم على. أحسست بعينيها تستقران فى عينى بنظرة ثابتة لا استعجال فيها.

كان الأولاد والبنات يصطحبونى فى جولاتى على شاطئ البحر أو فى الشوارع غير الممهدة التى تتوغل بين البيوت المتناثرة فوق المساحات الرملية. كنت فى كل مرة أجد نفسى إلى جوار هذه الفتاة، وكأن قوة خفية تجذبنى إليها، أو تجذبها إلى. لم نكن نتبادل إلا كلمات قليلة، ولكن هذا القرب الصامت كان يتغلغل إلى بإحساس سحرى. أتأمل شعرها وهو يشع فى الشمس الغاربة كأنه جزء من النبض الكونى، وأرى التساؤل المتأمل فى مقلتيها عندما تلتقى عينى بعينيها.

كانت تنام فى الحجرة التى أصبحت أنام فيها، فلا تخفيها عنى سوى الستارة الخضراء السميكة. أظل مستيقظا مؤرقا بالمسافة البعيدة القريبة التى تفصل بيننا، بأنفاسها أسمعها فى الليل، أو هكذا يبدو لى، بيدها أتخيلها تمتد إلى وتبحث عن يدى تحت "البطاطين".

كنت فى ذلك السن الذى فيه لا يقف دون رغباتى شىء. ففى سبيل إشباعها قد أقتحم كُل المخاطر محمولا على أجنحة الخيال الجامح يحول الحلم إلى تفاصيل ملموسة ومحسوسة تغذيه وتصعد بى خلال ساعات الليل الصامتة الطويلة إلى قمة لابد من إلقاء نفسى من فوقها حتى أستريح.

فى إحدى الليالى بعد أن نام جميع من فى البيت وساد الصمت لا تقطعه سوى هسهسة البحر تتكسر أمواجه على الشاطئ البعيد، أو نباح الكلاب المتقطع الموحش فى الليل، قمت جالسا على طرف السرير. أزحت الستارة بيدى قليلا وهمست بصوت متردد، متوجس ضعيف "فايزة".

جاءنى صوتها برنينه الناعم كأنها ظلت مستيقظة تنتظر ندائى "نعم". ارتبكت من المفاجأة وظللت لحظة طويلة صامتا لا أعرف ما هى الخطوة القادمة؟ ثم قلت هامسا:

"تعالى هنا إلى جوارى".

ساد الصمت مرة أخرى ثم جاءنى صوت أنين كالذى يصدر عن خشب السرير عندما يتحرك جسم عليه. قفز قلبى خلف الضلوع، فربما تنبه أحد النائمين إلينا. رقدت على السرير بسرعة رافعا الغطاء حول جسمى. مرت الثوانى ثقيلة، ثم أحسست بأنفاس دافئة على وجهى، وبيد تصطدم بكفى باحثة عن شىء. زحزحت نفسى لأترك لها مكانا على السرير. أصابعى تلتف حول ذراعها لتجذبها إلى. تسللت إلى جوارى بحركة سهلة تلقائية، التصقت بى كأننا تعودنا أن نرقد متجاورين منذ سنين، أو كأننا تخيلنا هذا العناق بكل تفاصيله فأصبح شيئا طبيعيا لا تعثر فيه، نحتضن بعضنا ونسبح فى بحر الأحاسيس.

كانت مستسلمة نشوانة، وأنا مثلها، تسوقنا رغبة ملحة، غلابة فى التصاق الجسمين. ظللنا نتعانق ونتهامس إلى أن شقشق الفجر فانسحبت عائدة إلى مكانها قبل أن يستيقظ من فى البيت.

عندما التقينا فى الصباح تبادلت عيوننا رسالة خفية فيها إدراك لعالم مدهش غريب اكتشفناه سويا بتلك السهولة فى اللعب بأخطر الأشياء التى لا يجيدها سوى صغار السن، أصحاب القلوب الصافية. كنا مثل آدم وحواء نأكل من شجرة المعرفة، وننتقل إلى واقع جديد.

فى الليل بعد أن ينام كل من فى البيت أصبحنا نحتضن بعضنا ونتبادل الحديث بأصوات هامسة حتى يتسلل ضوء الفجر من الشيش. مرت الأيام لاهثة. نسيت كل شىء، حتى أمى، حتى كلية الطب وما ينتظرنى فيها. كادت أن تنتهى الإجازة، وأنا كالضائع فى عالم غريب. فى النهار نسير تحت الشمس وقد تشابكت أيدينا. أحس بعينيها العسليتين تستقران فى عينى كالطائر يحط على غصن ليستريح، وفى الليل نحيا فى التصاق الجسمين فراشتان مرتعشتان تمتصان الرحيق.

لكن فى إحدى الأمسيات أوقفتنى الأم وأنا داخل من الحديقة، وعيناها تبرقان بشكل مخيف. قالت:

"يا بنى أريد أن أتحدث إليك".

هبطنا على السلالم حتى "البدروم" حيث الصالة الكبيرة التى يستقبلون فيها الضيوف. أجلستنى إلى جوارها على الكنبة، ورفعت قدميها تحت ثوبها، ثم نظرت إلى بعينيها الواسعتين لحظة طويلة. أصابتنى رعشة جاهدت لأخفيها. شفتاها خطان رفيعتان يكاد لا يفصل بينهما شىء، وأنفها الصغير منحوت بدقة قاسية. ألقت إلى بنظرة فيها تدبير كأنها تفكر فى طريقة للنفاذ إلى. عاودتنى الرعشة من جديد. ترى ماذا تريد؟ قفز إلى ذهنى احتمال واحد يكاد لا يوجد له بديل، لا بد أن أحدا لمحنا أنا و"فايزة" فى الليل، أو ربما حكت البنت لأمها. أتحرك فى محيط لم أتعود عليه، ولا أعرف عنه إلا القليل، أشياء أحس بها خلف ملامح الأم بالذات وكأنها تتربص بى، أو فى بريق العينين ولكنى لا أستطيع أن أجزم بشىء. لغة لم أتعلمها بعد تظل بعيدة عنى ولا أستطيع أن أمسك بها، فهى تفلت من قبضة المنطق والسلوك الذى تعودت عليهما.

قالت فى صوت تتخلله نبرة نحاسية رغم الرقة التى حاولت أن تضفيها عليه، "أنت مثل ابنى "يا دكتور"، عزيز علينا. لذلك وجب على أن أتحدث إليك فى أمر يهمنا جميعا، لأنه يتعلق بك ويتعلق بنا. لاحظت أن عاطفة بدأت تنمو بينك وبين "فايزة"، إنك ميال إليها، وإنها ربما مالت إليك، أنا لم أسألها، ولكن قلب الأم لا يخطئ. لا أريد أن يقع المحظور، نحن نعتبرك فردا

فى الأسرة تهمك أمورنا جميعا، وطريق الحلال معروف، فإذا أردت أن تتزوجها فلا مانع لدى. وأنا على استعداد لكى أفاتح الحاج فى الموضوع. فما رأيك؟"

ثبتت عينيها السوداوين على وصمتت. استولى على ذعر فظيع كالفأر يدور حول نفسه بجنون باحثا عن مخرج من المصيدة التى وقع فيها. دوامة تجرنى كالغريق، فأنسى كل شىء. ما الذى جاء بى إلى هذا البيت؟ ومن هى هذه المرأة تطل من عينيها تلك النظرة الغريبة؟ أجلس على الكنبة وأتتبع نملة صغيرة وهى تزحف على غطائها بحركة بطيئة. نسيت "فايزة" والعيون العسلية، وهمسات الليل. الزواج؟ كلمة لم تدخل فى القاموس المعروف لدى، ولا أعرف معناها. ترن فى أذنى بوقع الشىء الذى أسمعه لأول مرة فأندهش لسماعها. ذهنى مشغول حتى الآن بالكلية، بالقراءة، والترفيه عن نفسى فى أوقات الراحة القليلة، وبالجنس عندما يشتد إلحاحه على، لكن الزواج؟ لم أربط بين علاقتى بالجنس الآخر، واشتياقى إليه وبين الزواج، فهما شيئان منفصلان فى ذهنى تماما. بدت كلمة الزواج مخيفة بالنسبة لى، ربما لأننى تصورت نفسى أواجه أمى بالموقف الذى أصبحت فيه، أو لأننى أفقت الآن إلى أن هذه الأسرة تفصل بيننا وبينها هوة إجتماعية عميقة. أشياء لم أفكر فيها من قبل، ولا أعيها جيدا، ولكنى أتصرف إزاءها بالسليقة، بالغريزة الطبقية التى زرعتها الأسرة فى أعماقى النفسية منذ زمن بعيد. طارت كل الخيالات عن الجسم الفائر، والعيون العسلية ووقفت على أرض الواقع، على البلاط البارد فى "بدروم" هذه الأسرة المصرية الفقيرة نسبيا.

ظللت صامتا لا أنطق بشىء.. عيناى تنظران إلى حذائى الأسود تتأمل سطحه اللامع وكأننى اكتشفت شيئا جديدا جعلنى أركز انتباهى فيه. جاءنى صوتها النحاسى هامسا برقة فرضتها عليه..

"هه.. ماذا قلت يا دكتور شريف؟"

انتزعت نفسى بجهد.. استجمعت إرادتى، وقلت برباطة جأش لا أعرف من أين جاءتنى:

"مازلت طالبا فى الكلية، ولا أستطيع أن أتزوج الآن".

صمتت لحظة طويلة. بدا عليها أنها تعيد حساباتها من جديد. وضعت يدها على كتفى وربتت عليها "يا بنى يمكنك أن تخطبها الآن إلى أن تتخرج من الكلية"

أحسست بشباك تلتف حولى، ولابد أن أسرع بالإفلات قبل أن تطبق على. قلت "مازال الوقت مبكرا للتفكير فى ذلك".

اشتعل شرار غاضب فى عينيها كعينى ثعبان يستعد للإنقضاض علىّ. قالت فى صوت أصبحت نبراته باردة حجرية.

"فى هذه الحالة أرجو أن تغادر بيتنا إلى أن تعيد التفكير."

قمت دون أن أرد عليها. صعدت الدرجات بخطوات سريعة. أخرجت الحقيبة من تحت السرير، وألقيت بأشيائى فيها دون ترتيب. بحثت عن أفراد الأسرة لأودعهم قبل الرحيل، لم تكن "فايزة" من بينهم. اختفت كأنها غادرت البيت، أو قبعت فى ركن من أركانه البعيدة. أحسست أن جوا من الوجوم الصامت حط عليهم فلا يسألونى عن شىء، ولا لماذا قررت الرحيل. تبادلنا بضع كلمات مقتضبة، وشكرتهم على حسن ضيافتهم لى، ثم خرجت من باب الحديقة سائرًا فى اتجاه الكورنيش. ملأت صدرى بهواء البحر النقى وأسرعت فوق الرصيف كأننى أريد أن أضع أكبر مسافة ممكنة بينى وبين المكان الذى كنت فيه.

عندما انتقلت إلى السنتين النهائيتين فى كلية الطب، أخذ الحماس للمهنة التى اخترتها يعود إلى. المرور فى عنابر المستشفى، والكشف على المرضى فى الأقسام الداخلية أو فى العيادات الخارجية، وتتبع الأساتذة وهم يشرحون أعراض المرض على الحالات، ويدربوننا على أساليب الفحص، والتشخيص، والسهر أثناء نوبتجيات الليل للإشراف على حالات الولادة التى كانت تأتى إلينا، أو أثناء نوبات الطوارئ الطبية المخصصة لاستقبال الحوادث كانت زاخرة بتجارب عملية وإنسانية مختلفة.. تعلمت أثناءها خياطة الجروح، وإعطاء الحقن، وغسل المعدة لإزالة سموم ابتلعتها فتاة يئست من حياتها أو صب الجبس حول ذراع صبى سقط وهو يلعب الكرة فى حوش المدرسة أو المساعدة فى عملية جراحية عاجلة لاستئصال المصران الأعور. امتلأت أيامى ولياليى بالوجوه النحيلة القلقة، والعيون المستجدية تنظر إلى فى رجاء كأننى أحمل الخلاص بين يدى.

مع ذلك تنقض على حتى اليوم ليالى السهر فى أقسام الولادة كئيبة كالكوابيس. أرى نفسى جالسا فى حجرة مربعة يضيئها مصباح واهن. كل الأشياء غارقة فى ضوء تلفه الظلال الحمراء أو البنفسجية القاتمة. فى الحجرة أربعة أسرة، وعلى كل سرير ترقد امرأة، أو تنتصب نصف جالسة مسندة ظهرها إلى قضبان السرير، أو تستلقى على ظهرها رافعة ساقيها مبعدة بينهما. ألمح العيون يختلط فيها الفزع بالدموع، وأستنشق رائحة الديتول يختلط بالعرق والإفرازات. المراتب على الأسرة قديمة ممزقة تغطيها بقايا دماء كالصدأ الجاف، والأجسام نصف عارية ليس عليها غطاء، يرتفع عنها الجلباب ليكشف عن بطن منتفخة، مرتعشة تعلو وتهبط مع الصرخات. رءوس النساء تغطيها خصلات شعثاء والبشرة من تحتها شحوب الخوف. الأثداء تهدلت من الولادات السابقة، والقدمين تغطيها طبقة مصبوغة بلون التراب من كثرة السير فى الحوارى والأزقة والتردد على المستشفيات، وصنابير المياه لملء الصفائح وغسل الأوانى، من السير مسافات بحثا عن لقمة العيش، عن طريق العمل العشوائى أو الاستجداء.

كانت هذه الحجرة تشهد أعظم أحداث الحياة، تشهد ولادة الأطفال ذكورا وإناثًا، تتردد فيها أولى صيحات الإنسان. ومع ذلك كانت حجرة بشعة فى قبحها، وقذارتها، وبؤسها،

وفقرها، وامتهانها للأمومة التى كانوا يتشدقون بها فى عواميد الصحف، وخطب العرش، وكتب المدارس. أجلس على مقعد من الخيزران، وجفونى مثقلة من قلة النوم، وتعب الساعات التى قضيتها وأنا أنتظر طلق "الولادة". أضع يدى على جبهة المرأة لأهدئ من روعها مشدودا بين مشاعر العطف، والاشمئزاز. فهؤلاء النساء البائسات، يمثلن كل ما علمتنى أمى أن أكرهه، يمثلن كل ما يتناقض مع الحياة النظيفة المعقمة، المنظمة، الرخيَّة التى أحياها. يمثلن كل الفقر والقبح والقهر فى المجتمع. فى الوقت نفسه أجد نفسى مشدودا إليهن بخيوط خفية فيها الإحساس باحتياجهن إلى، بقدرة اكتسبتها على معاونتهن فى الوقت المناسب، بيدى تتلمس الجنين المختبئ خلف جدران البطن، المنزلق إلى أسفل يسعى حثيثا إلى النور فتبرز الرأس بالتدريج من فتحة المهبل ثم الملامح المنتفخة تغطيها خيوط من دماء. الجسم ينزلق على كفى فأشده برفق حتى يتحرر تماما من الأسار، أسلمه للممرضة تقف إلى جوارى، وأتنفس الصعداء. أشعر بالانجذاب إلى هذا العالم فيه فساد وسخونة، فيه نبض التكاثر، والخصوبة واللقاح.

أصبحت أغوص فى دهاليز المستشفى، وأقسامه، وعنابره وأحتك بالمرضى، والأطباء، والممرضين، والممرضات، فيرتفع الساتر خطوة وراء خطو ة عن عالم جديد كنت أعد نفسى للدخول فيه. ترتب على التحول من مجرد الحفظ والدراسة إلى الممارسة العملية إضفاء معنى أعمق على المعلومات التى كنت أحرص على تحصيلها. لم أعد أحصلها لذاتها، أو لأداء الامتحان وإنما لكى استخدمها فى علاج المرضى، وهكذا بالتدريج صرت أرى نتائج المعرفة وهى تتحقق أمام عينى، فأزداد ثقة بقدراتى، وبأهمية الجهود التى بذلتها طوال السنين. الآن لم يعد الأساس هو القدرة على حفظ المعلومات وإنما قوة الملاحظة وملكة الربط بين الأعراض والظواهر للوصول إلى التشخيص السليم والتصرف فى العلاج وفقا لمقتضيات الحالة. أحسست أننى أقدر على ذلك من زملائى لأسباب مختلفة منها الصبر، والتأمل، ومنها الروح العملية التى نشأت عليها، وحماسى للطب كرسالة والذى كان يدفعنى إلى رؤيتها ليس كمهنة أستطيع أن أجنى من ورائها المكاسب، وإنما كهدف أسمى يستحق أن يهب له الإنسان حياته.

لكن ما عدا قلة من الحالات الاستثنائية ظل أسلوب الأساتذة فى التدريس معتمدا على التلقين بدلا من تربية الملكات التى تجعل من الطالب طبيبا قادرا على هضم المعلومات بهدف تطبيقها حتى يستطيع أن يتعامل مع الحالات المرضية، ومع المرضى بحس وذكاء. فالمرض الواحد كثيرا ما يعبر عن نفسه بأعراض وصور متفاوتة من حيث توقيتها ومظاهرها. وكذلك العلاج يجب أن يضع فى اعتباره التركيبة الجسمية والنفسية للإنسان والتى تختلف من شخص إلى آخر حسب حياته، ومهنته، وأسرته، ونشأته، وصفاته الوراثية، وظروفه الاقتصادية، والاجتماعية، ولكن نادرا ما كان يتميز أحد هؤلاء الأساتذة بذكاء العقل، والإحساس، وبالقدرة على النفاذ إلى أغوار الإنسان ليرتفع فوق مستوى النمط العادى.

فى تلك الفترة تعرفت على مدرس للجراحة اسمه "مصطفى الشربينى". لم يكن "مصطفى الشربينى" خاليا من العيوب، فيه تعالى الجراحين الذين يعتقدون أن يدهم الممسكة بالمشرط تمتلك سر الحياة، وفيه ثقة بالنفس تتعدى حدودها فى بعض الأحيان، ومع ذلك كانت عنده موهبة من نوع خاص، موهبة التدريس، ونقل المعلومات. كان سنه إذ ذاك حوالى خمس وثلاثين سنة، رجل قصير القامة ذو جبهة عريضة تنحدر إلى الخلف، عيناه العسليتان يرقص فيهما بريق ضاحك. حول شفتيه تلعب ابتسامة ساخرة كأنه يرى أن الحياة سلسلة من المفارقات يحلو له أن يطل عليها واضعا بينه وبينها مسافة، متسليا بها، حريصا بألا تصيبه مرارتها، أو أذاها. حول رأسه شعر أكرت قليل الغزارة ينتفض واقفا كلما أوغل فى الدرس، ونسى نفسه فى حماس الكلمات.

كانت قدراته كمعلم تميزه عن أقرانه بشكل واضح حتى وإن فاقه بعضهم من ناحية السن والتجربة والشهرة فى مجال الجراحة، عن أساتذة آخرين ذاع صيتهم مثل "عبد الوهاب مورو" و"عبد الله الكاتب" و"محمد محرز" وكثيرين غيرهم.. فهو يدفعنا دائما إلى التفكير. يطرح الأسئلة بأسلوبه الساخر: "هذا الثدى يا أخى أعر ف أنك ترى فيه الاستدارة الجميلة، والأنثى المعطاءة والخصب، أنه يثير خيالك، ولكنه يبعدك عن الطب، عن الواقع المر، افحصه بعينين مفتوحتين للعلم، ألا ترى فيه شيئا، نتوءا سطحيا أو ثقبا، أو ارتفاعا ضئيلا فى مكان ما تحت الجلد، أو غياب شىء يدل على شىء؟"

يقودنا خطوة بعد خطوة إلى اكتشاف ما لم نره من قبل، بالجهد والتأمل والاعتماد على العقل، بالمقارنة بين الأشياء، يجعلنا نكدح أذهاننا ونلاحظ ونحس ولكن فى النهاية يشعرنا أننا وصلنا بتفكيرنا نحن، فيقوى ثقتنا فى أنفسنا، فى مقدرتنا على استخدام إمكانياتنا. يحكى الحكايات، ويعقد المقارنات، ويستخدم الإيحاءات، والتساؤلات والرمز، فيستولى على الشعور بأن العلم رحلة ممتعة، مغامرة، اكتشاف للسر الغامض، المختبئ تحت السطح، حقائق جديدة، مبهرة أتقدم نحوها لأصبح مالكا لما لم أكن أملكه، مالكا للعلم.

كان الدرس الذى نحضره معه مفعما بالمرح، والضحك، وكان فى الوقت نفسه جهدا مركزا، وبحثا لا يكل طوال الساعتين اللتين يدور أثناءها الحوار حول حالة المريض الراقد أو الجالس على السرير يتطلع إلينا بنظرات فيها قلق، وتساؤل أو استسلام للقضاء. يقف بيننا ليوجه خطواتنا بصبر، وينتزعنا من عثراتنا حتى يصل بنا إلى تشخيص المرض، كيف بدأ؟ وكيف تطور؟ وفيما اختلف عن مساره المعتاد، عن العلل القريبة منه؟ وما هى المضاعفات التى يجب الاحتياط منها؟ وما العلاج؟

إذا ما ضاق من الردود التى تصله من الجميع أحس بعينيه تبحثان عنى، تزحفان إلى حيث أقف أو ترنوان إلى من طرف خفى كأنه يقول لى " دورك يقترب فاستعد، دعهم يفرغون مما

عندهم. ادخرتك لهذه اللحظة والآن أريد أن أسمع ما أبحث عنه. أعرف أنك ستحاول الاكتشاف بالمنهج الذى علمتك إياه، بالربط بين الظواهر والأعراض والتاريخ، والأصل، أنك ستعطينى الإحساس بأن جهودى لم تذهب هباءً، وأن من بين يدى يمكن أن يولد شىء".

يلتفت إلى فجأة.. أسمعه ينطق ببطء..

"هه.. قلنا يا سى شريف، الورم اللى فى الكبد ده ما هى احتمالاته؟"

أتردد لحظة ثم أقول:

"لو سمحت قبل أن أرد على سؤالك أريد أن أفحص المريض من الشرج".

ملامحه تظل جامدة، وعيناه تتطلعان إلى السقف كأنه لاحظ شيئا هناك. يحرص ألا يعطينى أى إشارة تنم عن الرضى، أو الرفض، فقط حركة ارتفاع سريعة ألمحها فى الحاجبين الكثين قبل أن يشير إلى حكيمة القسم المنتصبة بالقرب من الجمع.

"يا ست سعاد" انقلى المريض للكشك".

يحملون المريض على النقالة إلى حجرة صغيرة مزودة بمنضدة طويلة، ودواليب زجاجية فيها بعض الأدوات، وحامل لحقن السوائل، وطسوت بيضاء، ومنضدة غيارات مزودة بعجلات وحوض، ويرقدونه فوق منضدة الكشف. نتجمع حو له، رجل كبير السن يرتدى طاقية بيضاء وجلبابا مغلقا من الخلف، يحدق فى وجهى بعينيه الباهتتين ملقيا ناحيتى بنظرة فيها توجس. همست فى أذنه أننى سأفحصه من الشرج فبدت عليه علامات الفزع، وتلفت حوله كالباحث عن فرصة للهرب. تحايلت عليه حتى سجد فوق المنضدة هابطا برأسه على سطحها، ثم فككت دكة السراويل المربوطة حول وسطه. تمتم بالشهادة فى صوت خفيض ثم سكت. مسحت يدى بمسحوق "التلك" وأدخلت يدى اليمنى فى قفاز من المطاط الرفيع العسلى اللون. غمست إصبع السبابة فى وعاء من الفازلين، وربت بيدى اليسرى على ظهره لأطمئنه. قبل أن أضع طرف إصبعى عند فتحة الشرج، انتظرت حتى أحسست به يرخى عضلاته قليلا وقلت له "خذ نفس غويط" ثم ولجت بإصبعى داخل الشرج بحركة هينة بطيئة. ارتعش الرجل وسمعته يقول:

"حرام عليكم يا ناس، هى دى أصول برضه؟ "ثم تمتم" أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله" وصمت كأنه ينتظر ماذا سيحدث بعد ذلك.

درت بأصبعى فى كل الاتجاهات، وصعدت به إلى أقصى مداه فاحصا أحشاء الرجل الساجد أمامى. أحسست بغدة البروستاتا صغيرة الحجم، صلبة القوام. أخرجت إصبعى وخلعت القفاز ملقيا به فى إناء معدنى تحت المنضدة. رفعت سراويل العجوز وأوثقته على وسطه، ثم طلبت منه أن يعود إلى الرقاد على ظهره. رفعت الغطاء فوق الجزء الأسفل من جسمه، وظللت صامتا لحظة أفكر مستمتعا بجو الترقب. التفت إلى الدكتور "مصطفى

الشربينى" وقف يتتبع ما أفعله، وحول شفتيه ابتسامة صغيرة. دائرة العيون تحدق فى منتظرة، فأحسست برعشة اضطراب فى أعماقى، أخفيتها تحت الهدوء الظاهرى لوجهى، قلت بالإنجليزية:

"هناك عدة احتمالات تعرض إليها من فحصوا المريض من قبلى، لكن هناك احتمالا أريد أن أضيفه، وهو حدوث تضخم فى الكبد ناتج عن أورام ثانوية منبعثة من سرطان البروستاتا، فهناك نوع من سرطان البروستاتا صامت، لا يؤدى إلى زيادة فى حجمه بشكل ملحوظ، وإنما يجعل قوامه متحجراً، وقد يصعب تمييزه عن التهاب البروستاتا المزمن. يطلق خلايا سرطانية فى الدورة الدموية البابية تصل إلى الكبد حيث تجد أرضا خصبة لنموها، لذلك أقترح أخذ عينة من البروستاتا وفحصها معمليا، إذا أردنا أن نتأكد من التشخيص، لكن ورم الكبد يدل على أن الحالة، أن كانت كما نظن، قد وصلت إلى مرحلة متقدمة".

قرأت فى عينيه الفرحة، فرحة لم أنسها، فرحة تنتقل إلى كالشحنة. كان "مصطفى الشربينى" يعتز بى دون أن يفصح عن شعوره نحوى، فلم نكن نتحدث، ولم تكن العلاقات بين الطلبة، والأساتذة تسمح برفع الكلفة. كنت مع ذلك أحس بعلاقة تقدير متبادلة وصامتة نشأت بينى وبينه تعبر عن نفسها فى نظرة، أو ابتسامة، أو كلمة عابر ة مثل مخاطبته إياى "يا سى شريف" كأنه يريد أن يقول: "لك عندى وضع خاص".

أدركت هذه الحقيقة عندما قادتنى خطواتى إليه بعد سنوات.

كانت الشاحنة تنتظرنى خارج بوابة سجن مصر. قبضت على الطرف الخلفى لصندوقها المفتوح بيدى الموثقتين فى "الكلابشات"، رفعت نفسى بدفعة قوية رافضا يد الشرطى الممدودة إلى، متجاهلا الألم الذى اخترق أصابع يدى كالمخالب، وتقدمت خطوات لأقف خلف "كابينة" السائق مسندا ذراعى عليها. هنا أستطيع أن أطل على حركة الحياة تسرى فى المدينة مثل الدماء فى الشرايين، وعلى الأشجار والمساحات الخضراء كلما اقتربنا من المستشفى الراقد على شاطئ النيل حيث حولتنى سلطات السجن للعلاج.

هذه النزهة السريعة تحت الشمس ألمح أثناءها سكان المدينة يستأنفون نشاطهم اليومى المعتاد، أتطلع اثناءها إلى الأطفال بشغف الولهان، واستنشق اثناءها هواء الصباح هى بمثابة شحنة نفسية وجسمية تنتزعنى من فساد العنابر والأجسام المتزاحمة خلف الجدران تفرز كل ما هو قبيح، وتمتصه كالديدان فى المجارى والمستنقعات.

أتمثل هذه اللحظات، أتنفسها، ، استوعبها فى كيانى مثل الأرض "الشرقانة" للمياه، مثل الإسفنج يملأ مسامه بماء البحر الرقراق، أتطهر من سموم تراكمت فى الخلايا، من إحساس بالقتامة، والفناء، من الموت البطىء أحيا فى ظله صباحا ومساء، من أصوات اللهاث الحيوانى للواط.

بالقرب من الشاحنة وقف رجل يرتدى "بيريه" كحلى اللون، وسترة من الجلد، يقرأ فى جريدة "الأخبار" مسندا ظهره إلى الجدار، متفحصا صفحة الحوادث باهتمام، فاتحا إياها أمامه كأنه غير عابئ بما يجرى من حوله، لكن شيئا فى الملامح الجامدة، اللامبالية وفى نظرة العينين التى يطل بها من خلف الصفحات تقول لى إنه مخبر سرى أناطوا به مهمة تتبع كل ما يحدث منذ لحظة خروجى من الباب.

قلب الرجل صفحة من الجريدة فلمحت صورة عبد الناصر وعينيه ترنوان إلى كأنه رآنى منتصبا خلف "كابينة السائق". ملت برأسى محاولا التقاط بعض العناوين. من فوق جبال المقطم أخذت تتجمع غيوم الخماسين. فى أنفى رائحة تراب، وفى حلقى رغبة فى السعال. توقفت امرأة شابة على بعد أمتار، تلتف الملاءة حول قوامها المرتفع يتمايل بثقة هادئة عندما تسير. من تحت الطرحة تظهر ضفائر شعرها الغزير. ملأت عينى بجمالها المتوحش. شدت على الملاءة بحركة سريعة وثبتت عينيها السوداوين بجرأة فى عينى ثم صاحت:

"هو عباس خضر" معاكم يا أفندى". ضربها المخبر السرى على كتفها بقبضته ضربة قوية باغتتها فمالت نحو الأرض، ثم استعادت توازنها بحركة لدنة من جسمها كأنها شجرة جذورها فى الأرض. استدارت فى اللحظة نفسها رافعة ذراعيها فى الهواء لتهوى بكفها على الخد الغليظ. سمعت طرقعة الصفعة يصطدم صداها بخشب البوابة، ويرتد عنه، ثم صوتها يصرخ متحديا غاضبا متدفقا، وهى تقول:

"إن ماكنتش أوريك إنك ما تسواش نكلة أنت واللى باعتك تتجسس علينا يا جربان يا ذعر الديل".

أحاط بها جمع صغير من الناس، وزحزحوها بعيدا حتى لا يصل إليها المخبر الذى بدت عليه علامات الاستعداد للإمساك بها بغية قيادتها إلى أقرب نقطة للبوليس، وأحاط به جمع ثان يهدئ من ثورته، ويطيب خاطره بالكلمات المعتادة.

"معلهش يا راجل دى حرمة، حتعمل عقلك بعقلها، أمسح ذنبها فينا، خذ سيجارة اهيه، والله لانت واخدها، ياواد أنت هات الشاى للراجل الطيب دا اللى مش هاين عليه يئزى الولية الملعونة دى الله يخرب بيتها. حاتعمل لنا مشكلة على الصبح".

تحركت الشاحنة،وانطلقت تدور حول الميدان. لمحت المرأة الشابة تطل برأسها فو ق رءوس المجتمعين حولها. قرأت بريق الانتصار فى عينيها فلوحت لها بيدى قبل أن تبتعد بنا الشاحنة مخترقة زحام المتجهين إلى بوابة السجن. ترى من هو الرجل الذى حضرت لرؤياه؟

رأيت مآذن ترتفع فوق أطرافها السحب البيضاء مثل قطع القطن الطبى الساكنة فى السماء. صفر الريح حاملا معه صقيع الصحراء فأحسست بوخزات كالإبر الرفيعة فى الأنف،

والأذنين والأصابع. على كل جانب وقف أحد الحراس ممسكا بذراعى، ضاغطا عليها بشدة كأنه يخشى أن أفلت من بين يديه. أستنشق رائحة جلد الأحزمة، والأحذية، مختلطة بعرق الأقدام ينز فى الجوارب الصوفية أثناء النهار ويجف فى الليل. يصيبنى الدوار من حركة الشاحنة تنحرف ذات اليمين، وذات اليسار، وأختنق من حصار الجسمين ورائحة العرق الحامض. إذا طلبت منهما أن يبتعدا عنى سأثير فيهما الشكوك، والحفيظة العدائية التى ترقد تحت هدوء الملامح المفعمة بالبلاهة والطيبة والشر المستكين. أنا أحتاج إلى رضائهما حتى أحقق ما أريده من هذا المشوار إلى مستشفى القصر العينى، وأتمكن من لقاء الطبيب الذى يوافق على بقائى للعلاج فى أحد الأقسام.

سارت الشاحنة بسرعة مخترقة شوارع المدينة، قافزة فوق المطبات فى جنون الحصان الجامح، صارخة بعجلاتها عندما تنحنى لتفادى "عربة للكارو" أو أحد بائعى البرتقال، أو امرأة بدينة تجتاز الطريق. أشعر بنشوة تنسينى هذا السباق الأهوج للشاحنة فكل شىء يبدو لى جديدا أراه لأول مرة، قباب الجوامع اللامعة فى الندى المضىء والمآذن الصاعدة فى السماء، الفواكه والخضراوات، وجلابيب البنات الزاهية، الترام العتيق يتهادى فوق قضبان شارع "محمد على" يعيدنى إلى الأزمنة السابقة بظلالها وأشباحها، وأصواتها فترن فى أذنى أصداء الصاجات، ويتمايل الكوديا النحيل الشاحب فى ضوء الكلوبات. ألمح ساقا ممتلئة بيضاء تبرز من ثنايا الثوب، تنثنى، وترتفع، وتهبط، وتهتز بنبض يجرى فى الأعماق، بإيقاع الكون الواسع، والعيون المكحلة، تتجمع تحت الشمعدان. صور من الماضى راحت ثم عادت من عالم اللاوعى، من تحت ضباب المدينة تشفى بحياتها السرية، من تحت الغيوم والدخان.

وصلت الشاحنة إلى ميدان "العتبة الخضراء". تركت جسدى ووجهى لريح الصباح يداعب شعرى، يتلمس عنقى وصدرى تحت سترة السجن الزرقاء، ويتسلل إلى الإبط بين الصدر والذراع، فأصبح كالطائر، يطير فوق الشاحنة فى الهواء، كمن يستيقظ من ليل طويل، كالخارج من حياة فى المجارى والأنفاق.

أمام مطعم للفول وقف رجل يسقط من بين كفيه العريضتين أقراص الطعمية الخضراء لتقع فى الإناء، فيتهادى أمامى قوام صديقتى الإيطالية ونحن سائرون فى حى بولاق نجتاز مطاعم الفول، ومحلات الفاكهة، وأفران الخبز البلدى تطلق رائحتها المنعشة فى الصباح. أشرب عصير القصب الفوار، آكل طبقاً من الفول بالزيت الحار، والشطة الحمراء، أستنشق رائحة الثوم والبصل، والباذنجان المقلى، واللحم المشوى المشبع بالبهارات.

الناس يطلون من النوافذ، ويتزاحمون عند النواصى والمقاهى، وفى عربات الترام. تصيبنى الدهشة عندما أرى وجوههم، ينتمون إلى عالم غير العالم الذى أعرفه، غير العالم المحاط بالجدران، حيث الحركة بطيئة، والأحاسيس بليدة، والسنون تنهب العمر كله فى غمضة

أبحث عن وجه أعرفه مثل المسافر عاد إلى بلاده بعد غياب، كالأم فقدت طفلها وراحت تبحث عنه بلهفة وسط الزحام، تطارد نظراتها القلقة كل وجه صغير، كل جسم يتدحرج على ساقين قصيرتين فوق الرصيف. إذا تعرفت على أحد المارة ربما انتبه إلى، وانتزعنى من عداد المنسيين، ليعيدنى جزءا من الدنيا التى تركتها منذ سنين، وليبعث فى الإحساس بوجودى بعد أن كاد يضيع. أبحث عن بريق العينين، يشتعل بالتدريج، عن صوت يقول "أنت شريف حتاتة؟ تذكرتك، رغم غيابك الطويل، فأنت تحلق فى الأفق أحيانا، أو تقتحم علينا الحديث، أو تظل كالروح الهائمة نشعر بوجودها دون أن نراها. أنت لم تدفن تحت تراب النسيان!!

دارت الشاحنة حول "ميدان العتبة". لمحت الساعة الكبيرة، ومكتب البريد، وأشجار النخيل جذوعها مطلية باللون الأبيض للجير، ورواد المقهى مثل أشباح الليل استيقظوا ليجدوا أنفسهم جالسين تحت بواكى العمارة المواجهة لمسرح الأزبكية القديم، فأخذوا يتسللون منها خوفا من ضوء النهار.

ترنح أحد الحراس من ميل فجائى للشاحنة وداس على قدمى بحذائه الأسود الثقيل. ظللت صامتا رغم الألم الذى أحسست به. أصبح التحمل جزءا من حياتى اليومية، وسيلة للبقاء. خفت صوت التمرد على القبح، والرتابة، والجريمة، فالتمرد ثمنه غالٍ، الجلد، أو التأديب فى زنزانة رطبة بلا غطاء، وهو السبيل إلى الفناء السريع. كففت عن إلقاء نفسى كموج البحر على صخور لا تلين. يجب الاحتفاظ بالطاقة للمعارك المفيدة، وحساب المسائل بميزان دقيق، لكن شعرة رفيعة تلك التى تفصل بين الصبر الذى لا مفر منه للحفاظ على سلامة العقل، وبين انسحاق الأحاسيس. أحيانا يضيع منى هذا الخيط الرفيع، هذا الخط الفاصل بين حماية الجوهر وفقدانه.

تطلعت إلى السماء. سحابة صغيرة سكنت فى المساحة الزرقاء التى تفصل بين عمارتين فغمرتنى برقتها. اخترقت الشاحنة "ميدان الأزهار" وشارع "البستان". ترى هل حقا رقصت الزهور فى هذا المكان قبل أن تزحف جدران الأسمنت والطوب والحديد؟ اجتازت "ميدان الإسماعيلية"[1] وقصر الدوبارة[2]. وشوارع هادئة تحف بها الأشجار على الجانبين. فجأة أصبح النيل أمامى، يندفع بقوة بين شاطئيه، تلمع مياهه تحت الشمس ببريق متحرك قوى، يخطف أنفاسى، أمتطى أمواجه. أملأ صدرى بالهواء، ونفسى بمناظر الطبيعة، بأوراق الشجر خضراء عميقة عندما تتضم فى سياج كثيف، فضية عندما يفصل بينها الريح. أمام عينى مبنى المستشفى تحول لونه الأصفر إلى غطاء ترابى ورقد على الشاطئ كالحيوان الضخم زحف إلى هذا المكان الرطب ليستريح.

---

(١) ميدان التحرير.

(٢) المنطقة المحيطة بقصر المقيم البريطانى (السفارة الإنجليزية فيما بعد).

اجتازت الشاحنة الكوبرى الصغير، واخترقت البوابة المفتوحة على مصراعيها وكأنها ستسحق المتزاحمين أمامها يستجدون الحراس المتغطرسين ليأذنوا لهم بالدخول إلى ذويهم. صرخ أحد الرجال غاضبا وهو يسند امرأة عجوز أصابها الفزع أمام اندفاع الشاحنة فوقعت على ركبتها وهى تحاول التراجع: "يا ناس يا كفرة اتقوا الله فى خلق الله". جاءنى صوت السائق زاعقا يتخلل هدير المحرك "ناس بهايم صحيح". داس على منظم السرعة دون أن يكترث بطوابير الهاربين فقفزت الشاحنة، مطلقة نفيرها من الأمام، وسحب الدخان الأسود من ماسورة "الشكمان".

توقفنا أمام مدخل الاستقبال فجأة، فأمسكت بطرف "الكابينة" حتى لا يلقى بى من فوق سطحها. تقهقرت مع الحارسين إلى الجزء الخلفى من الصندوق. قفز أحدهما إلى الأرض رافعا يده الموثقة فى يدى إلى أعلى حتى لا يجرنى وراءه، فقفزت بدورى هابطا إلى جواره، وتبعنى الحارس الثانى. أحاط بى الحارسان، وصرنا كتلة واحدة متلاصقة، مخترقين الأبهاء الداخلية، يتقدمنا الضابط الشاب ليفتح لنا طريقا بين الناس، دافعا بهم إلى جانب بإهمال، نافثا دخان سيجارته المتدلية بين شفتيه فى الهواء. رأسه مرفوعة فوق عنقه فى استعلاء، وعيناه نصف المغلفتين تفحصان الوجوه فى حذر.

صعدنا الدرجات الغارقة فى الظلام إلى الدور الأول. اخترقنا بابا ضيقا ثم ممرا قصيرا، ثم بابا ثانيا لنصل إلى الطرقة الممتدة بطول المستشفى ينساب خلالها تيار مستمر من الناس. بعض السائرين ينظرون إلى فى فضول، أو تساؤل أو إشفاق، وبعضهم يتفادون الالتفات إلينا كمن يخشى ما قد ينجم عن بادرة اهتمام، ولكن من حين لآخر يلتفت إلينا أحد الأشخاص ليتأملنى وأنا أسير والقيود الحديدية تربطنى بأحد الحراس، مرتديا ثوبا للسجن أنيقا فصله لى أحد السجناء العاملين فى ورشة الحياكة، فالسترة لها ياقة عالية تدور حول العنق بإحكام، ولها أزرار فى صف مستقيم تغلقها من أمام، تشبه السترة التى يرتديها المسئولون فى "الصين الشعبية" و"فيتنام".

هنا بيتى القديم قضيت فيه أعوام. لمحت وجها يبتسم إلى فى ثبات فالتفت. "مصطفى الشرقاوى" تتلمذت على يديه فى قسم العظام. رفع إلى يده فى الهواء مشجعا، فهززت له رأسى فى امتنان. وجوه أخرى تمر أمامى، زملاء كانوا معى أيام الامتياز والنيابة. التقط الجمود المصطنع فى الملامح يعنى أنهم لمحونى، وعرفونى، وقرروا بسرعة أن يلجأوا إلى التجاهل التام.

امرأة تسير بسرعة أمامى حاملة تحت إبطها حافظة أوراق. عيناها السوداوان تتدفق منها الحيوية. أيام أن كنت أعمل فى مستشفى القصر العينى كانت فتاة فى السنة الأولى لمدرسة الممرضات، جذابة، قوية الشخصية، رغم سنها الصغير. كان أطباء الامتياز يتنافسون لنيل

رضاها. الآن ترتدى ثياب الحكيمة، وغطاء رأسها، وتفتش عن الثغرات بتلك النظرة الذكية زادت نضجا مع الأيام. فوجئت بى أمامها فهتفت بصوتها العميق "د. شريف". توقفت لحظة ثم سألت "كيف أحوالك؟ افتقدناك من زمان".

زمجر أحد الحراس:

"ابعدى يا ست ممنوع الكلام".

نظرت إلى نظرة سريعة فيها تساؤل فقلت:

"أنا بخير ومسرور لأننى رأيتك، لا تغضبى فهذه هى تعليماتهم". خطت خطوة إلى الوراء لتفسح لنا الطريق. بعد قليل التفتت إلى الوراء، فوجدتها وقد توقفت فى الطرقة، حتى أختفى عن الأنظار. التقت عيوننا من بعيد ولوحت إلى بحركة سريعة من يدها.

دخلنا من باب القسم. على الجدار لافتة خطط عليها بحروف سوداء "قسم ٢٧ جراحة". الصالة الخارجية مزدحمة بالطلبة. لمحت سبورة مرفوعة على حامل من الخشب كتب عليها بالطباشير "امتحان الجراحة من الساعة التاسعة حتى الواحدة بعد الظهر أيام ١٩، ٢٠، ٢١ ديسمبر". غاص قلبى فلن أجد من يهتم بأمرى وقت الامتحانات.

سألنى الضابط، وعيناه تدوران على جموع الطلبة.

"إلى أين الآن؟ لا نستطيع أن ننتظر فى هذا الزحام".

وقفت فى حيرة أبحث عن جواب، ثم قلت:

"الأستاذ لم يصل بعد. يمكننا أن ننتظر فى هذه الشرفة" مشيرا إلى باب يقود إلى شرفة تدور حول القسم من الخارج. بدا عليه الضيق، سأل.

"ولماذا ننتظر الأستاذ؟"

"لأنه هو الذى بيده القرار".

سكت دون أن يجيب فتنفست الصعداء. وقفنا على الشرفة وظل الضابط حيث هو إلى جوار الباب يطل علينا بنظراته القلقة. قلت للحارس الذى كان يقف على يمينى.

"دخل أيدك فى جيبى وطلع علبة السجائر".

دس يده فى جيبى. أحسست بأصابعه على فخذى تعبث فى كل الاتجاهات. لفها حول العلبة فعجزت قبضته عن الإفلات من جيب البنطال.

قلت:

"أدخل إصبعين وشد العلبة من فتحة الجيب".

أخيرا تمكن من استخراج العلبة. مد يده بها إلى فقلت:

"خذ العلبة لك ولزميلك وأدينى سيجارة منها. حطها بين شفتى وأشعلها".

نفثت نفسا من الدخان فى جو الصباح. تأملت المساحات المفتوحة أمامى، تاركا نفسى تسبح فى المسافات. فجأة أحسست بحركة غير عادية من ورائى فتلفت. رجل قصير القامة، متورد الوجه يتقدم بخطوة سريعة فينشق الزحام ليفتح طريقا إلى حجرة الأستاذ. لمحت الابتسامة المراوغة على الشفتين، والجبهة العريضة تميل إلى الخلف، فقلت للضابط :

"هذا هو أستاذ القسم، لنذهب إليه قبل أن ينشغل بالأعمال".

بدا عليه الامتعاض.

"المهم أن ننتهى بسرعة". نظر إلى ساعته، ثم ألقى بسيجارته على الأرض وداسها بقدمه.

سرنا إلى باب حجرة الأستاذ. وجدناه جالسا خلف مكتبه، مائلا بجسمه إلى الوراء، وقد وضع فى فمه سيجارا سميكا من التبغ الأسمر تأهب لإشعاله بعود من الثقاب. أحس بوقفتنا عند الباب، فالتفت إلينا. فى عينيه تلك النظرة الساخرة الممزوجة باستعلاء الأستاذ.

مد الضابط قدمه خطوة، مجتازا عتبة الباب، فتجمدت قسماته واختفى شبح الابتسام. حركة بسيطة من العضلات سكنت على الفور، ولكنها كانت كافية لكى تبدو على الضابط علامات التردد. ظل ينظر إلينا دون أن يبدو عليه شىء كأن منظر مسجون، محاط بالحراس وموثوق بالقيود أمر معتاد يراه كل يوم. قام من خلف مكتبه، وتقدم نحونا ببطء مبددا حالة الجمود التى خيمت للحظات. تجاهل الضابط، واتجه إلى مباشرة . سمعت صوته الضاحك يقول:

"ما الذى آتى بك إلى هنا يا سى شريف؟"

أحسست بالراحة تغمرنى قلت:

"جئت للكشف على" .

"لماذا؟ مريض؟ أنت؟ لا يمكن ." ندت منه ضحكة قصيرة، مرحة ثم التفت إلى الضابط وسأل:

أين الخطاب الخاص به؟"

مد الضابط يده بالخطاب فأخذه منه. قرأه بسرعة، ثم ألقى به على المكتب كمن يلقى بورقة فى سلة المهملات والتفت إلى الضابط تفضل يا حضرة الضابط، اجلس، سأتولى الكشف عليه بنفسى، كان أحد طلابى النابغين، له عقل يفكر، ربما تكون هذه مصيبته، ألن ترفعوا عنه قيود الحديد؟"

ظل الضابط واقفا دون حركة كأنه لا يعرف كيف يتصرف. تجهم وجه الأستاذ، وبدا عليه الغضب. قال بصرامة.

يا حضرة الضابط، ارفعوا عنه القيود الحديدية، فأنا لا أستطيع أن أكشف عليه وهى حول يديه". تقدم نحو الباب وأغلقه، ثم عاد "أين سيذهب منكم؟ الحجرة مغلقة وأنتم ثلاثة رجال مسلحين."

بدت على الضابط علامات الارتباك، واحمر وجهه. نظر إلى أحد الحارسين وقال "فك له الحديد".

أسند الحارس بندقيته على الجدار، وأخرج المفتاح من جيبه. حاول أن يفك الحديد بيده الحرة فلم يتمكن. تقدم نحونا الضابط وأخذ منه المفتاح. أمسك بيدى واضعا المفتاح فى الثقب وأداره ثم قام بإطلاق يدى الأخرى. أمسك الأستاذ بذراعى، وقادنى إلى كنبة للكشف تمتد عند الجدار فى ركن الحجرة. استنشقت رائحة التبغ الجيد تختلط بماء الكولونيا. على الجدار فوق راسى صورة ملونة لحكماء "بابل" يجرون عملية لأحد المرضى، فى يد واحد منهم منشار وفى يد الآخر سكين.

أخرج الأستاذ علبة سجائر إنجليزية من جيبه، قدم سيجارة للضابط ثم التفت إلى:

سيجارة يا سى شريف؟".

لا شكرا، ربما بعد أن تكشف على".

خلعت السترة، وعلقتها على شماعة تنتصب فى إحدى أركان الحجرة. أخرجت قدمى من الحذاء، وفككت أزرار البنطال قبل أن أرقد فوق الكنبة. أسدل الأستاذ الملاءة البيضاء على الجزء الأسفل من جسمى. لمحت الحارسين يقفان أمام الباب، وقد تدلت من يديهما القيود المفكوكة، فبدا عليهما الهوان، والبؤس.

مال على الدكتور "الشربينى"، وعيناه تفحصان وجهى. ألمح فيهما سخرية صامتة.

"هه، قل لى، ماذا بك؟"

"أشعر بدوار مستمر، وغثيان، ويزداد علىّ الهزال".

منذ متى؟

"أربع شهور أو أكثر".

"وقبل ذلك؟".

"لا شىء".

"هل هناك ألم؟"

"نعم هنا". أشرت بإصبعى إلى الناحية اليمنى من بطنى أسفل الضلوع . "ألا تشكو من شىء آخر؟"

"نعم، من الإمساك المستمر".

"ألم تلاحظ تغييرا فى بياض العينين أو لون الوجه؟"

"لا أرى عينى أو وجهى فى السجن"

صمت لحظة كأنه يفكر فيما قلته. لم يعلق.

"طيب ولون البول؟"

"طبيعى".

"هل هناك أنواع معينة من الأكل تتعبك؟"

"لا".

"ولا أكل الدسم، أو البيض، أو شرب اللبن؟"

"لا آكل الدسم أو البيض، ولا أشرب اللبن. طعام السجن لا يخرج عن العدس والفول، والعسل الأسود. العسل الأسود يسبب لى بعض المغص ربما لأنه حامض".

"ماشى على ريجيم يعنى. اكشف عن بطنك".

أحسست بأصابعه القصيرة تضغط على جدار البطن برفق. تطلعت إلى وجهه المنكب على فى استغراق. تتبعت نقاطا صغيرة سمراء تسبح فى مقلتيه. فوجئت به يغمز إلىّ بإحدى عينيه من طرف خفى، ثم غرس أصابعه فى الجزء الأعلى من بطنى أسفل الضلوع، قائلاً "خذ نفسا عميقا، وطلعه. فيه حاجة هنا؟"

زممت على شفتى كأننى أشعر بألم شديد .

"فيه ألم شديد تحت أصابعك".

"هم، صفه".

"كالدمل العميق" .

"حسنا، قم اجلس وانحنِ إلى الأمام" .

صار يفحصنى من ظهرى، ثم عندما انتهى أمرنى.

"يمكن أن ترتدى ملابسك" .

عاد إلى مكتبه وجلس. أشعل سيجارة ونفث منها سحبا كثيفة من الدخان. وضع العلبة إلى جواره، ثم استدرك وقدمها إلى.

"خذ سيجارتك" .

أشعلها لى بولاعة فضية، ثم أشار إلى بالجلوس أمام المكتب. ضغط على جرس خلف مقعده، وبعد قليل فتح الباب فكاد أحد الحارسين أن ينكفئ على وجهه. ظهرت ممرضة صغيرة الحجم فى فتحة الباب، وقالت فى همس مذعور دون أن تنظر إلى أحد.

"نعم يا بيه".

"اطلبى من الدكتور "علاء" أن يحضر. قولى له الدكتور "الشربينى" عايزك حالا، وخلى الست الحكيمة تجيب لنا إذن دخول، وتبعث لنا فنجانين من القهوة.. نظر إلى وسأل.

"سكرك إيه"؟

"على الريحة" .

"يبقوا فنجانين على الريحة".

هكذا دخلت إلى مستشفى القصر العينى. كان ذلك سنة ١٩٦٠ وكان الدكتور "مصطفى الشربينى" يعلم جيدا أن حالتى الصحية طبيعية تماما، لكنه أراد أن يمنحنى إجازة من السجن.

خصصوا لى حجرة منفردة تتفتح نوافذها على الشرفة أمام النيل، وظللت هناك مدة تزيد عن تسعة أشهر إلى أن رحلتنى السلطات إلى "سجن المحاريق"[١]. خاطبته المباحث العامة عدة مرات شفهيا، وعن طريق المراسلات الرسمية حتى يخرجنى من القسم، ويعيدنى إلى السجن. فى كل مرة كان يوقع على تقرير يشير فيه إلى ضرورة استمرار العلاج لاشتباه وجود حالة مزمنة فى المرارة، أثرت على الكبد، وإلى ضرورة إجراء فحوص، وتحليلات جديدة غير متوفرة فى السجن، هذا فى الوقت الذى خضع فيه جميع الأساتذة الآخرين لضغوط المباحث العامة، وأخرجوا الحالات التى طلب منهم إخراجها، رغم أن نسبة منهم كانت تعانى بالفعل من أمراض خطيرة.

عندما عجزت السلطات عن التأثير عليه لجأوا إلى تكوين لجنة بقرار من مدير المستشفيات الجامعية خصصت لفحص المرضى من المسجونين والمعتقلين الذين يعالجون فى القصر العينى، وقررت هذه اللجنة إخراجهم جميعًا بما فيهم أنا. لم تبال اللجنة بآراء الأطباء

(١) فى أقصى جنوب الصحراء الغربية.

المعالجين. عندما ناقشه بعض أعضائها قائلين له أن موقفه يضرهم جميعًا، لأنه يشكك فى نزاهة الطب سخر منهم وقال:

"وهل النزاهة قاصرة على موضوع المسجونين. يوم تصبح المباحث العامة، ومن يتعاونون معها هى الجهة التى تقرر من هو المريض ومن هو السليم فما الذى سيبقى من مهنة الطب، ومن كرامة الطبيب؟".

طوال المدة التى قضيتها تحت إشرافه فى القسم ترك علاجى للأطباء الذين يعملون تحت رئاسته، وظل يتصرف فى أمرى من بعيد. لم يدخل غرفتى سوى مرة واحدة. فى أحد الأيام سمعت أصابع تنقر على الباب، ثم فتح على مصراعيه لأفاجأ به واقفًا أمامى، وأنا راقد على السرير. دارت عيناه حوله الحجرة بتلك النظرة الفاحصة التى تفيض بالضحك الصامت، ثم استقرتا علىَّ. سأل.

"هه. ازى الحال؟".

قلت.

"كويس متشكر.".

"مش عايز حاجة ياسى شريف؟".

"لا شكرًا".

صمت لحظة كأنه يبحث عما يقوله.

"طيب سلام عليكم".

وقبل أن أتنبه كان قد خرج من الباب بخطواته السريعة..

كان هناك أستاذ للأمراض الباطنية اسمه "أنور المفتى" . صورة فى ذهنى توحى إلىّ بأن أول لقاء تم بينى وبينه كان فى أحد عنابر مستشفى القصر العينى القديم عندما كنت طالبا فى السنة النهائية لكلية الطب. هذه الصورة محاطة بالغموض فمستشفى القصر العينى كان بناءً عتيقا يكاد ضوء النهار لا يصل إليه. يضيع أغلبه وهو يخترق زجاج النوافذ المدهون باللون الأزرق رغم انقطاع الغارات الجوية فلا تبقى إلا أشعة هزيلة تجتاز الردهات قبل أن تتسرب من باب العنبر لتصل إلى السرير الذى أتذكر أننا وقفنا حوله نستمع إلى الدرس الذى كان يلقيه. المرضى كالأشباح معالمهم تظهر، ثم تختفى فى الظلال. أرى ساقًا هنا، أو وجهًا هناك، أو أنفًا، أو عينًا، أو رأسًا يبرز من تحت الغطاء. حتى الطلبة، والطالبات ضاعت معالمهم. الوحيد الذى أرى وجهه بوضوح هو "أنور المفتى" يقف تحت المصباح المتدلى من السقف العالى كالممثل الذى يسلط عليه الضوء بينما باقى المسرح يغط فى الظلام.

عندما أعود إلى الوراء يبدو لى أنه لم يكن مشرفًا على المجموعة التى كنت أنتمى إليها وأن حضورى فى مروره كانت مسألة نادرة تتوقف على الصدفة.

كنت معروفا بين أساتذة كلية الطب، فأنا ابن الأسرة الإقطاعية والطالب المجد أول الدفعة، الذى ضحى بمهنته ومستقبله، وأصبح "شيوعيا" ودخل السجن، ثم هرب فى حادثة مشهورة كتبت عنها جميع الصحف، ثم سافر إلى باريس وعاد خلسة بعد سنة ونصف ليظل مطاردا إلى أن أعادوه إلى السجن. وكان هو أستاذا مرموقا للأمراض الباطنية، نال حب واحترام الكثيرين بسبب مكانته العلمية وجهوده فى التدريس. يعطى الجزء الأساسى من وقته للعمل فى كلية الطب مضحيا بالكسب المادى فى سبيل العلم، ويجمع بين التواضع والنزاهة، وحزم الرجل المستقل.

فى نوفمبر سنة ١٩٥٣ بعد أن عدت من منفاى فى "باريس" قبض علىّ فى قضية أطلق عليها اسم "قضية الجبهة"، وعلى أثر ذلك وضعتنا المخابرات، أنا وباقى المتهمين فى السجن الحربى. ظللنا فى هذا السجن ما يقرب من ستة شهور إلى أن نقلنا فى شهر مايو ١٩٥٤ إلى سجن مصر. كانت تجربة قاسية، واجهت فيها مختلف الضغوط، وتلك الأنواع من الإهانة، والتعذيب التى يجيدها ويعشقها الكثيرون من رجال المخابرات، والمباحث والمسئولين عن أمور السجن. شحذت إرادتى وقواى حتى أقاوم القسوة التى كانوا يمارسونها ضدنا، عزمت ألا ينالوا منى شيئا فقد كانوا يبحثون عن ثغرة يمرون من خلالها ليحولونى إلى أداة، إلى معترف أو جاسوس .

لكن بعد أحداث مارس سنة ١٩٥٤[1] لم يكن من الممكن الاستمرار فى الأساليب نفسها، ولا فى الإعداد لنوع المحاكمة التى كانت السلطات تعدها لنا، فقاموا بنقلنا إلى "سجن مصر" حيث تحسنت المعاملة عنها من قبل، ففتحت علينا الأبواب فى ساعات معينة، وتوقف التعذيب الجسمانى؛ والنفسى.

نتيجة هذا التغيير فى الظروف حدث ما لم أتوقعه. دفعتنى الأوضاع القاسية فى السجن الحربى إلى شحذ كل قواى للتغلب عليها، لمواجهة التحدى ثم لما خف الضغط الواقع على أصبحت كالزورق الذى وصل بر الأمان بعد اجتياز المحيط. أرخيت الحبال التى كانت مشدودة إلى آخر مداها. أخذت تنتابنى فترات من الضعف الشديد، والهبوط تكاد تصل إلى حالة من الشلل الكامل كأن الوظائف الطبيعية للجسم حدث فيها خلل. أظل راقدا على سريرى، أو على الأرض مدة قد تمتد إلى ساعتين أو ثلاث عاجزًا عن الحركة، عاجزا حتى عن النطق. إذا حاولت أن أنقل يدى، أو قدمى أشعر كأننى أنقل كتلة ثقيلة من الصلب. نبضى يصبح واهنا يكاد يتلاشى كأننى بلا نبض، وتنفسى يسرع بالتدريج أو أشهق كالباحث عن هواء بعد غلق الثقب الذى كان يتنفس منه. أشعر أننى أتأرجح على شفا الموت، فإذا لم أتشبث بكل ما أملك

(١) تمرد عدد من الضباط الأحرار بقيادة محمد نجيب وبمشاركة الوفد والإخوان المسلمين والشيوعيين.

من يقظة وقوة سأهوى إلى قاع مظلم لن أعود منه. بعد ذلك تسيطر على نوبات من البكاء أحاول أن أكتمها، فتسيل الدموع على وجهى. يمر الوقت وبالتدريج أكف عن البكاء، وأسترد قواى. أتثاءب عدة مرات متتالية ثم أعود تقريبا كما كنت.

أدركت أن استمرار هذه الحالة ينذر بالخطر، لكنى وقعت فى حيرة. لا أريد أن أكشف عن حالات الضعف التى تصيبنى أمام الآخرين، مسألة تتعلق بالكرامة، وعزة النفس، فأنا الطبيب الذى يلجأون إليه عندما يعانون من شىء، ومندوبهم الذى يتفاوض مع الإدارة باسمهم. أنا فى وضع مسئول ولى سمعة أحرص عليها بين زملائى وبين كل من فى السجن. والحالة النفسية فى السجن مسألة حساسة مثل الحالة المعنوية للجندى وسط الجنود، فى ظروف السجن كما فى الحرب ينتقل اليأس بسهولة مثل الفيروس، والاحتكاك اليومى مع الناس يزيد من أهمية النموذج القوى يبث روح المقاومة، بينما النموذج الضعيف يبث اليأس.

دارت هذه الخواطر فى ذهنى، فقررت ألا أبوح لأحد بما أعانى منه. حرصت على إخفاء النوبات التى تصيبنى. عندما أحس بها تزحف على، أرفع "البطانية" على وجهى، وأتظاهر بالنوم إلى أن ينتهى كل شىء. مع ذلك كنت معرضا فى أية لحظة لانكشاف أمرى، فقد يصر أحد زملائى على إيقاظى ليطلب منى شيئا يتعلق بالمسئوليات الموكلة إلى.

بمرور الأيام أدركت أننى أصبت بحالة طارئة من "الانهيار" أو "الاكتئاب" النفسى تتطلب علاجا سريعا قبل أن تتفاقم خصوصا فى ظروف السجن، وأن على أن ألجأ إلى شخص يعرف ما أحتاج إليه لعلاج الحالة النفسية التى طرأت على دون أن يكون بالضرورة أخصائيا فى الأمراض النفسية، فالأهم أن يكون ممن أستطيع أن أرتاح إليهم، وأثق فيهم، ليساعدنى فى اجتياز الأزمة المؤقتة التى أعانى منها.

كان يوجد فى السجن طبيب جراح اسمه الدكتور "إبراهيم زكى". شاب من الصعيد نشأ بينى وبينه ود وتعودت أن أذهب إليه فى مستشفى السجن لأطلب منه بعض الخدمات الصحية الخاصة بالمسجونين السياسيين، فإذا وجدته وقد انتهى من أعماله اليومية نجلس سويا فى غرفة العمليات على مقعدين تحت أشعة الشمس. يرسل فى طلب قدحين من القهوة، ونتحدث حديثا هادئا يعيد إلى الإحساس بإنسانيتى. أستمع إلى نبراته الصعيدية، وضحكاته بشعور من الراحة فقد كان صاحب سجية عفوية، وقدرة على المرح نادرة فيمن يمارسون مهنة الطب وخصوصا فى السجن.

فى يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩٥٤، حيث الشمس ساطعة ، لكن البرد يظل يتسرب إلى الزنازن، توجهت إلى المستشفى بخطوات بطيئة متلكئة فى الحوش لأمتص الدفء. وجدته فى غرفة العمليات، فأجلسنى أمامه إلى أن ينتهى من تصريف بعض الأوراق. تطلعت إلى وجهه ذى البشرة الناعمة السمراء الخالية من الشعر، وإلى ملامحه الصغيرة الحجم فيها دقة تقاطيع

البنات. تجعله يبدو أصغر من سنه، متورد الوجنتين، مرتاح البال. بعد أن انتهى من آخر ورقة التفت إلى:

"جلى بجا إيش اللى جابك اليوم، ضربتو المأمور، ولا ضربكم؟ جاتلك بواسير من الفول؟ "يضحك كالطفل "الشقى". قدم لى سيجارة وأشعلها. أخذت منها نفسا، قبل أن أجيب.

"لا دى ولا دى، عايز منك حاجة تخصنى".

"عايز إيه؟ ما تجول".

"أنا تعبان، تعبان قوى".

اختفت الابتسامة من وجهه ونظر إلى بجدية .

"أنت؟!"

"نعم أنا"

غلبه المرح من جديد.. وضع يده على ركبتى وسأل ضاحكا من جديد.

"مالك؟ بجيت مرخى ولا إيه؟"

قلت:

"لا.. لسه".

"أمال إيه؟"

أخذت نفسًا أخر من السيجارة، فدارت رأسى. انتظرت لحظة ثم بدأت أحكى له. ظل يتابعنى بإنصات دون مقاطعة مثبتا نظرة عينيه على الأرض، رافعا إياها إلى وجهى فى تساؤل بين الحين والحين. عندما انتهيت سألنى.

"وعايزنى أعملك إيه، يا ولداه؟ عندنا طبيب أمراض نفسية.."

قاطعته

"أنت أعلم بمن هو أخصائى الأمراض النفسية فى مصلحة السجون، ثم لا أريد أن يقال عنى أننى أصبت بانهيار عصبى، سيشهرون بى، وحتى زملائى لن يفهموا المسألة كما يجب أن تفهم".

"طب والحل، مانجدرش نحولك للعلاج خارج السجن من غير ما تمر عليه".

"ربما نستطيع إحضار أحد الأطباء من الخارج للكشف على".

"هذا ممنوع والمصلحة مش حتوافج. طول عمرك صاحب خيال واسع يا ولداى. أنت متعرفش السجن حدانا ولا إيه؟"

"نجيبه بطريقة غير رسمية".

"إزاى بجى يا بنى؟"

تدخلنى مستشفى السجن.. وبعدين تبعث إليه لكى يحضر لزيارتك زيارة شخصية، وهكذا التقى به"..

"يا سلام، عايز تودينى فى داهية، وتلبسنى بدلة زيك كده" ضرب كفا بكف ثم ألقى إلىّ نظرة فاحصة وسأل:

"ومين يا سيدى الطبيب اللى حيوافج على كده؟"

لا أعرف لماذا جاءنى اليقين أننى إذا طلبت "أنور المفتى" لن يتردد فى الحضور. قلت:

"الدكتور أنور المفتى".

"اشمعنا ده يعنى، هو طبيب أمراض باطنية مش نفسية".

"عارف".

"أمال طالبه ليه"؟

"لأنى حأدر أتكلم معاه".

ظل صامتا مدة طويلة فظننت أنه سيتهرب منى. ثم سمعته يقول:

"نجيبك المستشفى بكره. بس حنجول عندك إيه، تنفع بروستاتا عشان أقدر أجول بعد كده أنى حطيط صباعى فى أست الزعيم شريف حتاتة". ضحك ضحكة طويلة.

"بروستاتا تنفع لكن مش حخليك تكشف على أبدا، هو أنت تعرف حاجة فى الطب؟"

"خلاص يا سيدى، بلاش كشف، وبلاش "أنور المفتى" كمان. ده شرط. مش حاسيبك تخرج من السجن إلا بعد ما أكون كشفت عليك من ورا" ورنت ضحكاته المرحة عالية. فتح الباب واطل منه أحد الأطباء، وقال:

"عدونى معاكم يا ناس ننسى الجو الزفت اللى إحنا فيه".

هل كان اللقاء الذى تم بينى وبين الدكتور "أنور المفتى" فى السجن هو أول لقاء؟ كيف أفسر أننى طلبته بالذات دون أن تربطنى به أدنى علاقة؟ أجهدت ذهنى طويلا حتى أكتشف الحلقة المفقودة، ولكن دون جدوى، فعندما التقيت به بدا لى أننى أعرفه منذ زمن.

شربنا القهوة مع "إبراهيم زكى" ثم تركنا وحدنا وانصرف بحجة تصريف بعض الأمور العاجلة. جلست إلى جواره وحكيت له عن حالى بالتفصيل. سمع منى دون أن يقاطعنى. سألنى عما جرى فى السجن الحربى، عن طفولتى، وعن أمى وأبى، عن الحزب، وعن الضغوط التى تعرضت لها فى حياتى. أحسست أنه يحاول أن يضع إصبعى على بعض الأشياء دون أن يفصح عنها بصراحة. ربما رأى أن الحقيقة يجب ألا تأتى مرة واحدة، وخصوصا فى ظل ظروف السجن، فهل أستطيع أن أحيا فيه بعيون مفتوحة تمامًا؟ لكن أسئلته أعادت إلى جزءًا من الذاكرة فقدتها.

بعد أن انتهى منها أخذ يحدثنى عن بعض مشروعاته، عن عمل اجتماعى طبى فى القرية، عن الكلية، وعن زملائى. قضى معى أكثر من ساعتين كأنه نسى ما كان ينتظره خارج البوابة التى دخل منها فى الصباح. استغرق فى الحوار يدور بيننا كأننا نجلس فى نادى النقابة. أحسست بالراحة، بالسكون تغلغل فى أعماقى. أرى رأسه الكبير راسخا فوق كتفيه، ووجهه الأسمر مثل الأرض المكشوفة فى الحقل، وأرى عينيه، عين تتفرس فى بنظرة فاحصة، وعين ترحل بعيدا عنى كأنها تبحث عن شىء. قبل أن ينصرف قال:

"لا تقلق، مسألة بسيطة للغاية".. أخرج ثلاث علب من الحقيبة التى كان يحملها معه كأنه سأل "إبراهيم زكى" عن حالتى قبل أن يجىء ليعرف ما قد أحتاج إليه. " هذا الدواء، ملعقة ثلاث مرات فى اليوم بعد الطعام وإذا احتجت شيئا آخر اطلب من الدكتور "إبراهيم" أن يتصل بى".

تتبعتهما وهما يهبطان على الدرجات "إبراهيم زكى" ضئيل الحجم خفيف الحركة كالفراشة، وهو مربع الجسم ثقيل الخطوات. عدت إلى العنبر، جلست على حافة السرير، وخلعت حذائى، فتحت إحدى الزجاجات الثلاث فجاءتنى رائحة تفاح، ملأت ملعقة صغيرة بالسائل الأسمر وأفرغتها فى فمى، فسرى الدفء فى جوفى، وتسلل إلى أطرافى.

فيما بعد عندما كبرت أمى وأصابها المرض أرسلتها إلى عيادته، فى ميدان الأزهار، ظل يرعاها ويستجيب لكل طلباتها رغم إلحاحها المبالغ فيه أحيانا. عندما مات ظلت تنعيه، وتتحدث عن كرم أخلاقه كلما جمعتنا جلسة فى بيت الزمالك.

هكذا تولدت فى ذاكرتى الصورة الثانية الغامضة فى مسلسل اللقاءات التى تمت بينى وبينه، كأنها مجرد أحلام تأتينى من الماضى، صورة للعيادة التى اصطحبت أمى إليها فى الزيارة، صالة انتظار مفروشة ببساطة فيها بعض المقاعد المصنوعة من الخشب الغامق، وستائر مرسومة بزهور حمراء، وصفراء، وبعض النباتات، ومنضدة وضعت عليها مجلات مصورة بمختلف اللغات لم يمر على صدور أى منها أكثر من بضعة أيام.

أراه جالسا خلف مكتبه المغطى بالأوراق، وبعض الكتب، وعينات من الدواء. أستمع إلى أمى تصف شكواها ثم أرقدها على منضدة الكشف برفق، وأخذ يفحصها دون استعجال. عندما انتهى من الكشف عليها قال:

"أنت فى أحسن حالاتك، كل ما تحتاجين إليه هو الحرص فى الأكل، لكن مباح لك بعض التجاوزات من حين لآخر، عندما تتناولين وجبة مع الأصدقاء، أو فى النادى يوم الجمعة. المهم هم عدم المبالغة فى الكميات، والدهون، وأرجو أيضا أن تتناولى الدواء الذى سأكتبه بانتظام، قرص ثلاث مرات بعد الأكل، وملعقة كبيرة من هذا السائل فى الصباح."

المرة الأخيرة التى التقينا فيها كانت بعد خروجى من السجن. ظللت بلا عمل لمدة شهرين فأصابنى قلق. كنت فى حاجة إلى قدر من الاستقرار حتى أعود إلى الحياة الطبيعية التى حرمت منها سنوات. لم أكن أريد أن أفتح عيادة لإدراكى أن العمل فى العيادة يتطلب أن أتفرغ لها تماما إذا أردت أن أؤديه بنجاح، فكنت لا أزال مهتما بالنشاط السياسى. كنت أريد عملاً يترك لى فرصة لإشباع اهتماماتى الأخرى، وكنت أعلم أن "أنور المفتى" أصبحت له اتصالاته مع الجهات العليا[1] وأن قرار عودتى إلى العمل بعد السجن مسألة لها طابع سياسى، فقررت أن أذهب للقائه، فهو لن يغرقنى بالوعود الكاذبة، أو يجرح كبريائى أو يتركنى دون أن يفعل شيئا.

اتصلت به تليفونيا فى العيادة فى بداية شهر يناير سنة ١٩٦٤. رحب بى، وأبدى شغفه للقائى، فاتفقنا على أن أذهب إليه فى مستشفى القصر العينى بعد أن ينتهى من مرور الصباح.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة عندما اجتزت الكوبرى الصغير، واقتربت من البوابة الحديدية يحيط بها جموع الناس. على يسارى "كازينو" يمتد بطول الشاطئ أمام قصر المنيل لم يكن هناك عندما كنت أسكن فى بيت النواب. ألمح الموائد، والمقاعد والشماسى الملونة. شاب يقرأ فى كتاب، ومن حين لآخر يرنو بعينيه من فوقه إلى الفتيات اللائى يخرجن من القصر العينى جماعات، وقد حملن على أذرعهن المعاطف البيضاء. على أحد الموائد جلس عاشقان ينظر كل منهما إلى الآخر فى وجوم صامت كأنه حدث بينهما خلاف. أكواب الشاى والبرتقال تلمع فى الشمس فوق المناضد، وعلى بعد خطوات رجال ونساء وأطفال يجلسون على الرصيف محملقين أمامهم فى بلادة كأنهم لا يعرفون متى سينتهى الانتظار فسلموا أمرهم للزمن يفعل بهم ما يشاء، وعربات اليوسفى، والبرتقال، وكشك خشبى متحرك يبيع أطباق الفول والطعمية والبيض المسلوق والباذنجان، سلال السميط والأقراص، واللب، وفول السودانى

(١) أصبح طبيب عبدالناصر الشخصى.

تتحرك فوق رءوس البائعين، وعند الأبواب يقف الحراس فى المعاطف البيضاء، وتطل من عيونهم نظرات النهم للقروش تدفع للمرور من الباب قبل ميعاد الزيارة.

سرت فى الطريق بين طوابير السيارات. على يسارى تمتد الملاعب، وعنبر تبديل الملابس حيث عقدت أول اجتماعات الطلبة فى صيف ١٩٤٥. هنا فى مبنى القصر العينى عشت أيام الدراسة، والامتياز والنيابة، وأجزاء صغيرة من فترة الاعتقال. هنا أفلت من قبضة الحراس فى شهر رمضان. هنا عشت عذاب الشك فيمن كنت أحبها، واكتشفت أن الحب الحقيقى يقاوم شهوة الامتلاك. القصر العينى جزء من تاريخى تشكلت أثناءه أشياء مهمة فى حياتى. عندما أسير فى ردهاته، أستعيد مشوار السنين والشباب.

أسرعت الخطوة. الساعة تجاوزت الحادية عشرة. أحب هذا المستشفى الضخم وأكرهه، أكره الصديد والدم فى الجراح، ورائحة الليزول مختلطا بالتراب، وقشور البيض وأعقاب السجائر الملقاة فى الأركان، والمرضى كالأشباح فوق الأسرة والضوضاء يوم الزيارات، وأصوات النساء ساعة استلام جثث الأموات وأنات الألم، وأزيز النقالات تنتقل بعجلاتها الصدئة فى الممرات، والأطباء بمعاطفهم البيضاء والسماعات، يتصرفون بذلك الخليط من الاستعلاء على المرضى، والخضوع للرؤساء الذى غرسه كبار الأساتذة فى أجيال الشباب.

دلفت من باب القسم إلى حجرة الحكيمة. لا أحد هناك، فاتجهت إلى اليمين وتوقفت فى مدخل العنبر الطويل تمتد الأسرة على جانبيه. طبيب ينتقل من سرير إلى سرير ويسأل المريض عن حاله، وعن الدواء، ثم يفحص الأوراق، ويكتب بضع كلمات، وممرضة تضع مقياس الحرارة فى فم رجل أشيب الشعر جلس القرفصاء، لكن لا أثر للطلبة أو "لأنور المفتى". اتجهت إلى العنبر الآخر بجوار حجرة الأستاذ. لمحته واقفا عند أحد الأسرة محاطا بالطلبة والطالبات، يشير بإصبعه القصير الأسمر إلى الفجوات بين ضلوع المريض كأنه يعدها، ثم ينظر حوله كأنه ينتظر الإجابة على سؤال.

عدت أدراجى وجلست فى حجرة الأستاذ. سيفرغ من الدرس بعد لحظات، إذا تأخر لن أضيق بانتظاره.. أشعر بالراحة لهذا اللقاء، لا يضيرنى أن أطلب مساعدته فهو يدرك الأشياء. لا أعرف ما أنا مقدم عليه، فأنا فى سن الأربعين لكنى مثل الشباب الذى يبدأ حياته. أتصرف بالإحساس، وإحساسى يقول لى إننى أستطيع الاعتماد على كلامه.

دخل إلى الحجرة فجأة فقطع على تأملاتى. قمت أصافحه فشد على يدى بحرارة وأخذت عينه الثابتة تفحصنى قال:

"الحمد لله على السلامة. غبت عنا طويلا، وأخيرا عدت، أهلا بك، اجلس يا دكتور شريف، اجلس"، مشيرا إلى الأريكة التى قمت من عليها عندما حضر.

أغلق الباب ثم سحب مقعدا، وجلس أمامى. عينه تستأنف فحصها المتأنى، مقلتها السوداء "كالمسمار" تحاول النفاذ.

"لا الحمد لله، أمسك الخشب، تبدو على ما يرام. مازلت كما كنت لم تتغير".

"لا تغيرت".

"من الداخل إذن، ولكن كلنا بنتغير. المهم هو الاتجاه، ويهيأ لى أننى أعرفك، ربما المسألة لا تتعدى قليلا من التعب بعد فترة السجن الطويلة هذه. استرح وادرس المسائل، تغيرت هى أيضا".

يرفعنى إلى أعلى، يبث الثقة فى نفسى، هكذا دائما.. لا يلقى على المحاضرات الطويلة، والنصائح عن ضرورة الاستقامة، وخطأ الطريق الذى اخترته لنفسى.

صمت لحظة ثم قلت.

"أعرف أنك مشغول، ولا أريد أن آخذ من وقتك الكثير."

"خذ من وقتى كما تشاء بعد كل هذه السنين، إنها فرصة لكى أتكلم معك، متى خرجت من السجن؟".

"منذ أكثر من شهرين، يوم ٦ نوفمبر الماضى بالتحديد".

"وكيف وجدت الحياة"؟

"أتعود عليها بالتدريج".

"بالطبع، غبت عنا مدة طويلة. كم سنة بالضبط؟"

"ست عشرة سنة تقريبا".

"كل هذه المدة؟ الزمن يطير بالفعل، ستجد بلدا آخر غير الذى كنت تعرفه".

"أحسن؟"

زاغت عيناه إلى النافذة المفتوحة كأنه يبحث عن إجابة.

"من بعض الوجوه، لكنى قلق".

"مما؟".

"من التسلط، وعدم تحمل الرأى المختلف".

"ربما يكون هذا ضرورى".

نظرت إلى عينه كأنها تشفق على :

"أنا لست رجل سياسة.. أما أنت.. على أى حال ستحكم بنفسك."

لم أفهم لماذا كان يبدى هذه الشكوك. كنت أرى الصورة وردية، فيها أحلام التعاون بين اليسار والحكم للانتقال إلى الاشتراكية. قلت لنفسى، إنه رجل حسن النيات، ولكنه محدود النظرة للمسائل العامة، يحكم حسب وضعه كأستاذ فى الجامعة، وطبيب ناجح، أما أنا فماركسى، والماركسية تعطينى قدرة على فهم ما يحدث. لم أعط وزنا لكلامه، طردته من ذهنى، فالمسائل بالنسبة إلى محسومة. هل أدرك ما يدور فى ذهنى ولم يرد أن يقول شيئا، أم هو الحرص الذى يسود بين الذين لهم علاقة بالحكم، ويعرفون أن للجدران آذانًا؟ هل استشف بذكائه المعهود أننى جئت لسبب آخر غير الحديث عن الأوضاع السياسية السائدة؟ قال:

"أخبرنى عما هو أهم. ماذا تفعل منذ أن أفرج عنك؟"

"هذا بالتحديد هو ما جئت لأستشيرك فيه".

عينه الشاردة مازالت هاربة فى المساحات الخضراء خارج النافذة.

"وما الذى أستطيعه أنا فى هذا الشأن؟".

"أنا بلا عمل حتى الآن، ربما تستطيع أن تساعدنى فى هذا المجال" .

"هل فكرت فى نوع العمل الذى تريده؟" .

"عمل فى الحكومة" .

ظل صامتا كأنه فوجئ، أو أحس بنوع من التحفظ أبى أن يعبر عنه. سأل.

"ولماذا لا تفتح عيادة"؟

"أنا لا أتصور العودة إلى ممارسة الطب مع المرضى بعد كل هذه المدة، أريد عملا لا يستغرقنى طول الوقت" .

لم يسألنى لماذا. ابتسم ابتسامة خفيفة. قامت عينه الثابتة بجولة سريعة حول الحجرة ثم عادت إلى.

"هل عندك فكرة عن متاعب العمل فى الحكومة؟"

قلت بحماس:

"البلد سائرة فى طريق التقدم، وكل شىء يتوقف على الجهد. الجهد المخلص يم ـ ن يذلل كل العقبات".

عينه ترمقنى بهدوء. مال إلى الأمام وربت على ساقى فى ود. أحسست أن لديه كلاما يمكن أن يقوله، لكنه قرر أن يحجم عنه، أن يترك الأمور عند هذا الحد. لم أساله، ولم أتنبه إلى ردود أفعاله، إلى نظرة فى عينه، أو سؤال، أو لحظة صمت. ذهنى بدأ يعمل فقط فيما بعد، ويتذكر تفاصيل اللقاء، ليدرك أن هناك أشياء مهمة فاتت على فى هذا الوقت "فأنور المفتى" كان يريد أن يقول لى: "لديك مهنة تستطيع أن توفر لك الاستقلال. فلماذا تلقى بنفسك فى مصيدة العمل الحكومى، وتخضع للقهر والتحكم، وسيطرة ذوى الكفاءات المحدودة، وأنت تملك القدرة على شق طريق مستقل؟"

ربما كان على حق، فقد ظهر أن تجربة العمل الحكومى التى عشتها فيما بعد مصيدة بالفعل. نفعتنى كدرس وكخبرة فى الحياة، وكمادة غنية للكتابة، لكن فى ذلك الوقت كان تكوينى يجعلنى أنفر من العمل المستقل، وأبحث عن الأطر التى يمكن أن أستند إليها، عن العمل الجماعى، فى هيئة، أو مؤسسة، أو إدارة، أو حزب. لم أكن قد أدركت بعد أن العمل الجماعى يمكن أن يكون مجرد شكل، أو إطار يعوق النشاط والإبداع، أن العمل المستقل قد يفتح أمامى آفاق الإنتاج والخلق. ربما أيضا كنت أريد من خلال العمل الحكومى أن أقترب سياسيا من الحكم.

مر بذهنى فقط تساؤل سريع لم أتمعنه. لماذا يصمت؟ شعرت بشىء كالهم المفاجئ يهبط على ملامحه. دق على جرس المكتب. فتح الباب ودخلت ممرضة ألقت ألى بنظرة مستطلعة من بين رموشها الطويلة حتى انتهى من قراءة ورقة أخرجها من جيبه.

سألها..

"هل حضر الدكتور "هشام؟"

"نعم حضر".

"اطلبى منه أن يعد أوراق المريضة "إنصاف" التى حولت إلينا من قسم ٣٣".

التفت إلى

"آسف تذكرت حالة حولت إلينا منذ يومين. حالة غريبة فى القلب تستحق أن تتطلع عليها إن كان لديك الوقت، آه، أين كنا؟"

أخرج مفكرة من جيبه. فتحها ودون فيها شيئا ثم قال:

"سأتصل بك بعد أسبوع. أعطنى رقم تليفونك".

قلت:

"٨٠٥١٤٦ هذا بيت والدتى، وأنا أقيم معها".

دوّن الرقم فى المفكرة، وأعادها إلى جيبه.

"وكيف حال والدتك؟"

"على ما يرام. شكرا".

قمت، ومددت يدى إليه. قال مبتسما:

"سعدت بلقائك، وإنشاء الله تتحقق الأشياء التى تريدها".

بعد خمسة أيام رن التليفون فى بيتنا. كان المتحدث الدكتور "أنور المفتى"، طلب منى أن أتوجه إلى مكتب "على صبرى" فى سراى القبة بعد ثلاثة أيام. قال:

"سينتظرك مدير مكتبه "حامد محمود" فى الساعة العاشرة صباحا، وسيطلب منك أن تحدد العمل الذى تريد أن تقوم به فى الوزارة".

الفصل الخامس

ستى عيشة

دلفت إلى الكوخ القابع بين الأشجار، كأنه يتوارى عن عيون الناس. أحسست بالدفء بين جدرانه الطينية تتخللها أعواد التبن مثل الشعيرات. هنا أستطيع أن أحتمى من الرياح المحملة بالصقيع أومن رذاذ المطر يسقط من سماء داكنة، يحول التراب إلى عجين ، والأحذية إلى كتل ثقيلة عند آخر السيقان، فتتعثر حركتها وهى سائرة. على الجدران ألمح رفًا خشبيا طويلا وضع عليه أكواب صغيرة، وعلب صفيح وأطباق حط فوقها الذباب، وبعض الملاعق اصطبغ معدنها الرخيص بلون الشاى. فى أحد الأركان منضدة تميل أرجلها على ناحية، وتحمل موقدا للكيروسين، وضع فوقه براد كبير حاصرته سحب الدخان وألسنة اللهب فتحولت أغلب أجزائه إلى اللون الأسود. تحت المنضدة عدد من "الجوز" لشرب الدخان المعسل راقدة على جنبها فوق الأرض، وقد برزت منها مباسمها المصنوعة من البوص، كأنها لفظت أنفاسها الأخيرة. فى الجدران مسامير طويلة علقت عليها أحبال من التيل، ومنفاخ كور، وكنك للقهوة وشمسية سوداء اللون مثل تلك التى يحملها "الخولى" عندما يذهب إلى "الغيط"، وخارج الكوخ بمساحة مربعة من الأرض تحو لت إلى بركة طينية محاطة، ومسقفة بالبوص الطويل. فى المربع أربع مناضد قديمة تحول خشبها إلى لون باهت يختلط فيه الأبيض، بالرمادى، وحول المناضد مقاعد من القش من النوع المستخدم فى المقاهى الريفية.

كان يطلق على هذا المكان اسم "قهوة بدوى" ولكن الناس كانوا يسقطون كلمة قهوة ويكتفون بقولهم "عند بدوى". اما "بدوى" فكان رجلا فى الأربعين من عمره، يرتدى طاقية صوف تغطى أذنيه فى الشتاء، ويستبدلها بطاقية أخرى قطنية فى الصيف. جلبابه مثل طاقيته يغيره حسب الموسم. أما وجهه فليس فيه شىء ملفت للنظر، وجه ممسوح لا ينطق سوى بالإذعان. عندما التقيت به أول مرة كان شابا، ولكن لسبب لا أعرفه ظهرت عليه علامات الكهولة فى مدة وجيزة، ربما بسبب الحادثة التى أصابته. عدت فى الإجازة الصيفية لزيارة قصيرة فوجدته يعرج. سألته عن السبب فأخبرنى أن سيارة أجرة صدمته على الطريق وهو "يعدى" دون أن يلتفت.

كان "بدوى" من أعلم الناس فى قرية "القضابة" بشئون الدنيا، فحدود العالم بالنسبة إلى أهل "القضابة" لم تكن تتعدى "كفر الزيات" التى كانت هى المركز إذ ذاك، يترددون عليها لقضاء مصالحهم. إذا قدم أحد من "القاهرة" أو من "طنطا" غالبا ما يتوقف عند "بدوى" ليتناول كوبا من الشاى، ويستريح قليلا قبل أن يستأنف طريقه إلى الدار. قد يكون أحد الموظفين جاء لزيارة أهله، حاملا معه بعض الهدايا، وخزينا من الأخبار، والمعلومات، أو طالب مثلى حضر لتمضية بعض الأيام بين أهله، وأقاربه قبل أن يعود إلى المدرسة أو الكلية، أو مالك يقيم فى المدينة ويأتى فى موسم جنى المحصول، وقبض المستحقات، وهناك العشرات من سكان القرية يروحون، ويجيئون باستمرار للقيام بعمليات البيع والشراء، أو لحضور الجلسات فى المحكمة، أو متابعة شئونهم فى "طنطا" و"كفر الزيات" أو لأنهم يعملون فى أماكن أخرى فيتوجهون إليها فى الصباح ويعودون إلى "القضابة" بعد الظهر، أو فى نهاية النهار، وأغلب هؤلاء يجلسون لبعض الوقت فى "مقهى بدوى" فهو المحطة التى تتوقف عندها سيارات الأجرة، والأتوبيسات. يتبادلون الأخبار، أو يعقدون الصفقات أو يتسامرون حول أكواب الشاى أو الحلبة الساخنة، أو يطفئون عطشهم فى الأيام الحارة من الزير الكبير الموضوع تحت ظل شجرة الجميز.

كان الرواد أساسا من الموظفين أو الطلاب، أو الأعيان، فالفلاحون ليس لديهم فسحة من الوقت للجلوس فى "مقهى بدوى" لأن عملهم يمتد من بزوغ النهار حتى سقوط الشمس خلف الأشجار، وليس لديهم النقود لشراء قدح من البن المطحون بالحبهان، أو الشاى الأسمر بالنعناع، وهم لا يعقدون الصفقات، أو يفكرون فى الاستمتاع بنسيم العصارى فى شهر رمضان، أو بألوان الغروب تشتعل أو تنطفئ فى السماء، فيومهم كله عمل ولا ينتبهون إلى هذه الأشياء وإنما يلتقطونها على أطراف الإحساس دون أن تدخل دائرة الإدراك. إنها جزء طبيعى من الحياة وإذا استنشقوا هواء الصباح فى تأمل صامت فإنما لأن التنفس ضرورى للحياة، أو لأنهم يخلصون أنفسهم بالتدريج من ثقل الليالى السوداء.

كنت أنا أيضا من رواد هذا المقهى، اشعر نحوه بحنين غامض. يذكرنى، وأنا فى المدينة بلحظات خالية من القلق، برائحة الياسمين وزهوره البيضاء المغسولة فى الندى. الصباح عند "بدوى" فيه رقة لم أشهدها من قبل أو من بعد، والحديث معه يجلب الراحة، والشاى فى أكوابه له طعم خاص.

أركب "الأكسبريس" من "القاهرة" إلى "طنطا" جالسا إلى جوار النافذة وفى "طنطا" استقل قطار "الدلتا" يسير بسرعة تزيد قليلا عن سرعة الدابة، فتستغرق المسافة من محطة "طنطا" إلى رصيف "بسيون" ثلاث ساعات وأحيانا أربع.

أجلس على الدكة المصنوعة من ألواح خشبية تفصل ما بينها الفراغات، ألمح خطوطها على لحمى عندما أخلع الملابس فى الدار. تتأرجح بى العربة ذات اليمين وذات اليسار كأنها ستخرج

عن القضبان، وأترك نفسى للبرسيم، والفول، والقطن، وشواشى الذرة فى الغيطان، لروائح الأرض، والزرع، والروث، والحطب، لرائحة الحياة تتخمر ، وتتبدل، وتنمو، وتضمحل، وتموت، لتنبعث من أعماق الأرض.

عندما أهبط فى "بسيون" أجد العربة الحنطور فى انتظارى، أو أستقل سيارة أجرة ماركة "فورد" تتقدم بعجلاتها العالية فوق الطريق. أنحشر فى هيكلها المنفتح وسط زحام البشر ينتشرون فوق المقاعد وفى الفجوات التى تفصل بينها، وعلى السقف والرفارف، والسلالم، والجزء الأمامى والخلفى من جسمها، فوق كل مساحة يمكن الجلوس، أو الوقوف، أو "القرفصة" فوقها، أو العثور فيها على موطئ لقدم. لكن الناس لا يعاملوننى مثل سائر الركاب. أنا ابن "البك الكبير" صاحب الدوار الممتد على شاطئ الترعة. يفسحون لى مكانا على المقعد الأمامىّ إلى جوار النافذة. يقولون فى صوت يكاد يكون واحدا، "وسعوا للبيه علشان يقعد، أتفضل يا بيه مكانك أهو". لا أرى شيئا غير الوجوه و"الطواقى"، والشوارب والجلاليب، والأيدى تلتف أصابعها حول أى شىء لتمسك به. تختفى روائح الخضرة الطازجة لتحل محلها روائح التراب، والخبز الفلاحى الجاف، والدخان، والعرق، ولكنى لا أضيق بها، أو بهم، ففى هذه الرحلة إلى قريتى أعود إلى الأشياء البدائية النابضة بالحياة.

أهبط من السيارة خارجا من تحت إبط، أو ساق، أو جلباب لف نفسه حولى. أعبر الطريق مارا أمام الجالسين فى مقهى "بدوى" ملقيا عليهم السلام، ثم سائرا فى ممر ضيق بين صفين من البوص، ألمح بين شقوقه أشجار البرتقال،والجوافة، والليمون، واليوسفى، أو تكعيبة عنب، أو قرون اللوف المتضخمة قبل أن تنفجر لتكشف عن لبابها. الممر يتسع بالتدريج ليصب فى حوش مستطيل إلى جوار "وابور الطحين". هنا تنتظر نساء القرية دورهن لطحن الغلال التى حملنها فوق رؤوسهن من الدار. يجلسن فى دوائر وعندما أمر تخفت الأصوات، وتتجه النظرات بعيدا عنى كأنهن لم ينتبهن إلى مرورى بجوارهن، وبعد أن أتجاوزهن بمسافة صغيرة تقترب الرءوس فى حديث هامس قبل أن تعود أصوات النداء، والضحكات لترتفع فوق صفارات وابور الطحين اللاهثة.

الممر يصب فى الشارع الرئيسى للقرية تمتد على جانبيه بعض بوابات بيوت الأعيان. أنحرف قليلا لأتفادى طلمبة المياه تتجمع حولها الفتيات لتملأن الصفائح والأوانى، والطشوت. تغسلن أقدامهن قبل مغادرة المكان، وتنثرن رذاذات لامعة من المياه. ترن ضحكاتهن عالية ولكنها تخفت فجأة عندما أقترب ويسود ذلك الصمت الفجائى الذى يعبر عن خلل أصاب السريان الطبيعى للأشياء، عن قهر يربض بثقله عليهن، على حق المرح، والضحك، على حق الإنسان فى أن يكون بريئا، تلقائيا فى حياته.

بعد قليل أجد نفسى فى قلب القرية، سائرا فى حارة طويلة بين صفين من الأكواخ، تنفتح أبوابها كالأفواه الفاغرة، وتنحدر عتباتها فجأة لتغوص فى الظلمات. أشق طريقى بين أكوام السبخ وأسراب الأطفال، يكشفون عن بطونهم، وأردافهم ويدسون أصابعهم الصغيرة فى الروث والطين، ويتبولون، ويتبرزون فى العراء، أو يقرفصون على الأرض ويعجنون قليلا من التراب والماء كأنهم يصنعون كعك العيد، أو يجرون هنا وهناك، تحيط بهم سحب الذباب كثيفة سوداء فيختلط طنينها المتصل بصرخاتهم فى سكون القيلولة الحار.

أتخطى برك المياه الملقاة أمام الأكواخ تتصاعد منها رائحة نفاذة من الصابون، المختلط بالبصل وبقايا الطعام. الدجاج يقفز من تحت أقدامى بسيقانه الرفيعة، الهوجاء، أو تسد طريقى مواكب البط تختال فى غباء، أو الكلاب النحيلة البائسة تنبح بشراسة مفتعلة بعد أن أتخطاها، أو ترمقنى بعيون ذليلة فيها استعطاف، فالعيون والفتحات كلها مسلطة على فى حصار، تراقبنى وتتبع خطواتى المسرعة فوق التراب، عيون العجوزات الماكرة تشبه الذباب، وأفواه العجوزات الخالية من الأسنان، وعيون الأطفال تتأملنى فى استطلاع، والأبواب تطل منها عيون غامضة لا أميز أصحابها فى الظلام، وعيون الدجاج والبط تتفرس فىَّ بتلك النظرة المذعورة البلهاء.

بين الحين والحين ترتفع أيدى الرجال بالسلام، تتردد أصواتهم فى نبرة ممطوطة كأنها صاعدة من مكان عميق، وهم يمرون فى الحوارى دون أن ينظروا إلى فأشعر أننى أتحرك فى الماضى، فى حلم قديم تخطاه الزمن، وتركه وراءه، فى عالم غريب من الأشباح لا أنتمى إليه، ولا توجد بينى وبينه أدنى علاقة.

هنا القبح والفناء لا تخفف عنهما أشعة الشمس، أو قطعة سماء، أو فرع شجرة أو ابتسامة ترحاب تعلو الشفاه. حتى البراءة فى عيون الأطفال يسترها الذباب. خلف العيون يختفى العداء، فأنا وريث الإقطاع، وابن من أبنائه.

أخيرا أصل إلى البوابة، فأتنفس الصعداء. أضرب بقبضتى عليها عدة مرات وأصيح "عم عبد الله". أسمع المزلاج الخشبى يرتفع من مكانه يتلوه صرير المفاصل الشاكى. يفتح الباب كاشفا عن رجل عجوز، أشيب الشعر، والشارب، يرتدى عمامة بيضاء، وجلبابا ممزقا رفعه أعلى ركبتيه برباط من التيل. قدماه وساقاه ملوثة بالطين كأنه كان يروى أرض الدوار. عندما يرانى يفتح الضلفة بسرعة إلى آخر مداها لأسير فوق الممشى الممتد أمامى. على يسارى سور من الطوب الأخضر تعلوه عروق من الخشب أطرافها المدببة تمتد نحو السماء، وعلى يمينى حقل من البرسيم تجتازه نسمات الريح فينحنى أمامها. أقطف زهور الياسمين الصاعد فوق السور وأتلكأ فى خطواتى لأطل من خلال الفتحات على أشجار الفواكه فالبستان يمتد من عند البوابة حتى البيت الداخلى الكبير ألمح نوافذه من بين رءوس النخيل.

أتوقف أمام السلاملك، مبنى من دور واحد مربع الشكل مقام على مساحة كبيرة من أرض الدوار ومكون من جناحين يتوسطهما فناء داخلى واسع. حول الفناء تمتد المصاطب الخشبية على الجدران. الفناء ينفتح من الناحية البحرية على المساحة المزروعة بالبرسيم، ومن الناحية القبلية يضيق مارا بين أربع غرف للتخزين تسع عربة الحنطور، والكاريته، وأجزاءها الجلدية المختلفة وسيورها وعجلاتها، وبعض الأثاث القديم، ثم يصب فى الحوش الداخلى الكبير للدوار حيث توجد غرف أخرى للتخزين وزرائب للمواشى، واصطبلات للخيل، وأبراج للحمام، وعشش للدجاج والبط وطلمبة للمياه تصب فى مسقى طويل مبطن بالإسمنت، وقاعة كبيرة للعجين وأخرى للأفران والطبخ، ومخازن صغيرة للاستعمال اليومى تحتوى على أجولة الدقيق، وصفائح السمن والجبن، وبلاليص العسل والسمن "وقفف" من الفول، والأرز، والعدس، والذرة، والقمح، وكميات من الثمر الناشف والسمسم، والسكر، والملح.

أسرع الخطى مارا أمام الفناء الداخلى للسلاملك حتى لا يلمحنى أحد من الجالسين على المصاطب المغطاة بفرو الخراف، والأغطية الملونة المنسوجة من صوف الجمال تتدلى منها الشراشيب الحمراء، بالمساند المزركشة توضع خلف الظهر أو تحت الذراع، ففى هذا المكان تعود رجال الأسرة استقبال الزوار الذين يأتون بسبب نزاع حول قصبة من الأرض أو حول ماء الرى، أو جاموسة مسمومة فى أحد الديار، أو خلاف بين الأقرباء بسبب الزواج، أو لمجرد تبادل الأخبار، والسمر، وقضاء الوقت، فهذا اللقاء بين الرجال جزء من الحياة اليومية للدوار، وكل يوم يأتى بجديد ويتطلب الاحتكام إلى ذوى السلطة، والرأى السديد، والواجب يفرض على أن أسلم على رجال الأسرة وأعيان القرية قبل أن أتوجه إلى البيت حيث الحريم والأطفال، وإذا سلمت عليهم فلا بد من الجلوس لبعض الوقت وتلقى التحيات، والإجابة على تساؤلاتهم حول ما يجرى فى البندر، وفى حياة العاصمة هناك، وكل هذه الأشياء تستغرق وقتا، فالناس هنا ليسوا على عجلة من أمرهم، وأنا لا أحضر إلا كل حين وحين. سأسمع عتابا حول غيابى الطويل، ونصائح عن ضرورة الود مع أهل البلد والسؤال عنهم، وأهمية الحرص على علاقات الدم، والنسب، بينما أنا أحضر إلى البلد لسبب، وهذا السبب هو جدتى التى أصابها ورم خبيث فى عظام الذراع يفترس ما تبقى فيها من لحم، وينمو باستمرار ليأكل فى جسمها المنكمش.

لكنى لا أستطيع أن أقاوم إغراء الوقوف قليلا تحت شجرة الجميز ترتفع فى الجزء الخالى من الحوش بين البرسيم وجدران السلاملك الصفراء اللون قبل أن أنحنى إلى اليسار لأدلف من باب البستان. أتوقف تحتها، أرفع رأسى إليها، أتأمل قبتها الملونة، المطرزة، وأوراقها المرتعشة فى ضوء الشمس مثل آلا ف العيون الخضراء، جذعها مفتول وأغصانها المورقة تتحدى السماء، لا أحد يستطيع أن يقتلعها من مكانها، توحى بالأصالة والقدم فقد ولدت قبل أن أولد وربما بقيت بعد أن أموت. أستنشق النسيم تحتها. أستمد منها الثقة، وأختزن الراحة والهدوء قبل أن

أذهب لملاقاة الألم، لملاقاة تلك المرأة العجوز ذات الوجه الصارم المرح، والعينين الصغيرتين فيهما سواد الليل فى البلد، وبريق الشمس لا القمر. أحتضن القوام القصير المنكمش فى الثوب الخشن، أمتص رائحة اللبن، والحطب، أتطلع إليها تجىء وتروح بخطوة هادئة، تدير شئون الأسرة والبيت، تسوس خمسة من الرجال وثلاثًا من النساء عرفوا بصعوبة المراس، فإذا ما تحدثت استمعوا، وإذا ما طلبت من أحدهم أن يفعل شيئا فعله، ليس بسبب الرهبة وحدها، ولكن لقدرتها على الحب القوى، وميزان للعدالة عندها لا ينثنى.

تجلس فى قاعة الطعام على رأس المائدة، تلقى إلينا بنظراتها الخاطفة من عينين لم تعودا تريان الأشياء جيدا، تستمع إلى الأحاديث بابتسامة متباعدة، كأنها ليست لها علاقة بما يدور من حولها، فأشعر أن روحها تفلت منا إلى عالم آخر غير عالمنا، إلى مكان آخر غير مكاننا، وعندما ننتهى من الطعام تقوم إلى الكنبة البيضاء العالية، تسند ظهرها على الوسادة وترفع قدميها تحت ثوبها الأسود، تغلق جفونها فألمح وجهها حجرا أبيض منحوتا ملفوفا فى طرحة الموت.

كان شهر رمضان. انتهينا من إفطارنا. جلست على الكنبة وأنا إلى جوارها أناولها قرصا من التين الناشف، أو حبة من اللوز أو الفستق المقشر أضعها فى كفها تلمس أصابعى سطحه الخشن. لا أحد غيرى يطعم هذا الجسد المنكمش فهى شديدة الاستقلال، شديدة الاعتماد على النفس، تملك عزيمة لا تنثنى، ولكنى بالنسبة إليها غير كل الأحفاد، غير كل الأبناء والبنات فى الأسرة. ألأننى الذكر الذى سيرث اسم الأسرة و"أمجادها"لأ؟ ربما، ولكن ليس هذا وحده، فبينى وبينها تفاهم صامت ولد منذ لقائنا الأول فى بيت "الجزيرة" يوم أن جئت إليها طفلا حملته سفينة عبر البحار.

أزاملها منذ بداية النهار. تصحو مع صياح الديكة لتصلى الفجر، ثم تهبط على الدرجات الحجرية المرتفعة مسندة نفسها على الحاجز الخشبى القديم يهتز تحت يدها. أسمع صوت الطقطقة بقلب واجف يخشى أن يتهاوى الحاجز بها. نذهب سويا إلى الزريبة لتشرف على حلب الجاموس تبث فى خوفا غامضا بعيونها الخرساء تحملق فى وكأنها تضمر لى شيئا. أتتبع الخيوط البيضاء تندفع من الضرع الممتلئ لتصب فى أوان من الفخار وتكون على السطح طبقة فائرة من اللبن. تنحنى جدتى وترفع إحدى الأوانى عن الأرض وتضعه بين يدى لأشرب منه ثم ننتقل إلى قاعة الأفران تخرج من فوهاتها أقراص الخبز. على الأرض صوان سوداء ألمح فيها الفطائر المعجونة بالقشطة، وكعكا صغيرا محشوا بالعسل، والسمسم، والرقاق تختفى فى ثناياه طبقات اللحم المفروم بالبهارات، والبصل.

من هذه الأفران الثلاثة تنبعث روائح الطفولة. الطعام الذى كان ينضج فيها يختلف عن أى طعام تناولته فى حياتى. زرت كثيرا من القرى، والمدن، أكلت فى عشرات البيوت، وسافرت متنقلا بين بلاد العالم، رحلت من "الهند" إلى "الفلبين" ومن "تايلاند" إلى "أمريكا". عشت فى

"باريس" و"لندن" وتجولت فى شوارع "روما" و"أثينا" و"أمستردام" و"برلين". تناولت طعامى فى البيوت، والمطاعم والفنادق الهندية، والصينية، والإيطالية، والفرنسية، والتركية، واللبنانية، والمكسيكية، لكن رائحة الطعام فى أفران جدتى "عيشة" ومذاقه ليس لهما مثيل. قد يتعلق بالشباب، بالطفولة، بالصحة، والعافية، بالحنان يتسرب من الأصابع التى صنعته وبالرغبة فى الإتقان، بالنظرة إلى الحياة، بالخضراوات، واللحوم تحمل معها طزاجة الحقول وألوانها، بصغر عمر الذبائح، بالطهو على نار هادئة، بالعيش فى اللحظة الحاضرة، بكل هذه الأشياء تصنع نسيجا واحدًا.

أنا لا أستطيع أن أصف الرائحة التى كانت تنبعث من أفران جدتى، رائحة واعدة تتسلل إلى، تفتح المسام، وتثير العصارات، رائحة كالرغبات القوية فى الحياة، رائحة القدم، والحضارة، والقدرة على الاستمتاع قبل أن تنال منها تكنولوجية السرعة وإلحاح الطموحات.

أمسك بيدها ونخرج إلى البستان، نتجول بين أشجار البرتقال، واليوسفى، والمانجو، والرمان. أتطلع إلى النخيل يرفع رءوسه فى سماء بنفسجية اللون تتسلل إليها إشعاعات حمراء. تنزع ثمرة جوافة ناضجة، تمسحها على جلبابها وتعطيها إلى صغيرة، مستديرة ناعمة، أقضم بأسنانى فى لحمها الطرى.

أكاد لا أختلط بأحد غيرها، فبالنسبة للآخرين أظل زائرا غريبا على القرية والناس، لا تقوم بينى وبينهم علاقات. أرى الفلاحين من بعيد وهم عائدون من الحقول طوابير، يركبون الحمير، ويسحبون المواشى والدواب من خلفهم بتلك الحركة البطيئة المتأرجحة الحاملة للأحمال التى تسد الحوارى فى نهاية النهار، أو وهم يرفعون الفئوس وينهالون فى غضب مكتوم على الأرض السمراء، أو عندما يتوضئون بمياه القنوات قبل الصلاة، أو يقرفصون حول أبواب البيوت فى المساء.

لا أتحدث إليهم أبدا، ولا يتحدثون إلى. أكتفى برد تحية الرجال عندما يقفون احتراما لابن الأكابر الذى يسكن ذلك الدوار الضخم المعروف بكثرة من الخدم وقلة من العبيد، وسعة من المخازن والزرائب، وحلاوة الفواكه المزروعة فى بستانه.

أسهر إلى جوار جدتى عندما يشتد عليها الألم، فأنا أعرف ما تعانى، مع ذلك لا يصدر عنها إلا أنين خافت، يكاد لا يسمع. تبقى طوال الليل دون أن يغمض لها جفن لتبدأ اليوم الجديد مع صلاة الفجر.

لما ماتت لم أنتبه إلى الحدث، وكأن ذهنى كان غائبا. أتذكر فقط وجوه النساء الكالحة، "والصوات"، وفراغ أخذ يملؤنى. نما حبى لها مع السنين، مع إدراكى لما كانت تعنيه بالنسبة إلى، ومع احتياجى إلى جدة أستطيع أن أقيم معها علاقة رغم أنها ماتت منذ سنين، فهل توجد طفولة دون جدة تغذيها..

شخص آخر يخرج من ضباب الماضى، وأنا أكتب، تشير إليه جدتى بيدها وكأنها ساحرة، تجعله يصعد إلى خيالى من بئر خفى، مرفوع القامة، حاد الملامح، تشع عيناه من تحت الحاجبين بضوئها الأخضر، فأندهش كيف احتوته فى بطنها.

كان "عمى عاطف" هذا يرى أن الله يحكم فى السماوات، وأن المالك خليفته فى الأرض، أن للفلاح حقوقاً قررها العرف، يجب أن يحصل عليها لا أكثر ولا أقل، فإذا ما حاصره المرض، أو سوء الحظ عليه أن يمد له يد العون. المالك مسئول عن رعيته لأنه بدونه يصبح بلا سلطان، وبلا وضع. كان الأعيان يخشونه فهو شديد البأس، يحكم بالعدل وفقا لقانون وضعه الإقطاع، وفى حدود هذا القانون يجب أن يحصل كل طرف على نصيبه بلا تسويف، أو تأجيل، أو محاولات للنصب. كانت عدالته تبيح ظلم الاستغلال ولكن وفقا للنظم والقيم التى يجمع الناس بأنها حق، ولهذا السبب كانت كلمته نافذة شأنه شأن العادل المستبد.

هذا الرجل كان يتميز بقدرة على القسوة والعنف، لكنه يصبح ودودا، ورقيقا إذا ما وقف بين يدى "جدتى عيشة" تأمره بصوتها الهادئ فيه نبرة نحاسية من الحزم، فيطيع وكأنه طفل لم يخرج عن طوعها بعد، فهى تتمتع بسلطة النساء الكبار فى الأسر الإقطاعية الكبيرة الحجم خصوصا بعد أن مات زوجها، فصارت مثل كوكب الشمس تدور حوله الأرض، مثل العامود الفقرى للأسرة تمتد منه وإليه كل الأعصاب لتغذى الجسم، علاقات غريبة فيها رقة الحرير وحدة النصل، فيها قهر مغلف بالحب وقدرة على القتل.

لم أكن أخشاه، أو أخشاها قط، فأنا طفل ولا أعرف أسرار، وعلاقات ورموز البيئة التى هبطت عليها من حضارة الغرب. أنا الحفيد الأكبر المحمول على الكف. أشعر وأنا مع جدتى بالألفة، والاطمئنان، وأشعر مع "عمى عاطف" بأننى فى كنف رجل قوى، يحيطنى بالحب، ربما لأنه عاش بلا طفل. تزوج امرأة تركية كحيلة العين، بضة الجسم، تزوجت من قبل، وأنجبت ولكنها لم تنجب منه. ظل وفيا لها، مستسلما للأمر، فقد كان يحبها بعمق، وكانت تبادله هذا العشق، وكان يعاملها برقة الأب المحب، ربما بسبب فارق السن.

أجلس معه على المصطبة، وأمامنا الحوش الممتد، يهتز بأمواج البرسيم الخضر، أسمع وشوشة الأشجار فى الريح، وصوته العميق الحلو، يتحدث إلى بينما يتابع بعينيه اليقظتين الحصان "ابن عقاب" تشتعل فروته فى الشمس، وهو يقفز بينما يلتصق "السايس" بظهره كالعلق، ويزعق فيه "عم عاطف" منبها.

"الحصان يريد أن يبول، صفر له، وقف".

يتوقف الحصان لحظة كالتمثال رافعا أذنيه فوق رأسه، برونزى اللون، ترتعش عضلاته تحت الجلد. أشعر به يهدأ، ويرخى جسمه قليلا ثم يبول سائلا أصفر فواراً يتدفق فوق الأرض، فكأن عمى أراح نفسه من عبء. يلتفت إلىّ ويقول:

"غدًا سآخذك معى على ظهر الفرس".

كلما حضرت إلى البلدة بحثت عنه، يملك بيتا كبيرا يتصدر بيوت القرية فى بداية المنحدر الذى يقود إليها هابطا من الطريق الزراعى الآتى من "بسيون". دهن بيته بلون أزرق سماوى ومربعات وردية لونها كإشعاعات شمس الخريف فى الفجر. أفرح عندما أجده جالسا تحت تكعيبة العنب على مقعد من الجريد وقد وضع إلى جواره منضدة عليها مفرش ناصع البياض، وطبق من البلح الزغلول، وقلة ماؤها معطرة بماء الورد. يضع يده على كتفى ويقول:

"هه.. كيف الحال؟"

يقودنى داخل البيت، إلى صالة ضخمة محاطة بالكنب تدور بياضاتها حول الجدران، وسجاد يغطى مساحات الأرض،ونجفة تتدلى من السقف العالى تضاء مصابيحها بالكيروسين، جو فيه هدوء الأشياء القديمة، ورسوخها المريح. فى الصيف تأتى صبية حاملة كوبًا من التمر الهندى المثلج فيه لسعة لذيذة الطعم وفى الشتاء كوبًا من الكاركاديه الساخن يرسل أحد أصدقائه ثماره إليه من الصعيد. بعد قليل يرتدى عباءته الصوفية، ويأخذ عصاته، ثم نتوجه سويا إلى الدوار الكبير سائرين فى الحوارى بين صفين من البيوت الطينية تتثاءب أبوابها كاشفة عن أشباح تتوارى فى ظلمات الحلق. تتردد تحيات الرجال فى كل خطوة نخطوها فوق الطريق. لذلك عندما أكون بصحبته اشعر بأهميتى تتضاعف، فيملأنى الزهو.

فى العيد يعطينى ريالات من الفضة فى كيس من القطيفة تحيط بعنقه ربطة من الحرير، وفى الصباح قبل الإفطار يأخذنى أمامه على مهرته، وينطلق بى إلى جوار الترعة. شبورة الصباح ترقد على سطحها كالغلالة البيضاء، وأنا كالطائر على بساط الريح، فوق رأسى أسراب العصافير، وعلى وجهى لفحات الهواء الندى.

كانت بالنسبة إلى أسعد اللحظات، تلك التى أقضيها معه راكبا على ظهر المهرة، أو فى الحنطور، أو سائرا إلى جواره فى الحقول، أو جالسا على المصطبة فى الحوش الكبير. لم يرتفع صوته على، ولم ينهرنى أبدا. كان يتعامل معى بذلك الود الذى يظهره نحو الكلاب والخيل وأحيانا نحو الآدميين الذين يأنس إليهم. كان يحب الإقدام، والشجاعة، ويحتقر الجبان الرعديد، يصبر على الفقير الذى يدافع عن حقه، ويعطف عليه. كان رجلا أحببته وأنا طفل، واقتربت منه خطوات أخرى عندما كبرت.

مدينة الأسكندرية، مدينة أحببتها وكرهتها فى آن واحد. لى فيها ذكريات تعود إلى فجأة وأنا فى بلاد بعيدة، فى القطار، أو فى الطائرة، أطل من الشرفة على الأضواء، كالعناقيد، أو عندما أسمع كلمة بوليس، أو مباحث. أتخيل البحر، على شفتى طعم الملح، ورعشة الشبق المراهق يستيقظ بعنف. فيها ضاع الحب، تبدد فى ظلام السجن، نسيته حتى لا يطعنى كالسكين الحاد.

١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٨. أخرجونا من البوابة الخشبية تئن بألم قديم، أغلقوا علينا صندوق الشاحنة الرمادية اللون سارت فى شوارع لا نراها، ودارت حول الميادين تنحرف ذات اليمين أو اليسار فنرتطم بجدرانها، تنقلنا كالذبائح من عنابر "الحضرة"[١] إلى "محكمة المنشية" حيث سنمتثل أمام القضاء.

وصلنا إلى المحكمة. هبطوا بنا إلى قبو تحت الأرض، أجلسونا على دكة من الخشب. مر الوقت ثقيلا إلى أن سمعنا صوت قائد الحرس صائحا من أعلى القبو.

"يالله يا إمباشى طلعوهم فوق بسرعة، أعملك كده همة على الصبح"

انطلق الموكب فوق السلم كأنه يهرب من النار، وجذبنى الشرطى من القيد الحديدى الذى أوثق به معصمى فى معصمه صاعدا فى اندفاع، فأحسست بألم كالسكين الحاد. توقفت عن السير فكاد أن ينكفئ على وجهه وصرخت.

"مهلا يا أخى، لست جاموسة حتى تجرنى على هذا النحو".

بدا على وجهه الغضب، لكنه أبطأ الخطوة. دلفنا من باب جانبى إلى قاعة المحكمة تتصدرها المنصة العالية، وتجتازها صفوف الدكك. مصابيح الكهرباء تضىء بلونها الأصفر تاركة أركان القاعة وجدرانها للظلام. جلست فى القفص وسرت أتطلع من بين القضبان باحثا عن وجه أعرفه. عند الباب جمع من المحامين يقفون كتلة سوداء تلتئم رؤوسها أحيانا ليتهامسوا ثم تتباعد فتعلو الأصوات. بين الحين والحين ينفصل أحدهم سائرا فى الممر بخطوة أثقلتها الحياة. نساء يمسكن بأطفالهن من أيديهم أو يحملنهم فوق الأكتاف، أو يجلسنهم فوق الدكك بعنف الحليم الذى وصل حلمه آخر مداه. جئن لإلقاء نظرة على ذويهم فى القفص، وإذا أسعدهم الحظ، وكان الضابط راضيا عن حركة التنقلات التى قرأها هذا الصباح، أو لم يتشاجر فى بيته، ربما سمح لهن بتبادل بضع كلمات مع رجلهم المحجوز فى القفص، وبلمسات تنقل الوجد، بدس الجنيهات فى يد الابن، أو الزوج، أو الأب الذى سجن لأنه أعلن رأيه فى شئون البلاد.

أراهن يزحفن بالتدريج ليقتربن من القفص. عيونهن القلقة تبحث عن ثغرة فى جدار العسكر. أدور بنظراتى على الوجوه باحثا. أمى لن تحضر من القاهرة، ولكن أبى، ترى هل جاء؟ مازالت تصل إلى الوجبات الثلاث بانتظام من مطعم "مصطفى درويش"[٢] لحم وأرز وخضار وحمام وأحيانا سمان يصطادونه بالشباك عند التلال الرملية التى تقع غرب "البياصا"[٣].

(١) السجن العمومى فى الإسكندرية.

(٢) الذى تم معه الاتفاق.

(٣) كلمة إيطالية تعنى الميدان.

الزنزانة التى أسكن فيها معروفة "بالعامود" الذى يدخل من بابها قبل "تمام" الظهيرة. فى جيبى دائما بعض النقود يرسلها إلى أبى مع أحد الحراس فى ظرف يكتب عليه المبلغ بخط يده دون أن يضيف إليه اسم المرسل إليه. يحتاط من هذا العالم المجهول الذى أدخلته فيه. حتى الآن لم يحضر لزيارتى فى السجن، بينما الأسر ذات الموارد المحدودة تأتى لزيارة ذويها بانتظام.

من بعيد لمحت رجلا مرفوع القامة يشق طريقه بين الناس نحو القفص كأن لا شىء يستطيع أن يقف دون أن يصل إلينا. طربوشه الأحمر يتقدم سابحا فوق الرءوس. أحسست بعينيه تستقران على وجهى لحظة فى نظرة سريعة يخبرنى بها أنه حضر، وأنه لا داعى للقلق، فمنذ الآن سيتولى هو تسيير الأمور. نظرة خاطفة رأيت بعدها بريق الغضب يشتعل فيهما، غضب عارم ، قاس كأن عقله انتقل إلى فكرة جعلته يتجه إلى قائد الحرس المنتصب على بعد خطوات قليلة من القفص. سمعت صوته يرن واضحا فوق الضجيج.

"يا حضرة الضابط، بأى حق تدخلهم قاعة المحكمة، وفى أيديهم الحديد؟"

التفت الضابط إلى الرجل الذى انقض عليه زاعقا بأعلى صوته، ملوحا بالعصا التى يحملها فى يده فاضحا إياه أمام الناس المتزاحمين فى القاعة. لمح الشر يتطاير من عينيه فشحب وجهه. دارت نظراته دورة سريعة حول القاعة كأنه يبحث عن مغيث أمام هذه الهجمة التى باغتته وهو مستغرق فى الحديث مع اثنين من زملائه. استقرت على وجه الشاويش الذى احتل مكانه عند باب القفص فى حركة غريزية طالما كررها لاجئا إلى مصدر الخبرة، تستسلم أمامه الرتب والنياشين. أشار إليه بحركة من يده فيها استعلاء يريد بها أن يخفى احتياجه إليه فتقدم نحوه "الجاويش" وهو يتباطأ. دار بينهما حديث هامس، على أثره أخرج الجاويش ربطة مفاتيح من جيب سترته المنتفخ ودخل إلى القفص. وقف برهة قصيرة يدور بعينيه على الجالسين فيه تطلعوا إلى ما يدور فى صمت مترقب ثم قال:

"كل عسكرى يستلم مفتاحه ويفك حديد المسجون بتاعه"، ثم أخذ يمر عليهم ليوزع المفاتيح، فارتفع ضجيج الأصوات تختلط بدبيب الأقدام فوق الأرض الخشبية.

صرخ الضابط يسترد هيبته بصوته العالى:

"مش عايز فوضى، إحنا مش فى سوق، عايز كل عسكرى يقفل بقه ويفتح عينه" .

ضغطت بأصبعى على معصمى وأخذت أدلك مكان الطوق الحديدى إلى أن سرت فيه الدماء وزال الألم. تطلعت إلى الرجل المرفوع القامة يطل من فوق قضبان القفص ويفحصنى بنظرة متأنية من عينيه الخضراوين سأل:

"كيف أحوالك يا سى شريف؟" ودون أن ينتظر ردا أشار إلى رجل اقترب من المكان الذى كنا نجلس فيه حاملا صينية نحاسية صغيرة عليها أكواب من الشاى.

"أنت يا رجل ياللى هناك، أيوه أنت بتاع البوفيه، هات للدكتور حاجة سخنة" أومأ برأسه ناحيتى، ثم استطرد "تشرب شاى ولا قهوة يا سى شريف؟"

"لأ شاى".

دارت عيناه على الجالسين معى فى القفص وسأل بصوت عال:

"إزاى الرجالة كويسين؟ شدوا حيلكم، بكرة تفرج، مش عايزين حاجة"؟

ودون أن ينتظر ردهم التفت مرة أخرى إلى رجل البوفيه وقال:

"هات لهم شاى" ألقى بنظرة سريعة ناحيتنا، وأضاف "زى عشرين كده، وهات سندوتشات، فول وطعمية، وجبنة رومى، وجبنة بيضاء، بتقول إيه؟ ماعندكش سندوتشات. اتصرف يا أخى". أخرج من محفظته جنيهين ومدّ يده إلى الرجل "بس هات حاجة نظيفة، وهات معاهم شوية طرشى، وعلبتين سجائر. كام سندوتش؟" صمت لحظة كأنه يحسب ثم قال: "زى خمسين كذا" حملق فينا بنظرة عينيه الفاحصة الخضراء وأضاف: "حد عايز حاجة تانية؟" .

هكذا فوجئت بعمى "عاطف" يقتحم المحكمة، ويعود إلى بعد غياب دام أكثر من خمسة عشر عاما فلم أره منذ أن كنت طفلا أتجول فى الدوار، وأركب أمامه على الحصان.

بين الحين والحين كنت أسمع عنه بعض الأخبار، ألتقطها أثناء الجلسات النادرة التى تجمعنى ببعض الأقارب، أخبار عن معركة تدور بينه وبين شقيقه الأكبر حول الميراث الذى ظل على المشاع منذ أن توفى جدى سنة ١٩٢٧ فعجز بقية أفراد الأسرة عن الحصول على نصيبهم فى الإيراد، وفى يوم من الأيام جاءنا خبر بأن أحد الأشقياء المأجورين أطلق عليه الرصاص فى البلد، وهو جالس على المصطبة أمام بيته، فاخترقت إحدى الرصاصات خده. قفز من جلسته والدماء تسيل منه بغزارة، وأخذ يعدو مطاردا الجانى حتى أمسك به الناس، واقتادوه إلى العمدة، فتعود إلى صورته وهو يرفعنى على ظهر المهرة الحمراء، مسلطا على نظرة عينيه الخضراء، مربتا على ظهرى، أو وهو يسير معى بين الحقول واضعا يده على رأسى كأنه يحمينى من مخاطر لا أراها، كان يقول دائما:

"يا بنى، الحيوان ليس فيه شر مثل الإنسان، عامله بطيبة، ولا تفاجئه بما ليس فى الحسبان".

أراه منتصبا فى قاعة المحكمة، مرفوع الرأس مشدود القوام كالرمح، مرتديا بزة الفرسان،عيناه كالفوهات الخضراء تختلط فيها السخرية بشىء كالإشفاق، أو التساؤل كأن

نظراته تقول: "مازلتم صغارا، وعودكم غض، إلى متى تقعون هكذا فى قبضة الأقوياء ليفعلوا بكم ما شاءوا دون أن يرحموا شبابكم؟".

إلى جواره يقف أبى، فى كتفيه زاد الانحناء، وفى مقلتيه الانكسار الذى يصيب الإنسان عندما يواجه موقفا يشعر بالعجز أمامه. لم يفق من الصدمة بعد، فذلك الابن الذى كان يتخيله ممسكا بين يديه بالمشرط الحاد، يجتث الداء وحول وجهه الكمامة البيضاء، وعلى جبهته عر ق النجاح تزيله له الممرضة بقطعة من الشاش، أو سائر فى عنابر المستشفى متنقلا بين أسرة المرضى وقد أحاطت به جموع الطلبة، والطالبات يشرح لهم، وهم يتطلعون إليه بإنصات، أو طبيبا مشهورا يسمع عنه كلمات الإطراء، وهو جالس فى "نادى سليمان باشا" مع الرجال الذين كانوا يحكمون مصر فى تلك الأيام، هذا الابن يراه الآن واقفا خلف القضبان، موثقا بالقيود الحديدية كالحيوان تسوقه السلطات كيفما تشاء، وتمتهنه فى كل خطوة لأنه تجاسر على أن يحلم مع غيره من الشباب بمجتمع ليس فيه احتلال إنجليزى أو ملك أو استبداد.

كنت أحب أبى، وأتألم عندما أراه يحاول أن يبتسم، ويطرد الأحزان، ناظرًا إلى أحيانا بنظرة فيها استرحام، أو لوم يخفيه فى الأعماق. ربما لم أقدره حق قدره فبين الآباء والأبناء مسافة قد تتسع أو تضيق ولكنها موجودة دائما، اختلاف التجربة، والزمن، والموقف والأحاسيس. لم يلمنى أبدًا، ولم يجرح شعورى بكلمة تنم عن ضيقه بتحمل هذه الأعباء، والمتاعب الجديدة. حاول أن يخفف عنى وطأة السجن، وظل يوالينى سنة وراء سنة متنقلا من محكمة إلى محكمة، ومن سجن إلى سجن.

أما علاقتى بعمى "عاطف" فكانت مختلفة، طباعنا وأفكارنا متباينة إلى حد كبير، ومع ذلك يجمع بيننا التمرد، ورفض الاستكانة. لا نلتقى إلا نادرا ولكنه فى وقت الأزمات يأتى إلى، فهو الوحيد من أفراد الأسرة إلى جانب أبى بالطبع الذى زارنى فى السجن عدة مرات عندما قبض على يوم ٦ يونيو سنة ١٩٤٨، وهو الوحيد الذى حضر جلسات المحاكمة التى جرت بعد ذلك بستة شهور، أما الباقون فكأنهم "فص ملح وداب" كما يقول المثل. تملكهم الخوف إلى درجة المقاطعة التامة لوالدى والامتناع حتى عن مجرد السؤال، ولو بالتليفون، بينما ظل هو حتى آخر أيامه رجلا شهما فيه مروءة وكبرياء فسميت ابنى "عاطف" على اسمه تعبيرا عن اعتزازى بذكراه.

ظل واقفا إلى جوار المحامى "زهير جرانة" الذى وكلته للدفاع، وعندما جاء الدور على "عبد الفتاح حسن"[1] لم يتحرك من مكانه، واستمر ينصت إلى الدفاع والأسئلة الموجهة للشهود، والمرافعات، كأنه يتلقف كل كلمة تقال متكئا على عصاته بكلتا يديه، مائلا إلى الأمام برأسه فى

---

(١) ينتمى إلى أسرة (البس) وهى إحدى أسر بلدتى (القضابة) فتطوع للدفاع عنى وكان إذ ذاك مرشحًا من حزب الوفد لمنصب الوكيل البرلمانى لشئون وزارة الداخلية.

استغراق، مطلا على المحامى من عليائه، وكأنه فى صمته يبعث إلى الرجل برسالة فيها إنذار "إياك والفشل فى إخراج هذا الولد من براثن الأوغاد، لقد جئت لأعود به إلى أسرته. فإذا ظل محتجزا خلف القضبان سترون ماذا يستطيع أن يفعله بكم "عاطف حتاتة".

الناس من حوله يلقون ناحيته بنظرات خاطفة فيها تساؤل، ترى من يكون ذلك الرجل الشامخ ذو ملامح تشبه صقر الصحراء يقف خلف المحامى منتصبا هكذا دون حراك. أما هو فلا يلتفت إليهم كأنه لا يوجد فى هذه القاعة الفسيحة المزدحمة بالناس ما يستحق الاهتمام سوى الكلمات التى ينطقها بعناية المحاميان، أو كأن مصير الكون كله أصبح معلقا على هذه الكلمات وهى تنساب من بين شفتى "زهير جرانة" هادئة كقطرات الماء، أو تندفع من فم "عبد الفتاح حسن" بانفعال غاضب تدك صرح الاتهام، يتبادلان الأدوار أحدهما كالمخراز الحاد ينفذ فى صمت، والآخر كالمطرقة تتردد ضرباتها عالية فى القاعة.

عندما نطق رئيس المحكمة بقرار البراءة انفرجت أسارير عمى "عاطف" عن ابتسامة نادرة كالشمس تضىء صخور الجبل فى الصباح.

بنت المحكمة حيثيات حكمها على شيوع المضبوطات بينى وبين الشاعر "كمال عبد الحليم". كنا نقيم سويا فى شقة صغيرة بمنطقة "سيوف" فأنكرنا ملكيتنا للمنشورات والكتب والبيانات التى عثر عليها رجال البوليس السياسى عندما داهموا البيت، وكانت المحاكم المختصة بقضايا الرأى إذ ذاك محاكم جنايات عادية تتمسك بأن الإدانة فى هذه القضايا لابد أن تستند إلى أدلة قاطعة تخص متهم بذاته، وتثبت عليه، حتى تكون مسئوليته الجنائية واضحة تمامًا. أما فيما بعد عندما أصبح من المعتاد أن يحاكم المتهمون فى قضايا الرأى أمام محاكم "أمن الدولة" أو المحاكم العسكرية سقطت العديد من الضمانات القانونية. كانت هذه المحاكم تكتفى بالشواهد، والقرائن التى تشير إلى أن المتهمين لهم علاقة ما ببعضهم، وتعتبر أية مضبوطات فى القضية ملكا لهم جميعًا بوصفهم أعضاء فى تنظيم يربط بينهم اتفاق جنائى، وبهذا كان يمكن أن يدان أى متهم على أساس المضبوطات التى يعثر عليها البوليس عند غيره.

خرجنا أنا و"كمال" وأبى، وعمى من باب المحكمة. هبطنا الدرجات إلى ميدان "المنشية". أملأ رئتى بهواء البحر. ظهر القمر فجأة من خلف السحب. تملكنى إحساس بالنشوة، بالحيوية تعود إلى جسمى بعد أن قبع شهورا طويلة فى الزنزانة راقدا أو جالسا فوق الإسفلت، قدماى تدك رصيف الشارع بحركة حرة لا توقفها جدران.

سرنا نتحدث فى صوت واحد ونضحك كالأطفال. سعادة لا يعرفها إلا السجين ينطلق من خلف القضبان. ترتفع جلبة أصواتنا فى فوضى الانسجام، نطلق العنان للطاقة المكبوتة فى الأعماق، نمزق الصمت بأصوات الحياة. عمى يضغط على ذراعى كأنه يطمئنْ على وجودى بعد طول الغياب، على سلامتى بعد الفقدان، كأنه يقول: "أنت هنا الآن، ولن ندعك تفلت منا بعد

ذلك. لكن ثمة شعرة من القلق تتخلل إحساسنا بالسعادة. خامسنا ضابط فى البوليس السياسى. أعلنت الأحكام العرفية منذ ١٥ مايو ١٩٤٨ يوم تقسيم فلسطين والحرب الأولى بين العرب وإسرائيل وبمقتضى هذه الأحكام فإن كل متهم فى قضية رأى تفرج عنه النيابة أو المحكمة يعاد اعتقاله بأمر من الحاكم العسكرى.

كان أبى يحتل منصب وكيل عام ديوان المحاسبة فى وقت لم يكن يوجد فيه أكثر من وكيلين لكل وزارة، وكان على علاقة وثيقة "بأحمد عمار" وكيل وزارة الداخلية المسئول عن الأمن العام، فهما من رواد نادى "سليمان باشا" يسهران سويا ويلعبان "الكونكان" حول الموائد الخضراء. فاتحه أبى فى أمر القبض على، وسأله عن الاحتمالات، فوضح له أنه لا يستطيع التدخل طالما أن القضية بين أيدى القضاء، وأن السراية تتابع قضايا "الشيوعية" باهتمام، لكنه وعده بالسعى لإطلاق سراحى، إذا ما برأتنى المحكمة من التهمة الموجهة إلى، وهى محاولة "قلب نظام الحكم بالقوة والإرهاب"!!.

قادنا ضابط القلم السياسى إلى الحكمدارية. ونحن فى الطريق رجوت أبى أن يتدخل للإفراج عن "كمال" فكيف أخرج أنا حرا طليقا، بينما يساق هو إلى معتقل "الهايكستيب" فوعدنى بأنه سيخاطب السلطات إذا ما أتيحت له فرصة لذلك.

عندما وصلنا إلى الحكمدارية صعدنا إلى الطابق الأول، وجلسنا ننتظر فى حجرة استقبال كبيرة أحاطت بها الأرائك، والمناضد من كل جانب. توجه أبى بصحبة السكرتير إلى مكتب الأميرلاى "زهران رشدى" رئيس القلم السياسى لمدينة الإسكندرية. كان قلقا شاحب الوجه، كارها اللقاء الذى سيتم. عرض عمى أن يصطحبه، لكنه رفض خوفا مما قد يبدر منه إذا لم يعجبه استقبال أو كلام "زهران بك" لهما. عاد إلينا بعد قليل، وأبلغنا أن اتصالا سيتم "بأحمد عمار" فى القاهرة لمعرفة الإجراء المطلوب تنفيذه فيما يخصنا، وطمأننى أبى بأنه لم ينس أن يسأل أيضا عن الوضع الخاص "بكمال" الذى ترك أمانة فى أيدى أبى يذهب به حيث يريد، على أن نعود بعد ساعتين لمعرفة ما تم.

قررنا أن نتوجه إلى أحد المطاعم لنتناول العشاء. جلسنا إلى جوار النافذة. فى أذنى وشوشة أمواج البحر، وفى أنفى رائحة اليود، والملح، والليمون، والبصل الأخضر يختلط برائحة الجنبرى المشوى، والبربونى الصخرى أدغدغه بأسنانى وأتركه ينزلق فى الحلق، ألمح عيون السمك تنظر إلى كالعدسات الملونة، تطل من بين أطباق السلطات والمخللات والأرز، أشعر كأننى فى حلم فكل شىء يتحرك ببطء يتركنى أمعن النظر فيه، وأستطعمه، كمن يعود إلى الإحساس بالحياة بعد الغرق فى بئر، لكن فى أعماقى يظل سؤال يروح ويجىء على أطراف الوعى، يجعلنى لا أصدق أننى هنا فى هذا المكان مع أبى وعمى "وكمال"، أنظر من النافذة إلى

البحر ويأتينى صوت الأمواج، أحكى الحكايات، وأضحك وأحتسى أكواب البيرة بنهم إلى السكر، فأنا لم أخرج من السجن، ما زال يلوح فى الأفق شبح "لهايكستب".

بعد أن شربنا أقداح القهوة، وتناولنا الحلو عدنا إلى الحكمدارية سائرين على مهل. كان الجو صافيا فيه لسعة خفيفة منعشة من البرد. صعدنا مباشرة إلى الدور العلوى. أبلغنا سكرتير "زهران رشدى" أنه فى انتظارنا وأدخلنا إلى حجرته على الفور. كان جالسا خلف مكتبه، قصير القامة، أصلع الرأس، عيناه الجاحظتان تنغرسان فينا بنظرة ثقيلة. لم يرحب بنا، ولم يسلم علينا. ظل جالسا حيث هو دون أن يقول شيئا، فسأله أبى على الفور إن كانت قد وصلت إليه تعليمات تخصنا. كان صوته يرتعش قليلا فالجو العام المخيم على اللقاء لا يوحى بالود أو حتى الذوق. رفع "زهران رشدى" حاجبيه بحركة متوترة دون أن يبعد عنا نظرته الساقعة البليدة ثم أجاب ببطء.

"الداخلية وافقت على إخلاء سبيل ابنك". سكت برهة. تحركت شفتاه فى ابتسامة سريعة ساخرة قبل أن يضيف أما "كمال عبد الحليم" فنرجو أن تصطحبه معك إلى القاهرة، فنحن لا نريده هنا فى الإسكندرية بعد اليوم" توقف لحظة قبل أن يكمل "وأرجو أن يكون ما حدث درسا لهما، لا يعودان بعده إلى ارتكاب الحماقات التى دأبا على ارتكابها فى الفترة الماضية، فقد كنا متابعين لهما عن قرب".

بدا على أبى الضيق. تردد لحظة كأنه أراد أن يقول شيئا، ثم عدل عن هذا التفكير، وآثر أن يترك الأمور تمر. أحسست أن "زهران رشدى" لم يكن سعيدا بالتعليمات التى وصلت إليه، بالصيد يراه يفلت من بين يديه، لذلك لم يرد أن يفرج عنا دون أن يعلق بشىء يخفف به عن ضيقه.

لف أبى أصابعه حول ذراعى وقال:

"إذن نستطيع أن ننصرف". التفت إلينا، " لا نريد أن نأخذ من وقت "زهران بك" أكثر من ذلك".

قال عمى:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" واستدار متجها إلى الباب كأنه يفتح الطريق فتبعناه. هبطنا على الدرجات، وخرجنا من باب الحكمدارية. على سطح الإسفلت تسقط أضواء المصابيح المتباعدة ملقية بشعاعها الواهن على جمع من العسكر تلمع أزرار بزاتهم السود كالعيون الخفية. على مسافة قليلة قرب ناصية الشارع وقفت عربة حنطور وحيدة سرنا إليها وأيقظنا سائقها لنركب فيها. رأيته يرنو إلينا بنظرة خاطفة ألقاها من فوق كتفه قبل أن يطلق ذلك الصوت المميز الذى يطلقه لحث الجياد على السير. ربما كان من رجال الشرطة السرية

فمنذ الآن لن يكفوا عن رصد حركاتنا أينما ذهبنا. جاءنى هذا الخاطر ولكن سرعان ما طويته، ففرحة الحرية كانت اقوى من أى شىء.

فى الساعة الحادية عشرة إلا ربع صعدنا إلى قطار الليل المنتظر عند الرصيف. جلسنا فى مقصورة أغلقها الفراش علينا، وبعد قليل صفّر القطار، ثم تحرك بقفزات فجائية قبل أن ينساب تحت قبة القفص الضخم المصنوع من الزجاج ترفعه الضلوع الحديدية، وتضيئه المصابيح الزرقاء ملقية بظلالها فوق القطارات تبدو كالثعابين الساكنة فى كهف. تملكنى شعور بالرهبة والتوتر أخذ يزول كلما انتظمت حركة القطار وهو يتوغل فى الليل. الآن عادت إلى إرادتى الحرة، وزالت عنها القيود، الآن أستطيع أن أذهب حيثما أريد، أن أنام فى سريرى، وأقرأ كتبى، وأنظر فى عينى أمى وهى تقدم أطباق الطعام إلى. انتابتنى رغبة لا تقاوم فى الحديث، وربما لأول مرة انسابت بينى وبين أبى الكلمات، والمشاعر تلقائية، فأخذ هو بدوره يثرثر ويضحك بملء شدقيه. لم أره فى حياتى يضحك مثلما ضحك فى تلك الليلة، رغم التعب، والسهر، وساعات السفر الطويلة من الإسكندرية إلى القاهرة فى قطار كان يتوقف عند أصغر المحطات، ويظل مستكينا فيها كأنه جسم عليل حط وعجز عن القيام من جديد. نسى تحفظاته إزاء "كمال" وصار يوجه كلامه إليه، ويشركه فى الحديث كأنه يحاول أن يخرجه من صمته، ويتعرف عليه رغم أننى كنت اشعر أنه لا يأنس إليه، ولا يطمئن إليه كثيرا. ربما ظن أنه السبب فيما حدث لى، فهو يعلم أننى تركت عملى فى مستشفى القصر العينى، وسافرت إلى الإسكندرية حيث أقمنا سويا، فالأهل كثيرا ما يبحثون بين أصدقاء أبنائهم وبناتهم عن السبب فى ما قد يصيبهم من مشاكل، أو عثرات، أو فساد، ونادرا ما يقتنعون فى أعماقهم أن أولادهم شخصيات مستقلة مسئولة عن تصرفاتها. وكان "كمال" من أسرة فقيرة مما زاد من تحفظات والدى، أبوه تاجر غلال متواضع فى "ميت غمر" أفلس، ثم مات تاركا أرملته ومعها أربعة من الأبناء فى ظروف قاسية، ولم تكن شخصية "كمال" توحى بالثقة، فهو صامت، متحفظ فى تعاملاته مع الآخرين، بادى الشك فيهم، مشغول بنفسه كأنه غارق فى أشياء لا يريد أن يكشف عنها، وأن يشرك فيها أحدا حتى المقربين إليه، وكنت أيضا لا أحس بالراحة إزاء هذه الجوانب من شخصيته، ولكن فى ذلك الوقت كنت مندفعا بكل كيانى فى تلك الحياة الجديدة التى اخترتها لنفسى، فلم ألق بالا لكثير مما يدور من حولى، ولا كنت مسلحا بشكل جيد لخوض بحر الحياة السياسية العميق، لذلك لم التفت لهذه المظاهر، ولم أعط لها أهمية، أو أفكر فيها، وإنما على العكس ملت إلى اعتبارها صفات تستلزمها طبيعة النشاط الذى يقوم به. المهم بالنسبة إلى هو أننا زملاء تجمع بيننا قضية ومهام كبيرة، ومخاطر وآمال، ولا يضحى فى سبيل هذه القضية سوى أناس صنعوا من طينة أخرى غير طينة الناس العاديين، هكذا كنت أرى الأشياء.

لم يكن عمى "عاطف" بالطبع شاعرا بهذه التيارات. انهمك فى الحوار الذى دار بيننا بتلك الجدية، والوقار الذى يأخذ بهما كل الأشياء. غدا يسألنا عن ظروف السجن، وكيف تجاوزناها وحكى لنا عن المظاهرات التى شارك فيها عندما كان طالبا فى مدرسة "السعيدية" وكأن ما حدث لنا أعاد إليه ذكريات الشباب، وفى لحظة من اللحظات خفض صوته قليلا كأنه سيدلى لنا بسر وقال إن سعد باشا(١) كان قد كون تنظيما خفيا لقتل الإنجليز انضم هو إليه، وإن مجموعته دبرت كمينا لأحد الضباط الذين كانوا يترددون على منزل راقصة فى شارع "محمد على" وأجهز هو عليه بطلقة رصاص، فبدت على أبى علامات الخوف، كأن رجال البوليس سينقضون علينا فى أية لحظة ليعيدونا إلى السجن. أما عمى فظل يحكى حكاياته فى انتشاء، ينظر إلى بثبات كأنه يريد أن يستشف أثر هذه الحكايات على، وأن يخبرنا بأنه هو أيضا كانت له نزعات وطنية متطرفة فى شبابه قادته إلى خوض المغامرات. بين الحين والآخر تتجه إلى عيناه بنظرة تساؤل فيها إلحاح كأنه يحاول النفاذ إلى أعماق هذا الشاب الذى كان يعرفه طفلا ثم فوجئ به رجلا يخوض المعارك ضد السلطة والنظام.. أنه ابن أخيه ولكنه مختلف عنه، ويستهويه هذا الاختلاف، اكتشف فيه ما لم يكن يتوقعه. ربما لا يقر الأهداف التى من أجلها دخل السجن، ولكنه يقدر فيه الشجاعة والثبات. كان يود أن يكون له ابن مثله. فألمح فى عينيه ومضة الإعجاب.

عندما قطعنا ما يزيد عن نصف المسافة، وانقض علينا التعب، انتهز فترة من الصمت لينتقل إلى جوارى. أحسست به يضغط على يدى ثم قال:

"لا أحد يستطيع أن يوجه حياة الآخرين، وستفعل أنت ما ترى أنه صواب، وتحكم على المسائل بعقلك أنت. ربما اختلفت معك فيما تذهب إليه من المساواة بين النّاس، فابن اللئيم ليس مثل ابن الناس، ولكن دعنا من هذا فهو ليس أهم الأشياء فى هذه اللحظة التى تعود فيها إلى الحياة بعد تجربة صعبة. المهم هو أن تتصرف بروية منذ الآن، وألا تمكن أعداءك منك. كن حريصًا إذا أردت أن تواصل ما بدأته. توقف لبعض الوقت حتى يظن أنك عدلت عن رأيك، ثم استأنفه فى مجال آخر بعيد. لا تلق بنفسك فى المياه الغريقة دون أن تتدرب على الغطس، ولا تمتطِ ظهر حصان جامح قبل أن تتدرج فى ركوب الخيل الأهدأ طبعًا. الطيش لن يؤدى بك إلى شىء. صدقنى يا بنى فقد جربته ربما فى مجال آخر لكن الطيش هو الطيش فى كل الحالات يقود فى كثير من الأحيان إلى كسر الرقبة. أنا أحيا مع الخيل، والخيول الأصيلة لا تخف القفز فوق الحواجز، لكن لابد أن تتدرب على القفزخطوة بعد خطوة. هه، قلت كلامًا كثيرًا وأنا لست متعودًا على الكلام، ولكنى أرجو أن تفكر فيه".

---

(١) سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩م.

لم آخذ كلامه بجدية، ولم أفكر فيه. عجزت عن إدراك ما حاول أن ينقله إلىَّ، ربما لأننى كنت قليل الخبرة مصابًا بنوع من العمى الذى يمنعنى من رؤية الواقع، منساقًا إلى الخضوع للجماعة التى كنت أنتمى إليها، حريصًا ألا أظهر ما يمكن أن يبدو كالخوف أو التردد.

عمى لم يكن صاحب فكر، ولكنه كان قد استوعب أشياء مهمة بحكم تجاربه العملية وذكائه الفطرى، ولم يكن مقيدًا بتفكير الآخرين مثلى، فأنا منضم إلى تنظيم، وهذا يؤثر علىَّ. قد يضيف إلى تجربة جماعية، ولكن إذا أخطأت الجماعة سأنساق معها، وأنفذ ما تمليه علىّ. أما هو فمستقل، يفكر فى الأشياء بقدر أكبر من الحرية.

كان عمى "عاطف" لا يهاب السلطة كثيرا فقد تعود أن يخرج عليها، ولكن فى الوقت نفسه كان يتعامل معها بواقعية، ربما لأنه عاش فى كنفها مدة طويلة، فأدرك أنها فى مصر لها نفوذ وهيمنة قوية، وقدرة على توجيه الأمور فى البلاد، وعلى تسيير شئون الناس، وفرض إرادتها عليهم.

وصلنا إلى محطة "باب الحديد" قبل الفجر بقليل، قفز "كمال عبد الحليم" من عربة القطار إلى الرصيف قبل أن يتوقف عن السير، ومر من باب جانبى. كان قلقا طوال الطريق، ملأه الشك فى أن الإفراج عنه خطوة مؤقتة سيعاد بعدها القبض عليه، فربما نصبوا له كمينا يتلقفه فى محطة "باب الحديد". لذلك حرص على تفادى مسالك الخروج العادية. كان دائم الشك فى كل شىء، ربما هى الطفولة وحياة النضال السرى فقد أثرت فينا كثيرا، لم يكن فى مقدورنا أن نأمن جانب الخصوم فى حياتنا السياسية، وعلى الأخص السلطات البوليسية، أما أنا فلم تكن لدى هواجس من هذا القبيل.

خرجنا من تحت أقواس البوابة الرئيسية، وهناك تركنا عمى "عاطف" ليذهب إلى بيته فى "مصر الجديدة". تتبعته وهو يخطو بقامته الطويلة فى الميدان، سائرا بخطوات تقطع المسافات، ليختفى بعدها عن رؤى العين.

بعد ذلك لم نلتق إلا قليلا، وبمحض الصدفة فى بيت من بيوت أحد الأقرباء، أو فى شارع "عماد الدين"، وهو جالس على مقهى "بول نور". مرت به أيام صعبة للغاية كاد أن يفقد فيها كل ما كان يملكه، ولكنه ظل يصرف ما فى جيبه بكبرياء كأنه يملك الدنيا. إذا كانت معه نقود لا يضن بها على من يلجأ إليه، أو يبحث عن وسيلة لتلبية ما يريده، فيقترض ليعطى له. نوع من الفروسية التى تتعدى فى بعض الأحيان حدود التصرف السليم، لكنه هكذا. إذا أخطأ فأخطاؤه ليست صغيرة، ظل سخيا إلى أبعد حدود السخاء، شجاعا ومعطاء إلى درجة التهور فى كثير من الأوقات، صورة لنفسه يسعى للاحتفاظ بها إزاء ذاته، وإزاء الأصدقاء، قيم عاش فيها منذ البداية، وورثها عن مجتمع الإقطاع حيث المادة لا قيمة لها إلا للحفاظ على المظاهر، والكبرياء، والشهامة، وعراقة الأنساب.

عندما نضبت موارده لم يظهر عليه تغيير، إلا فى تجاعيد الوجه حفرت مسارها على الجبهة، وعند أطراف الشفتين. ظل يرتدى سترته الأنيقة، المشقوقة من الخلف فى منتصف الذيل والتى ربما كانت السترة الوحيدة الباقية له. يقتحم مكاتب الوزراء، مادا عصاته الطويلة تسبقه فى الدخول من الأبواب. لا أحد يجرؤ على إيقافه، أو سؤاله عما يريد، أو من أين جاء، أو عن اسمه، أو لقبه، أو وجوده فى هذا المكان. إذا دخل لا بد أن يخرج وقد نال طلبه، حتى وإن كانت مصلحة جاء ليقضيها لغيره من الناس.

كان يختال فوق الأرض بثقة لا تهتز، يحمل رأسماله فى النفس، وفى الأصل الذى جاء منه، يقتحم الصعاب دون أن يبالى بالاحتمالات، فيه خير كثير، وشر يصل إلى حد القتل، قادر على القسوة والعنف، مفعم أحيانا بالرقة، والود، إنسان كبير الحجم، كبير النفس.

الفصل السادس

من الطب إلى السياسة

عند انتهاء السنة الثالثة دخلت فى أهم مرحلة من مراحل الدراسة الطبية تمتد لمدة سنتين ونصف وتنتهى بامتحانات التخرج. ظللت أكرس كل وقتى للدراسة. عندما كنت أذهب إلى الكلية أصر على الجلوس فى الصفوف العليا الخلفية للمدرج أطل منها على الأستاذ المحاضر، وعلي جموع الطلبة المتزاحمين حوله. فى داخلى هاجس يقول لى إننى لست مثلهم، لست جزءا من القطيع يعدو من مدرج إلى مدرج فى سباق يكاد يدوس فيه الواحد منهم على الآخر حتى يصل قبله، يتقاتلون حول الصفوف الأمامية، بأكتافهم، وأيديهم، وكيعانهم كأنهم يخشون أن تضيع منهم كلمة من كلمات الأستاذ دون أن يدونوها.

مع الأيام لاحظت أن طالبا يهوى هو أيضا الجلوس فى أعلى الصفوف. ألمح صلعته تلمع فى الضوء عندما يخلع طربوشه، ويضعه إلى جواره، ثم يسقط فيه نظارته السوداء ومنديله. بين الحين والحين يخرج منه المنديل ليمسح به على صلعته، منديل كبير الحجم، رمادى اللون تتخلله خطوط أو مربعات بنية، أو حمراء.

كان يسير فى الحوش متكئا على عصاة يدها من الخشب الأبنوس، تتدلى من بين أصابعه سبحة طويلة حباتها كهرمانية اللون، وعند طرفها الأعلى سلسلة فضية تنتهى بشراشيب من الحرير المبروم. فى أيام الشتاء كان يستبدل العصاة أحيانا بمظلة سوداء كبيرة يفتحها فوق رأسه إذا ما سقط المطر وهو يستعد لعبور الحوش، أو للسير فى الطريق إلى مستشفى "فؤاد الأول"[1] فيبدو أقرب إلى موظف فى مقتبل العمر عنه إلى طالب فى كلية الطب بصلعته المبكرة، تراجعت أمامه الشعيرات القليلة تخللتها خيوط الشيب، وبشاربه، وطربوشه، وعصاته، والسبحة التى تدور بين أصابع يده الناعمة الصغيرة فيها شىء أنثوى.

يجلس فى المدرج طوال المحاضرة دون أن يضع أمامه كراسة مذكرات، أو كتاب، ودون أن يكتب شيئا. أصابعه الصغيرة تعبث بالحبوب المنتشرة فوق جبهته، وعيناه الجاحظتان تحدقان

---

(١) القصر العينى الجديد.

أمامه. يضغط على شفتيه الغليظتين بين الحين والحين، كأنه ممتعض مما يدور، فتظهر مساحة صغيرة شاحبة كالزبيبة على شفته العليا.

سرنا نتبادل بضع كلمات فى الفترة القصيرة التى تفصل بين المحاضرة، والأخرى، أو ونحن نسرع الخطوة نحو المستشفى حتى نلحق بمرور أحد الأساتذة على أسرة المرضى، يختار أثناءه إحدى الحالات ليجرى عليها درسا عمليا للطلبة، أو عندما نتناول وجبة سريعة فى بوفيه الكلية حيث كانت تباع ساندوتشات الجبن والطعمية والفول وأكواب الشاى، وزجاجات الكازوزة.

مع الوقت توثقت بيننا العلاقة فاقترح على أن نعد أنفسنا لامتحان البكالوريوس سويا. ترددت فى دعوته إلى بيتنا خوفا من أن يتكرر ما حدث قبل ذلك من إعراض زملائى فى الكلية عن المذاكرة فى ظل النظام الصارم الذى كانت تفرضه علينا أمى. لذلك آثرت أن استسلم للذهاب إليه رغم بعد المسافة. ربما كنت أرغب أيضا فى الابتعاد عن الجو شديد الصرامة الذى كان يسود فى منزلنا، وأن أذهب إلى مكان آخر ربما أقل مستوى من الناحية المادية، ولكنه مختلف. هكذا أصبحت أتردد عليه أغلب أيام الأسبوع، وأحيانا أقضى الليل عنده خصوصا عندما اقترب الامتحان، وتوقفنا عن الذهاب إلى الكلية.

كانت أسرته تسكن شقة واسعة تحتل الدور الثانى لبيت قديم يقع فى شارع مسرة الكائن بشبرا. عندما دخلت إليها أول مرة فوجئت بالإهمال البادى عليها، لكن فيما بعد أدركت أنها نموذج لنوع من البيوت التى يعيش فيها موظفو الدولة المصرية، أو الأسر المتوسطة الحال ذات الدخل المحدود، فرغم اتساعها كانت علامة القدم بادية عليها.

لا أعرف كيف أصبحنا أنا و"عثمان جبر" صديقين، ربما الاختلاف القائم بيننا هو الذى جذب كل منا إلى الآخر. أنا ابن ناس كما يقولون ولى أم إنجليزية، أما هو فقد كان أبوه موظفا بالمعاش، ثم مات تاركا فدانين أو ثلاثة يدرون عليه مالا محدودا، وصفائح من السمن، والجبن تأتى من البلدة مرة كل سنة فى نهاية الشتاء. كان وطنى المزاج، متمسكا بالتقاليد، قرأ عن حياة "عمر مكرم" و"عبد الله النديم" و"جمال الدين الأفغانى" و"أحمد عرابى" و"مصطفى كامل" و"محمد فريد" و"لطفى السيد" و"سعد زغلول" و"طه حسين" و"محمود العقاد" وأعمال الكتاب، والشعراء الذين يشكلون الأفق المعتاد للطالب المصرى الذى يجتهد فى توسيع نطاق معارفه خارج حدود الدراسة العادية. أما أنا فكنت لا أعرف شيئا عن كل هؤلاء، أكاد لم أسمع عن الشخصيات التى يتحدث عنها دون أن يمل أو يفقد حماسه. كان شديد الحساسية بكل ما يلمس القضايا الوطنية، شديد الاهتمام بالأحداث السياسية، وبالمعركة ضد الإنجليز، والسراى، أما أنا فطالب مجتهد غير مهتم إلا بالدراسة.

شكل ارتباطى بـ"عثمان جبر" أول خطوة حقيقة نحو اختراق الحصار الذى أحاط بى منذ الطفولة، فعندما نشأت بينى وبينه علاقة، كانت هذه العلاقة فى ذاتها تنكرًا للوسط الذى كنت

أنتمى إليه، وابتعادا عن أصحاب "الفيلل"، عن زملائى فى المجموعة التى كنت أذاكر معهم والذين كان يحلو لهم أن يتندروا على تصرفات وملامح وملابس الطلبة أولاد الموظفين الصغار، والفلاحين. صحيح أن هؤلاء الطلبة كان فيهم أحيانا غباء، فقد تعودوا على حفظ الأشياء دون أن يبذلوا جهدا لفهمها، على الاقتتال للجلوس فى الصفوف الأمامية، وعلى تسجيل كل كلمة يقولها الأستاذ مهما كانت تافهة، على الجرى هنا، وهناك كالحشرات النهمة تلتقط أى شىء، فالطب بالنسبة إليهم كان بابا يفتح أمامهم فرصة الكسب المادى، والتخلص من الحرمان، لكن لم يلتفت أحد منا إلى الجهود المضنية التى بذلوها للوصول إلى كلية الطب، فالكثيرون منهم أتوا من الأقاليم ليعيشوا حياة المغتربين فى حجرات فوق أسطح المنازل أو تحت الأرض يقتسمونها فيما بينهم. يطبخون طعامهم، ويغسلون ملابسهم، ويذاكرون أحيانا على ضوء "لمبات الغاز". ربما كنت أتعاطف معهم أحيانًا أكثر من تعاطفى مع باقى أفراد المجموعة، وأشعر فى أعماقى بالضيق إزاء هذا الموقف دون أن أجهر به. كانت أمى من بيئة فقيرة، تحتقر الذين يحصلون على ميزات فى الحياة دون أن يبذلوا جهدا لنيلها، وتقدر العمل حق قدره، ومع ذلك ففى أغلب الأحيان كنت أتجاوب مع موقف الازدراء الذى يعامل به أولاد الأثرياء أبناء الأسر الكادحة غير مدركين أنه لا فضل لهم فى الميزات التى يستمتعون بها، وأن الرخاء المادى والراحة النفسية التى تتوفر فى حياتهم تساعدهم على التحصيل بذهن صاف، وعلى توسيع مداركهم من خلال الإطلاع، ومن خلا ل مختلف وسائل الثقافة والترفيه المتاحة فى حياتهم.

كان "عثمان جبر" يغلب عليه طابع الجد، فهو قليل الضحك لا يمزح إلا نادرا، ويعامل نفسه بصرامة من اختارته الأقدار للمجد. كان مقاطعا للخمر بمختلف أنواعه، لم أسمعه يتحدث ولو مرة واحدة عن الحب، أو عن فتاة أو عن مسائل جنسية مثل باقى الأصدقاء. علاقاته مع الآخرين فيها دائما مسافة ومسحة من الاستعلاء، كأنه خلق لأشياء أهم. إذا عارضته فى الرأى يلجأ إلى تغيير الموضوع، أو الصمت فهو لا يطيق أن يعارض أحد الرأى الذى يؤمن به، ويأبى على نفسه أن يناقش أقرانه. ظل معتدا برأيه، ولذلك لم ينضم لأى تنظيم أو حزب. عندما أراد أن يدخل فى ميدان السياسة كون منظمة صغيرة اسمها "جات" لها ميول يسارية وتأثرت بالمدارس الماركسية، ولكنها ظلت تعمل بشكل أساسى فى الإطار الوطنى، مبعدة نفسها عن التنظيمات اليسارية الأخرى، محافظة على صبغتها القومية، مع ذلك لم تنم كثيرا. ظلت حلقة صغيرة تعمل فى مجال محدود، وربما كان السبب فى ذلك شخصية "عثمان جبر" الفردية، وحذره فى التعامل مع الآخرين، واستعلاؤه عليهم وتشبعه بالنعرات الوطنية التى جعلته يتوجس من الدعوة الماركسية فى مصر والتى كانت تمثل تيارا فكريا جديدا على المجتمع المصرى.

انضم إلى هذه المنظمة الصغيرة عدد من الشباب ذوى الاتجاهات الوطنية، ومنهم طبيب قضى فترة الامتياز فى القصر العينى سنة ١٩٤٨ وأصبح فيما بعد أحد وزراء الصحة فى

عصر السادات[1] وضابط بدأ صولا فى الجيش ثم رقى من تحت السلاح، وانضم إلى الحرس الحديدى الذى كونه "يوسف رشاد" بموافقة الملك فاروق لتتبع ومقاومة العناصر الوطنية فى الجيش، وقد تم اغتياله فيما بعد لأنه أخذ ينشط ضد الملك ويوصل أسرار الحرس الحديدى إلى الضباط الوطنيين[2].

من بين الذين انضموا إلى هذا التنظيم أيضا شقيق هذا الضابط الذى لعب دورا نقابيا بارزا وانضم إلى "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى"، وشارك فى تكوين نواة أول اتحاد عام للعمال سنة ١٩٥٢، ثم اعتقل فى عهد عبد الناصر وظل فى السجن حتى سنة ١٩٦٤، وبعد ذلك جذبته السياسة إلى دروب أخرى ليصبح عضوا فى مجلس الشعب أثناء حكم السادات وليرشح نفسه تحت مظلة الوفد الجديد بعد أن حصل هذا الحزب على اعتراف رسمى[3].

كان عثمان جبر هو أول من أدخلنى فى النشاط السياسى، وعندما قبض على سنة ١٩٤٨ ثم صدر حكم بالبراءة من محكمة جنايات الإسكندرية كان هو أحد المبادرين بزيارتى فى البيت. لا أتذكر بالتحديد ما دار بيننا من حديث. كل ما أتذكره أننا جلسنا على الشرفة الكبيرة فى منزلنا وأن الانطباع الذى تركه عندى هو أنه لم يكن سعيدا بعضويتى فى "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى" أكبر المنظمات اليسارية إذ ذاك. بدا متحفظا إزاء النشاط السياسى الذى أصبحت منخرطا فيه. ربما من بين الأسباب التى جعلته يضيق بنشاطى السياسى قدر من الغيرة، فقد خضت تجربة مثيرة، دخلت السجن، وخرجت منه محاطا بهالة من البطولة، شاعرا ببعض الزهو من اهتمام الناس بما حدث لى. خرجت من دائرة نفوذه، وأصبحت أتحدث إليه كندٍّ، عندى ما أقوله، وبعد الآن لن يستطيع أن يمارس معى دور الوصى.

مرت السنون وتزوج هو فتاة من أسرتنا، وربطت بينى وبينه علاقة نسب، لكن عندما أفرج عنى من حكم عشرة سنين أشغال شاقة فى نوفمبر سنة ١٩٦٣ والتحقت بوزارة الصحة حدث شىء غير متوقع، وغريب .

كان الدكتور "النبوى المهندس" هو وزير الصحة، وكنت أنا ملحقا بإدارة الوحدات الريفية فى انتظار قرار التعيين الذى وعدنى به، وفى أحد الأيام قرر الوزير أن يسافر فى جولة تفتيشية إلى "أسوان" فعرض على أن أسافر معه حتى أشهد بعينى المشاريع الصحية التى تنفذها وزارته فى المحافظة التى أصبحت ذات أهمية خاصة بسبب بناء السد العالى. وافقت على الاقتراح بحماس. كنت شغوفا برؤية ما لم أره فى البلاد بعد أن غبت عنها مدة خمسة عشرة عاما قضيتها فى السجن، والنفى، أو مطاردا من البوليس. وكنت أريد أن أرى "السد العالى" قبل أن

---

(١) محمود محفوظ.

(٢) عبدالقادر طه.

(٣) أحمد طه.

ينتهى بناؤه فهو يرمز إلى أشياء كثيرة ارتبطت بعهد الثورة، وتحققت من خلالها بعض الأهداف التى سعى اليسار إلى تحقيقها.

وجدت نفسى أستقل طائرة حربية مع الدكتور "النبوى المهندس" وعدد من الصحفيين الذين لم أكن قد تعرفت عليهم. وقفت على أرض المطار منتظرا دورى للصعود على السلم فجاءت وقفتى إلى جوار رجل أصلع الرأس، يضع على عينيه نظارة سوداء، وفى فمه سيجارا أسمر اللون. يده اليسرى تعبث بسبحة حباتها من الفضة المزركشة. كان يرتدى معطفا من المطاط يشبه معاطف المطر، ففى هذا الصباح من شهر فبراير هبت الرياح الباردة الآتية من الصحراء. لأول وهلة لم أتعرف عليه ولكن عندما دققت فيه النظر أدركت أنه "عثمان جبر".

اتجهت ناحيته بفرحة لهذا اللقاء مع صديق قديم ربطت بيننا أيام الشباب وأحداث، وأحلام. مددت يدى إليه لأصافحه، ولكنى فوجئت به يشيح بوجهه بعيدا عنى ويتجاهل يدى الممدودة إليه. ظللت واقفا حيث أنا عاجز عن التصرف، مصاب بحالة من الذهول وعدم الفهم ثم صعدت إلى الطائرة دون أن أعى كيف صعدت، وجلست على أول مقعد صادفنى بينما تقدم هو إلى الأمام وجلس إلى جوار الوزير[١].

جلست فى الطائرة غارقًا فى حالة من الوجوم، والحزن. أشعر أننى غريب فى هذا الجو. الناس من حولى يثرثرون، ويضحكون، يعزمون على بعضهم بلفافات الدخان فهم ينتمون إلى عالم واحد، تربط بينهم علاقات العمل أو المعرفة السابقة أما أنا فقد أتيت من عالم أخر.

فى ذلك الوقت دأب المسئولون والوزراء الذين يعملون مع "عبد الناصر" على تقريب عدد من اليساريين إليهم ليعملوا كخبراء أو مستشارين يلجأون إليهم فى بعض الأمور الفنية أو السياسية. هكذا فعل على صبرى، وشعراوى جمعه، وحسنين هيكل، وآخرون. وكان للنبوى المهندس ثلاثة أو أربعة مستشارين من هذا النوع. منهم "عثمان جبر"، فالتوجه "الاشتراكى"[٢] كان يحتم فتح الباب للتعاون مع تيارات اليسار.. ومن هذا المنظور كانت الاستعانة بخبرات بعض اليساريين تعبيرا عن ذلك أتاحت لهذه العناصر أن تكتسب خبرة جديدة.. أن تدخل فى صميم شئون الحكم، كما أتاحت لهم مساحة يستطيعون التحرك فيها للتأثير على الأمور.. ولكن العيب الأساسى هو أنه فى غمرة الفرحة بالإمكانيات التى أتيحت لهم للصعود، وفى غيبة التيار اليسارى الناضج القادر على التأثير تحولا إلى نهازين للفرص، مما دفعهم إلى محاربة زملائهم السابقين، خصوصًا أولئك الذين يخشون من منافستهم، أو يحسون بكفاءتهم، وقدراتهم.

---

(١) كان رئيسًا للرقابة مقربًا إلى الوزير

(٢) استخدام هذا الوصف دون أن أدخل فى مدى التوجه الاشتراكى الذى تم بعد سنة ١٩٦١ فى مصر خصوصًا فى غيبة الديمقراطية السياسية والحريات والحقوق الإنسانية.

وكان "عثمان جبر" أحد المستشارين المقربين للنبوى المهندس، فلعب دور الناصح الأمين، وحذره منى، وحكى له عن حياتى، وتاريخى، كما يراهما هو. وشاركه فى هذه المهمة طبيب كان رئيس إدارة الوحدات الريفية، وصيدلى من المنصورة أصبح أحد المسئولين فى مؤسسة الأدوية. كان الثلاثة يشكلون مجموعة استشارية وثيقة الصلة به وقعت نصائحهم على آذان صاغية، فأنا مسجون منذ مدة طويلة، صاحب تاريخ فى اليسار عريق، والجو كله حولى ملئ بالتحفظات، وبالعداء لأمثالى. فإذا أضفنا إلى ذلك قلة ادراكى للظروف المحيطة بى، وسذاجتى، واندفاعى وراء أحلام عن الوضع لم تضع فى حسبانها ضراوة الصراع ضد القوى السياسية التى انتمى إليها يصبح ما حدث لى فيما بعد طبيعيا.

ـ قرب نهاية الحرب العالمية الثانية كانت البلاد تنتفض بالأحداث فتكررت الاضرابات، والاعتصامات العمالية فى المناطق الصناعية نتيجة الموجات المتصاعدة فى أسعار السلع الأساسية. اتسع نطاق النشاط السياسى الوطنى ليشمل كل الأحزاب، الوفد، والأحرار الدستوريين، والسعديين، والحزب الوطنى، وأحزاب جديدة مثل الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة وتنظيمات اليسار السرية، فتكررت الندوات والاجتماعات والمؤتمرات فى العاصمة، والأقاليم نودى فيها بضرورة تحقيق الاستقلال، كما انتشرت المقالات، والبيانات التى تربط بين الحريات، والمطالب الاقتصادية، ورحيل الاستعمار البريطانى.

أتت الحرب العالمية الثانية بظروف اقتصادية واجتماعية جديدة نمت فيها البورجوازية المصرية الكبيرة، والمتوسطة، واتسع فيها النشاط الصناعى، وتدعمت فيها صفوف الطبقة العاملة، وزاد عددها، وصاحب كل هذا وعى جديد. ازدهرت الآمال الوطنية والديمقراطية وتحددت معالمها نتيجة التحركات الشعبية الواسعة النطاق فى كل انحاء العالم، ووعود الديمقراطية التى ارتبطت بها الدول الحليفة حتى تتمكن من تعبئة الشعوب فى الحرب ضد الفاشية. برزت الدول الاشتراكية كقوى عالمية، وهزت الكوارث الكبرى المرتبطة بالحرب أعماق الناس فصاروا يعيدون التفكير فى كثير من أمور الحياة.

صرت التقط أشياء من هنا وهناك ولكن بالتدريج جذبتنى حركة الأحداث. ففى الجامعة عند نهاية العطلة الصيفية لسنة ١٩٤٥ أخذ بعض الشبان الجامعيين ينظمون الاجتماعات. لم اتبين من أين جاؤوا، أو كيف بدأوا، او ماذا يمثلون، ولكن "عثمان جبر" دعانى للحضور.

فى ذلك اليوم خرجت من الباب الخلفى لمستشفى القصر العينى القديم واجتزت الكوبرى الصغير، ثم باب الحوش المحيط بمستشفى " فؤاد الأول". يوم جميل من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥. صفاء الخريف وشمسه الساطعة تحيط بالجسد، وتتسلل إليه لتوقظ الأحاسيس الراقدة فى الأعماق لكنى لم التفت إليها، فهكذا كانت حياتنا لا استمتاع، ولا رغبات تلبى، جنسية أو غير جنسية، ولا وسائل للترفيه ولا مرح حقيقى ما عدا فى تلك اللحظات التى

تفرضها عفوية الشباب التلقائى، وحبه للحياة. الفرص القليلة المتاحة لكل ذلك تظل ممنوعة بحكم التربية، والتقاليد. حتى الضحك، حتى الحب حتى حركة الجسم فى اللعب، والرقص ممنوعة علينا. كان الزهد فلسفة دينية يمنع الشباب من التعبير عن النفس فتجف شجرة الحياة وتسقط براعمها.

الطلبة والطالبات يروحون ويجيئون بين عنابر مستشفى "الملك فؤاد"، أقيم سنة ١٩٣٦، وبين القصر العينى القديم فى حركة دائبة لا تنقطع حتى لحظة الغروب، فالكلية لا تغلق أبوابها فى فصل الصيف. لكن وجهتى أنا غير تلك التى يقصدونها ما عدا عدد قليل انحنوا معى إلى اليسار بدلا من السير نحو القبة التى تتوسطها الساعة الكبيرة، ليمروا معى تحت صف من الأشجار العالية، إلى حيث تمتد الملاعب الخضراء. هنا تحت السماء الزرقاء، وفوق الحشيش الطرى، تتخلله زهور صغيرة صفراء وبنفسجية اللون، يمكن أن نبحث عن لحظات من الاسترخاء تريحنا من التوتر المجنون لامتحان البكالوريوس. لكن عيناى لم تريا الحشيش الأخضر أو الزهور. تعلقت نظراتى بالشبان الذين أخذوا يسرعون الخطى ليجتازوا فتحة فى سور الملاعب، متجهين إلى مبنى أبيض اللون منخفض دلفنا الواحد تلو الآخر من بابه الصغير لتختفى فى الداخل تاركين المساحات الخضراء للغربان، والعصافير التى بدت وكأنها تتساءل عن هذه الحركة غير العادية المتجهة إلى المبنى القابع عند السور.

وجدت نفسى فى حجرة مستطيلة مزدحمة بعدد كبير من الشباب جلسوا على الدكك الخشبية، أو ظلوا واقفين فى المساحات الخالية عند الباب أو فى الأركان، أو افترشوا الجرائد على الأرض مسندين ظهورهم إلى صفوف الأدراج ترتفع حتى السقف، تطل من بعضها ملابس الألعاب، والمناشف مثل الأحشاء من بطن مفتوحة. هواء الحجرة مكتوم تختلط فيه رائحة دخان السجائر، ومطاط الأحذية وعرق الملابس المخزونة، والتراب المعلق فى الجو من حركة الأقدام تروح وتجىء فى الحجرة باحثة عن مكان قبل أن يستقر أصحابها ليضموا أصواتهم إلى ضجيج الأصوات.

كان هذا الاجتماع هو الأول الذى يعقد فى هذا المكان. شبان جاءوا من مختلف الكليات كأن هناك سابق اتفاق. فهل كانت توجد مجموعة، أو نواة دعت إليه؟ سؤال لم يطرأ على ذهنى فى هذا الوقت. أشعر ان الحاضرين يمثلون اتجاهات مختلفة، وأنهم فى أغلب الحالات يعرفون بعضهم. أما أنا فوحدى لا أتحدث إلى أحد ولا أدرك أنهم ينتمون إلى تيارات، أو أحزاب، أو تنظيمات، وأنه توجد بينهم روابط قائمة على هذا الأساس. اعتقدت أنهم مثلى مجموعة أفراد تجمعوا بطريقة غامضة، كأن قوة ما جذبتهم إلى هذا المكان. ولكن لماذا ملاعب كلية الطب بالذات؟ ربما لأن كلية الطب لا توجد فيها إجازات ولا تغلق أبوابها فالدراسة فيها مستمرة،

وحركة الطلبة لا يحدث فيها انقطاع مما يسهل عمليات الاتصال، والتجمع تمهيدا لتكوين النواة الأولى التى استعدت لمواجهة الأحداث.

لم يسألنى أحد من أين جئت. ظللت أتابع ما يدور بإنصات فأنا أسمع أشياء لم أسمعها من قبل. كلمات تضاف إلى قاموس اللغة المحدودة الذى كنت أتعامل به حتى الآن، أو ألفاظ تكتسب معنى جديدا غير المعنى الذى كان عالقًا بها فى الماضى. كلمة الاستعمار مثلا كنت أشعر نحوها بالاستحسان والود، فهى تعنى تطوير وتهذيب الشعب المحتل. أما هنا فقد أصبحت تثير عندى التساؤل فالاستعمار فى عرف هذا الشباب قوة تستغل الشعوب ومصر ظلت مستعمرة منذ أكثر من سبعين عاما لتعانى من الجوع، ومن المرض، ومن الجهل.. والاستقلال لا يعنى جلاء العسكر فحسب، وإنما التخلص من القبضة الاقتصادية على البلاد، على التجارة، والصناعة، وعلى الزراعة، على الشركات والمال، والقطن. وهناك قوى سياسية واقتصادية فى مصر تسند الاستعمار، وتتعاون معه، على رأسها القصر ثم الملاك الإقطاعيين والرأسماليين الكبار. كل هؤلاء متحالفون مع الإنجليز، ولا سبيل إلى الاستقلال إلا بالتخلص من سيطرتهم على مصر. تبرق العيون، وترتفع القبضات عندما تتردد كلمة سلاح فلابد من حمل السلاح لطرد جنود الاحتلال. شعار الكفاح المسلح هو شعار العصر.

تتوالى التعبيرات رنانة مخيفة فى بعض الأوقات مثل تعبير الجلاء بالدماء أو الخونة. هناك استعمار جديد يزحف على الوطن. فالأمريكان يبحثون عن الأسواق. أما السودان فهى شقيقة مصر تربط بينهما أواصر الكفاح المشترك ضد الاستعمار، وشعار تقرير المصير فى مقابل وحدة وادى النيل، فهذا هو حق لكل شعب يسعى إلى تحقيق الاستقلال، والحرية، والعدل.

بمرور الأيام لاحظت أن عددا من العناصر يرددون هذه التحليلات وأن اسم الاتحاد السوفيتى كدولة اشتراكية تقف مع الشعوب المضطهدة فى المستعمرات يتكرر فى كلامهم، أن نوعا من المنطق المتكامل يتبلور خلال الحوار الذى يلعبون دورا واضحًا فى تحديد اتجاهاته. فى هذه المرحلة من المناقشات لم أكن أعرف شيئا عن اليسار، لكنى أحسست أن هذه العناصر أقدر على التحليل، والربط بين الظواهر من غيرهم.

كان يحضر هذه الاجتماعات ممثلون عن حركة الإخوان المسلمين، وحزب الوفد، ومصر الفتاة، بدا لى كلامهم كثير الحماس قليل الفكر حتى قبل أن أعرف شيئا عنهم. كنت بطبعى، وتكوينى أستريب من الصوت العالى، المتوتر، الغاضب، ربما لذلك لم أرتح بالذات لممثلى الإخوان المسلمين بطرابيشهم ولحاهم، ومناديلهم البيضاء يمسحون بها العرق. كانوا يتحدثون كثيرا عن أشياء حدثت فى الماضى البعيد، ويدافعون عن أفكار لا تمت إلى الثقافة التى أعرفها بصلة. كلامهم يدور حول الخمر، والفسق، والأخلاق وضرورة التمسك بتعاليم الإسلام إذا أردنا أن يخرج الإنجليز، وأن تستقيم أمور البلاد. أشعر وكأنهم جاءوا من زمن مضى.

أما ممثلو حزب الوفد فقد أحسست بهم أقرب إلىّ دون أن أعرف عن انتماءاتهم شيئا. كانوا يتحدثون عن قضية الوطن والإنجليز، عن الحرية والديمقراطية، عن مقاومة الطغيان، عن القانون والتعليم وأحيانًا حق الفقراء فى أن يهنأوا بحياة أكثر إنسانية.

عشت انطباعات كثيرة فى هذه الاجتماعات المفعمة بالأفكار والمناقشات، وكأن عالما آخر يتفتح أمامى. أدركت أن ثمة قوة، أو مجموعة من الأفراد تدفع الأشياء بالتدريج نحو هدف محدد، رغم الاختلافات، وصراع التيارات، ففى كل جلسة كان يتبلور الاتجاه بشكل أوضح، وكانت الأهداف تتحدد لتصنع برنامجا وطنيا مترابطا، فتنتقل المناقشات إلى مرحلة أخرى، إلى الخطوات التى تسمح بالعمل الفعال من أجل تحقيق المطالب. أخذ يتردد كلام عن اللجان التنفيذية للطلبة، وضرورة تكوينها فى كل كلية، وحتى يتم ذلك قسم الحاضرون إلى مجموعات كل مجموعة مسئولة عن كلية، على أن يتم الانتخاب على مستوى السنين الدراسية لاختيار اثنين أو ثلاثة من الطلبة يصبحون مندوبين عنها، وعلى أن تتكون اللجنة التنفيذية العليا بحيث تضمن تمثيل كل سنوات الكلية.

كان "عثمان جبر" يشارك فى هذه الاجتماعات فى البداية ولكن بعد قليل أخذ يتغيب. انتابنى إحساس غامض أنه لم يكن راضيا، ربما لأنه عجز عن السيطرة عليها، أو لأنه فى خضم المناقشات الواسعة، والاجتماعات المفتوحة تعطى فيها الكلمة لكل من يطلبها كان من الصعب أن يبرز بالقدر الذى يسعى إليه، أو لأن ثمة أشياء كانت تدور خارج هذه اللقاءات الديمقراطية بين قادة التيارات والتنظيمات الشبابية، والأحزاب المختلفة. فالحوار الذى دار فى ملاعب الكلية كان حوارا ديمقراطيا حقا كأن الجميع يتحسسون طريقهم إلى أهداف مشتركة، وواضحة يصلون إليها.. إلى الاتفاق رغم اختلاف الفكر، أو المنبع، أو الارتباط التنظيمى.

استمرت هذه الاجتماعات طوال شهر سبتمبر. لم يحاول أحد أن يتناقش معى ليستميلنى إلى تيار سياسى معين. ظللت بمفردى، حريصا على متابعة كل ما يدور دون أن أمل الحوار المستمر طوال ساعات. كنت كمن يشاهد شيئا يولد، ويتبلور أمام عينيه، شيئا مهما يشارك فى صنعه هؤلاء الشبان بأجسامهم النحيلة، ونظاراتهم ووجوههم الشاحبة المتطلعة أمامها تظل صامتة ساكنة أو تهزها بين الحين والآخر نوبة حماس، فتبرق العيون بشعلة راقدة فى الأعماق.

كان لهذه الاجتماعات مدلولا سياسيا مهمًا لأنها عكست الصراع الذى بدأ فى مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بين قوى جديدة أخذت تتبلور، وتصلب عودها، وأساسا قوى اليسار، وبين القيادات والأحزاب التقليدية الممثلة فى الأحرار الدستوريين، والسعديين، والحزب الوطنى وحزب الوفد أما حركة الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة فقد فضلا لبعض الوقت ألاَّ ينضما إلى صف حزب من الأحزاب التقليدية ليحتفظا بسمعتهما كقوة لا علاقة لها بفساد

وأخطاء الأوضاع القديمة، وحتى لا يفقدا قدرًا من الجماهيرية التى كانا يتمتعان بها فى بعض أوساط البرجوازية المتوسطة والصغيرة.

أصبحت مشاركا فى نشاط اللجنة التنفيذية لكلية الطب، ثم اللجنة التنفيذية العليا لطلبة جامعة القاهرة دون أن أعبر إليها من خلال القنوات التى سلكها الآخرون مثل تمثيل أحد الأحزاب التى شاركت فيها، أو الانتخابات التى أجريت فى كل كلية. ربما سلكت عناصر أخرى هذا الطريق، فقد كانت الأشكال التنظيمية التى نشأت فى الجامعة وامتدت فيما بعد لتصبح قومية، وليدة قدر كبير من التلقائية والفوضى ولم تكن وليدة التدبير المخطط الدقيق كما يحلو لبعض المؤرخين المتحزبين أن يصوروها.

لكن مما يلفت النظر هو ذلك الجهد الفكرى الذى بذله المجتمعون فى ملاعب كلية الطب، والحوار الواسع الذى جرى بين مختلف الأطراف السياسية، وهو حوار أدى فى نهاية شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ إلى تغليب الشعارات التى تقدم بها اليسار والتى تضمنت ضرورة السعى لنيل الاستقلال التام اقتصاديا وسياسيًا وعسكريا وجلاء قوات الاحتلال عن مصر والسودان، وتكوين جبهة، أو تحالف شعبى واسع ضد الاستعمار وأعوانه من الإقطاعيين، وكبار الرأسماليين، ورفع شعار الكفاح المسلح كالوسيلة الوحيدة الناجعة لإجلاء القوات العسكرية البريطانية، والكفاح المشترك مع الشعب السودانى ضد الاستعار البريطانى وإعطاؤه حق تقرير المصير حتى يختار بين الاتحاد مع مصر، أو الانفصال عنها، واعتبار المعسكر الاشتراكى قوة مساندة، وحليفة لنضال شعوب المستعمرات من أجل التحرر الوطنى الكامل، ونبذ أسلوب المفاوضات كوسيلة لانتزاع الاستقلال من القوى الأجنبية القابضة على مصير البلاد، واعتبار الاستعمار الأمريكى خطرا ذا وزن كبير يلوح فى الأفق، ويستعد للانقضاض على شعب مصر. وكان أهم قرار من الناحية العملية هو تكوين اللجان التنفيذية فى كل كلية عن طريق الانتخاب، وكذلك تشكيل اللجنة التنفيذية العليا للطلبة من مندوبين عن هذه اللجان فقد حول هذه الأهداف والشعارات إلى قوة مادية يمكن أن يكون لها وزن حقيقى إذا ما نجحت فى تنظيم جماهير الطلاب. أما القرار الأخير فقد كان عقد مؤتمر يوم ٩ أكتوبر فى مدرج "على إبراهيم" بكلية الطب بهدف إشراك الطلبة الجامعيين فيما تم، وبحث الخطوات القادمة التى يمكن القيام بها، وللاستفادة من الأيام الأولى للدراسة الجامعية قبل أن ينشغل الطلبة، محافظة على موجة التحرك الشعبى الصاعدة وتعظيمها.

شارك فى الوصول إلى هذه القرارات تيارات اليسار المختلفة التى لم أكن قد تعرفت عليها بعد، وجزء من قوى الوفد، وعلى الأخص الطليعة الوفدية والمرتبطين بها، أو العاطفين عليها، وعدد قليل من شباب الحزب الوطنى، وبعض المستقلين. حتى هذه اللحظة لم تكن قد شاركت فى هذا النشاط عناصر من الطالبات فيبدو أن دورهن كان محصورا فى كلياتهن، ولكن بعد

الانتخابات دخل الطالبات إلى اللجان التنفيذية فى الكليات، وإلى اللجنة التنفيذية العليا، وكانت هذه الظاهرة المهمة مقصورة على عدد قليل من الفتيات المنضمات إلى تنظيمات اليسار. أما الأحزاب التقليدية فقد ظلت بعيدة عن هذه التحركات، وكأنها تراقبها دون أن تحاول الاقتراب منها وهذا ينطبق على شباب الأحرار الدستوريين، والسعديين، والحزب الوطنى والكتلة الأساسية فى الوفد، فلم أرهم إلا عندما جاء موعد انعقاد المؤتمر.

وفيما يتعلق بالتيارات الأخرى المتمثلة أساسا فى "الإخوان المسلمين"، و"مصر الفتاة" فقد انسحبوا من الاجتماعات فى مرحلة مبكرة، وخططوا لأنفسهم طريقا خاصا كشفت عنه الأيام بعد أن تطورت الأحداث، وتبلورت المعسكرات السياسية المتعارضة..

فى أحد الأيام قادتنى خطواتى إلى حضور اجتماع فى مقر "الإخوان المسلمين" "بالحلمية الجديدة". فى هذا الاجتماع كان المتحدث هو "حسن البنا" المرشد العام. لم أكن قد سمعت عنه، أو رأيته من قبل. بدا لى شخصا عاديا بقامته القصيرة، وطربوشه، وربطة عنقه السوداء. فى هذا الاجتماع قال عن الإخوان المسلمين أنهم لا علاقة لهم بالسياسة فهم ليسوا حزبا، ولا يسعون إلى السلطة، إن هدفهم الأساسى هو نشر دعوة الإسلام الصحيح، وتقويم سلوك الأمة، وأخلاقها، ومقاومة الفساد.

كان مقر الإخوان بيتا كبيرا من طابقين أو ثلاث، جدرانه بيضاء، ونوافذه مغطاة بسواتر خشبية داكنة. جلسنا على السطح وجلس من حولنا شباب الإخوان على حصر، غطوا بها البلاط. وجوه سمراء ملتحية فيها جمود حازم، يحيطون بالمرشد من كل جانب. بين الحين والحين ترتفع أصواتهم بنداء موحد " الله أكبر " " الله أكبر " كلما قص عليهم قصة من التراث أعجبتهم، أو ذكر حديثا نبويا، أو تلا عليهم آية من الآيات. كان يسترسل فى الكلام ببساطة الخطيب الحاذق يعرف متى يتوقف، وما الذى يؤثر على أنصاره محاطا بسياج من الشباب الأقوياء البنية، المفتولى العضلات ليحموه من أى اعتداء.

لم أكن منسجمًا مع الجو العام. ربما حياتى المنغلقة كانت تحول دون أن أنتبه للجديد الذى يجرى أمامى، أن أتقبل ما هو مختلف عنى وأدرسه، أن أحاول استيعاب هذه التجربة حتى لو بدت متناقضة مع رؤيتى. بعد قليل سرحت. الليل من حولى صاف أرى النجوم واضحة فى السماء والقمر يختفى خلف سحابة خفيفة ثم يظهر من جديد ليسكب ضوءه السحرى على المنازل، وزجاج النوافذ. أرى المدينة من بعيد تنبض بالمصابيح، ويأتينى النسيم عبر المسافات حاملا ضحكات الناس، وصوت أم كلثوم فى المذياع، فاليوم هو الخميس الأول من شهر رمضان. أريد أن أسبح بعيدا فى هذا الليل الممتد، فى يدى أصابع فتاة وعلى ذراعى ملمس ثديها. أترك نفسى للسرحان، ثم أعود إلى صوت الرجل يسترسل فى الكلام، إلى الوجوه تتطلع إليه، وكأنه إله. من حولنا الحى القديم تتخلله أسرار غامضة، مثيرة للخيال. أرى امرأة تطل

من النافذة. ألمح خطوط جسمها قبل أن تطفئ المصباح، وأسمع نداء المجتمعين "الله أكبر" يصعد فى الليل الهادئ.

لم يكن من الممكن أن أجد فى هذا المكان ما كنت أبحث عنه، ولم أعد إليه. فقدت كل صلة "بالإخوان" فى مرحلة مبكرة، ولم تستأنف هذه الصلة إلا بعد عشر سنوات عندما وضعنا عبد الناصر سويا خلف أسوار الاعتقال. وقد حال هذا البعد عن حركة "الإخوان" دون أن أدرك أهمية تأثير هذا التيار الهام فى حياتنا.

ما حدث بالنسبة "للإخوان المسلمين" تكرر على نحو مختلف مع الحزب الوطنى. ففى تلك المرحلة سعت بعض قيادات هذا الحزب إلى بث الروح فى شرايينه المصابة بالتصلب منذ أيام "مصطفى كامل" و"محمد فريد" فعقدت الاجتماعات المتتالية فى مقره الدائم حضرها عدد من زعمائه مثل "حافظ رمضان"، و"نور الدين طراف"، و"فتحى رضوان" ممن تبنوا الدعوة لإعادة بناء الحزب، وتدعيم نشاطه عن طريق تجميع الشباب. كان الشباب فى تلك الفترة يتحرك فى كل المجالات باحثا عن قيادات جديدة تستطيع أن تقود البلاد فى مرحلة أخذت تسقط فيها القيادات السابقة، وتهتز الأفكار القديمة.

حضرت عددًا من هذه الاجتماعات. سمعت فيها كلاما عاما فيه حماس لقضية الاستقلال، ولكن أحسست أن ما سمعته فى "حوار الملاعب" كان أكثر إقناعا خصوصًا وأن المناقشات التى دارت فى الحزب الوطنى لم تتحول إلى عمل ونشاط بالإضافة إلى قلة عدد الذين كانوا يشاركون فيها مما أعطانى الإحساس بأن الحزب الوطنى لا وزن له.

كان افتتاح الجامعة إيذانا بنشاط واسع النطاق، ظللت أتحرك من حوله دون أن أنفذ إلى أعماقه. لم أشارك فى انتخابات اللجنة التنفيذية، ولم أعرف من هم المرشحون لها، ولم أدل حتى بصوتى. سمعت من بعيد عن معارك دارت بين الشيوعيين، والوفديين من جانب وبين الإخوان المسلمين من الجانب الأخر ولأول مرة ترددت فى أذنى كلمات مثل الجنازير، والمطاوى، وأسماء مثل "مصطفى موسى" زعيم شباب الوفد و"مصطفى مؤمن" زعيم الطلبة الإخوانيين لكنى لم أنقطع عن الاجتماعات التى كانت استكمالاً "لحوار الملاعب".

كان يوجد مدرس فى الكلية اسمه "أحمد فرج" من المولعين بالألعاب الرياضية، والبارزين فيها. رجل طويل القامة، عريض المنكبين تجددت بينى وبينه علاقة قديمة نشأت فى السنة الثانية لكلية الطب. فقد كان هو "العملاق" الذى أخرجنى من المشرحة يوم أن رفضت المشاركة فى المظاهرات التى قامت يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، احتجاجا على محاصرة الإنجليز لقصر عابدين.

كان "أحمد فرج" يستحوذ على مفتاح إحدى الحجرات الخاصة بالكلية باعتباره مسئولا عن الألعاب الرياضية، وكان يفتح هذه الحجرة لتعقد فيها اجتماعات اللجنة التنفيذية للطلبة، لتظل منعقدة أحيانا إلى ساعة متأخرة من الليل.

كانت الحجرة مخزنًا فرشت أرضه بالمراتب الكبيرة ليتدرب عليها الطلبة الذين يستعدون لمباريات المصارعة الحرة، أو الرومانية. عند آخر الاجتماع كنا ننصرف عن طريق سلم خارجى من الحديد كالذى يستخدم فى حالات الحريق، نهبط عليه فى طابور صامت حتى لا يتنبه إلينا أحد من الحراس، فالمبنى الصغير الذى توجد فيه الغرفة كانت تطل عليه مبانى مستشفى القصر العينى القديم.

فى ليلة من تلك الليالى، ونحن جالسون على المراتب تواترت الأخبار عن حدوث تحركات، واضرابات عمالية فى منطقة "شبرا الخيمة" بين عمال الغزل والنسيج. استولت على موجة من الحماس فخطر فى ذهنى سؤال لماذا لا نتصل بهم لنتحرك سويا. ربما جاءتنى الفكرة نتيجة ما سمعته من قبل عن دور "العمال والفلاحين". ترددت فى الكلام فلم يسبق أن تحدثت فى جمع من الطلبة لكنى بعد قليل وقفت واقترحت بصوت مرتعش "لماذا لا نتصل بالعمال فى "شبرا الخيمة" ثم جلست على المرتبة من جديد وسط الصمت وقد صعدت الدماء إلى وجهى. أحسست بالعيون مسمرة على وعندما طال الصمت قليلا ظننت أننى قلت شيئا كان يجب ألاَّ يُقال، وأن اقتراحى مرفوض. وددت لو أنى أستطيع أن أهرب من نظرة العيون التى ما زالت تحدق فى ولكن فجأة علت أصوات الاستحسان للفكرة التى قدمتها، وعلى الفور كلف عدد من الحاضرين فى اللجنة بهذه المهمة.

لا أعرف كيف تم الاتصال بعمال "شبرا الخيمة" وكيف بدأ التنسيق بين أعضاء اللجنة الوطنية للطلبة، وبين التنظيمات العمالية التى نشأت فى هذه الفترة مثل اللجنة التحضيرية لعمال شبرا الخيمة، ومؤتمر نقابات العمال والتى أخذت تعبئ قوى العمال فى المعركة لإجلاء الجيوش البريطانية عن مصر. يبدو لى أن فى كل ما حدث لم تكن هناك جهة تتحرك وحدها وتخطط وتنظم دون غيرها فالحركة كانت تتسم بقدر كبير من التلقائية، والمبادرات الفردية إلى جانب الجهود المبذولة فى إطار التنسيق بين التيارات، والتنظيمات، والأحزاب السياسية، واللجان الطلابية، ونقابات العمال التى شاركت فى تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال. كانت المسائل تتم بنوع من التفكير الفطرى السليم الذى يفرضه الواقع، والمناخ الجماهيرى والآمال الوطنية المحركة لبعض طبقات، وفئات الشعب المصرى وعلى الأخص البورجوازية الصغيرة والعمال. هذا المناخ الثورى فرض الشكل التنظيمى للتحالف الجديد بين تنظيمات الطلبة والعمال والذى خرج عن كل الأطر السابقة.

إذن من الصعب تحديد من اتخذ الخطوة الأولى لإقامة الصلة المباشرة بين الطلبة والعمال فالحركة اليسارية كانت تضم طلبة وعمال. هذا إلى جانب الجو العام، والتحركات الشاملة التى وصلت إلى كل الفئات فى المدينة يفسر السهولة والطبيعية التى تمت بها الأشياء. كما أن الوفديين كان لهم نشاط طلابى، وعمالى قديم يؤهلهم أيضا للمشاركة فى هذا التنسيق، بالإضافة إلى أن "الطليعة الوفدية" وهى مجموعة يسارية داخل "حزب الوفد" كانت لها علاقة وثيقة "بالديموقراطية الشعبية" إحدى تنظيمات اليسار.

بعد ذلك تم تغيير اسم اللجنة إلى "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة" وكان اليسار يهدف من وراء ذلك إلى إبراز دور العمال "الطليعى". لم أسترح إلى هذا التغيير فقد أحسست فيه بنوع من التزييف. كان دخول العمال فى اللجنة بالطبع حدثا مهمًا لا بسبب ثقلهم الاقتصادى والاجتماعى وحده، ولكن أيضا لأنه كان علامة على الوعى الجديد الوطنى الذى أخذ يتغلغل فى صفوفهم، واتجاههم إلى التحرك بشكل مستقل بعيدا عن الأحزاب البورجوازية. ولكن هذا لا يغير من الحقيقة التى عاشها الجيل الذى أنتمى إليه وهو أن المبادرين بالحركة كانوا من الطلبة، والمثقفين، الذين ظلوا على رأس الحركة رغم الدور المتزايد للعمال والإقرار بهذه الحقيقة مهم فهو يوضح كيف انتشرت الأفكار الجديدة من الفئات البورجوازية إلى العمال وكيف أن العمال لم يقوموا بدور طليعى فى ذلك الوقت.

كان تغيير الاسم نوع من التغطية على الواقع أو محاولة لسبق الأحداث فالشعارات والأسماء التى تأتى من أعلى هو أسلوب ساد فى حركة اليسار منذ البداية وكان تعبيرا عن بذور الانعزال فى الحركة الوليدة التى لم تتوسع فى علاقاتها بالجماهير.

هكذا أُتيح لى لأول مرة فى حياتى أن أحتك بالعمال، وأسمع منهم، وإن ظلت علاقتى بهم على السطح. لم أقابلهم إلا فى الاجتماعات، وهم منهمكون فى مناقشة القضايا المعروضة عليهم. فالتقيت بـ"مراد القليوبى" ممثل نقابة السينمائيين. كان يرتدى سترة زرقاء أنيقة، شعره لامع، ووجهه وسيم فلم أشعر أنه عامل حقيقى، و"حسين كاظم" ببشرته السمراء، وشاربه الأسود يلف جسمه القصير فى معطف من الصوف، وكوفيه تقيه من البرد و"محمد عبد الحليم" "وسيد فهمى" عن نقابة عمال المطابع الأميرية واللذين كانا يعملان فى شركة مطابع مصر فى الأعمال الإدارية وليس على آلات الطباعة. لكن إلى جانب هؤلاء جاء عامل من شركة ترام الإسكندرية اسمه "نجيب سوس" مرتديا بزة الكومسارى "الخاكية" و"الكاب". كان طويل القامة عريض الجسم، شواربه السوداء كثة، ومبرومة عند الطرف، وصوته مبحوح. فأحسست أنه عامل بالفعل كذلك "محمود الضمرانى" بجسمه الصغير الحجم، وملامح وجهه الخشنة المرهقة، عندما أسترجعها تظل غير محددة، متزاحمة فوق الوجه ولا أستطيع رؤية عينيه بوضوح. ربما كانتا صغيرتين أو فيهما تورم فى الجفون، أو حول. بدا لى كأنه ينتمى إلى عالم

أخر غير عالمى. جاء مندوبا عن "اللجنة التحضيرية لعمال "شبرا الخيمة" وفيما بعد قالوا عنه أنه أصبح نقابيا أصفر، يخدم أصحاب الشركات ضد العمال، وادعى آخرون أنه تحول إلى "جاسوس" مرتبط "بالبوليس" ولا أحد يعرف الحقيقة فالاتهامات البوليسية راجت فيما بعد بين تيارات اليسار، وفى حركة العمال بسبب التنافس والصراع، والعنف، والقهر البوليسى المستمر.

فى اللجنة الوطنية التقيت أيضا بطالبتين من الجامعة "لطيفة الزيات" و"ثريا أدهم" وحضرت اجتماع فى بيت "أحمد الجندى" ابن زعيم المعارضة الوفدية "يوسف الجندى". لا أتذكر سوى أن البيت كان لونه أصفر، وكانت نوافذه مغطاة بشيش داكن ظل مغلقا كأنه لا أحد يسكنه. جلسنا فى "البدرون" فى صالة واسعة فيها مكتب، ومقاعد من الجلد، وبساط أحمر يلقى بلون وردى على الجدران تحت إضاءة النجفة المتدلية من السقف. كان "أحمد الجندى" على صلة وثيقة بـ"عبد الحميد عبد الحق" وزير الشئون الاجتماعية فى وزارة الوفد التى جاءت إلى الحكم أثناء الحرب. يعمل فى المحاماة ويحاول أن يقوى صلات الوفد بالحركة العمالية. لاحظت أثناء الاجتماعات أنه مهتم بعمال النقل العام، وعلى الأخص بـ"نجيب سوس" الذى كان سكرتير عام نقابة عمال الترام.

ولكن أهم الاجتماعات كانت تلك التى حضرتها فى الغرفة التى كان يفتحها لنا "أحمد فرج". أصعد السلالم بشعور من الرهبة. الحجرة واسعة الأرجاء، بيضاوية الشكل، مثل الحلبة بسبب خلوها من الأثاث، وبسبب المراتب المفروشة على الأرض. عند الباب يقف "أحمد فرج" بقامته الطويلة وملامحه السمراء تبدو مفعمة بالغضب رغم أن صاحبها هادئ الصوت والطبع. على المراتب صفوف من الشباب جلسوا القرفصاء كتلة واحدة مترابطة تغطى كل شبر من الأرض ما عدا دائرة صغيرة فى الوسط، كتلة تتحرك بحركة واحدة تجتاز الوجوه الشاحبة وتتنهد بنفس واحد كلما نفذ الكلام إلى أعماقها. تثور، ثم تهدأ، ثم تضحك بصوت واحد. الجو ساخن يحلق فيه توتر الصراع المنتظر، وجسارة الجماعة تغرق المخاوف تحت أمواج الغضب الصاعد والعيون تحملق فى المساحة الخالية كأنها ستشهد شيئا جديدًا، ومدهشا، وعظيما يولد. فهنا بعد أن انتهت اجتماعات الملاعب أتخذ القرار بتحويل "اللجنة الوطنية للطلبة" إلى "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال" الذى أقام نوعًا جديدًا من التحالف ضد الاستعمار وأعوانه. جنين يزحف فوق أرض المعارك بأيديه، وأقدامه. ينذر بقدراته، ويثير صراعا للقضاء عليه أو محاصرته.

يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ زحفت مظاهرة عاتية من الجامعة لترفض المفاوضات مع الإنجليز التى استمرت أكثر من سبعين سنة. سارت نحو"كوبرى عباس"(١) فى طريقها إلى سراى

(١) كوبرى الجيزة.

"عابدين" فى قلب العاصمة فصدرت الأوامر من "النقراشى باشا" رئيس الوزراء إلى حكمدار العاصمة بفتح الكوبرى حتى لا تمر. حوصر الطلبة بين صفوف العسكر، بين شلال من الخوذات والدروع، والعصيان أنهمر من الشوارع الجانبية ليطاردهم من الخلف، وبين مياه النيل تتلألأ فى الشمس وتشق طريقها وسط أرض الجيزة الخضراء.

قفز بعض الطلبة فى المياه عندما فتح الكوبرى وانهار عليهم ضرب الفرق السوداء، ووقع البعض الآخر تحت الأقدام، وحمل عدد كبير من المجروحين إلى المستشفيات. سقطت العصى على أجسام نحيلة لم تعرف سوى القهر والحرمان، ثم ابتلعتها سيارات البوليس لتوزعها على النقاط والأقسام. لا أحد يعرف أسماء الذين قيل إنهم ماتوا، فقد اختلفت الآراء فمن قائل أنهم كانوا بالعشرات ومن قائل إنهم لم يزيدوا على أصابع اليد الواحدة، ومن قال لا أحد مات وهكذا ضاعت الحقيقة، فقد ضاعت الأسماء أو تم إخفاؤها.

عند آخر النهار ذهبت إلى مكان المظاهرة. سرت على قدمى حتى "كوبرى عباس". الكون من حولى ساكن فيه جو من الحزن، والهجران، فالشوارع خالية من الناس. عرفوا بالمأساة فاختفوا فى بيوتهم لكن الطبيعة كانت تستعرض نفسها غير عابئة بالمأساة. الشمس تنحدر نحو الأفق، وتطل من تحت السحاب. تلمس الشوارع الإسفلتية القاتمة، ومياه النيل، ورءوس النخيل بأضواء، ذاب فيها الورد، والأرجوان، والبنفسج فى لوحة ساكنة غاب عنها صخب الحياة.

لم يبق من معركة الصباح سوى الإسفلت العارى ترقد فوقه اللافتات إنثنى قماشها الأبيض طاويا الكلمات، أو قطع من قوائمها تناثر خشبها هنا، وهناك، أو بقع من الدماء القانية كالصدأ المختلط بالتراب، أو طربوش أحمر رفسته الأقدام فتوارى قرب سور حديدى بعيدا عن الانظار وإلى جوار الكوبرى كتاب يعرض صفحاته بصمت للسماء.

وفى صباح اليوم التالى سقط "النقراشى"، ليصعد مكانه "إسماعيل صدقى باشا". أسفل الطربوش الطويل الذى يرتديه وجه طفل عجوز متورد الوجنات، وعينان تطلان بزرقة باهتة فيها حياد، وحول العنق القصير فيونكة كتلك التى يضعها الإنجليزى حول عنق الكلاب.

كان لهذا الرجل شهرة واسعة ففى سنة ١٩٣٠ ألغى الدستور ليفرض حكما استبداديا لا حرية فيه ولا قانون. عندما أضرب عمال السكة الحديد حاصرهم بقوات البوليس فى العنابر، وأطلق عليهم الرصاص فكانت مجزرة قتل وجرح فيها المئات. لذلك يهابه الجالسون على المراتب فى الحجرة البيضاوية. أدركوا على الفور خطورة الصراع الذى سيقوم مع هذا الرجل العجوز الذى جاء ليصفى حركتهم تمهيدا للاتفاق مع الإنجليز، فقرروا ضرورة المبادرة بالهجوم يدفعهم ذلك الحس السليم الذى قاد خطواتهم منذ أن تخلصوا من سيطرة الأحزاب.

أعلنوا عن تنظيم يوم قومى للاحتجاج الجماهيرى على حوادث "كوبرى عباس" وعلى استمرار الاحتلال الإنجليزى، رافعين شعارات إيقاف المفاوضات، وضرورة الاعتماد على كفاح

الشعب المسلح. وزعت المسئوليات المتعلقة بالإعداد لهذا اليوم على الحاضرين، ومن بينها إعداد بيان يدعو للإضراب السياسى العام يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ على أن يوزع البيان على الصحف والإذاعة فور إعداده.

كانت خطة "صدقى باشا" فى مواجهة الحركة الشعبية تعتمد على تهدئة الأمور وتفادى اللجوء إلى القمع المباشر حتى يستطيع أن يستغلها كعنصر ضغط فى مفاوضاته مع الإنجليز. كجزء من هذا الخطة أبدى رغبته فى إجراء لقاء مع وفد من أعضاء اللجنة الوطنية للعمال والطلبة. لا أعرف كيف تم الاتصال باللجنة، ولا كيف اختير الوفد الذى ذهب للقائه فى مكتبه بوزارة الداخلية. كل ما أذكره هو أن عدد أعضاء الوفد لم يزد عن ستة أو سبعة. هكذا وجدت نفسى متجها إلى وزارة الداخلية لمقابلة "صدقى باشا"، ولأشارك فى أحداث هزت المجتمع دون أن أتبين إلى أين أسير.

دخلنا الواحد بعد الآخر من الباب ذى الضلفتين المبطنتين بالجوخ الأخضر، الموشى برءوس المسامير يبرق نحاسها ببريق عسكرى. وجدنا أنفسنا فى حجرة ضخمة ترددنا أمام مساحتها غير العادية تشبه أماكن العبادة، وقصور السلاطين. أشار إلينا مدير مكتبه بيده كى نتقدم قائلا: "تفضلوا" فاستأنفنا السير. وقع خطواتنا يختنق فى البساط السميك. توقفنا من جديد على مسافة من المكتب الداكن اللون يبث إحساسًا بالقوة الراسخة، وبالأسرار المدفونة فيه. جاء مكانى على اليسار إلى جوار نافذة يطل زجاجها على حوش الوزارة. ألمح صفًا من السيارات اللامعة تجمع عند طرفها مجموعة من السائقين النوبيين. نظرت إلى معصمى. كانت الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة.

خيم الصمت فى الحجرة الكبيرة، فلا صوت ينفذ من جدران المبنى المتين، ولا من النوافذ المحصنة بلوحين من الزجاج، ولا من الأبواب المزدوجة المبطنة بالجوخ الكاتم للأصوات. ففى محراب الحكم يجرى كل شىء فى هدوء. لا يصل إلى هذا المكان سوى صاحب الحظوة، أو العبد المطيع. لا أحد سواهما يستطيع أن يجتاز المسافة التى تفصل بين الباب الحديدى المطل على شارع الشيخ "ريحان" تظلله الأشجار، ويلمع سطحه الأسود من كثرة الكنس، والرش بالخراطيم، وبين الباب الداخلى المبطن بالجوخ الذى يقود إلى مكتب رئيس الوزراء. فالمسافة بين هذين البابين قصيرة لا تتعدى عشرات الأمتار بما فيها مسافة ارتفاع المصعد إلى الطابق الأول يهيمن بلونه الثرى الداكن على الدرجات الرخامية.. مع ذلك هى طويلة طول العمر الذى يقضى فى نسج العلاقات، والانحناء، وقول ما يرضى الحكام، والمقربين. وإذا أردت أن تجتاز هذه المسافة القصيرة الطويلة إلى مكتب رئيس الوزراء دون أن تكون من بلاط الحكام أو من خدمهم فلا بد أن تخترق صفوف العيون التى تفرزك فرزا دقيقا وتفحص حذاءك، وملابسك، ووجهك بنظرات سريعة مدربة، وتتساءل عن أصلك وفصلك، ووالديك، وأجدادك وأطيانك،

وحساباتك فى البنك وما هى الخدمات التى يمكن انتظارها منك. فالمسافة القصيرة التى تفصل بين الباب الحديدى الأسود الذى تتحرك حوله عيون الشرطة السرية، والباب الأخضر المطل على معالى الرئيس هى المسافة الطويلة التى تفصل منذ الأزمنة القديمة بين الحكام والمحكومين، هى الهوة المحفورة بين الذين ينتمون إلى طبقة السلاطين بالوراثة أو الذين تسلقوا السلم الملتوى إليها لاهثين وراءها فى النهار والليل وبين من يكدحون بعقولهم، وأجسامهم ليحصلوا على لقمة العيش.

ومع ذلك اجتزنا المسافة إلى باب معالى الرئيس فى غمضة عين. وصلنا على الموجة الجماهيرية الزاحفة فى الشوارع والميادين، فوق أجساد الذين سقطوا ورفعوا أعلام التحرير. وقفنا فوق البساط الوثير بأحذيتنا المتربة وقد تملكتنا مشاعر مختلطة من الرهبة، والتحدى، وإدراك غامض بأن ثمة شىء خطير يحدث، وإن كانت خطورته الحقيقية خافية علينا. مجموعة صغيرة من الفتيان ألقت بنفسها فى محيط متلاطم دون أن تعلم الكثير عن الطريق الذى ستجتازه، ودون أن تكون لديها بوصلة حقيقية، ودون أن تعرف إلا القليل عن التيارات الخفية والقوة العاتية المحنكة المتربصة بها كسمك القرش يختفى فى أعماق المحيط، مجموعة صغيره لا تعى الكثير عن المجتمع، أو الناس، أو السياسة كما كانت تمارس فى بلادنا ومع ذلك أوصلتها الأحداث، وبصيص من الوعى إلى مقدمة الصفوف.

خلف المكتب الكبير جلس "إسماعيل صدقى باشا". عندما وصلنا إلى منتصف الحجرة رفع رأسه ليطل علينا بنظرة هادئة مستطلعة من عينيه الزرقاوين، وابتسم وجه الطفل البرىء كأنه يعبر عن ترحيبه بنا. على الجانب الأيمن من المكتب رجل يرتدى طربوشا لونه أحمر قانى، ونظارة سوداء تخفى عينيه. يقف بلا حركة كالتمثال الأعمى[1].

قام "صدقى باشا" من مقعده. دار حول المكتب بخطوات قصيرة راقصة، وأسند عجزه عليه متجها إلينا حيث كنا نقف على بعد قليل منه كأنه يريد أن يلغى الرسميات بينه وبيننا. رمقنا بنظره طويلة ثم بدأ يتكلم.

طلبت مقابلتكم لنتناقش فى الوضع الحاضر، ولنتعاون فى مواجهته. أريد أن أصارحكم القول. أنا رجل لم يبق له من العمر كثيرًا لذلك أتمنى أن أختتم حياتى بعمل كبير، أن أحقق الآمال التى يتطلع إليها كل المواطنين، أن أحقق الاستقلال الذى طال انتظاره ولكن حتى نمكن الحكومة من أن تعمل فى جو مناسب وتتفرغ لانتزاع الحقوق من الإنجليز لابد أن تبقى الحالة فى البلاد هادئة، ألاّ نسمح لهم ببذر بذور الفرقة بين صفوفنا. لا أستطيع أن أواجههم بقوة بينما تظل خطوطى الخلفية معرضة للضربات. لذلك يجب أن نقف يدا واحدة فى مواجهتهم.

(١) حسن رفعت باشا وزير الداخلية.

يجب أن نتحد شعبا وحكومة لنيل حقوقنا. الخصم محنك، وعنيد، وأنتم شبان متعلمون تستطيعون إدراك هذه الحقيقة. يجب أن تقدروا حدود الدور الذى تستطيعون القيام به، إن هناك من هم أعلم منكم فى السياسة فقد خاضوا بحورها منذ زمن بعيد، وأن ما تقومون به من اتصالات بالدهماء يقصد العمال) أمر مضر، وغير مفهوم. فما الذى يجمع بين شباب متعلم مثلكم وبين الجهلة؟ لماذا لا تتعاونون مع الحكومة فى تحقيق الأهداف التى نسعى جميعا إلى تحقيقها؟

سكت عن الكلام، وأخذ يتطلع إلينا كمن ينتظر الإجابة، فتنحنح "عثمان جبر" وتحرك خطوة قصيرة إلى الأمام، واضعا يديه خلف ظهره. بدأ يتكلم بصوت فيه رعشة خفيفة.

"معالى الباشا" نريد أن نعرف ماذا ستكون وسيلتكم لنيل الاستقلال؟"

حملق فينا رئيس الوزراء لحظة طويلة. بدل من وضع جسمه على طرف المكتب، ثم أخذ يتحدث من جديد، دون أن يغير من نبرات صوته.

أليس من الأفضل أن تتركوا مثل هذه المسائل لرجال الحكم، وأن تنصرفوا إلى تحصيل دروسكم، وإلى شق طريقكم للمستقبل؟ أتظنون أنكم تعرفون أكثر منا أين توجد مصلحة البلاد؟ ما لكم أنتم وهذه المسائل.؟ لماذا تخالطون الرعاع؟ هل إثارة الفتن يمكن أن يكون فيه خير للبلاد؟

انفتح الباب فى تلك اللحظة، ودخل رجل اجتاز الحجرة من أقصاها إلى أقصاها. عندما اقترب منا ألقى علينا التحية قائلا: "السلام عليكم يا أبنائى" ثم وقف قرب "صدقى باشا". نظرت إليه من طرف عينى. كان طوله فوق المتوسط وجسمه نحيل. الوجه أسمر رفيع، والأنف مدبب تحته شارب صغير أشيب الشعر. كان يرتدى سترة سوداء، وبنطالا من نسيج يغلب عليه اللون الرمادى الداكن وتتخلله خطوط بيضاء مستطيلة[١].

استطرد "صدقى باشا"..

لقد طلبت مقابلتكم حتى أوضح لكم الموقف كما نراه. المظاهرات، والإضرابات لن تؤدى سوى إلى إضعاف موقفنا أمام الإنجليز، وبث الفتنة فى البلاد بحيث تنشغل الحكومة فى القضاء عليها بدلا من أن تواجه الخصم بقوة متراصة الصفوف. دعونا نعمل بهدوء، ونتشاور مع كل الأطراف. وضعوا ثقتكم فى الحكومة. أنا لا أريد شيئا فى الحياة أكثر من أن يتحقق استقلال مصر على يدى. الشباب المتعلم يجب الاعتماد عليهم، فهم قادرون على إدراك الأوضاع، وفهم أهمية مساندة الحكومة. ومع ذلك وصل إلى علمى أنكم تعدون للقيام بحركات

(١) لطفى السيد وزير التعليم العالى (المعارف) آنذاك ومؤسس الجامعة المصرية.

شغب واسعة النطاق بين الناس وهذا سيجلب أوخم العواقب على البلاد التى أصبحت مسئولا عن أمانها. لابد أن أحذركم من مغبة مثل هذه التصرفات الرعناء. لا تظنوا أن حكومتى تخشى على نفسها منكم، أو من غيركم، فهى تستطيع أن تتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية البلاد وفرض الهدوء، ولكنى أحدثكم من زاوية مصلحتكم أنتم، والمصلحة العامة التى يجب أن تضعوها نصب أعينكم بدلا من أن تتساقوا فى أعمال لا يقوم بها إلا الدهماء.

لم يتحرك أحد منا طوال الكلام الذى وجه إلينا، ولم ينطق أحد بشىء كرر "عثمان جبر" سؤاله فرنت الكلمات فى الحجرة كالتحدى.

"يا معالى الباشا نريد أن نعرف ماذا ستكون وسيلتكم فى تحقيق الاستقلال"..

ضغط الرجل ذو النظارات السوداء الذى كان لا يزال منتصبا إلى جوار المكتب على شفتيه بحركة تكاد لا ترى، ومال برأسه إلى الأمام كأنه يتأهب للقيام بخطوة ما. جاء صوت صدقى باشا هادئا كما كان، ولكن فى ثناياه، أحسست بقسوة مستترة. تردد عبر المسافة مثل ضربات مطرقة صغيرة على لوح من الزجاج.

"وسيلة حكومتى هى المفاوضات."

"المفاوضات مستمرة منذ سبعين عاما، ولم يخرج الإنجليزى."

ماذا تريدون إذن إن كنتم ترفضون المفاوضات؟"

"قوة الشعب هى التى سترغم الإنجليز على الجلاء."

ابتعد "صدقى باشا" عن المكتب مسافة قصيرة كأنه يتأهب لإنهاء المناقشة. قال بشىء من نفاذ الصبر.

هذا بالضبط ما أطلبه أن يساند الشعب الحكومة فى الخطوات التى تزمع اتخاذها وألا يشعر الخصم بأى خلل فى صفوفنا. إننا نطلب منكم أن تنصرفوا إلى دروسكم، وتتركونا لكى نعمل. فمسئوليتكم أنتم فى تحصيل العلم. أما شئوننا نحن فهى تتعلق بالحكم، ولا يجوز أن تخلطوا بين الاثنين، وأن تدخلوا فى مجال ليس هو مجالكم.

تدخل الرجل الذى دلف إلى الحجرة منذ قليل، وظل واقفا على مسافة من "صدقى باشا" دون أن يشارك فى المناقشة.

"لو أذنت لى يا معالى الباشا. هؤلاء كلهم أولادى، وأنا أدرك مشاعرهم، لكنى أريد أن أقول لهم أن العلم هو طريق بناء الأمة فليكرسوا جهودهم فى الإعداد للمستقبل حتى يساهموا فى بناء وطن حر، قادر على شق طريقه بين الأمم".

التفت إليه "عثمان جبر" لانت ملامحه لتحل محل التحفظ الذى كان باديا عليها علامات الود والاحترام. تغيرت نبرات صوته كأنه يتحدث إلى رجل له مكانة خاصة. قال:

"يا معالى الوزير نقدر مشاعرك إزاءنا وحرصك على أن نقوم بدورنا فى المستقبل، ولكن البلاد فى منعطف خطير، وهى بلادنا جميعًا. فإذا لم يهتم شبابها المتعلم بما يحدث فيها الآن، وبمصيرها، فمن يهتم"؟

جاءنا صوت رجل لم ننتبه إليه وهو يدخل. كان يجلس خلفنا إلى جوار النافذة فى صمت ممسكا بعصاة لها مقبض من العاج، والفضة المشغولة. شواربه شديدة السواد ومفتولة عند الطرف. يرتدى طربوشا قرمزى اللون مال على جانب. بدا لى كأحد الممثلين أو من أهل الطرب.

"لماذا لا تعقدون الندوات الأدبية فى حرم الجامعة تلقون فيها القصائد الوطنية، أو تدعون بعض الوزراء للاستماع إلى آرائهم فى الموقف ثم تنصرفون إلى قاعات المحاضرات فى نظام تاركين الأمور للأيدى الأمينة التى تولت شئون البلاد؟."

التفتت إليه عيوننا فى حركة واحدة، ونظرة واحدة اختلطت فيها الدهشة بالسخرية ثم عادت من جديد إلى "صدقى باشا" الذى كان لا يزال يقف أمام المكتب. لم يعلق على كلامه أحد، كأن ما قاله لا يستحق التعليق. ساد السكون بضع لحظات، سكون لا يقطعه سوى طنين ذبابة كبيرة افلتت إلى الحجرة. تحولت زرقه العينين الباهتة فى وجه "صدقى باشا" إلى ما يشبه لون الرصاص. قال فى نبرة خشنة جافة:

"هل أفهم أنكم ما زلتم مصممين على إثارة الشغب؟"

قال "عثمان جبر".

نحن مصممون على أن الجلاء لن يتحقق إلا إذا تحرك الشعب وأرغم الإنجليز على ترك البلاد."

مرت عينا "صدقى بشا" علينا بنظرة بطيئة، ثقيلة.

إذن يجب أن أحذركم من الطريق الذين تسيرون فيه. إنه طريق محفوف بالمخاطر على مصالح البلاد العليا، والحكومة ليست على استعداد لأن تترك لأحد فرصة العبث بهذه المصالح. سنضرب بيد من حديد على كل من يثير الفتنة، ويحرض الغوغاء. لتكن هذه المسألة واضحة. ما زال أمامكم متسع من الوقت للتفكير وأنا مستعد لاستقبال أى عدد منكم يطلب مقابلتى فى الأيام القادمة.

لوح بيده إلى الرجل ذى النظارة السوداء، فتقدم إلينا. سرنا وراءه حتى باب الحجرة فى طابور صامت. ظللنا صامتين حتى خرجنا إلى الشارع. أشعر بشىء كالثقل فى القلب اختلط بخوف غامض، كأن ثمة آمال تحطمت. اقتربت من "عثمان جبر" الذى ظل صامتا هو الأخر وسألته:

"من هم الرجال الثلاثة الذين حضروا معنا المقابلة"

قال:

" صاحب النظارات السوداء هو "حسن رفعت باشا" وزير الداخلية، والرجل الأسمر النحيل الذى دخل أثناء المناقشة هو "لطفى السيد" وزير المعارف، توقف لحظة واعوجت شفتاه الغليظتان فى ابتسامة سريعة ساخرة، أما "الجالس إلى جوار النافذة فهو "دسوقى أباظة باشا" وهو يعتقد أنه شاعر".

عندما ذهبنا إلى اللقاء مع "صدقى باشا" لم نكن قد تداولنا فى خطة واضحة يمكن أن يجرى حولها النقاش، ولم يكن الوفد الذى حضره يمثل مختلف الاتجاهات فى " اللجنة الوطنية للعمال والطلبة". لم تنضم إليه أكثر عناصرها نشاطا لأسباب لا أعرفها. ربما آثرت العناصر البارزة البعد عن هذا اللقاء، أو لم يتم اتفاق ما بين مختلف الأطراف، أو انفرد "عثمان جبر" بتكوين الوفد.. لكن الأهم من ذلك كان غياب الاقتراحات المحددة والخطة الواضحة لمواجهة الإنجليز وأعوانهم. لقد كان الاتجاه العام هو رفض المفاوضات، ومطالبة الإنجليزية بالجلاء وهو اتجاه قريب من موقف الحزب الوطنى التقليدى الذى ظل يرفع شعار "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء" ولكن رفض المفاوضات لم يكن يترك سوى بديل واحد هو التعبئة الشعبية الواسعة تمهيدًا لبدء الكفاح المسلح.

ولكن كيف يمكن أن يتم الإعداد لهذه المعركة الواسعة النطاق؟ وما هى الخطوات التى تسبق هذا الإعداد؟ وما هو موقف ودور القوى السياسية والاجتماعية المختلفة وهل يمكن الجمع بين الكفاح الشعبى والمفاوضات؟

لم تكن هناك إجابة على هذه التساؤلات رغم وجود حد أدنى من الاتفاق حول رفض المفاوضات، وتكوين جبهة شعبية أو وطنية واسعة لمقاومة أى تهادن مع الاستعمار الإنجليزى أو أى اتفاق يكرس بقاءه بشكل أو آخر.

بعد اللقاء مع رئيس الوزراء بثلاثة أيام تركت الكلية فى منتصف النهار، وتوجهت إلى "ميدان العتبة". تناولت طعام الغداء فى مطعم صغير للفول يقع فى بداية شارع "محمد على" ثم انتقلت إلى مقهى كبير انتشرت موائده على رصيف الميدان عند ناصية شارع الأزهر. جلست أحتسى الشاى وبعد قليل حضر "زميل" فقمت، وتوجهنا إلى أحد البيوت فى حى "المنيرة". كان

بيتًا كبيرًا من بيوت الأعيان يقع على مسافة قصيرة من سكة حديد "حلوان". عندما ضغطنا على الجرس فتح لنا شاب أسمر، طويل القامة انتفخت جفونه من النوم. أدخلنا فى حجرة صغيرة على يسار الباب فيها كنبة، وبعض المقاعد، ومائدة بيضاوية، قرصها من الرخام. غاب بعض الوقت ثم عاد يحمل آلة كاتبة. أخرج زميلى البيان الذى أحضره معه، وأخذ الشاب يكتبه على الآلة الكاتبة. بين الحين والآخر يتوقف ليسأله عن كلمة. بعد أن انتهى من الكتابة أعطانى نسخة من البيان، ووضع النسخ الثلاث الأخرى فى جيب معطفه ثم انصرفنا.

فى الساعة السادسة مساء كنت أصعد درجات مبنى الأهرام. عند الاستقبال قمت بتسليم البيان فى مظروف كتب عليه. "حضرة المحترم الأستاذ رئيس تحرير الأهرام". انتظرت حتى صعد به أحد السعاة إلى مكتب رئيس التحرير، وعاد ليبلغنى أنه تسلمه شخصيًا، ثم انصرفت هابطا على الدرجات تحت المطر.



الفصل السابع

٢١ فبراير سنة ١٩٤٦

تحولت الشوارع إلى أنهار من البشر تتدفق من أطراف المدينة إلى قلبها. تفجرت ينابيعها فى المصانع، والكليات، والمدارس، وفى كل مكان يعمل فيه الإنسان. الأنهار ترفع فوق سطحها أشرعة بيضاء كتبت عليها آمال أمة بأسرها، ونداءاتها للكفاح، والأشرعة مربوطة فى عواميد من الخشب ترفعها أذرع الشباب، والعمال، والموظفين والنساء. تبدو مثل أسطول من الفلك تتهادى مع تيارات المياه. الأيدى مرفوعة فى الهواء تهتز كالأمواج الصغيرة المضطربة أثارتها الرياح. هنا وهناك صعد رجل فوق الأكتاف طربوشه الأحمر، أو عمامته، أو منديله أو غطاء رأسه يصعد مع الأمواج فيظهر عاليا فى الهواء، أو يهبط ليختفى قليلا ثم يظهر بعدها بخطوات كأنه يتقدم مع التيار. الأصوات المنفردة تهتف فترد عليها أصوات الجموع كالرعد ينتشر فوق المسافات.

الأنهار تصب فى الميدان الضخم. أنهار من مختلف الألوان. نهر أزرق يتدفق من "شبرا الخيمة"، من ضواحى صناعية فى الشمال، ونهر أصفر يأتى من عنابر الترام "فى شارع "ماسبيرو" ونهر أحمر ينهمر كالشلال من شارع "الأزهر"، "وحى الحسين" إلى العتبة، ثم يتفرع بين شوارع وسط المدينة ليتجمع من جديد فى الميدان،[1] ونهر أبيض يأتى من مستشفى القصر العينى، وكلية الطب سائرا فى شارع القصر العينى مثل أسراب الحمام، ونهر يتسرب ضعيفا، هزيلا قبل أن تتضخم مياهه السوداء[2] كالغضب الفائر من بطن الأرض.

فى الميدان اختلطت كل الروافد فى نسيج واحد متعدد الألوان، واندمجت كل الأصوات فى لحن واحد ولد منذ سنين طويلة فى حوارى "كوم الدكة"[3]، وانصهرت كل النداءات فى هتاف واحد "للاستقلال"، وتلاحمت ملايين الأجسام لتصبح جسداً واحدا عملاقا يزحف على سيقان مستترة بإصرار نحو الثكنات. شىء كالطوفان الجارف أزاح عن طريقه الجنود، والخيول،

(١) ميدان الإسماعيلية أو التحرير.

(٢) رجال البوليس.

(٣) مكان ولادة السيد درويش.

والدروع، والرماح، والاستحكامات، بدد الخوف والتردد واليأس، وأصوات التهدئة، ونصائح الحكماء، ومؤتمرات الرابضين فى "قصر الدوبارة"[١] وقصر عابدين[٢].

وجدت نفسى بين الجموع محمولا مع الأمواج، جزءا من هذه الكتلة البشرية الممتدة كالبحر، فردا واحدا أصبحت إرادته من إرادة الكل وضاع صوته فى الهتاف الواحد، واللحن الواحد، واندمج جسده فى الجسد الواحد. أحسست بوحدة السنين تذوب، بالنشوة المختلطة بالخوف. أمشى بسيقان الجموع. أتقدم معهم دون أن أسعى إلى التقدم، وأقف دون أن أقرر الوقوف. لا أرى أين أسير. أنساق كالمسحور إلى مصير مجهول، إلى مصير الأمة، فلأول مرة منذ أن ولدت أصبحت جزءا منها، مصريا فى مصر.

وصلت مع الجموع أمام الثكنات. لمحت من خلف قضبان السور قبعات، وبنادق، وعيون، وفجأة سمعت صوتًا كالصفير، كأسراب من النحل تطير فى الهواء، ثم فرقعات عالية متتالية تكاد لا تسمع وسط الهدير. أنشق الجدار الآدمى من أمامى كأنه سطر بساطور لتتفتح فجوة عميقة كالجرح. ارتدت الموجه البشرية إلى الوراء، وجرى الناس هنا وهناك. أراهم كالأشباح عيونهم مجنونة فلا أعرف أن كانوا من الإنس أو الجن، ثم سقطت أجسام، أو انحنت فوق الأرض، وسال الدم الأحمر على الإسفلت. عدوت مرتدا فى شارع "البستان". أشعر أننى مكشوف بلا درع، بلا دفاع، أن الرصاص قد يأتينى من أى فج. أشعر بالعرى، والعجز، بالرعب ثم التأمت الفجوة كأن الجموع تسد الجرح قبل أن يزيد النزيف أو يمتد. لمحت شيخا معممًا مرفوعًا فوق الأكتاف. سمعته يصرخ "إلى الأمام إلى الأمام الاستقلال أو الموت". تقدمت الأجسام المتراصة تزحف بلا خوف، وتطايرت فى الهواء كرات من النار حملها شبان من محطة البنزين إلى سور الثكنات ليلقوها على الجنود الرابضين هناك ثم ترددت الطلقات من جديد عالية، قاتلة، تثير الرعب، فتقهقرت الجموع هاربة فى الشوارع خلف الميدان. .

فى شارع "البستان" كانت تقف سيارة صديقى "على الشلقانى"[٣] سيارة صغيرة طرازها عتيق لها عجلات كبيرة وإطارها رفيع مربوط بالأسلاك. وقفت إلى جوارها التقط أنفاسى. لمحت وجهه الشاحب، وعيناه كساهما احمرار مفاجئ. وقفنا متجاورين فى صمت كأننا لا نعرف ما الذى يمكن أن نفعله. من وسط الزحام جاء شاب يجرى. توقف إلى جوارنا وقال لاهثا.

"هناك جريح نريد أن نحمله إلى الإسعاف".

---

(١) مقر المعتمد البريطانى.

(٢) قصر الملك.

(٣) أصبح صاحب مكتب محاماة فى الزمالك بعد أن مرت حياته بمراحل مختلفة مع اليسار ثم مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

أشار إلى شاب آخر كان يجلس على السلم فى مدخل إحدى العمارات مسندا رأسه على ركبتيه. اقتربنا منه فوجدنا الدماء تنتشر على الجزء الأعلى من كم سترته. عاونته على خلع السترة بحرص. كان يئن من الألم. وجهه فى بياض القميص، وعلى عنقه حسنه سوداء كبيرة. أخرجت منديلى وشددت به حول الذراع أعلى الجرح الذى يسيل منه الدم. يدى ترتعش فافلتت منى العقدة عدة مرات، ولكن بعد محاولات تكررت أحكمت الرباط. سرنا نحو السيارة. أدخلنا الشابين ليجلسا على المقعد الخلفى، وركبت أنا إلى جوار "على الشلقانى". "تحركت السيارة ببطء وسط الزحام وفجأة هجم علينا جمع من الشباب، وأخذوا يصرخون ويدقون بقبضاتهم على السقف بعنف. كان دق قبضاتهم على صاج السيارة مثل صوت القنابل. لمحت العيون تطل علينا من الزجاج بكراهية. لا أرى شيئا سوى الأجسام، والوجوه، والأذرع تنهال. بدا لى أنهم سيهشمون السيارة ونحن بداخلها ففتحت الزجاج وأخذت أصرخ.

"معنا جريح، معنا جريح سنأخذه إلى الإسعاف، نحن من أعضاء اللجنة الوطنية يا ناس".

بدا عليهم عدم التصديق. هجموا على السيارة من جديد. وجوههم تبدو قبيحة، معوجة من خلال الزجاج. انتابنى خاطر غريب. سنموت تحت قبضات الذين نقف معهم. فجأة تراجعوا عن الأبواب. هجم عليهم اثنان من الشباب وأخذوا يلقون بهم يمينا وشمالا، وفى لحظات خلا الطريق واندفع "على الشلقانى" بالسيارة غير مبال بالذين يفلتون من أمام العجلات بالكاد.

وصلنا إلى الإسعاف فى مدة وجيزة. كانت الشوارع الخلفية خالية من الناس. تركنا الشابين هناك وعدنا إلى شارع "البستان". خطر ببالى أن اقترح على "على الشلقانى" العودة إلى البيت. كنت مرهقا أشعر بالهزال، ولكنى خجلت.

تقهقرت الجموع تاركة الميدان إلى الشوارع المحيطة بها بعيدا عن طلقات الرصاص باحثة عن لحظات من الراحة قبل استئناف القتال. بعد قليل رأينا عشرات الآلاف من المتظاهرين يسيرون خلال الشوارع فى مختلف الاتجاهات كأنهم مصرون على مواصلة الاحتجاج. علت الهتافات فى كل أركان المدينة، وسارت المواكب فى مختلف الاتجاهات. لكن مع الوقت أخذت الأعداد تتناقص، وأخذ ضجيج الأصوات يتضاءل. أحسست بجو فيه تراجع وإحباط، كأن الناس أفاقوا على صوت الرصاص، ولون الدماء التى سالت فى الميدان.

عند منتصف الليل عدت إلى منزلى. كان الصمت ينتشر فوق المدينة العملاقة. صعدت الدرجات. وجدت أبى جالسا مع أمى فى الصالة. كانا ينتظران عودتى من الخارج. لمحت فى وجهيهما علامات القلق الشديد. حكيت لهم فى زهو ما جرى أثناء النهار، لكن فى قلبى أحسست بشىء مثل خيبة الأمل، كأن الشحنة التى دفعتنى خلال الشوارع منذ الصباح استنفذت دون أن تترك شيئا وراءها. مع ذلك تسرب إلى الضيق عندما قال لى أبى.

"لا تلق بنفسك فيما لا تعرف عواقبه. فالبلاد معرضة فى هذه الأيام إلى المخاطر. أبعد عنها قبل أن تنالك بأذى".

بعد يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ تحدث إلى "على الشلقانى" عن منتدى اسمه "دار الأبحاث العلمية" ودعانى لحضور محاضرة عن فلسطين. عرفت فيما بعد أن هذه الدار كانت إحدى الهيئات الثقافية العلنية التى أنشأها تنظيم يسارى اسمه "إسكرا"[1]. وتسمية هذه الدار "بدار الأبحاث العلمية" كان تعبيرا عن النظرة التى تقول أن المجتمع يجب أن يخضع للدراسة العملية إذا أردنا أن نفهم قوانين الحركة التى تحكمه، وأن نكتشف كيف يمكن للمثقفين أن يلعبوا دورًا واعيًا فى تغييره، فى تعبئة الشعب وتنويره حتى يتخلص من الاستعمار وأعوانه ويبنى مجتمعًا جديدًا.

كان ذهابى إلى "دار الأبحاث العلمية" متقطعًا فسرعان ما انشغلت فى الإعداد لامتحانات البكالوريوس. ذلك أن انهماكى فى نشاط اللجنة الوطنية، والاجتماعات التى سبقت تكوينها أدى إلى انصرافى عن المذاكرة لفترات طويلة، وجعلنى فى احتياج شديد إلى تعويض الوقت الذى ضاع منى، بالإضافة إلى أننى لم أجد فيما يقال ما يغرينى بالانتظام، ربما بسبب طبيعة الندوات التى كان يكثر فيها الكلام، ويتشعب فى اتجاهات عديدة، أو قصورى أنا عن فهم الأفكار التى كانت تتداول. كنت صاحب مزاج عملى أريد أن أفعل شيئا بينما لا أحد اتصل بى، أو ناقشنى فى أمر من الأمور، أو سألنى عن رأيى فيما يدور. أجلس على مقعد فى الحوش الكبير وأتتبع القائمين على الدار يروحون ويجيئون بهمة، وقد أحاطت بهم جوقة من الشباب والشابات.

كانت هذه السنة مرهقة بالنسبة إلى، فقد كنت مشدودًا بين الدراسة وبين المجالات الجديدة التى أخذت تتفتح أمامى. كان التغيير فى حياتى سريعًا، وعميقا نتيجة الأحداث السياسية المتتالية، وتصاعد الحركة الشعبية التى شاركت فيها. رأيت لأول مرة فى حياتى آلاف من الناس يتظاهرون فى الشوارع. شاهدت الرصاص يطلق على العزل، والدماء تسيل، وبطش الأعداء الإنجليز الذين كنت أظن أنهم أصدقاء الشعب المصرى، والعنف الجماعى الأعمى عندما تغضب الجماهير. اندمجت فى حركة الشباب، وحضرت المناقشات التى تطول إلى منتصف الليل. أحسست بنشوة الجديد، والخوف منه، والضياع وسط الحركة العارمة للجماهير. أخذت أنحاز بالتدريج إلى الناس العاديين، ولكن ظلت السواتر القديمة تحول بينى وبين الإحساس الوجدانى بهم. عقلى يقول لى أشياء، ولكن الإحساس ينفيها، فعاداتى، وقيمى، ولغة الحياة التى أتعامل بها ليست مصرية بالمعنى الصحيح. أصبحت جزءًا من "الدهماء"

(١) تعنى الشرارة بالروسى. وهو اسم الجريدة السرية التى أنشأها لينين قائد الثورة الاشتراكية فى روسيا.

وعنصر "شغب" فى نظر الحكام، بينما أنا أحيا حتى تلك اللحظة فى بيئة لا علاقة لها بهم، ولا تحس نحوهم بتعاطف. هذا بينما الغربة بينى وبين أهلى تتزايد باضطراد.

كنت لا أزال أرى مستقبلى فى مهنة الطب، معتزا بالمكانة المتفوقة التى احتفظت بها. فى الوقت نفسه أحسست أننى ابتعد عنها بخطى حثيثة، عن الأهداف التى كنت قد ارتبطت بها عندما التحقت بالكلية، بتضاؤل حماسى الأول وفتوره، فتولدت عندى حالة من التمزق النفسى. كنت مقدما على أهم امتحان فى حياتى يعطينى رخصة لأُمارس المهنة، وأعمل فى الجامعة، ومع ذلك لم أعد واثقا من مستواى. ظللت طوال الشهور أجرى هنا وهناك بدلا من التفرغ للدروس. لم يعد يبقى على الامتحان سوى شهرين أو أكثر بقليل. إذا هبطت فى الترتيب ماذا سأقول لأمى، وأبى؟ كيف أواجه الذين ينظرون إلى بإعجاب. كيف أواجه نفسى، والمستقبل الذى ينتظرنى؟ وما الذى يمكن أن يحدث لو رسبت فى الامتحان فهو احتمال يهاجمنى فى بعض اللحظات مثل الحلم المخيف؟

قررت أن أترك كل شىء جانبًا وأن أتفرغ تماما لمراجعة المنهج بكامله. أمامى أكوام من الكتب، والمحاضرات، والفترة الباقية قصيرة. يجب الا أترك أى شىء للصدف، فالصدفة قد تجىء فى سؤال لم أذاكر مادته جيدًا. أصبحت أقضى الوقت كله مع "عثمان جبر" فى "شبرا" ولا أعود إلى البيت سوى للاستحمام، وتغيير الملابس. إذا دخل هو فى سريره أظل ساهرا حتى الفجر. عيناى تجريان فوق السطور بحركة متوترة، وعقلى يعمل مثل آلة التصوير تلتقط، وتخزن على لوحة الذاكرة. إذا أغلقت عينى أستطيع أن أرى الصفحات كأنها مرسومة. فى هوامش الصفحات أكتب كلمات لاختصارها، وعند المراجعة أقرأ الكلمات فتعيد إلى الفقرة كلها. هكذا أصبحت قادرا على مراجعة كتاب من ألف صفحة فيما لا يزيد عن ثلاث أو أربع ليالى متتالية.

ظللت لا أنام أكثر من ثلاث ساعات فى الليلة الواحدة. جسمى ملتصق بالمقعد الساعات تلو الساعات، ورأسى منكبة على المكتب. أشحن عقلى بالقهوة، والشاى، لكن فجأة قبل الامتحان بعشرة أيام أصبت بحالة عصبية تسمى "اعتقال الكاتب"، حالة يعجز فيها المصاب بها عن الإمساك بالقلم فكلما حاولت الإمساك به تقلصت عضلات يدى وذراعى رافضة، وصعدت فيها الآلام المضنية فيفلت منى.

أدركت أن عقلى الباطن يقاوم، إن فى أعماقى خوف، ورفض للامتحان وإن نفسى وجسمى يتمردان على إرادتى بهذه الطريقة الملتوية. أخذت الحالة تتفاقم بسبب تراكم التوتر، والضغط العصبى، والإرهاق تعرضت لهم طوال الشهور الماضية. أصبح الامتحان كالشبح يثير فىّ اضطرابا متزايدًا. لكن الشبح الأكبر بالنسبة لعقلى الواعى كان شبح البقاء فى الكلية فترة أخرى إذا ما اضطررت إلى تأجيل موعد التقدم للامتحان.

توجهت إلى عميد الكلية الدكتور "إبراهيم شوقى"، وأستاذ طب الأطفال الذى تولى رعايتى الطبية فى السنين الأولى من حياتى بعد أن عدت من إنجلترا. كان صديق والدى فشرحت له الحالة التى أصابتنى. قلت له إننى لا أرغب فى تأجيل موعد تقدمى إلى الامتحان، فوافق على أن ينتدب أحد الموظفين الذين يجيدون الإنجليزية لأملى عليه إجابات الأسئلة، وطلب منى أن أحضر شهادة طبية من أستاذ قسم الأعصاب تقر بأننى مصاب "باعتقال الكاتب" مما يحول بينى وبين الكتابة.

هكذا فى شهر يونيو سنة ١٩٤٦ شهد سرادق الامتحان فى كلية الطب منظرًا فريدًا من نوعه، طالبًا نحيلاً بدت عليه علامات الإرهاق الشديد يقف فى الجزء الخلفى من السرادق على مسافة من أدراج الطلبة الآخرين. على مقربة منه جلس رجل بدين، شعره محمر قليلا يرتدى سترة بنيه اللون علقها على ظهر الكرسى مكتفيا "بجيليه" خفيف. على وجهه الأبيض المنكب فوق الأوراق نقاط من النمش، وفى يده قلم "باركر" يكتب به ما يمليه الطالب عليه.

كانت تجربه صعبة، ففى بعض الأحيان كان يخطئ، أو لا يسمع ما أقوله فأضطر إلى تكرار الجملة من جديد. كان أبطأ منى بكثير لأنه يكتب تحت الإملاء ولكن كان لهذا الوضع ميزة لم أكن أنا المستفيد بها، فطوال الامتحان تمكنت مجموعة صغيرة من المتقدمين إلى الامتحان الاستعانة بى فى الأسئلة التى تعثروا فى الإجابة عليها. كان على فقط أن أرفع صوتى قليلاً إذا ما طلب أحدهم ذلك فتصل الإجابات التى أمليها إلى آذانهم. لذلك ربما ساهمت فى تخريج عدد من الأطباء فى دفعة سنة ١٩٤٦.

بعد أن حل "صدقى باشا" مكان "النقراشى باشا" أثر سقوطه المدوى بسبب جريمة "كوبرى عباس" الوحشية ظل يراوغ الحركة الشعبية مدة من الوقت محاولاً تحجيمها، والاستفادة منها فى الضغط على الإنجليز قبل المفاوضات التى قرر الإقدام عليها. ولكنهم عندما اكتشفوا هذه الحيلة أصروا على أن يقمعها بكل وسيلة وهكذا اضطر للإقدام على مواجهة الحركة الشعبية.

ولكن قبل أن يقدم على هذه المواجهة حاول أن يستميل، أو يحتوى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ثم حاول أن يشق صفوفها وأن يضلل الجماهير عن طريق تكوين لجنة موازية اسمها "اللجنة القومية" تكونت من ممثلى حركة الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة، وجبهة مصر التى كان يرأسها "على ماهر"(١).

فتحت أمام هذه اللجنة أبواب الصحف، والإذاعة لتنشر بياناتها على أوسع نطاق داعية الناس إلى الهدوء، والتوقف عن التظاهر، والاحتجاج ضد الاحتلال الإنجليزى حتى تتمكن

---

(١) ظل أحد دعائم السراى ورأس الوزارة أكثر من مرة.

الحكومة من الوصول إلى اتفاق تنتزع فيه حقوق البلاد من بين أيدى الإنجليز. فى هذه الأثناء ظل يعد خططه ليوجه ضربة قاصمة إلى القيادات الجديدة التى ظهرت على مسرح الأحداث وبالذات القيادات اليسارية.

مع مرور الأيام هدأت التحركات الشعبية إلى حد ما، ولكن ظل التوتر الشعبى قائما متأهبا لما يحاك للبلاد من خلف الجدران. اضطر الإنجليز إلى سحب قواتهم من العاصمة والمدن الرئيسية وتجميعها فى منطقة القنال، فقد اندلعت المظاهرات خارج القاهرة فى طنطا، والمحلة، وكفر الدوار، والمنصورة، والمنيا، وأسيوط، وسوهاج، أما فى الإسكندرية فقد كانت مثل الموجه العاتية التى هزت المدينة وأدت إلى قتل بعض الجنود الإنجليز. كان هذا الانسحاب من المدن المصرية انتصارا يدل على قوة الحركة الشعبية وقدرتها على التأثير.

كانت "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال" هى التعبير العلنى الأساسى عن القيادات الجديدة، وتجسيد التحالف الشعبى الناشئ بين بعض الطبقات والفئات الكادحة فى المدينة. وكان هذا التحالف فى بدايته، يخوض معاركه الأولى، ويفكر فى توسيع صفوفه إلى الأقاليم، والفلاحين فى الريف. كان جنينا ولد عملاقا يستطيع الكثير إذا ما توفرت له القيادة السليمة، لكن الأيام أثبتت أنه عملاق ولد بلا رأس مجربة، وموحدة تستطيع أن تخطط له بالفعالية، والسرعة المطلوبتين فى تلك الفترة الحاسمة التى توالت فيها الأحداث، وأن تستلهم اتجاهاتها من حركة الجماهير. ساهم المشاركون فى اللجنة وغيرهم فى إطلاق مارد من القمقم، ولكن بعد أن أطلقوه أفلت الزمام من بين أيديهم، وتحكمت فى الموقف بالتدريج القوى المعادية أو المهادنة، مع ذلك واصلت الحركة صدامها مع الحكومات المتتالية، ومع رأس الحكم الإقطاعى الرأسمالى فى البلاد الجالس على العرش "فاروق" ففى يوم ١١ فبراير نظمت الحكومة أحتفالا بعيد ميلاد الملك فى الجامعة، وأقامت الزينات، ونظمت مهرجانا، للشعلة الملكية. وعلى أثر ذلك تظاهر الطلبة فى الجامعة، وهتفوا ضد السراى، وحطموا الزينات، وأشعلوا فيها النار، ثم داسوا على صورة الملك بالأقدام.

كانت الشعارات التى حددتها الحركة اليسارية جديدة، وسليمة. كانت تعبر عن المرحلة وعما تحس به الجماهير وهى جلاء الجنود الإنجليز عن مصر، وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ الخاصة بالسودان، الكفاح المشترك مع الشعب السودانى مع إقرار حقه فى تقرير المصير والتخلص من الاستعمار اقتصاديا وسياسيًا، وعسكريا، ومن أعوانه الإقطاعيين، وكبار الرأسماليين، الكفاح المسلح بديلا عن المفاوضات فالاستعمار لن يجلو عن البلاد جلاء تاما إلا إذا أرغم على ذلك، وتكوين جبهة وطنية من كل الفئات والطبقات التى تسعى إلى التخلص من النظام الاستعمارى.

بعد ذلك توقف التفكير إلى حد كبير. لم تكن هناك دراسة لوسائل تنفيذ هذه الشعارات. كيف يمكن أن يتسع التحالف الذى تكون بين الطلبة والعمال، وكيف يمكن أن يضيف طبقات وفئات جديدة؟ كيف يمكن أن يتحول إلى أشكال تنظيمية فى المدن، فى المصانع، والأحياء والهيئات والمؤسسات ومعاهد التعليم.؟ كيف ينتقل إلى الأقاليم والريف؟ كيف تتسع الحركة الوطنية على الدوام بعشرات المعارك، وعن طريق الارتباط بمطالب الناس اليومية؟ كيف يتم التراجع لتفادى الإرهاق، وإعادة تجميع القوى لتزحف من جديد؟ أسئلة ظلت بلا إجابة، أو غير مطروحة. كانت هناك محاولات مبتورة للإجابة على بعضها، ولكن ظلت أغلبها غائبة عن الأذهان بحكم حداثة الحركة اليسارية، وقلة خبرتها، وانقسامها. كانت القيادات الجديدة تظهر إحساسا ثوريا سليما وقدرة على الإبداع، وعلى الارتباط بالحركة الوطنية ولكن هذا وحده لم يكن كافيًا. لذلك استطاع "صدقى باشا" أن يوجه ضربته للرأس المفكرة، قبل أن يلتف حولها سياج الحماية الجماهيرية.

فى يونيو سنة ١٩٤٦ تقدمت للجزء الأول من امتحانات البكالوريوس. أحسست أننى وفقت فى الاختبارات التحريرية والعملية فزال عنى بعض التوتر الذى كنت أعانيه. الآن أمامى خمسة شهور حتى أعد نفسى للجزء الثانى فأنقذنى تفرغى للمذاكرة من الحملة التى شنها "صدقى باشا" على الحركة الوطنية، وعلى اليسار بالذات ليلة ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ والتى أدت إلى القبض على عدد كبير من أعضاء اللجنة الوطنية، ومن العناصر الطلابية والعمالية اليسارية، وإغلاق كل المؤسسات الثقافية لليسار، مثل "دار الأبحاث العلمية" و"لجنة نشر الثقافة الحديثة" وغيرها وحل التنظيمات النقابية التى أنشأها العمال ومن بينها مؤتمر نقابات العمال المصريين، واللجنة التحضيرية لمؤتمر عمال القطر المصرى، وإغلاق مجلات "الفجر الجديد"، و"الضمير" و"أم دورمان"، ومجلات أخرى كان يصدرها اليسار..

خلال الشهور الخمسة التى فصلت بين امتحانات شهر يونيو الخاص بمجموعة العلوم الباطنية، وامتحان شهر ديسمبر الخاص بمجموعة الجراحة توقفت عن النشاط السياسى الذى كنت أقوم به. بعد اعتقال أغلب أعضاء اللجنة الوطنية، التى كفت تقريبا عن النشاط، سادت موجة من التراجع مع ذلك لم يستطع "صدقى باشا" أن يصل إلى اتفاق مع الإنجليز وأن يفرض ما سميت بمعاهدة "صدقى بيفن" بسبب اليقظة الشعبية، ومعارضة القوى الوطنية لأية معاهدة لا تتضمن الجلاء العسكرى الكامل عن مصر، وعدم ارتباطها بأى تحالف مع الاستعمار.

فى هذه الأثناء عرض على "على الشلقانى أن أنضم إلى مجموعة فى "إسكرا" فوافقت. كانت مهمتنا فى المجموعة دراسة الكتب التى تتناول فكر اليسار، ومناقشتها فيما بيننا. "البيان الشيوعى، و"الدولة والثورة" و"فائض القيمة والعمل المأجور" و"ما العمل" و"أصل العائلة،

والدولة، والملكية الفردية" و"المسألة الوطنية" و"ما هى الماركسية اللينينية". كان كل منا فى المجموعة يعد عرضا لأحد الكتب، ثم يدور النقاش حول العرض. لا أظن أننى حضرت عددا كبيرا من هذه الاجتماعات، أو أننى قرأت الكثير من الكتب، ولكن انطباعى الأساسى الآن هو أن الدراسة فى المجموعة كانت نظرية لا علاقة لها بالواقع الذى نعيشه. مع ذلك لا أستطيع أن أنكر الأثر الذى تركته على فقد فتحت أمامى عالم الفكر اليسارى بكل ما كان يحتويه من نظرة مختلفة للحياة، وللمجتمع، وضرورة تغييره لكى تنتهى كل صور القهر والاستغلال. وكان هذا الفكر ثورة ضد فساد المجتمع وفشله فى تحقيق العدالة للإنسان.

لم أكن أعلم فى ذلك الوقت أن التنظيم الذى ارتبط به هو "إسكرا" لكن كانت هذه الاجتماعات تروق لى لأنها تفتح لى مجالات كنت أجهلها، وتطلعنى على أفكار جديدة وعلى تركيبة المجتمع، وكيف يتطور خلال مراحله المختلفة. وكان العمل السرى والتكتم يشعرنى بأنى مشارك فى مغامرة، فى عمل مهم لا أعرف ما هو بالضبط، ولكنه سيقود لا شك إلى تحقيق الكثير من أحلامى.

فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٤٦ تخرجت. كانت النتيجة مخيبة لأمالى. جاء ترتيبى السابع. فى العلوم الأساسية مثل الأمراض الباطنية، والجراحة، والرمد، وأمراض النساء والولادة، والجلد، حصلت على أعلى الدرجات، أما فى الصحة العامة، والطب الشرعى فهبطت درجاتى. كنت أكره هذين العلمين، وكانا يعتبران علوما من الدرجة الثانية. لا أحد يدخل مجال الطب الشرعى أو الصحة العامة إلا إذا أرغم على ذلك بسبب انخفاض درجاته. وكانا لا يخرجان عن نطاق بعض المذكرات التى يقوم الأستاذ بإملائها، فأجلتهما للمذاكرة إلى آخر لحظة، ولم يسعفنى الوقت. كذلك اضطرارى إلى إملاء الإجابة التحريرية بسبب الداء الذى أصابنى أعاقنى كثيرًا، وقد ظل داء "اعتقال الكاتب" عالقًا بى لم أتخلص منه تماما إلا بعد أن خرجت من السجن سنة ١٩٦٣.

عندما قرأت النتيجة على اللوحة المعلقة فى حوش الكلية حزنت. ولكن بعد أيام تجاوزت هذا الإحساس الأول. قلت لنفسى لا بأس هذا الترتيب يتيح لى أن التحق بمستشفى القصر العينى كامتياز، وأن أتقدم فيما بعد لوظيفة طبيب مقيم فى قسم الأمراض الباطنية. بعد ذلك سيكون المستقبل مفتوحًا أمامى، فكيف كان لى أن أعرف ما الذى تخفيه الأيام الممتدة أمامى؟

استقر بى المقام فى مستشفى القصر العينى الجديد. فى حجرة ضيقة داخل بيت الامتياز أزلت عنها التراب المتراكم، والقاذورات التى تركها قاطنها السابق. غسلت الجدران والأبواب والشبابيك، ودهنت الأرض بالورنيش. وضعت الراديو إلى جوار السرير، ثم استعرت شاكوشا ومسامير من "عم كامل" صاحب دكان النجارة فى الزمالك، وثبتت عددًا من الرفوف الخشبية على الجدار الخالى لاصف عليها كتب الطب، وبعض الروايات الإنجليزية "لسمارسيت موام".

و"همنجواى" و"هـ. ج ويلز" و"لورينس داريل".. والأعمال الكاملة لـ"شكسبير"، وكتاب عن الاشتراكية "لموريس دوب" وكتب ابن خلدون، وابن حزم، ثم دخلت فى عالم المستشفى المضطرب الصاخب بالنهار، الصامت الموحش فى الليل بكل ما أملك من قلب، ومن جهد.

أختال فى الطرقة الطويلة الممتدة لا أرى آخرها. معطفى الأبيض من التيل الرفيع منغلق حول العنق. السيجارة بين شفتى تشتعل فى زهو، والسماعة اللامعة تتدلى من مطاطها الأسود، وتقفز عندما أسرع الخطو لألبى طلبا ملحًا فى القسم. أشعر أننى فوق الدنيا. أمامى الطريق عريض ممتد. ألقيت بنفسى فى حياة المستشفى بمرضاها، وأطبائها، وممرضاتها، وأحداثها اليومية ونشاطها المستمر. إذا ما دق التليفون فى بيت الامتياز أو نقر الفراش على الباب قرب الفجر أقفز من السرير، وبعد دقائق استقبل المولود الجديد على كفى. أمسح على ظهره، وأضربه ضربة خفيفة ليشهق بالبكاء فأطمئن. أدق بأصابعى الرفيعة بين الضلوع باحثًا عن صوت كالصدى الأجوف، أو وقع مكتوم يشبه الرفض. أدفن الإبرة الرفيعة فى الوريد المتعرج تحت الجلد برفق حتى اشتهرت بأننى أعطى حقنًا لا يحس المرضى فيها "بالشك". أمشى فى العنابر الموحشة بالليل على أطراف أصابعى. أرى الأشباح النائمة تنقلب على جنب أو عيون الساهرين تتبعنى فى صمت. أسمع نهنهة، أو أنينًا، أو كلمة "يا رب". أرى الجسم العارى تحت الجلباب يرتعش من البرد، والعظام البارزة فى الفخذ، واللسان يجف. أستنشق رائحة الصديد والدم فى الجرح، والبولينا فى الفم. أعطف على المرضى وأنفر منهم، من قذارتهم، من القمل، والبق، من الجوع يأكل فى الدهن ويترك الجلد حول العظم، من الحساء مثل الماء القذر المتجمد فوق معدن الصحن، والخبز العفن، والجبن، والعسل الأسود الحامض رأيته بعد ذلك فى السجن، من الإهانة، والضرب، والشخط، من القمع البين، والظلم، من غياب الرحمة فى القلب، من رائحة المرضى أصبحت أعرفها عن بعد، ومن عيون كعيون السمك الراقد على شاطئ البحر.

أنفر من كل ذلك وأغرق الإحساس به فى العمل المستمر، فى القدرات الجديدة التى أكتسبها يوما بعد يوم. آذانى تلتقط حفيف الدم فى الصمام الميترالى المعوج، وعيونى تلتقط طفح الزهرى على الجلد، وأصابعى تميز بين ملمس الأورام الخبيثة، والحميدة بحذق. الممرضات تنظرون إلى بعيون فيها شك، أو ضيق أو تحفظ، أو خوف، أو شبق وليد، أو تساؤل يتردد على عتبة الحب، والمرضى يدعون لى بطول العمر.

علاقتى بالطب غريبة فيها رغبة لزيادة المعرفة، وضيق من الاستمرار فى تحصيل العلم، فيها رضى بقدراتى تتأكد مع الوقت، ونفور من جو المستشفى، فيها روعة الحياة تولد، ورؤية الإنسان عن قرب، و سحر العلم يشفى، وفيها لحظات الرتابة، والألم، والقبح، فيها إقدام على حياتى الجديدة، وخوف من ضياع الحلم. فالحلم تضيع ملامحه تحت السطح، تغوص فى

ـعمق. راحت البهجة الأولى لسبب لا أعرفه. أعانى من القلق، من اضطراب داخلى لا أعرف ـنهه. كأن هناك طوقا أريد أن أخرج منه، أو خطأ ما فيما أفعله. ما علاقتى أنا بهذا كله؟ ـؤال ليس لى إجابة عليه. ما أحس به هى رغبة فى ارتياد ما لم أرتده من قبل، فى الخروج ـن القمقم، فى الجديد الذى لا أعرفه، فى أن أفعل شيئا خارقا للعادة. تتزايد كراهيتى للظلم لذى أراه أمامى كل يوم، للقبح الذى يلف الحياة فى العنابر المزدحمة بالمرضى يختال بينهم لأطباء بعيون أعماها العلم الذى لا يرى إلا أعضاء الجسم عندما تختل ويصيبها المرض. أما لنفس، أما الإنسان، أما الحياة وصحة العقل والجسد، فكلها أشياء غائبة وراء تضخم لطحال، أو ورم فى الجلد.

كنت مدللاً من الأساتذة، أغلبهم يعرفون أبى أو يعرفون اسم أسرتى على الأقل، فنحن ـرتبط بعلاقات قوية مع عدد من رموز الإقطاع فى البلد، مع أسرة "بركات"، و"ماهر"، وِ"المكباتى" و"الشاذلى"، و"البدراوى"، والشبكة تتسع عن طريق زواج الأبناء والبنات ومصاهرتهم. "عبد الوهاب مورو" أستاذ الجراحة، و"إبراهيم شوقى"، وعدد من الأساتذة فى القصر العينى أعضاء فى نادى "سليمان باشا" تربطهم بأبى علاقات صداقة. لذلك كان يعاملنى الأطباء بمختلف مستوياتهم بمنتهى الرقة، والحذر رغم أن جزءا من تدريب الطبيب وإعداده للترقى فى سلم الجامعة كان يتضمن الإذلال المتعمد، ومنع الجدل وفرض الطاعة فقد ارتبط الطب منذ قديم الزمان بأساليب الكهنوت، بالقيم الطبقية والأبوية فى أقصى صورها. وكانت هذه الحقيقة معروفة فى كلية الطب تكثر حولها الحكايات عن أستاذ يأمر الطبيب المقيم بأن يحمل له فنجان القهوة ويظل منتصبا إلى جواره أثناء الدرس حتى يرتشف منه بين وقت وآخر، أو أستاذ ضرب الطبيب المقيم "بالشلوت"، أو أستاذ جعل الطبيب المقيم يقفز هاربا من نافذة الدور الأول. هذا فضلا عن الشتائم، والإهانات، والسباب والسخرية. الطبيب المقيم بالذات هو الذى يتعرض لأكبر الضغوط لأن مستقبله يتوقف على التقرير الذى سيكتبه الأساتذه فى نهاية دورة السنتين التى يقضيهما فى القسم كما أن نجاحه فى الماجستير أو الدكتوراه يرتبط إلى حد كبير برضى الأستاذ الممتحن عنه.

أما أنا فكنت معفيا من كل هذا، وعلى الأخص من قبل الأطباء المقيمين الذين درجوا على تعويض ما يلاقونه من إذلال عن طريق اضطهاد أطباء الامتياز. فطبيب الامتياز هو الشخص الوحيد الذى يوجد فى درجة أدنى بالنسبة للطبيب المقيم وكان الكثيرون من الأطباء المقيمين يقلدون أساتذتهم باختراع مختلف أنواع الإهانات يوجهونها للذين يعملون معهم فى القسم، لأطباء الامتياز والممرضات والحكيمات.

كانت أقسام الجراحة بالذات مشهورة بهذه التقاليد الشاذة. الأساتذة فيها يمشون كالديكة المنفوشة صدورها. يخترعون التقاليع المختلفة، ويدعون أنهم أصحاب مدرسة لأنهم يشقون

البطن بالعرض بدلاً من الطول فى عملية الزائدة الدودية، وكأنهم يعرضون جهلهم بالعلم الحقيقى عن طريق هذه الحركات الاستعراضية مما زاد من كراهيتى للجراحة.

مرة واحدة فقط حدثت لى حادثة صغيرة. أحد مساعدى الأساتذة المشهورين رفع صوته زاعقا فى لأننى لم أجر لأفتح له الباب الخارجى فى حجرة العمليات فنظرت إليه فى صمت ثم تركت غرفة العمليات رافضا الاستمرار فى عملى حتى يسوى الموضوع. وبعد ذلك أرسل يطلبنى فى المكتب وأفهمنى أنه كان مرهقا فى هذا اليوم، فأدركت أن التمرد على كبار القوم علانية يضعهم فى وضع حرج. كان يخشى أن يقال أننى تحديته وتركت القسم الذى يعمل فيه كمساعد أستاذ وأنا لا زلت طبيبًا صغيرا، كما أن الاعتبارات الأسرية لعبت دورها.

استغرقت فى العمل بكل كيانى كأننى أهرب من حقائق تختمر فى داخلى. "يا دكتور "شريف" أنت مطلوب فى الاستقبال". "يا دكتور "شريف" عليك أن تبقى إلى جوار هذا المريض. العملية كانت طويلة، وربما أصيب بهبوط مفاجئ. إنه يحتاج إلى رعاية دقيقة وأنا أثق فيك". "يا دكتور "شريف" هل يمكن أن تأخذ مكانى فى النوبتجية فأنا أريد أن أزوغ الليلة". كانت تكثر على الطلبات، والمهام بسبب الإحساس بأنه يمكن الاعتماد على، وكانت هذه الثقة ترضينى فأنا لازلت خاضعًا للنظام التقليدى، للسير فى الحدود المرسومة لمستقبل الشباب المتميز مثلى، للرغبة فى الصعود بالتدريج إلى مرتبة الأستاذية، والتصرف وفق القيم السائدة فى الوسط الذى أنتمى إليه.

ولكن بعد ساعات العمل الطويلة كنت منغمسا فى عملية استكشاف بطيئة فى المجموعة اليسارية التى بدأت من جديد أتردد عليها، فى الكتب التى أقرؤها، وفي تأمل التجارب والمشاهد التى أمر بها، وأهم من كل ذلك فى العلاقة القائمة بين المرضى، وبين المجتمع الذى كنت أعيش فيه، فمع الأيام أصبحت أدرك أن العلم وحده، والمهنة وحدها ليست هى طريق الخلاص من العذاب الذى يصيب الرجال والنساء الراقدين على الأسرة لأن أغلبهم من فقراء المدينة والريف. هكذا دخلت فى مجالات للتفكير فتحت أمامى آفاق غير تلك التى كنت أفكر فيها من قبل.

كانت الحكيمة "زينب" ممرضة فى تلك الأيام. عيناها السوداوان تطلان منهما النظرات الجريئة. شعرها يهبط على ظهرها فى ضفيرة من تحت الكاب وحواجبها كثيفة. الجميع يعاملونها بحرص فهى تعبر عن رأيها ولا تخفيه. قالت لى مرة "أنا لا أحتاج إلى هذه الوظيفة. أعيش مع أخى الكبير، ولدينا بيت ملك صغير، وعدة فدادين، ولكن أردت أن أعمل. كرهت الدراسة العادية، فلم أجد أحسن من هذا العمل رغم أن الناس يعتبرونه مهنة وضيعة ولكنى أشعر أننى سأشق طريقى حتى أصبح رئيسة مستشفى كبيرة".

قام بيننا ود وربما ما هو أكثر من الود. فكرت فى أن أدعوها لنلتقى خارج المستشفى، ولكنى خجلت وإلى جوار الخجل الطبيعى لعبت الفروق الاجتماعية دورها فى تفكيرى. ماذا سيقول الناس إذا شاهدونى معها؟ بعض الأطباء يخرجون مع الممرضات، وقليل منهم يتزوجون منهن، ولكن فى أغلب الأحوال يسعون إلى إقامة علاقة جنسية، ففى هذا المستشفى الكبير كانت تيارات الشهوة الوليدة تروح وتجىء لتعبر عن نفسها بمئات الرموز، والأساليب، والأيحاءات، ومحاولات اللمس الخفية..

نشأت بيننا علاقة قريبة من الصداقة، رغم الحدود التى فرضتها التقاليد والعيون علينا. عندما أذهب إلى قسم الأمراض الصدرية أبحث عنها حتى تمر معى. أثناء المرور نحكى لبعضنا ما يحدث فى المستشفى، ونعلق عليه. بين الحين والحين أنظر فى عينيها فتبادلنى النظرات مطلقة سوادهما البراق من بين جفونها.

فى هذا اليوم كنت أنتقل معها فى العنبر الطويل من مريض إلى مريض. أتوقف أحيانا لأقلب فى الأوراق المعلقة بشريط عند أسفل السرير، أو لأفحص أحد المرضى. أدق على صدره وأستمع إلى الرنين ثم أضع السماعة لأسمع تيار الهواء يدخل ويخرج من صدره مع الشهيق والزفير.

وجدت نفسى عند آخر العنبر قرب النافذة العريضة المطلة على الشرفة ومن ورائها النيل. الشمس تتحرك على سطحه برعشة ذهبية، وفلك تحمل عددا من طلبة المدارس يغنون ويدقون على طبلة بصوت يصلنا من بعيد. التفتُّ إلى المريض الراقد على سريره. تأملت العينين الواسعتين، تحيط بهما رموش طويلة. الدرن يجعل العيون جميلة. جمرة هادئة مشتعلة فى الأعماق تطل ببريقها وفوق الوجنتين حمرة خفيفة كأنه لمسها بفرشاة الزينة. قلت "صباح الخير يا "على" كيف أحوالك اليوم؟".

"الحمد الله يا دكتور.. أحسن. كله من فضل ربنا".

"والحرارة..؟".

قالت "زينب".

"ما زالت ترتفع فى الليل..

"والسعال".

تدخل "على" بسرعة.

"الحمد الله. خف كثيرا عن الأول".

التفت إلى "زينب"، وسألتها.

"هل أرسلت عينة بصاق جديدة للمعمل؟"

"نعم. منذ يومين. لكن النتيجة لم تأت بعد "

"استعجليها. وهاتى الأشعة الأخيرة. أليست موجودة ؟"

"موجودة يا دكتور. سأحضرها حالا".

انطلقت بمشيتها اللدنة النشيطة. أتتبع قوامها من الخلف. النحافة والاستدارة فى آن واحد. إذا ما ارتدت...!! أقطع حبل تفكيرى بسرعة. غابت بضع دقائق وعادت تجرى على نعلها المطاطى. رفعت الفيلم الأسود أمام النافذة. هذه المساحة الهلامية المستديرة انكمشت، ولكنها ما زالت موجودة قرب قمة الرئة اليسرى. آثار المياه اختفت من الصدر. يتحسن فعلا إنما يحتاج الأمر إلى وقت، إلى راحة، وشمس وتغذية. أدخلت الأفلام فى المظروف الأصفر ووضعته فوق السرير. قلت "لعلى".

" أرفع ملابسك وورينى صدرك".

وضعت السماعة على صدره النحيل. الضلوع بارزة تتضخم كالعقد عند أطرافها، والجلد ساخن تحت أصابعى. يحدق فى وجهى بعينيه الجميلتين. أخذت أنقلها من مكان إلى مكان وأتتبع صوت تنفسه العميق. قلت:

" لا فعلا تحسن كبير.. إن شاء الله تخرج قريبًا".

فوجئت به يقول.

"ما قدرش أستنى أكثر من كده. العيال حياكلوا منين؟"

كان "على" يعمل مكوجيا. شاب وسيم فى سن الثلاثين يعشق الأغانى العاطفية. تزوج منذ خمس سنين فأنجبت زوجته ثلاثة أطفال. عرض على صورتها، وصورتهم. تبدو زوجته كالصبية فى عينيها صفاء وفى جلدها شفافية. لما سألته أن كانت بينهما قرابة قال لا. "كانت بتجيب المكوة. حبتنى وحببتها".

"العيال حياكلوا منين؟" سؤال يرن فى أذنى. سمعته كثيرًا من مرضى آخرين. أصر أن يعود إليها وإليهم. سيفتح الحانوت من جديد ليقف أمام النار فى الليالى الشتوية، ويعود سائرا على قدميه فى الصقيع أو لينهمر العرق على جسمه فى شهور الصيف. ربما رأيته قبل أن أنهى مدة الامتياز هيكلا عظميا. سيتقيأ دما، وربما يسلم الروح بين يدى. ربما يفضل الموت فى حضن الصبية؟ هنا العنبر أبيض بارد خال من الإنسانية.

لم أكن أملك إلا أن أكتب التأشيرة، وأطلب من الدكتور المقيم الإمضاء عليها "فرغبة المريض نهائية. عدت إلى حجرتى آخر النهار. النتيجة على الجدار تقول ٩ مايو سنة ١٩٤٧. خلعت

المعطف الأبيض، وذهبت إلى الحمام أغتسل، ثم توجهت إلى حجرة الطعام بحثا عن شىء آكله. حملقت بإحساس من التقزز فى المشمع ذى المربعات الزرقاء، تناثرت فوقه بقايا خبز وطعام، وسائل يشبه صلصة الطماطم تحيط به دوائر الذباب تمد إليه رءوسها النهمة كالقطيع. ضغطت على الجرس فحضر الفراش قصير القامة، منتفخ البطن يرتدى فوطة بيضاء قذرة حول وسطه تتصاعد منها رائحة الطبيخ. نظر إلى بابتسامة كشفت عن أسنان صفراء. سألته "ماذا عندك اليوم؟" فقال "فراخ" بنوع من الفخر. مرت فى ذهنى صورة سريعة لورك فرخة عجوزة جلدها أزرق والدبوس تبرز منه جذور الريش. فى أنفى "زفارة" الطيور التى لم تغسل جيدا. قلت "أعطنى بيضا مقليًا، وخبزًا".

ابتلعت الطعام بلا شهية. صفار البيض فيه خيوط حمراء رفيعة كأن جنينا بدأ يتكون فيه. عدت إلى حجرتى. خلعت الحذاء، ومددت جسمى على السرير دون أن أخلع ثيابى. أدرت مفتاح الراديو فجاءنى صوت أجش يتحدث بسرعة عن حادثة قتل. أغلقته بسرعة. عدت إلى السرير، ورقدت واضعًا يدى خلف رأسى. صوت واهن يتردد فى رأسى، ويأبى أن يبارحنى، وفى الظلام أرى وجوه ثلاثة أطفال يجلسون على الأرض حول طبق من البيض المقلى ورصة من الخبز. سمعت طرقا على الباب فسألت "من أنت؟" فجاءنى الصوت مخنوقًا فى ثنايا الظلام. "يا دكتور عايزينك فى الاستقبال دلوقت حالا". تثاءبت. ألقيت الأغطية جانبا وقمت. لم أكف عن العمل منذ الأمس. خرجت إلى الحمام وألقيت بقليل من الماء البارد فوق وجهى حتى أطرد بقايا النوم.. عدت إلى الحجرة. ارتديت الملابس بسرعة، ومن فوقها المعطف الأبيض. مشطت شعرى المبلل فى المرآة. أخذت كيسا من الجلد أضع فيه السماعة، وترمومترًا، ومقصًا صغيرًا، وملقاطًا، وخرجت إلى الممر يغط فى الظلال تحت الأضواء الواهنة المتناثرة. ألمح خيوط العنكبوت وفارًا ينطلق من الركن. شىء ما يجعلنى أكاد أجرى فى الممر. كدت أن أصطدم بإحدى الممرضات خرجت فجأة من باب القسم. هبطت الدرجات بقفزات، ودفعت باب الاستقبال أمامى. وجدت نفسى أمام جمع من الناس يسدون الطريق نحو صالة الكشف. أزحت بعضهم عن طريقى ودخلت. أحسست بحركة غير عادية، بالممرضات يجرون هنا، وهناك، وأطباء يصيحون بأصوات عصبية.. "بسرعة يا ست بسرعة. عايزين محلول ملح عشر أزايز، على الأقل. مفيش دم إزاى؟ اتصلى أوام بالنائب الإدارى. نايم؟ صحيه".

دارت عينى حول الحجرة وتسمرت قدماى أمام المنظر. خمس نقالات أوقفت فى أماكن مختلفة من الحجرة. زجاجات محلول الملح تلمع فوقها. لمحت الدم يسيل من تحت الغطاء الذى يلف أحد الأجسام. رائحة كاللحم المشوى. اقتربت. رأس يغطيه شعر تلبدت خصلاته، ومن تحته وجه أبيض تشوبه زرقة سرت فى الجلد. سمعت أنينا خافتا انقلب فجأة إلى صراخ مفزع، ثم صمت كأن يدًا أطبقت فوق الفم. أدخلت يدى تحت البطانية أتلمس النبض. العينان تنظران إلى بسواد كالفحم يختلط فيه اليأس المعذب بالرعب، يده كالثلج والنبض واهن ضعيف

يتسلل إلى أطراف اصابعى كأنه يأتى من بعد. رفعت الغطاء برفق. كدت أن اتقيأ. دارت الحجرة حول رأسى. الجسد يرقد مثل جذع شجرة ينتهى عند الفخذين أصبحا كتلتين من اللحم الأحمر يحيط بهما سواد متفحم. جاءنى صوته يئن. شفتاه تتحركان كأنه يحاول أن ينطق بشىء. أعدت البطانية فوق جسمه واقتربت بأذنى منه. حاولت أن أسمع.. لم يجئنى سوى صوت كالحشرجة. محلول الملح يتساقط نقاط فى الوريد. أضفت إليه كورامين وكافور.. وانتظرت. ملت عليه من جديد.. وسألت.

"من أنت..؟"

التفت إلى. عيناه تنظران إلى وكأنى طوق النجاة. فيها عذاب، وتساؤل المطعون من الخلف "عمر، عمر حداد".

"مصرى"

"لا، فلسطينى..".

سكت، اسمعه يسأل.

"هل سأعيش..؟"

"طبعًا. سنسعفك حالا..".

صرخ فجأة صرخة لم أسمع مثلها ، ثم صمت. بعد قليل سمعته يهمس "أسف. ألم فظيع عند ساقى".

"سأعطيك حقنة مورفين لتستريح. يا "فتحية" حقنة مورفين بسرعة".

حملت إلى وعاءً من المعدن فيه قطن، وحقنة، وزجاجة كحول، وأبر. كسرت أمبول المورفين عند العنق بضربة من المنشار الصغير والتفت إليه. عيناه تحدقان فى بنظرة غريبة، نظرة بلا ضوء، بلا روح. أزحت السترة، والقميص جانبا، وبحثت عن القلب. أسمع الأصوات كأنها تأتى من عالم آخر. أصبح قلبه هو الصمت، مثل الثقب فى الزمان سقط منه. سرة من السكون فى دوامة البحر.

رفعت الغطاء على وجهه.. أعدت الحقنة إلى الوعاء برفق كأننى أتحاشى صوت احتكاكها بالمعدن.. تنبهت إلى أحد زملائى يقف إلى جوارى سألت.

"إيه يا "إسماعيل ".. أيه ده..؟"

قال:

"وضعوا قنبلة فى سينما مترو".

"من؟.. ".

بعد أن مرت سنون، أو ربما فى هذا الوقت لا أذكر سمعت عرضا اسم شخص يتردد أمامى فى المقهى. كنا نلعب النرد. قالوا "كمال أيوب" وسمعت أنه هرب فيما بعد إلى ألمانيا. ولكنهم كانوا أكثر من واحد تعاونوا فى وضع القنبلة تحت المقعد فى سينما مترو، فتطايرت شظاياها عند السيقان والبطن.

اختلطت بالإرهابيين كثيرًا فيما بعد، وعن قرب. عشت معهم فى السجن. أحيانا فيهم خجل، ورقة يكاد يعجزانهم عن النطق، فكأنهم يعيشون الكبت بأقصى درجاته ليتراكم فى أعماقهم العنف. وأحيانا فيهم جبن فإذا وقعوا فى قبضة البوليس زحفوا على بطونهم. من يمارس الإرهاب وخصوصا قتل الأبرياء شخص مشوه لا شك، يعجز عن التعامل مع الفكر فيلجأ إلى العنف. الإرهاب مرتبط بالكبت، مرتبط بالجهل، بالعجز عن فهم المجتمع ودور الفرد، باليأس من كل شىء. وأنا لم ألتق بـ"كمال أيوب".. لكنه أدى لى معروفا لن أنساه. علمنى أن أكره الإرهاب، والقتل فلولاه ربما سرت فى هذا الطريق.

خرجت من باب الاستقبال الجانبى إلى الليل. الهواء لم يعد يصفر. هدوء غريب كأن الدنيا أصابتها دهشة من هول ما حدث. أخرجت علبة السجائر من جيبى وأشعلت عود ثقاب. لمحتها واقفه كأنها تحتمى فى حضن الجدار. ترددت لحظة ثم اقتربت منى. امرأة عجوز ترتدى معطفا أسود، وشالاً من الصوف تلفه حول رأسها. قالت بلهجة عربية لم يسبق لى أن سمعتها..

"يا دكتور.. بدى أسألك؟ "

"نعم يا ستى.. خير..؟ ".

"هل كنت بالداخل؟ ".

"نعم يا ستى، كنت معهم.. ".

"مع ابنى "؟

ترددت.. فكرت فى الهروب بحجة عمل ينتظرنى، لكنى خجلت.

"من ابنك يا ستى؟ ".

"عمر.. يا دكتور.. عمر حداد".

كاد قلبى أن يتوقف.. ما الذى أقوله لها؟ كيف أخرج من المأزق؟ كيف أكذب عليها دون أن أكذب؟.

"أوصفيه"

" شعره أسود، توقفت لحظة.. " وعيونه حلوين.. طالب عمره عشرين سنة..".

"آه تذكرته.. هو الآن فى غرفة العمليات".

"عملية..؟ عملية كبيرة يا دكتور؟ ".

"شوية يا ستى.. لكنه شاب وصحته قوية.. والجراح راجل شاطر جدا."

"يعطيك العافية يا بنى. الله يعطيه، ويعطيك العافية.." دمعت عيناها. أخرجت منديلا من الشنطة المنسوجة التى كانت تحملها. مسحت على وجهها. سألتها.

"هل ستبقين هنا..؟".

"نعم. حتى تدلونى على الخبر يا بنى."

قلت:

"إذن عن إذنك. عندى أعمال فى الداخل"، وهربت من حيث جئت تاركا إياها فى الليل المظلم. بحثت عيناى عن النقالة التى كان يرقد فوقها، ولكنها اختفت. اقتربت من امرأة كانت ترقد فوق منضدة الكشف. فحصتها بسرعة وقلت "بسيطة يا ست. نعملك غرزتين فى إيدك، وتروحى..".

فى أواخر فبراير سنة ١٩٤٧ حصلت على ترخيص بمزاولة المهنة من نقابة الأطباء. لا أتذكر أن كنت قد حلفت اليمين، ولا أذكر أسم النقيب. كان ذهنى مشغولا بأشياء أخرى. المعارك السياسية تدور فى كل مكان، والإضرابات جزء من الحياة اليومية. أذهب إلى " دار الأبحاث العملية " عندما تتاح لى الفرصة، وأواظب على حضور المجموعة السرية، وأقرأ، لكن أغلب الوقت أنتقل من مريض إلى مريض، فى العيادة الخارجية، والاستقبال، وحجرة العمليات والعنبر. أنام فى حجرة بيت الامتياز بدلا من المبيت فى الزمالك. تشكو أمى أنها لم تعد ترانى إلا صدفة. أتعلل بمشاغلى الكثيرة، ولكنى فى الواقع أهرب. أجرب جناحىَّ أصبحا ينموان بسرعة. أنغمس فى عالم السياسة بخطوات لا تتوقف، فكل خطوة تتلوها خطوة.

فى إبريل سنة ١٩٤٧ صدرت مجلة "الجماهير" لتصبح المجلة العلنية الناطقة باسم منظمة "الشرارة" أى "إسكرا." كان مسئولها السياسى "شهدى عطية الشافعى" ورئيس تحريرها الرسمى وصاحب الامتياز "محمود النبوى". أبوه "محمود عبد اللطيف" باشا مالك من ملاك الأرض ووزيرًا سابقا وعضوًا فى اللجنة التنفيذية للوفد، وسهل هذا لابنه الحصول على المواصفات اللازمة لإصدار المجلة.

بعد أن صدرت "الجماهير" أصبحت أتحرك حركة أوسع. أذهب أحيانا إلى مقر المجلة تاركا بعض الأخبار، أو تعليقا قصيرا عما يحدث فى القصر العينى، عن الظروف التى يعانى

منها المرضى، أو عن مشاكل الممرضات، و"التمورجية"، ففى ذلك الوقت كان أغلب العاملين فى المستشفيات من الرجال، خريجى مدرسة التمريض، أو بلا مؤهل يعانون من قلة الأجر وغياب الضمانات. كان بعضهم يعاملون المرضى بقسوة. حتى الأساتذة لم تكن فى قلوبهم رأفة. يسبون المرضى ويطلقون عليهم أقبح الأوصاف، ويعتبرون هذا دليل المكانة الأعلى، والعزة وكأنهم فوق مستوى البشر. فى أحد الأيام فوجئت بأستاذ فى قسم الجراحة يوجه إلى المريض صفعة. كان الرجل مصابا بورم خبيث فى المعدة. نزف عدة مرات أمام عينى. كتبت تعليقا فى "الجماهير" عن الواقعة، ونشرت تفاصيلها.

فى هذه الفترة كان الجو يموج بالتيارات المتصارعة. الناس جميعا فى حالة غليان وحركة، والحماس الوطنى على أشده. فئات متزايدة تشكو من صعوبات الحياة، وتتقدم بمطالبها وكان كل هذا ينعكس فى مجلة " الجماهير " فيتزايد عدد قرائها. وفى هذا الجو الموحى بالتحرك كنت أوزع المجلة فى المستشفى على التمورجية، وبعض الممرضات، وعدد من أطباء الامتياز والنواب. أضعهم فى حجرتى، وكلما خرجت منها أحمل تحت أبطى رزمة. أبيعها بحماس الشاب المجتهد، وعندما أنتهى أشعر بالراحة بأننى أديت الواجب المفروض على. أجمع القروش التى حصلت عليها مضافا إليها بعض التبرعات، لأقوم بتسليمها فى الاجتماع الأسبوعى الذى أحضره. أثناء التوزيع ألاحظ أن الأطباء الذين ينتمون إلى الطبقات الثرية يتفادون النظر إلى عندما أعرض عليهم العدد، أو يبدون شيئا من الضيق. أما الفقراء مثل "التمورجية" وبعض الممرضات فكانوا أكثر اهتمامًا بالمجلة وإقداما على شرائها.

فى أحد الأيام نشرت فى "الجماهير" تحقيقا عن "التمورجية" وعن ظروفهم فى العمل، عن المشاكل التى تواجههم فى حياتهم. لم أوقع على الموضوع، ولكن بعضهم أدرك أننى مصدر للمعلومات التى جاءت فيه، فقد سبق أن تناقشت معهم، وهكذا توثقت العلاقة بينى وبين عدد منهم، وعلى الأخص رجل يدعى "محمد إمام" كان مسئولا عن الممرضين فى أحد أقسام الجراحة بالقصر العينى القديم. رجل قصير القامة يلقى إلى بنظرات فيها تأمل. كان من النوع الصامت لا يسمع صوته فى العنبر. يقوم بما يعهد إليه على أكمل وجه ويتعامل مع الناس بأسلوب مهذب، فصرنا نتناقش فى أمور المستشفى، وفى شئون البلد.

هكذا تفتحت أمامى لأول مرة آفاق العمل مع العمال، مع طبقة غير الطبقة التى جئت منها. بالتدريج أخذت علاقاتى معهم تتسع. كان "محمد إمام" هو البداية التى قادتنى إلى أعداد متزايدة منهم، إلى تكوين مجموعات سرية تضم كل منها أربعة أو خمسة من التمورجية فوصل العدد فى نهاية سنة الامتياز إلى أكثر من خمسة وعشرين عضوًا أصبحت أزورهم فى بيوتهم. أجلس معهم على الحصيرة. أشرب الشاى الداكن المحلى بثلاث أو أربع ملاعق من السكر. آكل بأصابع يدى من أطباق صاجها الأبيض يحتوى على الفول والبصل والطرشى والجبنة القديمة

أو الكشرى المملوء بالشطة. انتقلت من الكتب ومناقشات حول دور الطبقة العاملة أو صراع الأضداد، أو نظرية فائض القيمة إلى واقع آخر يتعلق بمطالب الحياة الملحة، إلى مشاكل لم أفكر فيها من قبل وإن كنت قد سمعت عنها. أخذت أكتشف الأحياء الفقيرة مثل السيدة، وقلعة الكبش، أو عشش الترجمان أو مصر القديمة حيث كان أغلبهم يقيمون ليكونوا قريبين من القصر العينى.. جرونى إلى واقع آخر، إلى قرش زيادة فى الأجر، أو حتى مليم أو إلى ضرورة التثبيت أو التعيين. كانوا جميعًا يعملون بأجر يومهم ولذلك كان يمكن فى أية لحظة أن يلقى بهم وبأسرهم إلى عرض الطريق.

فى العنابر الفسيحة على الأسرة المتراصة يصرخ الألم فى عيون المرضى. أقرأ فيها أحيانا شيئا كالاتهام الصامت. لماذا لا تنقذنا مما نحن فيه؟. أنت لا تحس بعذابنا، تأكل وتشرب، ترتدى معطفا أنيقًا وتقفز سماعتك اللامعة فوق بطنك. تفتح أمامك طريقا ممهدا مزدانا بالورود والشهرة. أما نحن فلسنا بشرًا مثلك. أقرأ فى عيونهم الضيق، أو الكراهية، وأحيانا امتنان العبد المطيع لسيده. رسالة غامضة تشع من الننى تملؤنى بشعور من الإثم تجعلنى أقترب منهم أحيانا، وأحيانا أنفر منهم فلماذا يحملوننى وزر ما أعجز عن تغييره. ما لى أنا وها لهم؟ أنا من بيئة أخرى، ولى رغبات ما زلت لم أرضها.

فى الليل عندما ينتهى العمل أجوب شوارع القاهرة متنقلا بين أحيائها، مقتحما أسرارها، باحثا عن شىء، عن بصيص من النور يجيئنى. أصبحت أدرك أن الطب وحده لم يعد هو هدفى. إن هناك أشياء أخرى... رسالة؟ لا ليست رسالة فهى كلمة كبيرة لا أرغب فى استخدامها. تحقيق ما هو أكبر؟ التأثير على الناس؟ الشعور بأهميتى وقدرتى على الفعل؟ المعرفة؟ أحمل فى جيبى منشورًا صغيرًا، أو تقريرًا عن الإضرابات التى تهز الضواحى العمالية، أو لفة من المجلات. خطواتى تقودنى إلى أعماق المدينة، إلى الطبقات السفلى فيها، إلى أحياء مزدحمة بناس يعيشون فى كهوف تنز جدرانها رطوبة عفنة، وتتراكم فيها رائحة الهواء الراكد. على أرضها ينام الأطفال صفوفًا فوق الحصر، أو المراتب، وفوق رءوسهم يتصاعد الدخان الأسود من وابور الجاز. أجلس على كنبة تمزقت أحشاؤها ليطل منها السلك الصدئ، والقطن. أحدق فى الوجوه السمراء تجلس على الأرض من حولى. أسمعهم يتحدثون بلغة أخرى، فيها أدب، وأحيانا خشونة تسمى الأشياء بأسمائها. تقطر بالمرارة، أو تتردد فيها نبرات العنف. لأول مرة أشعر بالدفء يشع منهم، وعندما أخرج إلى الزحام أشعر بنبض الحياة يتدفق فى الأزقة.

كوَّنا رابطة لهم تضم صفوفهم وتدافع عنهم. أصبح للرابطة رئيسها، شاب من "دمياط" لا أتذكر اسمه. ربما "مصطفى عبد الغنى". قوامه مرفوع، وأصابعه طويلة فيها قوة. كان رياضيا يلعب على العقلة، والمتوازيين، مندفع عندما يغضب فتشتعل عيناه العسليتان بضوء مفاجئ.

بالتدريج تكونت لها فروع، ثم عينت أمينا للصندوق، وأخذت تجمع اشتراكات من كل عضو، عشرة قروش أو أقل، أو أكثر حسب التساهيل. امتلأ قلبى بالفخر. ألست أنا الذى اقترحت عليهم هذه الرابطة.

لكن فى هذه الفترة كانت أحداث تجرى من وراء الستار، أو ربما من أمامه دون أن أدرى. فأنا مرشح للتنظيم. قضيت فترة ترشيح واختبار لمدة زادت عن ستة شهور. غيرى يصعد فى لمح البصر من تحت إلى فوق حسب المزاج، أو بالأحرى حسب القرب. أما أنا فغائب عن كل التطورات المهمة الحادثة فى اليسار. أنا مستغرق فيما أفعله، فى الجماهير التى أوزعها بانتظام، وبأعداد ربما لم يصل إليها غيرى، فى تحصيل "الفكر الثورى" من الكتب التى أعطوها لى لأقرأها، فى تكوين مجموعات التمورجية، وبناء الرابطة. ليس لى علم بوجود التنظيمات الأخرى مثل "الحركة المصرية للتحرر الوطنى".. أو "القلعة" أو "طليعة العمال" أو غيرها. قبل أن تصدر "الجماهير" لم أكن اقرأ مجلات أخرى مثل "أم دورمان" و"الفجر الجديد"، وأهم من هذا كله لست متابعا لمعارك ومفاوضات الوحدة، للمناورات، والضغوط، والتحفظات، والاندفاع الحماسى نحو توحيد صفوف اليسار فى حركة واحدة.

فى المستشفى أعمل مثل الترس فى آلة سريعة الدوران. ألف رباط الجبس حول عظام الذراع المكسورة. أغرس الأبرة فى الوريد الذى يلتوى تحت الجلد، أعلق زجاجة الملح وأتتبع النقاط تسقط، أسمع خرير الدم فى صمام القلب المريض، أفحص جدار البطن قوامه مثل العجين وأتساءل "ترى هل هو درن فى المصارين؟" أنتهى من المرور على المرضى. أصعد إلى حجرتى لأغير ملابسى بسرعة، وأهبط قافزًا فوق الدرجات. أستقل الأوتوبيس "الثورنيكروفت"، أو الترام، وأهبط منه فى أحد أحياء القاهرة. أشق طريقى فى الحوارى المزدحمة بالناس، من بيت إلى بيت ومن مجموعة إلى مجموعة. أعود متخطيًا برك الطين، مستنشقا رائحة الصابون المختلط ببقايا الطعام وفضلات القطط الضالة، مرهقا، مستنزفًا ولكن فى قلبى إحساس بالرضى عميق.

كانت أيامًا مفعمة بالحركة، والنشاط ثبتت فى يقينا بأننى أقوم بعمل إنسانى، وأناضل من أجل الحق لكن عندما أفكر فيها يصيبنى أحيانا نوع من الضيق ففيما بعد عندما تمت الوحدة، وبدأت الانقسامات، ضاعت الروابط التى كانت قائمة بين المجموعات الخمس من الممرضين وبين "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى" التى تكونت على أثر الوحدة. بطريقة ما لا أعرف كيف، أصبح الموجه لنشاطهم مغامر يدعى "مصطفى أغا". التقيت به فى السجن فى بداية سنة ١٩٤٨. أدخلهم فى إضراب شمل جميع ممرضى القصر العينى الجديد (مستشفى فؤاد الأول) والقصر العينى القديم، وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تفكر فى إحلال الممرضات مكانهم للارتفاع بمستوى التمريض.

ووجه الإضراب بالعنف الشديد. حوصروا بفرق من البوليس، وضربوا ضربًا مبرحًا، وقبض على أعضاء مجلس إدارة الرابطة، وعلى عدد آخر من الممرضين، وأودعوا السجن. ثم صدر قرار بالاستغناء عنهم جميعًا دون أدنى مكافأة. وهكذا راحت كل الجهود التى بذلت نتيجة الفوضى التى دبت فى الحركة اليسارية بعد الوحدة. لم ألتق بأحد منهم بعد ذلك. بحثت عن "محمد إمام".. و"مصطفى عبد الغنى". ولكن بلا جدوى.

بعد الساعات الطويلة من العمل الدائب كنت أبحث عن الراحة، عن التسلية، والترويح عن النفس. لم أعد مرتبطا بالمذاكرة، وفى جيبى الجنيهات التى أقبضها كأجر. أفكر فى الحب، والجنس مثل كل الشباب. صورتى عنهما غير واضحة. تخيلات أستقيها من السينما، وبعض الروايات. أحتاج إلى دفء العواطف تروى عطش النفس الذى أعانى منه، إلى حضن يستوعب الرغبة الصاعدة فى جسمى.

الأرجح أننا التقينا فى بيت أسرة رجتنى أن أتولى إعطاء ابنتها المصابة بروماتيزم فى القلب الحقن المقررة لها فقد كان العثور على وريد فى جسمها مستعصيا بعد أن سدت أوردتها من كثرة الحقن.

فى ذلك اليوم خرجت من الحجرة التى ترقد فيها الفتاة فوجدت امرأة جالسة على أريكة تقرأ فى كتاب. رفعت رأسها وخلعت النظارات التى كانت ترتديها. فوجئت بها فلم أتوقع أن أجد أحدًا فى حجرة الجلوس، تعودت أن أنتظر فيها بضع دقائق إلى أن تحضر الأم وتسألنى الأسئلة المعتادة عن حال ابنتها. أغلقت الكتاب. وضعته فى حقيبة يدها الكبيرة المزودة بجيوب، وتبعته بالنظارات ثم وقفت، وفى تلك اللحظة دخلت الأم مغلقة الباب وراءها. لما رأتها حيتها.

"أهلاً "إيلينا" لم أسمع جرس الباب. هل فتحت لك "فاطمة" بسرعة.؟كيف أحوالك؟ لم نرك منذ زمن. أجلسى معنا قليلاً قبل أن تدخلى إلى "منيرة". نظرت إليها ثم إلى وسألت "أتشربان قدحا من القهوة؟ مضبوط. أم ماذا؟ مضبوط.. آه كدت أنسى.. صديقتى "إيلينا تسورياس".. "الدكتور شريف حتاتة".

جلست على الأريكة المقابلة لهما، وسرت أتتبع حديثهما فى صمت. أرتشف من القهوة، منشغلا عن تتبع الحوار بالملامح المشرقة الناطقة أمامى، بشعرها يتموج حول وجهها وكتفيها بغزارة، تركته ينمو حرًا دون أن يمسه مقص أو يلفه طوق من الأطواق، بأنفها المستقيم، بالعنق الرشيق يرفع رأسها.. وجه ليس فيه الجمال المعتاد الذى نراه على غلاف المجلات، أو فى المراقص أو حفلات الأثرياء ولكن فيه جاذبية طاغية يتدفق من الداخل، فى الإشراق المتولد عن ذاتها كأنها شمس تُدفئ ما حولها.

لم أدرك كل ذلك وأنا جالس. لم أدركه حتى عندما أصبحنا عشاقا. ما أحسست به إذ ذاك هو الجاذبية التى كانت تمارسه إزائى دون أن أفهم أسبابه. لم أنتبه إليها كإنسانة إلا بعد فوات

الأوان، عندما كبرت والتقيت "بنوال السعداوى" وعشت معها تجربة الحب. ذلك أن "إيلينا" كانت تشبه "نوال" فى إشراقها الدافئ. إنها الشعلة التى توجد عند بعض الناس، شعلة الكائن القادر على العطاء، وعلى السعادة مهما كانت الأنواء، على الضحك المعدى، على التفاؤل وسط الظلمات، وعلى الوضوح وسط النفاق. شعلة قوية تحرك النفوس وتجذب إليها الأنداد. تثير الحقد عند أصحاب القلوب السوداء، تجذب الأقوياء والبسطاء.

فوجئت بهذه الشابة أمامى تشع بضوئها الباهر. لم أشارك فى الحديث إلا بكلمات قليلة. ظللت فى مكانى أسبح فى ضحكاتها، فى قطعة الشمس ترقص فى اننى الأسود، فى الشعر المتمرد المسترسل، فى الفرحة التى أقرؤها على وجه الأم كأنها نسيت آلامها. أسمعها تقول:

"عندما تحضرين تتحول "منيرة" إلى إنسان آخر. تغنى لنفسها وتفتح النافذة وتطل على الشارع. وتقول: "ماما، أريد أن تشترى لى حذاءً جديدًا، لأذهب إلى حديقة الأسماك..".

انتهينا من شرب القهوة. أشعر أن وجودى طال أكثر من اللازم. حركت جسمى فوق الأريكة لأهم بالقيام. شعرت بالحركة فالتفتت إلى. ألمح عينيها تفحصان وجهى فى بتساؤل. قالت:

"أين أنت ذاهب. يا دكتور، لم نتعارف. إذا كان لديك بعض الوقت اليوم يوم الأحد، وأنا فى إجازة. سأعطى لـ"منيرة " حمامًا ساخنًا فهى تحب أن أقوم بهذه المهمة كلما أمكننى ذلك، وأعود إليك. أنا أعمل فى المستشفى اليونانى. لدينا ما نستطيع أن نتحدث عنه، أليس كذلك..؟.

أسمعها تضحك فيزول ترددى فى الحال.

" وهو كذلك. أنا منتظر هنا. لكن لى طلب. هل أستطيع أن أستعير كتابك؟".

فتحت الحقيبة بحركة سريعة وأعطته لى ثم قامت مع الأم إلى الحجرة المجاورة.

عندى هذا الكتاب حتى الآن. مسرحية "ميديا" لـ"يوريبيديس" مترجمة إلى الفرنسية. أصرت على أن أحتفظ بها. كانت كذلك. ما أن تشعر أن أحدًا يرغب فى شىء عندها إلا وأعطته له. كنت أندهش، وأحيانا ألومها. فيها كرم يصل إلى حد الفوضى. أما أنا فمنظم، منضبط أعطى بحساب فأنا أعرف قيمة الأشياء. هكذا علمتنى أمى. تغيرت بعد ذلك، بعد أن افترقنا بسنوات سرت نصف المسافة بين عطائها الفوضوى، ونظامى الدقيق.

أعطتنى لحظات فى الحياة صافية. لم أعطها ما أعطته لى لكن بقى ضميرى خاليًا من الشعور بالإثم فقد كانت "إيلينا" قادرة على الغفران، والفهم.

لم أذهب إلى بيتها أبدًا، ولم أسألها أين تسكن، أو هل لها أخت أو أخ. عرفت فقط أنها فى معمل المستشفى اليونانى. وظيفتها مساعدة فنية للمدير تشرف على توزيع العينات ومراجعة

الفحوص. ذهبت إليها هناك مرة واحدة. أدخلونى فى غرفة كبيرة محاطة بالأحواض، فيها مبردات، وأتوكلاف، وآلة فرز، ومناضد طويلة مزدوجة تتوسطها مقاعد عالية، ورفوف مزدحمة بأنابيب الاختبار والقنينات، وشرائح الزجاج، وشرائط ورق يتغير لونها مع بعض المواد، وزجاجات فيها كيماويات.

وجدتها جالسة على مقعد عال تحدق فى الميكروسكوب. شعرها مرفوع تحت الكاب، وحول كتفيها سترة صوفية بيضاء. أرى السلسلة الرفيعة تلمع فوق الجلد تعودت أن أرفعها عندما أقبلها فوق الثدى. لا تخلعها أبدًا حتى عندما ترقد عارية، أو تستحم. أضحك معها، وأقول عشق قديم، فتصمت. أشعر بوخز الغيرة وأحاول أن أقرأ فى عينيها.

رفعت رأسها عن الميكروسكوب عندما اقتربت. لمحت الشمس فى ننى عينيها. قالت:

"كم أنا سعيدة برؤياك. أعطنى يدك. ضعها هنا على قلبى. أتحس به ينبض. بوم.. بوم.. بوم؟"

هكذا كانت تستقبلنى، تشعرنى أن مجيئى يدخل عليها السعادة. أننى أهم من أى شىء فى الوجود.

"ماذا جاء بك اليوم..؟ "

"أردت أن أراك".

"وحشتك؟"

"نعم".

"نعم.. فقط..؟ يا للتحفظ الإنجليزى. سأجن منك".

"وحشتينى جدًا..".

تضحك.

"سأنتهى من هذه العينة وأستأذن لننصرف. أتريد أن ترى عينة من ورم فى الثدى؟ ربما يكون سرطانًا مبكرًا. هل ترى تلك الخلايا وهى تنقسم..؟".

نمشى مسافات طويلة نحكى عن أشياء كثيرة. تقول "دخلت اليسار وسنى ست عشرة سنة. أبى كان مساعد قبطان على مركب تجارية. غرقت فى عاصفة ولم يعد. أعطانى هذه السلسلة". ترفعها بين أصابعها. لأول مرة أرى الحزن فى الننى، حزن عميق يائس بلا أمل، ثم ترددت ضحكتها، وأطاحت بشعرها إلى الوراء كأنها تلقى بهمومها من فوق الكتف. "لكنى لست مثله. أنا يسارية من منازلهم تستهوينى الكتب. ربما فى يوم ما... تصمت.

"ماذا؟".

" أكتب شيئا".

أصمت. لا أسألها. الصمت عندى يبدد الأشياء قبل أن تولد. الصمت فى داخلى حيوان أعجم يئد النطق، أما هى فتفكر دائما بصوت عال. تتكلم وأنا أسمع. ربما كانت فى حاجة إلى من يستمع إليها. تشعر أننى أهتم دون كلام. نشأت هكذا. العقل عندى هو الأساس. أما التعبير، أو العواطف فمكانهما فى الداخل. يتحولان إلى لا تعبير، إلى نبع عاجز عن التدفق.

كانت مولعة بالمسرح. تحلم بالذهاب إلى "باريس" بأن تصبح ممثله. تقول:

"هنا فى مصر لا توجد فرص، ولا فى "اليونان".

كان لى صديق يسكن وحده فى شقة وسط البلد يقضى نهاية الأسبوع مع أهله فى "قها" فأحل مكانه. ترقد إلى جانبى على السرير. ألمح اللنى يتسع وترقص فيه بؤرة الشبق. تأخذنى بين أحضانها. تلف نفسها من حولى وتأخذنى لها. نصبح جسمًا واحدًا يصعد إلى القمم، ثم شلال يغسل نفسه. نولد من جديد طفلة أنثى، وطفل ذكر، والعالم من حولنا.

تضع رأسى على صدرها وتنظر فى عينى أسمعها تقول:

"كم أنت جميل يا شريف".

"كم أنت جميل. أمشى فى الحديقة العامة ممسكا بيد أمى فيلتفت إلى الناس. يسألون أمى. "ابنك؟" فتقول: "نعم".. يقولون: كم هو جميل. انظروا إلى عينيه، هذا السواد، وهذا البريق.."

" كم أنت جميل. كلمات لم أتنبه لها. قالتها لى "إيلينا". خرجت من بين شفتيها كالشهقة. يلمع فى عينيها الاندهاش، فينتفض قلبى بسعادة قوية.

علمتنى "نوال" قيمة التقدير فى حياة الإنسان. شاهدتها تمارسه مع طفلينا. ترعاهما بالثناء على صفاتهما والتشجيع المستمر. تقول لى دائما..

"الثقة بالنفس، أرويها باستمرار سينبت لهما ريش، ويطيران عاليًا".

ظلت تغذيهما بالتشجيع فطارا. عرفا روعة التحليق. وعرفا القلق الجميل. "كم أنت جميل"!! ترى ما سر الإشراق الذى كانت تشعه "إيلينا" وما سر قطعة الشمس التى كانت ترقص فى عينيها..؟.



الفصل الثامن

المحترف الثورى

الساعة تدق دقات منغمة عميقة من أعلى قبة الجامعة يحملها الريح فوق النهر الأسمر العريض، يخفت صداها بالتدريج وسط المبانى والشوارع الجانبية. من خلفى ترتفع جبال المقطم تلفها سحب داكنة، وترتعش فوقها نجمة وحيدة، وأمامى تعلو قبة الجامعة تنفذ إليها أشعات الشمس الغاربة، لتتبدل فوقها الظلال الذهبية، والحمراء، والرمادية القاتمة فى حركة للألوان متأنية باهرة. أتتبعها وأنا مقدم عليها، راغب فى التوقف لأنهل منها، مدفوع بالدقات التى يتردد صداها فى أذنى.

الثغرة الصغيرة عند طرف السور تقودنى إلى "خرابة" واسعة ألقيت فيها تلال من الورق والقمامة، وقطع الحجارة، والزجاج. أسير محنيًا إلى الأمام لأتبين الطريق، وأسمع الزجاج يتكسر تحت حذائى الإنجليزى المتين.

وجدت نفسى وسط البيوت المتلاصقة تضىء فيها المصابيح الكهربائية. الأطفال يجرون فى الشوارع مثل الكتاكيت. يلعبون البلى أو الكرة. يقفزون، ويصرخون بأصوات عالية. بنت صغيرة تسير حاملة على رأسها صينية كبيرة من "المنين". تتلفت ناحيتهم فتكاد تصطدم بى.

عند ناصية الشارع يقف رجل أسود. جسمه ملفوف فى ثوب من الهلاهيل يظهر أكثر مما يخفيه. يمسك بكوز فى يده، ويلف ذراعه بحركة دائرية فوق الصينية الكبيرة. أرى خيوط الكنافة البيضاء الرفيعة تتساقط كاللبن من الضرع، وجلده الأسود يلمع مثل القطيفة. على الناصية الأخرى مقهى يتصاعد منه ضجيج اختلطت فيه خشخشة المذياع، وطرقعة النرد، ونداءات رجل أعرج ربط رأسه بمنديل يروح ويجىء بين المناضد زاعقًا "واحد شاى وصلحه، اثنين حلبة، أهوة على الريحة يا معلم أوام..".

هذا هو الشارع الذى وصفوه لى، على ناصيته بائع الكنافة والفطير، وعلى الناصية الأخرى مقهى "الواحة الجديدة".

تركت أول حارة على اليمين، ثم الثانية. عند ثالث حارة تاجر للحبوب، ألمح أكياس الفول، والحمص، والسمسم، والعدس الأصفر. مررت على خمس بيوت وتوقفت عند السادس. ألقيت نظرة سريعة فوق كتفى. قالوا لى تأكد ألا يتبعك أحد، لكن زحام آخر النهار، والظلال الزاحفة تجعل من الناس كتلة هلامية. تسللت إلى البيت مثل القط يمرق فى الظلام. فى أنفى رائحة عطنة، مكتومة. صعدت الدرجات المتآكلة مسندًا يدى على الجدار. تركت الدور الأول، والثانى، وتوقفت عند الدور الثالث أمام الباب الخشبى. نقرت نقرتين، ثم تنبهت إلى زر صغير مدفون فى الجدار، ضغطت عليه. لم يأت صوت الجرس فنقرت على الباب من جديد. بعد مدة جاءنى وقع شبشب يزحف فوق الأرض، ثم صوت امرأة يخترق الباب الخشبى.

"مين؟"

"أنا عزيز[1]"

فُتح الباب ببطء. قلت:

"مساء الخير يا عمتى"

"مساء الخير يا بنى"

حملقت فى وجهها المتغضن وعينيها الصغيرتين الخاليتين من الرموش، ثم سألتها:

"فين كمال؟"

"مستنيك فى أودته".

وجدت "كمال عبد الحليم" جالسًا على مكتبه، وقد وضع ذقنه بين يديه، وأسند مرفقيه على السطح الخشبى. كان يحملق أمامه سارحًا عندما دخلت. سمع صوت الباب يفتح، التفت إلى، وهتف:

" أهلاً، أهلاً، أين كنت طوال المدة السابقة؟ مرت أكثر من عشرة أيام دون أن أراك".

"العمل فى المستشفى سرقنى".

"قبل أن تجىء كنت أقرأ فى كتاب "لجارودى" عن تطور المجتمع". أشار إلى كتاب أخضر صغير يرقد على المكتب[2] "ولكنى عاجز عن التركيز، العمل زاد هذه الأيام وأنا لا أكف عن

---

(١) الاسم الحركى أوالسرى.

(٢) قامت الحركة المصرية للتحرر الوطنى بترجمة سلسلة من الكتب الماركسية إلى اللغة العربية حتى يمكن تثقيف أعضائها بأهم الأسس الخاصة بهذه النظرية ونشرتها فى شكل كتب صغيرة غلافها أخضر فسميت الكتب الخضراء.

الجرى هنا وهناك". تنبه إلى أننى مازلت واقفًا فترك المقعد لأجلس عليه واستقر هو على السرير.

سأل: "تشرب شاى؟"

"لا مانع".

فتح الباب وخرج إلى الصالة ثم عاد بعد قليل. أحضرت أمه الشاى، وضعته فوق المكتب وانسحبت فى صمت دون أن تنظر إلينا. أفرغ كوبين من البراد وأعطانى واحدًا منهما. أخذ يرتشف من كوبه بتلذذ. التقطت صوت المذيع فى راديو الجيران يقول:

" رئيس مجلس الوزراء يبعث برسالة إلى رئيس وزراء المملكة المتحدة موضحًا فيها أن "... تلاشى الصوت فجأة. قال:

" فرغت بالأمس من كتابة قصيدة جديدة، وأريد أن أتلوها عليك. ستكون أول من يسمعها، لكن على شرط".

"وما هو الشرط؟".

"الشرط أن تبيت معنا الليلة".

ضحكت وقلت:

"بسيطة. سأبقى معك حتى أسمعها".

"أحيانا أفكر أن أترك كل شىء لأكتب الشعر".

"حتى السياسة؟"

" بالذات السياسة. إنها تلتهم الوقت، والجهد. السياسة أصبحت تعنى التضحية بأهم شىء فى حياتى".

"أهى تضحية فقط".

تجاهل السؤال. نهض من جلسته وتوجه نحو الدولاب أخرج منه "بيجامة " صغيرة الحجم، وقال:

"أخلع ملابسك حتى تستريح".

حشرت جسمى فى "البيجامة" بصعوبة، فأخذ يضحك بمرح طفولى. صمت فجأة. زحفت سحابة من الحزن على وجهه كأن همًا كبيرًا يثقله. قلت:

" أراك، وكأن شيئًا يشغلك". تردد قبل أن يجيب:

" عن قريب سأترك البيت".

" إلى أين؟"

صمت ولم يرد، فأحسست بالضيق. لم أكرر السؤال ثانيًا. تفرس فى كأنه يريد أن يطمئن قبل أن يبوح إلى بما فى صدره.

"سأعطى كل جهدى للحركة. لكنى أفكر فى أمى. ماذا ستفعل عندما أترك البيت؟ "

"ولماذا لا تبقى فى البيت؟"

"سأسافر إلى مدينة أخرى"

قمت من السرير ووقفت أمام النافذة. أوراق الشجر تتحرك فى الليل كالأشباح الغامضة. أحسست بالضيق كأنه أصابتنى غيرة منه. سينطلق فى العالم الواسع، وأبقى أنا هنا كالطير المقصوص الريش. عدت إلى السرير، وجلست. سألنى مبتسمًا:

" لماذا لا نسافر سويا؟"

تطلعت إليه لا أعرف إن كان جادًا، أو عابثًا، سألته:

"إلى أين؟"

"إلى الإسكندرية"

رنت كلمة الأسكندرية فى أذنى برنين خاص. مدينة الألوان، والرمال، مدينة النخيل، والبحر تفتح بابها، تدعونى إليها. سأتخلص من كآبة العنابر، من عيون المرضى تتبعنى، من رائحة القىء، من جهد متكرر أخذ يفقد معناه. أنا حبيس الأسرة وحى الزمالك، لم أقتحم العوالم الجديدة التى قرأت عنها. كلمة واحدة تكفى، فما الذى يمنعنى من النطق بها؟ نظرت إليه وقلت:

"ولما لا؟ "

حملق فى وجهى متسائلاً:

" أأنت جاد؟"

أخذت نفسًا عميقًا، وقلت:

"بالطبع".

نزوة شباب؟ رغبة فى الانطلاق؟ فى إلقاء المألوف وراء ظهرى؟ روح المغامرة؟ لعبت كل هذه الأشياء دورها. ولكن عندما أعود إلى تلك اللحظة يبدو لى كأن القرار كان متخذًا من قبل،

إننى فكرت فى الأمر منذ زمن، وعزمت، ولم يبق سوى الإفصاح. أما "كمال فلا أعرف بالضبط ما الذى دفعه إلى دعوتى للسفر معه. هل مزاح انقلب إلى جد؟ هل محاولة منه أطلقها لجس النبض؟ هل خاطر طرأ على ذهنه فلما وجد استجابة من عندى قرر أن يواصل السعى؟ أم أنه كان يريدنى معه لحسابات خاصة به؟ ربما رأى فى وجودى معه ما يذلل بعض العقبات المادية فى الحياة، فأنا كادر لن يكلف التنظيم شيئًا.

لا أستطيع أن أجزم فكل هذه الاحتمالات كانت قائمة. أما أنا فقد كنت أتصرف بتلقائية الشاب الذى يحلم بطموحات وأهداف تحمس لها، ويرى أن دوره ومسئولياته ستتعاظم مع هذه الخطوة. أيًا كانت دوافع كل منا، وأيًا كانت النتائج التى ترتبت على هذا القرار، فأنا لم أندم عليه. لقد غير مجرى حياتى، وسهل على أن أتخذ قرارات أخرى مهمة، فالقرار الأول هو الأصعب بعده يتجرأ الإنسان على كسر القيود التى تربطه بالماضى، على اقتحام المجهول، على التقاط الفرصة التى يراها أمامه. يفقد المخاوف التى تشل إرادته. القرار الأول هو الذى فتح أمامى طريقًا للحياة مختلفًا تمامًا.

قدماى تنتقلان فوق الأرض بسهولة، جسدى خفيف، والحقيبة التى أحملها فى يدى بلا وزن. أبى يسيره إلى جوارى صامتًا. منذ أن أبلغته بقرارى لفه الصمت، كأن حيويته غابت عنه. طعنة شديدة وجهتها إليه دون أن أدرك مدى تأثيرها. دخل فى غرفتى وأنا أعد الحقيبة ليدس فيها مظروفًا به نقود. لم ألتفت إليه. خجلت منه، وعجزت عن إظهار شعورى. عندما هممت بالهبوط من المنزل لأستقل سيارة الأجرة المنتظرة أسفل البيت أصر على أن يصاحبنى حتى محطة باب الحديد(١).

أصعب شىء بالنسبة إليه هو عجزه عن إدراك المنطق الذى دفعنى فى هذا الطريق. كان يحلم بأن يرانى طبيبًا معروفًا. ألمحه وهو يسير محنى الكتفين، يجر قدميه على الأرض. أتفادى النظر إليه. ألمه الطاعن يتسرب إلى. بين لحظة وأخرى أرمقه بنظرة جانبية، لكنى غارق فى إحساس بالنشوة سيطر على.

الناس يتزاحمون فوق الرصيف، رجال ونساء، شيوخ، وأطفال، وباعة للسميط، والجبن، وصبيان يحملون رفوفًا خشبية فيها سجائر، وكبريت، وسودانى، ولب، أو دلوا مملوءًا بالكازوزة والثلج. رجال مطربشون، يطلون من نوافذ الصالونات، وينادون الباعة. فى أنفى رائحة دخان يتسرب إلى مثل البخور أو العطر.

رفعت الحقيبة، ودفعتها من باب العربة، ثم صعدت فوق الدرجات العالية، وسرت فى الممر باحثًا عن مقعد. رفعت الحقيبة إلى الرف. أزلت التراب من بنطالى وأطللت من النافذة إلى الرصيف حيث يقف أبى. أرى يديه ترتعشان قليلاً وهو يشعل سيجارته.

---

(١) الآن محطة رمسيس للسكك الحديد.

اللحظات تجر بعضها كأن الزمن توقف. لماذا لا يقوم هذا القطار اللعين ليعفينا من الإحساس بكلمات يجب أن تقال، ولكننا لا نستطيع أن نقولها؟

دق الجرس، وتحرك القطار فى قفزة مفاجئة، قال أبى:

"لا تغيب طويلاً يا بنى، وأرسل إلينا بأخبارك".

لمحت عينيه تدمعان. أخذت المسافة بيننا تتزايد، وبعد لحظة اختفى. جلست على المقعد، البيوت، والشوارع تندفع إلى الخلف، بعد قليل حلت محلها الحقول الخضراء، وأصبح وجه أبى جزءًا من الماضى لم أعد أراه.

شارع الإبراهيمية مثل الشريان الرفيع، يمتد من شاطئ البحر مخترقًا شريط العمران المقام على طول الساحل المعروف باسم رمل الإسكندرية. هنا فى قديم الزمان كان الشاطئ الرملى خاليًا من كل شىء ما عدا الأعراب يسكنون الخيام، ويسرحون بقطعانهم.

إنه شارع دائم الحركة، والزحام من طلعة النهار إلى ساعة متأخرة من الليل. على جانبيه حوانيت صغيرة الحجم تبيع الخردوات، أو الخضر، أو الفواكه، أو الحلويات، أو الخبز، أو اللحوم، أو الطيور، أو الأسماك، أو أنواع البقالة، أو الملابس، أو الأقمشة، أو الأحذية، ومحلات أخرى لتصفيف الشعر، أو حياكة الملابس، أو كيها، أو مخازن للأخشاب، والحديد، أو لبيع المشروبات الغازية، والخمور، والبيرة. شارع قائم بذاته لا ينقصه شىء. يوجد فيه كل ما يلزم لتسيير الحياة اليومية، كأن سكان هذا الحى قرروا الاستقلال عن باقى الإسكندرية. حركة دائبة دافئة من الناس كالنهر تشعرنى بأن الحياة بلا نهاية.

أحببت هذا الشارع منذ اللحظة التى هبطت فيها من ترام الرمل إلى رصيف "محطة الإبراهيمية". هذا التدفق الإنسانى الذى لا يتوقف بالنهار أو الليل لم أتعود عليه، فقد جئت من شوارع الزمالك الخالية تسكنها الأشباح فى الليل، فيها جمال الزهور، والبساتين، والنيل، ولكن يلفها الجمود، والصمت. لكن هنا إذا جلست على أحد المقاهى تمر أمامى الحياة بكل تفاصيلها، تخرج من كل باب، من كل بيت، أتفرج عليها، اندمج فيها، أعيشها كأنها نبع عميقَ لا يجف، فيضان خصب، مسرح مكتظ بكل شىء.

الحجرة التى استأجرناها على سطح إحدى العمارات تطل عليه فتصل إلينا نداءات الباعة وطرقعات النرد، وصوت الأغانى، وآذان الفجر وأصوات الضحك، أو نهنهات الحزن، تفقد حدتها فى طريقها إلينا، نعيش معها عن بعد، نتأملها برفق.

حجرتنا بيضاوية الشكل تلتقط النسيم الآتى من البحر فى النهار، وتتلقف النسيم الآتى من البر، من مساحات الرمل والنخيل فى الليل. استأجرها "كمال" بجنيه ونصف، هى ودورة المياه والدش، ثم حضرت أنا إليها فيما بعد فأصبح نصيب كل منا خمسة وسبعين قرشًا.

لكل منا سرير، ولكن سريره هو أكبر، وأعلى فهو المسئول السياسى عن لجنة منطقة الإسكندرية، والمتصل بالقيادة المركزية فى "القاهرة". أما أنا فعضو لجنة المنطقة لشئون التنظيم. نبيت سويًا أغلب الوقت، ولكن عندما يسافر أبقى وحدى، أشعر بالراحة عندما يغيب، تتسع مساحة الحجرة. والحركة، وحدود الاستقلال، أقرأ، أو أكتب فى هدوء، أو أخرج لاستنشاق النسيم على السطح وأرى القمر يضىء الرمال، ورءوس النخيل، جو كالأساطير والسحر.

أحيانًا تجتمع لجنة المنطقة فى الحجرة، تظل المناقشات دائرة حتى ساعة متأخرة من الليل، فنبيت جميعًا فى الحجرة. كان عددنا خمسة، فنضطر إلى التزاحم فوق السريرين. أهرب إلى السطح، أجلس على الأرض، أستنشق الهواء وأستمع إلى صوت البحر.

عندما عمت الاضرابات، والمظاهرات مدينة الإسكندرية كان الحوار يمتد إلى أن نهبط الدرجات الواحد تلو الآخر عند الفجر لنتوجه إلى أحياء الإسكندرية المختلفة، نصوغ البيانات، والمنشورات المذيلة باسم "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى" "لجنة منطقة الإسكندرية" وأحملها إلى مسئول جهاز الاتصال ليسلمها بدوره إلى مسئول الاتصال بالمطبعة. ذلك أن الاتصالات "بالأجهزة الفنية" كما كنا نسميها تجاوزًا فكثيرًا ما كانت لا تزيد عن آلة كاتبة وآلة رونيو للطبع، كانت تمر بعدة حلقات حماية لها من أعين البوليس.

أشعر أننى أصبحت ذا شأن، أسهم فى أحداث تقلب المدينة رأسًا على عقب. لا أعرف نتيجة كل هذا الجهد. هل سيقودنا إلى طرد الإنجليز وإسقاط القصر؟ المهم هو ألا يهدأ الشعب، أن نؤجج سخطه على الوضع، على ارتفاع الأسعار، وانخفاض الأجر، على تقييد الحريات، وحركات القبض، على وجود الإنجليز فى الثكنات، وبقاء جيشهم المحتل، على الملك وبطانته زاد ابتذالها مع الوقت.

أروح وأجىء بين ربوع المدينة، فى حركة دائبة. عند آخر الليل أعود سائرًا فى شارع الإبراهيمية، أجر قدمى فى إعياء، ولكنى راض عن نفسى، سعيد. أحيانًا أتوق إلى لحظة من الراحة، أو الاستمتاع، أشعر بالوحدة، أحسد من يحيون وسط أسرهم، أتطلع إلى النوافذ المضاءة، أتصور المجتمعين حول الموائد يتبادلون الحكايات، والنكات ويغمسون الخبز فى الأطباق الساخنة. أتوقف عند باب المقهى أمام صالة كبيرة تتوغل فيه إلى العمق. أجلس على مائدة من الرخام، وأحتسى كوبًا من الشاى، أتطلع إلى الناس يتحدثون، ويضحكون أو يلعبون "الضامة" والنرد، أو أنتقل إلى صالة "البلياردو" لأشاهد الكرات الملونة تندفع فوق الجوخ الأخضر لتسقط فى الجب، أو تصطدم ببعضها فى صوت يتردد المرة تلو المرة "كلاك".. "كلاك" ويقطع الصمت، فاللاعبون لا يتبادلون الكلام إلا عند نهاية اللعب.

جسمى خف وزنه من الجهد. آكل الفول، والطعمية، والطرشى، وأرغفة الخبز البلدى أبتاعها من الفرن. أتفانى فى إثبات قدرتى على التحمل. أنفى عن نفسى أصولى الاجتماعية المرفهة. "فكمال" يتناول وجباته فى " مطعم السبع " كباب، ومكرونة فرن، وقرنابيط بالبشاميل، وأصناف أخرى، أما أنا فأحتاج إلى إعادة تربية، إلى التعود على الفقر، وهذا الاقتناع يجعلنى أتقبل الفروق بينى وبينه أو بينى وبين غيره من الزملاء "العمال" الذين يحضرون أحيانًا من القاهرة لمتابعة ما يدور فى منطقتنا. أتطلع أحيانًا إلى طبق من اللحم أو من القرنابيط فى الفرن، ولكن مصروفى المحدود لا يسمح بذلك، فأنا أتلقى من أبى عشرين جنيهًا، أسلم منها ستة عشر جنيهًا للحزب، وأحتفظ لنفسى بأربع جنيهات كمصروف للشهر ليغطى إيجار الحجرة والمواصلات، والسجائر، والشاى، والأكل.

أحيا فى حالة من الحماس المستمر. أروح وأجىء، أنفذ ما يطلب منى، بين الحين والحين أحتج من فرط التعب ولكن أظل أنتقل من حى إلى حى، ومن بيت إلى بيت، فالمعركة دائرة بين الشعب والمحتل بين المصرين والقصر ولا وقت للراحة، أو للنزهة أو للتأمل.

مرة كل أسبوع فى حديقة "الأزاريتا" ألتقى بشابة تسلمنى ترجمات عربية لبعض المقالات المنشورة فى المجلات الأجنبية اليسارية. تجلس القرفصاء على الحشيش فيرتفع ثوبها. ألمح البياض الناعم للفخذ. جمالها الأنثوى يطعننى. عيناها تدعوانى إليها، برسالة أرفض أن أقرأها خجلاً، أو خوفًا من نظرات الشاب الذى يتسكع عن قرب، أو الرجل الكهل الذى يرتدى سترة من الجلد. فالبوليس فى كل مكان. أعانى من الرغبة الحارقة. أتصور نفسى مائلاً عليها فيصرخ الشبق الصامت فى العرق. ترى هل أدركت هذه المرأة الشابة كم عذبنى جسمها البض؟ ترى أين هى الآن؟ عجوز تتنزه وحدها مع الكلب، أم كومة صغيرة من العظام مدفونة فى الأرض؟

لم أكن قادرًا على النفاذ تحت السطح، على رؤية المصالح، والأغراض، والقوى الخفية تزحف فى خبث، تخطط، وتدبر، وتدور، وتلف، ففى الخفاء ثمة أشياء كانت تعد، أشياء يدبرها الحكم، وأشياء تدبرها الأحزاب، وأشياء تدبرها عناصر قيادية من "إسكرا" لأنها ساخطة على وضعها فى التنظيم، وتدعى الاختلاف مع الخط، أو عناصر من "الحركة المصرية" تتعصب لتيارها دون سواه.

"كمال" هو المسئول عن منطقة الإسكندرية. إنه بالنسبة إلينا أهم شخص، يسافر إلى القاهرة بانتظام، يلتقى بـ"يونس"(١)، أو أعضاء السكرتارية "سكر" أو يحضر اجتماعات المكتب السياسى. يعود إلينا متجهم الوجه كأنه قام بعمل مهم. لا يتحدث إلى عن رحلته، ولا يخبرنى

(١) " هنرى كورييل ـ مؤسس الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ومسئولها السياسى.

بشىء، كأنه سر. أتساءل بينى وبين نفسى، ترى ما الذى ناقشوه هناك؟ هل هى أمور خطيرة إلى الحد الذى لا يجوز معه الكلام؟. أليست مسائل تخص الحركة، وبالتالى تخصنا نحن؟ ولكن لا أفاتحه ولا أسأله احترامًا لقواعد التنظيم، أو ربما احترامًا للنفس. هل الثقة مفقودة بيننا إلى هذا الحد؟ أم أنه مازالت هناك أشياء لا أستطيع أن أفهمها؟ أحيانًا ألمح إليها من بعيد، "ألم تتخذوا قرارات"؟ يبتسم بخبث ويصمت. يغرس فى الإحساس بأن هناك مسائل مهمة تخص المستويات العليا وحدها، أما نحن، أما أنا فمجالى يتعلق بأشياء أدنى. ربما فيما بعد عندما أثبت نفسى سيتاح لى أن أطل على شئون الصفوة المختارة، فالمسألة مسألة خبرة وفهم، وأنا لم أنضج بعد.

هكذا كان "كمال" يبث فى إحساسًا بالنقص. كنت مسئولاً تنظيميًا عن حركة اليسار فى الإسكندرية، فى مدينة كبيرة وخطيرة كثرت فيها الإضرابات، والاعتصامات، والتحركات الجماهيرية، فى ميناء تطل على العالم الخارجى وتأتيها السفن من كل فج. موقع استراتيجى تضاعف فيه النشاط البوليسى فى فترة قصيرة بسبب حالة الغليان المستمر. كنت أشرف على اجتماعات لجنة المنطقة، والأقسام، والخلايا وأتابع القرارات التى تتخذها، على الجهاز الفنى الخاص بالطبع، وعلى شبكة الاتصال التى تتولى توصيل البيانات، والمطبوعات، والرسائل والتوجيهات إلى مختلف مستويات التنظيم، وعلى لجنة المراقبة التى تقوم بمهمة حماية الأعضاء، والهيئات المختلفة من تسرب أعوان البوليس إليها. الأعمال التى أتولى مسئوليتها إذن مهمة، وخطيرة تتطلب أن أكون موضع ثقة كبيرة، وتعرضنى فى كل لحظة لاحتمال الوقوع بين أيدى البوليس، مع ذلك كان يتعامل معى بطريقة فيها حذر غريب، كأن على أن أتحمل تبعات المسئولية دون أن أتمتع بحق الرؤية، أو التحديد، أو المناقشة، أو إبداء الرأى فى مسار الحركة التى أنتمى إليها.

كان أسلوبًا شائعًا فى التنظيم، بنى على مفهوم للمركزية الديمقراطية يؤكد الطاعة، والتطبيق الدقيق للمهام، ويجرد الأعضاء من حقوقهم الديموقراطية، وهذا المفهوم كان إحدى آفات الحركة اليسارية، لعب دورًا فى تعطيل النمو الطبيعى للأعضاء، وحال دون اتساع الرؤية السياسية، والثقافية، وساعد على استفحال الانقسامات والوصول بالخلافات إلى آخر مداها.

كانت ظاهرة مرتبطة بحداثة الحركة اليسارية فى مصر، وقلة خبرتها، ولكنها كانت أيضًا انعكاسًا للجمود الذى سيطر على الحركة الشيوعية العالمية، وللأساليب البيروقراطية فى تسيير شئون المجتمع والحزب و"كمال" كان مثالاً لهذه العقلية. لم يكن من العناصر المعروفة بدوره وسط جماهير الطلبة. يميل إلى التكتم والسرية، والحذر، مما جعل الآخرين لا يثقون فيه، ولا يستريحون إلى التعامل معه. يرون فيه شخصية تميل إلى التآمر، ورغم قربى منه، والصداقة التى ربطت بيننا، لم أشعر فى أى يوم أنه فتح قلبه لى، أو تعامل معى بطريقة

إنسانية فيها دفء. كان إحساسى دائمًا انه يحاول استغلال قلة خبرتى، وحماسى لأغراض فى نفسه إما شخصية أو متعلقة بالوضع فى "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى".

كانت سنة ١٩٤٨ بالنسبة إلى مليئة بالتجارب. فى شهر إبريل وقع إضراب الكونسطابلات[١]، وانضم إليه ضباط البوليس. وكان الإضراب يتعلق بمطالبهم الاقتصادية. عقدوا اجتماعًا حاشدًا فى نادى البوليس، وساروا فى مظاهرة كبيرة سرعان ما انضم إليها أغلب سكان الإسكندرية وعلى الأخص العمال، الذى تدفقوا من "كرموز" و"الأنفوشى" و"الحضرة" والمناطق الصناعية الأخرى، وانضم إليهم طلبة الجامعة، فانهار الجهاز الحاكم فى المدينة، وسيطرت الجماهير على الشوارع.

كان "كمال" فى القاهرة يجرى بعض الاتصالات، فعقدت لجنة المنطقة اجتماعًا بدعوة منى، وقررت إصدار بيان "باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى" ربطنا فيه بين الحالة الاقتصادية فى البلاد، واستمرار الاحتلال الإنجليزى، وسياسة القصر، كما شرحنا مطالب "الكونسطبلات"، وضباط البوليس، والعمال، والطلبة، وأهمية الحريات السياسية والنقابية فى تدعيم كفاح الشعب من أجل مطالبه ضد حكم الرجعية والاستعمار الإنجليزى، وقررت لجنة المنطقة تعبئة كل أعضاء الحزب للمشاركة فى المظاهرات، وأعدت اللافتات التى كتبت عليها الشعارات، كان بعضها يحمل اسم " الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ". وهكذا لأول مرة ظهرت الحركة كقيادة شبه علنية تتصدر المظاهرات العارمة التى اجتازت الشوارع والميادين والتى هتف فيها الجمع بصوت هز أركان المدينة، "يسقط الاستعمار، يسقط الملك الخائن، عاش رجال البوليس مع الشعب، عاشت "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى"".

انتابنى شعور بالزهو، بالقوة والانتصار، بالحرية التى لا تقف عند حد. انهارت أجهزة السلطة، وسيطرت الجماهير على المدينة لتتحرك كيف تشاء دون أن تخشى شيئًا، وخرجت "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى" من تحت الأرض تعلن عن وجودها.

وقفت فى ميدان "المنشية" أشاهد منظرًا فريدًا. مئات الآلاف من المتظاهرين يتدفقون صوب المدينة حاملين اللافتات ترفرف فى الهواء ومن بينها لافتات ضخمة تتقدم المواكب المختلفة، وقد خط عليها بالأحرف الحمراء. والزرقاء، والسوداء اسم "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى".

كانت الجموع فى حالة من النشوة، أبت أن تترك الشوارع، أن تعود من حيث جاءت. ساد جو من التآخى والفرحة العارمة، ولم تقع حادثة واحدة من العنف، أو السرقة، أو حتى العراك.

(١) فئة من رجال البوليس يشبهون أمناء الشرطة يتخرجون من مدرسة "الكونسطبلات" ويتمتعون بقسط من التعليم يفوق ماكان يتمتع به العسكرى العادى مما جعلهم قريبين من وضع الصولات فى الجيش.

عيد شعبى نثرت فيه الورود، ورفرفت فيه الأعلام، وارتفعت فيه الأناشيد، وغنت فيها ملايين الأصوات " بلادى بلادى لك حبى وفؤادى".

فى نهاية اليوم الثانى عدت إلى حجرتى فوق السطح. خلعت حذائى، ومددت جسمى على السرير، ثم سقطت فى نوم عميق، فقد عشت طوال الساعات ذلك الإحساس الذى لا يضارعه شىء، الإحساس بالثورة، بالشعب يحكم، بزوال القهر، والسلطة الغاشمة. كانت " بروفة واحدة "، لم تتكرر.

فلم تكن تملك الأدوات، لم تكن تملك الوعى أو التنظيم لتسيير شئون المدينة ولو لأسبوع واحد، أو شهر، ولم يكن اليسار يفكر فى السلطة أو الحكم.

بعد حوادث المظاهرات التى اهتزت لها مدينة الإسكندرية انتقلنا، " كمال " وأنا إلى سكن جديد فى منطقة " السيوف " بالقرب من " المندرة ". كان البيت الذى أقمنا فيه مملوكًا لأحد التجار بدأ فى تشييده، ولم ينته منه. رجل هادئ الطبع متساهل، يرتدى جلبابًا، وطاقية، له لحية سنية، وعينان تفحصان المتحدث إليه فى تساؤل. كان يعمل تاجرًا للخضار فى سوق " سيدى بشر " ولا نراه إلا مرة كل شهر عندما يحضر لاستلام الأجر الذى وصل إلى ثلاثة جنيهات مقابل الحجرة الواسعة التى أعطاها لنا فى " البدرون " والمزودة بحمام ومرحاض، ومطبخ.

نقلنا إليها "الدولاب" والسريرين، والكتب، وملابسنا القليلة. كان البيت فى مكان منعزل تبعد المساكن الأخرى عنه بعشرات الأمتار، محاطًا بالمساحات المفتوحة للرمال البيضاء وأشجار النخيل تطرح بلحًا أصفرَ صغير الحجم، وتتسلل بينها قطعان الماعز والخراف المملوكة للأعراب. نلمح أطفالهم يتطلعون إلينا من بعيد، ونساءهم تلف أجسادهن ووجوههن الأثواب السوداء المزدانة بالتطريزات الملونة، وتتدلى حول رقابهن العقود، ومن أنوفهن الأقراط. وجوه الأطفال، والنساء نحاسية اللون لفحتها الشمس، والهواء الصحو الخالى من الغبار، والدخان، تأتى رياحه من البحر فيتمايل النخيل، أو من البر بعد أن تغرب الشمس قرصًا أحمر وهاجًا يضىء الرمال بلون الورد.

كان الجو خصوصًا فى أيام الشتاء المشمسة رائعًا، فأقف لحظات خارج البيت أستنشق هواء الصباح، وأتطلع إلى الأطفال والنساء ينتصبن كالأشباح وسط جذوع النخيل. ما عدا هذه اللحظات الخاطفة لا وقت للاستمتاع بالطبيعة. فمنذ الصباح عندما ننطلق من البيت سائرين على الأقدام حتى محطة الترام فى " سيدى بشر " لا نكف عن التنقل بين أطراف المدينة. أعود وحدى قرب الساعة العاشر مساءً، حرصًا على اللحاق بآخر ترام. اهبط منه لأسير على قدمى من المحطة إلى البيت على طريق موحش أكاد لا ألتقى فيه بأحد، خيالى يلتقط عشرات الأشباح تختفى وراء النخيل، أو تنتقل فى لمح البصر من مكان إلى مكان. فى الليالى القمرية

يتملكنى شعور من الاطمئنان، فكل شىء مرئى بوضوح محاط بسحر الجمال. أسير بخطوات بطيئة تملؤنى النشوة أحس بها عندما أصبح جزءًا من الكون، متداخلاً فيه، جزءًا من الصمت الكامل لا يقطعه سوى همس النخيل، وقدماى تسيران بحرص على الرمال.

كان السكن ملائمًا بسبب انعزاله عن العمران مما يسهل علينا مراقبة ما يدور من حولنا ويحول دون التفات الجيران إلينا لبعد المسافات التى تفصلنا عنهم، ودون اختلاطهم بنا لأى حجة تتعلق باحتياجات الحياة اليومية مثل البصل، أو الثوم، أو خراطة الملوخية، أو الأسبرين أو الصابون. هذا على عكس "الإبراهيمية" التى كانت تفتح المجال واسعًا لتلك الأسئلة التى لا يكف الناس العاديون عن طرحها عندما يحضر السكان الجدد أو لكى تندس عيون البوليس وسط حركة للبشر والتى لم تكن تنقطع فى الحى الشعبى المزدحم.

وقعنا على العقد سويًا "كمال" وأنا، دون أن ندرك أن هذا التصرف هو الذى سيتيح لنا أن نفلت من مصيدة خطيرة أحاطت بنا فيما بعد. دفعنا إيجار شهرين مقدمًا، ثم تركنا صاحب البيت ينصرف بقلب مطمئن، فلماذا يشك الرجل الطيب فى اثنين من الشباب جاءا من "البحيرة" لينضما إلى كلية الآداب، والحقوق فى الجامعة ولا شأن لهما سوى بالإعداد للامتحانات فى جو من السكينة الكاملة..؟

كان يسكن فى مكان آخر، والبيت لم يكن فيه أحد غيرنا، فأصبحنا نتمتع بحرية مطلقة بعيدين تمامًا عن أى تدخل محتمل، أو رقابة يفرضها علينا الرجل أو أحد أفراد أسرته المكونة من زوجتين، وإحدى عشرة بنتًا، وولد. لم تكن البطاقات الشخصية أو كارنيهات الطلبة، أو أى وسيلة من وسائل التسجيل الورقى معروفة كجزء من نظم الحياة المدنية. كان استئجار المنازل، أو المعاملات المختلفة مسألة تنبنى على المعرفة السابقة، أو الثقة. هكذا أصبحنا مثل عصفورين خارج القفص، فانطلقنا فى نشاط لا يعرف الكلل.

كانت ليلة من ليالى الصيف فى شهر يونيو. ليلة جميلة هب فيها نسيم البحر حاملاً معه لسعة برد تسربت من فتحة السترة البنية اللون التى ارتديتها. فى أعماقى حنين إلى الاستمتاع، إلى النزهة فى مكان ما. السماء تبرق فيها النجوم مثل الرذاذ المتجمد، والقمر سائر وحده حزين، فى جوفى استقرت زجاجة " بيرة استلا " طازجة فوارة معبأة فى مصانع " الخواجة " أحدثت لى حالة من النشوة والدوار اللذيذ.

سرت وحدى فى الحى الصامت. المنازل أخفت أضواءها خلف الستائر. حتى كشك المرطبات والسجائر أغلقت ضلفاته وانتصب فى صمت عند ناصية الشارع. بين الحين والآخر يتردد نباح كلب ضال. تبخرت آثار " البيرة " التى شربتها فى مقهى " البلياردو " مازلت أعود إليه بين الحين والآخر رغم المسافة التى تفصل بين حى " الإبراهيمية " وبين سكنى فى " السيوف ". لم أعد أمشى بثقة نشوانة تخترق ظلال الشوارع. كان المقهى مزدحمًا بالناس تتلألأ

أنواره، أما هنا فلا أحد سواى. حتى صاحب الكشك الذى تعودت أن أتوقف عنده لابتاع علبة سجائر، هذا الأنيس الوحيد انسحب تاركًا عالمًا موحشًا وراءه.. اختفى كالروح الهائمة، تقمص جسد القطة السوداء التى تبحلق فى بنظرة فاجرة، ثم تقفز قفزة واحدة رافضة. عيناها فراشتان صفراوان باهرتان تطيران فى الظلام وتختفيان فى اللحظة التالية.

المسافة التى قطعتها من "الإبراهيمية" إلى "الأزاريطا" فى الدور العلوى للترام لم تستغرق سوى عشر دقائق. خلال الزجاج الأمامى تتبعت القضبان وكأنها تقودنى إلى آخر العالم، إلى سفر غامض، وتركت جسمى يتأرجح كالبندول مع حركة العربة تميل من جانب إلى جانب، ثم هبطت على رصيف خال من الناس. لمحت الوجوه القليلة للجالسين فى الترام ترنو أمامها فى الضوء الخافت.

كنت متجهًا إلى شقة فى " الأزاريطا " للاجتماع باللجنة المسئولة عن قسم الأجانب. وصلت قبل الموعد بقليل. صعدت متباطئًا فوق السلالم. ضغطت على جرس الباب ففتح لى شاب نحيل الجسم بدا فى الظلال كأن لا قوام له ولا ملامح.

جلسنا فى غرفة المكتب على مقاعد من الجلد تحيط بمنضدة منخفضة مغطاة بلوحة من الزجاج وضعت فوقها أقداح للشاى. كنا أربعة أنا وصاحب الشقة الذى فتح لى الباب، والمرأة الشابة التى التقيت بها من قبل عدة مرات فى الحديقة العامة المجاورة لمنزلها والتى أدركت أنها زوجة صاحب الشقة. أما رابعنا فرجل فى مقتبل العمر، قصير القامة رأسه كبير مسطح عند القمة وأنفه بارز.

كان الغرض من الاجتماع إحصاء التبرعات التى جمعت بواسطة قسم الأجانب بالإسكندرية فقد كان أعضاء هذا القسم هم الذين يقدمون ما يزيد عن ٩٠٪ من إيرادات " الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى " بحكم إمكانياتهم المالية، وبسبب الحماس الذى كان سائدًا فى ذلك الوقت. كانوا يعطون مما عندهم بسخاء يتبرعون بالأساور والساعات، وأقلام الحبر، والولاعات، وحتى دبل الزواج، وكنا نعتبر هذا أمرًا طبيعيًا يتمشى مع روح الفداء التى كانت تتميز بها حركة اليسار الشابة، المتطلعة إلى تحقيق الأمجاد.

انهمكنا فى عملية الإحصاء النهائى للتبرعات، غدًا سأحملها إلى القاهرة مسافرًا بالقطار. أتصور نفسى وأنا أسلمها لأحد المسئولين، يملؤنى الفخر بما حققناه فالتوسع السريع فى نشاط الحركة بعد الوحدة كان يستلزم بذل جهود مضاعفة لزيادة الموارد.

فجأة دق جرس الباب وانهالت الضربات العنيفة على زجاج الشراعة. أحسست بالدماء تنسحب من جسمى أصابته قشعريرة باردة. أشرت إلى صاحب المنزل فخرج من الحجرة وتوجه إلى الباب الذى انهالت عليه الطرقات، وعندما فتحه اندفع عدد من الرجال إلى الصالة،

واقتحموا حجرة المكتب التى كنا مجتمعين فيها. ملأوها بأجسامهم، وحاصرونا من كل جانب. اختلطت أصواتهم العالية بوقع أقدامهم.

وجدت نفسى واقفًا بينهم أتطلع إلى ما يدور، فاقد القدرة على الحركة، أو الكلام. من حولى أرى حصار السترات، والبناطيل، وأربطة العنق الملونة، والطرابيش الحمراء تطل من تحتها عيون قاسية فيها كراهية أو لامبالاة أو توتر يتفادى وجوهنا.

بدا زملائى حيارى من المفاجأة، مثل الطيور التى وقعت فى شباك، فرقدت مستسلمة بعد أن ضربت بأجنحتها فى كل الاتجاهات. وجوههم شاحبة، وفى أصابعهم رجفة، نظراتهم تعكس الصراع الذى يدور فى أعماقهم بين التردد والثبات، بين الخوف الذى يخفونه والتصميم على مواجهة كل الاحتمالات.

كنت أنا أيضًا أصارع حتى لا أظهر الاضطراب الذى استولى على. فى نفسى أحاسيس متناقضة. أنا مسئول فى التنظيم ويجب أن أواجه التحدى الذى تثيره نظراتهم. ولكنى خائف، أغوص فى دوامة تحاصرنى، وتسحبنى إلى قاعها. لكنى مع مرور اللحظات أخذت أفيق منها، وفجأة وجدت نفسى خارج حصارها. عاد إلى عقلى البارد، كأن الذى وقع فى المصيدة ليس أنا وإنما شخص آخر أتتبعه باهتمام وأسجل حركاته. يمد يده ليسند نفسه على أحد المقاعد. يتأمل الصورة المعلقة على الجدار، صورة زفاف الشاب وفتاته عيناها تطلان إلى بجدية من خلف عويناتها. نظرة فيها تساؤل. ماذا تنتظر؟ ماذا أنت فاعل؟ من النافذة يتسلل نسيم الليل، ويعبث بالستارة فتعلو تموجاته، ثم تتهاوى، لتسكن فجأة وتصبح مثل الكفن الأبيض البارد.

حملقت فى العينين الجاحظتين لقائد الحملة[1] لحظة ثم سمعته يقول:

"فتشوا الشقة كلها، وأنت يا "كمال" مشيرًا إلى أحد الواقفين "خليك معاهم لحد ما تخلصوا وبعدين نزلوا الناس دول تحت". ثم لف يده حول ذراعى وقادنى خارج الباب.

هبطنا على السلم، وقبل أن نصل إلى الشارع سألنى:

"اسمك إيه؟" فقلت:

"شريف حتاتة."

على بعد خطوات من باب العمارة كان يقف رجل آخر على الرصيف كأنه يحتمى بالظلام. اقترب منا عندما رآنا فسقط عليه نور فانوس الشارع. لمحت وجهه الأبيض، وشعر رأسه العارى يميل إلى لون أشقر فيه احمرار. مال عليه الضابط الطويل القامة الذى كان يرافقنى،

(١) اليوزباشى ممدوح سالم الذين أصبح رئيسًا للوزراء فى عهد السادات.

وهمس فى أذنه، فجمدت ملامحه. حملق أمامه لحظة قبل أن يقترب منى ليقف إلى جوارى. أحسست به يتطلع إلى من طرف خفى كأنه يضعنى فى الميزان. سأل فى صوت هادئ النبرات.

"أأنت الدكتور شريف حتاتة؟"

"نعم".

"ما الذى جاء بك إلى هنا"؟

"مثل هذه الأسئلة من اختصاص النيابة"

صمت، وظل ينظر أمامه كأنه يفكر فى الأمر، ويريد أن يوزن كلماته قبل أو يوجهها إلى. قال:

"أنت لا تعرفنى، أنا اليوزباشى "عبد الحليم حتاتة"، عايز أساعدك، وأخرجك من الورطة اللى وقعت فيها"

لم أقل شيئًا. أحسست بمزيج من الضيق والعداء للرجل بصوته الناعم جعلنى معرضًا عن الكلام.

استطرد.

"يمكنك أن تقول أنك كنت على علاقة بالمرأة اليهودية التى ضبطناها معكم"

قلت:

"متشكر.. لست محتاجًا لهذه المساعدة."

حملق فى وجهى لحظة، ثم ابتعد عنى كأنه قام بالواجب الذى تقتضيه صلة القرابة، ويمكنه الآن أن يتركنى لمصيرى. وقف مع الضابط ذى العينين الجاحظتين وأخذا يتهامسان وفى هذه الأثناء ظهر رجل ثالث. برز فجأة خارجًا من خلف إحدى الأشجار. كان يرتدى طربوشًا وسترة يصعب تحديد لونها فى نصف الظلام. ملابسه تبدو أقل هندامًا من الآخرين كأنه ارتداها كثيرًا. فى وقفته وفى بطنه البارزة قليلاً نوع من الارتخاء المنافى للعسكرية. يشبه موظفًا رقيق الحال. نادى عليه ذو العينين الجاحظتين يا "سيد "[1]. فاقترب منه. أسر إليه ببضعة كلمات فى أذنه، فمد يده إلى ذراعى واصطحبنى إلى سيارة سوداء "شيفروليه" كانت تقف بعيدًا عنا عند ناصية الشارع. عندما وصلنا إليها لاحظت أن هناك ثلاث سيارات أخرى يحيط بها بعض الرجال. أجلسنى "سيد" على المقعد الخلفى وأخذ مكانه إلى جوارى، وفى اللحظة نفسها فتح أحد الواقفين باب السيارة وجلس على الجانب الآخر.

---

(١) "سيد فهمى ـ الذى عينه ممدوح سالم وزيرًا للداخلية فى عهد السادات.

أسرعت السيارة فى الشوارع الخالية. ألمح الأشجار والمصابيح، والسائق منتصب الظهر والرأس مثل الدمية. لا أحد يتحدث، أو يحرك ساكنًا كأن الدنيا توقف فيها كل شىء ما عدا دوران العجلات فوق الطريق تحملنى بسرعة إلى مكان مجهول، كأننى فى حلم أشاهده من مقعدى، وأتتبع أحداثه. توقفت السيارة فجأة عند باب من الحديد وقف على جانبيه حارسان. أنزلونى منها. وجدت نفسى سائرًا بين الرجلين فى طرقة مظلمة على يسارها غرفة مضاءة دخل إليها الملازم سيد فهمى فتبعناه. انتصب الشاويش الذى كان جالسًا على مقعده وأخذ يغلق الأزرار النحاسية فى سترته السوداء بأصابع متعجلة. أشار إليه الملازم، فأخذ يفتشنى بيدين مدربتين. أخرج من جيب البنطال محفظة النقود، وحلقة بها مفتاحان، وعلبة سجائر هوليوود، ومنديلاً أعاده إلى.

خرجنا من باب الحجرة إلى فناء داخلى واخترقنا طرقة مبلطة. على يمينى أبواب مغلقة، وعلى يسارى عواميد. ألمح من بين الفجوات التى تفصلها مستطيلاً أخضر مزروعًا بالحشيش. فتحوا بابًا، وأدخلونى منه ثم أغلقوه. وجدت نفسى غارقًا فى ظلام دامس فظللت واقفًا فى مكانى. بعد قليل أخذت عيناى تميزان الأشياء فى الحجرة، سريرًا يمتد بطول الجدار، حوضًا للمياه أبيض مزود بصنبور، وفى الركن وعاءً منخفضى تصعد منه رائحة بول، وعلى السرير بطانية خشنة الملمس.

خلعت حذائى، ورقدت فوق السرير. حركت ذراعى فأحسست بالعضلات تتكور تحت الجلد. تنفست بعمق أملأ صدرى بالهواء ثم انقلبت على جانبى، وبعد قليل سقطت فى النوم. كان ذلك ليلة ٦ يونيو سنة ١٩٤٨.

مارس ١٩٥٠ اليوم الثالث والعشرين من الإضراب عن الطعام فى سجن مصر. جسمى خفيف بعد أن فقدت ثلاثة عشر كيلو جرامًا فى الوزن. غريب هذا الشعور بالشفافية، بأن الجسم لم يعد له وزن. أنا كالسحابة انساب بعيدًا عن الأرض، أترنح بإحساس لذيذ من السكرة مصدره ليس الوهن، ولكن الانتصار على الجوع، على الجسم، على كل الاحتياجات التى تكبله. أحلق عاليًا، متحررًا من كل القيود، أقوى من كل الرغبات.

أبواب الزنازن كلها مفتوحة على طول دور ٦ عنبر ب المخصص للسياسيين فى سجن مصر، يبدو كالقفص الضخم المعلق فى الفضاء. ألمح السماء الصافية تطل من بين القضبان الممتدة عند السقف. قلبى يشتاق إلى السير تحتها، وصفاؤها يعتصره. الحرية هى السماء المفتوحة، هى ألا تصطدم عيناى بجدار، أو باب أو قضبان.

لم يعد هناك داع لكى تخشى منا سلطات السجن. صرعنا الضعف، والوهن فنمنا فى الزنازن فوق الأسفلت، أربعة أجسام بالطول، وواحد بالعرض. خمسة رءوس حليقة تبرز من تحت الأغطية الخشنة، الداكنة اللون كأنها مزروعة فى جسم واحد، كالفطر الضخم صنعته يد

عالم مجنون حقنه بمادة سرية فكلما حقنه برزت له رأس. كتلة واحدة متلاصقة تتنفس بحركة بطيئة تكاد لا ترى. تطلق رائحتها العفنة من خمسة أفواه تجمد حولها لعاب جاف. بين الحين والحين تمتد ذراع نحيلة من تحت الغطاء لتطرد الذباب يحلق كالغيوم السوداء، أو ينفصل أحدهم عن الكتلة الراقدة على الأرض، ويقترب من "جردل البول" ليفرغ بطنه الخاوية من سائل أصفر بصوت كالعواء.

الأيام والساعات تمر ببطء كأنها تجر أقدامها فى الوحل، والأصوات تزداد خفوتًا، والكلمات تقل، وضربات القلب تتوارى فى أعماق الصدر. ومع الوقت تتسلل إلينا خيوط رفيعة من الشك ثم اليأس فيبدأ الهمس. أليس من الأفضل أن ينتهى الإضراب؟ السلطات ستتركنا هكذا ليحصدنا الموت، والموت قد ينقض فى النهار، أو الليل، فى الغسق أو الفجر، فى أى وقت.

العيون وحدها هى التى لا تسكن أبدًا، تتحرك كالحيوانات الصغيرة سوداء، وعسلية، وبنية اللون فى البياض المصفر تتخلله شعيرات الدم، تروح وتجىء فى المحاجر العميقة تحف بها الظلال الزرق. حركة مستمرة، قلقة لا تكف. تشتعل، وتخبو، فى صراع بين الأمل، واليأس، أقرأ فيها سؤالاً حائرًا.. إلى متى؟ إلى متى نستمر؟". عشرة عيون فى كل حجرة كعيون القطط المتوحشة فى كهف.

لم نكن نريد إلا أشياء قليلة نخفف بها وطأة السجن: الصحف، والمجلات، نقرأ فيها ما يحدث فى مصر، وفى العالم، كتبًا، وأقلامًا وورقًا حتى لا تنطفئ شعلة الفكر، مصباحًا يثبت عند السقف ليضىء ساعات الليل الطويلة ننتظر فيها بزوغ الشمس، قطعة من اللحم، أو الجبن، أو كوبًا من اللبن يعيد جزءًا مما فقده الجسم من الجوع المستمر، وغطاءً إضافيًا يقينا من البرد الذى ينفذ كالسكين الحاد عبر النوافذ المفتوحة، وعقب الباب والسقف. .

كنت طبيبهم. أمر على الزنازن حتى أطمئن على حالة كل منهم. قد يستدعى الأمر أن يخرج أحدهم عن الإضراب لأنه لن يتحمله. ثلاثة وعشرين يومًا من الإضراب المستمر جعل الوضع حرجًا إلى أقصى حد، فقد ينوء القلب الضعيف فى أى وقت.

أرسلنا مئات الخطابات إلى أعضاء البرلمان، والشخصيات العامة، والصحافة، والأهل. جاء الوفد إلى الحكم ومع ذلك حتى تلك اللحظة لم يبد على السلطات أى استعداد للتفاهم معنا. كنا ندرك بالطبع أنها ستبذل كل جهد ممكن حتى يفشل الإضراب وينتهى دون أن ننال أى شىء، فأجهزة البوليس السياسى، وسلطات السجن كانت تعامل اليساريين بقسوة العداء القديم، والاستجابة لمطالبنا من شأنها أن تزيدنا قدرة على مقاومة السجن، على القيام بالأنشطة التى تحافظ على صحة العقل، والجسم. منذ أن بدأ الإضراب انقطع الاتصال بيننا وبين الأهل، فأصبح من الصعب تقدير الوضع. وفى مثل هذه المعارك قد يتمسك كل طرف بموقفه من باب التحدى أو العند.

وصلنا إلى نقطة حرجة، فالقدرة على التحمل بدأت تقل، والأصوات المطالبة بإنهاء الإضراب تتزايد، والإلحاح مستمر. أصبح من المهم اتخاذ قرار سريع قبل أن تنهار المقاومة لنواجه بحملة مضادة تستخدم كل وسائل القمع. الحالة المعنوية والصحية للمضربين تتطلب إنهاء الإضراب فى أسرع وقت، لكن هل ننهيه دون محاولة أخيرة للتفاوض مع إدارة السجن؟ فالتراجع دون نيل أى شىء يعنى الهزيمة الكاملة، والهزيمة الكاملة عواقبها خطيرة.

كنت مندوبًا عن المسجونين السياسيين لدى إدارة السجن فووفق على اقتراحى بأن أقوم بمحاولة أخيرة لانتزاع أى مكسب حتى نخرج بشىء.

طلبت من حارس الدور أن أقابل مأمور السجن لأمر مهم يتعلق بحالة المضربين. هبطنا الدرجات، وخرجنا من العنبر إلى الحوش. سرنا تحت الشمس. تلكأت لأمتص دفئها يتسرب إلى ببطء. توقف الحارس عن السير ثم أدخلنى إلى مكتب المأمور. رجل قصير القامة، شاحب الوجه تشبه ملامحه ملامح المسجون الذى عاش طويلاً فى السجن. فحصنى بنظرة طويلة محايدة لا قبول فيها، ولا رفض.

سألنى:

"ماذا تريد؟"

"أريد أن أتحدث فى موضوع الإضراب".

"ما صنعتك أنت حتى تحدثنى عن الإضراب؟ يمكن أن تقلع عنه إن أردت".

"أنا مندوب عن المضربين كما تعلم جئت أتحدث معك بهذه الصفة".

"لا يوجد شىء اسمه مندوب، كل واحد مسئول عن نفسه".

ألقى إلى بنظرة طويلة ثم مضى يقول: "لا تبدو عليك علامات الإضراب، إنكم قطعًا تأكلون سرًا. متى تنهون هذه المهزلة؟! "

"عندما نحصل على مطالبنا".

"لن تحصلوا على شىء. ستموتون هنا كالكلاب."

صعدت الدماء إلى رأسى، ولكنى سكتت.

"جئت أعرض عليك فكرة ربما وافقت عليها، فأنا أعرف أن الضغوط عليكم شديدة. الظروف لم تعد كما كانت بعد أن جاء الوفد إلى الحكم، وأخبار الإضراب نشرت على نطاق واسع."

"لم يحدث شىء مما تقوله. هذه إشاعات وأوهام ابتدعتها عقولكم."

"لا .. إنها الحقيقة"

عيناه بلا رموش مثل الذئاب أو الجرذان. على إصبعه الصغير خاتم ثبت فيه جعرانًا أزرق كبيرًا يبدو كالخنفس فى نصف الظلام الذى يخيم على الحجرة. فى كل مرة رأيته فيها أجده هكذا قابعًا خلف مكتبه فى الظلام. مرتش يسرق غذاء المسجونين بالاتفاق مع المتعهد فلا نحصل حتى على المقننات المقررة فى لائحة السجن.

استطردت.

" أقترح أن ننهى الإضراب على أساس اتفاق ودى غير مكتوب بيننا وبين إدارة السجن".

"اتفاق ودى"!؟ ينطق الكلمتين كأنه يبصق. تتلوى شفتاه الرفيعتان بسخرية، "أتستخف بى؟ ستدفع الثمن غاليًا".

"لا أستخف بأحد. فأنا مسجون، وأنت مأمور السجن".

بدت عليه علامات الرضى.

"اشرح كلامك باختصار".

"المطالب التى تتعلق باللبن، واللحم، والجبن، والغطاء الإضافى يتم الاستجابة لها على أساس إنها إجراءات صحية اتخذت بعد الإضراب منعًا لحدوث أمراض، أو حتى وفيات. النور يدخل الزنازين بهدف تشديد الحراسة. بقيت الجرائد والأقلام، والورق تُرفض من الناحية الرسمية فى محضر إنهاء الإضراب، ولكن نأخذ منك وعدًا بأنك إذا ضبطها فى الزنازين لن تحول أحدًا إلى التأديب".

"ما الذى يجعلك تظن أن هذا الاتفاق الودى ممكن."

قررت أن أطلق طلقة فى الظلام.

"هناك حملة صحفية، وتحركات مؤيدة لمطالب المسجونين، وإذا مات أحدنا، وهذا احتمال وارد ستسأل أنت شخصيًا. نحن مصممون على استمرار الإضراب حتى ننال المطالب".

ظل صامتًا لا يرد. ضغط على الجرس المثبت فى مكتبه، وقال للحارس الذى دخل مسرعًا من الباب " سلمه لشاويش دور ٦.. " ثم التفت للأوراق الموضوعة أمامه كأنه قرر أن ينهى الأمر عند هذا الحد.

قبل التمام[1] بنصف ساعة أرسل المأمور فى طلب عدد منا بالاسم. وعدنا بأن يلبى "بعض المطالب". هكذا قال موضحًا أن هذا هو قراره الخاص الذى لم يتأثر بأية ضغوط لا من

(١) عملية إحصاء المساجين للتأكد من عدم هروب أحد منهم ـ بعد ذلك تغلق الأبواب ويأتى الليل.

المضربين ولا من أية جهة أخرى. حذرنا من العودة إلى مثل هذا الأسلوب، وإلا اضطر إلى اتباع كل أنواع العقاب التى يملكها بمقتضى لائحة السجن. قال أنه يريد أن يسهل علينا حياة السجن فى حدود الممكن. فنحن "ناس متعلمون" ولسنا مجرمين، ويجب أن يتصرف هو، وأن نتصرف نحن على هذا الأساس.

توقف عند هذا الحد وضغط على الجرس. دخل اثنان من الحراس. قال بصوت مبحوح "خذوهم إلى دورهم، وسلموهم للشاويش. ولما يخلص التمام يجيلى هنا فى المكتب".

فى اليوم التالى أعطونا قطعة من اللحم وقطعة من الجبن، وقليلاً من اللبن مع التعيين[١] وغطاءً إضافيًا، ولمبة كهرباء فى السقف، أما الجرائد، والأقلام والورق فبقى الوضع بالنسبة إليها كما هو فى فترات يتغاضون عنها، وفى فترات أخرى نعاقب على وجودها.

كان يوم آخر يقترب من نهايته، ويستسلم أمام الظلام الزاحف. أجلس على دكة الشاويش وأتفرس فى قصاصة صغيرة فيها كلمة "الأهرام"، وبعض الجمل التى أحاول فك رموزها. التاريخ المكتوب ١ مايو سنة ١٩٥٠.

ساعات اللقاء بين الليل والنهار تتلون بلون واحد. تضغط على صدرى بثقل واحد وتصبغ الحياة بكآبة واحدة. لماذا يتجمع الحزن كله فى آخر النهار؟ تغلق أبواب الزنازن على الليل الطويل، وتتوقف حركة الحياة، والخطوات، والأصوات. الصمت كالمحيط البعيد، فيه أنفاس تعلو وتنخفض، وأنا راقد على البرش[٢].

انتهى الإضراب وفى الصباح وقفت أشاهد الطوابير الزرقاء تتزاحم، وتندفع من باب العنبر، ثم جاءنى صوت ينادى من بعيد. التفتُّ فرأيت حارس الدور يقترب منى. سألته.

"خيرًا ماذا تريد؟"

"الدكتور غنايم[٣] أرسل فى طلبك".

شربت باقى كوب الليمون برشفات سريعة. فتح لى الحارس طريقًا وسط الزحام. خرجنا من العنبر إلى الحوش وصعدنا السلالم إلى المستشفى الرابضة فوق مكاتب الإدارة. فتح لنا أحد المرضين الباب الحديدى، ثم بابًا يقود إلى غرفة العمليات. الشمس تخترق زجاج النافذة، وتبرق على السطح اللامع لعلب الغيار. على المقعد جلس رجل موليًا ظهره للباب الذى دخلت منه، محملقًا من النافذة المفتوحة أمامه كأنه مستغرق فى التفكير. اقتربت منه وقلت:

---

(١) التعيين: هى مقننات التغذية المقررة وفقًا لنظام السجن.

(٢) فرش من الخوص.

(٣) طبيب السجن.

صباح الخير يا دكتور "غنايم". فالتفت إلى. جسمه الضامر منزو فى المعطف الأبيض الواسع، ووجهه مثل جسمه أسمر، نحيل وخدوده بارزة. ابتسم كاشفًا عن أسنان مصبوغة وأشار إلى مكان بجواره.

"قف هنا فى الشمس يا دكتور".

مد يده إلى العلبة المفتوحة على منضدة أمامه، وسحب منها سيجارة أشعلها بولاعة عتيقة صعد منها لهب طويل.

"هه كيف حالك بعد الإضراب؟"

"على ما يرام. عندى شىء من الضعف فقط".

"ولكنك فقدت وزنًا كثيرًا". تفقدنى بنظراته الحزينة من خلف عويناته ثم أضاف.

"سأرسلك إلى القصر العينى، أنت فى حاجة إلى فحص كامل، وراحة بعد الإضراب، فقد لاحظت أن ضربات قلبك لم تعد منتظمة ".

أنظر إليه فى دهشة، فيبتسم ابتسامة صغيرة، قلت.

"ولكنى لا أريد أن أترك زملائى."

استطرد فى حديثه كأنه لم يسمع.

"سأرسلك إلى القصر العينى، وأريد منك ألا تعود."

حملق فى عينى بنظرة طويلة.. ساد صمت عميق فى الحجرة. أحسست بشىء كالغصة فى حلقى. بينى وبين هذا الرجل علاقة خاصة رغم قلة الكلمات التى نتبادلها، فهو صامت على الدوام. نتحدث أحيانًا عندما أحضر إلى المستشفى لأطلب شيئًا يخصنا، سألته:

"لماذا تفعل هذا يا دكتور "غنايم"؟

"لا أعرف. لا أعرف. كان عندى ابن يشبهك".

"وأين هو الآن؟"

"مات وهو لا يزال فى الكلية، كان عمره تسعة عشر عامًا".

سالت دمعة واحدة بطيئة على خده ثم سقطت. قام من جلسته، واتجه نحو الباب، دفع إحدى الضلفتين بيده ثم توقف كأنه نسى شيئًا، التفت إلىَّ.

"لا تنس، يجب ألا تعود".

عيناه تطلان بصفاء غريب من خلف زجاج العوينات. لمحت الجسم النحيل يكاد يضيع فى المعطف الأبيض، والظهر المنحنى. لحظة مرت ثم اختفى لأجد نفسى واقفًا أمام الباب الذى أوصده خلفه.

بعد أسبوع استدعانى إلى المستشفى وأبلغنى أن السلطات وافقت على خروجى لإجراء الفحوص اللازمة فى القصر العينى، وفى اليوم التالى نادوا على اسمى فى العنبر الكبير.. التقطت الصوت القوى المنغم يعلو فوق الأصوات "شريف فتح الله حتاتة"، القصر العينى بكره" انتفض قلبى تحت الضلوع، وأخذت أذرع الزنزانة يتملكنى إحساس فيه توقع لشىء.

الفصل التاسع

الهــروب

صباح يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٥٠ دلفنا أنا والضابط، والحارسان من بوابة السجن لنجد شاحنة صندوقها مفتوح فى انتظارنا.

عندما وصلنا مستشفى القصر العينى الجديد توجهت إلى قسم الجراحة وهناك وافق الطبيب المقيم على احتجازى حتى تجرى لى بعض الفحوص. هكذا وجدت نفسى فى حجرة منفردة نقلتنى فى لحظة من عالم السجن القبيح إلى مكان فيه راحة، ونظافة، وفرصة للحديث مع الناس العاديين.

كنت كالعائد إلى الحياة من مرض طويل، استيقظت كل حواسى فجأة. اجلس على المقعد الأسيوطى أمام النافذة المطلة على الشرفة. ألمح حديقة الكازينو بمقاعدها وشماسيها الملونة تصطف فى هدوء، وسيدة تقرأ فى كتاب، وتعرض ذراعيها العاريتين للشمس، وطفلاً يقفز كالأرنب الصغير وسط الزهور.

قضيت الأيام الأولى أُرتب حجرتى. تملكنى نهم للحياة. أرسلت فى طلب كل ما أريده. فرشت سريرى بملاءة ناصعة البياض. وضعت مفرشًا منسوجًا بالألوان فوق المنضدة، وزهرية أملؤها بالورود التى يأتى بها البستانى كل صباح. أحضرت راديو من البيت وضعته إلى جوار السرير فظلت عينه الخضراء تضىء إلى ساعة متأخرة من الليل. أعلى الحوض الصينى الأبيض استقرت فرشاة للأسنان جديدة، وعلبة بلاستيك بها صابون، ومعجون حلاقة تفوح منه رائحة لافندر، وماكينة حلاقة، ومشط، وزجاجة كولونيا.

كنت أحاول أن أبعد عن نفسى كل ما يذكرنى بحياة السجن. هرب النوم من عينى فأنا أريد أن أحيا كل اللحظات. أدير قرص الراديو لأجوب العالم، أبحث، وأستكشف، وأستمع إلى ما يذاع حتى الصباح. تملكلتنى حالة كالحمى، رغبة جامحة فى الترحال إلى كل البلاد. الحجرة الصغيرة تتسع وتتسع لتحتوى الدنيا كلها. المؤشر ينقلنى إلى حيث أريد. أنا كالخارج من القمقم إلى العالم الواسع، الساعة تمر تلو الساعة دون أن أشعر بها، ودون أن يصيبنى تعب، أو ملل من

التنقل بين المحطات. صوت مذيع القاهرة يردد تصريحات "النحاس" عن أشياء قادمة، وآسيا تنتفض، وساعة "بيج بين" تدق فى لندن فتذكرنى بحجرة المكتب فى بيتنا، والكتب، وقلق المرحلة الأخيرة فى الجامعة. نسمة الصيف تنساب من النافذة وصوت الكمان يأتينى فى الليل فأشعر أننى أريد أن أبقى هكذا إلى الأبد غارقًا فى أعماق النغم، سابحًا مع الأفكار، والصور. أمى ترسل إلى الطعام كل يوم فى عامود من الألومنيوم تضع فيه الأطعمة كأنها تفرغ فيه كل ما اختزنته من شجن، الخس الأخضر بأوراقه النظيفة اللامعة، والطماطم تنتظم فى دوائر متساوية، والخيار الأخضر، وشرائح من اللحم، والأرز الأبيض يأتينا من "البلد"، وعصير الليمون المثلج، ومع كل هذا موقدًا صغيرًا لأدفىء الأطعمة، وأصنع عليه أقداح الشاى والقهوة.

لكن بالتدريج أخذ يزحف على القلق. جملة نطق بها الدكتور "غنايم" بددت سكينتى "إذا ذهبت إلى القصر العينى لا تعد". أظل الليل جالسًا على المقعد أو راقدًا على السرير تدور الأفكار فى ذهنى فى سباق مضطرب، لكنها بالتدريج أخذت تنتظم فى خط واحد يتعرج أحيانًا، أو يتراجع، ولكن مع كل ساعة تمر يتقدم بثبات. أحسست بروحى تغدو خفيفة، كأنها تطير مستبشرة بما سيقع. شىء واحد فقط يسبب لى القلق، الضابط الجالس فى الشرفة أمام النافذة يرمقنى من طرف خفى، ولا يدعنى أفلت بعيدًا عن عينيه، رغم لا مبالاته الظاهرة، والشرطيان المنتصبان طوال النهار والليل، أحدهما عند الباب، والآخر عند النافذة.

فى الأيام الأولى حالت الراحة الجديدة، والحرية النسبية التى كنت أستمتع بهما دون أن ألتفت إليهم، ولكن بعد أيام قليلة أخذ وجودهم يفرض نفسه على، وكأن ظلاً ثقيلاً يحيط بى، يربض على صدرى ويقيد جسمى بقيود مستترة، فالعيون التى تتظاهر بعدم الالتفات إلى تراقب كل حركة من حركاتى حتى عندما آكل، أو أبدل ملابسى، أو أسترخى على السرير مغلقًا عينى.

كان من الواضح أن لديهم تعليمات مشددة بألا يتركونى أغيب لحظة عن نظراتهم. يتوارون خلف جدار، أو باب، أو ضلفة النافذة ولكن طرف حذائهم، أو ماسورة البندقية، أو جزء من الكتف أو الساق تظل ظاهرة أو تبرز كل حين ليذكرنى بوجودهم. أحاول أن أزيل هذا الإحساس بأن ظلاً ثقيلاً يحوم من حولى، ولكن حتى إن نسيته فى بعض اللحظات لا يلبث أن يعود، فالفكرة التى أخذت تختمر فى عقلى كان يقف دون تحقيقها الإحساس بهذه القيود.

كانوا يتتبعون كل خطواتى وكأنى مربوط بسلاسل رفيعة من حرير لا تراها العين. رغم محاولاتى للتخلص من هذا الشعور، أخذ يتزايد يومًا بعد يوم، فلم يكن بينى وبين الحراس أية حواجز تترك لى لحظة خاصة فى حياتى، أو ركنًا أختفى فيه بعيدًا عن نظراتهم. بدا لى باب الزنزانة المغلق أرحم من هذه العيون الساهرة. مع الأيام أخذوا فى الاختفاء جزءاً من الوقت الذى يقضونه فى نوباتهم ولكن كان يكفينى سعال خافت، أو صوت كعب البندقية يحتك

بالأرض، أو تثاؤب أو همس أصواتهم، أو رؤية يد تمسك بطرف النافذة، أو رأس تطل بسرعة ثم تنسحب، لأدرك أن حريتى ضرب من الأوهام، وأن العيون مازالت ترصدنى بثبات يقظ.

كنت أخفى مشاعر الضيق التى تنتابنى. إنهم ضحايا مثلى، الوجه الآخر لعملة واحدة، ومع ذلك فهم العقبة التى تحول دون تنفيذ الفكرة التى أخذت تختمر، وتتضح بسرعة متزايدة.

تولت "أم السعد"(1) إحضار الأشياء التى طلبتها. فى اليوم التالى لدخولى إلى المستشفى، دخلت على فى الحجرة المخصصة لى تحمل "عامود" الطعام. أحسست أن شخصًا يقف فى فتحة الباب دون حركة فاستدرت لأجد ذراعين قويتين تحيطان بى. أبعدتنى عنها قليلاً حتى ترانى. أتطلع إليها بمزيج من السرور والدهشة كالطفل أصبح شابًا يسعد بحضن أمه لكنه يخجل، إلى الوجه الأسمر ذى الملامح القوية تسيل فوقه دمعتان كبيرتان، وتسقطان على صدرها.

قالت:

يا سى "شريف" ثم اختنق صوتها.

قلت.

"يا "أم السعد" لا تبكى، أنا بخير، اجلسى هنا".

جلست على المقعد إلى جوارى. أنظر إلى عينيها الجاحظتين قليلاً، والمنديل الملون يلف شعرها، وإلى الوشم الأزرق الكبير على ذراعها. أسألها.

"كيف حالك يا "أم السعد" وكيف حال الأولاد؟"

" بخير الحمد لله. يسألون عنك باستمرار "

تذكرت بإحساس من الرضى أننى أجريت لها عملية توسيع فى عنق الرحم منذ ثلاث سنين وأنها أنجبت بعد ذلك.

أسمعها تقول:

" البيت ليس كما كان منذ أن تركتنا يا سى " شريف ". ووالدتك حزينة عليك. نجلس أنا وهى وحدنا فى الليل، نتحدث عنك ".

" أنا بخير كما ترين، وسيفرج عنى قريبًا إن شاء الله " .

رددت

(١) الشغالة التى عاشت مع أمى وخدمتها مايقرب من عشرين سنة كان عمرها اثنتى عشرة سنة عندكت جاءت إلينا.

" إن شاء الله. إن شاء الله يا رب ". ثم قامت بسرعة واتجهت ناحية " العامود " كأنها كانت تبحث عن ذريعة للقيام من جلستها إلى جوارى. قالت " سأعد لك الطعام بنفسى " وأخرجت موقدًا صغيرًا من صندوق للكارتون وضعته فوق المنضدة. ولكن فى تلك اللحظة دخل علينا الضابط من الباب وقال فى صوت جاف خشن.

"ماذا تفعلين يا ست، ممنوع.. يكفى أننا تركناك تدخلين الطعام بنفسك. انصرفى".

نقلت نظراتها إلى كأنها لا تعترف به فقلت لها.

"انصرفى يا "أم السعد" وعندما تحضرين غدًا احملى معك علبة النرد الصدفية، وخذى هذا الكيس. وضعت فيه الملابس للغسيل".

مد الضابط يده وتناول منى الكيس. فتحه وفحص محتوياته قبل أن يسلمه إليها، ثم التفت إلى الأشياء التى أحضرتها معها وفحصها بدورها مقلبًا محتويات العامود بملعقة. أزاحت وجهها بعيدًا عما يدور كأنها لا تريد أن ترى ما يفعل بالطعام الذى قامت بإعداده. قبل أن ينتهى من عملية "التفتيش"، التفتت إلى فجأة وقالت:

"أمشى أنا بأه يا سى "شريف". هه السلام عليكم" وخرجت دون أن تنظر وراءها.

كانت الحراسة الموضوعة على تتبدل كل ثمانية ساعات، فيتناوب على ثلاثة من الضباط يراقبون كل تحركاتى بدقة، ولا يتبادلون معى الكلام كأنهم قرروا أن يضعوا بينهم وبينى مسافة. لكن ساعات الانتظار الطويلة التى كانت تصيبهم بالملل، والتعود التدريجى على وضع يتكرر يومًا بعد يوم، والعلاقات الطبيعية التى تنشأ حتمًا بين الناس الذين يوجدون سويًا، خصوصًا إذا كانوا من الشباب أخذت كلها تخفف من حدة الحذر الذى كان مستوليًا عليهم. ألمح فى عيونهم أحيانًا نظرة تساؤل: "أنت شاب مثلنا. ما الذى قادك إلى هذا المصير؟".

أثناء النهار، وحتى ساعة متأخرة من الليل أخذ يتوافد على حجرتى عدد يتزايد من الأطباء، وبعض الممرضات اللاتى عملن معى عندما كنت طبيبًا مقيمًا فى المستشفى يدفعهم الفضول أو الرغبة فى الحديث، أوالتسلية، أو التخفيف عنى. فى البداية كانت هذه الزيارات خاطفة كمن يضع قدمه فى البحر ليجسه، ولكنها بعد قليل أخذت تطول مما ساعد على إزالة جو الحيطة، والتعامل الرسمى.

حاول الحراس أن يمنعوهم من الدخول عندما بدءوا يجيئون، ولكن إلحاحهم المستمر، والحرج الذى كانوا يبثونه فى الضباط والجنود، وأثوابهم البيض التى تعطى عذرًا شرعيًا لوجودهم إذا ما انقض علينا أحد المفتشين، أو رجال البوليس السياسى، والضعف الذكورى أمام نظرات "العيون السود" كانت عوامل يصعب مقاومتها لمدة طويلة. هكذا انهارت السدود، وظهرت علامات الاسترخاء على الحراسة التى بدت فى الأول وكأنها لن تلين.

فى صباح أحد الأيام الصيفية المعتدلة كنت أجلس على الشرفة مستمتعًا بالجو الصافى. على بعد خطوات منى، وقف ضابط الحراسة. خلع "الكاب" ووضعه تحت إبطه، وأخذ يسرح فى المساحات الخضراء، وفى لحظة خاطفة جاءتنى فكرة.

قمت، وسرت إلى حيث كان يقف مسندًا ذراعيه على الدرابزين فأدار رأسه ناحيتى، قلت.

"صباح الخير" فأجاب.

"صباح النور."

"ما رأيك يا حضرة الضابط، فى دور من النرد نسرى به عن أنفسنا؟"

تردد لحظة، ثم ابتسم وقال:

لا مانع."

دلفت إلى الحجرة، وعدت حاملاً فى يدى صندوق النرد، ومنضدة صغيرة، وعلبة سجائر، وولاعة. وضعت المنضدة فى أول الشرفة حيث الظل، ثم دخلت فى حجرة أستاذ القسم المجاورة وأخرجت منها مقعدين. جلس الضابط[1] على أحدهما، وفتح الصندوق، فجلست فى مواجهته على الناحية الأخرى. لمحت وجهه الأسمر، وعينيه الهادئتين تطلان على من أسفل "الكاب". وجهه ليس وسيمًا ولكنه يثير إحساسًا بالألفة. أعطيته حبة من الزهر. خلع الكاب ومال إلى الأمام ليلقى بالزهر فى الصندوق، وسرعان ما استغرقنا فى اللعب. وقف الحارس إلى جوار النافذة يتابعنا بنظرات راضية كأنه يحس بالراحة إزاء هذا الجو، فرئيسه يلعب النرد مع المسجون الذى يحرسه.

لعبنا أربع "عشرات" لم أنتصر إلا فى واحدة منها. فلم أكن "حريفًا" كما يقولون. كانت عينا الضابط تبرقان بفرحة تشبه فرحة الأطفال، قلت:

"ما رأيك إذا اكتفينا بهذا القدر؟ هزمتنى شر هزيمة."

ضحك ضحكة طويلة مرحة. أغلقت الصندوق، ونظرت إلى ساعتى كانت تشير إلى الثانية. لاحظ حركة عينى فارتدى الكاب ووضع يده على حاجز الشرفة كأنه يهم بالقيام. سألته:

"سأصنع لنفسى فنجانًا من القهوة، ألا تشاركنى؟"

لم يبد عليه التردد هذه المرة. سألنى.

"محوجة؟" قلت

"نعم".

---

(١) اليوزباشى حسين محجوب.

قال:

"إذن هاتها. قهوتى على الريحة. ربما بعد ذلك نستطيع أن نلعب "عشرة" أخرى."

دخلت إلى الحجرة وعدت بعد قليل حاملاً صينية عليها قدحان من القهوة وضعتها على المنضدة.

"تفضل".

مد يده إلى أحد القدحين، رفعه إلى فمه، وأخذ منه رشفة، تذوقها على المهل. لمعت أسنانه البيضاء فى الوجه الأسمر، قال.

"فعلاً، قهوة ممتازة".

تناول علبة سجائره من جيب السترة ومد يده بها إلى. كدت أن أقول توقفت عن التدخين منذ فترة، ولكنى غيرت رأيى بسرعة. لابد من تنمية الألفة التى نشأت بيننا. سحبت واحدة منها وأشعلتها. نفثت سحابة من الدخان فأحسست برأسى تدور. مددت ساقى فوق البلاط وضغطت على رأسى بيدى، ثم تناولت رشفة من كوب الماء أحضرته مع القهوة، وبعد قليل اختفى الدوار، فسألته.

"أتسمح للشرطى بأن يصنع شايًا له، ولزميله".

كسا وجهه جمود مفاجئ، ثم قال فى اقتضاب.

"أسمح، ولكن بشرط ألا أرى شيئًا".

عدت إلى الغرفة، أخرجت علبة الشاى، والسكر وكوبين، وملعقة منْ الدولاب ولوحت للشرطى المنتصب إلى جوار النافذة. نظر إلى كأنه لم يفهم، فأشرت إليه حتى يقترب. تقدم ناحيتى، وهو يلقى بنظرة متسائلة فى اتجاه الضابط. عندما أصبح إلى جوارى همست له.

"اصنع شايًا لك، ولزميلك فى المطبخ" بدا عليه التردد فأضفت:

"استأذنت حضرة الضابط".

توجه إلى باب الحجرة حيث كان يقف الشرطى الآخر. سمعتهما يتداولان فى صوت منخفض، ثم عاد تاركًا بندقيته مع زميله. تناول الأشياء التى أخرجتها من الدولاب، حملها معه واختفى فى الطرقة.

عدت إلى الشرفة لأجد الضابط يقف بالقرب من الشباك كأنه يتتبع تحركاتى، قلت.

"هيا بنا نجلس هنا، فالشمس أحرقتنى".

سحبنا المقاعد إلى الركن وجلسنا. ظل صامتًا يتأمل المساحات الخضراء ثم سألنى كأنه كان يفكر فى أمر ما، وقرر أن يبادرنى بالسؤال فجأة.

"الناس هنا يقولون أنك كنت أول الدفعة، ألا تندم على ترك المهنة؟".

"كنت بالفعل أول الدفعة وكنت أحب مهنة الطب".

"ومع ذلك تركتها؟"

"تركتها من أجل الناس الذين يجوعون فى بلادنا".

"أتريد أن تقول أنك دخلت السجن من أجل المساكين".

"نعم".

انتابنى إحساس غامض بالإدعاء وأنا أجيب.

"وما الفائدة من وجودك فى السجن؟ أصبحت عاجزًا عن عمل شىء. كل ما فعلته هو أن تضيع مستقبلك".

"الحكومة تسجن من يعارض نظامها، فماذا أستطيع؟ أما السجن فقد تعودت عليه، وعن قريب سأخرج منه".

ابتسم دون أن يعلق. أتأمل وجهه الأسمر. ليس مثل الضباط الآخرين، أنس إليه، وإلى الحديث معه، فهو يريد أن يفهم كنه هذا الشاب الذى أمروه بحراسته، وحذروه من مغبة الاطمئنان إليه.

سألنى:

"ألم تفكر فى والديك؟"

دفنت الشعور بالإثم إزاءهما وهاهو ينبش القبر ليستخرج الأشلاء.

"بالطبع. ولكن هناك مئات الشبان المسجونين".

"أنت بالذات تستطيع أن تعود إليهما".

" كيف؟"

" تتعهد بأن تكف عما أنت فيه".

أتفرس فى وجهه. هل يمكن أن يكون من رجال البوليس السياسى أرسلوه إلى هذه الحراسة حتى يتعامل معى عن قرب؟

"ما الذى أنا فيه؟ هل تعرف؟".

"ألست شيوعيًا؟ "

"وهل تعرف ما هى الشيوعية؟ "

"يقولون أنها تعنى عدم الإيمان بالله".

" وماذا أيضًا؟"

وجعل الإنسان كالحيوان يعاشر أقرب الناس إليه".

" فقط؟"

"أنها تُطالب بالمساواة بين الناس بينما المساواة مستحيلة لأن الناس مختلفين".

"هذه مسائل تحتاج إلى مناقشة. أنا رأيى أن الإيمان بالدين مسألة شخصية، وأن لكل منا دينه فالمسلمون أنفسهم مختلفون فيما بينهم حول أشياء كثيرة، وفى التاريخ وجدت تيارات أطلق على أنصارها اسم "الخوارج" لأنهم اعتبروا خارجين عن الدين. أما فيما يتعلق بالأخلاق فأنا أسألك هل يوجد فساد أكثر من ذلك الذى يمارسه أفراد الأسرة المالكة والإقطاعيون، بينما هم يتهمون شبابًا مثلنا بأننا بلا أخلاق."

بدت عليه علامات التوجس ولكن كلامه استثارنى فصممت ألا أتركه يمر دون أن أرد عليه.

"أنا أعارض الظلم. والنظام الفاسد الذى يتحكم فينا. نحن نريد تحرير البلاد من الاستعمار، وأعوانه، من الملك ومن الذين يرسمون له السياسات التى يسير عليها. نريد توزيع أرض الإقطاعيين على الفقراء فى الريف، والاستقلال، وإلغاء معاهدة ١٩٣٦. ونطالب بالحريات السياسية، بحرية الرأى، والصحافة، والتنظيم. أنت تحيا فى مصر، وترى ما يدور فيها، فهل أنت راض عنه"؟

ظل صامتًا ينظر إلى كأنه أخذ على غرة، ابتلع ريقه وقال.

"أنت خطير فعلاً"، وضحك ضحكة قصيرة، جافة.

قررت أن أخطو أول خطوة فى الخطة التى أخذت تنمو فى ذهنى.

"هذا ما قالوه لك بالطبع، ألم يقولوا لك أيضًا أننى ربما حاولت الهرب، وأن عليك ألا تطمئن إلىَّ؟ "

وجهه يكسوه شحوب، وعيناه تتفاديان النظر إلىَّ. أشعل سيجارة واعتدل فى جلسته كأنه ينتزع نفسه من حالة الاسترخاء التى تسللت إليه، وجعلته ينسى أننى مسجون، وأنه ضابط أوكلت إليه مهمة حراستى. أخذ ينفث سحبًا من الدخان ويتطلع إلى المساحات الخضراء كأنه

يتفادى الالتفات إلىَّ. ترى هل أخطأت التقدير بمجازفتى هذه؟ كنت أريد أن أزيل مخاوفه، أن أمارس عليه نوعًا من تخدير الأعصاب، أن أجعله يظن أننى لا أفكر مطلقًا فى الهروب وإلا لما تحدثت عنه بهذه الصراحة، ولكن ربما بهذه الطريقة أثرت شكوكه وجعلتها تتضاعف.

قلت.

"الساعة قاربت على الثالثة، سأدخل إلى حجرتى قبل أن تحضر دورية بعد الظهر. استعد لمنازلتى غدًا فى الصباح، فلن أتركك تنتصر على بعد اليوم".

لمحت أسنانه تبرق فى ود، قبل أن أستدير.

رقدت على السرير وأغلقت جفونى كمن يسدل الستار، ولكن فى كواليس العقل ظلت الأفكار تتحرك. ساد الصمت ما عدا نقاط من المياه تسقط من الصنبور. قمت، وفتحت الصنبور. ظللت أستمع إلى صوت المياه وهى تتدفق كأننى اكتشفت شيئًا لم أتنبه إليه من قبل. أغلقت الصنبور وعدت إلى رقدتى فوق السرير. سعل الشرطى الجالس على مقعد قرب الباب، وهتف "سترك يا رب".

منذ ذلك اليوم سعيت إلى خلق الاطمئنان الكامل لدى الضباط والعسكر الذين يتناوبون على حراستى، أن أقنعهم أننى لا أفكر فى الهروب، وأن ما سمعوه من تحذيرات هو مجرد "كلام الحكومة" إن كل ما أطمع فيه هو قضاء أسابيع أو شهور من الراحة قبل أن تعيدنى السلطات إلى السجن، أن تكون الفترة التى أقضيها فى المستشفى بمثابة هدنة أستمتع أثناءها بما يتيحه لى وضعى كطبيب عمل من قبل فيها.

هكذا بدأت أخطط لعملية الهروب. نحيت مخاوفى جانبًا، أو ربما تبددت منْ نفسها كلما انشغلت بالتفكير. لم أعد أرى البنادق أو المسدسات، أو أتخيل الرصاص وهو ينطلق. تلاشت احتمالات الموت، أو الفشل ليحل محلها اليقين، ما عدا لحظات خاطفة ينبض فيها قلبى، ويعتصره خوف غريزى مفاجئ. أصبحت أحيا فى حالة من النشوة المتوترة لم أعش مثلها فلم يسبق لى أن شحذت كل طاقاتى بهذا القدر. تملكنى الإحساس بأن لى قدرات نادرة أخذت تعمل فى انسجام تام، أن عقلى مثل البلور تسبح فيه الأفكار كالأسماك تتهادى، أو تتلامس، أو تتصادم، أو تنطلق مسرعة، أو ترقص بحركات هادئة، أن جسمى خفيف الوزن، كالسهم المصوب نحو هدف وبأننى مسيطر على كل جزء فيه أوجهه كما أشاء. أعصابى يقظة، متوترة محكومة تمامًا بقوة أقوى منها، وأحاسيسى قادرة على التقاط كل همسة، أو حركة فيما حولها، كل صوت، أو نظرة، أو تعبير، أو طرفة عين، فى وجه الضابط أو الحارسين. وضعتنى الدولة فى السجن، أحاطتنى بجبروتها بحراسها، وجدرانها، ومختلف وسائلها فى القمع لكنى قررت أن أفلت من قبضتها، أن أتحداها فى عقر دارها، فالتحدى يدفع إلى الإبداع.

كانت لحظات النشوة هذه غريبة، كالسكرة، كالطيران على مسافة عالية، كالوقوف فوق القمم الشاهقة، كاكتشاف عالم داخلى لم أكن أدرك ما يوجد فيه. أحسست آن كل خلية فى جسمى تنبض بحيوية جديدة. أصبح للطعام لذة، وللنوم لذة وللأرق لذة، وللموسيقى لذة، وللمستقبل لذة فالتخيل لما يمكن أن يجىء به مستمر. أستيقظ فى شبق للحركة، للسير على القدمين، للقفز، للرقص، لممارسة الجنس، لدوران الجسم الأنثوى، كأن الخطر، والتحدى بعثا كل الطاقات، والرغبات المدفونة فى الأعماق.

فى ذلك الصباح، وأنا أترقب البخار الصاعد من براد الشاى الموضوع فوق الموقد أحسست بحفيف ثوب إلى جوارى، التفتت إلى سطحه الناصع البياض فظننت أنه لإحدى ممرضات القسم جاءت لتطلع على أوراقى، أو لتسجيل الحرارة، والنبض. رفعت عينى فرأيتها، قالت:

ألا تتذكرنى؟ أنا "زينب". وأخذت تفحص وجهى بنظراتها الثابتة الجادة تطل من عينيها السوداوين.

الحارس يبدو كالشبح المنتصب على الشرفة، والعين الخضراء فى المذياع تومض مثل عين القط فى الظلام، والمذيع يقول. "غداً سيصعد العلماء فوق جبل عرفات لرصد الهلال فإذا تجلت لهم الرؤية سيبدأ شهر الصيام". خرجت الكلمات من الصندوق الأسود وتوقفت فجأة لتظل معلقة فى الفراغ، وفى ذهنى ومضت فكرة مثل شحنة كهرباء، ثم سكنت هى الأخرى فى الفراغ. جاء شهر الصيام. سيتبدل الجو كله لتحل الفوضى مكان النظام. ستسود روح الأخوة والرحمة بينى وبين الحراس، فالصيام يزيل الحواجز القائمة بين الناس. يجعلهم جميعًا سواسية أمام الله. عند انطلاق مدفع الإفطار تنشغل العيون والأفواه، بطبق الفول، والمخلل، والجرجير، والفلفل "الحراق". أشعر بالتوتر اللذيذ يسرى فى أوصالى. كل فكرة جديدة كاللبنة فى البناء، أختزنها فى أرشيف العقل مع باقى الأفكار لأنسج منها خطة محكمة الأجزاء. أعرف مسالك المستشفى جيدًا. كنت أجوب أقسامها، وعنابرها وردهاتها ليل نهار عندما كنت طبيبًا مقيمًا. ولكن من يعلم؟ ربما حدثت تغييرات منذ ذلك الوقت. جدار أقيم، أو فاصل أزيل، أو باب أغلق بالضبة والمفتاح، لا شىء يجب أن يترك للصدفة، لا شىء.

على ورقة العلاج أضافوا الفحوص، والتحاليل، والأشعات التى طلبتها فهم زملائى وطلباتى لا ترد، عشنا سويًا أجمل سنين العمر، وأغلى الذكريات، ومن ينسى سنى الدراسة والشباب؟

أتحرك فى المستشفى من مكان إلى مكان. لا أترك زاوية، أو ركن، أو سلم، أو باب دون أن أتفقده. أستيقظ فى الصباح، وأتناول طعام الإفطار، ثم أخرج من الغرفة لأجد الضابط ينتظرنى على الشرفة، أو فى الحجرة المجاورة. يسألنى إلى أين ستذهب اليوم فأقول إلى قسم الأشعة أو العيون أو أمراض العظام. يضحك. "السجن أصابك بعشرات الأمراض، ربنا معاك." أصبح التجول المستمر فى أرجاء المستشفى أمرًا عاديًا يتكرر فى الأسبوع مرتين أو ثلاث،

ويساعد على قضاء ساعات الحراسة دون ملل من الانتظار فحيثما نذهب نجد أنفسنا محاطين بالأطباء، والممرضات، تدور الأحاديث، وتحكى الحكايات. هكذا انغمس الضباط، والعسكر فى حياة المستشفى، يعيشون أحداثها، ونبضها المتوتر بدلاً من الحملقة فى الفراغ.

كنت أتعمد الاختفاء عن أنظارهم بعض الوقت، ولكن سرعان ما أعود إليهم بعد لحظات ثم أخذت فترات الغياب هذه تطول. عندما أعود إليهم أقول "أين ذهبتم؟ كدت أن أتوه عنكم.. أليس من الأفضل ألا ننفصل، فقد يلاحظنا أحد المفتشين أو رجال البوليس السياسى؟" فيقولون: "خليها على الله، إنه الستار".

هكذا أوصلتهم خطوة بعد خطوة إلى اليقين بأننى لا أدبر شيئًا، فغيابى عنهم كان يمتد أحيانًا مدة تكفى للهروب إن أردت، ولكنى كنت أتحين الفرصة المناسبة التى لن تجىء إلا بعد إتمام كل الترتيبات ومنها المأوى الذى أستطيع أن أختفى فيه مدة شهور إذا لزم الأمر، والسيارة التى ستحملنى بعيدًا عنهم، وأشياء أخرى مهمة. قررت أن أدبر الهروب بحيث أضع بينى وبين المستشفى مسافة كبيرة قبل أن يتنبه أحد حتى أضمن ألا يتمكن رجال البوليس من اللحاق بى مهما أسرعوا بالمطاردة.

كان يوجد فى عنبر القسم الذى وضعت فيه عدد من الإخوان المسلمين، ومنهم "عبد الرحمن السندى" مسئول الجهاز السرى. إلى جوارهم كان يرقد زميلى فى الحركة "محمد يوسف الجندى" فاتفقت معه على أن نستغل فرصة وجوده فى نفس القسم للهروب سويًا. كان من شأن كل هذا أن يجعل الإفلات من الحراسة أكثر تعقيدًا، فبالإضافة إلى الحراسة التى وضعت على حجرتى، كانت هناك حراسة مستقلة للإخوان، وحراسة أخرى خاصة بـ "محمد يوسف الجندى" وكان هروبنا سويًا يتطلب مغافلة كل هذه الحراسات وعلى الأخص أفراد القوة المسئولة عنى، وعنه أى ضابط وشاويش وثلاثة عساكر. هذا فضلاً عن تناثر المعتقلين، والحراسات فى مختلف أقسام المستشفى، ووجود نقطة بوليس فى مبنى استقبال الحوادث القريب منا تتردد عليها ورديات العسكر والضباط مما يعرضنا للمخاطر لحظة الهروب إذا تصادف وجود أحد منهم على الطريق الذى سنسلكه.

لذلك كان على أن أختار طريقًا للهروب بعد القيام بعملية الاستكشاف التفصيلية التى شرعت فيها. لم يكن من الممكن أن يشاركنى "محمد يوسف الجندى" فوضعى كطبيب، ومعرفتى بكل خبايا المستشفى الكبير هو الذى أتاح لى إمكانية التحرك على نطاق واسع، ولكنى حرصت على مناقشته فى كل الخطوات التى خطوتها الواحدة بعد الأخرى حتى نستفيد من رؤيته لأشياء ربما غابت عنى، وحتى نضمن التناسق المطلوب عندما تجىء اللحظة المحددة للهروب.

كنت أعيش طوال هذه الفترة بشعور غريب كأنه لم يعد لى عقل واحد، وإنما عقلان، عقل ظاهرى ينشغل بما يدور من حولى، بالحياة اليومية التى انهمكت فيها حتى أخفى ما أريد أن

أخفيه وأستمتع بلحظات من الحرية، والمتعة النسبية، وعقل آخر مدفون، توارى فى الجزء الخلفى من جمجمة الرأس لينشغل بتدابير الهروب، مركز جديد ذاتى التشغيل انبثق لا أدرى كيف ليقوم بوظيفة محددة هى تدبير عملية الهروب.

العقل الظاهرى هو الذى كان يعمل يوم أن أحضرت لى "أم السعد" الملابس المدنية التى طلبتها منها، فعندما وضعت فى يدها الكشف الذى أعددته لم يكن قد اتضح فى ذهنى بعد ما الذى سأفعله بهذه الملابس. ربما فى تلك اللحظة لم تتعد الفكرة حدود الرغبة فى العودة إلى الحياة الآدمية الطبيعية، وكان منبع هذا التفكير هو العقل الأول المنشغل بشئون الحياة اليومية، بارتداء ملابس غير ملابس السجن التى مللت النظر إليها، بتأكيد حقيقة ربما احتجت نفسيًا إلى تأكيدها وهى أننى عندما أحلق ذقنى، وأمشط شعرى، وأرتدى قميصًا نظيفًا، وأنظر فى المرآة أرى نفسى كما عهدتها مليئة بالحيوية قادرة على الاستمتاع بالحياة.

كان أمامى طريقان للتصرف فى هذه الملابس. الأول هو الاحتفاظ بها لأرتديها ساعة الفرار. لم أشعر إزاء هذه الفكرة بالاقتناع فارتداء الملابس سيستغرق ولو دقائق قليلة، والوقت عنصر حيوى فى الخطة التى أخذت تتبلور تفاصيلها مع الأيام، والثانى أن أرتديها بدلاً من ملابس السجن دون انتظار.

فى الصباح الباكر بعد أن صعدت الشمس خلف جبال المقطم، وتحركت فوقها الظلال الصفراء والزرقاء قمت من جلستى على المقعد لأقف أمام الحوض الصينى الأبيض. دعكت أسنانى بالفرشاة، وحلقت ذقنى، واغتسلت ثم مسحت على وجهى، وعنقى وتحت أبطى بماء الكولونيا. خلعت ملابس النوم، وارتديت بنطالا لونه رمادى، وقميصًا وجوربًا وحذاءً وخرجت من باب الحجرة متجهًا إلى غرفة الأستاذ المجاورة لغرفتى حيث يستقر الضابط أثناء الليل.

وجدته جالسًا على الكنبة الأسيوطى يرتشف كوبًا من الشاى. التفت إلى، وأنا أدخل من الباب، وتسمرت عيناه لحظة على البنطال الذى ارتديته، ثم انخفضتا إلى الحذاء لترتفعا من جديد إلى القميص الأبيض المكوى جيدًا.

قلت "صباح الخير" فأجاب.

"صباح الخير" دون أن يبتسم، أو يهلل كما كانت عادته. عاد يرتشف من الشاى فى صمت.

جلست إلى جواره. لمحته يطلق إلى بنظرات خاطفة من طرف عينيه. انزل ساقه من فوق الساق الثانية وسأل.

" أين أنت ذاهب؟ "

" أفضل ألا أغادر حجرتى اليوم، أتريد أن نتمشى قليلاً"؟

" لا .. لماذا ارتديت ملابسك إذن؟ "

أحسست بشىء من اللامبالاة المصطنعة فى سؤاله.

"ربما زارنى والدى وسئمت البقاء بملابس السجن. الإحساس بالقميص النظيف المكوى متعة. فى البيت تعودت أن أخلع المنامة لأرتدى ملابس حتى فى أيام الإجازات ".

صمت كأنه يفكر فى شىء، فانتهزت الفرصة لأغير الموضوع.

"بدأت أشعر بالجوع، عندى زبد وبيض، وجبنة حادقة، وعيش خاص جاءت كلها من بلدتنا، لماذا لا تتناول إفطارك معى؟"

قال:

"أشكرك سبقتك، تناولت إفطارى فى البيت."

انسحبت إلى حجرتى مستأذنًا. حكاية الملابس هذه أثارت شكوكه. يجب أن أتريث فى الخطوات التى أتخذها، أن أجعلها غير محسوسة. الاندفاع يمكن أن يفسد كل شىء.

وضعت الطاسة على الموقد. أسقطت فيها قطعة من الزبد وثلاث بيضات، ارتفعت رائحة الزبد فى جو الحجرة، وتردد صوت الفقاعات وهى تنفجر على النار. أضفت الملح، والفلفل وأخرجت الخبز من العلبة المستديرة التى أرسلتها إلى أمى. جلست أمام المنضدة أبتلع الطعام ببطء دون أن أشعر به. عقلى منفصل عن جسمى لا يتابع ما يقوم به تاركًا إياه لحركته الذاتية. سأبقى فى حجرتى. لا داعى للتنقل الكثير، أو الذهاب إلى بيت الامتياز. أعرف كل مسالكه جيدًا. تعمدت المرور أمامه عدة مرات فى المدة الأخيرة حتى أتأكد أنه لم يحدث أى تغيير منذ أن كنت أسكن فيه. متى خرجنا من باب القسم يجب أن نصعد على أول سلم يقابلنا فى الطرقة لنصل إلى الدور الثالث ونختفى عن الأعين بسرعة، ففى الدور الأول تكثر حركة الضباط والعساكر أثناء ترددهم بين نقطة البوليس، والأقسام التى يوجد فيها أفراد أو مجموعات من المعتقلين. عندما يكتشف الحراس غيابنا سيندفعون خارجين من باب القسم إلى الطرقة الممتدة فى الدور الأول، وسيبحثون عنا فى هذا الدور قبل أن يفكروا فى الاحتمالات الأخرى. إذا صعدنا إلى الدور الثالث سنضمن لأنفسنا فسحة من الوقت للخروج من نطاق المستشفى.

المسافة إلى بيت الامتياز لن تستغرق أكثر من دقيقتين، ومتى دخلنا إليه يمكن أن نكون فى مأمن من المطاردة. المستشفى مبانيها مترامية تتعدد دهاليزها، وأقسامها. سيتوهون فيها أثناء البحث عنا، فليست لهم معرفة بها، أما بيت الامتياز نفسه فهو مثل بيت جحا، مقسم إلى جناحين ولكل جناح سلم مستقل يهبط إلى باب صغير يقود إلى الحوش، ولا يعرفه سوى أطباء الامتياز والنواب، وعدد من العاملين فى البيت. سنجتاز الطرقة الداخلية ونهبط على السلم

حتى نخرج من الباب المختفى على الجانب الآخر. هكذا يكون الطريق كله بعيدًا عن المسالك المطروقة. إذا اخترنا وقت الإفطار عن الصيام للهروب سيكون الجميع منشغلين بتناول الطعام بما فيهم الحراس، لتخلو المستشفى من حركتها المعتادة. المسافة من لحظة الدخول فى بيت الامتياز حتى لحظة الخروج من الباب أسفل السلم لن تستغرق أكثر من دقيقة. معنى هذا أننا نستطيع أن نجتاز الطريق الذى اخترته كله فى ثلاث دقائق إذا سرنا بخطوة سريعة. سنحتاج إلى سيارة لتتقلنا عبر الحوش إلى البوابة الرئيسية، ولكن هذه المسافة لا تزيد عن سبعين مترًا، ولا تستغرق أكثر من عشر ثوانى. هكذا نستطيع إتمام العملية كلها فى ثلاث دقائق أو أكثر قليلاً إذا لم يتنبه الحراس إلى هروبنا منذ أول لحظة، وإذا لم يعترضنا أحد فى الطريق.

بدت لى الخطة بسيطة، ومضمونة تمامًا. ولكن هذه البساطة فى ذاتها يمكن أن تخفى أشياء، أن تكون خادعة. ألن يكون وجود اثنين من الشباب يسيران فى طرقات المستشفى ساعة الإفطار ظاهرة تلفت النظر إذا ما رآهم أحد العاملين؟ زاد عدد المعتقلين فى المستشفى وأصبح المبنى الكبير يعج برجال البوليس، والضباط، والمخبرين لكن إذا ارتدينا ملابس الأطباء لن يلتفت إلينا أحد فالأطباء يتجولون فى كل الأوقات ويضطرون أحيانًا إلى الكشف على بعض الحالات حتى فى ميعاد الإفطار. إذا دخلنا بيت الامتياز بملابس الأطباء سيسهل علينا الاختفاء واجتياز البوابة الرئيسية حيث يوجد ملاحظ واثنين من المساعدين وبعض الحراس. عندى فى البيت معطفان من التيل الأبيض، وسماعتان، سأطلب من "أم السعد" إحضارها إلى. لكن يجب أن أتسلم هذه الأشياء بعيدًا عن أعين الحراس. سأحتاج إلى وسيط لا يخضع للتفتيش، أحد الذين يعملون فى المستشفى ويستطيع أن يدخل إلى حجرتى بحكم الوظيفة. كذلك سنحتاج إلى سيارة لتنقلنا من بيت الامتياز حتى الشارع فلا يمكن أن نجازف بالسير على أقدامنا فوق هذه المسافة. ثم أين المكان الذى سنختبئ فيه بعد الهروب؟ لم أفكر فى هذا الموضوع حتى الآن. ظللت مشغولاً بالتفكير فى المسافة بين غرفتى وبيت الامتياز. ربما تكون هذه أسهل المراحل فهى تعتمد علينا وحدنا، بينما بقية الخطوات ترتبط بوجود مساعدات من الخارج التى بدونها سينهار كل شىء. أشعر بقلق متزايد. زملائى فى الحركة أفرج عنهم من المعتقلات منذ مدة قصيرة، وبعضهم مازال خلف القضبان. أفضل اللجوء إلى أشخاص ليست لهم صلة باليسار، فالبوليس يتتبع خطواتهم. على أية حال سيعطون الأولوية لـ"محمد الجندى" إنه فى مستوى تنظيمى أعلى منى ولذلك يعتبرونه أكثر أهمية، عضو اللجنة المركزية المقرب إلى النخبة المسيطرة، مطيع ينفذ ما يطلب منه، شخصية بلا نزعات "ذاتية" كما يقولون، أما أنا فلا يرتاحون إلىَّ. أحيانًا لى رأى مستقل، أو شطحات عاطفية، أو غضب أعبر عنه. وهذا فى رأيهم يدل على البورجوازية. تكفى بزة السجن الأنيقة التى أرتديها. الذاتية مباحة فقط للنخبة القيادية. يجب أن أعتمد على نفسى، وعلى اتصالاتى الشخصية. "محمد يوسف الجندى" سيحتفظ بإمكانياته ولن يبوح لى بشىء. حجته فى ذلك هى السرية الواجبة فى التنظيم، رغم

أننى صاحب الفكرة والخطة، والجهود اللازمة لتوفير ما نحتاج إليه. أبى سيزورنى عن قريب فلماذا لا أفاتحه حتى يساعدنى فى البحث عن سيارة ومكان آوى إليه؟ سأحمله هما ثقيلاً إذا ما عرف ما عزمت عليه، لكن لا أجد سواه فلا مناص من اللجوء إليه.

مع مرور الأيام تعود الحراس على رؤيتى بالملابس العادية. لم تعد تثير عندهم القلق، أو التساؤل، العادة عدو الوعى، ومخدر الأحاسيس. هكذا تحقق ما كنت أسعى إليه. بعثت برسالة شفوية إلى أبى مع "أم السعد" استعجل الزيارة، فأدرك أن هناك أمورًا مهمة أريد أن أتحدث فيها إليه. حضر بعد يومين. جلسنا نتبادل الأخبار الأسرية، وطال الحديث. أبحث عن أسلوب مناسب لطرح ما أفكر فيه، فالمفاجأة ستكون شديدة عليه. أخيرًا استجمعت شجاعتى وقلت:

"يا أبى هناك موضوع أريد أن أتباحث معك فيه، ولكنى أرجو ألا تنزعج منه. أنت تعلم أن هناك احتمال الحكم على بالأشغال الشاقة، فالسلطات لن تغفر لى استمرارى فى النشاط الذى أقوم به. لذلك منذ احتجازى فى المستشفى، وأنا أفكر فى انتهاز الفرصة للهروب".

أصبح وجهه شاحبًا ولكنه ظل ينصت إلى دون أن يعترض بشىء.

"أنا لا أرى أن هناك ما يدعونى إلى الاستسلام للمصير. إذا ما نجحت الخطة التى فكرت فيها أستطيع أن أسافر إلى الخارج وأن أعود عندما تتحسن الظروف السياسية".

يستمع إلى فى صمت ملقيًا إلى بنظرات فيها قلق. مع ذلك لم يكن رد الفعل عنده شديدًا كما كنت أتوقع. ربما سرقه السكين أو أن فكرة السفر إلى الخارج راقت له كوسيلة لإبعادى عما أنا فيه، أو لأنه كان يريد إخفاء المخاوف التى تزاحمت عليه حتى لا يلاحظ أحد شيئًا. كانت فى هذا الرجل صفات لم التفت إليها، فرغم استغراقه فى حياته الشخصية كان يحبنى حبًا كبيرًا وعلى استعداد للوقوف إلى جانبى كلما احتجت إليه.

ظل صامتًا كأنه يعانى صراعًا لا يريد أن يظهره لى. ثم أخذ نفسًا عميقًا كمن حسم أمره أو استسلم للمصير والتفت إلى.

"يا بنى سأبحث عمن يستطيع أن يساعدنا فى إيجاد السيارة والبيت اللذين تحتاج إليهما لتنفيذ ما تريد، ولكنى لست واثقًا من النجاح. فأين هو الشخص الذى يمكن أن يوافق على مثل هذه المغامرة دون أن تكون له أدنى مصلحة فيها؟"

قلت.

"أعرف هذا ولكن الحياة غنية بأشياء كثيرة قد لا نتوقعها. إحساس عندى يقول أنك ستنجح فى العثور على ما نريده" فأجاب.

"كل ما أطمع فيه هو أن نوفق فى إخراجك من الوضع الذى أصبحت فيه"، وبهذه الجملة المختصرة ختم أبى اللقاء.

أوصلته حتى باب القسم، شد على يدى بقوة كأنه يتمنى لى النجاح. ربما كان يحس بالسعادة إزاء الثقة التى وضعتها فيه. سيشارك فى شىء مهم ويتحمل المسئولية وربما استطعت أن أبدأ حياتى من جديد. لمحت ظهره وهو يسير فى الطرقة الطويلة فبدا لى أن الانحناءة فى كتفيه اختفت، وأن ظهره أصبح مستقيمًا.

كنت راقدًا على السرير أتأرجح بين اليقظة والنوم. فى ذهنى صورة لى وأنا طفل أعدو تحت الأشجار العالية هاربًا من كلب "وولف". انتزعتنى نقرات على الباب فتلفت فى ذعر لأجدها واقفة إلى جوارى.

"آسفة إن كنت قد أقحمت نفسى عليك ولكن النائب يريد منك عينة دم للتحليل فتطوعت للقيام بالمهمة".

كانت تحمل فى يدها صينية صغيرة من الصاج الأبيض عليها زجاجة كحول، وقطن، وأمبوبة من المطاط، وحقنة. لمعت عيناها بذلك المزيج من الضحك، والجدية الذى عرفته فيها وهى لا تزال ممرضة تلميذة. تنبهت فى تلك اللحظة أننى لسبب ما كنت أتطلع إلى مجيئها، فقلت بلهفة.

"زينب.. أهلاً بك، حسنًا فعلت بالمرور علىّ".

"كنت فى إجازة، ولم أعد إلا منذ يومين. أعمل حكيمة قسم ١٥ وأنا اليوم "نوبتجية" فانتهزت الفرصة، وجئت. أعطنى ذراعك حتى آخذ منك العينة. أنا أريد أن أنصرف بسرعة، يوجد عندى اثنان من المرضى فى حالة سيئة".

رفعت كم القميص ومددت ذراعى إليها. لفت الأمبوبة المطاطية حولها فنفر الوريد الأزرق تحت الجلد. أحسست بأصابعها الدافئة تلمسنى بحرص، ولمحت أذنها المنحوتة بدقة يلمع فيها فص.

قالت:

"عروقك كويسة".

أدخلت الإبرة فى اللحم دون أن أحس به. سحبت الدم ثم أضافت:

"سأحضر إليك غدًا بعد الظهر.. أتريد شيئًا..".

هززت رأسى بالنفى وابتسمت. مرت عيناها فوق ملامحى ببطء كأنها تبحث عن شىء. رأيت قوامها فى فتحة الباب مستقيمًا كالسهم ثم اختفت.

فى اليوم التالى كنت قد فرغت من تناول طعام الغداء عندما سمعت صوت أنثوى يتحدث مع الحارس خارج الباب. بعد قليل انفتح الباب برفق ودخلت. سواد عينيها فيه بريق أقوى من الأمس، وفى الخدود احمرار، كأنها كانت تجلس فى الشمس. قلت:

" تفضلى "، وظللت أتأملها فى صمت فزاد الاحمرار فى وجهها. خطر فى بالى أنها أصبحت امرأة جميلة، فتذكرت كيف كانت تقف إلى جوارى وأنا أفحص الأوراق المربوطة أسفل السرير قلت:

" أصبحت جميلة للغاية يا "زينب""

بدا عليها الارتباك ثم ضحكت. صوتها يتردد عميقًا ممتلئًا له وقع فسألتها:

"أتغنين؟"

بدا عليها الاندهاش.

"من أين عرفت؟"

"من صوتك."

"أغنى فى البيت، وفى أفراح الزميلات فحسب."

"وهل تزوجت؟ "

"لا".

"لماذا؟"

صمتت لحظة طويلة كأنها تبحث عن السبب.

"لم أجده".

" من هو الذى لم تجديه؟ "

" الرجل الذى أستطيع أن أتزوجه ". زاد الاحمرار فى وجهها.

قلت :

"اجلسى".

"لا.. لا يجوز للحكيمة أن تجلس فى غرف المرضى".

مددت إليها يدى بعلبة من الحلوى كانت إلى جوارى على الكوميدينو، فأخذت منها واحدة ووضعتها فى جيب الثوب. قالت:

" يبدو عليك أنك فى صحة جيدة، ولكن فقدت بعض الوزن.

سواد عينيها يفحصنى، يستوعبنى. قلت:

"أنا فى حاجة إلى مساعدتك".

"تحت أمرك يا دكتور شريف، أنت تعرف معزتك عندى".

"عندى معطفان من التيل الأبيض، وسماعتان فى البيت، وأنا فى حاجة إليهما".

صمتت فى انتظار باقى الكلام.

"أريدك أن تحضرى هذه الأشياء وأن تسلميها إلى دون أن يلاحظ الحراس.. "

قطبت جبينها. بدا عليها اضطراب خفيف تمالكته. سألتنى:

"لماذا اخترتنى أنا بالذات؟"

"لأنى واثق فيك ولأنك حكيمة تستطيعى القيام بما طلبته دون أن يلاحظ أحد".

"ولماذا الإخفاء؟ لا ...."

توقفت فجأة كأنها تنبهت. تنظر إلى فى قلق، ولكنها لا تسألنى.

قلت:

"أفهمتِ يا "زينب"؟"

هزت رأسها بالإيجاب دون أن تقول شيئًا.

"ستحضر الشغالة التى تعمل عندنا إلى بيت الحكيمات فى اليوم الذى تحددينه، وتسلمك المعطفين، والسماعتين فى حقيبة ".

ظلت صامتة تنتظر أن أكمل كلامى. راح احمرار الخدين، قلت: "اطمئنى، لن يحدث لك شىء. لا أحد سيتنبه للموضوع. المعاطف، والسماعات فى مستشفى القصر العينى شىء عادي. ".

قالت بصوت فيه غضب.

" أنت لم تفهم.. لم أفكر فى هذا".

" فيما تفكرين إذن؟"

صمتت. بعد لحظة سألتنى.

"تستطيع الشغالة أن تحضر الأشياء بعد غد.. سأكون فى حجرتى ابتداء من الساعة الرابعة بعد الظهر. أتريد شيئًا آخر؟ "

قلت:

"لا شكرًا. أنا سعيد بهذا اللقاء. أرجو أن تزورينى كلما أمكن".

كسا وجهها ظل من الحزن سرعان ما انقشع. عاد إلى عينيها البريق. ضحكت وهى تضغط بيدها على "الكاب".

"أتمنى من الله أن يفرج عنك، وأن يحفظك من شر الطريق. إذا عدت يوما ما اسأل عنى، اسمى "زينب حسنين"".

استدارت وقبل أن أفيق خرجت من الحجرة بخطواتها السريعة.

حضر إلى أبى بعد ثلاثة أيام. أبلغنى أنه عثر على شخص مستعد لنقلى بسيارته من مكان خارج القصر العينى إلى بيته الذى سيأوينى فيه.. اسمه "حامد الألفى".. أضاف أنه من "بورسعيد". لم أتمكن من سؤاله عن أية تفاصيل فقد حضر لزيارتى دون تصريح، والضابط لم يمهله إلا دقائق معدودة ليلتقى بى. اتفقنا أن السيارة ستنتظرنى فى شارع جانبى متفرع من شارع القصر العينى قبل دار "روز اليوسف" مباشرة. قال أن الرجل أصر على ألا يدخل بسيارته داخل القصر العينى فربما أطبقت علينا قوات الأمن ونحن نتأهب للدخول فيها، أو وهى سائرة فى الحوش لتخرج من الباب الرئيسى، أو التقط أحد رجال البوليس أو المخبرين أرقام السيارة أو شكلها.

أحسست أن الرجل على حق فى هذه الاحتياطات التى لم أفكر فيها، لكن واجهتنى مشكلة جديدة. سنحتاج إلى سيارة أخرى لتنقلنا عبر المسافة بين بيت الامتياز حتى المكان المحدد قرب دار "روزاليوسف" وهى مسألة تبدو لى مستحيلة. من سيكون على استعداد للقيام بهذه المهمة؟

أحسست باليأس يتسرب إلى. فى الليل أجلس على الشرفة وأستغرق فى التفكير دون أن أصل إلى نتيجة. أصبحت مرهقًا متوترًا للغاية، أدخن السيجارة تلو السيجازة. أدركت أن استمرار الحالة التى أنا فيها ستؤدى إلى ضياع كل شىء، فبذلت جهدًا حتى أعود كما كنت مقبلاً على مواجهة المصاعب التى تعترض طريقى.

فى إحدى الأمسيات حضر لزيارتى شاب نحيف البنية حاد الملامح، كان يرتدى معطفًا أبيض فظننت أول الأمر أنه أحد أطباء الامتياز. رأيته يقف خارج الباب كأنه متردد فى الدخول ولكن بعد أن مر أمامه مرتين حزم أمره ودخل. كان يبدو عليه الارتباك ربما بسبب الخجل، أو الخوف من عيون البوليس السياسى، ففى تلك الأيام كان الجو العام يتميز بتصاعد الحركة الوطنية. وصل الوفد إلى الحكم بعد أن حقق نجاحًا كاسحًا فى الانتخابات التى أشرفت عليها حكومة محايدة برئاسة حسين سرى. كانت المؤشرات كلها تنبئ بأن البلاد مقبلة على مرحلة من التطورات المهمة فأخذت القوى الوطنية تتحرك بشكل متزايد بعد أن ضعف تسلط أحزاب الأقلية، والقصر مما دفع البوليس السياسى إلى إحكام الرقابة على العناصر التى كانت تعمل فى المجال العام.

وقف القادم عند أسفل السرير دون أن يقول شيئًا، كأنه متردد فى الإفصاح عن السبب الذى من أجله حضر، فقلت:

"لا أتذكر أننا التقينا من قبل". فأجاب ناطقًا كلماته بسرعة تخفى بعض المقاطع..

"فعلاً هذه أول مرة.. أنا الدكتور "عزت عبد الغفور" طبيب أسنان هنا فى القصر".

تبادلنا أطراف الحديث لبضعة دقائق أدركت أثناءها أن له صلة ما باليسار، فالكلمات والألفاظ التى يستخدمها منتقاة من قاموس أعرفه جيدًا. فى لحظة من اللحظات طرأت على بالى فكرة. لماذا لا أفاتحه فى موضوع السيارة وأسأله إن كان يستطيع أن يساعدنى؟ هذه الملامح، والابتسامة الخجولة التى تعلو شفتيه فيها حساسية ونقاء. إذا أبى أن يقدم لى يد العون فإنه بالتأكيد لن يفشى السر خصوصًا إذا ما طلبت منه أن يكون حريصًا من أجلى.

شرحت له ما عزمت عليه. ظل صامتًا لا يعلق بشىء. عيناه تنظران إلى فى هدوء خال من الانفعال. تطرقت إلى احتياجى لسيارة تنقلنى خارج القصر العينى، وسألته إن كان على استعداد للقيام بهذه المهمة. أخرج من جيبه علبة فضية رفيعة وسحب منها سيجارة. بيد ترتعش قليلاً. وجهه تقلصت عضلاته بحركة خفية فبدا كأنه كبر فجأة. التفت إلى وضحك ضحكة خاطفة عصبية. سمعته يقول فى صوت هادئ.

" أنا عندى سيارة، ماذا تريد منى بالضبط؟ "

" أريد منك أن تقف عند باب الخروج الجانبى على الناحية الأخرى من بيت الامتياز، أن تنقلنى أنا وشخصًا آخر يدعى "محمد يوسف الجندى" من هذا المكان إلى الشارع الذى يتفرع من القصر العينى قبل "دار روز اليوسف" مباشرة.

سأل:

" متى"؟

قلت:

" مساء ١٧ يونيو القادم: سنهرب بعد مدفع الإفطار مباشرة وعليك أن تنتظرنا فى هذا المكان لمدة عشر دقائق بالضبط وإذا لم نصل اخرج بسيارتك فورًا من نطاق المستشفى فهذا سيعنى أنهم أمسكوا بنا قبل أن نصل إليك. قمت بقياس المدة التى نحتاج إليها لاجتياز المسافة من هذه الغرفة حتى السيارة. لن تزيد بأى حال من الأحوال عن ثلاث دقائق. سبع الدقائق الأخرى هى مدة احتياطية فريما واجهتنا عقبة فى الطريق. وأرجو أن تكون مرتديًا معطفك الأبيض ".

ابتسم وقال:

" اتفقنا، يوم ١٧ يونيو لحظة إطلاق مدفع الإفطار، سأكون منتظرًا عند باب بيت الامتياز على الجانب الآخر من مبنى الإدارة ".

أمسكت بورقة ورسمت عليها كروكيًا لمبنى الإدارة محددًا فيها مكان وقوف السيارة. بعد أن اطلع عليها مزقتها ووضعتها فى جيبى. قال:

" إلى اللقاء " فهمست:

" لا تنس. يوم ١٧ يونيو عند إطلاق مدفع الإفطار ".

شد على يدى ببطء، ثم استدار، وخرج من الباب بخطوة فيها عزم.

" عزت عبد الغفور" لم يكن شخصًا عاديًا. فى سنة ١٩٥٧ كانت له عيادة فى العمارة رقم ١ الكائنة على ناصية "شارع مراد" و"ميدان الجيزة". وهى عيادة كانت تشاركه فيها "نوال السعداوى" بعد أن تركت المجموعة الصحية فى " طحلة" بمحافظة القليوبية وجاءت إلى القاهرة لتعمل طبيبة فى مستشفى صدر "الجيزة".

كان يحدثها قائلاً: "لا أطيق مهنة طبيب الأسنان. كيف أقضى حياتى محملقًا فى حلوق الناس، داسًا أصابعى فى أفواههم".

بعد أن تزوجنا أنا و"نوال" فى أواخر سنة ١٩٦٤ أقمنا فى شقتها بشارع "مراد". بين الحين والآخر أذهب إلى كازينو "سان سوسى" وأجلس فى الحديقة الممتدة بين العمارات يفتح بابها على شارع "مراد"، وبابها الآخر على شارع "الجامعة". أستمتع بنسيم الصيف يجتاز "ملقف الهواء" وأتناول كوبًا من الأيس كريم الممتاز الذى اشتهر به "الكازينو" فألتقى هناك صدفة بـ"عزت عبد الغفور" يقضى الساعات الطويلة منهمكًا فى لعب النرد، صامتًا، مستغرقًا تمامًا. كنت لا أزال محاطًا بذلك السياج الذى يحول دون أن أفتح قلبى للناس، لذلك كنا نتبادل بعض الكلمات ثم ينصرف كل منا إلى حاله، وكأنه لم يجمعنا ذلك الحدث الفريد من نوعه الذى وقع مساء يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٥٠ حين انطلقنا أنا و"محمد يوسف الجندى" هاربين من الغرفة التى جلسنا فيها لتناول طعام الإفطار.

فيما بعد سمعت أنه اتهم فى قضية تزييف عملة، وحققت معه النيابة، ولكن القضية حفظت لعدم كفاية الأدلة، ثم فوجئت باسمه يتردد فى الصحف، ويكتب على لافتات المسارح، فقد قام بتأليف أكثر من مسرحية كوميدية لاقت بعض النجاح، ثم لم أسمع عنه شيئًا إلى أن أصيبت زوجته بالسرطان وماتت، والتى كان قد تزوجها أيام الشباب عندما كنا سويًا فى حركة اليسار.

مع ذلك شىء فى "عزت عبد الغفور" ظل قريبًا إلى قلبى، ليس فقط لأنه تطوع بتلك التلقائية الغريبة ليساعدنى على الهروب من الاعتقال فى القصر العينى لكن أيضًا لأنه كان

كالوتر المشدود الحساس، وإنسانًا فيه فن قادته أيامه إلى مسالك شديدة التناقض لأنه أراد أن يعيش الحياة. ألا يسير فيها مغمض العينين.

الساعة تشير إلى السابعة إلا عشر دقائق. وقفت وسط الحجرة ألقى بنظرة أخيرة حولها حتى أطمئن على كل الترتيبات. مائدة الطعام معدة استعدادًا لمدفع الإفطار، فوقها أطباق صغيرة ألوانها زاهية، يتصاعد منها البخار. أحضر إلى أحد عساكر الحراسة خيارًا ولفتًا مملحًا. قال: "زوجتى تجيد صنع المخللات وأصرت على أن أحضر لك بعضًا منها حتى تتفتح شهيتك للأكل". أشعر بوخزة خفيفة فى القلب. بعد دقائق قليلة سأغدر بالثقة التى وضعها فى هذا الرجل الطيب وبالضابط "حسين محبوب" الذى توطدت بيننا العلاقة فى الأسابيع التى قضيناها سويًا. لسوء حظه قرر بالأمس تبديل النوبتجية من الأولى إلى الثانية. حاولت أن أثنيه عن ذلك بشتى الوسائل ولكنه قال. "عندى مشوار مهم فى الصباح" فلم أرد أن أواصل محاولاتى لإثنائه عن التغيير حتى لا أثير شكوكه.

منذ دقائق حضر "محمد الجندى" ومعه الحارسان والشاويش. يجلس على المائدة أمامى منتظرًا مدفع الإفطار. زال عنى التوتر الذى سيطر على فى البداية. أتصرف بهدوء وبعقل صاف كأن لا صلة لى بما سيحدث، كأن الذى سيهرب شخص آخر غيرى. وضعت إناءً صغيرًا من الفول فوق الموقد، وأشعلت من تحته النار. تنبهت إلى أن عينى "حمد" مفتوحتان عن آخرهما كأنه مصاب بحالة من الدهشة كالبومة الصغيرة تتفرس فى الظلام. ترى ما الذى يشعر به فى هذه اللحظات؟ ألقيت بنظرة خاطفة ناحية الشرفة حيث اجتمع أربعة من الحراس والشاويش حول بطانية فرشوها على الأرض ووضعوا فوقها أطباق الطعام وحزم الفجل، والبصل الأخضر، وسلطانية كبيرة من الفول المدمس، ووعاءً من الصاج يحتوى على الخيار المخلل، وربطة من الخبز البلدى. كنت قد اخترت مكان المائدة التى نجلس عليها بحيث يستطيعون رؤيتنا من الشرفة وهم يتناولون الإفطار حتى يشعروا بالاطمئنان. تقدمت نحو الدولاب وفتحته كأننى أبحث عن شىء بداخله، وتركت إحدى الضلفتين مفتوحة كأننى نسيت أن أغلقها ثانيًا. فى الأيام الأخيرة كررت هذه الحركة عدة مرات حتى يبدو وجود هذا الفاصل الخشبى الذى يحجبنا عن أنظارهم وكأنه مجرد صدفة ولا تثير الانتباه.

أدرت مفتاح الراديو ليعلو صوت الآذان ويغطى على تحركاتنا داخل الغرفة. فتحت الصنبور وتركت المياه تندفع فى الحوض بقوة حتى توحى بأن الحجرة ليست خالية من سكانها.. تناولت طبقًا كبيرًا من البقلاوة، وانتقلت إلى حجرة الأستاذ المجاورة. وجدت الضابط جالسًا على مقعد يدخن سيجارة. وضعت البقلاوة أمامه على المائدة. كنت أعرف أنه يحب الحلويات وعلى الأخص البقلاوة بالقشدة. ستمر خمس دقائق على الأقل حتى يفرغ منها وهو وقت كاف لنكون قد وصلنا إلى نقطة خارج المستشفى. نظرت إلى ساعتى وقلت للضابط:

" بقيت دقيقتان على مدفع الإفطار، عن إذنك. "

قال:

" تفضل وشكرًا على البقلاوة " قلت:

" بالهناء، والشفاء " عدت إلى الحجرة. رن فى أذنى آذان المغرب فجلست انتظره حتى ينتهى.. قلبى يدق تحت الضلوع. انطلق مدفع الإفطار فخفق قلبى خفقة واحدة هائلة ثم استكان. سحبت المقعد بصوت مسموع إلى جوار منضدة الطعام. دسست لقمة من الخبز فى طبق الفول، وتركتها. ساد صمت عميق فى كل الدنيا. أشرت بإصبعى " لمحمد الجندى " فقام. خرج من باب الحجرة. انتظرت لحظة قبل أن أخرج وراءه. سرنا مسافة قصيرة فى الدور الأرضى حتى وصلنا إلى أول السلم. صعدنا الدرجات بقفزات سريعة إلى الدور الثالث. كنت أهم بارتداء المعطف عندما لمحت أحد الأطباء. همست "يا محمد، أجل ارتداء المعطف" فنظر إلى فى تساؤل ولكنه انصاع. قلبى يجرى مثل حوافر الحصان فى سباق. أصبحنا على مقربة منه، أسمر الوجه قصير القامة، ورأسه كبير مزروع بلا عنق بين كتفيه. أخرجت سيجارة وسألته "يا دكتور.. مساء الخير. أمعك كبريت؟" قال: "نعم" وأخرج ولاعة أشعلت منها سيجارتى. قلت "متشكر" ثم أسرعنا الخطوات لنتجاوزه فى الطرقة. لم أعد أتحكم فى ساقى تقفزان بقوة لا أملك إيقافها. كل شىء يمر أمامى كأننى فى حلم. هبطنا الدرجات، وتوقفنا عند الباب الخارجى الصغير لحظة. ألقيت بنظرة سريعة من حولى. الحوش خال تمامًا من الناس والسيارة تقف بالقرب منه. خلف عجلة القيادة يجلس "عزت عبد الغفور". فتحت الباب وجلست إلى جواره ثم فتح "محمد" الباب الخلفى وألقي بنفسه على المقعد.

مددت ذراعى خلف ظهره، وقلت:

" أهلاً يا "عزت". كل شىء على ما يرام".

انطلقت السيارة فى الحوش بسرعة. ربت على كتفه ونظرت إليه شحب وجهه.

" اهدأ، وخفض سرعتك. لا نريد أن نرتكب حادثة، أو نلفت الأنظار. اطلع على شارع القصر العينى".

ظللنا صامتين. عندما وصلنا قرب المكان المحدد لوقوف السيارة الأخرى أشرت إليه ليدخل على اليمين فى الشارع ثم جعلته يتوقف بعد قليل. لمحت سيارة "شيفروليه" سوداء تقف عند الرصيف الآخر، فتحت الباب وهبطت. شددت على يد "عزت عبد الغفور" وقلت:

" وصل "محمد الجندى" إلى المكان الذى يريده يا "عزت". إلى اللقاء.."

انتظرت حتى اختفت سيارة "عزت"، ثم عبرت الشارع. عندما اقتربت انفتح الباب الأمامى وهبط منها شخص كان يجلس إلى جوار السائق. لمحت طربوشه الأحمر، وجسمه المربع ووجها يبدو وكأنه منحوت فى الحجر الأسمر.

قال فى صوت مبحوح.

"يا دكتور شريف"... "أنا حامد الأ؟ "

الفصل العاشر

حامد الألفى

جسمى ملفوف حول نفسه كالجنين فى بطن أمه. لا أرى حتى شعاعًا بسيطًا من النور. ولكن أنفاسى تدخل إلى صدرى، وتخرج منه فى يسر. الآن سيطر على الاطمئنان. يبحثون عنى هناك، وأنا هنا بعيد عنهم. ترى ما المسافة التى قطعناها منذ أن انطلقنا فى الشوارع الخالية من الناس؟ أشعر بتموجات العجل فوق الأسفلت. لا أعرف الوقت الذى مر، ربما نصف ساعة أو أكثر. ننزلق فى جوف الليل نجتاز الكيلو متر وراء الكيلو متر. ربما لم نخرج من المدينة بعد. أريح رأسى على ذراعى، وأحرك جسمى بعيدًا عن شىء مستطيل، صلب كالمفك. أخذت السيارة تهتز على جزء من الطريق أصابه التلف، تبطئ بالتدريج، ترتفع فى الهواء ثم تهبط وتتوقف فجأة، فدق قلبى. إنه البوليس!!.

ارتفع الغطاء بصرير الصدأ. مر فى ذهنى خاطر سريع، المفاصل تحتاج إلى نقاط من الزيت. عقلى يسجل كأننى لم أعد قلقًا على شىء. فأنا كالقشة فى مهب الريح، لا أملك مصيرى. ألمح الأفق البعيد انتشر فوقه شىء كالغيام الوردى، استقر أعلاه نجم وحيد. ترى أهو الغسق، أو الفجر، أو أضواء المدينة بعد أن ابتعدنا عنها. يميل على شبح أسود فيختفى كل شىء إلا ظله الثقيل. صوته الغامض يتردد بصدى أجوف، ويده تمتد إلى فى الظلام تبحث عنى فتصطدم برأسى. أمد إليها يدى. أصابعه قصيرة، خشنة وقبضته قوية. يقول "تستطيع أن تخرج الآن". فأسند اليد الأخرى على حافة الحقيبة، وأرفع جسمى بحرص. أهبط بإحدى قدمى فوق الأسفلت واتبعها بالأخرى. أرفع قامتى ببطء. أشعر بوخزات حادة فى الساقين والظهر. أسمع ضحكة مثل دوائر من النور فى الظلام، ضحكة طفل غرر بأهله، وأفلت منهم. خليط من التحدى، والزهو، ضحكة، هادئة، ماكرة فيها سعادة، وثقة فى النفس، كالنافذة تفتح فى الصباح على مهل لتستقبل بشائر الشمس.

وضع يده على كتفى، وقال:

"انتقل إلى جوارى. أصبحنا فى مأمن".

سرت بخطوات تترنح قليلاً نحو الباب المفتوح، ودخلت، مفسحاً مكانًا له. الرجل يجلس إلى جوارى فى صمت. على رأسه طربوش عريض يعلو فوق رأسه، ومن تحته ألمح الوجه المربع، والفك. يمسك فى يده بمنشة طويلة لونها الأبيض يملأ المسافة الصغيرة التى تفصلنى عنه. أستمع إلى العجلات تدور بسرعة فوق الأسفلت. كلمة واحدة تتردد مع الصوت. "أفلت. أفلت".

وصلنا مدينة "بور سعيد". ساعتى تشير إلى الحادية عشرة إلا الربع. من النافذة المفتوحة يأتينى نسيم البحر. الأطفال يجرون خلف كرة شراب، والرجال يجلسون على المقاهى، يدخنون النرجيلة، أو يلعبون النرد. بشائر البطيخ كرات داكنة يلمع سطحها ببريق غامض كأن فى أعماقها سر.

توقفت السيارة. الشارع مهجور كأننا دخلنا الحى من الخلف، والعمارة يختفى بابها فى الظل. لا شىء يتحرك سوى كلب يقترب منها ثم يبتعد عنها ليرنو إلينا بعينين حزينتين تطلبان العطف. صعدنا الدرجات. يمسك بذراعى عند المنحنيات ليقود خطواتى. التقط أصوات النساء والأطفال ترتفع فى الليل، وفى أنفى رائحة القلى.

توقفنا أمام باب فى الدور الرابع، أدخل المفتاح فيه بيد، ودفعه باليد الأخرى. تركنى فى البهو ثم عاد ومعه امرأة ترتدى حجابًا وجلبابًا للنوم. وجهها الأسمر فيه شحوب الحياة فى الغرف المغلقة، وشفتاها رفيعتان تضغط عليهما كأنها تتفادى النطق. تطلعت إلى بنظرة باردة وقالت

بسرعة "الحمد لله على السلامة". انتقلنا إلى صالة فسيحة فيها أثاث مذهب، ومرايات، وصور، و"أباجورة" طويلة تكاد لا تلقى ضوءًا. أجلسنى مضيفى على أحد المقاعد. همس فى أذن زوجته ببضع كلمات، واختفى فى الداخل ليعود مبلل الوجه كأنه غسله، ولم يجففه. أشارت إلى زوجته فقمت من جلستى وتبعتها. فتحت بابًا مغلقًا لأجد نفسى واقفا أمام حجرة للنوم فيها سرير عريض يكاد لا يترك مكانا للمرور. من النافذة المفتوحة جاءنى صوت يشبه الأمواج تسقط على شاطئ بعيد. دخلنا وظل "حامد الألفى" عند الباب. ألقى نظرة سريعة على الحجرة كأنه يطمئن ثم سألنى.

" ألا تريد أن تأكل شيئًا؟ "

لم أكن أشعر بالجوع رغم أننى لم أتناول أى طعام طوال اليوم. ربما التوتر، أو البرود الذى استقبلتنى به المرأة. قلت:

"متشكر، ليست بى رغبة للأكل. أريد أن أنام".

نظرت إلى بفتور ثم قالت:

" تفضل. خذ راحتك" ثم همت بالانسحاب فتدخل هو قائلاً.

" سنتركك حتى تستيقظ فى الصباح وحدك. وإذا كنت تريد أى شىء لا تتردد فى طلبه. توجد فى الدولاب ملابس، وجلاليب يمكن أن تأخذ منها ما تشاء إلى أن نحضر لك الحقيبة التى تركها والدك مع الأستاذ "نجيب". ثم نظر إلى زوجته موجهًا إليها الكلام.

"هه، أنا نازل الآن".

لم تعلق بشىء. خرجت من الحجرة ملقية إلى بنظرة خاطفة فيها تساؤل، وتبعها مغلقًا الباب وراءه.

خلعت الحذاء، والجورب، مددت جسمى فوق السرير، أطفأت المصباح المنتصب على الكومودينو. النافذة المفتوحة تطل ناحية اليمين على مبنى كبير تومض مصابيحه فى الليل. ناحية اليسار يمتد الظلام حتى الأفق. ألمح أضواءً بعيدة تظهر وتختفى، أدركت أنها زوارق للصيد. عيناى مفتوحتان. توتر اليوم مازال يجر أذياله كأننى شحنت بشحنة قوية لم تستنفد بعد. مر الوقت. أنظر إلى ساعتى بين الحين والحين، تتقدم بقفزات فأندهش. كأننى أتأرجح بين اليقظة والنوم، وفجأة دون مقدمات سقطت فى نوم عميق لم أستيقظ منه، كأن غطاءً كثيفًا لف نفسه من حولى وعزلنى عن كل شىء.

عندما قابلت "حامد الألفى" فى سنة ١٩٥٠ كان نائبًا وفديًا عن مدينة "بورسعيد". شاءت الظروف، أو الصدف أو الشهامة المتأصلة فيه أن يأوينى فى بيته من ١٧ يونيو حتى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٠، لكن رغم المدة التى قضيتها فى بيته والتى زادت عن ثلاثة شهور ونصف لم تقم بيننا علاقة حميمة، ولم أتبادل معه أو مع أفراد أسرته سوى كلمات قليلة. كنت كعادتى صامتًا محافظًا على السرية التى تعلمتها فى التنظيم، أفكر دومًا فى الترحال على متن السفينة التى ستحملنى عبر البحار إلى بلد بعيدة. هكذا ظللت غريبًا على أهل البيت. طوال الأيام والليالى التى قضيناها سويًا لم يحاول أحد منهم أن يخترق سياج الكتمان ليعرف عنى شيئًا، وكأن جدارًا آخر منيع فصل بين "حامد الألفى" وأفراد أسرته، جدار نتج عن طبيعة العلاقات التى قامت بينه كأب مصرى محافظ وبينهم جميعًا فللرجل حياة خارجية لا تمت بصلة إلى حياته فى البيت. لم يكن من أولئك الذين يهتمون بالملذات، بالخمر والميسر، والنساء. كانت متعته من نوع آخر، السياسة، وخدمة الناس، وكسب حبهم بالعطاء. وفى هذا السبيل كان يفنى كل ساعات النهار، وأغلب ساعات الليل. لم أقابل طوال حياتى رجلاً لديه هذا الاستعداد للجهد المتواصل فى العمل الاجتماعى بل للقيام أحيانًا بمهام تخرج عن النطاق العادى لأسباب يصعب إدراك الدافع إليها. هل هى الشهامة؟ روح المغامرة؟ صورة لنفسه يريد أن يبينها؟ أو طريقته الخاصة لإشباع الذات، للحصول على محبة وتأييد الناس؟. فكيف أفسر ما قام به من

أجلى دون مقابل، وما تحمله من متاعب، ومخاطر حتى اللحظة التى غادرت فيها بيته لأسافر إلى الخارج؟

كان بطريقًا مصريًا بالمعنى الكامل، يصدر الأوامر وفقًا لما يراه، ويتوقع الطاعة، منصرفًا عن الشئون التى تتعلق بالأسرة التى يرعاها. يستمع إلى آراء أفرادها أحيانًا، ولكن المسائل عنده تحسم وفقًا لرأيه فيها. كان يتميز باستقامته الصارمة، واستعداده الدائم لخدمة الناس، حتى لو احتاج الأمر للصرف من جيبه الخاص. لذلك فى آخر أيامه وصل إلى شفى الإفلاس، إلى قدر كبير من ضيق ذات اليد شاهدت آثاره بنفسى عندما عدت إلى "بورسعيد " أيام العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦.

لم يفرض على أولاده أن يكونوا مثله، ولكن فى نظرة عينيه مسحة من الحزن تجتاز وجهه أحيانًا. أشتم خيبة الأمل التى أصابته فهم لا يشاطرونه أهدافه. ينظرون إلى ما يقوم به فى المجال العام على أنه مضيعة للوقت، وللمال، ولمصالح الأسرة، فقد كان فى استطاعته أن يكون من أغنياء " بورسعيد " بدلاً من أن يظل مجرد صاحب مطبعة متوسطة الحال اضطر فيما بعد إلى إغلاقها. وكان بوسعه أن يغير ثيابه السياسية ليستفيد من نفوذه الجماهيرى الواسع عندما سارت الرياح فى اتجاه مختلف، فعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بذلت معه بعض عناصرها القيادية محاولات وضغوط مستمرة، وصلت إلى حد التهديد لينضم إلى هيئة التحرير أو الاتحاد القومى، أو الاتحاد الاشتراكى، ولكنه رفض بعناد، وأصر على اعتزال السياسة، واقتصار نشاطه على بعض الخدمات العامة مثل رئاسة الإسعاف، فقد كان شديد الاعتداد باستقلاله.

كان معروفًا عنه أنه فى أى انتخابات حرة يستطيع أن يحصل على الأغلبية الساحقة من الأصوات، وأن يهزم أى منافس فى "بورسعيد"، حتى قيل إن عبد الناصر نفسه لا يستطيع أن يتفوق عليه فى هذه المدينة.

بعد وصولى إلى "بورسعيد" بأسبوع نشرت مجلة "آخر ساعة" تحقيقًا صحفيًا عن هروبى أنا و"محمد الجندى" بعنوان "اثنان من الحمر يهربان من مستشفى القصر العينى" ادعى فيها المحرر أنه قام بتحريات أسفرت عن اكتشاف الطريقة التى سلكناها للإفلات من الحراسة المشددة التى فرضت علينا. فوفقًا لروايته تمكننا من الحصول على حبل متين بواسطة أعواننا فى الحركة اليسارية، أسقطنا به أنفسنا من دورة المياه إلى الحوش واختفينا دون أن نترك أدنى أثر يدل على الوسيلة التى خرجنا بها من المستشفى إلى المدينة. ثم أضاف كلامًا جاء على لسان أعضاء من الإخوان المسلمين كانوا يرقدون فى العنبر إلى جوارنا وصفونا فيه "بالملحدين" اللذين لم يتورعا فى انتهاز فرصة الصيام فى شهر رمضان لتضليل العساكر "المساكين" وتنفيذ مخططهما الشيطانى، ففى ذلك الحين كان يوجد ما يقرب من عشرة معتقلين من الإخوان فى

هذا العنبر. وبعد ذلك بيومين نشرت مجلة " المصور " تحقيقًا مشابهًا لم يطلق فيه المحرر العنان لخياله وإنما اكتفى بوصف ما حدث وببعض التعليقات "الإخوانية" عن شخصية "محمد يوسف الجندي". كما نشر صورة لى وأنا مزود بشارب أبدو فيها أقرب إلى المجرم العتيد منى إلى الطبيب الشاب الذى كنته آنذاك.

فى أحد الأيام دخل على "حامد الألفى" حاملاً المجلتين، وضعهما فوق المنضدة التى كنت جالسًا أمامها. فتح مجلة "آخر ساعة" مشيرًا بإصبعه إلى رسم "كروكى" لشبحين يتسللان من باب مفتوح إلى دورة المياه، ويهبطان على حبل يتدلى من النافذة حتى الأرض. بدت عليه علامات السرور وهو يردد.

"اقرأ. اقرأ ما كتبوه عنك".

منذ أن وصلت كنت أقضى اليوم جالسًا فى الحجرة مطلاً على البحر الممتد أمام عينى متابعًا حركة السفن، والزوارق وهى تتحرك ببطء فوق المياه الخضراء، فانتزعنى من الملل الذى حط على من طول الانتظار. قرأت السطور بلهفة. كان واضحًا أن سلطات الأمن أصابها الارتباك، وأنها عجزت عن الوصول إلى أى خيط يقودها إلينا، لكن فى الوقت نفسه أصابنى قلق دفين، بذلت جهدًا حتى أخفيه على الرجل الواقف أمامى ينظر إلى بفرح ظاهر، فمن يعلم ربما اهتدوا إلى المكان الذى اختفيت فيه؟ بعد هذا الإعلان أصبحت مصدر خطر على حياة أهل البيت. سمعته يقول كأنه يقرأ افكارى.

"لا تقلق، لن يصلوا إليك هنا أبدًا. طالما أنك فى بيتى لن يشك أحد فيك".

ثم استدار ودون أن يضيف شيئًا خرج من الباب.

نحيت المجلتين جانبًا، وقمت أذرع الحجرة جيئة، وذهابًا يملؤنى شعور بالتوتر، والضيق. الساعات، والأيام تمر وأنا هنا حبيس هذه الجدران لا أفعل شيئًا سوى الانتظار. فى البداية ظننت أن مسألة ترتيب السفر من ميناء " بورسعيد " أمر بسيط بالنسبة إلى رجل مثل " حامد الألفى " لن يستغرق سوى بضعة أيام، أو أسبوع على أكثر تقدير. ولكن الوقت يمر دون أن أسمع جديدًا. أظل طوال النهار والليل وحدى. رجال الأسرة يقضون أغلب أوقاتهم خارج البيت والنساء لا علاقة لهن بى، فالتقاليد تحكم حياتهن، والشقة ليست بها مكتبة أستطيع أن أستعير منها كتبًا لأسلى بها نفسى وأستفيد. لا أحد هنا يقرأ فى كتاب. حتى الصحف، والمجلات لا يهتمون بها. الابن "محمد" يسهر فى المطبعة حتى ساعة متأخرة من الليل، و"إبراهيم" طالب فى الجامعة لا يحضر إلا فى الإجازات يوم الخميس. "حامد الألفى" يستيقظ فى الساعة السادسة، ويترك البيت فى الساعة الثامنة على أقصى تقدير مندفعًا من الباب بخطواته السريعة ليعود فى الساعة الثالثة لتناول طعام الغداء، وليستريح مدة نصف ساعة ثم ينطلق من جديد. ولا نتداول فى شىء كأنه أودعنى فى بيته، وفى حجرة نومه ونسينى تمامًا من كثرة

انشغاله بالتجول بين مواقع، وأحياء وإدارات المدينة. أسمع خطواته أحيانًا عندما يدلف من باب الشقة قرب الساعة الثانية بعد منتصف الليل، أو نبرات صوته المبحوح يحرص على كتمانها عندما يتناقش مع "الحاجة" فى أمر من أمورهما حتى لا يوقظ النائمين، وإذا تصادف أن دخل على ليتبادل معى كلمتين وليطمئن على حالى، ألمح على وجهه زرقة الإرهاق الشديد فأحاول ألا أبقيه أكثر من بضع دقائق.

كان مصابًا بحالة من الصمم الجزئى جعل الحديث معه صعبًا يتطلب نبرة عالية. ربما لذلك كان يركن إلى الصمت، غارقًا فى عالمه الخاص، غير عابئ بما يقوله الناس من حوله كأنهم يتداولون فى أمور لا تهمه فى شىء.

أثناء الغداء نجلس حول المائدة المغطاة بمفرش أبيض نحلت أطرافه من كثرة الاستعمال، وتناثرت فوقه بقع الزيت، أو الحساء. على المائدة طبقان كبيران من سمك "البورى" المشوى أرى رءوسه السوداء فى جانب، وذيوله كالمراوح الصغيرة المفحمة عند الجانب الآخر. عيونه الخضراء تحملق فى الفراغ بنظرة بلهاء فأظل أحملق فيها. أجسام السمك راقدة فى استسلام، يقلبونها، يجسون قوامها، ويختارون منها واحدة ينقلونها إلى الأطباق الموضوعة أمامهم، ثم يمزقون قشرتها وينتزعون من لحمها الأبيض الطرى قطعة يلقون بها فى أفواههم. أصابعهم قصيرة سميكة، أو طويلة، نحيلة أو أنثوية ناعمة عليها طلاء دامى اللون فى احمراره. منظر أراه كل يوم ساعة الإفطار. عندما انتهى شهر رمضان أصبحت أراه فى موعد الغداء، يبدأ عادة فى الساعة الثالثة عندما يعود "حامد الألفى" من جولاته فى الخارج ليجلس على رأس المائدة. وجهه مثل كتلة مربعة من الحجر يبرز منها الأنف والجفون، والشفاه كأنها منحوتة بأزميل. الفك قوى يمضغ الطعام بسرعة كبيرة كأنه يكره هذه الطقوس اليومية التى لا سبيل إلى الإفلات منها. عيناه الضيقتان تطلان من بين الجفون المنتفخة تحيط بها الزرقة القاتمة للجهد. فى لحظة يشع منهما بريق قوى سرعان ما ينطفئ كالجوهرة عندما تتحرك تحت الأضواء فيروح منها البريق أو يجىء. يجلس كـ"بوذا" الصامت، كالسلطان الغارق فى أفكاره، فى عالم خاص لا علاقة له بهذا المكان كأنه مازال يحيا فى الحوارى، والبيوت، والمبانى، والحوانيت، وجموع الناس الذين تركهم ليهرع إلى البيت، ويتناول طعام الغداء مع هذه الأسرة التى تفرق بينه، وبينها غربة تقتل الكلمات قبل أن تخرج من الشفاه، ثم ليغفو على أحد المقاعد بضع لحظات قبل أن ينطلق بخطواته القصيرة السريعة هابطًا على الدرجات.

أجول بعينى على الوجوه، على الرجل يتصدر المائدة وزوجته الحاجة، وأولاده الثلاثة محمد، وإبراهيم، وعلى ابنهم الأصغر الذى لا يزال فى المدرسة، وابنته المتزوجة من أحد القضاة تركت منزل الزوجية بعد أن دب بينها وبين زوجها خلاف، وزوجة ابنه الكبير "محمد"، امرأة شابة، بيضاء. الصمت لا يقطعه سوى احتكاك الملاعق بالأطباق تنقل الأرز بحركة سريعة لتصبه فى

الأفواه، والأسنان تصطك بالأسنان، وخرير الماء المثلج ينسكب فى الأكواب، أو يتدفق بشفطات منتظمة بين الشفاه إلى الحلوق الظمآنة جفت من الملح والشطة، والمخللات تتلوها "التكريعة التى يطلقها "محمد"، ثم طرقعات كفه على بطنه العارية تطل بين فتحات القميص الحريرى يعبر بها عن رضاه قبل أن ينظر إلى زوجته الشابة بتلك الرسالة المستترة الموحية بالرغبات، فينسحبان إلى غرفتهما تاركين الأخت الكبيرة تشبه أباها فى الملامح، والسمار، لرفع بقايا الطعام، والأطباق من على المائدة التى تفرقوا من حولها.

فى مناسبات قليلة يروى أحد منهم حكاية سمعها، أو حدثًا رآه أو يتبادلون بعض الأخبار. عندئذ تشرق الابتسامات، ويسرى الدفء كالتيار الكهربائى، فيتدفق الحوار كالنبع الذى وجد طريقه، لكن سرعان ما تموت الكلمات، ليعود الصمت أعمق مما كان.

مر شهر منذ أن ولجت من باب الشقة لأتسلل إلى عالم "حامد الألفى". ثلاثون يومًا وأنا حبيس الشقة، وفى أغلب الأوقات حبيس الحجرة التى كان ينام فيها الرجل مع زوجته قبل أن أصعد معه درجات الأدوار الأربعة فى العمارة، يفصل بينها وبين مبنى المحافظة ميدان واسع. حجرة لا أخرج منها إلا لتناول طعام الغداء، أعود بعده إلى جلستى بجوار النافذة تطل على البحر الممتد حتى الأفق يلمع بريقه الأخضر تحت لفحات الشمس تسقط عليه من السماء طوال النهار، وتفوح منه رائحة الزيوت والقطران، واليود، والأسماك. أتابع السفن تظهر كنقطة سوداء، أو خيطًا من الدخان عند الأفق، تقترب فى بطء مرهق، فأستطيع رؤية مداخنها ودوائرها المطلية بألوان مختلفة، والزوارق المختفية تحت أغطية داكنة ترقد على السطح، وأطواق النجاة البيضاء المثبتة على جانبيها و" كوات الكباين " كالعيون تبرق جفونها المعدنية فى أشعات الشمس وهى تحملق نحو الشاطئ بنظراتها الصماء. فإذا ما أصبحت قرب الشاطئ ألمح البحارة يتحركون فوق سطحها، ويتوقفون بين الحين والحين لإلقاء نظرة استطلاع على المدينة التى سيهبطون فيها بعد أيام وليال قضوها فى البحر.

كلما رأيت سفينة أسرع نبضى. ربما تكون تلك التى أنتظرها. انتفض واقفًا وأدور حول الحجرة كالذى يبحث عن شىء. فقدت القدرة على التركيز. أصبحت عاجزًا عن قراءة أى شىء حتى الصحف، والمجلات. عيناى تجريان فوق الكلمات دون أن تعى معناها. تلاشت الذكريات. ضاعت كالمياه التى يلقى بها فى الرمال. عقلى كالغربال القديم تمزقت خيوطه لتسقط منه كل الأشياء، ما عدا شىء واحد، صورة واحدة تكاد لا تفارقنى أبدًا، صورة سفينة تنساب فوق البحر وتتجه حيث أقف فى الميناء، وشاطئ بعيد هلامى أهبط عليه. مع ذلك استقر فى أعماقى اليقين بأننى سأفلت من أولئك الذين لا يزالون يبحثون عنى، من رجال يقفون على ناصية الشوارع ويتفرسون فى وجوه المارة، أو يدقون أبواب البيوت فى تلك الساعة المظلمة الصامتة التى تسبق الفجر.

فى ذلك اليوم كنت مستلقيًا على ظهرى فوق السرير أحملق فى السقف. النتيجة على الحائط تشير إلى يوم ٢٧ يوليو. شهر وعشرة أيام منذ أن جئت إلى هذا المكان، شهر وعشرة أيام. الجملة تكرر نفسها فى ذهنى، شهر وعشرة أيام. قمت من رقدتى وفتحت النافذة. البحر ساكن لا تحركه موجة واحدة، وأشعة الشمس تثير غلالة من البخار تختلط بالدخان الصاعد من المدينة، ومن السفن التى تدخل إلى الميناء أو تغادره، ترتفع حتى السماء لتتحول إلى غطاء رمادى يكتم الأنفاس. أغلقت النافذة وعدت لأرقد فوق الفراش.

انفتح الباب فجأة لأجد "حامد الألفى" واقفًا أمامى. لمعت أسنانه فى ابتسامة مرهفة تحت الشارب. قمت من رقدتى فسحب مقعدًا من الخيزران وجلس إلى جوارى، اسمع صوته المبحوح يغمغم.

"هه. كيف حالك؟"

دارت الخواطر فى ذهنى دورة سريعة خاطفة. ترى ما الذى جاء به فى هذه الزيارة المفاجئة؟ كل يوم أقضيه فى كنف هذه الأسرة يهددهم بخطر متزايد. ما أفظع هذا الشعور، بأنه يخاطر بمستقبله، ومستقبل أولاده، بأن وجودى معهم قد يدمر حياتهم. عندما أجلس بينهم أحس بعيونهم تستقر على وجهى بنظرات تبدو عادية، ولكن ألا يخفون قلقهم عنى؟ ألا يحسبون الأيام، والساعات، والدقائق ويتمنون رحيلى عنهم؟ ألن يتنفسوا الصعداء يوم يجلسوا إلى مائدة الطعام دون أن يجدونى بينهم؟ ربما أصبحوا يندمون على اليوم الذى اقتحمت فيه حياتهم. أنا بينهم كاللغم الذى قد ينفجر فى أية لحظة. ولكن " حامد الألفى " هو الذى اختار بمحض إرادته أن يأوينى عنده. أقدم على هذه الخطوة بكل بساطة وكأنها تدخل فى حياته المعتادة. ما الذى دفعه إلى ذلك؟ ليست بيننا أية روابط، لا علاقات أسرية، ولا صداقة، ولا حتى زمالة المعارك. و" الأستاذ نجيب وهبى " ذلك الرجل القبطى المتواضع، أتذكر ضحكته الصافية، والود الذى كان يعاملنى به.. ظلت تصرفاته دائمًا خالية من تزلف الموظف ورياءه. رجل واثق من نفسه، هادئ. وفدى من ذلك الجيل الذى عرف معنى روح الاستقلال، والأخوة بين المسلمين والأقباط. هل هى الشهامة التى تربى عليها جيل من الناس خاض المعارك ضد الاستعمار؟ جيل ناهض رفع قامته ليلقى عن كاهله بأثقال الماضى؟ هل هى روح التحدى والمغامرة؟ أم الخيوط التى تربط بين الذين لا يرضخون للقهر، ولا يبغون السير فوق المسالك المعتادة؟ أم هى خليط معقد، ومركب من كل ذلك؟ ظلت هذه الأسئلة تلح على طوال السنوات التى مرت منذ أن عرفت " حامد الألفى " دون أن أجد لها إجابة. لماذا وافق الأستاذ "نجيب وهبى" على التوسط فى موضوع كهذا؟ فهو الذى تطوع بأن يتصل " بحامد الألفى " عندما فاتحه والدى فى مسألة هروبى من القصر العينى. ولماذا حملنى " عزت عبد الغفور فى سيارته الخاصة فوق المسافة المملوءة بالمخاطر من مستشفى القصر العينى إلى مكان قريب من " دار روز اليوسف "؟.

اعتدلت فى جلستى. لم يخطر على بالى أن أسأله. ضاعت الفرصة وبينما أنا مستغرق فى الخواطر فاجأنى بجملة خرجت منه كالطلقة.

" هيا بنا.. سآخذك فى جولة حول المدينة. "

تطلعت إليه فى دهشة. ترى هل التقطت ما قاله؟ فى أحيان كثيرة ينطق الكلمات بطريقة لا أفهمها.

" ألم تسأم البقاء فى هذه الحجرة؟ هل زرت مدينة "بورسعيد" من قبل؟ ليس أنفع للإنسان من الحركة، من لقاء الناس ".

" ولكن.. "

" لكن. لكن ماذا؟ أتخاف؟ " نظر إلى فى تحد، فقلت:

" وإذا تعرف على أحد الناس. ماذا ستفعل؟ "

" طالما أنك معى لا أحد سيشك. أنت قريبى من القاهرة. اسمك الأستاذ "محمد الشامى" صحفى من مصر."

أخذت الفكرة تروق لى، ولكنى قاومت.

" أنضيع كل شىء فى نزوة طارئة؟ "

" نزوة!! أتظن أننى لا أدرك ما أفعله؟ "

أسمعه ينفخ فى ضيق. انتصب واقفًا. لماذا يصر؟ تحركت فى أعماقى شعرة من الشك. إنه من الحزب الحاكم. ولكن أيفعل كل ما فعله من أجلى ثم يقوم بتسليمى لهم، وبأى غرض؟ إنها شكوك لا تليق تولدت عن الحصار الذى أعيشه. السرية تقترن دائمًا بالشك، تشوه الوجدان والفكر.

قمت وتوجهت إلى الدولاب وأخرجت الحذاء، والجورب. ارتديت الجورب ودسست قدمى فى الحذاء ثم انحنيت، وأوثقت الرباط.

"أنا جاهز."

ضحك ضحكته الهادئة الماكرة. فتح الباب وانطلق. جسمه المربع يتحرك بخفة فوق الأرض. أشار إلى بيده لأتبعه.

الأسفلت الأسود أصبح طريًا تتسرب سخونته من خلال النعل. أغلق عينى فى ضوء الشمس الأبيض القوى يسقط من السماء، ويصعد من الأسفلت. طفل يقرفص فوق كوم من الفضلات ويتأملنى بعينيه الواسعتين كأنه يدرك أننى لست من سكان الحى. الشارع خال من

المارة بعد أن توارى الناس فى بيوتهم هربًا من الحر. ترك الباعة عربات البلح، والخس واستلقوا كالجثث الهامدة فى الظل. الذباب الأسود يحط على بضاعتهم، يرحل ويعود فى بطء. رجل يرفع جلبابه الممزق حول الوسط ويحرك خرطومًا أسود بين يديه ليرش التراب أمام المحل، فتسقط قطرات المياه مثل عجوز يعانى من الحصر فيبول فى الشارع.

سرنا فوق الرصيف بخطوات بطيئة. خلع " حامد الألفى " طربوشه وأدخل فيه منديلاً كبيرًا حتى يمتص العرق، ثم وضعه على رأسه فتدلى المنديل حول وجهه. كان يرتدى بزة صيفية من التيل الأبيض يبدو كالكيس حول قوامه المربع، وحذاءًا صيفيًا لونه " بيج " يئن مع كل خطوة يخطوها فوق الأرض. فى يده اليمنى المنشة البيضاء يلوح بها فى الهواء ليهش الذباب. يميل بجسمه من ناحية إلى ناحية بحركة تشبه حركة البط عندما يطارده طفل فى الحوارى. يلتفت إلى بابتسامة عريضة تضىء وجهه الأسمر تحت المنديل كأنه سعيد بهذه المغامرة الجديدة.

اجتزنا شارعًا اصطفت على جانبيه أشجار البلوط العالية. وصلنا مقهى كبيرًا يعلو فوق مستوى الرصيف تحيط به شرفة. صعدنا الدرجات لنصل إليها. عند الباب كان ينتظرنا رجل يرتدى بنطال السواحل الأسود. فوق رأسه ارتدى قبعة من القطن مثل الصيادين والغطاسين. عيناه الصغيرتان تتفرسان فى وجهى بنظرة سريعة قبل أن تعود إلى " حامد الألفى " الذى وقف يتحدث إلى رجل بدين، أصلع الرأس.

دخلنا إلى الصالة المزدحمة بالرواد، واخترقناها سائرين بين الموائد، تصدح منها أصوات الترحاب، " أهلاً.. أهلاً.. اتفضلوا " لمحت الرءوس ترتفع لتلقى علينا نظرة سريعة عابرة فيها تساؤل عندما تقع على، ثم تعود إلى التفافها حول موائد الرخام لتستأنف ما كانت منهمكة فيه. ازدحام المقهى، والصخب، ونوع الرواد توحى كلها بأن المقهى مركز نشاط، فيه ذلك اللمعان والنظافة، والحيوية التى نجدها فى المقاهى المهمة لمدن السواحل.

اقتربنا من باب ينزوى فى أحد الأركان جلس أمامه شاب يرتدى قميصًا فضفاضًا يكشف عن الصدر. قدماه العريضتان ثابتتان على الأرض كخفى حيوان يستعد للقفز. أفسح لنا الطريق، وفتح الباب لندخل منه إلى حجرة طويلة، تتوسطها منضدة، ومقاعد من القش جلس عليها عدد من الرجال يتحدثون، ويدخنون لفائف التبغ. فوق المائدة أكواب صغيرة من الشاى. الجو فى الحجرة خانق من شدة الحر، وسحب الدخان، والأنفاس.

ارتفعت الأصوات المرحبة عندما دخلنا، واختلطت باحتكاك المقاعد فوق البلاط. أحسست بالعيون تمر بنظراتها على وجهى كالفراشات الهادئة.

خلع "حامد الألفى" طربوشه ووضعه على المنضدة متسائلاً.

"كيف حال الرجالة "؟ فتعالت الأصوات.

" الحمد لله. نحمدوه. عال العال، إزيك انت يا سى " حامد "؟

ساد الصمت لحظة كأنهم يجمعون شتات أفكارهم. صفق أحدهم متسائلاً.

" الله أمال فين شاى الضيوف؟ " فهرع أحد الشبان خارجًا من الباب ليعود فى لمح البصر حاملاً صينية عليها كوبان من الشاى. دارت الأحاديث متفرقة كأنهم ينتظرون شيئًا جاءوا من أجله، ثم سمعت " حامد الألفى " يقول.

" يا رجالة. ليس أمامنا متسع من الوقت فلنبدأ ".

ساد الصمت. دار بعينيه حول الجمع وابتسم بحركة خفيفة من الشفتين أضاف بعدها.

"يمكنكم أن تبدأوا. الأستاذ "محمد الشامى" صحفى من مصر، ونسيبى"

رنت الأصوات عميقة فيها حرارة.

"أهلاً وسهلاً، ألف مرحب. "بور سعيد" نورت. أهلاً أهلاً أستاذ "محمد"."

اقتربوا من المائدة وأغلقت الدائرة كالطوق. النافذة الوحيدة فى الحجرة عليها ستارة. العيون، والأسنان تبرق كالإشارات الضوئية. يتحدثون برزانة تكسرها أحيانًا نبرات الحماس المندفع، أو مناقشة تحتدم حول نقطة معينة. أشعر كأنهم يدخلوننى بالتدريج فى عالم آخر، لم أدخله من قبل. أتابع ألفاظهم المبهمة تختفى معانيها لكن بالتدريج تتداخل خيوطه وتتشابك فتظهر الصورة. "المخازن معدة ولكن هناك حاجة إلى إعادة ترتيب العناصر بعد التسلل الأخير. أنا لا أثق فى اتجاهات "سراج الدين"[1]". ألمح عينى الرجل الذى يبدو أنه قائد الجماعة كعينى القط لا يفوتها شىء وهما تطلان من فوق عظام الخد العريضة. جسده قوى، ثابت لا يتحرك. "زمان كنت باحب القمر، دلوقت باكرهه" وجه شاب كالفارس الأسمر الحالم. "بدأنا نعمل مع بعض الصيادين فى بوغاز البردويل. نساؤهم؟ ممكن نحاول". المرارة تتسلل إلى بعض الأصوات. "شاخ الرجل، وتزوج واستطعم الفراش الوثير بدلاً من دكك محطات السكة الحديد[2]، الاحترام واجب يا سى "حامد" ولكن الاحترام مش حيطلع العساكر الإنجليز. أنت على العين والراس، ولكن القيادة فى القاهرة غيرك. ربنا يستر. إحنا لسة عددنا قليل".

الكلمات تدور مع أكواب الشاى، والعرق يسيل، فتلمع الوجوه فى ضوء المصباح الذى أضىء. "حامد" جالس على المقعد بجسمه المربع دون أن يبدو عليه الإرهاق أو الضيق من طول الحديث. يسأل فى إصرار لا يكتفى بنصف الإجابات، ويدقق فى التفاصيل. نقر الأصابع القصيرة فوق المائدة هو الشىء الوحيد الذى يدل على شحنة التوتر الراقدة فيه. الوجه الحزين

---

(١) وزير الداخلية فى حكومة الوفد.

(٢) يقصد ـ مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ورئيس الوزراء.

الذى أراه فى البيت فقد جموده، والحيوية تشع من ملامحه كأنه وجد فى نفسه قوة جديدة لم تكن فيه. أحس وأنا جالس إلى جواره أنه يعيش اللحظة بكل أحاسيسه، وأفاجأ به يضحك حتى الدموع.

فتح الباب وظهرت ذراع مفتولة العضلات وجزء من قميص، ثم وجه الشاب الذى يقوم بالحراسة.

" يا جماعة الساعة قربت على السادسة والنصف"

خرجنا على دفعات. نسيم البحر ينساب من أبواب المقهى العريضة المفتوحة على مصراعيها. أشعة الشمس فقدت حدتها واقتربت من رقة الغروب. الزحام اشتد داخل الصالة الفسيحة، وعلى الشرفة، والرصيف حيث وضعت بعض المناضد الصغيرة. التقط كلمات وجمل من هنا وهناك "اليانصيب تكسب بكرة خمسة آلاف جنيه". "واحد شاى وصلحه" "الفلوكة خشبها سوس يا معلم، العين بصيرة، واليد قصيرة".

جلسنا فى ركن إلى جوار النافذة المفتوحة. صبى صغير ينظر إلى فى رجاء وينقر بفرشاته على الصندوق. أشرت إليه فأسرع ووضعه عند قدمى. رفعت إحداهما فأمسك بها، وثبتها فوق الصندوق ثم رفع الطرف الأسفل للبنطال. أصابع الحلاقين، وماسحى الأحذية مريحة. تلمس أجزاء للجسم معرضة للتعب أكثر من غيرها. أرى عينيه تطلان إلى بين الحين والحين كالحيوان الأليف وتختفيان عندما ينحنى ليمسح بالفرشاة فى جد. أكره القدم المرفوعة فى وجهى، أما هو فيحبها. إنها قوت يومه، يرى وجهه، وسعادته فى لمعان الجلد، يمشى وعيناه على الأرض يتابع حركة الأحذية الرجالى وهى تسير، أحذية ميرى غليظة، وأحذية طويلة مدببة يعشقها الأفندية المتأنقون، وأحذية ضباط المباحث سوداء طويلة فيها نعومة الليث، وأقدام بلا أحذية تمشى فى النهار وفى الليل.

الأصابع توثق الرباط، والفرشاة تنقر على الصندوق بصوت أجوف، والصبى الصغير يتطلع إلى وجهى فى صمت. عيناه واسعتان فيهما حزن. أعطيته قرشين. أحسست بالرضى عن نفسى فالسعر المعتاد هو قرش واحد وليس قرشين.

تنبهت فجأة إلى جمع من الناس أحاطوا بنا وبـ"حامد الألفى" يجلس وسطهم. خلع الطربوش ووضعه على القرص الرخامى كاشفًا عن شعر رأسه القصير لونه أسود غطيس كأنه مصبوغ. جبهته العريضة تلمع فى ضوء المصابيح. إلى جواره جلس نفر قليل من الرجال يسرون إليه بكلمات قليلة بين الحين، والحين، ويصمتون أغلب الوقت كأنهم لجنة من المستشارين يبدون رأيهم فى بعض الأمور.

تحول الجمع إلى موكب متغير، متحرك من الوافدين، رجال ونساء، أطفال، وشيوخ وحتى عدد من الذين يسيرون بالعكاكيز، أو المقعدين، يقتربون من "حامد الألفى" ويهمسون إليه، فيكتب على ورقة يحملونها معهم، أو يخرج كارتًا، أو يدلهم على مكان ليذهبوا إليه. أتأمل الانحناءة أو الهمسة تخفى شيئًا، أو الصوت الجرىء يبدى غضبه أمام الجميع. عيون مفتوحة فى تحد صريح، وعيون ضيقة ماكرة لا أطمئن إليها. أياد خشنة عريضة تعودت الشقاء المستمر، وأياد ناعمة تبرق عليها الفصوص. ملابس تفوح منها رائحة العرق، وأخرى هفهافة ترفرف برائحة العطر، والإثم. جفون مشوهة استقر فيها ميكروب أو فطر، وجفون تزدان بالكحل. نظرات تجرى خلف أرداف النساء السائرات على مهل، ونظرات تبحث عن المعرفة والفهم. مناديل وجلاليب، وبناطيل، وفساتين، وطرح. ألوان الشباب الزاهية، وسواد الحزن. صيحات الغضب، ولحظات تأمل، وفكر. بكاء على مفقود، أو ضحكات تبدد الألم المتراكم فى القلب. طلبات، وشكاوى، ووثائق، ومذكرات، أوراق كبيرة وصغيرة، سليمة وممزقة، مختومة وموقعة، تنتهى كلها عند رجل واحد، طربوشه الأحمر يرقد على الرخام الأبيض الشاحب، وجبهته تلمع من العرق يعكس نور المصابيح، عند بؤرة هادئة، ثابتة تحيط بها دوامة الحياة ومواكبها. كتلة مضطربة، متلاطمة من الأجسام تسعى إليه، ووسط كل هذا ألمح وجه امرأة عجوز يطل علينا من النافذة المفتوحة وصوتها الشاكى يقول:

"مش عايز كبريت الليلة يا سى "حامد"؟

التفت الرجل الذى خاطبته كأنها انتزعته مما هو فيه. ينظر إلى يدها الممدودة بعلبتين من الكبريت، وتنظر إليه كأنه قاض تنتظر نطقه بالحكم. أسمعه يقول:

"أمال فين الواد "يوسف" يا مبروكة؟".

"بيذاكر يا سى "حامد" عنده امتحان بكرة".

صمت لحظة ثم قال.

"أدينى عشر علب كبريت. كل ما أروح البيت يقولولى.. ما جبتش معاك كبريت..؟"

ابتسامتها كالشعاع يطل وسط الرماد البارد. أخذ منها العلب العشر، ودسها فى جيوبه. وضع شيئًا فى يدها دون أن ينظر إليها، ثم التفت إلى الجمع المحيط به. تناول الطربوش ووضعه فوق رأسه. أمسك بالمنشة وهزها هزات سريعة كأنه ينفض عنها شيئًا ثم وقف.

"عن إذنكم وراى مشوار مهم، هه، السلام عليكم، بكرة يا ست" مخاطبًا امرأة مدت يدها بورقة إليه، "ياالله بينا يا سى "محمد"."

خرج إلى الشرفة، وهبط بسرعة على الدرجات إلى الرصيف. خطا بضع خطوات ثم توقف فجأة ينتظرنى. عندما أصبحت على مقربة منه سألنى.

"ما رأيك فى الحساء، ولحمة الرأس، لابد أنك سئمت البورى المشوى والأرز. يوجد مصمط قريب حيعجبك، فيه كمان كوارع، وكبدة، ومنبار، وسجق.

يضحك ضحكة جافة مبتورة قبل أن يستأنف السير فوق الرصيف. الحياة من حولى تموج، أستنشقها، أبتلعها أمتصها فى البطن، والصدر، أتركها تتسلل فى العصب، والعظم. النسيم الطرى يأتينى من البحر، أحس به موجودًا دون أن ألمحه. نسيت السفن، والترحال، والحزن. الحياة تدب فى أوصالى، وتتدفق فى الشارع كالنهر. عيناى تنتقلان من شىء إلى شىء، تلال اللب الأبيض، والسودانى ترسب فوقها الملح، الترمس فى الطشوط، والقلل فيها رائحة زهر، علب السجائر فوق الرفوف ترتفع حتى السقف، عصير القصب فوار يصب فى الأكواب، وأقراص الطعمية الخضراء تسقط من بين الأصابع فى الزيت، تختفى لحظة، ثم تصعد إلى السطح، الطماطم الحمراء فوق الميزان يطب، وموسى الحلاق تدفع رغاوى الصابون الأبيض أمامها فوق الصدغ، والناس، الناس ينقلون إلى تيارًا دافئًا حرمت منه.

فى كل خطوة أصوات ترحب به أو توقفه، فهم يعرفونه جميعًا، يسعون إليه، يقصدونه فى شىء، يطلبون منه خدمة أو يعرضونها عليه، وهو لا يمل. يسمع ويسأل مائلاً برأسه حتى يلتقط الكلمات، وإذا لم يسمع يسأل من جديد. يهز رأسه، يبتسم، يضحك كأنه لا يوجد فى الدنيا شىء أهم من تلك الكلمات التى يتبادلها مع الناس. يقدمنى إليهم "الأستاذ محمد الشامى قريبى من مصر" فتتعالى أصوات الترحيب "أهلاً وسهلاً حمد الله على السلامة. "بورسعيد" نورت اتفضلوا اتفضلوا". أمام كل دكان وفى كل ركن السلامات، والدعوات التى لا تنقطع.

أخيرًا جلسنا أمام أطباق الطعام يتصاعد منها البخار. يدس أصابعه القّصيرة فى رأس الخروف المحمر الموضوع أمامه، ينتزع قطعة من اللحم، ويمصمص فى تلذذ ويقول: "أحسن لحمة رأس فى مصر، مش قلتلك، كل يا أخى، جرب السلطة دى. بطنى أصبحت خاوية من كثرة الكلام. إيه رأيك فى فسحة اليوم، انبسطت. سنحول حياة الإنجليز إلى جحيم قريبًا ما تخافش. أولاد الكلب سيجربون ما لم يجربوه من قبل. تسألنى منذ متى انضممت للوفد. منذ ثورة ١٩١٩. كان عمرى إذ ذاك اثنتين وعشرين سنة. كل يا أخى. لن تجد لحمة الرأس هذه فى "فرنسا". كنت مندهشًا عندما عرضت عليك أن تتجول فى المدينة. ألم أقل لك أنه لا داعى للقلق. كما ترى لست أنا الذى يحميك إنما هؤلاء"، يشير إلى الجالسين فى المطعم إنهم "الناس فى "بورسعيد".

الشرفة الواسعة تزحف عليها أعواد "الياسمين" رفيعة خضراء تحتضن حديد،"الدرابزين" وتدس أطرافها فى الثغرات باحثة عن شىء تتعلق به. أوراقه ترقد فوق مساحات الحجر فى سكون تجتازها أحيانًا رعشة خفيفة كأنها مصابة بحمى غامضة، بألم صامت يهزها من

الأعماق. القمر معلق فوق البحر يبدو قرصه المنتفخ مثل صفار البيض، والهواء الثقيل الحار الساكن لا حركة فيه ما عدا نسمة هزيلة تهب فتهز أوراق الياسمين بتلك الرعشة التى تكاد لا تراها العين.

الابن الكبير "محمد" يجلس أمامى على الشرفة. وجهه شاحب تغطيه شعيرات اللحية التى تركها تنمو قليلاً وحول عينيه دائرتان سوداوان كأنه يسهر الليالى. وجه شاب عجوز تبخرت آماله وهى لا تزال فى البداية. مد يده إلى علبة السجائر الموضوعة أمامه على منضدة من الخيزران، وسحب منها ثلاثة لفائف من الدخان، أمسك بواحدة وأدارها بين أصابعه عدة مرات، ثم أخذ يفرغها من الدخان على ورقة بيضاء. بعد أن انتهى من اللفائف الثلاث دس يده فى جيب البنطال، وأخرج منه ورقة من السلوفان. تناول قطعة من الحشيش كانت ملفوفة فيها وأخذ يفركها بحرص فوق الدخان الذى أفرغه من اللفائف، ثم حشا كل منها بكمية متساوية ودكها على السطح الزجاجى للمنضدة. مال إلى الوراء مسندًا ظهره على المقعد ليستريح، وفى عينيه نظرة تنم عن الرضى، ثم صاح بصوت مرتفع.

" فاطمة، "فاطمة"، أين أنت؟ "

ظهرت فى فتحة الشرفة فجأة دون أن أسمع لها صوت، واقتربت من المكان الذى كنا نجلس فيه، ثم توقفت دون أن يكف جسمها عن حركته تمامًا كأنها تتمايل على قدميها الثابتتين فوق الأرض. خطوط وجهها ناعمة خالية من كل حدة، أو خشونة توحى بالمقاومة، أو التمرد. ترتدى قميصًا شفافًا يكشف أمواج جسمها أكثر مما يسترها. أظافر يديها الحمراء القانية كالسلاح الدامى يطل من غمده. توحى إلى بالطيبة، والسذاجة، وفى الوقت نفسه تبث فى إحساسًا بوحشية مستترة قادرة على الافتراس. صوتها يأتينا بنعومة بطيئة، صوت مهزوم لا حيوية فيه.

" أناديت على يا "محمد"؟"

"نعم. اصنعى لنا كوبين من الشاى.. الليلة ليلة الجمعة، عايزين ننبسط".

تناول سيجارة من السجائر الثلاث التى أعدها، وأشعلها. أخذ منها نفسًا طويلاً ليملأ صدره بدخانها ثم نفث خيطًا بطيئًا من الدخان كأنه يحتفظ به فى صدره أطول مدة ممكنة. لمعت عيناه فى الضوء الذى يسقط علينا من الحجرة. مد يده بالسيجارة إلى، فقلت.

"لا شكرًا".

" لماذا يا أخى. أنت فى حاجة إلى الترويح عن نفسك. ألم تجرب الحشيش من قبل؟"

" جربته".

"لا يعجبك إذن؟ "

" فعلاً.. لم يعجبنى".

" ما هو مزاجك إذن؟"

انتزعنى سؤاله من حالة نصف التنبه التى كنت فيها. أغالب نفسى من الضيق الذى سيطر على. ألن تأتى السفينة التى أنتظرها أبدًا؟ ما الذى أخرها حتى الآن؟ يجب أن أواجه "حامد الألفى" أن أجبره على مصارحتى. الأيام تمر دون أن يحدث شىء. ما الذى يخفيه عنى؟

عينا "محمد" ترمقانى من بين الجفون المنتفخة. جفون أبيه، ولكن نظرته كالسمكة تطل من خلف لوح من الزجاج.

"لا أحب المكيفات وليس لى "مزاج" خاص. أشرب البيرة، أو النبيذ أحيانًا".

"وكيف يشرب رجل عاقل مثلك الخمر؟ الحشيش حلال، ولكن الخمر حرام".

فى صوته نبرة تهكم. هذا الشاب يكرهنى لماذا لا أعرف. ليست بينى وبينه علاقة، ولكن أشعر فى نظراته بالحقد. ليس كأبيه الذى أكاد لا أتحدث معه، ومع ذلك يوجد بيننا ود.

"ربما لأنه يصيبنى بنوع من الانتشاء".

رمقنى بنظرة فيها مكر، كأنه يبحث عن ثغرة ينفذ منها، ولكنه لا يجدها. جاء صوت يغنى فى الليل، أغنية عن الأسماك فى البحر كبيرها يأكل صغيرها، صوت فيه حزن على الحياة يتهادى ثم يختفى تمامًا، تاركًا الصمت وراءه. دخلت علينا "فاطمة" تحمل صينية عليها كوبان من الشاى. وضعت الصينية فوق المنضدة، وسألت.

"أتريد شيئًا آخر؟"

لم يرد عليها. رمقتنى بنظرة سريعة ثم انسحبت بحركة من رأسها وساقها فيها تمرد. انتهزت الفرصة لكى أغير مجرى الحديث. قلت..

"حدثنى عن حياتك يا "محمد"".

سحب نفسًا عميقًا من سيجارته الثانية، وتناول رشفتين من الشاى مصدرًا صوتًا عاليًا ينم عن الاستحسان، كأنه يلفت نظرى إلى جودة الشاى التى صنعته زوجته.

"أنا أدير المطبعة. سلمها إلى أبى، وقال لى هذه المطبعة هى كل ما أملك. تول مسئوليتها أنت. ثلث الدخل لك، والثلثان لمصاريف الأسرة والبيت. أقضى يومى فى المطبعة من الصباح الباكر حتى التاسعة مساء. منذ خمس سنوات وأنا على هذه الحال حتى مللت حياتى".

"والدراسة؟".

" وصلت حتى مرحلة الثانوية العامة ثم توقفت. كنت طموحا منذ الصغر، أريد أن أكسب قوت يومى بجهدى الخاص. أحب المرح، والفرفشة. وأنا طفل واظبت على الهروب من المدرسة.

" يضحك ضحكة طويلة فيها رضى عن النفس قبل أن يكمل كلامه. " كنت أقضى اليوم كله على الشاطئ أغوص فى البحر، أصعد فوق الصخور، وأصطاد السمك. كنت أحلم بالسفر، بأن أكون قبطانا على سفينة، ولكن أبى وقف دون أحلامى منذ البداية. كان يعدنى لأحل محله فى المطبعة حتى يتفرغ هو "للوفد" وهكذا ضحى بى على مذبح طموحه السياسى فعندما كبرت أصبحت من رواد المقاهى، ألعب النرد والكوتشينة. فما أمتع ذلك التوتر اللذيذ الذى يقترن بالحظ. ولدت لأكون مغامرا لا أن أجلس على كرسى، وأراقب المكن يدور فى انتظام ممل. أخرجنى أبى من المدرسة بعد أن رسبت ثلاث مرات فى امتحان البكالوريا والحقنى بالمطبعة. كنت أحب حياة الحركة والمغامرة وأكره الكتب والقراءة والآن أطبع الكتب،ولكن لحسن الحظ لست مجبرا على قراءتها."

توقف ليأخذ نفسا من سيجارته.. "منذ سنة تزوجت "فاطمة". أهلها من تجار المانيفاتورة فى "بور سعيد" من أسرة "الشامى"، يقولها بفخر كأنها أسرة عريقة معروفة. "أحببت فتاة من قبلها، كانت تعمل أخصائية اجتماعية وجاءت إلى المطبعة لتقوم بعمل بحث اجتماعى عن العاملين فيها. أعجبتنى، ولكنى رفضت أن أتقدم لزواجها. لا أحب لزوجتى أن تعمل و"زينب" لم تكن مستعدة لترك عملها. أبت أن تغير رأيها رغم أننى وعدتها بحياة هنيئة. أصرت ألا ضمان فى الحياة إلا بالعمل، فصرفت النظر عن الزواج منها. النساء كلهن بنات قحبة، ألست معى فى ذلك" يحملق فى وجهى بنظرة سيطرت عليها بلاهة المخدر. ألمح حدقة العين واسعة سوداء. "لكن "فاطمة" كانت كالقطة المغمضة تفعل ما أطلبه منها" يضحك ضحكته الراضية مرة أخرى. "إنها لا تتخطى عتبة المنزل إلا معى. أبى لم يوافقنى على رأيى. أنا وهو لانتفق أبدا. قال لى لِمَ لا تتزوج "زينب" إنها من أسرة مكافحة وستساندك فى الحلو، والمر. كانت تجلس معى على هذه الشرفة كلما حضرت لزيارتنا، وعندما قررت ألا أتزوجها قطعت صلتى بها، أما أبى فما زال يهتم بها وبأسرتها ويزورهم فى البيت ولولا ثورتى عليه كاد فى يوم من الأيام أن يدعوها إلى منزلنا لتناول الغذاء معنا كأنه يريد أن يطعنى فى كرامتى، فأطواره غريبة وكثيرا مالا أفهمه. يكرس اليوم كله من صباحية ربنا حتى بعد منتصف الليل لخدمة الناس، والجرى وراء مشاكل "بور سعيد"، ومشاريع "بور سعيد"، وقرف "بور سعيد"، ويقضى عمره مع الأغراب ولا يبقى فى البيت أبدا. وفر لنا جميع احتياجاتنا، لكنه لا يهتم بنا إلا إذا كانت هناك مشكلة. لا أحد منا يفهمه أو يفهم أسلوبه فى الحياة."

هز رأسه كأنه يتعجب على الدنيا، وما فيها. وجهه جامد يطل على مثل تمثال من الشمع، والدخان الأزرق يرتفع فى الجو الساكن، ثقيل وبطىء يلف من حولى. سمعته يقول كأنه تذكر شيئا فجأة .

كان أبى يقول "أنظرت فى عينى "زينب"؟ لو نظرت فى عينيها جيدا لما تركتها أبدا". لم أفهم ما كان يقصده ولكن هذه الجملة تعود إلى أحيانا بتساؤل لا أجد له إجابة".

ألمح ظلا من القلق فى الوجه الجامد، مثل النسمة تهز أوراق الشجر هزة خفيفة، لتعود إلى سكونها السابق.

سحابة شفافة تتبدل ألوانها عند الأفق وطائر أبيض وحيد يندفع مسرعا فوق البحر قبل أن يلحق به الليل. توارى الأطفال خلف الجدران وساد السكون كأن الناس أعياهم السعى الطويل أثناء النهار. حتى صوت المذيع فى الحجرة المجاورة انقطع وقعه الرتيب وسكت.

صمت غريب لم أعهده من قبل. أخذت أقلب صفحات الرواية التى اشتراها لى "حامد الألفى" فى محاولة للاستغراق فى القراءة. التقطت أذنى المدربة على التقاط الأصوات، شيئا يتحرك خلف باب الحجرة المغلق مثل حفيف أقدام تنتقل بخفة فوق البلاط، ثم أنفاس مكتومة تنتظر. سمعت نقرات على الباب ثم انفتح بهدوء ولمحت امرأة تقف دون حركة وقد لفتها الظلال. تنظر أمامها وكأنها تحاول أن تخترق نصف الظلام الذى أحاط بالحجرة فيما عدا المساحة الصغيرة التى يضيئها مصباح القراءة. قالت فى صوت هامس:

" مساء الخير."

" مساء الخير يا "فاطمة."

اقتربت بشئ من التردد سائرة دون صوت فوق البساط ثم توقفت على مسافة منى وسألت: "هل تسمح لى بالدخول؟"

ضحكت وقلت:

"لقد دخلت فعلا."

ابتسمت ابتسامة خاطفة. صوتها المنكسر يجيئنى بالكاد.

" قلت لنفسى أنك تجلس وحدك، وأنا كذلك". انتظرتها لتكمل، ولكنها ظلت صامتة .

" وحدك؟ أين بقية أفراد الأسرة"؟

" خرجوا جميعا. البيت موحش فقلت لنفسى لماذا لا أجلس معك قليلا"؟

" لماذا لم تذهبى معهم؟"

" لأن "محمد" فى المطبعة. لماذا تجلس فى هذا الضوء الخافت؟"

" إنه مريح. ثم كنت أقرأ على ضوء المصباح."

خطر فى بالى أن أدعوها إلى الجلوس ثم غيرت رأيى. تسأل:

" فيم تقرأ؟"

" رواية ". اسمها "عصفور من الشرق".

" حلوة؟"

" لم أجد غيرها."

" ما موضوعها؟"

" شاب يسافر إلى فرنسا للدراسة ويحكى عن تجربته هناك".

" فيها حب؟"

فوجئت بالسؤال.

" نعم فيها حب".

أحسست أنها تجرنى على أرض خطرة ولكنى سرت معها كمن يرخى لنفسه اللجام.

" أيجب أن تعجبنى أى رواية لمجرد أن فيها قصة حب؟"

صمتت لحظة طويلة كأنها تبحث عن إجابة.

" طالما أن الحياة ليست فيها حب، فيمكننا أن نجدها فى الروايات".

" هل تقرئين الروايات؟"

" لا".

" لماذا؟"

" لأننى" بدا عليها الحزن "لأننى خرجت من المدرسة بعد أن أخذت الابتدائية. لم تدعنى للجلوس حتى الآن."

جلست دون أن تنتظر ردى فسكت. لمحت بياض ساقيها يظهر من تحت الثوب الذى ارتفع قليلا. قلت بسرعة.

" ألا يوجد أحد فى البيت؟"

نظرت إلى كأنها تريد أن تستشف مغزى السؤال.

" لا، لا أحد، "محمد" سهران فى المطبعة الليلة. هناك طلبية فواتير كبيرة لشركة القناة و"إبراهيم" سافر إلى القاهرة منذ الصباح واصطحب معه "على" ليفرجه على القاهرة،

والحاجة قالت أنها ذاهبة لزيارة احدى صديقاتها". تبتسم ابتسامة سريعة فيها مسحة سخرية. "أما أبوى "حامد" فأنت أدرى بأحواله. هكذا لم يبق سوى أنت". صمتت لحظة ثم أكملت بحركة من الكتف فيها دلال، "وأنا... منذ أن جئت وأنا أريد أن أتحدث معك، ولكنى لم أجد فرصة لذلك".

أغلقت دروعى حول نفسى وانكمشت. عقلى يحدثنى أننى لم أغلقها بالقدر الكافى.

"أهلا، وسهلا، لم نتحدث من قبل فعلا."

قطبت جبينها كأنها تبحث عما تقوله فبدت كالطفل.

" أنا قرأت قصة هروبك فى "آخر ساعة" وأنا أحب المغامرات."

أحسست بمزيج من القلق، والرضى عن نفسى. تريد أن تتحدث مع "البطل" وربما أيضًا أن تسلى سأمها كباقى النسوة، والفتيات المحبوسات.

ضحكت تاركا قدمى تنزلق حيث كان يجب أن أحتاط قلت.

" كل المغامرات؟"

سقط الدرع لحظة فاستغلت الفرصة بغريزة الأنثى المدربة على لعبة الرجال.

" نعم كل المغامرات".

وقعت عينى على الحفرة الناعمة بين النهدين فسرت فى قشعريرة سريعة مستترة. أسمع أنفاسها وأشعر بساقها تلتصق بساقى فى حركة عفوية لا تنسحب بعدها. ملت إلى الوراء وضغطت بيد على مسندى المقعد.

" هل يمكننى أن أطلب منك طلبا؟"

تطلعت إلى بنظرة فيها اهتمام، وشئ آخر كالرجاء، أو التوقع. ساقها ما زالت دافئة على ساقى. قالت:

" اطلب ما تشاء".

أبعدت ساقى وقلت:

" أريد أن أشرب شايا من صنعك".

جمدت فى مقعدها، وظلت صامتة دون أن تجيب، ثم وقفت بسرعة واتجهت ناحية الباب. المصباح إلى جوارى يكشف عن استدارة الجسم. أصبحت وحدى الآن. هدنة أستعيد توازنى فيها. هذه الحبسة اللعينة فى الحجرة. أشعر أحيانا أننى أريد أن أخترق الجدار برأسى. وقفت

سائر الناس. "الحاجة" ربما معذورة، لكنها فى النهاية طرحة بيضاء وتقوى عاهرة تطل فى العينين المسبلتين. كشفت عن قدرة على التدبير، وكراهية عميقة للرجل الذى تزوجته. قيل أنها خانته مع أحد الرجال عندما سافرت للحج وما زالت تلح كل سنة أن تحج وتقول له "ما تيجى ياسى "حامد" تزور بيت الله أبل ما تطب" فيبتسم بسخرية ويقول. "كفاية أنت يا ست، حجى لنا احنا الاثنين" وينصرف إلى ما ينتظره. لا أحد يعلم إن كان يدرك ما يدور. أولاده يحبونه ويكرهونه فى الوقت نفسه فهو كالسيف حاد بتار يضحى بالمطبعة والمال وكل شىء فى سبيل الحياة التى اختارها. يحيا حياته بعيدا عنهم ولكن عندما يجلس بينهم تلمح فى عينيه الحزن، كأن آماله فيهم خابت. علاقته بهم فيها إشفاق يصل إلى حد الاحتقار كأنهم كائنات أدنى لا تدرك ما يدركه. مع ذلك الحنان الذى يحس به نحوهم يجعله يشفع لهم. آماله العريضة فى أولاده الذكور تبخرت مثل نقاط الندى فى شمس الصباح. يغرق نفسه فى دوامة الحياة كما يغرق آخرون أنفسهم فى كؤوس الخمر.

هذه المرأة الطفلة تدرك الكثير. تحمل فى نفسها فطرة سليمة، ورغبات مكبوتة كالوحش فى القيود، عندما يفلت قد يفتك بأقرب الناس إليه. بحكم الظروف نشأت بينى وبينها علاقة وكأننى لها بمثابة الأخ، أو الصديق أهب لها العطف والاهتمام الذى افتقدتهما، ولكنها علاقة تخفى فى ثناياها احتمالات العشق التى يمكن أن تشتعل فى أية لحظة إذا مستها يد تعرف نقاط القوة أو نقاط الضعف. عندئذ تنتقل فى لحظة إلى لعبة الأنثى القديمة مع الرجل، إلى الألفاظ الغامضة تلقى بها، وتستتر وراءها رغبة فى استثارتى، إلى حركة من الجسد لا أعرف أن كانت عفوية أو مخططة، ولكن فى أغلب الأوقات تكشف عن مكنونات نفسها بصراحة مؤلمة كأنها تلقى بأحمالها على دفعة واحدة، لتستريح من لفح الحياة المحرقة.

تبددت غيوم النوم على صوت النوافذ تفتح أعلى الحجرة التى أنام فيها وخرير المياه فى الصنابير، والبحة المنتظمة لمشاعل الكيروسين تحت أباريق الشاى، وبائع الفول يصيح فى الشارع " لوز يا فول "، ونباح كلب الجيران يرفعه للشمس الصاعدة فوق الجدران. تمطعت فى كسل. يوم آخر فى سلسلة أيام الانتظار. تنهدت بثقل وقمت من رقدتى. سمعت طرقا سريعا على الباب، ثم انفتح. اندفع " حامد الألفى " داخل الحجرة وتوقف فجأة كأنه أدرك أن هذا الاندفاع لا يليق به. كان يرتدى ملابسه ما عدا السترة. حمالة واحدة ترقد فوق الكتف والأخرى يرفعها بذراعه حتى تستقر فى مكانها. ربطة العنق معوجة على الجانب لكن الوجه الأسمر اختفت منه زرقة الإرهاق. رن صوته مرحا على غير عادته فى الصباح .

" صباح الخير. كيف حالك اليوم. مبسوط"؟

أخذ يصلح من وضع ربطة العنق. نظراته تتجه خارج النافذة المفتوحة كأنه يبحث عن شىء فى الأفق، ثم عاد بها إلى. لمحت بريقا ماكرا يطل من عينيه، فسألته.

" تبدو عليك السعادة. ألا تخبرنى عن السبب"؟

" أهذا أمر غريب"؟

" فى الصباح؟! المرح يأتى عندك فى آخر النهار".

على شفتيه ابتسامة عريضة سمعته يقول:

" ابسط يا سيدى السفينة جاهزة"

وقفت أمامه مشدوها استوعب المفاجأة. ضحك فى سرور. رفع ذراعيه فوق رأسه وطرقع أصابعه، ودار حول نفسه بخطوة بطيئة راقصة ضاربا بقدميه على الأرض. بحثت بعينى فى الحجرة، فوجدت منضدة صغيرة بجوار النافذة أمسكت بها وأخذت أطبل عليها. اختلطت الضحكات بوقع الأقدام على الخشب، والأصابع تضرب على المنضدة. أطلت الحاجة برأسها من الباب المفتوح وهتفت، وهى تضرب على صدرها.

" يا ندامتى، الراجل اتجن!! "

التفت إليها دون أن يتوقف.

" أنسيت أننى فى شبابى كنت أجيد رقصة العصا. أعدى لنا الإفطار وحياتك، عندنا أعمال عاجلة".

ألقت بجملة سريعة ناحيته.

" كل يوم عندك أعمال عاجلة".

اختفت. ربت على كتفى وقال :

" هه، مبسوط. سترحل باكر، أو بعد باكر، وتستريح من أشياء كثيرة هى مصدر للقلق". يفحصنى بنظرة ثابتة لها معنى. ترى هل يعرف الرجل؟ أحيانا يبدو لى ألا شىء يفوته فطنته. لمحت الحزن يطل من عينيه فجأة قال: "سأفتقدك. ارتدِ ملابسك سنتناول الإفطار سويا حتى أحكى لك". ثم خرج مغلقا الباب وراءه.

جلست طوال اليوم أمام النافذة. فى اليوم التالى انتظرت عودته إلى ساعة متأخرة من الليل ولكنه اختفى على غير العادة عن مواعيد الغداء. فى الليل لم أسمع خطواته. أما فى الصباح فكان يهبط من الشقة قبل أن أستيقظ. أحسست بالحيرة والقلق. ما الذى جرى؟ لماذا لم يأت إلى بأى خبر؟

امتنعت عن الذهاب إلى مائدة الطعام. تحمل إلى "فاطمة" صينية الأكل ثلاث مرات فى اليوم. أترك أغلب محتوياتها دون أن أمسها. تقف لحظة ملقية ناحيتى بنظرة متسائلة كأنها

تنتظر أن أقول لها شيئا يفصح عن المشكلة التى أعانى منها، ثم عندما يطول الصمت تنسحب مغلقة الباب وراءها.

فى الليلة الثالثة كانت الساعة قد قاربت على الواحدة بعد منتصف الليل عندما سمعت باب الشقة الخارجى يفتح بعنف وخطوات سريعة مندفعة فى الطرقة تتجه نحو الغرفة الداخلية التى ينام فيها "محمد" مع زوجته. ثم أصوات رجال ترتفع فى عراك تلتها أصوات أخرى تشبه ضربات الكف تقع على لحم طرى، صاحبها صراخ فيه غضب، وألم، واحتجاج يقرب من الولولة سرعان ما انقطع كأن يدا وضعت على فم الضحية. ثم ساد صمت مخيف بعد الضجيج وبعده بقليل سمعت باب الحجرة البعيدة يفتح، وخطوات "حامد الألفى" تجتاز الطرقة إلى حجرته ببطء.

ظللت ساهرا طوال الليل. فى الصباح لم يأت أحد إلى حجرتى ليسألنى إن كنت أريد شيئا، ولم تحمل إلى "فاطمة" صينية الإفطار كما كانت تفعل كل يوم. ظللت جالسا أمام النافذة أنتظر.

مر الوقت بطيئا وقاربت الساعة على الحادية عشرة عندما سمعت نقرة خفيفة على الباب فقمت وفتحته. وجدت "فاطمة" واقفة تحمل بين يديها صينية الإفطار. أفسحت لها الطريق فدلفت منه بسرعة ووضعت الصينية على المنضدة بجوار النافذة ثم انسحبت دون أن تنطق بكلمة. كانت جفونها منتفخة كأنها بكت طوال الليل وفى ملامحها حزن شاحب أفقدها الحيوية التى كانت تدخل إلى بها.

"سألتها مالك يا "فاطمة"؟"

همست.

" لا شئ" واختفت قبل أن أستطيع إيقافها.

تناولت قدحين من الشاى، وقطعة من الخبز المقدد وتركت باقى الطعام كما هو على الصينية. بعد قليل قمت إلى السرير واستلقيت عليه. استيقظت على أصوات خارج الباب. نظرت إلى ساعتى فوجدتها تشير إلى الثالثة. رأيت الباب يفتح وظهر "حامد الألفى". كان يرتدى جلبابا أبيض فضفاضا، وخفا. أغلق الباب خلفه وخطا خطوة تعثرت قليلا فوق البساط. كان يحمل فى يده سيجارة ينفخ فيها بين الحين والحين. ظل واقفا فقمت بسرعة طاردا بقايا النوم. كان الجو حارا وكنت أحس أن رأسى ثقيل. دعيته للجلوس مشيرا إلى المقعد الذى يجلس فيه عادة وقلت: "أهلا يا عمى "حامد" كيف أحوالك؟ لم أتعود أن أراك فى هذا الوقت بملابس النوم. خير إن شاء الله؟"

قال:

" أصابنى شىء من التعب فقررت أن أستريح اليوم".

لمحت التجاعيد فى وجهه أصبحت عميقة. الملامح غطاها ظل رمادى اللون مثل طبقة رفيعة من الأسمنت. وجه أب مات ابنه الوحيد فوقف أمام الصوان يتلقى التعازى.

ابتسم ابتسامة واهنة وقال:

" فاتتنا الفرصة هذه المرة. السفينة لم تكن ترتيباتها مأمونة. لا تقلق سأدبر رحيلك عن قريب".

تحدثنا فى ذلك اليوم طويلا عن مختلف الأشياء دون أن نتطرق إلى الموضوع الذى كان يشغل بالنا. تفاديت الإشارة إليه من قريب أو بعيد. أدركت أنه حدث شئ يعانى منه أقصى درجات الألم والضيق ولكنه لا يريد الإفصاح عنه. كان كمن أصيب بصدمة عنيفة فى كبريائه. يتفادى اللقاء بين عيوننا كأنه خشى أن أقرأ ما يحاول أن يخفيه.

بعد أن تركنى رقدت فوق السرير. مرت الساعات وأنا مستيقظ. شاهدت الفجر خطا بعيدا ثم ضوءا باهتا يزحف فوق السماء، ورأيت الشمس قرصا مستديرا يصعد فى السكون كأنه كان يطفئ لهيبه فى البحر طوال الليل. تتبعت مداخن السفن القليلة تبرز من مكان بعيد وتتجه إلى البحر المفتوح إلى أن تختفى عند الأفق فقمت من رقدتى وأغلقت الشيش، والستائر حتى أمنع الضوء من النفاذ إلى الحجرة، لكن شبح السفينة ظل يتأرجح أمام خيالى ويختفى ليعود من جديد، وفجأة فى لحظة كالضوء المبهر اتضحت الحقيقة فى ذهنى. مبلغ المال الذى أعطاه أبى "لحامد" حتى يدبر به خروجى من الميناء، وسفرى إلى فرنسا على السفينة ضاع أو بالأحرى تم تبديده. أودعه فى خزينة المطبعة التى يحتفظ ابنه "محمد" بمفاتيحها، وطلب منه أن يحافظ عليه، فبدلا من أن يفعل ذلك صرفة ربما مع مبالغ أخرى. تصورته وهو يلف الدخان فى الأوراق النقدية ويشعل فيها. رأيت عينيه تطل منهما الكراهية وشفتيه تحركهما فى ابتسامة ساخرة. ينفث سحب الدخان الأزرق فى وجهى، ودموع القنوط تسقط من عينى .

المائدة البيضاوية مغطاه بمفرش أبيض تناثرت فوقه بقع فى لون الدم القديم. على المائدة طبق ضخم مستطيل، وعلى الطبق يرقد طفل، جسمه العارى أبيض، وأطرافه فى لون الفحم. عند قمة المائدة يجلس تمثال من الطين ملفوف فى جلباب من القطن. الوجه لرجل لا أرى منه سوى الفم المفتوح، وأصابع اليد الخشنة القصيرة تدفع بحبات السبحة.

بطن الطفل منتفخ كبطن امرأة حبلى تتوسطه حفرة يصعد منها شىء كالحبل السرى، ينحدر على المائدة ثم يزحف كالثعبان نحو المرأة الجالسة عند قمة المائدة. أتفرس فيها لحظة. شفتاها ممتلئتان، حمراوان، وعلى رأسها طرحة. فى عينيها دموع تتعلق بأهدابها ثم تنحدر. أسمع صوتها الهامس يردد كلمة "حبيبى" وأتتبع أصابع يدها وهى تمدها لتتحسس جسد

الطفل. أرى لمساتها تتحول بالتدريج إلى ضغط، وقرص كأنها تكره الطفل، ثم إلى حركات فيها عنف، إلى عربدة وتمزيق فى الجسم تنزع منه قطعا صغيرة من اللحم تحملها إلى شفتيها الحمراوين، وتبتلعها، وأرى أظافرها مثل الشعلة عند أطراف أصابعها.

حول المائدة أشخاص آخرون، وعيون، وأياد تمتد إلى الجسد الصغير الممزق. أسمع صوت شفاه تمصمص بنهم، وأسنان تصطك. الطفل فوق الطبق راقد فى استسلام فى عينيه السوداوين ذعر وهو يمط شفتيه كالوردة تتهادى فى تيار من الماء.

أنا جالس بينهم كالمشلول أفتح فمى لأصرخ، لكن صوتى مكتوم. أحاول تحريك يدى فوق المفرش لكن جسمى كالذبابة الغارقة فى الصمغ. أبذل جهدا لأحرك قدما أو يدا دون جدوى.

فجأة صرخت صرخة واحدة هائلة أطلقتها خارجا من الأسر. التفتُّ لأجد رجلا يقف بالقرب منى ويميل على. أحسست بيده تهزنى عند الكتف برفق. جاءنى صوته المبحوح يسأل:

" لماذا تصرخ؟ ماذا جرى؟"

قلت: "حلم... كابوس".

قال:

" يا أخى دع عنك. المشكلة حلت. سفينة جديدة وصلت. أتفقنا مع الربان. أتسمعنى؟ السفينة جاهزة لتنقلك. كل شىء معد. قم ياأخى، قم ارتد ملابسك. سترحل اليوم".

أهبط على درجات السلم بخطوات ثابتة. أكبح رغبة عارمة للقفز فوقها. جلست على المقعد الخلفى للسيارة وأخذ "حامد الألفى" مكانه إلى جوارى. أتطلع إلى وجه السائق الأسمر لا يتكلم. ألمحه ينظر إلى. سواد عينيه الواسعتين لا يوحى بشىء. فلا أقرأ فيهما حتى التساؤل. أتطلع إلى السماء زرقاء صافية تجتازها السحب لتحجب الشمس لحظات ثم تنقشع .

مواكب صغيرة من الناس تتجه إلى الشاطئ محملة بالمقاعد والشماسى. أجسامهم نصف عارية. ألمح قبعة من الخوص، أو بوصة يتدلى منها الخيط، أو أطفالا يجرون كالأرانب غير عابئين بصيحات الأهالى، أو فتيات يسرن أسرابا، ويطلقن ضحكاتهن وشعورهن للريح. رجل بدين يلتهم التين الشوكى أمام عربة وقفت بحمارها عند ناصية الشارع. زجاجة "كازوزة" ترفعها يد معروقة فيهبط السائل دفعات فى الفم.

الرجال الجالسون على الرصيف يحتسون الشاى تتجه عيونهم ذات اليسار، وذات اليمين مع السيقان السائرة العارية. امرأة تطل بثدييها من النافذة على بائع الخضر وتصيح "بكام البامية النهاردة يا وله". عجوز تستريح ويدها على الجدار. نظرة عتاب، أو أسنان بيضاء أو ذراع تلتف حول كتف، أشياء التقطها بعيون الوداع. عقلى يقفز نحو المجهول ويلتقط أشياء الحاضر.

توقفنا أمام بوابة خشبية فيها باب صغير يمر من خلاله السائرون على أقدامهم. نظر السائق إلى الحارس الواقف أمامها. سمعته يقول:

" صباح الخير. افتح يا عم حسين".

فتحت البوابة على مصراعيها. سرنا مسافة قبل أن تتوقف السيارة عند كشك. هبطنا منها أنا و"حامد الألفى" والسائق واتجهنا إلى رصيف خال من السفن. عند بدايته جمع صغير من الرجال. أمشى كأنى زائر جاء يشاهد حركة الميناء. التقط صوت الأمواج تصطدم بجانبه وأتطلع إلى أجسام السفن الممشوقة ترتفع عالية. أمر تحت الأحبال والجنازير تهبط منها حتى الرصيف وتلتف حول الأوتاد الحديدية الكبيرة. أمامى تمتد المياه بلونها الرمادى تسبح فيها قطع من الخشب، ومساحات من الزيت أو القطران، وعلب صفيح، وقشور بطيخ . لمحت فكا كبيرا ينقض على صندوق ويرفعه فى الهواء، يتأرجح ثم ينقله فى حركة دائرية ليهبط به على ظهر إحدى السفن. بالقرب منى رجل صدره عريض، وذراعه ملفوفة جلس على الأرض أمام رغيف من الخبز وقطعة من الباذنجان الأسود. ينقل اللقيمات إلى فمه ببطء، ويمضغ بينما تتتبع عيناه حركة "الونش".

لم أعد أشعر بالقلق. سيطرت على حالة من الصفاء والهدوء. أتتبع "حامد الألفى" وهو يقف مع الرجال. أعرف أننى الموضوع الذى يتحدثون عنه لكن لا أحد منهم يلتفت إلى كأننى لست موجودا. أعرف أن كل واحد منهم لا بد فحصنى جيدا. ربما أصابتهم الدهشة عندما رأوا هذا الشاب الغض ذو النظرات البريئة والملامح المهذبة. أهذا هو الهارب الخطير الذى يبحث البوليس عنه؟ ربما اعتادوا هذه المسائل فأصبحت بالنسبة إليهم كالبضاعة ينقلونها من مكان إلى مكان لا يهمهم سوى أن يقبضوا الثمن مقابل الاتفاق مع الربان، وتوصيلى من رصيف الميناء إلى السفينة المنتظرة هناك.

هبطنا على السلالم إلى زورق بخارى يتأرجح أسفل الرصيف. الشمس أصبحت ضعيفة فأحسست بالبرودة وأنا أتلقى الريح والرذاذ يثيره الزورق وهو يشق طريقه. أرتعش قليلا. آخذ نفسا عميقا. أتأمل سترتى وحذائى ويدى وجسمى الجالس على لوح من الخشب بنظرات فيها فضول. يملؤنى شعور من الاندهاش؟ هل ما أعيشه الآن حلم أم حقيقة؟

أدركت أننا نتجه إلى سفينه تقف فى الميناء عن بعد. صوت المحرك مريح. لا أحد يتحدث الآن كأننا نقترب من لحظة تستدعى الصمت. ألمح فتحة البوغاز والسفينة تقف وحدها بيضاء وحول مدخنتها دوائر زرقاء متوسطة الحجم. سفينة للشحن، عليها عدد من الكبائن، وناس يطلون من أعلى الحواجز يتتبعون اقتراب الزورق يشق طريقه فوق الأمواج الناعمة تتسرب من البوغاز. مررنا تحت الجنزير العملاق يرتفع طرف منه إلى فتحة فى جانب السفينة ويسقط طرفه الآخر فى المياه. أسمع حلقاته ترتج مع حركة الموج فيتردد الصوت المعدنى ببطء.

صعدنا سلما من العصى مربوطة على جانبيها بحبل. ألمح ظهور الرجال، وحركة سيقانهم فى البنطال، وكعب الحذاء وهم يصعدون الدرجات. أرفع رأسى بين الحين والآخر ألمح طرف معطف يرفرف فى الهواء، أو "تزلك" أسود ملفوف يحتوى طرف البنطال. توقف الطابور الصاعد لحظة فدق قلبى عدة دقات. أمد يدى لألمس جسم السفينة وعند أعلى السلم أرى جمعًا من البحارة فى ملابسهم الزرقاء.

وجدت نفسى واقفا أمام ضابط شاب يرتدى البزة الخاكية المزودة بالأزرار الصفراء وإلى جواره رجل قصير القامة، شعره الغزير الأسود يتطاير فى الهواء. أحسست بالعيون تستقر على وجهى لحظة. نظرت فى وجه الضابط باحثا عن شىء أقوله سمعت. "حامد الألفى" وهو يصيح حتى يرتفع صوته فوق صفير الرياح .

" جئنا يا حضرة الضابط لنتحدث مع الريان فى شأن تموين السفينة. إنه رجل متغطرس يتعبنا معه كلما دخل الميناء".

سأل الرجل ذو الشعر الغزير.

" من معك يا سى "حامد"؟. لم أر الأستاذ" مشيرا إلى "من قبل".

" آه... نسيبى من القاهرة الدكتور "محمد الشامى". اصطحبته معى لزيارة الميناء".

التفت ناحية الرجل الذى سأل عنى. هززت رأسى فى تحية سريعة فأجاب

" تفضلوا.. بعد إذن حضرة الضابط".

ابتسم الضابط الشاب وقال:

" هو احنا نقدروا نرفضو لك طلب يا سى "حامد"؟"

سرنا بخطوات بطيئة إلى منتصف السفينة . أوقفنى "حامد" خلف زورق للنجاة. اقترب منا بحار يرتدى "الأوفورول" الأزرق. أخرج من جيبه ورقة مكتوب عليها بضع كلمات باللغة العربية أطلعه عليها، فهز رأسه بالإيجاب. وضع البحار يده حول ذراعى وهمس باللغة الفرنسية

" بسرعة اتبعنى".

أحسست بيد "حامد الألفى" على كتفى وأصابعه كأنها تتشبث بى. قال:

"مع السلامة". قادنى البحار إلى فتحة ضيقة دخلنا منها ثم أخذ يهبط على سلم دائرى. هنا وهناك مصابيح تلقى ضوءا واهنا على الجدران. أدركت أننا نهبط إلى جوف السفينة. وصلنا أمام باب حديدى أبيض فتحه البحار بمفتاح كان يحمله معلقا حول عنقه. أضاء النور

فوجدت نفسى فى حجرة تمتد بالطول، سقفها منخفض وعلى أرضها تراكمت لفات ضخمة من قماش رمادى اللون. خاطبنى البحار .

" هذا مخزن القلوع يمكنك أن تختفى وراءها قرب الجدار. سأعود إليك بعد أن تبحر السفينة" سألته:

" أين النقود الفرنسية التى كان من المفروض أن تسلمها إلى"؟

تفرس فَىَ وجهى لحظة طويلة. نظرت إليه بثبات فيه تحد، وهممت بالمرور من جانبه لأصل إلى الباب. وضع يده على ذراعى يستوقفنى، وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية.

" هذه النقود هى التى طلب منى أن أسلمها إليك".

أخذتها منه. ألقيت عليها نظرة سريعة فاصلا بين الأوراق الست التى أعطاها لى ثم دسستها فى جيب البنطال. تفرس فى وجهى مرة آخرى ثم خرج من الباب وأغلقه وراءه بالمفتاح.

النهار مثل الليل قطيفة سوداء تلتف حولى فى إحكام، وتمنع عنى أى بصيص من النور. أحاول أن أنسى الظلام الكثيف فعندما أفكر فيه أشعر بالاختناق.

أرقد فى حفرة مستطيلة خلف القلوع، وفى هذا الحيز المحدود أنام، وأستيقظ، وأشرب، وآكل، وأقضى حاجتى مستعينا بالجردل الذى أحضره لى البحار بعد أن غادرت السفينة الميناء. أشعر بالحركة الهينة للسفينة ترتفع أو تهبط أو تميل كأنها ثابتة فى مكانها على سطح كرة من المطاط أو على شفى هاوية لا يحميها شىء من السقوط فى الفراغ. أتخيل كل هذا وأنا راقد محشورٌ بين القلوع والجدار. لا أرى حتى جسمى. أحس به ينبض ويتنفس ويزدرد الماء أو الطعام، ويبول، وألمسه بأصابع تطمئن عليه فيهيأ إلى فى لحظة أننى فقدت القدرة على الرؤية وأنها لن تعود. يمتلكنى الذعر، ففى هذا الظلام المقيم كيف أختبر قدرتى على الإبصار . لا أرى شيئا لكنى أسمع نبض المحركات المختبئة فى أعماق السفينة، أو خطوات على سلم من حديد، أو أقدام الجرذان وهى تجرى، وتوقفها الفجائى كأنها تستعد للهجوم على، أو خرير المياه كالغرغرة فى حلق الغريق أو لطمات الموج على جانب السفينة وأنين الخشب مثل عجوز لا يتوقف شكواه.

أنا كالكائن البدائى يحيا فى بئر. تنتابنى أحاسيس المادة الحية فى بداية تكوينها ويتملكنى ذعر المخاطر الخفية التى تحيط بى، لكن بالتدريج أتعود هذا الوضع الذى أخذت أعيشه. النور يضاء فى المخزن ثلاث مرات يوميا لمدة دقيقتين أو ثلاث أو أكثر قليلاً، ستة أو ثمانية دقائق من النور فى أربعة وعشرين ساعة من الظلام، دقائق تسبقها خطوات حذرة تقترب من المكان الذى أختبئ فيه حيث أرقد دون حركة، ودون أن أتنفس، إلى أن أسمع الإشارة، خمس نقرات

خفيفة على عامود من الخشب يتسلل بعدها الضوء إلى. يحول الظلام إلى ظلال والظلال إلى أشياء أراها واضحة أمام عينى عندما ينكمش الننى من دائرة سوداء واسعة إلى نقطة صغيرة كرأس الدبوس.

عندئذ أخرج رأسى من خلف القلوع فأراه، وجها وعنقا وكتفين وقبعة بيضاء تعلو فوق رأسه الكبير. أعود إلى الوجه لأكتشف أن له عينين صغيرتين تطلان بنظرة زرقاء ثابتة من بين التجاعيد التى حفرتها الشمس، والرياح. حول جسمه لباس من التيل الأزرق كنزلاء السجون، ولكنها زرقة زاهية اللون كالبحار. يقف صامتا فى المساحة الخالية من القلوع. يحمل جردلا فارغا ليضعه مكان الجردل الذى امتلأ فأشعر بالضيق لأن شخصا آخر غريب يستنشق رائحة فسادى، وطبقا معدنيا عليه طعام بارد يضعه مكان الطبق القديم، ووعاءً ممتلئا بالماء يضعه مكان الوعاء الذى شربت منه ثم ينسحب فى صمت دون أن نتبادل الحديث.

كنت أنتظر هذه اللحظات، فاليد التى تمتد إلى بالطعام والماء تشعرنى بأننى لست وحدى فى هذا الظلام. إنها تصل إلى مثل الحبل السرى فى بطن السفينة. الرجل الصامت الذى يقف أمامى هو صلتى بالحياة أنتظر قدومه وأترقب خطواته، وأشعر بسعادة عندما أنظر إلى ملامحه البرونزية اللون.

فى اليوم الأول أحضر إلى سراويلاً وسترة من التيل الأزرق تشبه الملابس التى يرتديها. أدركت أنهَ يحتاط للمفاجآت فقد أضطر إلى مغادرة المخزن إلى مكان آخر. طمأننى هذا الإحساس وأزعجنى فى الوقت نفسه. ماذا لو شب حريق أو قامت عاصفة وأنا محبوس فى قاع السفينة لكنى أدركت بغريزتى أن الرجل لن ينسانى. نظرة ألمحها فى عينيه، نظرة فيها تساؤل وربما إشفاق على شاب لا يشبه المجرمين والمهربين الذين تعود على إخفائهم.

دارت الساعة ست دورات فوق معصمى وأُضىء النور ثم أطفئ فأدركت أن اليوم الرابع يزحف على. عندما استيقظت أحسست أن شيئا ما تغير فى حركة السفينة. الأنين زاد وكأن الخشب يكاد ينفلق، ويد ضخمة أمسكت بالسفينة وأخذت ترفعها إلى أعلى ثم تلقى بها إلى القاع. أشعر بجسمى يسقط فجأة فى فراغ ويظل للحظة معلقا فى الهواء كالمصعد الذى يهوى فجأة. لسة الأمواج تحولت إلى صفعات ترج الجدران، وقاع السفينة أصبح كالحصان الجامح.

أمسكت بلوح بارز من الخشب حتى لا يلقى بى خارج المخبأ الذى أرقد فيه. الدنيا تنقلب من حولى فلم أعد أميز بين الأعلى، والأسفل. النبض يسرع فى معصمى، والعرق البارد يتصبب من كل المسام. أحشائى تخترقها آلام مثل طعنات السكين. تملكتنى رغبة قوية فى القىء فبحثت عن جردل الفضلات فى الظلام لكنى لم أعثر عليه. خلعت السترة والبنطال وتركت العنان لعضلات بطنى تنتفض كالوعاء المعذب يطرد ما فيه مرة واثنتين وثلاث وعشرات المرات.

عروقى نافرة، وعضلاتى مرتعشة، وعيناى جاحظتان من المجهود، وبركة رائحتها كريهة تنتشر من حولى أشعر ببلولتها حيث أرقد فوق القماش الخشن السميك.

أخيرًا بعد ما يقرب من يوم وليلة هدأت حركة السفينة. أبطأ النبض فى معصمى وجف العرق. أحسست بالإعياء الشديد والضعف. رقدت مكانى دون حركة مستمتعا بالهدوء الذى أحاط بى، وفجأة فقدت الإحساس بكل شىء.

نفذ شعاع أحمر من النور عبر جفونى، فاستيقظت. جلست مسندا جسمى بيدى. أشعر بالبلولة اللزجة تحت كفى. عينا الرجل تنظران إلى فى استطلاع.

"هه. كيف حالك يا بنى" بصق على الأرض. "يا للعاصفة القحبة. لم أستطع أن أغادر مكانى حتى أجىء إليك." فى صوته شىء ينم عن الاعتذار.

قلت:

" دع عنك". التفتُّ حولى "ما زلت على قيد الحياة، وهذا هو المهم". سألته:

" كم الساعة الآن؟"

" الخامسة."

" صباحا أم مساء؟"

" صباحا. لم يبق سوى ساعتين نصل بعدهما إلى "مارسيليا "."

قفز قلبى بفرحة قوية... أخيرا... شممت رائحة القىء فنظرت حولى باشمئزاز.

" أريد أن أغتسل قبل أن أرتدى ملابسى."

" انتظر حتى أطمئن على الطريق. سأضع ملابسك فى الحمام، وأعود."

ارتديت سترة البحارة، والبنطال، وعدت إلى رقدتى. اختفى الرجل بضع دقائق دون أن يطفأ النور، ثم عاد. رأيت يده الكبيرة المعروقة تمتد إلى. قبضة كالفولاذ التفت حول أصابعى فشددت عليها حتى أخرج بجسمى من مخبئى خلف القلوع. ترنحت قليلا فوق قدمى وأنا واقف مكانى. همس:

" اتبعنى."

قادنى عبر بهو ضيق يضيئه مصباح. فتح بابا عن آخره وقال:

" ملابسك فى الداخل".

دلفت من الباب لأجد صفوفا من الأدشاش، ومواسير وأرض مغطاة بألواح خشبية طويلة تفصل بينها مسافات. ضوء رمادى خافت يتسلل من عيون الزجاج ويبرز الأدشاش كالرءوس المشنوقة تتدلى فى انكسار. الجو موحش بارد، وصوت الريح يصفر أسفل الباب. وقفت تحت أحد الأدشاش وفتحت الصنبور بيدى فسقطت المياه على جسمى باردة كالثلج. تلاحقت أنفاسى، وكدت أن أبتعد عن المياه، ولكنى تحاملت تاركا نفسى تحتها ومبتعدا عنها بعض اللحظات إلى أن تعودت على برودتها فأخذت الدماء تجرى فى عروقى. الرياح تلفحنى كالسكين ولكنى لم أعد أشعر بها. أخذ الدفء يصعد من أعماقى. أدعك نفسى بالصابون عدة مرات. عشت الأيام السابقة غارقا فى الإفرازات. أشعر بلذة عارمة، ونشاط. أقبل على ما ينتظرنى كالذى يستعد للقاء امرأة يحبها، ولم يرها منذ زمن طويل. كل شىء فى هذا المكان موحش، رمادى اللون، بارد، ومع ذلك فهذا الحمام له مذاق خاص، لم أنسه طوال السنين كأننى مت ثم عدت إلى الحياة، عدت إلى المياه والصابون وشعورى بجسمى يعود إلى عنفوانه السابق، إلى رائحة الملابس النظيفة غسلها الرجل قبل أن يحضرها إلى، لفتة صغيرة ناحيتى قبل أن أغادر هذه السفينة إلى الأبد كأننى كنت أمانة بين يديه حافظ عليها حتى النهاية.

الفجر يزحف فوق السماء خطا يزداد نوره فاصلا بين البحر والسماء. أحاسيسى حادة وذهنى صاف صفاءً غريبًا كأننى أقف فوق قمم الجبال.. أمشى بعضلات، وأعصاب مشدودة، ونبضات قلبى ممتلئة تضخ الدماء بحركتها الواثقة.

عدت إلى المخزن يقودنى الرجل بخطوات حذرة سألته:

" كيف سأهبط من الباخرة عندما نصل إلى الميناء؟"

" بعد أن ترسو السفينة بنصف ساعة سأعود إليك وسنصعد سويا إلى الطابق الذى يوجد فيه سلم الهبوط".

" والبوليس؟"

" بوليس؟"

نطقت بشىء من التوتر ...

" الجوازات، والجمرك؟"

" ليسوا من رجال البوليس. يجلسون فى الصالون حيث يتجمع الركاب وتتم الإجراءات".

" وعلى سلم الهبوط.. "؟

"لا يوجد أحد".

" وعلى الرصيف"؟

" نفس الشيء. هناك رجال من حرس الميناء ولكنهم لا يعترضونك إلا إذا شكوا فيك".

" والخروج من الميناء؟"

" ستجد موقفا لسيارات الأجرة".

سكت. أخذت نفسا عميقا فسألنى: "أى شيء آخر؟"

" لا شكرا".

حملق فى وجهى لحظة ثم قال:

" حظ سعيد".

ثم اختفى مغلقا الباب وراءه.

توقف نبض المحركات، وحل محله صوت أقدام كثيرة فوق الكبارى العلوية، ثم ساد صمت عميق. بدا لى كأن مدة طويلة مرت دون أن يجيء الرجل. لماذا تأخر؟ ربما تركنى لمصيرى. تملكنى الخوف. اعتصر قلبى لحظات ولكنه تلاشى بعد قليل. قبضوا أجرهم هو، والريان، وربما آخرون، لكنهم لن يتركونى لأن مصيرهم مرتبط بى. عليهم ان يتخلصوا منى فأنا أمثل الدليل الحى على الجريمة.

سمعت الباب يفتح وصوت يهمس. "هه أنت أخرج بسرعة". أسقطت نفسى من أعلى كوم القلوع وسرت وراءه. أرى خفين من القماش يزحفان أمامى. يتحرك كالقط دون صوت كاشفا عن بياض السمانة أسفل البنطال. بهو طويل ضيق ثم سلم دائرى مصنوع من قضبان حديدية، نصعد على درجاته، ثم بهو ثان، وسلم من الخشب وباب فتحه وأشار إلى بالخروج منه. ضوء النهار يجعلنى أغلق عينى ثم أفتحهما بالتدريج. فوق رأسى فتحة كبيرة، وسلم يقود إليها. على كل جانب يقف صف من البحارة يمسكون بمفارش بيضاء كبيرة، كأنهم يزيلون عنها التراب. يصنعون لى ستارا محكما وأنا أصعد من جوف السفينة. لمحت عينا صغيرة تطل من بين الجفنين بفضول. صنعوا هذه الستارة حتى تخفينى فى الجزء الأخير الذى يقودنى إلى ظهر السفينة.

وجدت نفسى واقفا على الكوبرى. ضوء الشمس يعمينى. أستند إلى الحاجز. أتفقد ما يدور من حولى حتى أحدد خطواتى. البحار الذى كان يسير أمامى اختفى. الآن أصبحت وحدى. أشعر بالناس يتحركون من حولى، بالحقائب تنقل من مكان إلى مكان وسط الضجيج. أقترب من المكان الذى يهبط منه الركاب. أطل من فوق الحاجز إلى صفوف المستهبلين، إلى وجوه تتطلع إلى أعلى، تبتسم أو تحملق فى بلاهة. ألمح أسرة تستعد للهبوط على السلم، رجل وامرأة وطفلان. المرأة ترتدى قبعة وتمسك بحقيبة يد وشمسية. سرت خلفهم وهبطت معهم

متتبعا خطواتهم المتعثرة البطيئة ثم خطوت فوق الرصيف مبتعدا عنهم. لا أشعر أن لى جسمًا أو يدين أو قدمين. تحولت إلى عينين يمتصان كل ما يدور من الأمام ومن الخلف وعلى الجانبين، إلى كتلة من الحساسية المفرطة لكل شىء من حولى. ألمح مربعا مغلقا بحواجز حديدية. الحواجز مصنوعة من قضبان عالية مثبتة فى إفريز. تتبعت المسافرين وهم يزيحون الحواجز ويمرون تحت نظرات رجال الشرطة المنتصبين بالقرب منها. تقدمت نحوها بثبات وأزحت أحدها عن طريقى غير مكترث بالعملاق الذى وقف عند ركنها متتبعا حركاتى بعينين فاحصتين. مررت إلى جواره بخطوة بطيئة. سرت مسافة ثم بدأت خطواتى تسرع. لا أدرى كم المسافة التى قطعتها قبل أن أصل إلى موقف سيارات الأجرة.

أسمع السائق يسألنى

" إلى أين"؟

" إلى مقهى "مارسيليا"".

قلت لنفسى لابد أنه يوجد مقهى بهذا الاسم. ألقى ناحيتى بابتسامة مرحة لمعت فى وجهه الأحمر وانطلق بسيارته. بعد قليل أحسست به يبطئ. توقف عند بوابة ضخمة تجمع حولها عدد من رجال الشرطة يرتدون المعاطف الزرقاء القاتمة وأحزمة من الجلد ومسدسات. أطل أحد رجال الشرطة من النافذة موجها كلامه إلى.

" أليس عندك حقائب؟ "

قلت: "لا كنت أودع الأصدقاء".

لوح بذراعه فاتحا الطريق أمام السائق. لمحت يده الضخمة تفتح أصابعها كأنى عصفور أطلق سراحه. مرت السيارة تحت قوس البوابة وانطلقت فى الشارع كالنحلة. تراجعت عن حافة المقعد وأسندت ظهرى إلى الوسادة. أخرجت علبة من جيبى وأشعلت منها سيجارة. نظرت إلى أصابعى. كانت ثابتة ليس فيها رعشة. تفقدت السترة الرمادية والبنطال، والجورب الأزرق والحذاء كمن يفيق إلى وجوده وفجأة غمرتنى موجة من السعادة . أنفث الدخان من سيجارتى وأتطلع من الزجاج المفتوح. أرى المبانى البيضاء تحت الشمس، والأشجار، والناس يسيرون فى الشوارع على أقدامهم. مرت إلى جوارى فتاة تركب دراجة فلوحت لها. أريد أن أتحدث إليها، أن أوقف هذه السيارة المسرعة، أن أنادى بأعلى صوتى "أنا هنا. أنا عدت إلى الحياة."

الفصل الحادى عشر

المنفى

موائد ومقاعد من القش تناثرت فى إهمال منظم فوق الرصيف كالسلال البيض ضفرتها أصابع دقيقة، وفساتين ملونة فوق المقاعد تبرز منها كالزهور، وترتعش فى رياح الميسترال[1]. والشعر فوق الرءوس يلفها بأجنحة ذهبية أو سوداء تلمع فى الشمس.

أجلس على أحد الموائد. رشفات القهوة باللبن تسرى فى جسمى موجات من الدفء. أقضم فى "الكرواسون" الساخن فينتشر فوق لسانى طعم الزبد. أنظر إلى السماء، إلى مساحة زرقاء صافية تطل من بين المبانى البيضاء. سحب مثل نتف القطن تتحرك مسرعة فتحجب الشمس أحيانا، وأحيانا تطلقها. سيدة عجوز تقف فوق الرصيف أمامى. الحذاء والجورب السميك، و"الجوبة" المصنوعة من الصوف. تبتسم إلى فى ود وتمد يدها بصحبة من البنفسج الملفوف فى أوراق الشجر الخضراء. آخذ منها صحبة صغيرة وأثبتها فى عروة السترة.

قالت:

" أشكرك يا سيدى"، فابتسمت وقلت:

" أنا أشكرك أنت". ودفعت لها ما طلبته منى.

هزت رأسها وانصرفت سائرة فوق الرصيف بثقل العمر.

لوحت إلى بائع الصحف فاقترب منى. حول كتفه حزام أسود من الجلد وجراب عريض يحمل فيه الصحف. له ذراع واحدة سليمة وأخرى مبتورة. عيناه الزرقاوان تطلان من وجهه الشاب. يرتدى قبعة الصيادين وتذلكا، وبنطالا عريضا. اشتريت منه "الفيجارو" و"الأورور" و"الليترفرانسيز" و"الأوبزرفاتير" و"الأومانتيه". و"البيتيه باريزيان". ينظر إلى فى دهشة كلما طلبت المزيد. نظرت إلى أعلى صفحة "الأومانتيه" التاريخ يقول الأحد ٣ أكتوبر ١٩٥٠. أهمس بالتاريخ لنفسى حتى لا أنساه والتفت حولى. نهر بشرى يتدفق فى الشارع يستمتع بالراحة

---

(١) رياح قوية للغاية تهب على البحر المتوسط وجنوب فرنسا فى شهر أكتوبر.

والشمس. صوت مئات الكعوب تزحف على الأسفلت. امرأة قوامها جميل فيها إشراق الشباب وعينان واسعتان فى لون البنفسج تمر أمامى. تلتقى عيوننا لحظة. تبتسم إلى قبل أن يختفى قوامها الفارع وسط السائرين.

دفعت الحساب، وقمت. أريد أن أمشى وأمشى دون قيود فمشيت. الأرض تحت قدمى تمتد، والسماء مفتوحة ليس لها سقف أستطيع أن أمد خطواتى دون حد. اتجهت نحو الميناء القديم. عشرات من مراكب الصيد والزوارق البخارية عواميدها الخشبية العارية تميل مع حركة الماء مثل غابة من الأشجار سقطت أوراقها. أستنشق رائحة السمك المقلى وتلمح عيناى رفرفة الملابس المغسولة تتدلى من الشرفات. أبحث عن المكتبة التى سألت عنها بائع الجرائد فوجدتها منزوية فى حارة بين مبنيين قديمين. دفعت الباب فرن جرس صغير فوق رأسى وخرج إلى رجل عجوز أشيب الشعر، حاد النظرات. ألقيت عليه تحية الصباح فحيانى بصوت رفيع يرتعش قليلا وجلس على مقعد عال. أخذت أتنقل بين الرفوف. عيناى تدوران على العناوين. ابتعت بعض الكتب فى السياسة ونسخة من "عيون إلزا"[1] وخرجت حاملا اللفة فى كيس من الورق بحث الرجل العجوز عنه طويلا قبل أن يعثر عليه.

أمشى وأمشى دون هدف واضح. المدينة مفتوحة أمامى أستطيع أن أغزوها. الشوارع والأرصفة والميادين والحدائق أمتلك مسافاتها. لمحت عجلة كبيرة ملونة تدور فى الفضاء فتوجهت ناحيتها لأجد مساحة ضخمة من الأرض عليها مدينة للملاهى. اشتريت تذكرة على الباب ودخلت. العجلة الكبيرة أصبحت الآن فوق رأسى تتدلى منها مقاعد جلس عليها شباب وفتيات ورجال ونساء من مختلف الأعمار يضحكون ويغنون ويلوحون بأيديهم. سرت مع المواكب. وسط أبواق الموسيقى النحاسية، وطلقات البنادق تصوب على رءوس الدمى. توقفت عند أحد الأكشاك وأمامى بركة من المياه يسبح عليها البط. المتفرجون يلقون عليها حلقات من البلاستيك فإذا استقرت حول عنق البطة أصبحت من نصيب الفائز. يسلمونها له وسط الضحكات وهى تضرب بجناحيها وتصيح بصوتها المزعج.

وقفت أمام المرايا المشوهة أرى نفسى فيها كالكرة المنتفخة مرة، أو كالبيضة تبتسم فى غباء مرة، أو كالخيزرانة الهزيلة الحزينة فأضحك مع الضاحكين. أصبح مثل الأطفال صوتى له رنين.

ركبت العجلة الضخمة التى لمحتها وهى تدور فى الهواء. أطل على المدينة، والبحر وأرى العمارات تتحرك من حولى، والناس ينظرون إلينا من الشرفات. امتطيت ظهر الحصان الخشبى يقفز بسرعة جنونية ثم انتقلت إلى حلبة السيارات الكهربائية. جلست فى المقعد

---

(١) شعر أراجون.

فانطلقت المركبة الصغيرة تنحرف فجأة أو تدور حول نفسها، أو تتوقف لتنطلق من جديد فى عكس الاتجاه كأنها تعصى ما أُريده منها. أحاول التحكم فيها دون جدوى. تصطدم بغيرها من السيارات وتتوقف غاضبة، معاندة وبعد لحظة تنطلق من جديد بعنف، فترتفع ضحكاتى مع الضحكات وتتدفق السعادة الكاسحة.

خرجت من الباب الخشبى الكبير المزدان بالأعلام. أزلت التراب من على سترتى وجففت عرقى بالمنديل. ساقاى تنثنيان فى ضعف تحت ثقل الجسم الذى تحمله فطوال الشهور الثلاث الماضية ظللت حبيس الجدران.

بحثت عن مطعم قرب الميناء. وجدت صالة طعام مستطيلة مزدانه بالنباتات الخضراء والزهور والأوانى النحاسية، أثاثها وجدرانها من الخشب الداكن والمفارش ناصعة البياض. جلست على إحدى الموائد وبعد قليل جاءت سيدة بدينة ترتدى مريلة وتحمل إلى أطباق الحساء والسمك والاستاكوزا الوردية المكتنزة القوام.

بعد أن تناولت طعامى أخرجت ورقة من جيبى وسطرت فوقها "مرسيليا فى ٣ أكتوبر ١٩٥٠"

" عزيزى الاستاذ "حامد الألفى"

أكتب هذه الرسالة بعد خمس ساعات من وصولى إلى مدينة "مارسيليا". سأستقل القطار السريع إلى "باريس" فى الساعة التاسعة مساء..

أشكرك على كل ما فعلته من أجلى، وإلى اللقاء

"محمد الشامى"

نظرت إلى الساعة فى معصمى. كانت تشير إلى السابعة والربع. ترى هل استيقظ أهل البيت؟ ألم يكن من الأوفق أن أبقى مدة أطول فى المقهى وأن أحضر إليهم فى الثامنة؟ كنت أخشى أن أجدهم وقد غادروا ليذهبوا إلى العمل. ضغطت على جرس الباب للمرة الثانية. فتحت الشراعة وأطل على وجه لم أتبين ملامحه فى الضوء الباهت لبداية النهار. قلت :

" أعتذر عن إيقاظك فى هذا الوقت المبكر. أنا "شريف حتاتة"."

مرت لحظة طويلة قبل أن يفتح الباب. وقفت أحملق فى وجه رجل قصير القامة يرتدى عوينات. أحسست بالقلق فى نظراته فأدركت أنه أبلغ باحتمال قدومى ولكنه فوجئ عندما وجدنى واقفا أمامه، فهو يعلم بالطبع أننى جئت إليه هاربا من السجن.

قلت:

" وصلت إلى "مارسيليا" بالأمس، وركبت قطار الليل إلى باريس".

انفرجت أساريره عن ابتسامة مترددة كأنه ما زال واقعا تحت وطأة المفاجأة. ألقى بالمنشفة التى كان يحملها جانبا واحتضننى بين ذراعيه بحركة سريعة مرتبكة. ثم قادنى خلال طرقة مظلمة إلى صالة تتوسطها منضدة طعام. أشار إلى بالجلوس على مقعد بجوار النافذة وقال:

" سأنادى على زوجتى فأنا أستعد للذهاب إلى العمل، أما هى فلا تغادر البيت قبل العاشرة. سأتركك فى رعايتها. لا تتردد فى طلب أى شىء تريده. البيت بيتك وتستطيع أن تبقى معنا إلى أن تجد لنفسك سكنًا، أو تنتقل عند غيرنا من الأصدقاء. سأعود فى المساء وعندئذ ستكون أمامنا فرصة لنتحدث على راحتنا وأن نتدارس الترتيبات اللازمة سويا."

اختفى فى الداخل وبعد قليل جاءت زوجته، قصيرة القامة ترتدى عوينات مثله وملامحها تشبهه. كانت تحمل صينية صغيرة وضعت عليها قدحا من القهوة واللبن وقطعة من الخبز بالزبد. حيتنى ووضعت الصينية على ترابيزة منخفضة أمامى ثم قالت:

" تفضل أشرب القهوة. لابد أنك تحتاج إلى شىء يدفئك بعد رحلة الليل هذه".

جلست ترمقنى باهتمام وأنا أقضم فى قطعة الخبز وأرتشف القهوة مثل الأم تراقب ابنها وهو يتناول طعامه. لما انتهيت ابتسمت راضية وقالت:

" لا بد أنك مرهق هل تريد أن تنام؟"

هززت رأسى بالإيجاب، فاستطردت:

" يمكنك أن تنام هنا على الكنبة. سأحضر لك غطاءً. هل تريد أن تذهب إلى الحمام، أن تخلع ملابسك، وترتدى منامة؟"

كانت جفونى تسقط وحدها وكأن أعصابى ظلت مشدودة مستيقظة إلى أن وصلت إلى بر الأمان. أحسست أن كل شىء فى يرتخى قلت:

" شكرا".

خلعت السترة والحذاء ومددت جسمى على الكنبة، فأغلقت النافذة وشدت على الستائر. غابت لحظة ثم عادت. أحسست بها تغطينى ببطانية ناعمة وبعد ذلك لم أشعر بشىء.

استيقظت على صوت يأتينى ضعيفا كأنه يخترق الحواجز ليصل إلى، صوت ينادينى باللغة العربية قائلا: "يا زميل يا زميل". فتحت عينى بصعوبة فلمحت شخصا يميل على. أغلقت عينى وفتحتهما من جديد. ملامحه تتضح، الجبهة عالية والفم ممتلئ والعوينات تلمع فى ضوء الكهرباء. أنقل نظراتى بعيدًا عن وجهه وأدور بها على الحجرة. أشعر بالحيرة ثم بالتدريج يعود إلى إدراكى بالمكان. سألته:

" كم الساعة الآن يا زميل؟"

ابتسم وقال:

" الساعة الآن السادسة والثلث مساءً. يبدو أنك نمت جيدا.

بعد أن هربت من السجن صدر على حكم بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات من محكمة أمن الدولة العليا برئاسة المستشار "طنطاوى". كانت المحاكم الأخرى تبرئ المتهمين فى قضايا الرأى إذا لم توجد ضدهم أدلة قانونية، فجاءوا بهذه المحكمة بعد تدخل مباشر من الملك وأعوانه لينسفوا ركنا من أركان النظام القضائى. لذلك قررت أن أبقى فى "باريس" حتى يتضح لى أين تتجه الأوضاع السياسية فى مصر.

كان اليوم مشمسا فيه دفء ونسمة أنعشتنى. دعانى رجل فرنسى لأقضى الأمسية عنده، والتقى ببعض أصدقائه. وصلت إلى الضاحية فى مترو الأنفاق، وسرت بخطوات متمهلة حتى بيته، ولكن بعد أن فتح لى الباب ودخلت لم يغرنى شىء بالانضمام إلى الواقفين فى الصالة الكبيرة فى تجمعات صغيرة، والكئوس بين أيديهم يرتشفون منها ويهزون رءوسهم بجدية كأن ما يقال خارق للعادة.

وقفت أمام نافذة من النوافذ البعيدة أتطلع إلى المساحات الخضراء تمتد بين البيوت، إلى الغابة تلفها الظلال الزرقاء كلما هبطت الشمس واقتربت من لحظة الاختفاء، إلى أطفال يلعبون الكرة فوق الحشيش أرى سيقانهم تتصارع حولها، تفلت منهم فيجرون خلفها وينقضون عليها بحماس لا يفتر، إلى طريق مغطى بالأسفلت الأسود يشق المساحات كالثعبان الضخم يخرج من بين الأشجار زاحفا على بطنه ليختفى مرة أخرى فى ثناياها وتنطلق فوقه السيارات كالفراشات الملونة. الشمس تخترق زجاج النافذة، تعبث بوجهى مثل الأصابع القطيفية الدافئة وتزحف هابطة على جسمى فأستسلم لها. أستغرق فى السحب الزاحفة عند الأفق كالرداء البنفسجى، فى الأشكال والألوان تتبدل وتختلط فى فوضى رائعة مجنونة ومحكمة. أسمع همهمة الأصوات من خلفى مؤنسة مطمئنة دون أن ألتفت إلى الألفاظ أو الجمل التى تنطق بها فهى تأتينى من دنيا هجرتها، دنيا الناس بأجسامهم وعيونهم، وكلماتهم وإن ظلت بينى وبينها صلة فأنا أستطيع فى أية لحظة أن أعود إليها ولكن الآن يظل الشعور باستغنائى عنه ممتعا.

هكذا كنت أفكر لحظة أن استقرت يد على كتفى لتنتزعنى كالسمكة من المياه الدافئة. استدرت لأجد صاحب المنزل وإلى جواره امرأة فى عينيها لمعة مشاكسة. شىء يتعلق بالفرحة البادية على وجهها أوحى إلى أنها مقبلة على، ونظرة فى عينيها بعثت إلى برجفة، وأضاعت منى الخجل. تفاصيل الحديث الذى دار بيننا تبددت. لم يبق سوى هذا الشعور الغامض بأن كل شىء بيننا سهل. كانت تتأهب لقضاء السهرة مع أصدقاء لها فانصرفت بعد مدة قصيرة لتلحق بهم. لم نتواعد على اللقاء ولكن ظل عندى الشعور بأننا سنلتقى كأنها مسألة مفهوْمة ضمنا دون أن نقولها، أو ربما قلناها عارضا دون أن نتواعد. تركت صورا خاطفة وراءها، بريق

المشاكسة فى عينيها، المشية السريعة ساعة انصرافها، جسمها اللدن فى الثوب الأسود لا يتمايل أو يتلكأ، وأنوثة تأتى إلى فى أمواج هادئة. هكذا أراها فى تلك الليلة بعد أن مرت عليها سنون طويلة فأصبحت أبحث فيما جرى. وقتها كنت أتلقى، وأنفعل دون أن أفكر إلا فى المشاعر التى حركتها هذه المرأة الجميلة تشع من عينيها اللمعة المشاكسة، كأنها تتحدانى وتدعونى لأقترب.

بعد أن انصرفت لم أجد سببا للبقاء. الليل هبط، والنافذة أظلمت، والغربة التى كنت أشعر بها تضاعفت. جذبتنى إلى مياهها الدافئة لحظات ثم تركتنى على الشاطئ البارد أرتعش فهبطت من بيت صديقى بعد قليل وسرت مع السائرين فى الشارع.

كانت الغرفة التى أسكن فيها على الجانب الآخر من المدينة فى الحى السادس عشر لمدينة "باريس". صاحبة الشقة امرأة فرنسية عجوز بحثت عن مستأجر لها يمكن أن تطمئن إليه. عندما عرفنى بها أحد زملائى ارتاحت إلى فرحبت بإقامتى عندها نظير أجر معتدل. كانت راغبة فى عدم إبلاغ السلطات عن وجودى عندها حتى تتهرب من الضرائب المفروضة على تأجير الغرف وهو شرط كان يناسبنى. تسللت إلى الأراضى الفرنسية دون فيزا، أو إقامة، أو حتى جواز سفر فالأفضل أن أظل غير مسجل فى أية أوراق رسمية مهما تكن.

أما الحجرة نفسها فكانت فى الدور الأول من العمارة أستطيع أن أقفز منها إلى الحوش الخلفى إذا طرأ طارئ. تطل على نهر "السين" تتهادى مياهه أسفل النافذة. جدرانها بيضاء ناصعة، وأثاثها من الطراز القديم الداكن اللون الذى أحبه. السرير عال، ومغطى بلحاف صنعته المرأة بنفسها، وطرزته بالرسومات الملونة. خزان القمصان، والملابس الداخلية، أدراجه عميقة، يعلوه الرخام الأبيض، وضع فوقه طست، وأبريق لغسيل الوجه، واليدين، وطبق مربع من الصينى أضع فيه أدوات الحمام التى أحتاجها، وإلى جواره حمالة من الخشب لتعليق المناشف.

كان يعجبنى فى الغرفة ذلك الجو القديم الذى يعيد إلى أيام الطفولة فى دوار البلد. آوى إليها آخر النهار، ألقى نظرة على نهر "السين" تتحرك فوقه أضواء الزوارق، أغلق الستائر، ثم أخلع ملابسى وأستلقى على السرير. أضىء المصباح المنتصب إلى جواره، وأفتح كتابا لأقرأ فيه، أو أظل سارحا إلى أن أسقط فى النوم العميق.

لكن تلك الليلة بدت لى الحجرة التى تنتظرنى موحشة. ركبت قطار الأنفاق إلى قلب المدينة. الناس جالسون فيه كالدمى يحملقون فى كتاب، أو جريدة أو يشخصون أمامهم. فى الشارع لا أحد يلتفت إلى. أنا وحيد فى هذه المدينة النابضة أمشى بلا هدف، أجتاز ميدان "الكونكورد"، أخترق الجموع الضاحكة المتزاحمة أمام دور العرض والمسارح، ثم أمشى على ضفاف "السين". على الأرصفة زهور، ولوحات، وكتب وشباب يسيرون أيديهم متشابكة. ألمح فتاة ترفع وجهها إلى فتاها كأنه لا يوجد فى هذه الدنيا غيره، يهمس لها ويبتسم. أشق طريقى

وسط الناس. أسعى إلى الذوبان فى هذا التيار المتدفق، إلى التخلص من الإحساس بجسمى المنفصل، من الوحدة تسللت إلى منذ أن انتقلت بخطوات الطفل المتأرجحة من مجال الأم وصدرها إلى عالم الرجال. سئمت المعارك، والسجون والمنافى وعيون الشرطة تحاصرنى فى الأحلام. سئمت التنظيمات، والمنشورات، والاجتماعات تبث فى الملل. سئمت الحياة بلا صديق أقول له ما أخفيه، فالمكافحون لا وقت عندهم لنفوسهم. إنهم مشغولون بالعمال، والفلاحين، والمحرومين من البشر، بإسقاط الطغاة وتغيير النظام العالمى، بالسياسة ولعبة السلطة يمارسونها فى حياتهم. أريد أن أبوح لمن يهتم بأسرارى فيبوح إلى بدوره، أن أضع رأسى على كتف، أن تنظر إلى امرأة بإعجاب لا حدود له، أن تسكننى بين نهديها وتمتص من جسمى الرغبة. أريد امرأة تحبنى.

الأيام والشهور تمر فى هذه المدينة النابضة بالشباب يتبادلون العناق على أرصفة الشوارع، وفى الحدائق، ولكنى أظل وحدى لا يودعنى أحد فى الصباح، ولا يستقبلنى أحد فى المساء، ولا يجلس إلى أحد ليحدثنى فى شىء غير السياسة. أنا منفى من دفء الحياة أحيا وسط ملايين الناس ومع ذلك لا أنتمى لشىء فى المجتمع. أبدو جزءا منه ولكنى غريب عنه ما عدا لحظات كالومضات تأتينى من نوافذ البيوت فى قطار لليل مسرع. أتحرك فى الظلال بلا هوية، بلا أوراق تسمح لى بأن أندمج. أنا كالإلكترون الهائم بين الذرات، المتنقل دائما، لا يمكن أن أصبح جزءا من أى شىء حتى من الحزب الذى أنتمى إليه فالمناضل السرى ينظر من ثقب والصورة فى ذهنه تظل مجزأة لا تكتمل. النظام الحزبى يفرض عليه ألا يكتشف الصورة كاملة حتى لا يصبح مصدرا للخطر فما بال الحياة السرية فى المنفى، بعيدا عن بلاده.

قرب الساعة العاشرة مساء انتهى الاجتماع وهبطنا سويا إلى الشارع. أرادت أن تسير على قدميها حتى الفندق الذى تقيم فيه فى شارع "جورج سانك" فسرت معها. كانت الليلة صافية والمدينة تنثر جواهرها أمام عيوننا.

منذ أن جئت إلى هذه المدينة لم يسألنى أحد عن شىء، عن المخاطر التى واجهتها حتى أهرب من السجن، أو عن رحلتى من مصر إلى فرنسا مختبئا فى باخرة للشحن. لم يخطر على بال أحد من زملائى أن يتساءل عن عدد الذين فعلوا ما فعلت، عن الجرأة والذكاء اللذين كان يتطلبهما مثل هذا العمل، أو عن كيف دبرت لنفسى كل المساعدات التى احتجت إليها. هل هو التحفظ الثورى الذى جُبلنا عليه؟ صون الأسرار لئلا تتسرب إلى من لا يجب أن تتسرب إليه؟ هل هى المنافسة، أو الغيرة السياسية أو فقدان الأحاسيس العادية فى خضم الطموحات الكبيرة؟ ربما سألونى سؤالا أو سؤالين فلما أجبت انصرفوا إلى شأن من الشئون الجارية التى تشغل بالهم أما هى فسألتنى، اهتمت بكل التفاصيل مهما بدت تافهة فأنا فى نظرها بطل. فيها سذاجة الطفلة وفيها عاطفة المرأة توحى إليها بما يعجز عن إدراكه الرجال. أرى البريق

فى عينيها وهى تستمع. حولنا مدينة الحب وفى جسمينا استيقظت أشياء كانت تنتظر دون أن تعرف ما الذى تنتظر. لمحت جنية جميلة من حولها زرقة وشمس فألقيت بنفسى فى بحرها.

سألتنى فرويت لها كيف جئت إلى المدينة. وصفت لها باخرة الشحن والمخزن الذى اختبأت فيه، والبحار يحمل إلى الطعام والماء. لم أصف كيف كان يأخذ معه جردل البول، أو كيف تقيأت وغرقت فى فضلاتى عندما فاجأتنا العاصفة فمثل هذه الأشياء المتناقضة جزء من الفن، والفن لم يكن غمرنى. ثم أنا بطل أخفى عنها أن الإفرازات تخرج منى مثل سائر البشر.

اهتمت بكل ما تحدثت عنه. لذلك أنا الصموت الدائم تكلمت، فاللسان ينطلق فى الحب بلا مقابل. ظلت الشحنة تروح وتجىء تربط بيننا بنسيج خفى ينسج نفسه حولنا. وبعد أن تكلمت سألتها وأبديت اهتماما قدر الاهتمام الذى أبدته ناحيتى. قالت إنها أول زيارة لها لباريس. إذن هى لا تعرف المدينة وأنا ليس لى عمل ثابت. عندى متسع من الوقت، وأنا أهوى السير فى الشوارع والميادين والحدائق والغابات وعلى ضفاف "السين"، مغرم باكتشاف الأحياء القديمة والحوارى والأزقة والأحواش تحكى تاريخ المدينة، وتحتضن بيوت شعرائها ومفكريها وثوارها. أرتاد مسارحها، وأشاهد أفلامها، وأستمع إلى فرق الموسيقا والمغنى فى صالات الحى اللاتينى، والمقاصف والبارات المنزوية تحت الأرض. حتى الأشياء التى لم تكن تستهوينى اكتشفت فيها ما يجذبنى إليها، حتى المتاحف وقصور الملوك، والحكام. المهم هو ألا نفترق، أن نغزو هذا العالم الخصب، أن نحيا هذا الحلم. اللغة بيننا لغة الكلام والصمت، لغة العيون، والجسم، والأصابع تتحدث أطرافها فى لحظة اللمس، لغة القرار الذى اتخذ ونحن سائرون دون أن تتضح معالمه.

نتنزه فى حديقة "لوكسمبورج" مع الأطفال والعشاق، والبجع والبط. نحتسى قهوة الصباح فى "الأوديون" وفى المساء نجلس فى "الكوبول" ونشرب النبيذ من كأسين قوامهما مثل زهرة اللوتس. نمشى فى غابة "بولونيا" أوراق الأشجار وغصونها الرفيعة سجادة بنية اللون. صوت أقدامنا فى السكون قلب يدق. يسقط علينا المطر فنجرى ضاحكين إلى كشك. أشعر بدفء جسمها عن قرب. نستمع إلى موسيقا "موزار" فى صالة "بلييل" وذهنى شارد فى وجهها. نشاهد "جيرار فيليب" يختال فارسا جميلا فى مسرحية "ليسيد" وفى يوم الأحد والسماء رمادية والمدينة وكل شىء فيها محاط بغلالة رفيعة من المطر نتسلل إلى كنيسة "نوتردام"، نتأمل المصلين يضيئون القناديل، ويضعون النقود فى صندوق النذور، والسياح يلتقطون الصور ثم نجتاز الكوبرى إلى مطعم صغير على ضفاف "السين".

هل دار الحديث حول مصر، والمعارك السياسية، والتنظيم السرى؟ ربما تطرقنا إليها، ولكنى متأكد أننا تحدثنا كثيرا عن جمال المبانى، والكبارى، والأغانى، والموسيقا، عن الطعام والنبيذ، والشيكولاته، و"الأيس كريم" عن كل الأشياء التافهة، الصغيرة التى ظننت أننى نسيتها منذ سنين فإذا بها تنطلق.

أكلنا وشربنا. انصرف الرواد الآخرون وبقينا كأن أى حركة نؤتيها قد تُبدد هذه اللحظات الساحرة. قمنا ودلفنا من الباب الصغير. القمر فى السماء سائر وأقدامنا تنقلنا إلى ربوة عالية ترقد فوقها كنيسة "نوتردام" كالحمامة البيضاء فوق عشها. أمام الكنيسة مساحة خالية كبيرة، وحديقة مدرجة صغيرة تصعد إليها السلالم الحجرية. صعدنا مع الصاعدين، مع عشاق الليل يقفون عند الدرابزين، ويتأملون المدينة تتلألأ اضواؤها بلا نهاية ، أو يضيعون فى العناق. الكنيسة تطل عليهم كأنها تباركهم، والقمر يتأملهم كالشيطان البرىء يمد أصابعه الفضية نحوهم، يعبئ الكون بالوعود، بالضوء، يحافظ على سحر الليل، على هذا العشق الصوفى للوجود.

قبلتها فقبلتنى. العناق بيننا يطول. أفقنا لمجموعة من العواجيز بائعات الزهور ترقصن حولنا وتغنين. قدمن لنا باقتين من البنفسج، والياسمين. عندما حاولت أن أدفع لهن نقودا جرين بعيدا عنا وهبطن على السلالم وهن تلوحن لنا بأيديهن وتضحكن، وبعد قليل تبددت أصواتهن المرحة فى الليل.

حملنا الحب كالزورق يحمله الفيضان الجارف. قادتنا خطواته إلى فندق "بلازا أثينيه". لم تقل هى "تعال معى" ولم أقل "أنا أريد"... وجدنا أنفسنا فى المصعد يرتفع بنا.دخلنا إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءنا. جلست على المقعد وجلست هى على السرير. المصباح إلى جوارها ضوءه ضعيف. لا أرى شيئا سوى يديها وطبقا من الكريز. الصمت يخيم على المبنى الكبير. أسمع خرير المياه تسقط من صنبور بعيد. خلعت حذاءها ورقدت على السرير. شىء كالشلل استولى علينا، الخوف الغريزى من الإثم والرغبة الطاغية فيه. قمت من مقعدى وجلست إلى جوارها. ملت عليها وقبلتها فتعثرت شفتى وهى تبحث عن شفتيها ثم اهتدت إليهما طريتان ساخنتان. أسمع أنفاسها تدعونى إليها همست "تعال إلى جوارى." أخلع معطف المطر، والحذاء فترفع الغطاء وتدخلنى إلى جوارها فى السرير. أشعر بساقها، بدفئه يصل إلى. يدى تمتد إلى وجهها ثم تهبط إلى عنقها وصدرها. أرفع السترة الصوفية المغلقة، والقميص عن الجزء الأعلى من جسمها. يدى تصطدم بالمشدات الرافعة فتفكها بأصابعها من خلف ظهرها. كفى يمتلئ بدوران ثديها. أستنشق رائحة جسمها. أشهق من الرغبة الصاعدة استولت على. قامت جالسة. تخلصت من ثيابها فغدت عارية. أصبحت دنياى لا أرى ولا أحس إلا بها. لا أعرف كيف التصقت بها، ولا كيف أصبحنا جسما واحدًا ثم احتوانى قوامها. لذت به ضائعا فى رغبة لا تحتمل، فى حركة جسمها، وأمواجه الصاعدة، فى اللذة البطيئة نتلاشى فيها قبل أن أسمع أنفاسها وأنفاسى من جديد وأعود بالتدريج إلى جسمى دون غطاء وإلى جسمها يرقد عاريا.

جاءت إلى المدينة باحثة عن الحب وكنت أنا فيها أنتظر. قال كل منا للآخر أحبك ولن نفترق. من أجلك سأغير كل شىء، سأنسى ما كنته قبل أن تجىء، ثم عادت إلى مصر.

صارحت زوجها بكل ما حدث. قالت أنها تحبنى وأننا قررنا أن نرتبط. كان زوجها متعلقا بها لم يرد أن يتخلى عنها رغم مكاشفتها له بما جرى. استخدم تعلقها بطفليها لكى تخضع له. اتفقا على فترة انفصال دون طلاق، هدنة تتيح لكل منهما أن يراجع نفسه. تلقيت منها رسالة واحدة تشرح فيها القرار الذى اتفقا عليه فصرت أتقلب بين اليأس والأمل. حاولت أن أستغرق فى أعمال الحزب، وفى الأنشطة الثقافية التى تتيحها المدينة. بدت لى الحياة بلا طعم. فى لحظات أفيق، أعود إلى حالتى الطبيعية، أستمتع برحلة، أو مسرحية أو فيلم. أقضى ساعات طويلة فى المكتبة، أقرأ ما يقع تحت يدى من كتب. أحلم بالعودة إلى مصر، بوجهها ألمحه وسط الزحام ينتظرنى على رصيف المحطة أو فى الميناء ساعة هبوطى من الباخرة.

طاردتنى فتاة فرنسية تدرس فى المسرح لكنى ظللت منصرفا عنها أكاد لا أرى وجودها. أتذكر عينيها واسعتين بنيتى اللون فيهما حزن ولكن "ديدار" كانت كالطيف يمر بينى وبينها ويبدد وجودها. عرفت طريقى لأول مرة إلى حى "بيجال"، حى بائعات الهوى. التقيت بامرأة شعرها فى لون النحاس الأحمر وبشرتها خمرية داكنة. نشرب النبيذ فى مقصف صغير يضج بزحام الناس. ترتاح إلى وأنا كذلك أرتاح إليها. أقول لها إننى طالب فى كلية الآداب وأحكى لها عن مصر. تقول لى أنا أكره الرجال بهم رغبة فى الإيذاء وغباء. أحب أن أسمعك لكن عندى شغل وإذا رآنى حبيبى (أى القواد) أتحدث معك ستكون الكارثة. نصعد إلى الفندق المطل على السوق تمارس معى الجنس وهى صامتة. تحتضننى ثم تقودنى برفق لأتوغل فى أسرارها. تتركنى هادئا مفرغا من الضيق. أذهب إليها كل شهر بعد المرة الثانية عندما هممت بالدفع رفضت قالت لا: "لن آخذ منك".

أهبط من الفندق فى الفجر. أجتاز السوق مارا أمام أكوام البرتقال والطماطم والكرات والفجل فيها ألوان الحياة وخصوبة الأرض، أمام البيض واللبن والزيد، والسمك يرقد صفوفا فوق الثلج، أمام أياد وأكتاف تحمل الصناديق أو ترفع قطع اللحم وتعلقها.

جسمى خفيف وقلبى تخلص من ثقله كأن الجنس بهذه الطريقة بسيط وسهل غير مطلوب منى أن أثبت به شيئا لنفسى أو لغيرى، ولا أن تبدو شخصيتى غير ما هى عليه، فأنا هنا مع امرأة لا أعرفها أستطيع أن أعيش الشهوة واللذة دون تعقيدات الحب.

لا أعرف ما الذى جعلنى أنضم إلى المظاهرة فى ذلك اليوم. ربما الحياة بعيدا عن مطاردات البوليس جعلتنى أفقد الحرص. كنت واقفا وسط الزحام أشاهد الموكب وهو يمر أمامى حاملا اللافتات والأعلام وصورا كبيرة لـ"مصالى الحاج" القائد الرسمى للحركة الوطنية فى الجزائر أثناء تلك الفترة من تاريخها، رجل أسمر ملتح يرتدى برنسا أبيض وعمامة يطل من تحتها أنفه البارز، وعيناه السوداوان. كان زعيما إصلاحيا يطالب بالحكم الذاتى فى إطار النظام الاستعمارى الاستيطانى الذى فرضته فرنسا على الجزائر.

هبطت من الرصيف وتسللت خلال الصفوف المتراصة إلى قلب المظاهرة. ربما دفعتنى رغبة الاندماج فى حرارة الأجسام والوجوه العربية المحاطة من الجانبين ومن الأمام والخلف بجماهير من العمال والمثقفين والمهنيين والكتاب الفرنسيين جاءوا تلبية لدعوة التنظيمات الشعبية التى أرادت أن تعبر عن تضامنها مع شعب الجزائر.

كان اليوم يوما باردا. السحب تغطى السماء وتنذر بهطول المطر، واللافتات ترفرف فى الريح، والأيدى ترتدى القفازات. تقدمت مع المظاهرة ربما كيلو مترا أو أكثر ثم تركتها ووقفت على ناصية شارع "سان مارتن" باحثا عن فجوة وسط الزحام أتسلل منها إلى دار الكتب الفرنسية قبل موعد الإغلاق. اقترب منى رجلان أحدهما يرتدى معطفا للمطر لونه أزرق باهت تركه مفتوحا كاشفا عن بطنه المنتفخة وعن رباط للعنق يتدلى أسفل الياقة فى إهمال. عيناه تنظران إلى بتلك النظرة الساقعة اللامبالية التى تميز من تعودوا ممارسة القسوة. أما الرجل الذى كان يصاحبه فقد اختفى من مخيلتى كأنه لم يكن له وجود، أو كان مجرد شبح جاء لحظة ثم تلاشى، أو الأول هو الذى خاطبنى بكلمة نطقها كأنه يختصرها إلى حجرة صغيرة يلفظها من بين شفتيه.

" بوليس".

أخرج من جيب معطفه شارة يحملها رجال البوليس السرى الفرنسى كإثبات فغاص قلبى.

قال:

" اعطنى أوراقك."

قلت:

" ليس عندى أوراق".

قال:

" ميرد"[1].

أمسكنى من إحدى ذراعى وجذبنى بقوة حتى أسير معه إلى السيارة التى كانت منتظرة على مقربة. انطلقت مسرعة فى شوارع جانبية. لم يدر بيننا حديث ولم أنتبه إلى الطريق الذى اجتزناه. كنت مستغرقا فى الكارثة التى وقعت لى ولم أفق إلا عندما وصلنا إلى مقر البوليس، أو المحافظة لا أدرى. اختفى الرجلان الأولان لأجد نفسى مع رجلين آخرين. أحدهما يرتدى ملابس الشرطة الرسمية، والثانى الملابس المدنية، فأدركت أنه من إدارة "السيرتيه" أى الأمن.

(١) كلمة فرنسية سوقية تعنى «خراء».

جلس رجل البوليس خلف منضدة وضعت عليها آلة كاتبه. وجهه المربع الكبير له شارب يشبه فرشاة للأسنان تلمع فى ضوء المصباح الأبيض يتدلى من السقف. خلع سترته ووضعها حول ظهر المقعد. جسمه تحت القميص الأزرق الفاتح عريض، بارز العضلات. ربما حالتى النفسية أوحت إلى أنه صاحب قوة خارقة يستطيع أن يفعصنى بضربة واحدة من يده الكبيرة. بدت الآلة الكاتبة التى جلس أمامها مثل لعبة صغيرة بين يدى عملاق.

أخذ يسألنى ويدق عليها بأصابع متضخمة تشبه المنبار أو السجق.

"اسمك، جنسيتك، عملك، من أين جئت؟ كيف دخلت الأراضى الفرنسية دون أوراق؟"

أجبت دون أن أكشف ما أريد أن أخبئه من تفاصيل الرحلة من "بور سعيد "إلى"مارسيليا"، أو عن سكنى، أو الذين أعرفهم فى فرنسا. أوضحت له أننى لاجئ سياسى هارب من حكم بالأشغال الشاقة صدر على فى مصر فاقترب منى الرجل الذى كان يرتدى الملابس المدنية ويقف عن بعد. مال على وقال:

" أنصحك ألا تخفى عنا شيئا، فلنا وسائلنا فى الوصول إلى المعلومات التى نريد الوصول إليها."

التفت إليه وقلت:

" وأنا أنصحك ألا تستخدم معى أية وسائل غير قانونية. فأنا أعرفها جيدا وجربت معى كثيرا من قبل. لن تصل عن طريقها إلى شىء".

كنت أتحدث بهدوء. أصبحت فى وضع تعودته وما يدور الآن ليس غريبا على. ربما يحدث جديد لا أعرفه، لكنه لن يختلف كثيرا عما تعودته. امتقع وجه الرجل، ونظر إلى بحنق. فى لحظة أحسست أنه سيهوى على رأسى، أو وجهى بكفه. ظل يحملق فى لحظة طويلة فلما وجدنى أبادله النظرات دون أن يبدو على الاضطراب التفت إلى رجل البوليس الذى كان يستجوبنى وقال له:

أكمل إجراءاتك معه." ثم استدار وخرج من الحجرة ضاربا الباب وراءه.

فى تلك الأمسية وجدت نفسى جالسا فى سيارة بوليس كالقفص المغلق الذى لا أرى منه شيئا. فى لحظة انحرفت بسرعة إلى ناحية، ثم أبطأت قبل أن تتوقف دون أن يبطل محركها. سمعت أصواتا وفتح الباب من الخلف. زعق صوت قائلا "اهبط" فهبطت لأجد نفسى فى حوش محاط بالمبانى. ساروا بى مسافة. دخلنا من باب حديدى واجتزنا عدة ممرات، وأبواب أغلقت كلها خلفنا بعد أن مررنا منها. صعدنا السلالم إلى عنبر يشبه العنابر التى عرفتها. توقفنا أمام باب سميك من الخشب مبطن بلوح من الصاج أدخل فيه أحد الحراس مفتاحا كبيرا وفتحه. لم يصرخ المفتاح كما كانت تصرخ مفاتيح السجون فى مصر.

عندما دخلت وجدت فى الحجرة، رجلين. فحصتهما بسرعة قبل أن يلتفتا إلى. أحدهما فى مقتبل العمر، والآخر شاب. كانا يجلسان على سريرين فى مواجهة بعضهما، وبينهما صندوق من الخشب يلعبان فوقه "بالكارت". حملق فيهما الحارس الذى أدخلنى وبدا كأنما يريد أن يقول شيئا لكنه دار بنظرة سريعة من عينيه حول الزنزانة ثم انسحب منها مغلقا الباب وراءه بضغطة سريعة رنت فى الصمت.

عادا السجينان يلعبان الكارت، وجلست أنا على السرير الثالث أتأملهما.

"لا سانتيه" "أى الصحة" كان هذا هواسم السجن الذى أودعت فيه على بعد آلاف الكيلو مترات من موطنى، ومن أهلى، وأصدقائى المقربين إلى. وسجن "لاسانتيه" كان مخصصا لعتاة المجرمين الذين صدرت عليهم أحكام وللسجناء الاحتياطين الذين لم يقدموا بعد للمحاكمة.

كان زميلاى فى الزنزانة من الجزائريين الذين نزحوا إلى فرنسا وعاشا حياتهما متنقلين بين ربوعها إلى أن أستقرا فى باريس. والجزائريون فى فرنسا يطلق عليه وصف "آراب" "أى عرب" هذا الوصف يحمل فى ثناياه معنى التحقير. لذلك كانت السلطات تضعهم فى قسم مستقل من السجن، كما كانوا يعالجون، ويأكلون ويتريضون، ويستحمون بعيدا عن السجناء الأوربيين كلما سمحت إمكانيات السجن بذلك، وهذا أيا كانت التهمة الموجهة إليهم أو التى حوكموا من أجلها.

مكثت فى سجن "لا سانتيه" مدة شهر ونصف. من بعض الوجوه كان أفضل من السجون التى عرفتها فى مصر، من حيث الطعام، وفراش النوم، ووجود مرحاض أفرنجى فى الزنزانة، وحوض لغسيل اليدين والوجه، وإمكانية استعارة الكتب من مكتبة السجن، ولكن ما عدا هذا كان النظام يخضع لقواعد أكثر صرامة وكان الإفلات منها صعب، كما كانت مختلف أنواع الإهانة، والعقاب، والتعذيب شائعة، تمارس على الأخص مع "العرب".

كنا نتريض يوميا لمدة نصف ساعة ولكن فى قفص من الحديد مثل قفص الأسد فى حديقة الحيوانات وكنا نستحم أفواجا تحت الدش كقطيع من الغنم يسوقونهم عرايا إلى حمام ضخم تتدلى فيه الأدشاش من السقف. لا سبيل إلى فتح باب الحجرة التى نقبع فيها طوال النهار والليل، أو السير فى العنبر، والتنفس خارجها لحظات، أو الحديث مع جار.

لحسن الحظ، أو سوء الحظ لم أكن وحدى. كان معى فى الزنزانة هذان النزيلان الجزائريان. الأكبر منهما سنا كان من منطقة "البربر" أبيض، البشرة، أحمر الخدين، شعره الأكرث لونه أشقر محمر كأنه صبغة بقليل من الحناء. عيناه كعينى القط صفراوان فيهما شظايا داكنة، ساكنة مثل رءوس الدبابيس. فى فمه ثلاثة أسنان ذهبية تضفى على ابتسامته شيئا يوحى بالفجر. كان قوادا يقتات من أجساد النساء ويستثمرها. المرأة التى تتبعه لا تستطيع أن تعصى له أمرا فهو يكاد يملكها. كل أسبوع تسلم له ما حصلت عليه من نقود ويترك

لها الجزء الذى يحدده وفقا للعرف. إذا حاولت أن تغشه أو تفلت منه، أو تنتقل من حى إلى حى، أو من سكن إلى سكن، أو من النطاق الذى تمارس فيه نشاطها دون اتفاق معه أو إذن منه يعاقبها بالضرب، أو بطعنة سكين أو بقص شعرها أو بإلقاء ماء النار عليها، أو حتى بقتلها. وإذا دخل السجن تواليه بالنقود، وطرود الأكل، والملابس والأدوية التى يحتاج إليها، والإ فالويل لها عندما يخرج من السجن. يكفى أن يرفع عنها حمايته لتصبح عرضة للاعتداء عليها من عصابات القوادين ومن رجال البوليس، فللقوادين تنظيماتهم و"مافياتهم" القوية التى تستأجر الذمم من بين رجال البوليس والقضاء والمحامين، والأطباء. وهى تنظيمات لها علاقات برجال السياسة، والحكم يعرضون عليهم خدماتهم للتخلص من الخصوم أو فى الانتخابات العامة والمحلية. عناصرها من الرجال والنساء يتسللون إلى مختلف المجالات، يديرون ألعاب القمار، ويتاجرون فى السلاح، والمخدرات، ويوظفون الأموال فى البنوك والشركات، ويضاربون فى الأسواق، ويقومون بالاغتيالات مقابل أجر، أو بهدف تصفية من يقف ضدهم. لهم علاقات ببعض الجهات الدينية المحافظة، والمتطرفة فى الكنيسة الكاثوليكية أو فى غيرها من الملل المسيحية أو ببعض التيارات والجهات اليهودية والإسلامية.

كان هذا الرجل قوادا لعدد من النساء يطلق عليهن وصف عشيقاته لأنه يمارس معهن الجنس، ويتنقل بينهن، ويستغل المنافسة بينهن حتى يخضعهن له تماما. منذ البداية أخذ يعاملنى بروح من العداء. سألنى عن السبب الذى من أجله سجنت، فلما شرحت له وضعى ظن أننى أخفى عنه الحقيقة وأدعى لنفسى وضعا متميزا. فأنا لست مجرما وإنما سياسى، ومهنتى الطب. ولكن إذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا وضعونى مع المجرمين العاديين من العرب؟ هكذا كان يتساءل بينه وبين نفسه دون أن يفصح عما يدور فى ذهنه وهذا الشك كان يضايقه. تعود السيطرة على الذين يحيطون به، ولا يريد أن يتنازل عنها. كان فيه ذكاء من ذلك النوع المحدود الذى يشبه ذكاء الحيوان فى الغابة. يعرف كيف يحمى نفسه ويعتدى إذا لزم الأمر، وينشر الرعب بين من هم أضعف منه، ولكن إذا أخرجته عن مجاله يصبح كالأعمى يبطش دون أن يعى نتائج البطش.

أدركت أنه قواد صغير يدعى لنفسه مرتبة عالية فى السلك الذى ينتمى إليه. ارتكب جريمة قتل بشعة راحت ضحيتها امرأة عجوز مثل بها لسبب لم أعرفه، واستولى على مصاغها ونقودها ومثل هذه الجرائم تسمى فى القانون الفرنسى "قتلا قذرا" "ميرتركرابيوليه" وعقوبتها الإعدام، وكان يخشى أن تثبت هذه الجريمة عليه.

ثالثنا فى الزنزانة كان أصغرنا سنا. تخصص فى سرقة محافظ الناس عندما يصعدون إلى الأتوبيس، أو يهبطون منه. كان يقوم على خدمة الرجل القواد كما يحدث كثيرا فى السجن. يعد له طعامه، وينظف الزنزانة، ويرتب له فراشه، وأحيانا يغسل له بعض الملابس، فالأغنى والأقوى

هو الذى يسيطر وخصوصا فى السجن. أرادا أن يدخلاننى فى هذه الدائرة حتى لا أتميز فى شىء. وكان لكل واحد منهما غرضه من ذلك، وربما منها مسائل تتعلق بالجنس.

هكذا أخذ الرجل القواد يضغط على بمختلف الوسائل حتى يخضعنى للنظام الذى سارا عليه. لم يصرح لى بشىء وإنما اتبع معى أسلوبا ملتويا هدفه أن أعترف به كسيد، أن أطيع أوامره، وأفعل ما يطلبه. أدركت أن استفحال العداوة بيننا فيها خطر على فهو رجل فيه قسوة الجرم الذى تعود عليه، وحمق. صار ينغص على حياتى بوسائل ملتوية. يلقى بطعامى فى جردل الفضلات مدعيا أنه حامض وأن رائحته وصلت إليه، أو يسلط صبيه ليزيح ملابسى المغسولة من على الحبل لأنها تسد الطريق، فتقع على الأرض، أو يوقظنى فى قلب الليل مدعيا أن شخيرى يزعجه أو يقلب فراشى لأنه سمع صوت فأر يقرض فى العامود، أو يخفى الصابون الذى أعددته ليوم الاستحمام.

ظل يأتى هو وصبيه أفعالا صغيرة، ومقلقة من هذا النوع. فكرت فى أن أقدم شكوى إلى الإدارة ولكنى أدركت أن هذا لن يجلب لى سوى مزيدا من المتاعب فهناك قاعدة صلبة، صامتة فى السجن. من يشكو غيره من المسجونين إلى الإدارة ينظر إليه على أنه عميل لها، أو جاسوس يجب أن يحتقر وأن يخضع لمختلف أنواع الإهانة من الجميع فينال منه النزلاء وهو سائر فى الطرقة، أو تحت الدش، أو وهو يهبط على السلالم، أو وهو منتظر فى طابور العيادة. "يشنكلوه" أو يصطدمون به بطريقة تبدو عفوية وغير مقصودة. يعانى جحيما يوميا لا يفلت منه، والمجرمون بالطبع، مدربون على الإيذاء، وعلى ممارسة العنف دون رحمة مع من هم أضعف منهم، وحراس السجن يساعدونهم على تنفيذ هذا القانون الصارم، ويتجاهلون ما يحدث وكأنهم لا يلاحظون شيئا ما عدا إذا تعلق الأمر بجاسوس حقيقى. فى هذه الحالة يحاولون حمايته، ولكن دون جدوى فى أغلب الوقت.

تحاملت على نفسى، وصمت. تفاديت معركة أعرف أننى الخاسر فيها دون شك. المهم عندى هو أن أقضى المدة المتبقية لى فى السجن وأن أخرج لمواجهة الوضع الجديد الذى ينتظرنى، لكن الرجل صار يصعد استفزازاته كأنه يريد أن يوقعنى فى فخ، وفى إحدى الأمسيات اصطنع معركة على كوب من الصاج وقع على الأرض وفجأة سحب على سكينا طويلا لا أعرف من أين أخرجه، له طرف مدبب يشبه الخنجر. هجم علىّ فتقهقرت إلى أن التصق ظهرى بالجدار. أحسست بركبتى ترتجفان من تحتى ولكنى تمالكت على نفسى بتلك القدرية التى جاءتنى من توالى التجارب التى مررت بها. قلت له بصوت بدا لى وكأنه صوت شخص آخر.

"أنت رجل غبى. إذا اعتديت على ستضيف إلى نفسك جريمة جديدة فى السجن وأنت تعرف مصيرك إذا فعلت هذا. أنا لا أخاف منك فافعل ما تريد."

ظللت ساكنا حيث أنا أنظر إليه، للحظة أحسست أنه سيطعننى لا شك. غاص قلبى وانتابتنى رعشة فى البطن. رأيت وجهه أبيض كالموت. يده الممسكة بالسكين تحركت حركة بسيطة نحوى كأنه يستعد. أصابعه حول المقبض بيضاء كالوجه وفى عينيه غضب أحمر كأن الدماء تسربت إليهما. وقفنا جامدين نواجه بعضنا ثم أنزل يده واستدار. سار حتى سريره وجلس عليه. أشعل سيجارة وأخذ ينفث منها سحبا من الدخان.

منذ ذلك اليوم تركنى فى حالى وبالتدريج أخذ يتودد إلى كأنه يريد أن يمسح ما فات. صار يتحدث إلى عن نفسه ويعرض على الخطابات التى تصل إليه من عشيقاته. عندما يسلمونه الخطاب عند باب الزنزانة يشرق وجهه، ويزول عنه الهم الذى كثيرا ما يعانى منه. يقول لى اقرأ". الخطابات كلها لا تخرج عن بضع كلمات "أحبك يا حبيبى وأنتظرك بفارغ الصبر. كل شىء على ما يرام. أرسلت لك بحوالة وبعض المأكولات التى تحبها. أشتاق إليك وأكاد أجن من غيابك قبلاتى وأحضانى" وفى نهاية الورقة السماوية أو الوردية اللون قبلة مطبوعة بالشفتين حمراء كالدم.

فى يوم من الأيام ونحن نتحدث توقف فجأة ونظر إلى نظرة جدية ثابتة ثم قال "أتعرف أخطأت فى حقك، ولم أقدرك حق قدرك. أنت رجل شاطر، ولو عملت قوادا ستنجح نجاحا باهرا".

شكرته على ثقته بى. وقلت:

"كل المهن فيها خدمة للناس. لكنى أفضل ولو مؤقتا مهنة الطب".

ابتسم ابتسامة راضية.

"على كل حال فكر فى الأمر. هه ما رأيك؟ أتلاعبنى دور كونكان"؟

"لا بأس. تعلمت هذه اللعبة من أبى".

نظر إلى كأن احترامه لى زاد لأنه اكتشف فى ميزة جديدة.

فى تلك الليلة نام وهو فى قمة السعادة. انتصر على انتصارا ساحقا فى اللعب، فصار يشع كرما، وتعاطفا معى. أدركت أن أحد أسباب ضيقه منى هو إحساسه بأننى متباعد، وأننى لا أعطيه فرصة لكى يتحكم فى، أو ينال منى شيئا. تعود أن يتحكم فى من هم أضعف منه فهو بين مومساته كالديك يفعل بهن كل ما يريده لأن مصيرهن بين يديه.

فى تلك الأيام كنت قد تعرفت على محام شاب، اسمه "أمبلار" فكتبت إليه من السجن أشرح له المأزق الذى وقعت فيه.

بعد أن مر أسبوع أو أكثر بقليل زارنى فى السجن، ثم أصبح يزورنى كل أسبوع. تطوع للدفاع عنى ورفض أن يتقاضى أى أجر عن هذا الدفاع. ولكن كما توقعت أصدرت على

المحكمة حكما بالحبس، ورفضت أن تمنحنى حق اللجوء السياسى، رغم الأدلة التى قدمتها إليها والتى تثبت أنه حكم على فى قضية رأى، ورغم إقرار الدستور الفرنسى والقانون بهذا الحق لأمثالى. أمرتنى بترك الأراضى الفرنسية بعد مدة لا تتجاوز ثلاثة أسابيع وإلا أعيد القبض على مرة ثانية.

قضيت شهرا ونصف فى الحبس. يوم الإفراج عنى وجدت المحامى "امبلار" ينتظرنى فى مكتب السجن. أخذنى معه إلى بيته قائلا: "هذا هو بيتك إلى أن تقرر ماذا ستفعل". أراه وهو يتبادل معى الحديث أمام باب السجن قبل أن نستقل سيارة للأجرة كانت تنتظرنا. كان شابا نحيل الوجه، عظام أنفه وخديه وفكه بارزة تحت الجلد، ينطق الكلمات ببطء ويدور بلسانه حولها قبل أن يطلقها من بين شفتيه. عيناه ناعستان، فيهما لمعة متسائلة تروح وتجيء كأنه مصاب بحمى خفية. يتأرجح بين اليقين فيما أهتدى إليه، والشك فيه. تحت بشرته تجرى دماء الخجل يعالجه أحيانا قبل الذهاب إلى المحكمة بكأسين من الخمر.

كان متزوجا وأبا لبنتين. يسكن فى شقة متواضعة فى الحى الثالث عشر من باريس، حى البورجوازية الصغيرة فى ذلك الوقت. بعد أسبوع من مغادرتى السجن دق جرس التليفون فى بيته. كان الوقت قرب الظهر، وكنت ألاعب ابنته الكبيرة، عمرها لا يزيد عن ثلاث سنوات ونصف. ألقى إليها بحلقة من المطاط فتتلقفها وتلقى بها إلى. أتركها تفلت منى فتومض أسنانها الصغيرة، وتكركر بالضحك. لم ألتفت إلى رنينه، ولكن أمها "بادى" مدت إلى يدها بالسماعة وقالت:

"مكالمة لك".

قمت من جلستى. فى البداية لم ألتقط الكلمات التى اجتازت الأسلاك إلى ثم جاءنى صوت امرأة واضحا وهو تقول:

"أنا "ديدار" كيف حالك يا شريف"؟

سمعتها تضحك، ضحكة فيها شقاوة تلميذة هربت من المدرسة قافزة فوق السور. ارتبكت وتوقفت الكلمات فى حلقى. سألت:

"أين أنت"؟

"هنا فى "باريس". أتحدث إليك من مقهى فى "سان جيرمان".

شعرت بقلبى ينتفخ، بفرحة تستولى على وترفعنى إلى السماء لأطل من عليائى دون أن أعرف إلى أين ستحملنى.

"أكاد لا أصدق. متى نلتقى"؟

"عندى موعد" ....

"موعد!؟ أريد أن أراك الآن.."

"أعطنى فرصة. عندى لقاء سيستغرق نصف ساعة بعد ذلك ستجدنى منتظرة فى "مقهى لوكسمبرج". وحشتنى".

سمعت الخط يغلق. ظللت ممسكا بالسماعة فى يدى ثم تنبهت فأعدتها إلى مكانها.

البنت الصغيرة ظلت صامته كأنها أحست بأن شيئا يحدث يجب ألا تقحم نفسها فيه. ثم قالت:

"العب معى... العب معى يا شغيف."

التفت إليها.

"لا ليس الآن يا صغيرتى.. ليس الآن". وبحثت عن حذائى بأصابع أخطأت مكانه قبل أن تهتدى إليه.

مرت الأيام فى سباق جنونى فلم أشعر بها. ثلاثة أسابيع كانت كاللحظة الخاطفة فى العمر. أغلقت عينى وفتحتهما لأجد نفسى فى قطار. المقصورة ليس فيها غيرى أنا وامرأة جالسة إلى جوار النافذة. شعرها خطه الشيب، والتجاعيد زحفت حول الفم. لا شىء يلفت النظر إليها سوى الحزن يتسلل إلى ملامحها، ويتخلل خطوط جسمها كالغصن بدأ ينوء بالحمل. لا أرى عينيها. تقرأ فى كتاب أو تحملق من النافذة كأنها تتفادى لقاء عينى.

قبل الرحيل أرسلت خطابا بالحبر السرى إلى زملائى فى مصر. شرحت لهم الوضع، وأبلغتهم برغبتى فى العودة إلى مصر. استولت حركة الضباط الأحرار على الحكم يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وأنا فى السجن، والمستقبل أصبح مفعما بالاحتمالات فلماذا أظل بعيدا عن الوطن فى هذا الوقت؟ زارنى قنصل مصر فى "باريس" رجل اسمه "الهنداوى" طويل كجذع النخل، أسمر البشرة، أصلع تحت القبعة التى خلعها. عندما جلس أمامى لمعت صلعته تحت المصباح الأبيض يتدلى من السقف. ظل يرمقنى أغلب الوقت فى صمت. عيناه صغيرتان والجفون ليس فيهم رمش. يشبه حانوتى ذهبت إليه أمام مستشفى القصر العينى بمناسبة وفاة ابنة عمتى، ماتت صغيرة بمرض فى صمامات القلب. تصورته وهو يرتدى الجبة، والقفطان وعمة صغيرة اتسخت أطرافها.

حاول أن يقنعنى بتسليم نفسى إلى السلطات المصرية لتقوم بترحيلى إلى مصر فربما صدر عن أمثالى من مسجونى الرأى قرار بالعفو، وإن لم يصدر فإن الحكم الحضورى سيكون أخف من ذلك الذى صدر على غيابيا بعد أن هربت لكنى رفضت فقام على الفور كأنه أدى واجبا

وانتهى الأمر. لم يسألنى عن ظروفى فى السجن، إن كنت أعانى من شىء أو أحتاج إلى المساعدة فى ترتيب الدفاع القانونى عن نفسى أمام القضاء، أو الاتصال بأهلى حتى يطمئنوا على. أحسست فى نظرة عينيه بالكراهية، والحقد وفيما بعد دون أن أدرى عبرت عن كراهيتى له فى رواية "الشبكة" صدرت بعد هذا الحادث بثلاثين سنة. فيها شخصية اسمها "متولى خير الدين" رئيس لجنة تشغيل المعتقلين الذى وصفته بأنه رجل أملس كالبرص، وتنبهت وأنا أكتب من أين جاءتنى هذه الصورة، وكيف انبعث من داخلى هذا الشخص بعد أن دفن فى النسيان لمدة ثلث قرن.

مر بعض الوقت وجاءنى رد من قيادة التنظيم فى مصر ينصحنى بعدم العودة فى هذا الوقت، فهى لا تستطيع أن تدبر عودتى، أو أن تستقبلنى عندما أصل إلى أرض الوطن. جملة مختصرة جاءت وسط كلام كثير عن أمور أخرى، دون شرح، تلتها جملة تطالبنى بتأجيل هذه الخطوة.

أصبت بخيبة أمل شديدة. بدا لى أن هذه المسألة عولجت دون بذل أى جهد، أن هناك استسهال وعدم اهتمام، أن أمرى لا يهمهم فى شىء. أصبحت فى مأزق، فأنا مهدد بالسجن من جديد، أو الطرد، وإذا طردت أين يمكننى أن أذهب وأنا أنتمى إلى تنظيم لم تعترف به الأحزاب الشيوعية الأخرى وفقا للنظام الذى كان متبعا فى العلاقات الدولية القائمة بينها إذ ذاك. سأكون مجرد لاجئ يعانى الهوان. جربت من قبل موقف الحزب الشيوعى الفرنسى منا، وأنا لا أريد أن أخضع لتحكم أناس لا يعرفوننى ولا أعرفهم. فى بلدى على الأقل لست جاهلا بالوضع، أعرف الكثير من مسالكه، وأستطيع أن أدافع عن نفسى مهما عانيت. سأكون وسط زملائى والناس الذين أعرفهم.

قررت بينى وبين نفسى أن أنفذ ما اقتنعت به. نصحنى "يونس"[1] بالبقاء فى فرنسا ولكنه لم يتناقش معى حول الوسائل التى يمكن بها ترتيب وضعى وحياتى بعد حكم الطرد. لم أشعر أنه مهتم، وكأن المسألة عادية لا تستحق أن ينشغل بها. قال لى إذا قررت البقاء يمكن أن نبحث الأمور والترتيبات اللازمة لتنفيذه. لم يقل لى كيف ولم يدخل فى التفصيلات رغم أهمية هذا الموضوع بالنسبة إلى، فالمسألة ليست البقاء فحسب، ولكن نوع الحياة التى سأواجهها. ربما لم نكن تعودنا إعطاء الأهمية لحياة الفرد، أو لم أكن أنا أمثل بالنسبة إليه عنصرا قريبا منه فعندما أبلغته أننى مصر على العودة نظر إلى بهدوء وقال أنت صاحب الشأن ولم يزد عن ذلك. القادة السياسيون يرتاحون إلى الحواريين المقربين إليهم والذين يقدمون لهم ولاءً شخصيا لا يهتز وأنا كنت معجبا به، ومتعاونا معه ولكنى صاحب شخصية مستقلة ربما لم تتبلور بعد، ولكن براعمها كانت تطل.

(١) هنرى كورييل مسئول المجموعة فى فرنسا وعضوا اللجنة المركزية.

لم آخذ كلام "يونس" مأخذ الجد. ذهنى متأجج مشغول بفكرة العودة إلى مصر، بالخيال الخصب والتحدى أضيف إليها عنصرا جديدا هو الحب، فـ"ديدار" إلى جوارى جاءت لتساعدنى عندما علمت أننى أصبحت فى السجن. إذن لا شىء مستحيل. يقين راسخ فى أعماقى بأن ما قررته هو "الصح" لا أعرف المنبع الذى صعد منه. فى كل مرة أتخذ فيها قرارا حاسما بالانتقال من وضع لا أرضى عنه يجيئنى هذا الشعور بأن كل شىء سهل، بأنه لا يوجد ما يحول دون أن أنفذه، أننى قادر على تذليل العقبات الواحدة بعد الأخرى، كأنها وأنا أفكر فيها تتلاشى من تلقاء نفسها أو تضمحل.

أدركت أننى لن أستطيع أن أكرر ما فعلته عندما رحلت من مصر. لابد أن يكون معى جواز سفر ولكن من أين أحصل عليه؟ من يستطيع أن يساعدنى فى الحصول عليه؟ ترى هل يكون أحد المقيمين فى فرنسا ممن أعرفهم، ولكن من؟ وجوههم تمر أمام عينى مرة ومرتين وثلاث وعشر مرات وفجأة تعلق وجه منهم بذهنى وأنا أصعد من جوف الأرض فى محطة لمترو الأنفاق اسمها "باربيس". حولى زحام الوجوه السمراء، لأهل الجزائر، والمغرب تجمعوا فى هذا الحى وسط مظاهر الاضطهاد العنصرى والفقر. قوى عاملة رخيصة للمصانع تبحث عن القوت لم تجده فى الوطن الأصل. نعم هو. وجهه أسمر وملامحه فيها مثلهم جمود وصمت. قليل الكلام، حنبلى الطبع رغم أنه ولد فى السهل ولكن علاقتى به سطحية. لم نلتق سوى مرتين أو ثلاث ولم يطل بيننا الحديث، مجرد دردشة عادية لم تصل إلى العمق. كلما فكرت أحسست بالأمل الذى اشتعل لحظة يتحول إلى قش ليصبح لا شىء. لكن ما الضرر إن عرضت الفكرة عليه، إن طلبت منه أن يعطينى جواز سفره المصرى لأسافر به بعد تغيير الصورة الملصقة عليه ثم عندما أصل إلى مصر أتخلص منه وأكتب إليه ليبلغ السفارة المصرية فى باريس بأنه فقد أو سرق منه. سيضطرون إلى إعطائه جوازا جديدا فهو مصرى وهو ليس فى بعثة حكومية تتيح لهم الضغط عليه، وليس ممن لهم "ملف". ألم ألجأ إلى "عزت عبد الغفور" لينقلنى بسيارته عندما هربت من مستشفى القصر العينى؟ إذا رفض لن يبلغ السلطات أو يفعل ما يؤدى إلى الإضرار بى فى شىء.

اتصلت به. تواعدنا على اللقاء فى مقهى "دى ماجو" فى شارع "سان جيرمان لى بريه"، المكان المفضل للقاءات "جان بول سارتر" وسيمون دى بوفوار" مع أصدقائهما من المثقفين. صديقى فنان يحب الحى اللاتينى، والثقافة الفرنسية كانت فى سنين ما بعد الحرب العالمية الثانية فى حالة ازدهار مثيرة للخيال دافعة إلى غزو آفاق وحفر مسالك جديدة. جو يوحى بالمخاطرة، بالأعمال العظيمة، ونبذ التفكير المحدود. كل شىء يبدو ممكنا والحياة منسوجة بألوان الغد.

عرضت عليه الفكرة ونحن نحتسى القهوة وكأسين صغيرين من كونياك "مارتيل". شحب وجهه الأسمر من تحت الجلد ومر بلسانه على شفتيه بحركة متوترة ثم نظر إلى بنظرة هادئة فيها جدية كأن الأمر ليس غريبا عليه.

"لا مانع. بعد يومين نلتقى هنا فى الساعة الخامسة مساء لأسلم الجواز إليك."

كان اسمه "عبد القادر التلمسانى". تخرج فى "الإيديك" "أى معهد الدولة للسينما فى فرنسا" وتخصص فى إخراج الأفلام التسجيلية. التقيت به فيما بعد فى مقر "مجلة الغد" سنة ١٩٧٧. جلسنا نتبادل أطراف الحديث فذكرته بالمساعدة التى قدمها إلى عندما كنا فى باريس. قلت له إننى لم أنس ما فعله من أجلى فى ذلك الوقت. كان تصرفا فيه جرأة وشهامة نادرتين. ظل صامتا لم يعلق بشىء كأنه اعتبر هذه المسألة عادية. اندهشت، كأنه لم يتغير فيه شىء رغم مرور السنين. أدركت أن "عبد القادر التلمسانى" إنسان فيه خجل متأصل وعميق مثل طبقة من الجبس تحول دون أن يعبر عن نفسه، وتذكرت فورات الغضب التى كانت تفلت منه تجعل وجهه يكسوه الاحمرار من تحت البشرة البرونزية اللون. أدركت أن فى أعماقه مشاعر بعيدة الغور تعود أن يكتمها طوال عمره فأصبح شخصا يصعب الاقتراب منه وفنانا أحب فنه ولكنه ظل ينحت فيه، كمن ينحت فى الصخر.

نزعت صورة "عبد القادر التلمسانى" من على جواز السفر ووضعت صورتى. كان معى ختمان من المطاط صبهما أحد أصدقائى صاحب مطبعة صغيرة، ختم الحكومة المصرية الذى سيطبع على الصورة، وختم آخر مكتوب عليه "دومو دو سالا".

جلست على المكتب فى الغرفة التى خصصها لى صديقى المحامى "امبلار" منهمكا فى إعداد الجواز الذى سأحمله. الليل من حولى صامت. سكان الشقة التى أقيم فيها، وسكان العمارة نائمين، وأنا وحدى ساهر يتصبب العرق من جبينى فأى خطأ أرتكبه يمكن أن يلفت النظر إلى التزوير الذى أقوم به. كان معى جواز آخر حتى أستطيع أن أضاهى بين التغييرات التى أقوم بها، وبين الشكل المعتاد لجواز السفر المصرى. بللت الختم الأول باللون البنفسجى فى الختامة التى احضرتها من المطبعة وضغطت به على صورتى بحيث ظهر نصف الدائرة عليها والنصف الأخر على الجزء الخالى من الصفحة ثم طبعت الاسم "دومودو سالا" بالختم الأخر الذى كان معى على صفحة خالية من الجواز.

كانت الجوازات إذ ذاك بدائية الصنع فيها عدم دقة وقدر كبير من الإهمال فى وضع الأختام، وحتى يبدو الجواز الذى أحمله طبيعيا بعثرت نقاط رفيعة من الحبر البنفسجى على الصورة وأنا أختم عليها وحرصت على أن يتخلل خطوط الختم قدر ضئيل من التشويش. كذلك فعلت مع ختم المغادرة الذى طبع عليه اسم "دو مو دو سالا" بالحروف الأفرنجية.

بعد أن أنهيت عملية التزوير تأملت النتيجة. أحسست بقلبى يغوص خلف ضلوعى. أمعقول أن يمر على رجال الجوازات ذلك الشكل الغريب للجواز الذى أحمله وكأن طفلا عبث فوقه بريشة ودواية من الحبر وجدهما فى درج أبيه؟ بدا لى أن الجواز يصرخ فى وجهى "أنا مزور، أنا مهتوك العرض اقبضوا على صاحبى فى التو، أعيدوه إلى السجن"، أحسست باليأس، بثقل فى الصدر ولكن ما الذى أستطيعه. لن أحصل على جواز سفر غيره. إذا وجدنى رجال البوليس فى الأرضى الفرنسية بعد أن تنقضى المهلة سيضعوننى فى السجن، وفى المرة القادمة سأساق حتى الحدود ليتلقفنى طرف آخر فى الدولة الأوروبية المجاورة التى أترك بالقرب منها.

لملمت الأدوات. دعكت يدى فى حوض الحمام لأزيل علامات الحبر. قرب الفجر انسحبت إلى غرفتى على أطراف الأصابع. ظللت راقدا على السرير بعينين مفتوحتين إلى أن طلعت الشمس.

الفصل الثانى عشر

العـودة

أجلس فى القطار. أمسك بجريدة بين يدى لكن تبدو لى كلماتها بلا معنى، بلا صدى فى العقل. ألقيتها على جانب. لا رغبة لى لفعل أى شىء. ليس أمامى سوى الانتظار حتى يصل القطار إلى الحدود بين سويسرا وإيطاليا حيث سيتم أول اختبار للجواز الذى أحمله.

قبل أن أترك "باريس" أرسلت خطابا إلى أحد الزملاء فى مصر أبلغه فيه بأننى سأصل إلى ميناء "بورسعيد" على باخرة للشحن اسمها "بلومون" بعد ظهر يوم ٢٩ سبتمبر. قلت لنفسى إذا انتظرنى أحدهم فسيكون من حظى، وإذا لم أجد أحداً منهم سأهبط بجواز السفر، وأستقل الأتوبيس أو القطار إلى القاهرة، وبعد ذلك يحلها الحلال.

المرأة الجالسة قرب النافذة نامت. أطل من الزجاج. الريف جميل فيه سلام، وخضرة، ودخان يصعد من البيوت. أتصور منضدة ثقيلة من الخشب عليها لبن وخبز. أسرح فى جمال الأرض ويتملكنى هدوء مستقر. أستمتع بالمناظر تجرى أمام عينى ثم فجأة عقلى يسبقنى، يعدو إلى الأمام، ويقفز إلى الخلف، إلى شذرات من حياتى . يد تمتد لتضع القيود جول معصمى. أسمع الصوت الذى تصدره "تك". مرة أخرى الحلقة الجهنمية التى لا أفلت منها. أنظر خلال النافذة. ما أجمل حياة الزرع، والأرض، والسماء المفتوحة تطل على محايدة لا سعادة فيها ولا حزن، توحى بالهدوء اللانهائى المستقر. هل هذا ما أريده؟ ألقيت بنفسى فى هذه التجربة ولا سبيل إلى العودة من حيث جئت. حرقت مراكبى وهبطت على شواطئها، لكن هناك أشياء تنتظرنى وهذا هو المهم. "ديدار" على رصيف القطار فى "ميلانو" سأجدها. سألمحها تتقدم نحوى بخطواتها السريعة اللينة. سأضمها إلى. سنقضى أسبوعين سويا عند جبال الألب. شهر العسل قبل أن أنغمس فى المعارك تضطرب بألف احتمال ولغز. أسبوعان ثم خمسة أيام قبل أن أصل إلى مصر. ترى ما الذى ينتظرنى؟

أعود إلى النافذة وأطل. الريف الفرنسى أودعه، الأبقار فى المراعى ترفع رءوسها وتنظر إلى القطار بلا اكتراث، تتوقف عن المضغ لحظة ثم تستأنفه، تخفض رءوسها عائدة إلى العشب. فلاح يقود جراره، ويلوح بيده إلينا. فتاة تقف بضفائرها تلمع فى الشمس ترفرف

أصابعها بين أوراق الكرم. ومن جديد بيوت ترقد فى حضن أشجار الكستناء والبلوط والأرز، وصور فى ذهنى لأسرة تجلس حول المائدة وتحتسى قهوة الصباح وتأكل الخبز الأسمر بالزبد فأتوق إلى الانضمام إليها، إلى الانزواء فى هذا الركن الهادئ البعيد، لكنى أدرك ألا مكان لى إلا حيث روائح الطفولة وأحلام الغد الذى أنا جزء منه.

صعد بعض الناس إلى القطار واحتلوا مقاعدهم فى المقصورة بينى وبين المرأة القابعة فى ركنها إلى جوار النافذة. الجميع مستغرقون فى قراءة صحيفة أو كتاب أو أوراق تتعلق بالشغل. لا أحد يفتح فمه إلا للتثاؤب أو مضغ ساندوتش أحضره معه. ثم مرة أخرى خلت المقصورة إلا منى ومنها كأن قدرا ربط بيننا لا فكاك منه. نامت فى ركنها كأنه من اليأس. مر الوقت بطيئا. ضاع كل التوتر الذى كنت أشعر به. أجلس فى مقعدى وأشاهد مناظر الحياة وهى تمر. كمسارى القطار تغير، أصبح شابا مهندما يرتدى عوينات أنيقة بدلا من الرجل الفرنسى العجوز بأسنانه الصفر. وجهه أبيض نحيل، وعيناه زرقاوان تستقران على وجهى بهدوء وهو يطلب التذكرة فأتصور لحظة أنه يشك. المناظر خارج النافذة لم تعد كما كانت من قبل. أصبحت مهندمة هى أيضا كأن الحقول رسمت بالمساطر والبراجل وخضعت لدقة هندسية لا تخطئ حتى بمقدار السنتيمتر. طلاء البيوت بياضه ناصع لم يصبه دخان، أو لطعة من التراب أو طحلب تراكم عند السقف. خشبها الداكن لم يتشقق وحدائقها منسقة الزهور والورد. مظاهر الفوضى الفرنسية مهما كانت محدودة اختفت ليحل محلها نظام ماتت فيه الروح. الجبال ترتفع عالية وفوق قممها الثلج. "سويسرا". أدركت أن اللحظة الحاسمة تقترب. التقطت صوت الكمسارى يتردد بالاسم الذى كنت انتظره فتذبذبت الأوتار فى جسمى. "دومودوسالا". عدوا جوازات السفر أو الأوراق التى تحملونها معكم للفحص".

مر بعض الوقت. أحسست بالقطار ببطء. فتح أحد رجال البوليس باب المقصورة. كان يرتدى الزى الأزرق الرسمى والكاب. أخرجت الجواز من حقيبة اليد فحصه بسرعة ثم ابتسم برود وأعادة إلى. دق قلبى دقات متتالية ثم استقر بتلك الوتيرة البطيئة التى تميزه. لم أعد أحس به فى الصدر. تسلل القطار إلى محطة صغيرة. لمحت الساعة الكبيرة، ومن خلف البناء المنخفض البيوت وكشكا وردى اللون يبيع المشروبات الساخنة، والشيكولاته السويسرية، والكعك، وفتاة ترتدى قبعة من القش ينسدل من تحتها شعر مثل جدائل القمح. غدت الحياة جميلة صافية. يغمرنى شعور بالانتصار، بالزهو. أفلتت. انتبه فجأة إلى الزحام فوق الرصيف، إلى مئات الرجال بحقائبهم يتدافعون ناحية القطار ويتدفقون من الأبواب إلى الممر، يطلون من الزجاج باحثين عن الأماكن الخالية وسط الضجيج المستمر. امتلأت المقصورة بعدد منهم، بالحقائب واللفف والبطاطين والأقفاص الملونة، بروائح النبيذ والثوم، والبصل، وبتلك اللغة الإيطالية التى خلقت للنغم والشعر. التقط بعض الكلمات التى ينطقونها . يسألونى "من أين أنت؟" قلت لهم "من مصر" "آه اجيتو بللا بايزى" "مصر بلد جميل.. تفضل". خبز وموتاديلا

وزجاجة النبيذ تنتقل بيننا أشرب. أنتشى. "أنت مصرى، إذن أنت صديقنا. تفضل سيجارة اشرب. لا تتردد عندنا زجاجات كثيرة. انظر ها هى فى هذا القفص. سيجارة أخرى؟"

الكلام متصل والمرأة استيقظت. راح الحزن. تتحدث معهم بلغتهم وتضحك. إيطالية. الألسنة تحكى القصص فتسترسل فى الضحك، وشاب شعره يسقط كالجناح الأسود يخاطبها قائلا "مادرى أيو كانتواونا كانسونا" "يا أمى سأغنى لك أغنية". تتنقل أصابعه على القيثارة من وتر إلى وتر فيرتفع النغم. "أيها الصديق غنى معنا. لا تعرف؟ سهل. ردد "أمورى أمورى" عند نهاية المقطع. أرأيت. خذ اشرب واحتفل معنا".

كانوا من العمال الموسميين الذين ينزحون من إيطاليا إلى سويسرا فى الصيف ليعملوا فى المزارع. يعودون فى الخريف ومعهم النقود التى ادخروها من أجورهم، وكراتين السجائر الممنوع استيرادها. قبل أن يرحل القطار من المحطة أخرجوها من أمتعتهم ووزعوها على بعضهم. أعطوا جزءًا منها لى، وجزءا للمرأة الإيطالية لتخفيها. عندما جاء مفتش الجمارك الإيطالية وقف فى باب المقصورة وسألهم عن السجائر "سيجا ريتو". خيم عليهم صمت مفاجئ. حملق فيهم لحظة طويلة. قصير القامة مبروم الشارب تبدو عليه الصرامة، مثل الجنرال يرتدى بزة عسكرية محلاة بخيوط من القصب بهتت، ونحلت مع العمر. نظروا إليه بجدية وهزوا رءوسهم نافين الشبهات. "لا، لا توجد معنا سجائر اننا نعرف القانون جيدا. تفضل فتش أمتعتنا". ألمح البريق فى عينيه والنظرة الباسمة الماكرة يسلطها عليهم. فجأة يضحك ضحكة قصيرة دافئة فتنبسط أساريرهم ويبتسمون. يقول لهم "آريفيدرتشى آريفيدر تشى" وينسحب مغلقا باب المقصورة وراءه. يعود الصخب إليهم كالأطفال عندما تنتهى دروس اليوم.

حملونى على أجنحة النبيذ، والنغم. هبطوا معى على رصيف محطة "ميلانو" والمرأة معهم. ودعونى بالأحضان "آريفيدرتشى آريفيدرتشى" ثم اختفوا لأجد نفسى واقفا على الرصيف أدور حوله بعينى.

كانت تنتظرنى فى محطة "ميلانو". جلدها لفحته الشمس وترتدى ثوبا أبيض من "الفانلة" المغزولة بخيوط القطن، وقبعة من القش. من تحت القبعة ومضت عيناها عندما لمحتنى. أسرعت الخطو فوق الرصيف. احتضنتها، ولم أتركها تفلت من بين ذراعى إلا عندما سمعت جرسا يلح، فالتفتت إلى عربة تحمل الحقائب يطل من أعلاها وجه، وشارب كث.

لم نكن نعرف إلى أين سنذهب. قالوا لنا بحيرة "كومو" قرب جبال الألب فى شهر سبتمبر هى الجنة على الأرض. سألنا عن الأتوبيس المتجه إليها. لم تكن معى سوى حقيبة يد، وهى كذلك جاءت خفيفة الحمل فسرنا على القدمين حتى المحطة التى قادنا أحد المارة إليها. ركبنا الأوتوبيس وجلسنا فى المقعد خلف السائق حتى نطل من النافذة ونلتقط ما يوجد أمامنا وعلى

الجانبين. فجأة قلت لها: "هنا ما رأيك؟" ردت "نعم". هبطنا من الأتوبيس بسرعة قبل أن ينطلق فوق الأسفلت.

القرية التى قصدناها لم يكن فيها سوى فندق صغير تديره امرأة. حجرتنا بيضاءاللون فيها سرير له أربعة عواميد، وصندوق للملابس، وستائر تتسلل منها أشعات الشمس فى الفجر فتغرق الغرفة بضوئها الوردى. خارج النوافذ شرفة كبيرة تطل على بحيرة كالزمردة ترقد فى كنف الجبال. فى الظهيرة تتلألأ كالجوهرة، وفى الغروب تختلط فيها الألوان مشتعلة غامضة وعندما يأتى الليل تصبح سوداء اللون لا ترى، أو يسكب فيها القمر جداول من الفضة السائلة. الجبال الخضراء كالرموش تحيط بها، تتصاعد، أو تهبط مدرجة، وعلى سفوح الجبال تزرع الكروم وأشجار الفاكهة، وتتلوى رءوس عباد الشمس متتبعة دورانها.

فى الجدار الأيسر للحجرة نافذة وتحت النافذة شلال صغير يوشوش فى آذاننا. ننام على صوته وفى الصباح يهمس إلينا قائلا: الدنيا حلوة فلا تضيعا يومكما فى الرقاد بين جدران أربعة. نهبط إليه فوق الصخور، وبين الأشجار. أعب من مياهه بين كفى وأغطس بوجهى فى أعماقه.

القرية عدد سكانها مائتان وواحد. فى الفجر صيادون يستقلون زوارقهم ويصطادون السمك، وفى النهار فلاحون يصعدون التلال بمقصاتهم وسلالهم يجمعون حصاد الكروم وأشجار الفواكه، أو يقلمون غصونها وفى المساء يتجمعون فى الساحة المحاطة بالزهور، والحشيش الأخضر، ويلعبون بكرة معدنية ثقيلة لها ثقب يدخلون فيه طرف الإصبع ويدحرجونها مسافة خمسة وعشرين أو ثلاثين مترا لتصطدم بوتد. عدد اللاعبين لا يزيد عن خمسة عشر أما باقى رجال القرية فيقفون أو يجلسون حول الساحة يشاهدون اللعب ويدخنون غلايينهم. كل شىء يتم فى بطء، حركة اللعب وخطوات اللاعبين وحتى الكلمات القليلة التى ينطقون بها كأنهم وقعوا على كنز للزمن ليسوا قلقين على نضوبه. أما النساء ففى البيوت أو مجتمعات فى مكان آخر يصلحن شباك الصيد ويثرثرن أثناءها.

القرية بلا شباب كأنهم هاجروا. لا يوجد فيها سوى كهول وشيوخ. لا يلتفتون إلينا، كأنهم لا يريدون أن يقحموا أنفسهم على زوجين شابين جاءا لقضاء الإجازة فى قريتهم فأغلب الظن أنهم لم يتعودوا أمثالنا. السواح يذهبون إلى "بلاجيو" أو "كادينابيا تريميتزو" حيث الفنادق العالمية والنوادى الليلية.

نجلس بينهم دون أن يدور معهم حديث. فى أسفل الفندق مقصف أو "تراتوريا " كما يسمونه فيه بعض مناضد حولها دكك من الخشب. هنا نتناول طعامنا، شرائح السمك أو لحم الضأن وكئوس من نبيذ "باردولينى" يفك اللسان ويطلقه فتدور الأحاديث والضحكات من حولنا. نشعر بالراحة فلنا دنيانا ولهم دنياهم.

فى النهار نسبح فى البحيرة رغم برودة المياه فتدفع الحركة الدماء فى عروقنا أو ندور حولها على دراجتين استأجرناهما من عجلاتى القرية. الشمس تخترق جسمينا، والجبال تحاصر ضحكاتنا وترد إلينا رنينها، والبحيرة تخاطبنا بلغة الأسرار المدفونة فى أعماقها. حلم آخر أضفته لخزين الأحلام كالمسافر يتزود لرحلة شاقة فالحياة هكذا.

وقفت على رصيف المحطة أودعها. لم أبك ولم أضحك. كان القلب مثقلا وكأنه من فرط المشاعر كف عن الإحساس.

ميناء "جنوا". الباخرة راسية قرب الرصيف كأنها تنتظرنى. هذه المرة لى كابينة وسرير أرقد عليه وكوة أنظر منها إلى البحر فى النهار أو فى الليل. أصعد إلى السطح. أتأمل الزرقة والشمس تسقط فيها أو تصعد منها. عندما اقتربنا من الأرض صرت أتتبع الطيور البيضاء وهى تدور حول الباخرة تصرخ أحيانا بصوت كصراخ الطفل. من حين لآخر تصطدم عيناى بوجه بحار لفحته الشمس وحفرت الرياح والعواصف والضوء الأبيض القوى تجاعيد فى بشرته.

هبطت فى "بيروت". قضيت النهار بأكمله أمشى فى شوارعها. أقرأ الأسماء العربية وأستمع إلى نطق الكلمات بتلك اللهجة المطوطة المحببة إلىَ. قرأت الصحف فى مقهى قريب من ميدان "الشهداء" وتناولت وجبة من الفول والحمص واللبنة بالزيت والزيتون الأخضر ثم عدت.

صعدت مع الصاعدين على السلم إلى ظهر الباخرة. أوقفنى ضابط الدرك. فحص جواز سفرى، وسألنى:

"أين التصريح"؟

فوجئت. قلت:

"أى تصريح"؟

قال:

"تصريح المغادرة من بيروت".

قلت:

"لم يبلغنى أحد بمثل هذا الشىء".

قال:

"كل من يهبط فى "بيروت" لابد أن يحصل على تصريح بالمغادرة".

"من أين"؟

"من المحافظة".

"لم أكن أعلم ذلك. أنا صحفى من مصر عائد من إيطاليا ومرورى على "بيروت" مجرد ترانزيت".

"آسف ليس بيدى أن أعفيك".

"وماذا أفعل الآن؟ لم يبق على ميعاد رحيل السفينة سوى ساعتين ونصف".

"اذهب إلى المحافظة واطلب مقابلة المسئول هناك".

"هل سأجد من يسعفنى؟ الساعة تجاوزت الرابعة بعد الظهر".

"لا أعلم".

هبطت وفى جسمى رعشة الكارثة. تلفتّ حولى. بالقرب من رصيف الميناء سيارة أجرة "مرسيدس" بيضاء اللون. خلف عجلة القيادة شاب قمحى البشرة مكتنز الجسم له شارب أسود.

سألته:

"أيمكنك أن تأخذنى إلى المحافظة"؟

قال:

"عيونى يا زلمة".

قلت:

"لكن عندى مشكلة. يجب أن أحصل على تصريح بمغادرة "بيروت" قبل موعد إبحار السفينة فى الساعة السادسة والنصف وليس معى نقود سوى ليرات عشر".

سألنى:

"من أين أنت؟"

قلت:

"من مصر".

قال:

"اركب... اركب يا زلمة. لا تعين الهم".

أثناء الطريق تحدثنا. أوضح لى بشىء من الفخر أنه يعرف رجال الأمن وحاول أن يطمئننى فأخفيت القلق الذى استولى على. عندما وصلنا إلى مبنى المحافظة لم نجد أحدا هناك. المكاتب كلها خالية ما عدا فراش يكنس الأرض.

قال السائق:

"ما عليك. اركب يا زلمة. الحاج "توما" صاحبى سنذهب إليه".

سألت:

"من هو الحاج "توما"؟

قال "المحافظ يا أخ".

"وأجر التاكسى، والوقت الذى ستضيعه؟"

" يا زلمة أنت أخى من مصر. ما عملك؟ "

" صحفى"

" سأقول له ذلك. سيوافق على الفور".

صعدنا سلالم من خمس طوابق إلى الدور الأخير. دق على جرس الباب فخرج إلينا رجل يرتدى منامة وروبا قرمزى اللون. كان أصلع الرأس. حول أذنيه قليل من الشعر وفى أصبعه خاتم كبير، وحول قدميه خف من الجلد .

حياه السائق كأنه يعرفه.

"يا حاج هذا صحفى من مصر. وصل اليوم إلى "بيروت" ويريد أن يغادرها. الباخرة سترحل فى الخامسة والنصف وفاته أن يحصل على تصريح".

أدخلنا الحاج فى الصالة. رفع سماعة التليفون الثقيلة السوداء الشائعة فى ذلك الوقت ودق عليها عدة مرات. سمعته ينطق كلمات لم أفهمها ثم وضع سماعة التليفون مكانها وعاد إلينا. قال للسائق:

خذه إلى المحافظة سيكون الموظف المختص فى انتظاركما هناك".

ثم نظر إلى وأضاف:

"سيعطيك التصريح الذى تريده".

تشككت ولكنى لم أقل شيئا. أوصلنا حتى الباب وودعنا. شكرته وهبطنا إلى السيارة حيث كانت تقف قرب العمارة فى الحى الصامت تماماً وكأن الجميع يغطون فى نوم القيلولة.

فى الساعة السادسة وسبع وعشرين دقيقة هبطت من سيارة الأجرة قرب الرصيف. هممت بإخراج الليرات العشر فنظر إلى السائق الشاب وابتسم.

"يا زلمة لا تعين الهم. يالله مع السلامة".

شددت على يده وعدوت بأقصى سرعة حتى سلم السفينة أخذوا يشدون عليه ليرفعوه عن الرصيف. صعدت عليه وقدمت جواز السفر لضابط الدرك فحصه وأعاده إلى.

استدرت ولوحت بيدى للسائق يقف إلى جوار السيارة ويتتبعنى فلوح إلى. فتح الباب وجلس. قادها ببطء ناحية باب الميناء. لمحت رأسه العريضة المبططة من الخلف ثم اختفى هو وسيارته فى ضوء الغسق أخذ يزحف عليه الليل ويلفه.

الشمس ساطعة وقناديل البحر تتهادى بطرحها الشفافة الزرقاء اللون. تتزاحم حول جسم السفينة أو تنتظر ساكنة بعيدا عنها. ملت فوق الدرابزين أفحص وجوه الناس. ترى هل جاء أحد من زملاء الحزب؟ عند سلم الهبوط جلس الضابط خلف منضدة صغيرة عليها ختامة وأوراق ودواية حبر. يفحص جوازات السفر ببطء. جاء دورى . وقفت أمامه حاملا حقيبة اليد فحص الصورة ونظر إلى. مدة الفحص تطول أو هكذا يبدو لى. اسمع رفرفة أوراق الجواز بين يديه. أعاده إلى والتفت إلى الرجل المنتصب ورائى فى الطابور.

هبطت حتى الرصيف بخطوة بطيئة. أمسح الوجوه المنتظرة بحركة عينى صفا خلفًا صف ثم أعود لفحصها من جديد. تقدم منى ضابط شاب يرتدى بزة الجيش الكاكية اللون. عيناه عسليتان فيهما ظلال، والوجه أحمر الوجنتين. سألنى.

" أأنت شريف حتاتة؟ "

فوجئت. رأيته يبتسم إلى فى ود.

قال:

"حمد الله على السلامة. أنا "جمال". أرسلنى الزملاء لاستقبالك. هيا بنا السيارة منتظرة هناك".

أمشى إلى جواره والأرض تتموج من تحتى وترفعنى كأننى المسيح أخطو فوق البحر. سيارة شيفروليه سوداء تنتظرنا. أركب إلى جواره. لم يتخل عنى زملائى ولم أعد أواجه المخاطر وحدى. التقط أنفاسى. المقعد من تحتى دافئ، مريح، والطريق شريط من الأسفلت يمتد أمامى ويقودنى إليهم. يشق الرمال إلى جوار القنال وفوقه الشاحنات تحمل أطفالاً ونساء يرتدين الجلابيب. رائحة تدخل إلى صدرى تنفذ إليه، رائحة فيها أريج الزهور، وعطانة الطين وخصوبة العمر الطويل. رائحة أرض مصر لا أخطؤها مهما طال الغياب.

قاد اليوزباشى "جمال علام" سيارته بسرعة ناعمة على الطريق الأسفلتى الأسود يشق الرمال. منذ ما يقرب من سنتين كنت جالسا فى سيارة "شيفروليه" مشابهة هاربا فى عكس الاتجاه لأعبر البحر إلى الخارج والآن أعود هابطا فى نفس الميناء سائرا على نفس الطريق قرب القنال. يجىء حكام، ويذهب حكام وأظل مطاردا. أسمع من خلفى صليل السلاسل وصوت النباح. فى المرة السابقة كان معى "حامد الألفى" وفى هذه المرة الضابط "جمال علام". أستغرق فى البيوت والمناظر وملامح الناس ولكن بلا انفعال كأنها ليست واقعا ألمسه بالعقل والإحساس. أحيا كالراكب فى قطار أشهد ما أشهده من النافذة وتصبح الأشياء ورائى قبل أن أنتبه إلى وجودها أمام عينى.

وصلنا إلى القاهرة والليل يهبط فوقها. خطفها منى الظلام. أتأمل أضواءها تمتد أمامى، ثم وهى تلفنى من كل ناحية، وأنا هادئ، مستسلم كأننى عائد إليها بعد غياب لم يدم سوى أيام. ذهنى ليس مشغولا بما هو آت. يتملكنى شعور بالفضول أو بشىء كالاندهاش. لا أشعر بسعادة غامرة أو إحساس بالانتصار كأن ما يحدث لى جزء من السريان العادى للحياة. كل شىء فاتر محايد لا تسرع له الأنفاس. أهى لحظة الاستقبال عند هبوطى لا أحضان فيها، ولا قبلات ولا كلمات دافئة تطرب الآذان، ولا سؤال عن الرحلة وما جرى أثناءها من أحداث. كل شئ منظم وجاهز. كل شىء عادى حتى السلام.

منذ اللحظة التى هبطت فيها إلى اللحظة التى تراءت فيها أضواء المدينة الممتدة أمامى لم نتبادل إلا كلمات قليلة مارسنا بعدها صمت المشاركين فى مؤامرة تستلزم الكتمان وكأن حتى الكلام العادى حرام.

كنت عائدا فى مرحلة تموج بالأحداث. راح الملك وجاء مكانه تنظيم الضباط الأحرار. صدر قانون الإصلاح الزراعى قبل أن أعود بأسابيع ثلاثة موجها ضربة قوية لنفوذ الإقطاع لكن لم أسأله عن شىء من هذا ولم يحاول هو أن يدير معى حواراً كنت فى حاجة إليه. ظللنا صامتين إلى أن أوقف السيارة بالقرب من "ميدان الأزهار." هناك كان ينتظر "فؤاد حبشى"[١] زميلى فى "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى"، وفى صحبته الفنان "عبد الغنى أبو العنين"[٢].

هبطت من السيارة وتحدثنا سريعا ثم انصرفت مع "عبد الغنى أبو العنين". ركبنا سيارة للأجرة أوصلتنا إلى "القلعة". لمحت قبابها ومآذنها ونوافذها تطل علينا من أعلى وإلى جوارها مبنى سجن مصر. الشوارع مزدحمة بالناس. عربات الكارو تحمل النساء، والدراجات يمتطيها الأطفال ويدقون أجراسها، وأنا سائر ألتقط الأصوات وروائح البخور والقهوة المحمصة، وأمر قرب الحوانيت وعربات الفواكه وتلال اللب والحمص الشاحبة فى ضوء النيون. أحس كأن

(١) صول سابق فى الطيران.

(٢) فنان تشكيلى عمل فى الصحافة وفى ديكورات المسارح وملابستها.

العيون تراقبنى، تراقب هذا الغريب الآتى من بعيد، فأنا لا أنتمى إلى هذه الجموع، لست منهم ولم أعش حياتهم. لا أنتمى إلى الحوارى، إلى المآذن تصعد فى السماء، إلى الضجيج يصم الآذان. أنا شاب أجنبى أرتدى نظارة من محل "ليروا" فى باريس، طالب فى "السوربون" جاء ليدرس الآثار فى بعثة. مع ذلك قلبى يدق خلف الضلوع وفى حلقى غصة، وتحت جفونى دموع تريد أن تسقط فأمنعها من السقوط.

نمشى فى صمت. أنهل من المناظر والروائح والأصوات، من الجلابيب والعمم ومناديل الرأس وملاءات اللف، من سيل الأجسام يحملنى كالنهر، من خصوبة الحياة الدافئة تقهر الموت. أمتص كلمات اللغة العربية الدارجة فيها جرأة وتلقائية وخبث كالأغنية القوية المتدفقة أسترجع نغماتها.

صعدنا السلالم ترتفع على سفح التل. توقفنا أمام منزل خرجت جدرانه البيضاء فجأة من الظلام. البوابة تقود إلى حوش وفى الحوش امرأة تجلس على طبلية وأمامها كانون تنضج عليه كنكة القهوة وإلى جوارها شيشة رفعت مبسمها إلى فمها لتسحب منه. جلبابها البنفسجى اللون ملأه جسمها القوى. حول رأسها منديل يهرب منه الشعر. وجهها عريض ملامحه فيها طيبة، وعنف.

حياها "عبد الغنى" قائلا "إزيك يا ست هند" فردت بصوت نحاسى مبحوح "نحمدوه يا سى "عبد الغنى"، نحمدوه" ثم كأنها تتنبه "أدينى افتكرتك. طلعتلك الحامل بتاعك فوء وحطيته فى الصندرة" فقال "أشكرك".

ألقت إلى نظرة سريعة من بين جفونها الثقيلة. فقال "عبد الغنى" "الأستاذ يسرى منصور مى سكندرية حايبات فوء عندنا كام يوم".

قالت:

"أهلا وسهلا واحنا فى الخدمة. إن عزت أى طلب أنا وأولادى موجودين"

صعدنا حتى الدور الثانى على درجات أحجارها خشنة. البيت فيه فتحات وجدران وغرف كثيرة صغيرة الحجم تفصلها دهاليز أو حواجز خشبية من الأربيسك، أو أبواب خشبية مبطنة داكنة اللون. دلفنا إلى إحدى الغرف كانت واسعة إلى حد ما وفيها مصاطب مفروشة باللباد والأغطية المطرزة والوسائد. الأثاث قليل، منضدتان ومقعدان من الخشب الأربيسك وبعض الأوانى النحاسية فيها نباتات وأخرى صغيرة من الفخار.

أخرج "عبد الغنى" من الحقيبة التى كان يحملها مفتاحا فتح به صندوقا خشبيا كبير الحجم أخرج منه ملاءة بيضاء وغطاءً من الصوف ووسادة للنوم. فرش إحدى المصاطب بهذه الأشياء ثم قال:

"ستستقر هنا بعض الوقت إلى آن ينقلك الزملاء. إذا احتجت أى شىء يمكن أن تطلبه من الست "هند" فهى التى تقوم بحراسة البيت وتنظيفه مقابل أجر ندفعه لها بالتعاون مع بعض. سأنصرف أنا الآن وغدا سيحضر زميل آخر ليطمئن عليك".

فى تلك الليلة نمت نوما متقطعا. البيت بعيد عن قلب الحى لا أسمع فيه صوتا سوى مواء القطط أو نباح كلب وأحيانا همهمة أصوات أو نغم موسيقى يحمله الريح لحظة قبل أن يتلاشى فى الصمت. فى الفجر استيقظت على الآذان، وعلى صوت امرأة يتردد صداه النحاسى فى البيت ثم فجأة ساد الصمت من جديد لمدة طويلة قبل أن يأتى إلى هدير المدينة البعيد.

مر الوقت دون أن يأتى أحد. أحسست بالعزلة والملل فلم أجرؤ على النزول أو التجول فى البيت. أخذ الجوع ينهشنى ولكن قرب الساعة الثانية بعد الظهر سمعت خطوات تقترب سائرة فى الدهليز ثم نقرا على الباب فتلفتُّ. دخل شاب يرتدى عوينات طبية. جبهته عالية وله شارب صغير. تقدم نحوى بخطوة مترددة ومد يده إلى. صوته هادئ ينطق الكلمات بلدغة خفيفة "أنا "جمال كامل". "إزيك يا شريف."

بعد أيام عرفت أننى أسكن بيت الفنانين وأنه يُوجد فى هذا البيت عدد من المراسم يتردد عليها أصحابها بين الحين والحين وأن المرسم الذى وضعونى فيه يستأجره اثنان "جمال كامل" "وعبد الغنى أبو العينين".

كان "جمال كامل" يأتى إلى كل يوم أو يومين. يحضر معه ما احتاج إليه. يقضى معى بعض الوقت، وينصرف بعد قليل. كنت أقضى ساعات طويلة وحدى فأعانى من الملل الشديد. أضيق من القراءة فأنا غير مستقر، قلق، أدرك أن إقامتى فى هذا المكان مؤقتة ولا أعرف متى سأنقل وما الذى يرتبونه لى. أحسست كأن زملائى نسونى أو انصرفوا إلى أشياء أخرى يعتبرونها أهم. كان هذا الشعور بالإهمال، بالمجهول سخيفا فالعزلة هكذا تولد أحاسيس مضطربة وكان "جمال كامل" الشخص الوحيد الذى أراه لكنه لم يكن يعرف شيئا عن مصيرى.

كان اليوم يوم جمعة فجاءتنى من بعيد همهمة الأصوات فى جامع الشافعى، والسلطان حسين، وهى تردد الدعوات تقطعها كلمة "أمين" ثم ساد صمت مفاجئ كأن الجميع استغرقوا فى نوم عميق. سمعت خطوات وأنفاسا خلف الباب وظهر "جمال كامل" يحمل تحت إبطه لفة طويلة. تقدم نحوى محنيا رأسه إلى الأرض كأنه مقدم على مهمة خطيرة. شد على يدى بسرعة. ترك اللفة على المصطبة وانصرف ليعود بعدها بقليل ومعه حامل للرسم. ألقى إلى بنظراته المتسائلة تفحصنى لحظة ثم تغيب كأنه يطارد فكرة تحلق فى ذهنه قال:

"هه ما رأيك فى أن أرسم لك بورترية؟" وفرك يديه.

منذ ذلك اليوم أصبح يحضر إلى بانتظام بعد منتصف النهار. يجلسنى على المقعد ويضبط زاوية رأسى وكتفى فى الضوء الهابط من النافذة. يزر عينيه وهو يفحص ما رسمه فى المرة السابقة ثم يبدأ فى العمل. أثناء الرسم يدور بيننا الحديث ولكن أحيانا ينهمك تماما فيسود الصمت لا يقطعه سوى صوت الفرشاة الخشن عندما يغلظ خطوطها، أو أنفاسه تتردد فى تنهيدة من الرضى أو الضيق.

قبل أن ينتهى الأسبوع الثانى قال فى شىء من الأسى، "سينقلونك إلى مكان آخر فى الليلة القادمة. لم تبق أمامنا سوى هذه الجلسة وجلسة ثانية".

هكذا توقف عن الرسم قبل أن تكمل الصورة وانقطعت العلاقة التى بدأت تنمو بيننا. لم أنس الصورة التى كان قد بدأها. عندما أفرجت عنى السلطات من السجن فى نوفمبر ١٩٦٣ تذكرتها فدفعنى الفضول فى أن أرى نفسى كما رسمها. طلبت من "حسن فؤاد"(١) أن يسأله عنها. لم أكن أريد أن أطلبها منه مباشرة خشية من أن يعطيها لى من باب الإحراج. بعد أن مرت شهور لا أدرى عددها اتصل بى "حسن فؤاد " وأبلغنى أن اللوحة عنده أستطيع أن أتسلمها منه عندما أريد.

ذهبت إليه فى شقته بالمنيل وأخذتها. وضعتها فى سيارتى كما هى ملفوفة فى الورق البنى الذى كانت ملفوفة فيه. صعدت بها إلى البيت لكن عندما نزعت الورق عنها لم أجد شيئا يستحق الجهود التى بذلتها فلم تتعد المرحلة التى وصلت إليها بعض الخطوط التكعيبية تحدد نصف الوجه الأيمن، والعوينات والجبهة والشعر، وجزءاً من الأنف والعينين، كأنه كان يرسم الوجه من أعلى إلى أسفل، أو كأن ما لفت نظره أول الأمر هو هذا الجزء الأعلى من ملامح الوجه.

---

(١) فنان تشكيلى آخر كان نائبًا لرئيس تحرير مجلة صباح الخير.

الفصل الثالث عشر

الأيدى الخشنة

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كانت "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى" وثيقة الصلة بتنظيم الضباط الأحرار، وكان لها تأثير مهم ومباشر فى النشاط السياسى الذى قام به، وعلى الأخص فى الفترة التى امتدت بعد حريق القاهرة.

كان يوجد قسم للجيش فى "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى" أصبح المسئول عنه وكيل النيابة "أحمد فؤاد" وأطلق عليه اسم "قسم الأحذية" لأسباب لا أعرفها. فلماذا تستخدم تسمية كهذه للحديث عن أخطر جهاز فى الحكم؟ ربما اختاره المسئولون فى "حدتو" من باب الإمعان فى التمويه أو لعلاقة الأحذية بالمشاة إذ كانوا يشكلون أكبر أسلحة الجيش وأهمها فى وقت من الأوقات.

وكانت "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى" تستمد تأثيرها على حركة الجيش من عوامل مختلفة. كانت الحركة تمثل قوى متقدمة مناهضة للاستعمار والإقطاع والرأسمالية الكبيرة المتعاونة معهما لعبت دورا بارزا فى الحركة الوطنية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى جانب قوى سياسية كثيرة أخرى حزبية وغير حزبية. وكانت مواقفها السياسية مستمدة من رؤية جديدة تجمع بين البعد الوطنى والبعد الاجتماعى، رؤية أكثر وضوحا وأكثر تقدما وأقرب إلى واقع الحياة فى المستعمرات من المواقف التى كانت تتقدم بها باقى الاحزاب، أو الحركات السياسية فى البلاد. كان تأثيرها السياسى والثقافى ودورها فى تحديد الأهداف والشعارات أبرز من قوتها التنظيمية والعددية كما أصبحت هذه الأهداف والشعارات جزءا من واقع الصراع الوطنى والديموقراطى لسنين طويلة رغم ضعف اليسار وانقسامه وتوقفه عن النشاط بسبب اعتقال الأعضاء، وهى شعارات وأهداف تلقفتها وتأثرت بها أحزاب وتنظيمات أخرى ومنها حركة الضباط الأحرار. تمرست "حدتو" إلى حد كبير فى أساليب العمل السرى التى اضطرت للجوء إليه بحكم القوانين المقيدة للحريات وكان الضباط الأحرار بسبب وضعهم كتنظيم سرى فى الجيش فى حاجة إلى هذه الخبرة والاستفادة منها قدر الإمكان.

لهذه الأسباب جميعاً لم يكن من باب الصدف أن عددا من أكثر العناصر نشاطا فى تنظيم الضباط الأحرار كانوا أعضاء فى "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى" أو من المرتبطين بها بشكل أو آخر، ومنهم "يوسف صديق" و"أحمد حمروش"، و"خالد محى الدين" و"عثمان فوزى" و"جمال علام" وغيرهم، ولم يكن من باب الصدف أيضا أن المنشورات التى كان يوزعها الضباط الأحرار تم طبع الكثير منها بمعرفة "حدتو" وبواسطة أجهزتها المسماة "بالأجهزة الفنية" حسب اللغة الحركية المستخدمة إذ ذاك. كما أن النقاط الست التى شكلت البرنامج السياسى لحركة الضباط تبلورت خلال مناقشات عديدة ساهم فيها ضباط اليسار بدور هام.

لذلك كله كان من الطبيعى أن تؤيد "حدتو" حركة الجيش وثورة ٢٣ يوليو دونا عن باقى تنظيمات اليسار فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى، ورغم معارضة اليسار الماركسى فى العالم بما فيها الاتحاد السوفيتى والبلاد "الاشتراكية" الأخرى فى شرق أوروبا وآسيا. فقد تراوح موقفه فى البداية ما بين الهجوم السافر، والموقف المتحفظ المثير للشكوك فى الأصالة الوطنية لحركة الجيش. ذلك أن جميع الأحزاب والتيارات اليسارية الماركسية وصفتها بالانقلاب الرجعى فى خدمة الاستعمار الأمريكى أو قالت عنها كلاما يصعب معه استبعاد مثل هذا الاحتمال، ما عدا الحزب الشيوعى فى إيطاليا و"حدتو" فى مصر.

كان أعضاء "حدتو" فى قسم الجيش وفى قيادة التنظيم الحزبى على علم بطبيعة الضباط المشاركين فى حركة الجيش وباتجاهاتهم الوطنية بصرف النظر عن التيارات المختلفة التى كانوا ينتمون إليها، وكانت تربطهم بهم أواصر الزمالة والمعرفة الشخصية وأحيانا الصداقة. وكانت قيادة "حدتو" تعلم أن الضباط الأحرار يتأهبون للقيام بدور فى تغيير المسار السياسى للبلاد والتحرك ضد الملك والاستعمار خصوصا عندما بدأت مؤامرات السراى لتشتيت صفوفهم والتخلص منهم.

ولكن فى الفترة التى وصلت فيها عائدا من المنفى فى فرنسا كانت العلاقات بين حركة الجيش و"حدتو" تنعطف بسرعة إلى طريق الصراع. فنفوذ اليمين كان هو الغالب والسائد فى البلاد وفى مختلف المجالات. كان العداء لليسار سمة من سمات الحياة السياسية، والثقافية والفكرية منذ أيام "سعد زغلول"، وكان لهذا العداء أثر قوى داخل الجيش وفى حركة الضباط الأحرار، تلك الحركة التى كانت تسعى حثيثا لتأكيد سلطتها وسط التيارات المتصارعة وضد قوى اليمين التقليدية فى الأحزاب وفى جمعية الإخوان المسلمين ومختلف مؤسسات الدولة القائمة إذ ذاك والتى كان يقف وراءها الاستعمار بكل قواه. حتى حزب الوفد وقف من الحركة موقف العداء بسبب المنافسة على السلطة واستشراء نفوذ الإقطاع والاتجاهات الليبرالية العاجزة عن رؤية أبعاد هذه الحركة الجديدة للضباط. هذا ما عدا الحكام فى أمريكا فقد آثروا الانتظار بهدف التخلص من منافسيهم الانجليز ليحلوا محلهم . لذلك كان من شأن أى

جنوح واضح لحركة الضباط نحو اليسار آن يدفع أمريكا لكى تتخذ موقفا مناوئا ضد الحكم الجديد الناشئ فى البلاد.

يضاف إلى كل ذلك موقف اليسار، ففيما عدا "حدتو" كان العداء لحركة الجيش واضحا تجسد فى وصف الضباط المشتركين فى ثورة ٢٣ يوليو، أو على الأقل القيادات بأنهم عملاء للاستعمار الأمريكى بالذات وفاشيون معادون للحريات فأصبحت هذه المواقف وهذه الأوصاف بمثابة سكب الزيت على النار، وتوكئة لمن يريد إذكاء شعلة العراك بين حركة الضباط واليسار واعتبار "اليساريين" جميعا أعداء للثورة يجب القضاء عليهم قضاء مبرما. هذا فى فترة كانت حرجة، متلاطمة الأمواج، لا يعلم أحد أين يمكن أن تتجه الأحداث. فبعد هذه الفترة بشهور أى فى شهر مارس ١٩٥٤ قامت حركة سياسية مضادة حاولت إعادة المسار إلى ما كان عليه قبل "ثورة يوليو" مع إجراء بعض التعديلات، وهى محاولة شاركت فيها جبهة واسعة شملت جزءاً من حركة الضباط الأحرار بقيادة "محمد نجيب"، والأحزاب، والإخوان ومختلف تيارات اليسار.

كان الضباط الأحرار بما فيهم "جمال عبد الناصر" والعناصر القريبة منه بين الضباط يعلقون آمالاً واسعة على موقف الأمريكان، ويتطلعون إلى الحصول منهم على مساعدات، على رؤوس أموال، وعلى السلاح رغم دعمهم المستمر لإسرائيل منذ قرار التقسيم ورحيل الإنجليز عن فلسطين. لذلك كان الحرص على طمأنة أمريكا يحتل مكانا بارزا فى السياسات وفى التكتيك الذى رسمه الضباط الأحرار لأنفسهم خلال السنين الأولى من الثورة. كانوا يسعون إلى تحييد أكبر دولة رأسمالية فى العالم إلى أن يلتقطوا أنفاسهم.

سقطت أنا من حيث لا أدرى فى هذا الجو الملبد بالغيوم. لم أحضر الشهور الأولى من الوئام القلق بين "حدتو" وحركة الجيش. وصلت فى بداية الصراع ومحاولة إقصاء أى نفوذ لليسار، مع محاكمة "خميس" و"البقرى" العسكرية، وإعدامهما بعد أحداث كفر الدوار[1]، ووصلت مع بداية الانعطاف فى موقف "حدتو" وميلها المتزايد لمعارضة الثورة، ونعتها بالنعوت ذاتها التى ظلت ترفضها طوال الفترة الماضية.

فى البداية أثبتت "حدتو" قدرا من الاستقلال فى موقفها. لم يكن هذا سهلا ففى هذا الوقت كان الاتحاد السوفيتى هو الأب والعم والأخ الأكبر لكل الشيوعيين، وكان "ستالين" مثل الرب فلم تكن ظهرت الخلافات مع الصين. كلمة الاتحاد السوفيتى هى العليا بحكم ما حققه فى الحرب وفى بناء الاشتراكية التى بدت لنا اشتراكية حقيقية لا يشوبها شىء، وكان "التضامن الأممى" يفرض موقفا موحدا على كل الشيوعيين فى الأرض. ألغت فينا الأصولية الماركسية قدرات العقل كما تفعل الأصولية الدينية الآن مع بعض الشباب فى مصر. الأصولية الماركسية أو الشيوعية الدولية قالت كلمتها، قالت أن ثورة ٢٣ يوليو انقلاب رجعى لصالح

[1]) عاملان تحت محاكمتهما وإعدامهما بعد الإضراب العمالى فى مصنع كفر الدوار للغزل والنسيج.

الاستعمار الجديد، وليست حركة وطنية كما قالت "حدتو" يوم أن تحرك الجيش. أصبحت "حدتو" مدانة بالانتهازية خائنة باعت نفسها للاستعمار مع حركة الجيش ويجب أن تقاطع أو على الأقل أن تعامل بحرص. هكذا كان الموقف منها فى اليسار العربى، وهكذا قال الحزب الشيوعى الفرنسى فعندما كنت فى باريس التقيت بمسئولين فى مكتب المستعمرات هما "جورج مينيو" و"ليون فيكس" وكان رأيهما الابتعاد عن "حدتو" وعدم التعامل معها لأن الحزب يشك فى أمرها ولا يؤمن جانبها.

منذ البداية جنحت سلطة الضباط الأحرار إلى التخلص السريع من "حدتو" رغم أنها كانت من القوى التى يمكن اعتبارها حليفة أو صديقة لها، فغداة الثورة أصدرت عفوا عاما عن المسجونين السياسيين دون استثناء بما فيهم الإخوان المسلمين ما عدا فئة واحدة لم يشملها العفو وهى فئة المسجونين السياسيين من الشيوعيين الذين كانوا مهما قيل عنهم أصحاب رأى معادين للاستعمار وأعوانه فى القصر وخارج القصر وأنا منهم فلم يشملنى العفو من حكم أصدره المستشار "الطنطاوى" على بخمس سنوات أشغال شاقة فى قضية هاجمت فيها الاستعمار البريطانى والاقطاع والملك فاروق بالاسم.

استفاد الضباط الأحرار من "حدتو" لأغراضهم قبل أن يصلوا إلى الحكم، ثم لفظوها كأنها سبة أو إثم، وبإصرار متزايد. أغلقوا أمامها فرص النشاط التى فتحت لها وبعد ذلك جاءت المحاكمات والاعتقال والسجن.

عدت إلى مصر بعد أن بدأ البطش "بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى" وباليسار عموما. ومن طبيعة الأمور أنك عندما تضرب ترد خصوصا إذا كنت صاحب نخوة واعتزاز بالنفس. أحيانا يكون الرد هادئا حكيما حتى تحتفظ بما تبقى من ود وأحيانا ترد بطريقة غاضبة فتشتعل الخصومة إلى درجة لم تصل إليها من قبل، وإذا كان الخصم فى السلطة فلك أن تتوقع كل ما هو صعب.

بعد أن كانت "حدتو" هى التيار السياسى اليسارى الوحيد الذى أيد الثورة انقلبت ضدها وأخذت ترد بكل وسائل النشر السرية التى كانت تملكها. ظل ردها كما كان دائما تعبيرا عن الرأى وإن شابتها ألفاظ كانت جزءا من قاموس اليسار فى هذا الوقت كما كان جزءا من قاموس الاستعمار والرجعية ومختلف الأحزاب والتيارات السياسية فى مصر. ألفاظ مثل خونة وعملاء وكلمات أخرى من هذا الصنف.

أصبحت إذن مشاركا فى تيار معارض لحركة الجيش. أرسلتنى القيادة إلى وجه بحرى لأعمل مسئولا سياسيا عن النشاط فى أقاليم الدلتا. لم يكن لـ"حدتو نشاط فى كل المحافظات. كانت لها جزر فى الدقهلية والغربية والمنوفية والشرقية والقليوبية والبحيرة هذا هو ما أتذكره.

استقر بى الوضع فى "طنطا". استأجرت غرفتين بالقرب من "شارع البحر" فى بيت عند أطراف المدينة يطل على الحقول. من نوافذها كنت أرى مساحات البرسيم، والقمح، وأستنشق نسيم الصباح يأتينى أحيانا معبأ بعطر الفول عندما تتفتح زهيراته فى الحقل. ابتعت سريرا ومرتبة ومنضدة ومقعدا وبعض الأغطية وموقدا للطبخ وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى الحياة سعدت بها وفى الوقت نفسه توجست، فأنا وحدى فى هذا الخضم لا أعرفه، وحدى بلا صديق أو قريب أو حتى جار أتحدث معه. ولكن هذا التوجس لم يصل إلى السطح. أشعر به هناك بعيدا فى العمق، مجرد إحساس دفين بالقلق لا أتركه ليزعجنى. أطرده حتى لا يتمكن منى، فلا بد من السير فى الطريق الذى اخترته.

كنت أتفادى الناس حتى لا أحاصر بالأسئلة منهم. أغلب البيوت فى الحى الذى أسكنه ما زالت هياكل من الطوب والأسمنت لم تسكن بعد. أغيب فترات طويلة ولا صلة لى بأحد فى الحى فالأسر تتفادى الشباب الذين يسكنون وحدهم، يخافون على بناتهم منهم. أحيانا يسعون إليهم فربما يصطادون عريسا مناسبا للبنت برزت نهداها على الصدر وجاء الوقت للتخلص منها حفاظا على ذلك الغشاء الرقيق الذى يعتبر الحفاظ عليه أهم من أى شىء، حتى حياتها، أو لأنها عبئا تكلفهم مصاريف الأكل والفسح، واللبس، فأغلب البنات لا تعملن، ولا تضفن إلى دخل أسرتهن. لكن كانت مشاغلى من نوع آخر بعيدة عن الجنس أو الزواج. ليس عندى وقت لمثل هذا التفكير. " ديدار " فى القاهرة ولم أرها منذ أن عدت لكنى مشغول عنها. أنا فى عالم آخر غير عالمها. هى فى الزمالك وأنا أجوب وجه بحرى من أقصاه التى أقصاه، مرتديا جلبابا داكن اللون وطربوشا، أو كوفية ألف بها رأسى. أعود إلى مسكنى فى جوف الليل بلا صوت. أسمع حفيف الريح فى سنابل القمح أو نباح كلب أو ضلفة شيش تغلق. أدخل من باب شقتى بسرعة. أضىء النور وأخلع ملابسى. أضع طبقين على المنضدة الصغيرة فيهما أقراص الطعمية الباردة والطماطم والجبن. أبلع دون أن أعرف ما الذى أبلعه. أقرأ فى كتاب لبعض الوقت أو فى الصحف، أو أكتب تقريرا لاجتماع قادم سنعقده للجنة بحرى ثم أطفئ النور وأنام.

صدر قانون الإصلاح الزراعى الأول فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ليحدد ملكية الأرض للفرد بمائتى فدان كحد أقصى وخمسين فدانا لكل ابن أو بنت من القصر فأُصيب الملاك الاقطاعيون بصدمة عنيفة. أيأخذون منهم الأرض؟! هؤلاء الضباط المجانين سنسحقهم سنقتلهم، ولكن كيف؟ معهم سلاح ودبابات ولا نستطيع أن نواجههم بالقوة. فالقوة هذه المرة سندفع ثمنها نحن وليس هم. لكن الدهاء مارسناه كثيرا ونعرفه، خبزنا اليومى نحيا به طوال العمر. لن نترك لهم الأرض ليستولوا عليها فالملكية سنة الله ورسوله وحكمته فى الملك، شرع لا يمس. أعطانا الله الأرض فمن يجرؤ ويأخذها منا. لابد أن نحافظ على ما أعطاه لنا. سنهربها منهم. سنبيعها بيعا صوريا لأقاربنا وأعواننا الذين نضمنهم، أو نأخذ منهم كمبيالات بثمنها

نهددهم بها إذا تلاعبوا، لكنهم لن يجرءوا فقبضتنا على الريف ما زالت قوية. ولكن قبل ذلك لابد أن نخلى الأرض، أن ننذر من يزرعها من الفلاحين حتى يتركوها خاليا.

بين يوم وليلة أصبح قانون الإصلاح الزراعى الشغل الشاغل لسكان الريف. اكتسحتهم موجات الصراع. وصلت إلى كل قرية وكادت تصل إلى كل بيت. أرسلت عشرات الآلاف من الانذارات إلى الفلاحين لإخلاء الأرض فانبرى الذين أُنذروا يدافعون عن المصدر الذى يعيشون منه، وانبرى الفلاحون من حولهم يساندونهم فى معركة تمثل بالنسبة إليهم الحياة أو الموت، انبروا بالشكاوى والاحتجاجات، بالتجمهر والتظاهر والصياح بأعلى صوت، بالمعارك استخدموا فيها النبابيت وعندما استعرت لجأوا أحياناً إلى السلاح. رفضوا إخلاء الأرض لكن جهاز الدولة لم يكن معهم. كان مع الاقطاع والرأسمالية الكبيرة. تربى على أيديهما. يأكل ويشرب من عرق الفلاحين اليومى فى الحقل، والضباط الأحرار ما زالوا قشرة فى قمة السلطة لم يتغلغلوا إليها بعد، ولم يتمرسوا على الحكم. ركبوا الحصان الجامح، ولكنهم لم يستأنسوه بعد.

هكذا بدأت معركة الانذارات وأصبحت محور الاهتمام فى لجنة بحرى، وجزء مهم من الحزب. وجدت نفسى فى قلبها. لم يكن الأمر صعبا على الفهم. أنهم يريدون طرد الفلاحين من الأرض والأرض لمن يفلحها. أليس هذا هو العدل؟ أصبحنا أنا وزملائى فى اللجنة نسمع أسماء لم نسمعها من قبل، "بهوت" و"نبروه" و"كفر نجم" و"كفر سعد" و"الحداد" و"مركز زفتى" "وميت غمر." كانت نقاطاً على الخريطة أو لا ترى على الخريطة قط لكن الآن أصبحنا نراها رأى العين، وندوس فى أوحالها ومستنقعاتها مع الجاموس والأطفال والحمير، والبط.

أركب اللوريات والقطارات والتاكسيات بالنفر. أستنشق رائحة الحلبة والحطب والعرق فى الجلابيب. أجلس فى الحقل أو الحوش أو الجرن ومن حولى رجال بشوارب وعمم وعيون صغيرة التهب من حولها الجفن. ارتاد عالمهم يبهرنى لكنى أحيانا أخاف منه فأنا أجهل الكثير عنهم. ينظرون إلى فى ود وربما أحيانا فى شك، أو ربما فى داخلهم يسخرون منى. من هو هذا الشاب الأبيض ذو العوينات يرتدى جلبابا وصديريا من الصوف إذا ما اشتد البرد، ويشبه من جاءوا من بلاد بونبارت؟! يشبه علماء الحملة الفرنسية جاءوا إلى مصر منذ قرن ونصف. لكنهم لا يظهرون إلىَّ إلا الود. فالفقراء لا معين لهم، نسيهم حتى الرب. يريدون أن يأخذوا منهم الأرض فكيف يفرقون بين الاقطاع والضباط الذين جاءوا إلى الحكم؟ لا أحد يسأل عنهم. أما أنا فجئتهم من بعيد. تركت دارى وأهلى وسعيت إليهم فى العزب النائية وفى أبعد قرية وكفر. أصل إليهم فى التاكسى إن وجد وإن لم يوجد على ظهر الحمير، أو سائر فوق قدمى فى التراب أو الوحل. آكل معهم المش والجعضيد، أشرب الشاى الداكن المر. معدتى خاوية لكنى أشرب فقد تعلمت ألا أرفضه.

ركزنا كل اهتمامنا على معركة الانذارات للحيلولة دون طرد عشرات الألوف من الفلاحين الذين كانوا يفلحون الأرض والتى أراد الملاك بيعها بيعا صوريا لأنها تزيد عن الحد الأقصى للملكية فى القانون الجديد. كانت مشكلة حادة وعاجلة تصدت لها "حدتو" فى حينه واهتمت بها فى مجلتها "صوت الفلاحين" وفى نشاط التنظيمات الحزبية فى الأقاليم. كنت مسئولا مع باقى أعضاء بحرى عن إصدار المجلة كل شهر ثم كل أسبوعين نجمع أخبارها وأغلب موادها من أعضاء التنظيم والمرتبطين به فى القرى، ونضيف إليها تحليلا سياسيا عن الوضع الداخلى والدولى يتضمن الأحداث والتطورات الأخيرة. نطبعها على الآلة الكاتبة فى شقتى الصغيرة ثم على "رونيو" يدوى يعمل بالحبر والجيلاتين، ثم زادت امكانيات الأقاليم فأسسنا جهازا فنيا مستقلا فى بيت وزودناه برونيو آلى. عندما يصدر العدد يحضر مندوبا مخصصا للاتصال ويقوم بتوزيع المجلة على لجان المحافظات بكمية تحددها كل لجنة حسب احتياجات الأعضاء والمتصلين بهم.

فى النهار عندما أجد عندى فسحة من الوقت أجوب شوارع "طنطا" واتفقدها فهى مدينة ظل بينى وبينها قدر من الحب رغم القبح الذى تتميز به، فهى مدينة صنعها الإقطاع وتجار القطن، ومولانا الشيعى السيد البدوى ومولده، والخرافات، والحلويات، والحمص، ومحطة السكة الحديد موقعها فى سرة الدلتا بين القاهرة والثغر وهى جميعا أشياء بعيدة عن الجمال والفن.

لكن وأنا صغير كنت أمر عليها فى طريقى إلى بلدتنا "القضابة". أقطع تذكرة فى "الاكسبريس" من محطة مصر بريال أو خمسة وعشرين قرشا ثم تذكرة فى قطار الدلتا من "طنطا" إلى "بسيون" بنصف فرانك "أى قرشين" وهناك أستقل سيارة أجرة بالنفير من "بسيون" إلى "القضابة" بقرش صاغ أو أكثر أو أقل فالسائق يقبل المبلغ الذى أدفعه. المسافة بين القاهرة والبلدة لا تزيد عن مائة وخمسة وعشرين كيلو مترا ولكنى كنت أسافر فى الصباح لأصل إليها قبل أن تسقط الشمس بقليل فالمسافة من "طنطا" حتى "بسيون" فى قطار الدلتا كانت تستغرق وحدها ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات ونصف حسب " التساهيل ".

فى بعض الأيام أثناء إقامتى فى البلدة كنت أسافر مع أبى إلى "طنطا" عندما تكون لديه "أشغال" . نجلس فى "قهوة لؤسر "أى الأقصر" حيث يجتمع أعيان الريف. نأكل الفول والطعمية والسلاطة الخضراء والمخللات والخبز، وجبة تسيل اللعاب فى فمى وأنا أصفها، فالفول مثل الزبد يشبه فى طعمه الفول الذى كانت تصنعه ستى. تضعه فى "قدرة" من الفخار وتدفنه فى حفرة مليئة بالتبن. تشعل فيها النار قبل صلاة المغرب وتتركه ينضج ببطء حتى الفجر. الخبز طازج من الفرن ملدن ولكنه كالرقاق يذوب فى الفم، والمخللات تخللت مع الوقت. لا أحد يستعجلها فالوقت يقاس بمعيار العصر (الآن أصبحت المخللات هى الخيار أو الجزر أو اللفت

منقوعة فى الملح). أما السلطة فكانت خضراواتها وطماطمها وبصلها الأخضر تجىء كلها مباشرة من الحقل.

بعد الفول نشرب الشاى بالحليب أو النعناع الأخضر وأترك أبى لأتجول وحدى فى المدينة إلى أن يفرغ من "الشغل". أخترق أحياء النجارين والحدادين، أستنشق رائحة الخشب و"السيبيداج" والسبرتو الأحمر يطهر الجو. أتتبع "الفارة" تروح وتجىء والأصابع تحفر "الأوية" فى المناضد والدواليب أو أتوقف أما الكور ومطارق الحدادين. الشرر يتطاير حول أجسامهم العارية واللهب يضئ عيونهم وملامحهم كأنهم شياطين يطرقون الحديد فى نار جهنم.

أعود إلى المقهى بعد ساعتين أو ثلاث صاعدا الدرجات الأربع إلى الشرفة حيث يجلس أبى مع رجال يرتدون الجلابيب الصوفية الداكنة والبلغ المصنوعة من الجلد الأصفر. أستمع إلى حديثهم عن سعر الغلة أو دودة القطن أو الجار الذى سقط من على الحمارة ميتا بالأمس. أشرب زجاجة " كازوزة " ثم ننصرف أبى وأنا للبحث عن سيارة للأجرة تحملنا إلى الدوار قبل أن تغيب الشمس.

كانت هذه الرحلة إلى "طنطا" تخرجنى من المألوف فأنتظرها. كانت جزءاً من الطفولة، من الوطن، فالطفولة هى صانعة الوطن فى الوجدان والعقل.

لمحته جالسا على "بورصة السلام": الطربوش العالى، والحاجبين البارزين تطل من تحتهما عينان خضراوان كعيون الصقر، والأنف المدبب والحفرة التى تركتها الرصاصة فى الخد. كان يرتدى كعادته سترة طويلة من الجباردين وبنطالا يماثله. العصاة تطل برأسها من بين ساقيه. يرفع حذاءه على صندوق "للمسح" انكب عليه صبى يلمعه. سمعت الانفجار المكتوم "للفوطة" الصوفية يضغط بها على الجلد ويجعله يئن إيذانا بانتهائه منه. لمحته وهو يخرج من جيب الصديرى قطعة معدنية دسها فى كف الصبى. أمسك بالصحيفة التى كانت معه ونظر حوله ليتأكد أنه لم ينس شيئا استعدادا للانصراف. اقتربت منه وقلت "عمى عاطف".

التفت. ظل لحظة طويلة يتفرس فى وجهى بنظرة الصقر، حائرة فيها ضيق، ثم زحف عليها الغضب من هذا الغريب الذى ناداه بالاسم وأوقفه وهو يتأهب لموعد القطار يريد أن يلحق به قبل أن يتركه. اقتربت منه وقلت:

"عمى عاطف. ألا تعرفنى؟ أنا شريف".

بدت عليه الدهشة العميقة كأن أذنيه سمعت ما لا يصدقه. الحيرة فى عينيه تتسع حتى اختفى الغضب من نظرته. قال "شريف أنت هنا؟!"

صمت لحظة ثم مد يده إلى ذراعى وجذبنى منها. أجلسنى على المقعد إلى جواره يفحصنى ويبحث عن كلمة تسعفه. سأل:

"تشرب إيه؟"

قلت:

"شاى بالنعناع."

صفق للنادل بتلك الحركة الآمرة التى أعرفها. الدنيا تتغير أما هو فيظل سيدا حتى وإن أعوزه القرش. لم يأت النادل فنسيه والتفت إلى. يضع يده على كتفى فأحس بها تهتز. يضغط بأصابعه ويسألنى:

"إيه اللى جابك؟ مش كنت سافرت وخلصت من ولاد الكلب؟"

يفحصنى كأنه يطمئن إلى أن الشخص الجالس معه هو أنا بالفعل وفجأة يضحك. يفحص الجلباب والصديرى ويعود إلى ملامح وجهى.

"أما أنت صحيح!! والله تعجبنى، مش طالع خواف زى.... " سكت قبل أن يضيف "لكن أنت اتغيرت خالص. خسيت واسمريت وباللبس ده أربت على الفلاحين شوية." يبتسم. "بتعزق فى الأرض والا إيه؟"

أشعر أنه منفعل باللقاء يتحدث دون أن يتوقف على غير عادته فهو قليل الكلام. يستطرد.

"والله صدفة غريبة. أنا ما عدتش بأروح البلد من ساعة ما ماتت جدتك. رحت بس من يومين. أصل الحكومة عايزة تأخذ حتة من أرض الدوار عشان تضمها للطريق. وأعمامك دول مفيهومش فايدة فجيت أحضر مع المهندس عشان أشوف حيعمل إيه بالظبط وما خليهوش يجور علينا حاكم الحكومة دى بنت كلب وموظفيها العن منها بس أنا مبسوط إن أنا شفتك. هه.. احكيلى بأه. إزاى أحوالك وعامل إيه؟ مش عايز حاجة؟" يفحصنى باهتمام وهو يسألنى.

أوضحت له أننى عدت من "باريس" سرا منذ ما يقرب من عشرة أشهر، أننى أقيم فى "طنطا" بعيدا عن أعين البوليس فالاختفاء فى الأقاليم أسهل. قرأت الأسئلة فى عينيه ولكنى لم أرد أن أستطرد فى التفاصيل حتى لا ينزعج، وخوفا من أن يلمحنا أحد أعيان "القضابة" أو "بسيون" تعودوا الحضور إلى "طنطا" لمختلف الأسباب.

انصت إلى فى صمت. لم يعلق بشىء ولم يسألنى كأنه أدرك ما يدور فى ذهنى. طلب منى أن أتصل به إن احتجت إليه. أعطانى عنوانه وتليفونه ثم أخرج من جيبه خمسين جنيها أعرف أنها كل ما عنده من نقود لأسابيع أو ربما أشهر قادمة ولكنه أصر على أن آخذها منه. شد على يدى طويلا. سار بخطوته الطويلة ورأسه العالية فى اتجاه المحطة ليركب القطار وانحنيت أنا فى شارع جانبى بعيدا عنه. خطواتى تدق على الأرض بدقات قوية وقرب ساقى فى جيب

الجلابية دفء الخمسين جنيها أحس بهم فى المظروف البنى اللون بحث عنه إلى أن عثر عليه فى جيب البنطال من الخلف قال:

"يا بنى عشان ما تضيعش حاجة منك. يا لله مع السلامة" وكانت آخر مرة أراه فيها.

اللورى يحملنى على الطريق. تدب عجلاته ثقيلة فوق الأسفلت. تآلفت مع هذا الصوت يحملنى بعيدا. أصبحت أعرف من أين التقط الشاحنات الخارجة من المدينة تتجه شمالا، أو جنوبا أو شرقا أو غربا مسافرة فى الأقاليم. أرفع يدى فإذا توقفت أدور حولها لأقف قرب السائق ليستطيع أن يسمعنى وأستطيع أن أفحصه قبل أن أقرر الصعود إلى جواره.

الشاحنة تزحف بين صفين من أشجار الكافور العالية. أتتبع أشعة الشمس وظلال الأشجار تنزلق على جسمها الكبير. السائق يغمض عينيه كأن لعبة الأضواء تهدهده. جفونه مثقلة بإرهاق القيادة لساعات طويلة. أخرج سيجارة له وسيجارة لى أشعلهما وأعطانى واحدة منهما "فالزمالة" فى الطريق لها تقاليد. سائق الشاحنة رجل كريم. القرش لا يستقر فى جيبه، فالنقود مثل حياته حركة دائبة تروح وتجىء. إنه كالبحار والطيار، مثل كل الذين يرحلون فى الكون ويعيشون على كف عفريت. أشتبك معه فى الحديث فيحكى لى عن أولاده عن ابنته "حلوة لكن شعنونة." على الشاحنة من الخلف قرأت "الرب فوق فى السماء وأنت يا "زينب" تحت."

أربت على الحقيبة المنتفخة بالأوراق، وضعتها على المقعد. أطل من النافذة على حقول الأرز تتماوج فى الريح .ألمح امرأة تلمع أشعة الشمس على جلدها الأسمر المبلل بالمياه، والقبعة فوق الرأس. الجمال والبؤس توأمان فى هذا العالم يتلون ويشع فى شمس الأصيل. أنظر إلى معصمى ثم إلى مبانى "المحلة" تلوح من بعيد. مدينة ليس فيها شىء يجذبنى إليها. أكره مصانع النسيج. أكره العنابر وصوت المواكيك يصم الآذان، والورديات تدخل وتخرج كالقطيع. لا أشعر بالألفة مع العمال فيهم فظاظة فى معاملاتهم، ولسانهم قبيح. شوهتهم الصناعة وحوارى المدينة، والاستغلال المنظم السريع. الفلاحون أقدامهم مغروسة فى الطين لكن فوق رءوسهم السماء مفتوحة، ومن حولهم تمتد الحقول يقفز فيها الأطفال والطيور، وتتهادى فيها الجواميس جلدها أسود ولبنها حليب. الصناعة تفصل الإنسان عن الطبيعة والزراعة تتركه فى حضنها منذ أن يولد من بطن أمه إلى أن يدفن تحت سطح التراب.

أكره هذه المدينة بشوارعها وميادينها يتلكأ فيها الجواسيس. أكره وجوهها المريضة الشاحبة، وعيالها يصرخون ويتعاركون بالحقد يتراكم فيهم، فهنا الحياة بلا مساحة للترويح عن النفس. ربما اضطررت للمبيت فيها. لا أحب المبيت حتى لو كان فى بيت زميل. أشعر بالقلق وعدم الأمان. سأنجز ما يجب أن أنجزه وأعود كما جئت فى إحدى الشاحنات المزدحمة بالعائدين إلى قراهم. سأعود محشورا بين أجسامهم. سأشعر بالألفة مع هذه الأجسام، بالألفة

مع العمال. لحظة اندماج أعيشها وسط الجماعات يصبح فيها المصير واحدا. لحظة تنهار فيها حواجز الطبقة، والبيئة، والطقوس والعادات، تتغير فيها وتيرة الحياة لتتداخل الأنغام. لحظة أعشق فيها رائحة العرق والتراب. بينى وبينها وئام. بينى وبين هؤلاء الرجال رباط مثل ركاب السفينة فى أعالى البحار. مغامرة تربط بيننا أو هجرة أو أسفار أو تلاقى فى خط الحياة. أرى ملامحهم خشنة غامضة عندما يشعلون عود ثقاب، كالمدينة البائسة الفقيرة تبدو قبيحة فى النهار، جميلة إذا ما لفها الظلام. تختفى التفاصيل فيتضح الأساس أن الإنسان هو الإنسان .

نتبادل اللفائف والنكات وتعلو أصواتنا ضاحكة كأننا نتنزه فى فلك على نهر النيل، لكننا نختبئ فى قاع الشاحنة وتصمت كل الأصوات حتى صوت الأنفاس عندما نقترب من كشك للمرور، ويظهر الفانوس كالعين الحمراء. تتوقف الشاحنة. نسمع كلمات غامضة تتبادل فى الظلام. تمتد ذراع السائق من النافذة وتقترب يده من يد العسكرى تلمع أزرار سترته فى الضوء المنبعث من الفانوس أعلى البرميل. يدس فيها شيئا بعدها نسمع هدير الموتور وحركة العجلات تدور فنتنفس الصعداء. ننتصب فى الشاحنة ونستنشق الهواء بعد أن كدنا نختنق من شدة الزحام. نحرك السيقان والأقدام لتجرى فيها الدماء ويعود الضحك والكلام كما كان، لكن أحيانا يظل الصمت مدة دقائق كأن السائرين تذكروا أن القهر يتربص بهم فى كل اللحظات. أسمع رجلا إلى جوارى يتنهد ويقول: "سترك يا رب".

الليلة منتصف الشهر العربى. اكتمل القمر فى السماء. أنتظر ظهوره بشغف وأنا أتنقل من مكان لمكان. ألمح ضوءه فى الترعة يجرى كالفضة السائلة فى بحر الظلام. نجرى معها وتجرى معنا أشجار الصفصاف وكأنها أشباح النساء تبكين على ضفاف الحياة. القمر هو الحزن، هو الحب أنساه فى دوامة الكفاح، فى المسافات، فى الظلام. أرفع ذراعى للريح وأتركه ينساب تحت الجلباب. أشعل سيجارة أسحب منها باستمتاع، أطلقها شرارات للريح فوق الطريق المظلم الوضاء.

أعود إلى حجرتى. خطواتى ترن وحيدة. عيونهم ودعتنى كالمناديل البيضاء. أخرج الآلة الكاتبة من تحت السرير وأضعها على المنضدة. أدق عليها بأصابعى. تتراءى أمامى ملامحهم الخشنة وأسنانهم صبغها صدأ الدخان. عقلى هنا لكن ترى أين قلبى، هنا أم مع "ديدار" هناك؟

"شبشير الحصة" قرية صغيرة على خط السكة الحديد المتجه من "طنطا" إلى "كفر الشيخ". المسافة إليها تستغرق نصف الساعة بالقطار. عندما أصل إليها، وأهبط من باب العربة فوق الدرجات المعلقة فى الهواء ألمح جسدا صغيرا يرتدى جلبابا أبيض صبغه زهر الغسيل بلون السماء. حول الرأس كوفيه تقيه من برد الشتاء. إذا اشتد البرد تختفى الجلابية تحت سترة طويلة خاكية اللون ورثها الصبى من أخيه بعد أن أدى الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات وعاد.

أخطو نحوه سائرا فوق الزلط قرب القضبان فهو يحرص دائما على الوقوف بعيدا عن القطار حتى لا يلاحظ أحد وقفته فيسأله عن سبب وجوده فى هذا المكان. لم يكن لمحطة "شبشير الحصة" رصيف أهبط إليه أو أصعد منه ولم تدل على وجودها سوى لافتة صدئة غطاها التراب، وكأن كل من له علاقة ما بالسلطات يسعى إلى إلغاء وجودها من خريطة الأحياء.

عندما أقترب من الصبى يصدمنى الشحوب الغريب الذى يطل من تحت بشرته السمراء لكنى فى كل مرة أنساه لأننى فى كل مرة أفاجأ بعينيه تنظران إلى بتلك الزرقة الخضراء، ببريقهما القوى، بتلك الحيوية الطاغية التى تكذب كل ما حولهما من خراب فى الجسد الصغير. بين العينين يطل الأنف يرتفع إلى أعلى عند الطرف كأنه يتحدى ويسخر من كل الأشياء، وتحت الأنف شفتان تبتسمان فى حزن كأنه كبر قبل الأوان.

يمد إلى يده فى وقار ويقول:

"حمد الله على السلامة يا دكتور." ثم دون أن ينتظر يسألنى "حداك منشورات"، فهكذا أوصاه أخوه منذ أول مرة جئت فيها إليهم "خد منه المنشورات أول ما ينزل من الجطر وأخفيها فى الجرن ".

أعطيته اللفة التى أحملها. يأخذها منى ويعدو كالأرنب فوق الجسر رغم ثقل المرض وورم البطن المحه منتفخا حول الخصر كالصبية الحامل قبل أوانها. يهبط من على الجسر سائرا فوق مدق يخترق الحقول ثم يختفى بين الأكواخ.

انتظره حتى يعود مقدما بخطوات بطيئة على نفس الطريق الذى سار عليه وهو يلهث بأنفاس أسمعها. عندما يصل إلى ينفخ كالديك الصغير ويقول:

"خفيتها. يا لله بينا على الدار نشرب الشاى على ما ييجى أخوى من الغيط".

نمشى سويا فى الشمس. أسأله عن أحوالهم، عن أخيه، وأمه وجدته. أسأله عن المدرسة التى يذهب إليها فيخبرنى أنه انقطع عنها لأنهم فى موسم شغل يحتاجون فيه إليه. يقولها فى اعتداد. أشعر بالضيق ثم أتداركه. ما فائدة المدرسة بالنسبة إليه؟

"والإراية يا "مصطفى". مش أولتلى إنك عايز تتعلم تئرا وتكتب"؟ فيجيب بأن أخاه يقرأ معه فى القرآن وفى بعض المنشورات التى أحملها إليهم. أسأله:

"وانت بتفهم اللى مكتوب فى المنشورات ولا صعب عليك؟"

" أمال إيه، واللى ما بافهموش بأسأله."

يصمت لحظة. ألمح عينيه تنظران إلى، تخترقاننى، تشعراننى بالإثم. كان يستحق قدرا غير القدر الذى قسم له. كان يمكن أن يذهب بعيدا لكن ما ذنبى أنا؟ أنا أعطف عليه ولكن هذا العطف سهل لا يكلفنى شيئا. سأتركه ينزف دمه من القضيب أو الفم لا فرق. أسمعه يقول: "بتتكلم عاللى بيشئوا فى الأرض زينا كده وبتئول أن الأرض لازم تروح للى بيزرع فيها".

أصمت. يمشى ببطء. أرتاح إلى خطواته بالقرب منى، ونظرة عينيه يرفعها إلى. يرتاح إلى سيرى بالقرب منه، إلى هذه النزهة بين الحقول، وتحت الشمس أسأله:

"والبول عندك عامل إيه يا "مصطفى"؟"

"البول"؟

"أيوه. تسييرة الميه".

"كويسه جوى". أسأله عن لونها يرد بأن لونها أحمر. جدته قالت له أن اللون الأحمر دليل الصحة فى الذكور. نصل إلى دارهم عند الطرف البعيد للقرية. نجلس القرفصاء على الحصيرة. ينظر إلى بعينيه الزرقاوين الخضراوين ويقول فى صوت هامس كأنه لا يريد أن يسمعه أحد فى البيت.

"بس راسى بتلف ساعات. ما تكشف على يا دكتور"

أرقده على الحصيرة. يرفع جلبابه إلى أعلى صدره كاشفا عن بطن عالية متضخمة تضغط على ضلوعه السفلى فتنفتح كالمروحة. جدار البطن ملمسه خشن. أتحسس الكتل الكبيرة الصلبة للكبد والطحال تسبح فى السائل. حول سرته تتلوى الأوردة داكنة اللون، عيناه تحملقان فى وجهى كأنهما تحاولان أن تقرأ فى ملامحى. راح عنهما البريق كأنه أدرك. أقول له:

"مستشفى طنطا" العام أريب من "شبشير" هناك تئدر تلائى العلاج والتحاليل".

يقوم من رقدته دون تعليق كأنه لم يسمع ما اقترحته . يغيب داخل البيت. أسمع حديثا هامسا وصوتا نسائيا يرتفع قائلا "أيوه ما تروحش ليه" ثم يخفت من جديد ليحل محله رنين الملاعق والأكواب توضع على سطح معدنى.

يعود بعد قليل حاملا صينية وضع عليها برادا أزرق أسود لونه وكوبين مذهبين لهما خصر. يصب لى الشاى فى أحدهما ويذيب السكر بملعقة صغيرة ثم يجلس إلى جوارى على الحصيرة صامتا كأنه يفكر فى شىء. أرى رأسه المنكسة يرفعها إلى وألمح البريق عاد إلى عينيه وهو يقول:

"ما أنت تئدر تعالجنى يا دكتور. هاتلى معاك دوا كويس كدا المرة الجاية".

قبل أن تسقط الشمس يعود أخوه من الغيط. رجل طويل القامة هادئ الصوت أصبحت له مكانة فى قرية "شبشير" منذ أن تصدى للعمدة فى مشكلة تتعلق بالرى. نتناول عشاءً من البيض والجبن الأريش أو المش، والبصل والفجل. بعد العشاء يبدأ أعضاء لجنة القرية فى الحضور تباعا وتنعقد الاجتماع. ينفض قرب التاسعة والنصف أو العاشرة. أرى النوم فى عينى مضيفى واقترح عليه أن يفرش لى حتى أنام فاليوم كان طويلا بالنسبة إلىّ. يفرشون لى حصيرة ومخدة ولحافا فوق حطب الذرة أو القطن المخزون على سطح البيت وأصعد على السلم لأنام. يرقد "مصطفى" إلى جوارى كأنه يحرسنى أو يريد أن يظل بالقرب منى ليلبى ما قد أحتاج إليه. نتحدث قليلا ولكن سرعان ما يسقط فى نوم عميق. أسمع أنفاسه تتردد بأزيز الالتهاب أصاب قنوات الرئتين فأظل مستيقظا طوال الليل يلسعنى الناموس وتنهش فى البراغيث. أسمع نباح الكلاب وصوت الريح يخترق الفجوات فى ضلفات الأبواب، والشبابيك.

قبل الفجر يغلبنى التعب فأنام. نومى متقطع تتخلله الأحلام. أعدو فى شارع مظلم هاربا من عصابة تحمل العصى. بعض أفرادها مقعدين وبعضهم يمشون بالعكاكيز. على رأسهم يسير "زهران رشدى" رئيس القلم السياسى فى الإسكندرية سنة ١٩٤٨. ألمح بشرته البيضاء كالطباشير وعينيه الجاحظتين تحملقان فى مثل عينى ضفدعة تقفز ورائى بسرعة خارجة من الطين. أحاول أن أفلت منه ولكن قدمى تنغرسان فى سائل ثقيل مثل القطران. أبذل جهدا كبيرا دون أن أتقدم خطوة واحدة من المكان الذى أقف فيه. فجأة ينفتح باب بالقرب منى وفى الفجوة ألمح امرأة سمراء البشرة ترتدى قبعة من القش تحتضننى بساقيها القويتين، تلفهما حولى وتخفينى فأذوب فى تيار من الدفء اللذيذ أفرغ من جسمى كل التوتر الذى تراكم فيه وظل يصعد كأنه لا بد أن يفيض.

أستيقظ بشعور من الراحة والسعادة ينقلب بعد لحظة إلى ضيق. اللونْ الرمادى الكئيب يزحف عند الأفق والبرودة تتسلل إلى. أسفل بطنى بلولة لزجة سخيفة. أظل راقدا حتى تطل الشمس بضوئها الأصفر الكبريتى من خلف الغيوم فيستيقظ "مصطفى". نهبط من أعلى الكوخ. يحضر لى قطعة من الصابون ومنشفة فيها رائحة عفونة. يسكب لى ماءً من إبريق وأغتسل فى الأرض الفضاء خلف البيت. أدخل من الباب لأجدهم وقد أعدوا طعام الإفطار. أقول لهم إننى مرتبط بميعاد ولا بد أن ألحق بأول قطار فيلحون على "لسه بدرى ويجرا أيه لو تغديت معانا النهاردة، ونخبز لك فطير تأخذه معاك". أعتذر بأن ورائى أشغال. أبتلع قطعة من الخبز والجبن، وأرتشف رشفتين من الشاى ثم أنطلق ومعى "مصطفى" لأستقل أول قطار، أو سيارة للأجرة أو أتوبيس يمر على الطريق.

أعود إلى شقتى الصغيرة. أدلف من الباب. أفتح النوافذ وأترك شمس الصباح تغرقها بالضياء. أدير المذياع فيمتلئ المكان بالموسيقى والغناء. أخلع ملابسى المتسخة بالعرق والتراب، بنقاط من الدم بنية اللون وبالمنى الجاف فى السراويل. أضع صفيحة من الماء على موقد

الكيروسين فى الحمام وأغسل جسمى بالمياه الساخنة والصابون كأننى أولد من جديد بين هذه الجدران المعبأة بالبخار، والأنغام تنطلق من صندوق المذياع.

أخرج من الحمام وأرتدى ملابسى النظيفة. أغلق الشيش وأخفض صوت المذياع ليصبح كالهمس. أرقد على السرير، وأمد ساقى إلى مداها فوق المرتبة المحشوة بالقطن. أستنشق رائحة الصابون فى الملاءة البيضاء. أتحسس سطحها الناعم بكفى. أعدل وضع الوسادة تحت رأسى وأتطلع إلى السقف بشعور من السعادة عميق، وكأننى ملك أعيد إلى الملك بعد سنوات من الغياب.

وقع عدد من أعضاء قيادة الحركة فى شباك المباحث والمخابرات تعاونا فى هذه الفترة للقضاء على "حدتو" وعلى حركة اليسار. أصبحت القيادة المركزية فى القاهرة عاجزة عن مواصلة مهامها فصدر قرار من العناصر المتبقية بتصعيد عدد من الذين ما زالوا خارج السجن، ليكونوا ما سميت فى ذلك الوقت "القيادة المؤقتة".

هكذا وصلت إلى مستوى اللجنة المركزية . أدخل هذا التطور قدرا من الرضى إلى نفسى. سعدت بانتقالى إلى القاهرة فربما استطعت أن ألتقى بـ"ديدار". سأعود إلى أضواء المدينة المتلألئ. أنا ابن المدينة، والريف بالنسبة إلى حالة مؤقتة. سأصعد إلى موقع أنا جدير به. لم أكن سعيداً بالقبض على زملاء يخوضون المعركة ولكن لم يكن حزنى طاغيا. فى داخلى تصارعت أحاسيس متناقضة لم أفكر فيها.

جلست فى "الأوتوبيس". أطللت من النافذة. فوق المبانى، وعلى أسفلت الشارع يسقط المطر. ألمح أجسام الناس الغامضة تحتمى بالبوابات والستائر المشرعة. لمحت لافتة وأضواء تدور حولها. توقف "الأوتوبيس" خلف طابور من السيارات فأمعنت فيها النظر. لم أدخل السينما منذ زمن. أحن إلى الشاشة، إلى دنياها الواسعة، إلى الخروج من الغرف المغلقة، إلى ممارسة ما يمارسه الناس فى حياتهم. أطل على المتزاحمين أمام سينما "ريفولى" بشغف. أريد أن أشاهد هذا الفيلم مثلهم: "أضواء المسرح" قصة وموسيقى وإخراج "شارلى شابلن". تتبعت كل أفلامه الصامتة والناطقة فى باريس فأصبحت مولعا بها. لكن ما المتعة فى أن أشاهد الفيلم دون أن يصاحبنى أحد. الغربة تحاصرنى. اسمى ليس اسمى وأنا لست أنا وإنما شخصية غيرها. أتحرك على أطراف الوجود. الشعلة موجودة والسعادة أحيانا عارمة لكن الحياة التى أحياها زائفة. ليس لى مكان أنتمى إليه، إلى ناسه، إلى تفاصيل حياتهم المجسدة.

تحرك "الأتوبيس" ولكن قبل أن يسرع قمت من مقعدى. فتحت طريقا وسط الزحام وأسقطت نفسى من أعلى السلم إلى الشارع. لن أترك فيلم "أضواء المسرح" ليفوتنى. سأشاهده رغم أنف البوليس والمطاردة ولكن متعتى لن تكون كاملة دون مشاركتها، فمن عسى أن يشاركنى غيرها؟

وقفت أمام السينما أتطلع إلى اللافتة. إنه كما هو دائما يرتدى بنطاله المخطط الواسع والسترة السوداء والقبعة. شاربه صغير وفى عينيه نظرة من يحمل العالم فى قلبه. سأدخل إلى عالمه بعيدا عن المطاردة، عن الغرف المدفونة فى الحوارى المظلمة، عن رائحة العرق وعفونة الجوارب عندما تخلع الأحذية، بعيدا عن التقارير والمنشورات والألفاظ نلوكها. فى لحظات أتساءل. يجيئنى شىء كبصيص من الضوء، شعرة رفيعة من الشك تتسلل إلىَّ ليس فى الطريق الذى اخترته ولكن فى الدور الذى أقوم به، فى الوضع الذى أصبحت أعيشه. سلسلة بدأت بخطوة واحدة ثم الثانية لأصبح مع مرور الزمن أسيرا لها تستوعبنى إلى مدى لا علم لى به. هل أنا ممثل صعد على خشبة المسرح ولا يريد أن يهبط منه بعد أن أجاد دوره فأظل أروح وأجىء فوقه إلى أن يتوقف قلبى عن نبضه؟

عندما تجيئنى هذه الأفكار أطردها من ذهنى. أتفادى الغطس تحت سطحها. لا أستطيع أن أناقشها مع زميل لى. سينظر إلىّ والشك فى عينيه. سيقول بينه وبين نفسه أننى أصبحت أتردد فى مواجهة الصعاب، أننى أضعف وأبحث عن وسيلة للهرب، أننى أصبحت مصدرا للخطر فمن يعلم إلى أى مدى يمكن أن تقودنى تساؤلات كهذه؟

انحنيت فى شارع جانبى ناحية سوق "التوفيقية". اقتربت من كشك فيه تليفون. رفعت السماعة وأدرت القرص بأصبع أخطأ الرقم ثم عاد يديره. ترى هل ما زالت موجودة فى هذا الرقم. سمعت صوت السماعة وهى ترفعه ثم لحظة صمت جاءنى بعدها صوتها فيه بحة لا تخطأ.

"الو."

قلت:

"ديدار" أنا "عزيز"[1].

"لم أسمع شيئا. تملكنى الخوف ثم جائى صوتها من جديد مختنقا "عزيز" أين أنت؟"

"هنا فى القاهرة".

"أكاد لا أصدق. هنا... هنا فى القاهرة. أريد أن أراك الآن أين أنت؟ كيف ألقاك؟"

صوتى لا يطاوعنى. سكتُّ لحظة ثم قلت:

"انتبهى إلى ما أقوله جيدا. أنا بالقرب من سينما "ريفولى". سأبتاع تذكرتين لحفلة الساعة التاسعة والنصف لنشاهد فيلم "أضواء المسرح". سأترك تذكرة على الباب باسمك وأدخل بالأخرى عند بداية الفيلم. أقترح أن تدخلى قبلى لتنتظرينى على مقعدك".

---

(١) اسمى الحركى.

سألت فى قلق:

"وكيف ستخرج"؟

سأخرج قبل أن تُضاء الأنوار عند آخر الفيلم".

صمتُّ. ثم أضفت:

"أنا أحبك يا "ديدار"".

قالت:

"وأنا أحبك يا "عزيز"".

أنزلت السماعة برفق كأن صوتها لازال عالقا به. وضعت ثمن المكالمة أمامى على لوح الزجاج، وعدت مسرعا فى الشارع حتى باب السينما. وقفت فى الطابور مخفيا وجهى فى الزحام الذى بدأ بعد أن توقف المطر. عندما جاء دورى ابتعت تذكرتين فى الصالة على بعد قليل من الممشى. كتبت اسمها على إحدى التذكرتين، وتركتها عند الباب ثم انصرفت.

درت فى الشوارع والحوارى المحيطة بمنطقة "التوفيقية" كالمحموم. ترى هل ستحضر؟ ترى أيحدث شىء يعطلها أو تخطئ فى اسم السينما؟ الأفكار والمشاعر تتصادم فى نفسى. أحاول أن أفكر فى شىء آخر لأسكت التوتر ولكن دون جدوى.

عندما جاء الوقت انتظرت حتى خلت السينما من المنتظرين أمامها وأغلق الشباك ثم دخلت. سرت خلف دائرة الضوء سلطها "البلاسير" على الأرض أمام قدمى. مررت فى الصف أمام ركب الجالسين تصطدم بساقى من الخلف. تحسست المكان الخالى وأسقطت نفسى فيه بين شبحين لا تراهما عينى فى الظلام. جاءتنى رائحتها، رائحة نرجس خفيفة وبالتدريج أخذت ملامحها تتضح. انتظرت حتى تأكدت. مددت يدى فاصطدمت بيدها باردة كالثلج قلت:

" "ديدار" أحبك".

قالت:

"وأنا أحبك يا "شريف"".

ملت عليها. لمست شعرها بأنفى وشفتى ثم تراجعت. لابد من الحرص. أمسكت بيدها دون أن ألتفت إليها. لمحت بريق عينيها وهى تنظر إلىّ.

على الشاشة يتحرك "شارلى شابلن" عجوز وليس عجوزا، حزين وضاحك. كم أسعدنا، وكم أبكانا وهو يتحرك أمامنا. أنسانى كل شىء. عشت معه وهو يموت وترقص الفتاة أمامه فراشة

بيضاء نقل إليها حياته. عشت معه وهو يروض البراغيث بكرباجه تلدغه بين الإليتين ومن تحت السراويل فأضحك.

كم أسعدنا وكم أبكانا ونحن جالسون فى الظلام هاربين من عيون لا تريد أن نلتقى. يدها فى يدى أصبحت دافئة. لا تتكلم ولكن تيار المشاعر يروح ويجىء بيننا، فى الأصابع الصامتة تتحدث رغم عجزها.

انتهى الفيلم كأنه فى لمح البصر. قمت مسرعا قبل أن تُضاء الأنوار. ضغطت على يدها ثم سحبت يدى من أصابعها الممسكة بها. سمعت همسات الاحتجاج وأنا أمر أمام الجالسين. خرجت من الباب مارقا أمام شباك التذاكر يشبه العين المجروحة غطوها بضمادة سوداء فبث فى إحساسا كئيبا بنهاية اللحظات المفرحة. على يدى لمسة أصابعها ما زالت دافئة وفى قلبى أشجان الفيلم والحياة أعيشها. سرت فى الشارع المبلل بالمطر ثم قرب النيل غير راغب فى العودة إلى البيت. فى أعماقى إحساس بالحزن لكنه حزن جميل بلا ألم.

سرنا إلى جوار النيل. الساعة فى معصمى تشير إلى العاشرة. وجهه الشاحب يبرز فى الظلام كلما مررنا تحت المصابيح، جامدا منحوتا حزين الملامح. خطواتنا تسير بنا دون أن نشعر بالمسافة. انتهى الاجتماع وهبطنا ليعود كل منا إلى بيته. يسكن هو فى مكان لا أعرفه وأنا فى البساتين ولكن لا أحد منا يريد أن يعود. نمشى فى صمت وكأن الرفقة فى ذاتها كافية قلت:

يا "كمال" جاء الوقت لكى يعود كل منا إلى بيته. أصبحنا فى الزمالك وأمامى مشوار طويل".

لم يرد ثم سألنى فجأة:

"هل رأيت والدتك منذ أن عدت من باريس"؟

قلت:

"لا. لم أرها. لماذا تسأل؟"

قال:

"لا شىء. ربما تذكرت أمى ونحن نسير."

صمت من جديد وبعد أن سرنا مسافة سألنى:

"لماذا لا تذهب إليها. نحن فى الزمالك وبيتكم قريب. اذهب الآن ستفرح بك رغم كل شىء. سأنتظرك عند تقاطع شارع "بهجت على" و"أبو الفدا" الساعة الحادية عشرة والنصف. يا لله يا أخى متردد ليه؟ البوليس مايعرفش إنك رجعت".

تركته ومشيت. الليل بلا قمر والسواد يلف حول كل شىء. شارعنا صغير ضيق ليس فيه سوى مدخل بيتنا والبيت الذى يسكن فيه "على الشلقانى". دلفت من الباب الخارجى وسرت فى الممر مثل القط يتسلل فى الليل. صعدت السلالم إلى الدور الأول وضغطت على الجرس.

سمعت خطواتها على بلاط الصالة ثم صوتها وهى تسأل:

"مين؟"

قلت:

"افتحى يا ماما أنا "شريف"."

صمتت. سألت من جديد. فى صوتها توجس وتردد وأشياء أخرى لم أسمعها قبل تلك الليلة، كالأمل المختلط بالخوف الفظيع قلت:

"ما تخافيش يا ماما أنا "شريف."

فتحت الباب. وجدتها تقف فى الفجوة ترتدى "روبا" صيفيا مشجرا وخفا على قدميها. اتسعت عيناها الزرقاوان فى نظرة مندهشة فيها عدم تصديق. مدت إلى يدين مرتعشتين، وجذبتنى داخل الشقة. لفت ذراعيها حولى. أحسست بالبلولة على خديها. مسحت بكف يدها عليهما وجذبتنى من جديد. أجلستنى إلى جوارها على الأريكة. تنظر إلى كأننى شبح عزيز تخشى أن تلمسه حتى لا يختفى.

بالتدريج راحت المفاجأة. اقتربت منى. أمسكت بيدى بين يديها. سألت فى توجس:

"متى عدت يا شريف".

"منذ عشرة شهور أو أكثر".

تلف ذراعها حولى لكنها لا تقبلنى. كانت تقبلنى أحيانا وأنا طفل.

"أليس هناك خوف عليك"؟

"لا اطمئنى. إنهم لا يعرفون شيئا عن مجيئى".

تفحصنى.

"نحلت. صحتك كويسة؟"

"كويسة جدا. أنا محافظ عليها".

"أتأكل جيدا؟"

"آكل كل ما أشتهيه".

"ألست جوعان"؟

"لا.. تناولت عشائى ولا أستطيع أن آكل شيئا".

"ولا حتى حاجة حلوة أو شاى"؟

"لا.. لا أريد شيئا. لا أستطيع أن أمكث طويلا".

تنظر إلىّ فى صمت. نحن الاثنان لا نعرف ماذا نقوله فى هذا الموقف الغريب، ولا كيف نتصرف إزاءه. طوال السنين كان يوجد بيننا الحب والحواجز التى تمنعنا من التعبير.

قمت وحضنتها. قلت:

"سأنصرف الآن".

عند الباب حضنتنى طويلا وقالت:

"مع السلامة. خلى بالك من نفسك يا "شريف".

مشيت وفى أعماقى مزيج من الفرحة والضيق. كان يجب أن أبقى معها مدة أطول من الدقائق العشرين التى مرت علينا. مرت دون أن أشعر بها وكأننى جئت وانصرفت بعد دقيقة. لم نقل شيئا. رأيتها ورأتنى. ترى أكان هذا كافيا؟

بعدها بسنين أدركت أننى أخطأت لا فى الذهاب إليها ولكن فى أننى لم أقبل أن أتناول الطعام والشاى والحلو الذى عرضته علىّ، إننى لم أفعل ما كان يمكن أن يدخل قدرا أكبر من السرور فى قلبها، ولكن عندما فكرت فى هذا كانت قد ماتت فما أكثر الأشياء التى فكرت فيها بعد أن فاتت السنين.

يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٤ وقع رئيس مجلس الوزراء "جمال عبد الناصر" و"أنتونى هيد" وزير الحربية فى الحكومة البريطانية على اتفاقية تنص على جلاء القوات البريطانية عن مصر. هكذا انتهى الاحتلال الذى بدأ منذ أكثر من سبعين سنة بهزيمة "عرابى" فى التل الكبير، ثم إقصاء "الخديوى إسماعيل" عن ولايته لمصر.

كانت هذه الاتفاقية حصيلة المعارك التى خاضها الشعب منذ ذلك الوقت ضد الاستعمار البريطانى والمتعاونين معه، تخبو أحيانا لتندلع من جديد بإصرار متزايد ووعى تعمق على الأخص بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكانت حصيلة وصول قوة وطنية إلى الحكم أصبح فيه الجيش المسلح فى صدارة الشعب يمارس ضغطا شديدا على الاحتلال الأجنبى. فحركة الضباط الأحرار كانت تستهدف فى المقام الأول التخلص من الاستعمار البريطانى، وضرب الإقطاع والقصر حتى تفتح أمام البلاد طريق التطور المستقل.

خرجت "بريطانيا العظمى" من الحرب العالمية الثانية فى الجانب المنتصر ومع ذلك أنهكها المجهود الحربى الذى بذلته والضربات التى تلقتها على يد ألمانيا واليابان. أضعفتها إلى حد كبير ثم وجدت نفسها مواجهة بالموجة الوطنية الصاعدة فى المستعمرات تمتد من جنوب شرق آسيا إلى الهند، إلى أفريقيا والبلاد العربية.

ظل الصراع الوطنى يروح ويجىء فى مصر. بعد ثمانى سنوات من انتهاء الحرب وجدت نفسها مواجهة بقوة مسلحة أزاحت المتعاونين معها وحلت محلهم فى الحكم، ثم أخذت تناوشها فى منطقة القنال بعمليات محدودة تبدو فى الظاهر كأنها مقاومة مدنية بينما هى مخططة ومسنودة من قبل الضباط الأحرار وممونة منهم. كانت كالإنذار الذى ينبهها إلى ما يمكن أن يحدث على نطاق أوسع إن لم تذعن لحكم التاريخ على الاستعمار القديم. وهكذا فتح الباب على مصراعيه لاستعمار جديد أقدر على تحمل أعباء التصدى لحركة الشعوب فى هذه المنطقة الحيوية من العالم التى يسبح جزء كبير منها على بحيرة ضخمة من النفط فى عدد من بلادها.

مع ذلك لم يكن الوصول إلى هذه الاتفاقية سهلا فقد قاوم الأسد البريطانى العجوز المحنك بما تبقى له من أسنان وأظافر وسبقتها جهود ومفاوضات وصراعات دامت أكثر من سنة دخلت كل القوى المعارضة لحكومة الثورة فيها بشكل أو آخر.

فى البداية لم تعلن الحكومة شيئا عن هذه المفاوضات التى بدأت تجريها مع الحكومة البريطانية فى النصف الأخير من سنة ١٩٥٣. فضلت أن تحتفظ بها سرية إلى أن تصل إلى نتيجة حاسمة. ولكن الإنجليز كعادتهم أرادوا أن يستخدموا وسائل الضغط القديمة التى لجأوا إليها خلال سنين احتلالهم لمصر، أن يجسوا نبض الحركات والأحزاب السياسية المختلفة، أن يلوحوا باحتمالات التعاون مع أطراف أخرى فى وجه الحكم الجديد للضباط الأحرار. سربوا أخبار المفاوضات إلى الصحافة البريطانية وفى خريف سنة ١٩٥٣ نشرت "الصنداى تايمز" تحقيقا أشارت فيه إلى المفاوضات الجارية مع حكومة مصر. قيل فى هذا التحقيق إن المشروع المطروح يشمل بعض الأسس التى تضمن لبريطانيا حماية مصالحها، أن هذه الأسس تتلخص فى الإبقاء على نواة القاعدة البريطانية فى منطقة القنال يقوم على خدمتها عدد من الخبراء مهمتهم صيانة المنشآت، والأدوات وأشياء أخرى لم تحددها بعد وأن الغرض من هذه الترتيبات هو الحفاظ على صلاحية القاعدة للعمل بحيث تستطيع القوات البريطانية أن تعود إليها فى أى وقت. كما أشار التحقيق إلى أن المناقشات التى تدور تعرضت لاحتمال آخر هو الانسحاب الجزئى للقوات بحيث يبقى فى منطقة القنال ما يقرب من عشرين ألف جندى، بحيث يتم الانسحاب بشكل تدريجى على مدى عدد من السنين.

تلقفت "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى" هذا التحقيق وكأنها وقعت على كنز يثبت صحة موقفها فى التحول إلى موقف المعارضة. أصدرت منشورا هاجمت فيه حكومة الثورة، ونعتتها بالخيانة الوطنية مشيرة إلى ما نشرته "الصنداى تايمز" عن النقاط الأساسية التى تدور حولها المفاوضات بين البلدين. وبعد هذا المنشور صدرت مطبوعات أخرى توحى كلها بأن حركة الجيش خضعت لهذه الشروط، أو على وشك الخضوع فالمفاوضات فى ذهن اليسار كانت حتى هذا الوقت خيانة.

أما باقى الأحزاب فآثرت أن تنتظر لترى ما الذى يمكن للمفاوضات أن تصل إليه خصوصا بعد الضربات التى تلقتها على يد حكومة الثورة، على أن تتصرف فيما بعد وفقا لتطور الأوضاع. وهذا هو ما فعلته بالتحديد أثناء الحركة المضادة للثورة التى عرفت "بهبة مارس" سنة ١٩٥٤ ما عدا تيار محدود فى حزب الوفد قريب من "الطليعة الوفدية" اتفق مع "حدتو" على إنشاء تحالف معارض لحكومة الضباط باسم "الجبهة الوطنية". قامت هذه الجبهة بنشاط واسع نسبيا ضد المفاوضات الجارية بين حكومة عبد الناصر والحكومة البريطانية ودفاعا عن الحريات السياسية التى فرضت عليها قيود صارمة. وغالب الظن أن القيادة الوفدية أو على الأقل ذلك الجزء منها المتصل "بمصطفى النحاس" شخصيا كان على علم بوجود هذا التحالف ونشاطه وكان موافقا عليه على ألا يكون الوفد كحزب مشاركا فيه رسميا. تشكلت لجنة للتنسيق كان يحضر فيها من قبل الوفد المحامى المعروف "حنفى الشريف" و"بكر سيف النصر" ابن "حمدى سيف النصر" وزير الحربية فى حكومة الوفد وشارك فى اللجنة أيضا "يوسف حلمى" المحامى عن شباب الحزب الوطنى والمحاميان "زكى مراد" و"أحمد الرفاعى" عن "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى".

أزعجت المنشورات والمطبوعات التى صدرت فى هذه الفترة عن "حدتو" وعن "الجبهة الوطنية" سلطات الثورة. كشفت فحوى المفاوضات الجارية مع بريطانيا بينما كانت تسعى هذه السلطات إلى إبقائها سرية، خصوصا فى مرحلة ما زالت فيها مبكرة، فهى تعلم أن القوى السياسية الأخرى متربصة بها وعلى استعداد لانتهاز أية فرصة للنيل منها وللمزايدة عليها، وكانت هذه الحقائق غائبة عنا فى "حدتو" لبعدنا عن واقع الصراع الدائر وأبعاده، وافتقادنا إلى نظرة أشمل للأمور.

كان الإنجليز يدركون كل ذلك، متأهبين للاستفادة من كل التناقضات والصراعات بين القوى المختلفة لممارسة الضغط على السلطة الجديدة. وكانت صلتهم بالإخوان المسلمين قديمة بدأت منذ نشأت هذه الحركة تحت أعينهم فى مدينة الإسماعيلية عندما شرع "حسن البنا" فى خطواته الأولى بتأسيسها سنة ١٩٢٨. أجرى المستشار الشرقى فى السفارة البريطانية بالقاهرة "ايفانز" مشاورات مع "حسن الهضيبى" وآخرون من "مكتب الإرشاد" ونشرت الصحف

البريطانية تعليقات وأخبار عن هذه المشاورات والاتصالات وكأنها تقول للثورة عندنا بديل مستعد للاتفاق معنا أو على الأقل لتعضيدنا.

فى هذه الفترة أيضا أصبح لدى الإخوان إحساس بأن الثورة "تفلت" منهم، أى أنها تتجه اتجاها غير الذى كانوا يتمنونه، إن الضباط الأحرار وعلى رأسهم "عبد الناصر" يريد أن يشق طريقا مستقلا بعيدا عن كل الأحزاب والتيارات القديمة، أن يبعدها عن قدرتها على التأثير، وأن فرص الأخوان المسلمين فى احتواء الثورة لحسابهم تتبخر بسرعة متزايدة فأرادوا أن يستعيدوا الأرض التى ظنوا أنهم كانوا يقفون عليها.

فى ظل هذه الأوضاع الدقيقة المشحونة بالصراعات كان من شأن أى هجوم مثل الهجوم الذى شنته "حدتو" على المفاوضات الجارية أن يزعج الحكم إزعاجا كبيرا بصرف النظر عن مدى اتساع أو تأثير هذا الهجوم فالمسائل على "كف عفريت" ومن شأن أى شرارة أن تشعل الفتيل الذى يقود إلى الانفجار. لذلك زادت قسوة الإجراءات القمعية والضربات التى كانت تكيلها السلطة إلى اليسار عموما وإلى "حدتو" بالتحديد ولذلك لم يكن من قبيل الصدفة ما حدث لى، ولعدد من أعضاء التيار الذى كنت أنتمى إليه فى هذه الفترة.

الحقيقة التى غابت عن "حدتو" وعن غيرها هى أن "عبد الناصر" وزملاؤه كانوا على إدراك بالظروف الجديدة التى تواجه الاستعمار البريطانى. لذلك ركزوا جهودهم على الوصول لاتفاقية تقود إلى جلاء الجنود البريطانيين عن مصر. وفى سبيل ذلك لم يكن يهمهم كثيرا بقاء مائة، أو مائتين أو حتى أكثر من الخبراء فى منطقة القنال، فبعد انسحاب جيش الاحتلال لن يكون لبريطانيا قوة عسكرية تستطيع بها أن تدافع عن مصالحها، وتحميها. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد صحة هذه النظرة، أثبتت أن الاتفاقية التى وقع عليها "عبد الناصر" فى ذلك الوقت كانت لصالح مصر، ففى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٦ عندما قرر أن يستولى على شركة قناة السويس وأن يؤممها كان يعتمد إلى حد كبير على أنه لم تعد توجد جيوش بريطانية فى منطقة القنال وإلا لما استطاع أن يقدم على هذه الخطوة. أما الخبراء فقد تم ترحيلهم عن مصر دون عناء وفى الوقت المناسب.

الفصل الرابع عشر

السجن الحربى

استيقظت فجأة على صوت أقدام تخطو بحذر على الشرفة وخلف باب الحجرة. نظرت إلى معصمى. ظهرت العقارب ببطء لتشير بوميضها الأخضر إلى الرابعة. أدركت ما الذى سيحدث فى اللحظات القادمة فارتديت ملابسى بسرعة فى الظلام ملقيا بالمنامة على الأرض، وجلست على طرف السرير منتظرا.

فتح باب الحجرة ليتسرب منه ضوء ضعيف. سمعت أزيزه الخافت ولمحت قواما كالشبح يقف فى فجوته. فجأة أُضىء النور، وغمرنى فلم أر شيئا. تنبهت إلى رجل دخل فى الحجرة طويل القامة، شاحب الوجه يصوب إلى شيئا أسود اللون مدبب الطرف. قال بصوت عال رن غريبا فى الصمت :

" دكتور "شريف حتاته" أظن؟"

قلت:

"نعم".

قال مشوحا بالمسدس الذى يحمله:

"تفضل معنا. يبدو أنك جاهز؟"

وقفت دون أن أجيب عليه. قلت:

"عندى حقيبة فيها ملابسى وبعض الأشياء قد أحتاج لها".

قال: "لا داعى، ليس عندنا وقت".

" إنها جاهزة".

رفع صوته غاضبا.

"لن تحمل معك شيئا، يا لله يا سى "شريف".

خرجت إلى الصالة وقف فيها عدد من الرجال يرتدون الملابس العادية. هبطنا الدرجات وظلوا هم فى الشقة. فى الشارع أحاط بى ثلاثة أو أربعة منهم. سار هو إلى جوارى وعلى الجانب الآخر رجل مثله طويل وله شارب. كان الجو صافيا، والأشجار ترتعش ببطء فى ضوء القمر. ملأت صدرى بأنفاس عميقة كأننى أصعد من قاع البحر بعد لحظة طويلة من الغرق. سمعت صوتا أجشا من ورائى يقول:

"يا لله بسرعة".

قلت لنفسى هكذا دائما أصواتهم تمزق سكون الليل الجميل.

جلست فى السيارة على المقعد الخلفى بين رجلين. فى المقعد الأمامى جلس الرجل الذى دخل على. لمحته يدخل المسدس فى جراب تحت إبطه. حليق الوجه وسيم وسامة بعض رجال البوليس يصعدون بسرعة فى سلم الترقى.

أسرعت السيارة خلال الشوارع الخالية تضيئها المصابيح. شعورى كالراحل يترك أرضا عزيزة عليه ولا يعلم متى يعود إليها. مع ذلك عندى إحساس بالراحة بعد العناء. لا داعى بعد الآن للتنقل المستمر والجهد والتفكير. أنا منذ الآن محمول على ظهر سفينة يمسك غيرى بدفتها.

التفت إلى الضابط الجالس إلى جوار السائق. أخرج علبة سجائر من جيبه ومد يده بها إلى قال "خذ سيجارة".

فجأة فى تلك اللحظة قررت أن أتوقف عن التدخين. استيقظت روح المقاومة بعد أن أخذت على غرة كأننى ألملم نفسى من جديد قلت:

" شكراً لا أريد أن أدخن".

"ألست مدخنا"؟

أحسست أنه يفحصنى بعينيه.

"نعم لكنى لا أرغب فى التدخين الآن".

وصلت السيارة أمام بوابة كبيرة كانت مفتوحة كأنها تنتظر قدومنا. انتصب حراس من العسكر على جانبيها وأدوا التحية. رأيت البوابة وهى تغلق من خلفنا بعد أن مرت منها السيارتان. للحظة أحسست أن حياتى أصبحت ورائى.

أنزلونى فى حوش مغطى بالرمل. عند الأفق ضوء باهت ومن حولى مبان منخفضة ليست كمبانى السجن. أدخلونى فى حجرة صغيرة يجلس فيها صول يرتدى الملابس العسكرية. قام وأدى التحية ثم جلس. فتح درج المكتب وأخرج منه دفترا وقلما. بلل أصابعه وأخذ يقلب

صفحاته. يده ضخمة بشكل غير عادى. أخذ منى الساعة والمحفظة ودون النقود والساعة فى الدفتر بعد أن سألنى عن اسمى. طلب منى أن أخلع الحزام، ورباط الحذاء والنظارة. أخذهم منى ووضعهم على المكتب إلى جوار الساعة والمحفظة والجنيهات الثلاث التى أخرجها من جيب المحفظة.

اقتادنى شاويش طويل القامة أسمر الوجه، غليظ الفك خارج الحجرة إلى الحوش. عند الأفق لمحت ضوءا ورديا يزحف. سرنا مسافة فوق الرمل. أسمع خطواتنا خشنة فى الصمت. وصلنا إلى جدار فيه باب دخلنا منه لأجد نفسى فى مربع من الأرض الرملية محاط بأبواب من أربع جهات وفى الوسط مبنى منخفض يشبه دورات المياه.

أدخلنى الشاويش من باب فتحه لأجد نفسى فى زنزانة سريرها الحديدى عليه غطاء بنى اللون وفيها مائدة ومقعد وجردل بول من المطاط. أغلق على الباب دون أن ينطق بشىء. سمعت المزلاج الحديدى يصطك بالحلقة وصوت المفاتيح فى القفل وخطوات تبتعد ثم صمت.

هكذا دخلت السجن الحربى فى فجر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٣. فى الليل كانت تظل الزنزانة غاطسة فى ظلام حالك لا يخترقه بصيص من النور. فى النهار تنحدر من الكوة المفتوحة فى السقف أشعة من الضوء رمادية اللون. ألمح قطعة من السماء أعلى القضبان السود. الهواء البارد يسقط من أعلى ويتسلل من تحت عقب الباب. أحتمى بالبطانية الرفيعة الخشنة الملمس أتكور تحتها كالقنفذ باحثاً عن الدفء فى جسمى المرتعش. أرهف أذنى لألتقط أى صوت فى الصمت الممتد طوال الساعات. من حين لآخر أسمع حفيف أقدام، أو همهمة تقترب من الباب لكن سرعان ما تبتعد، أو أسمع سعالا أو الريح يصفر فى الخلاء. حبات الرمل تزحف من تحت عقب الباب كأنها ستدفننى بالتدريج فى هذا المكان تركونى فيه وكأنهم قرروا أن ينتهوا منى تماما.

عندما تظلم الزنزانة كنت أشعر بلسعات دقيقة فوق جلدى تشبه وخزات الإبر أخرجت على التو من النار. فحصت الزنزانة وما فيها أياما باحثا عن مصدر هذا العذاب إلى أن اكتشفت الفجوات الرفيعة المحفورة فى الجدار حيث يختفى البق أثناء النهار، لينقض على جسدى فى الليل. عجنت قطعا من لباب الخبز يحملونه إلى ثلاثة مرات فى اليوم مع الطعام وسددت بها الثغرات فقلت اللسعات وأصبحت أنام ساعات متقطعة أقضيها فى حالة أشبه بالانتقال من حلم لليقظة إلى حلم للنوم.

بدأت أتنقل فى الزنزانة حتى أحرك العضلات والمفاصل تيبست من البرد، والرقاد. عندما أسمع أصوات أقترب من الباب الأخضر الداكن لعلنى ألتقط بعض الكلمات. فى كل مرة تبتعد الأصوات بسرعة أو تحافظ على مسافة بينها وبين الباب. أبحث عن وسيلة لتمرير الساعات. أدرس الجدران والسقف والأرض، والأثاث. أدبر خطط خيالية للهرب سرعان ما تصطدم

بالحواجز أحكمت الحصار. أستعيض عن هذه الخطط الوهمية بالاستغراق فيما أجده أمامى. أدرس كل التفاصيل مهما صغرت باهتمام، كل خط ونقطة وثقب وظل فى الجدار أو الباب أو السرير أو الأثاث.

اكتشفت بعض المعالم تركها من سبقونى فى هذا المكان. خطوط كانوا يسجلون بها الأيام، إلى جوارها بصمات أصابع سوداء أو بنية اللون وأسماء عند أعلى الباب. حفر أحدهم جملة تقول: "الله يكون فى عون من يدخل هذا المكان ". ظللت أحملق فيها كأنها لا تعنى شيئا بالنسبة إلى، أو كتبت لغيرى من الناس. أحاسيسى غدت متبلدة. زال الخوف من المجهول الذى انقض على فى البداية عندما اقتادونى إلى الزنزانة بعيدا عن حركة الحياة. تلاشت الأحاسيس الأولى بالضياع ليحل محلها التساؤل كأننى أصبحت شغوفا بمعرفة ما يمكن أن يحدث لى ولا مانع عندى من الانتظار. جاءتنى حالة غريبة من اللامبالاة أو حتى الاستهتار تحمينى من القلق والاضطراب وكأنها رد فعل غريزى أقاوم به الظروف النفسية القاسية التى أحطت بها عن قصد من جهاز المخابرات.

فى أحد الأيام وأنا أخطو فى الزنزانة جيئة، وذهابا جاءنى هاجس بأن هناك من يتتبعنى عن قرب. نظرت إلى الباب لأجد أن الفتحة الدائرية المفتوحة فيه رفع عنها الغطاء، وأطلت منها عين صغيرة سوداء مثل عين حيوان يتربص بفريسته. عندما اصطدمت نظراتى بهذه العين أسدل الغطاء. أدركت أنهم يراقبوننى بانتظام، أن حركات وسكناتى، نومى ويقظتى وكل التفاصيل المرتبطة بى أصبحت تحت الفحص الدقيق، إنهم يدرسون حالتى النفسية وتصرفاتى وملامحى ونظراتى ليستدلوا منها إذا كان يمكنهم النفاذ إلى وإصابتى بالانهيار.

هذه المراقبة هى التى أوحت إلى فيما بعد بكتابة أول رواية بعد خروجى من السجن والتى سميتها "العين ذات الجفن المعدنى" إشارة إلى الفتحة الموجودة فى باب الزنزانة.

كانت لحظة قصيرة خاطفة أحسست أثناءها أن الزمن توقف، كانت كالمبارزة الصامتة مع عدو يختفى حتى لا أراه. عندما أسدل الجفن المعدنى بدا لى أننى حققت انتصارا فالخصم هو الذى اختفى وليس أنا. لم يتمكن من مواجهة نظراتى ولم يفتح الباب ليكشف عن نفسه.

كان الباب يفتح ثلاث مرات فى اليوم فيظهر الشاويش الأسمر بوجهه الغاضب وفكه الكبير البارز. فى كل مرة يصطحب معه جنديا وثلاثة من الرجال يرتدون قميصا قصيرا يكشف عن البطن العارية، وبنطالا يصل تحت الركبة بقليل كأنهما صنعا لصبى ضئيل الجسم. كانت ملابسهم تضيف بؤسا إلى البؤس الظاهر على ملامحهم وفى عيونهم الزائغة يملؤها الخوف من عقاب يمكن أن يسقط عليهم لأتفه الأسباب بغرض الإهانة أو إرضاءً لمزاج القائمين على السجن. كانوا عساكر حكم عليهم بمدد من الحبس أو السجن لمخالفتهم النظام والقانون العسكرى الصارم.

كان أحدهم يحمل إبريقا ضخما من الألمونيوم، وعددا من الأكواب المعدنية. يصب لى فى الكوب سائلا أسمر يطلقون عليه "الشاى". أما الثانى فكان يضع طبقا فيه معجون أصفر متجمد هو العدس ورغيفا من الخبز العفن، وقليلا من الملح الخشن على المنضدة المصنوعة من الصاج بينما كان يتجه ثالثهم إلى جردل البول المصنوع من المطاط الأسود ليحمله خارج الحجرة ويضع مكانه جردلا آخر تفوح منه هو أيضا رائحة نتنة تثير الغثيان.

لم تكن تستغرق هذه العملية كلها أكثر من دقيقة يغلقون بعدها الباب دون إشارة أو كلام. عندما كان يأتى المعجون الأصفر كنت أدرك أن هذه وجبه الغداء وأننا تجاوزنا منتصف النهار. إذا أتوا بالجبن الأريش أعرف أنها وجبة الإفطار وأننا فى الصباح وإذا جاءوا إلى بطبق من الصاج الأبيض وضع فيه سائل يحتوى على أعشاب رفيعة خضراء وقطعة من الشفت أعرف أنه العشاء وأن النهار كاد أن ينقضى ليأتى الليل. أجبر نفسى على تناول الطعام ثم أرقد على السرير فاليوم بالنسبة إلى انتهى ولم يبق أمامى سوى محاولة النوم إلى أن يأتى الصباح.

فى تلك الأمسية سقطت فى النوم دون عناء لكن فجأة أحسست كأننى أصعد بسرعة من منجم للفحم. فتحت عينى. تنبهت إلى أن الباب موارب. سمعت خطوات تقترب ثم أضئ النور فى الزنزانة. قمت من رقادى ووقفت فى منتصف الحجرة. مضى بعض الوقت قبل أن أميز الرجال الثلاثة الذين وقفوا أمام فتحة الباب وأخذوا ينظرون إلى فى صمت. اثنان منهم ضباط والثالث هو الشاويش. خلع أحد الضباط قبعته رغم البرد ووضعها تحت أبطه. رأيت صلعته تلمع فى ضوء الكهرباء. كان يرتدى نظارة إطارها مذهب. الضابط الثانى شاب طويل القامة عريض المنكبين عيناه الزرقاوان أو الخضراوان تفحصانى من تحت "الكاب" بنظرة فيها حنق كأن بيننا ثأر قديم. كان يقف متراجعا خطوة إلى الوراء عن الضابط الأول الذى أحسست أنه أكبر سنا، ورتبة عنه وأنه ربما يكون "قومندان" السجن. طالت وقفتى أمامهما قبل أن أسمع صوت القومندان وهو يسألنى:

"أتريد شيئا يا دكتور"؟

كانت اللهجة مهذبة فاستبشرت.

"نعم أحتاج إلى ملابس، ومناشف وفرشاة للأسنان، ومعجون، وصابون وأحتاج للنظارة التى أخذوها منى".

قال:

"سنبحث موضوع الملابس " وسكت. فسألت:

"والنظارة"؟

"لن نعيدها إليك الآن".

"لماذا؟ "

تردد لحظة قبل أن يجيب ثم قال:

" لأنك ربما استخدمتها للإضرار بنفسك."

لم أفهم مقصده. تأهبت للسؤال لكنه أضاف بسرعة:

"أغلق الباب يا "عويس".

قبل أن أفيق وجدت نفسى واقفا خلف الباب أحملق فى سطحه الداكن الأصم.

جلست على طرف السرير. أشعر بشىء كالتبلد كأننى استيقظت من حلم. الرجال الثلاثة خرجوا فجأة من جوف الليل ثم عادوا إليه تاركين جملة تتردد فى الصمت بإصرار رتيب "ربما استخدمت النظارة للإضرار بنفسك". كيف؟ فجأة أدركت. يقصد زجاج العوينات أستطيع أن أقطع به شريانا عند العنق أو عند المعصم لكن ما الذى يدفعنى إلى مثل هذا الفعل، إلى محاولة الانتحار؟ أحسست بالخوف يتسلل إلى. كورت جسمى تحت الغطاء. كان البرد فى هذه الليلة أشد منه فى أى وقت منذ أن جئت.

مضى أسبوعان، أو أكثر، أو أقل. كنت راقدا على السرير. بصيص من النور يتسرب من تحت الباب فى بعض الليالى كأنهم يضيئون مصابيح كانت مطفأة. فتح الباب وظهر الشاويش " عويس ". لمحت ملامحه السمراء ظل الجمود الغاضب مسيطرا عليها. غمغم بكلمات غامضة كدت ألا التقطها.

"أنت مطلوب فى الإدارة . ارتد ملابسك " .

قمت. خلعت المنامة وارتديت ملابس نظيفة أرسلوها إلى من البيت فى كيس من البفتة البيضاء . خرجت فى الليل تضيئه المصابيح الصفراء تتدلى فوق الأبواب. خطواتنا على الرمل يتردد صداها فى الفراغ وتصطدم بالجدران محدثة صوتا أجوف. الجو موحش ساكن لا شىء فيه سوى أبواب، وجدران، ومساحات صفراء اللون، وظلال.

وصلنا إلى مكان يشبه الحديقة فيه شجيرات تحتضر، وزهور تتدلى فى انكسار، ونباتات كالأذرع الطويلة المغطاة بالشوك. اخترقنا الممشى الذى يتوسطها لأجد نفسى أمام مبنى منخفض سقفه ونوافذه بنية اللون. صعدنا درجتين إلى شرفة تحيطه من كل الجهات ودلفنا من الباب المفتوح. سرنا فى ردهة طويلة أرضيتها مغطاة بمشمع أحمر داكن اللون. فتح الشاويش بابا فى آخر الردهة ناحية اليمين، وأدخلنى إلى غرفة ثم انصرف مغلقا الباب بمفتاح صرخ فى الصمت بصوت كالاستغاثة.

درت بعينى حول الغرفة التى أدخلنى إليها. سقفها، وجدرانها وأرضها من الأسمنت رمادية اللون خشنة الملمس أشعر أن لها سمك، تضيئها لمبة من النيون مثبتة فى السقف. ليس فيها سوى مقعدين من الخشب وضعا فى مواجهة بعضهما بحيث تفصل بينهما مسافة لا تزيد عن متر.

جلست على أحد المقعدين. وجود المقعد الثانى يوحى بأنه معد لشخص أخر وليس على سوى أن أنتظره. شىء فى الجو يقول لى أن الوقت قبيل الفجر. الزمن توقف كأنه أصبح معلقا بين اليقظة والنوم، أو بين الحياة والموت ما عدا اللمبة النيون ترف قليلا مثل الكائن الذبيح ينذرنى بشىء.

مرت نصف ساعة أو أكثر وأنا أنتظر. عقلى يذهب إلى أشياء بعيدة، إلى خيمة الامتحانات وأنا منكب على كتابة الإجابات. الجو حار والعرق يسقط منى فوق الأوراق. أرى الحبر يسيل فأمسحه بورق نشاف. إلى السيرك الألمانى نصبوه على أرض المعارض، دخلت خيمته. أرى الأسد وهو يقفز خلال حلقة كبيرة اشتعلت فيها النيران، ثم ألمح وجه البهلوان كأنه يسخر منى. صور خاطفة تمر بذهنى مثل شذرات الأحلام لينشغل بها عن التفكير فى المجهول، عن السؤال. ترى هل سيبدأ التعذيب بين هذه الجدران الأسمنتية السميكة التى لا يستطيع أن يخترقها صوت؟

سمعت صوت الباب وهو يفتح فالتفتُّ. دخل رجل طويل القامة محنيا رأسه حتى لا يصطدم بحد الباب. لمحت شعره الأسود يلمع فى الضوء. يرتدى سترة كحلية اللون ورباط عنق وقميصا من الحرير كأنه ذاهب إلى سهرة أو عرس. بشرته بيضاء أضفى ضوء النيون عليها زرقة باهتة. الوجه حليق يبرز منه الأنف. استنشقت رائحة الكولونيا المميزة التى استنشقتها فى السيارة ليلة أن ألقى على القبض.

نظر إلى ساقى المرفوعة فوق الساق بضيق. جلس مادا ساقيه الطويلتين فوق الأرض. أخرج سيجارة ونقر بها على العلبة قبل أن يشعلها. نفث خيطا من الدخان وهو يتأمل قدميه ثم اعتدل فى جلسته ونظر إلىَّ. قال:

"كيف حالك يا شريف؟"

أحسست بالضيق لاستخدامه اسمى دون اللقب كأنه يعرفنى عن قرب أو يخاطب شخصا أدنى منه يأتمر بأوامره. خطر فى بالى لحظة أن أعلق بشىء ولكنى أثرت الصمت. قلت:

"لا بأس".

ابتسم ابتسامته بدت قبيحة فى وجهه الحليق يطفح منه الرضى بالنفس. قال:

"أريد أن أتحدث معك بصراحة فلا تضع بيننا الحواجز. أنا أعرف أسرتك ولى أصدقاء منهم فى فريق نادى الجزيرة لكرة السلة. اعتبرنى أخا لك يشعر بالضيق إزاء الوضع".

لم أعلق فاستطرد فى الحديث.

"أنا أنصحك لمصلحتك أنت. أعرف أنك شخص متميز، وذكى وأن أمامك فرصا كثيرة فى مهنتك. ما الذى جنيته من كل ما فعلته فى السنين الماضية؟ ستضيع حياتك دون أن تحقق شيئا من الأهداف التى تفكر فيها. لن تستطيع أن تحارب الدولة. الأفضل لك أن تفيق، أن تنتبه لنفسك بدلا من الجرى وراء أوهام لا طائل من ورائها".

صمت لحظة طويلة ونظر إلى كأنه يفحص التأثير الذى تركه كلامه فى ملامحى قلت:

" ما الذى تريده منى؟ ".

" لا أريد منك سوى أن تكون عاقلا، أن تفكر بعقلك أنت ألا تكون تابعا لأحد، لأناس دونك فى المقام وفى الفكر. أليست لديك شخصية مستقلة يا أخى؟ أمامك فرصة للعودة إلى الحياة، إلى مهنتك، للخروج من هنا فإذا لم تنتهزها ستبقى مسجونا إلى وقت لا يعرف أحد مداه وربما تتعرض إلى ما هو أسوا من السجن فماذا تختار؟ "

" أختار الخروج بالطبع" .

علت شفتيه ابتسامة راضية . اقترب بمقعده منى ومال على.

" حسنا بدأنا نتفاهم. الخروج من هنا ليس صعبا كما قد تظن، على العكس إنه لا يحتاج الكثير منك. إنها مسألة سهلة فى يدك أنت ولا يملك غيرك أن يحققه لك، وأنا مستعد أن أساعدك إذا وثقت فى، وفعلت ما سنتفق عليه " .

نظرت فى عينيه جحظت قليلا كأنه يبذل جهدا أتعبه، سألته.

" ما هو المطلوب منى؟ "

" نقطة البداية هى أن تكون صريحا معى. ألا تخفى عنى شيئا ".

" ما الذى تريد منى أن أتحدث عنه؟ "

" عما فعلته يا أخى. لماذا تخفيه؟ ألست مقتنعا به؟ "

" لا أفهم ما الذى تقصده بالضبط ".

ابتعد عنى بضيق. تسللت نبرة حادة إلى صوته.

" كنت أظن أنك أكثر ذكاءً وشجاعة. يبدو أن اللين لا يجدى معك. ألا تعلم أننا نستطيع أن ندفنك هنا دون أن يشعر بك أحد؟ لأ"" لا أعتقد أن هذا ممكن ".

من أين جاءتك هذه الثقة؟ أنت واهم. الدولة لم تعد تعبث. يجب أن تدرك هذا جيدا. راح زمن وجاء زمن مختلف عنه والدولة قادرة على أن تسحقك أنت وأمثالك وكل من يعترض طريقها "

ظللت صامتا. الكلمات أسمعها دون أن يكون لها وقع. أشعر كأنها تأتينى من بعيد أو ربما لا أسمعها. كل شىء يبدو غريبا غير حقيقى كالحلم. لا أفكر فى مغزى ما يقوله كأننى قررت شيئا قبل أن يأتى إلىّ، وانتهيت منه.

وجدنى صامتا فشجعه الصمت. اقترب منى مرة أخرى وعاد إلى أسلوب الود.

" ما زلت شابا وأمامك الحياة كلها. ألا يكفيك ما عانيته من قبل؟ لا أطلب منك سوى أن تقول الأشياء بلا خوف. لن يعرف أحد شيئا عما يدور بيننا ولا حتى زملاؤك إن كنت تخشى أن يعلم أحد منهم. ثم لماذا تهتم بهم؟ إنهم ليسوا مثلك. ليست عندهم الفرص المتاحة لك ولا هم فى مرتبتك أنت فلماذا تضيع حياتك معهم؟

" ليس لدى ما أقوله لك، وأنا لا أخفى شيئا كما تظن .

وقف واقترب منى. ملامحه غاضبة وصوته أصبح فيه حنق.

" يا سى شريف انتبه جيدا. نحن نعلم عنكم كل شىء ولا جدوى من هذا الصمت. نعرف عنك أدق التفاصيل. أتريد مثلا مما نعرفه؟ ألست مصابا بدمل لم تشف منه؟ ".

نظرت إليه. أحسست بالدهشة. لم أفهم ما الذى يقصده. ضحك ضحكة خالية من المرح وقال:

" أليس عندك دمل فى الشرج تعالج منه؟ ".

حملق فى وجهى مليا ثم استدار ونقر على الباب بكلتا يديه فانفتح. وقف "عويس" يؤدى التحية بيد ممسكا بالمفاتيح فى يده الأخرى. أشار الرجل ناحيتى بحركة من يده فيها ازدراء كأنه يطردنى قال:

" يالله خذه معك. غدا سيكون أكثر تعقلا مما هو الآن. "

فى العودة كانت الشمس تصعد عند الأفق خلف مبانى السجن. شعرت بالدوار، بأن رأسى تطن. كيف عرف الرجل بأن عندى ناسورًا فى الشرج كنت أعالج منه؟[١] لا أحد سواى يعرف هذه الحقيقة. أسمع كلماته فى أذنى. تدق فى رأسى كالمسمار. نسمات الريح الباردة تلفح جسمى، فلما عدنا إلى الزنزانة كنت قد استعدت جزءا من التوازن الذى ضاع منى.

---

(١) عرفت فيما بعد أن أحد زملائى فى القضية طبيب اسمه "محمد فؤاد منير" اعترف علينا، وأخبرهم بتفاصيل مثل هذه لتستخدمها المباحث والمخابرات للتأثير علينا، وإضعافنا.

وجدت جنديا ينتظرنا عند باب الزنزانة يحمل بين يديه أشياء طويلة تشبه الثعابين. كان ذهنى مشغولا فلم أنتبه إليها. دخل "عويس" فى الزنزانة معى. أوقفنى فى منتصف الحجرة ثم طلب منى أن أضع يدى خلف ظهرى وأن أبعد قدمى عن بعضهما قليلا. دار الجندى من حولى. سمعته يسقط شيئا على الأرض بصوت له زنين وبعد قليل أحسست ببرود الحديد فوق معصمى. أصبحت يداى مقيدتين بحيث لا أستطيع أن أبعدهما عن بعضهما. عاد الجندى ووقف أمامى. لف حزاما من الجلد حول وسطى واحكم إغلاقه بيديه. من الحزام تدلت سلسلتان من الحديد تنتهى كل منهما بحلقة نصف دائرية مزودة فى ناحية منهما بمسمار. انحنى على ركبتيه وثبت كل حلقة منهما عند رسغى وأغلقهما بضربتين من الشاكوش الذى أخرجه من جيبه.

انسحب الجندى إلى الخارج. أطفأ "عويس" النور وأغلق الباب. سمعت صرير المزلاج ووجدت نفسى واقفا فى الظلام يداى موثقتان بالقيود الحديدية خلف ظهرى وشيئ ثقيل يشد على وسطى وساقى. مع كل حركة أسمع رنين السلاسل . حركتى أصبحت مقيدة. لا سبيل إلى الرقاد سوى على جانب الجسم مسندا ساقاً فوق الساق. إذا أردت الوقوف أقترب بجسمى من حافة السرير أهبط بقدمى على الأرض وأتكئ عليهما وعلى مرفقى لأنتصب بقامتى، وإذا انتفخت مثانتى وأردت أن أتبول أقف قرب الجردل المطاطى وأسند إحدى كتفى إلى الجدار. أنحنى قليلا ثم أحرك جذعى وأثنى ركبتى فى حركات راقصة غريبة حتى تنفرج الفتحة فى البنطال ويبرز منها عضوى لأبول منه. فى مواعيد الطعام يفكون الحديد الخلفى من حول معصمى، وبعد أن أنتهى يعيدونه إليهما.

لم أعد أدرى بالزمن. يمر ثقيلا بطيئا ولكنه يمر. أسجل مروره فى الأضواء والظلال تتحرك على الأرض والجدران أو مع الوجبات الثلاث. الأيام فقدت أرقامها وأسماءها. أشعر بألم فى يدى وأصابعى من ضغط القيود. حركاتى المكبلة، المحدودة تثير فى الغيظ فتزداد كراهيتى للذين وضعونى فى هذا المكان، وعاملونى كأننى حيوان أو أقل من الحيوان لا لسبب سوى أننى عبرت عن رأى يخالف ما يرونه. قلت لنفسى أيظنون أنهم بهذه الطريقة سينالون منى. لا لن أنطق بكلمة يريدونها منى.

لذلك عندما بدأوا يدخلون على ليضربونى كنت مستعدا لمواجهة مزيد من البطش والعنف. لم يصل الضرب إلى أنواع التعذيب التى قرأت أو سمعت عنها. اكتفوا بالصفعات على وجهى وقفاى والضرب بقبضات أيديهم أو الركل بأحذيتهم الميرى الغليظة. فى بعض المرات ضربونى على جسمى بالعصى فوق الظهر والأليتين وأنا راقد على الأرض. تكررت هذه الاعتداءات لمدة أسبوع أو أكثر وشارك فيها الشاويش وعدد من الجنود، ولكن ظل الضباط بعيدين عنها يعطون الأوامر من الخلف ويتابعون ما يحدث لنا دون أن يظهروا ثم توقف الضرب. مع ذلك ظل الحبس الانفرادى كما هو بلا كتب ولا فسح ولا فرصة للحديث مع أحد.

أصعب شيء فى السجن هو ذلك النظام الذى يسمونه الحبس الانفرادى. القائمون على نظم القهر، والتعذيب فى السجون يعرفون ذلك جيدا. إنهم يلجأون إليه لتحطيم معنويات المسجون السياسى، وقدرته على المقاومة فالإنسان كائن اجتماعى يحيا عن طريق التبادل المستمر والتغذية الفكرية ، والنفسية والجسمية التى تأتيه مما يحيط به من الطبيعة والمناظر والأصوات والألوان والموسيقا والكتب والأفلام والتريض والحديث مع الناس، من الحركة والحياة. فإذا ما حرم من ذلك كله وعاش فى الصمت، فى فراغ كامل، فى حالة أشبه بالموت يفقد التوازن العقلى والعاطفى والجثمانى الذى يجعله صالحا للحياة، سليما كإنسان. بمرور الوقت يمكن أن يصبح كائنا ممسوحا بلا إرادة أو شخصية تميزه فيسهل التأثير عليه ودفعه فى أى اتجاه. والحبس الانفرادى يستخدم لهذا الغرض بالذات للحصول على معلومات أو خلق جواسيس وعناصر بوليسية.

الساعات والأيام تمر بطيئة كالسلحفاة تكاد لا تتحرك من مكانها. أرقد على السرير أو أمشى فى الزنزانة لمدة ساعات. الباب أخضر داكن والجدران بيضاء متسخة بالتراب أضفى عليها لونا قبيحا تتخلله آثار الأصابع والبق وبقع من الدماء قديمة. حفظت فيها كل شق أو ثقب أو ارتفاع أو انحدار من تكرار الفحص أصبح وسيلة لتمضية الوقت. الضوء رمادى اللون أكاد أتلاشى فيه، أن أصبح جزءا منه، أن أفقد التماسك الذى يميزنى فلا شيء يشد انتباهى ويبعث فى نبض الحياة.

بعد النهار يأتى الليل ليلفنى بظلامه. يحيطنى كالغطاء العميق لا ينفذ منه بصيص من الضوء. تزحف على رائحة البول والبراز من الجردل تزداد فى الليل بالذات. تصعد من وعاء المطاط الأسود القابع فى ركن الحجرة، وتأتى من الزنازن الأخرى. أنها ليست رائحتى أنا أستطيع أن أتحملها، إنها رائحة رجال آخرين قبعوا فى هذه الزنازن عبر السنوات، تبولوا وتبرزوا فى الأوعية المنتشرة فى الزنازين حول الحوش شهرا وراء شهر وسنة وراء سنة إلى أن أصبحت الرائحة جزءا من المكان الذى أقبع فيه.إنها رائحة تثير فى حالة من القرف والغثيان، وإحساسا بالتمرد العاجز والذل. فأنا محاصر فى هذا

القفص القذر لا يصلح حتى للحيوانات، وأنا مكبل بالحديد يحد حركتى حتى فى المساحة المحدودة المتاحة لى. أشعر وكأن جسمى تحول كله إلى أنف كبير فتحتاه موصلتان بجردل البول ليستنشق منه طوال الساعات حتى الصباح. إلى جوار الرائحة توجد تلك الكائنات الصغيرة التى لا يتوقف نهمها للدماء. تنقض من السقف، ومن كل شق أو ثقب فى الجدران أو الباب أو السرير أو المنضدة أو المقعد أو من ثنيات المرتبة المصنوعة من القش وبعض القطن التى أرقد عليها لأنام. إنها جيوش البق تلسع وتلسع دون رحمة، تزحف فوق جسمى من أعلى ومن أسفل، من الأمام ومن الخلف لتغرس مئات الابر الحادة فى جلدى فيتحول إلى كتلة من الجحيم المتقد. إنها لا تكف كأن كل صف أو طابور منها يمهد الطريق لصف أو طابور يأتى بعده.

شئ واحد فقط أنتظره بفارغ الصبر. إنها الزيارة الخاطفة للشاويش ومعه المساجين يأتون ثلاث مرات فى اليوم حاملين إلى وجبات الطعام. يدخلون ويخرجون فى لمح البصر، عيونهم مثبتة على الأرض وملامحهم جامدة فالأوامر صارمة لا تسمح بتبادل كلمة واحدة، أو إشارة واحدة، أو حتى نظرة واحدة معى. مع ذلك انتظرهم. إنهم صلتى الوحيدة بالعالم الخارجى والدليل على أنه ما زال قائما وأننى جزء منه. إنهم الوجود الإنسانى الوحيد فى هذا القفص المظلم رغم كل الكآبة الطافحة على وجوههم، ورغم البؤس البادى على ملامحهم وفى أجسامهم تبرز أطرافها الضامرة من ملابس السجن. أبحث عن لقاء للعيون، عن بريق خاطف يشع ناحيتى، عن ابتسامة واهنة تحرك الشفاه دون جدوى. مع ذلك شىء فى رقة حركاتهم، فى الطريقة التى يضعون بها الأطباق على المنضدة، فى الحرص الذى يصبون به الشاى فى الكوب المعدنى، فى حركة أجسامهم وهم يحملون جردل البول ليضعوا جردلا جديدا مكانه يقول لى أن فى أعماقهم مشاعر من الود والتضامن يخفونه، أننا أبناء مصير واحد وقهر واحد يجمعنا. يخرجون كما جاءوا فى صمت بنظرة يلقونها إلى الخلف كأنهم يترددون، أو يريدون قول شىء أو إتيان إشارة ما ولكنهم لا يستطيعون، كأنه يصعب عليهم أن يتركونى هكذا وحدى.

أصبحت عاجزا عن النوم. أقضى الليل كله متقلبا على الفراش. فى النهار أتحرك فى الزنزانة إلى أن يستولى على الإرهاق ولكن دون جدوى. جسدى عاطل عن حركته الطبيعية ينال من السكون أكثر مما يحتاج إليه، وذهنى متوتر تملؤه ذبذبة عاجزة أشبه بالشحنات الكهربائية. يظل يقظا تتزاحم فيه مئات الصور، والأفكار تدور فى دائرة مفرغة لا نهاية لها. الزمن لم يعد له حساب والأيام تمر أمواجا خلف أمواج. تسقط فوق شاطئ مجهول لا فرق بين اليوم والأمس أو بين اليوم والغد. كل شىء فى الحجرة ثابت لا يتغير. عدد الخطوات بالطول أربع، وبالعرض اثنتان ونصف أعدهما على رنين السلاسل. الأرض تنحدر قليلا عند الباب والباب أخضر داكن فيه ثقب محاط بحلقة دائرية من الحديد، كالعين الوحيدة المتربصة ينفتح جفنها المعدنى فى سكون لتراقب الرجل الراقد فوق السرير يقوم منه فى بعض الأوقات، يسجل مئات الخطوات، يخطوها جيئة وذهابا بين الجدران. إنها عين باردة تنتظر فى صبر سقوط الضحية والسقف المنخفض يبدو كأنه يهبط بالتدريج يوما بعد يوم ليضغط على رأسى بثقل متزايد.

كلما اكتشفت شيئا جديدا أظل أتأمله، أدرس كل تفاصيله، طعم الملح أتذوقه بطرف لسانى عندما أكحت البياض بظفرى، طابور للنمل أتتبعه وهو يشق طريقه الملتوى من الكوة المفتوحة فى السقف هابطا فوق الجدار ليجتاز الأرض الأسفلتية ثم يدور حول رجل المنضدة، ويصعد عليها باحثا عن بقايا الخبز. أبحث طوال الوقت عن أشياء تشغلنى وتجعل الزمن يمر دون أن أشعر بمروره.

مرت الأيام والأسابيع، والأشهر بين الجدران. تشبعت بالرطوبة والعفونة وإفرزات الإنسان. أسهر الليالى وحدى أشاهد نور الفجر يزحف من الكوة المفتوحة عند السقف دون أن يبدد الظلال. آكل وحدى وأشرب وحدى وأمشى وحدى وصوتى يتردد فى الزنزانة وحده دون كل الأصوات. إذا نمت تطاردنى الوحدة. إذا جاء الصباح أمددت يدى باحثا عن جسد دافئ إلى جوارى فأجد الفراغ. أتلفت حولى عسى أن أجد كائنا آخر لكنى لا أجد سوى منضدة من الصاج، وطبلية للجلوس وجردلا للفضلات وجدران.

تقت إلى الأصوات، إلى الحديث، إلى الضحك والغناء، إلى سماع صوت آدمى يتردد فى أذنى بدلا من السكون أصبح كالصراخ. طوال الأيام والأسابيع والأشهر أحاطت بى عيون تراقبنى دون أن أراها كأننى حيوان جريح سقط فى المصيدة وهى تنتظر نهايته. زحفت على جيوش البق تغرس خراطيمها الدقيقة فى لحمى. لدغنى القمل يختبئ فى ثنايا السراويل أو القميص أستخرجه وأسحقة بين ظفرين كأننى أسحق الأعداء. جثمت على أنفاسى روائح البول والبراز والعفن المتراكم من أجيال النزلاء. حاصرتنى التهديدات وسلاسل الحديد والقضبان والأبواب المغلقة وأصوات تهمس فى الظلام وقلق اللحظات المقبلة ووعود الخروج إلى الحرية الخضراء والحنين إلى صدر امرأة أضع عليه رأسى وأرتاح. تقت إلى الأشياء التى تجعل الإنسان إنسانا ومن الوجود حياة، إلى الكلمة تتردد فى أذنى لكنى لم أجد إلا الصمت، إلا الجماد. أصابع طويلة تلتف حول عنقى كأن الموت يبحث عن الشريان فالموت هو الوجه الحقيقى لهذه الحياة. لم أره من قبل، لم أشعر به قط. عرفته فكرة عابرة لم تصل إلى لكنى أراه الآن أحبالا تتدلى من السقف، تمتد إلى عنقى. تحت قدمى تنشق الأرض. ألمح هوَّة سحيقة أسقط فيها لينتهى كل شىء. أسقط فى ظلام بلا نهاية لا أعود منه. يتصبب العرق من جسمى وأرتعش بحمى دفينة. أضع رأسى على المنضدة، وأستسلم لليأس القاتل. لن أخرج من هذا المكان. الموت ينتظرنى. محكمة ثورة هكذا قالوا لنا. كل هذا الصمت والتكتم والترقب، كل هذه الضغوط وهذا السجن الحربى هو إعداد للحكم. لم أفهم فى البداية أنهم يحتاجون إلى نماذج، إلى ضحايا يخيفون بها من تسول له نفسه أن يرفع صوته.

قمت فجأة. انتفض اليأس مجنونا فى جسمى. درت حول الحجرة أركل كل شىء مستعينا بالحديد لفوه حول قدمى. لم أعد أعى شيئا. رغبة عارمة فى التحطيم تملكتنى. هشمت المقعد والمنضده. أفرغت جردل البول على الأرض ودست عليه. مزقت الأغطية والمرتبة ثم انهرت على السرير أبكى.

فتح "عويس" الباب فى الصباح. دار بعينيه على المقعد المهشم، والمنضدة فقدت قوامها ومالت على جانبها فى الركن، على أجزاء من الفراش والمرتبة مبعثرة فوق الأرض المبللة بالبول، انسحب مغلقا البابا وراءه.

ظللت جالسا على السرير أرتعد من البرد والخوف من العقاب الذى سيقع على. مرت ساعتان أو ربما أكثر. فتح الباب وظهر جندى كان معه اثنان من المساجين. أخرجا محتويات الحجرة كلها ما عدا السرير وأغلق الجندى الباب دون أن يقول شيئا. أصبحت الزنزانة عارية تماما. سيتركوننى هكذا لأحتضر. عدت إلى حافة السرير أجلس عليها فتنغرس فى جسمى. تملكتنى رعشة أخذت تهزنى دون توقف.

قمت أخطو بخطوات قصيرة، سريعة تكبلها سلاسل الحديد حول رسغى. سمعت صوت الباب يفتح فالتفت. عاد الجندى ومعه المسجونان يحملان مقعدا ومنضدة ومرتبة وبطاطين وجردلا للبول. كانت جميع هذه الأشياء تبدو جديدة خرجت على التو من المخزن. وضعا كل شىء فى مكانه وأنا اتتبعهما بإحساس من الدهشة ثم خرجوا مغلقين الباب وراءهم. جلست على المقعد. تحسست المنضدة طلاؤها الجديد الأخضر الداكن يلمع. جردل البول جديد هو أيضا لا تصدر عنه رائحة. هل هى رسالة خفية يبعثون بها إلى؟ هل يقولون لى لا فائدة من كل ما أفعله وإننى وقعت فى قبضتهم. هل يقولون "اضرب رأسك فى الحيط فلن تهشم فى النهاية سواه."

عدت إلى الرقاد فوق السرير. أحسست بالهزال الشديد. أقل حركة أصبحت ترهقنى. أكاد أعجز عن تحريك ذراعى فيهما ثقل غريب كأننى أرفع جبلا. أبقى راقدا دون أن أتحرك. اشعر بالوهن يزحف على عقلى. أريد أن أغلق جفونى أن أغيب تماما عن كل ما حولى. أنا هادئ الآن لكنه هدوء يخيفنى. إنه هدوء العجز الفظيع كأننى احتضر، أو أغوص فى حالة من الشلل. يتصاعد القلق فى موجات متعالية، تسقط حبات العرق من جبهتى وتسيل على وجهى؛ وتنز من جسمى. أشعر بها تدور حول عنقى وتهبط على صدرى وبطنى. تنفسى أصبح سريعا كأن الهواء لا يدخل من أنفى، ونبضى أصبح ضعيفا أكاد لا ألمسه عند المعصم.

تملكنى الفزع. أدركت أن ما أصابنى هو حالة من الانهيار العصبى لازالت فى البداية ولكن يمكن أن تقودنى إلى ما هو أخطر إذا لم أشد من أزرى لأخرج منها. لكن كيف أتغلب عليها، كيف أقاوم الفراغ والصمت القاتل يجعلاننى أفكر طوال الوقت فيما سيصيبنى فانغلق على التفكير فى مصيرى، فى الكوارث التى تنتظرنى. يجب أن يتحرك جسمى حتى لا يتعطل ويصيبه الشلل. يجب أن يعرق ويتعب ويستخدم قدراته، أن يتحرك بنشاط إلى أن يأتى الليل فيركن إلى النوم متخلصا من كل توتر. يجب أن ينشغل عقلى مثل جسمى بأشياء متنوعة، ألا يدور فى حلقة مفرغة مدمرة، أن أفتح أمامه مجالات تخلصه من الشحنة التى لا تجد لنفسها منفذا حتى يستعيد التوازن الذى أصبح مهدداً بفقدانه.

الوسيلة هى أن أصنع لنفسى برنامجا أشغل به جسمى وعقلى بأشياء تحول الطاقة المدمرة إلى طاقة تبنى. لكن كيف وأنا مكبل بقيود حديدية؟ سأقوم بالحركات الرياضية التى لا تحول

القيود دونها. يمكننى أن أثنى جذعى عند الخصر، أن أحرك رأسى ذات اليمين واليسار، وإلى الأمام والخلف، أن أنام على بطنى وأرفع جذعى وساقى، إنها حركة صعبة ولكنها مفيدة للظهر وعضلات العمود الفقرى، أن أرقد على جانب وأرفع ساقى المضمومتين فى الهواء وهى حركة مفيدة أيضا. القيود الحديدية التى تكبلنى ستزيد من فعالية التمرينات لأنها تضيف ثقلا للثقل الذى سأرفعه . بعد الانتهاء من التمرينات الرياضية فى الصباح سأسترجع فى ذاكرتى الكتب التى قرأتها. الليل هو أنسب وقت. الخيال فيه أوسع والفكر مركز. أستطيع فى الخيال أن أذهب إلى السينما أو المسرح، أن أشاهد كل الأفلام والمسرحيات التى شاهدتها فى القاهرة وباريس، أن أستمع إلى الموسيقى التى كنت أستمع إليها.

أثناء النهار سأعد دفاعى فى القضية. لابد أن أشارك فى الدفاع عن نفسى وعن أفكارى، وفى النهار أيضا يمكننى أن أرقص وأن أغنى. لن أكون وحدى. سأراقص فتاة أو امرأة أعجبتنى وأستمتع بنشوة الأنغام وحركة الجسم.

قمت من رقدتى على السرير وبدأت أرقص على رنين السلاسل وهى تهتز حول جسمى.

مرت سنون طويلة منذ تلك الرقصة. بعد أن مرت أدركت أن السجن لا ينجح فى تحطيم الإنسان إلا إذا سجن خياله معه. بعدها توالت الأيام بوتيرة أسرع. حياتى أصبحت مليئة. انتهيت من كتابة الدفاع فى ذهنى. قويت العضلات فى ظهرى وساقى وبطنى. أصبحت أنام مثل الطفل، نوما عميقا لا يزعجه شىء. أتناول طعامى بشهية وأعيد التفكير فى كل ما رأيته وقرأته وسمعته لأكتشف فيه ما لم أكتشفه. أصبح برنامجى اليومى يشغلنى طوال النهار وجزءا من الليل إلى أن ينقض على النوم ويلفنى.

فى صباح أحد الأيام من شهر مارس فوجئت بالباب يفتح وأنا راقد فوق البطانية فرشتها على الأرض ومددت جسمى فوقها رافعا ساقى فى أحد التمرينات. لمحت وجه الضابط يطل على ويفحصنى بنظرة فيها مزيج من الضيق، والدهشة. توقفت وجلست القرفصاء رافعا وجهى إليه. قال بنبرة فيها غيظ.

"رجل رياضى أنت يا دكتور. سنريحك من القيود حتى تمارس تمريناتك بخفة".

دخل أحد الحراس. فك القيود من حول يدى ثم انحنى على ركبتيه وخلع الحلقة الحديدية المربوطة حول كل قدم من قدمى بضربة من شاكوش صغير كان يحمله. رفعت الحزام الجلدى المربوط حول وسطى فسقطت القيود الحديدية فوق الأرض بصدمة. جاءنى الشعور بأننى طائر محلق.

قال الضابط.

" ارتد ملابسك."

سألت :

" إلى أين ؟"

قال :

" ليس لك الحق فى السؤال عن أى شىء."

خرجنا من الحوش الصغير إلى حوش أوسع. وصلنا إلى حديقة كبيرة مغطاة بمساحات من الحشيش الأخضر تناثرت فيها أحواض للزهور بعضها أصفر اللون وبعضها أحمر. الحديقة محاطة بجدار عال يمتد حولها فى شكل مربع تعلوه الأسلاك الشائكة والكشافات وأبراج الحراسة. قرب الجدران وضعت مقاعد من القش لا تقل المسافة بين كل منها عن عشرين مترا يعطى الجالس عليها وجهه للجدار، وظهره للحديقة الممتدة خلفه.

عندما وصلت إلى المكان الذى اقتادونى إليه كانت أغلب المقاعد خالية. لمحت بعض الجالسين تقدم نحوهم الجندى الذى كان يرافقنى ليجلسنى بالقرب منهم. جلست على مقعدى وأنا أتأمل التغير الذى طرأ فجأة على الأوضاع. كان الضابط يقف بعيدا و يراقبنا وهو متكئ على عصاة طويلة. أخذت أتلفت حولى بحرص دون أن أحرك رأسى. على اليمين لمحت "أحمد الرفاعى" أومأت إليه برأسى وابتسمت فابتسم إلىّ. كانت الشمس ساطعة تتسلل إلى بدفء لذيذ فتركت لها جسمى ليمتصها. أغلق عينى وهى تسقط على وجهى. أشعر بها تخترق الملابس إلى صدرى وبطنى وتهبط نحو ساقى لتصل إلى قدمى. خلعت الحذاء والجورب وحركت أصابع القدم حتى تنفذ إليها ورفعت رأسى لتغمرنى أسفل ذقنى.

رأيتهم يقودون شخصا يرتدى منامة إلى المقعد الموضوع بالقرب منى. فى البداية لم أتعرف عليه فقد برزت العظام فى وجهه بشكل مخيف و كسا بشرته شحوب مريض يختلط عند الفكين بزرقة الشعر فى ذقنه. فقدت ملامحه حيويتها فأصبحت كالقناع. ملت ناحيته وابتسمت. لوحت له بحركة مستترة من يدى خلف السترة فبدا وكأنه لم يتنبه إلى. فكررت إشاراتى إليه. ظل يحملق أمامه غير عابئ بالآخرين أو بما يدور من حوله. على وجهه علامات الحزن وشىء كالانكسار، وفى جلسته إعياء الشخص الذى امتصت منه كل حيويته فلم يبق منه سوى هيكل مفرغ من كل شىء.

ظللت أحملق فى وجه "كمال" وفى جسمه. حاولت من جديد أن أجذب انتباهه إلىَّ حتى أستخرج منه أى رد فعل يطمئننى عليه ولكن دون جدوى. ظل يحملق بعيدا مثل رجل ضاعت روحه فى أغوار جبل عتيد وما زال يبحث عنها دون أن يهتدى إليها، مثل بحار سافر فى رحلة بحثا عن كنز فى قارة مجهولة بعيدة فعاد منها فاقد الذاكرة بكل شىء.

منذ ذلك الصباح تبدلت المعاملة فى السجن تبدلا جوهريا. بدأ ضباط السجن وضباط المخابرات فى تخفيف القيود والتردد علينا. وصاحب هذا التغيير محاولات لإقناعنا بالتراجع عن موقفنا المعارض لحركة الجيش وتأييدها من جديد. تسربت إلينا أخبار عن حدوث انشقاق فى الجيش، عن خلافات تدور حول الموقف من الديموقراطية بين الضباط الأحرار وعلاقتهم بمجلس الثورة. تحدث معنا بعض ضباط السجن حديثا كاد أن يكون صريحا فى بعض الأحيان عن قضية الديموقراطية فى حركة الجيش فأحسسنا أن هناك تطورات لها أهمية لا نعرف كنهها بالدقة، إن مسألة تحويلنا إلى محكمة للثورة بدأت تتراجع عن حيز التنفيذ لأسباب لا ندركها وأننا ربما أنقذنا من مصير قاس كان يعد لنا سرا فى الدوائر العليا، مصير كان معناه الأشغال الشاقة لعدد منا وربما الإعدام لواحد أو اثنين.

قابلت "كمال" أثناء هذه الفترة. أخبرنى أنه أصبح يتردد على المستشفى العسكرى حيث كان يتلقى علاجا بالصدمات الكهربائية. قال لى إنه صار يسمع أصواتا فى أذنيه وأن العصافير فى الحديقة تتحدث إليه. سألنى عن العلاج بالصدمات الكهربائية وتأثيره عليه وهل من شأنه أن يقوده إلى الإدلاء ببعض الاعترافات. طمأنته من هذه الناحية. قلت له إننى لا أحبذ مثل هذا العلاج ولكن ربما فى الظروف الحالية لا يوجد غيره. أخبرته أن حالته مؤقتة ناتجة عن ضغوط عصبية تعرض لها.

بعد أن خلعوا عنى القيود الحديدية أصبحت أمارس البرنامج اليومى الذى وضعته لنفسى بسهولة أكبر ومع الفسح اليومية تحسنت حالتى بسرعة.

مر ما يقرب من أسبوعين وفى أوائل شهر إبريل تم ترحيلنا إلى سجن مصر ما عدا عدد من المتهمين فى القضية أفرج عنهم أذكر منهم "حنفى الشريف" المحامى الوفدى" "وسعد كامل" الصحفى "وأحمد الرفاعى" والدكتور "فؤاد منير" "وكمال عبد الحليم" كما تم الإفراج عن "يوسف حلمى" المحامى عضو الحزب الوطنى وأمين عام مجلس أنصار السلام المصرى. عرفت أنهم وقعوا على بيان أيدوا فيه اتجاه "جمال عبد الناصر" لم يعرض علىَّ أو على بقية المتهمين فى القضية ولم أعرف به إلا بعد أن مرت سنون.

الفصل الخامس عشر

من "الجبل" إلى المحاريق

فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٤ تشكلت محكمة عسكرية من خمسة ضباط برئاسة اللواء "فؤاد الدجوى" ثم وصلنا قرار الاتهام فى قضية الجبهة بعد أن نقلتنا السلطات من السجن الحربى، وأودعتنا سجن مصر أو سجن "قرة ميدان" كما كان يسمى فى العهد التركى.

فى شهر سبتمبر مثلنا أمام المحكمة فى جلسة علانية حضر فيها أهلنا وأصدقاؤنا والمحامون أعضاء هيئة الدفاع وبعض مندوبى الصحافة وعدد كبير من المخبرين ورجال الشرطة. جلسنا على الدكك الخشبية فى قفص الاتهام نطل من خلف القضبان على ما يجرى فى شأننا. وعندما سألنا رئيس المحكمة السؤال التقليدى "مذنب أم غير مذنب" رد كل منا بكلمة قصيرة عبر فيها عن اعتراضه على المحاكمة العسكرية فى قضية كل المتهمين فيها مدنيون أصحاب رأى لم يمارسوا أى نوع من العنف وكشفنا فيها عن أساليب الضغط والتعذيب التى اتبعت معنا فى السجن الحربى.

على أثر ذلك اتخذت المحكمة قرارا فى الجلسة نفسها بجعل كل الجلسات سرية، ومحاكمة كل منا على انفراد بعيدا عن باقى زملائه فى القضية، جلسات لا يحضر فيها سوى المتهم، والمحامى الموكل إليه بالدفاع عنه.

هكذا وجدت نفسى فى أحد الأيام أقف وحدى أمام المحكمة المكونة من خمسة ضباط يجلسون على منصة عالية، وأنا أحملق فى السترات العسكرية وضعوا عليها النياشين التى نالوها، و"الكابات" المزدانة بأشرطة حمراء، والأزرار النحاسية تلمع فى ضوء الكهرباء كلما تحرك أحد منهم. كان اللواء "فؤاد الدجوى" يتحدث بصوت جهورى يرن فى القاعة ويؤتى حركات من يقود معركة حربية مهمة. انتابنى خليط من المشاعر، قدر من الرهبة وقدر أكبر من الاندهاش والإحساس بأننى أشهد مسرحية.

كنت أدرك يقينا أنهم سيصدرون علينا أقصى الأحكام وإلا لما لجأت سلطات الثورة إلى تشكيل محكمة عسكرية خاصة كلها من الضباط، إن كل الإجراءات التى تتم لا علاقة لها

بالعدالة أو القانون، إننى أشاهد تمثيلية أومظاهرة سلطوية أنا مشارك فيها بصفة الضحية التى لابد من وجودها، فهل أنا خطير إلى الدرجة التى تستلزم شحذ كل هذه الهمم العسكرية، كل هذا الصولجان والإجراءات المتسمة بالتشنج، والشدة للقضاء على؟ زالت عنى الرهبة بالتدريج فالوضع مثير للسخرية. تقمصت روح المتفرج الذى جاء ليشهد مالا يتاح له عادة أن يكون شاهدا عليه.

عندما جاء دورى لأترافع عن نفسى أخرجنى رئيس الجلسة من قفص الاتهام، وأمرنى بالجلوس على مقعد وضعوه فى القاعة لهذا الغرض، ويبدو أن التقاليد فى مثل هذه المحاكمات كانت تستلزم أن يرسل المتهم إلى السجن أو المشنقة على مقعد احتراما للديمقراطية وحقوق الإنسان. أليس من حقه أن يجلس مثل القضاة وأعضاء النيابة العسكرية ، والدفاع فهو برىء مثلهم لم يصدر عليه حكم بالإدانة حتى هذه اللحظة؟ لأ! هكذا جلست على المقعد أمام القضاة الخمس ألقى المرافعة السياسية التى أعددتها فى السجن الحربى فزاد شعورى بأننى أحيا فى حلم غريب. كان صوتى يرن بصدى أجوف فى الصالة يرتد من جدرانها الأربعة بذبذبات تعود إلى كأننى أحدث نفسى، فبينى وبين الضباط الجالسين على المنصة مسافات لا سبيل إلى اختراقها. جاءوا ليصدروا أحكاما على عدو ينذر بالخطر لأسباب غامضة أقنعوا أنفسهم أنهم يعرفونها بينما يجهلون كل شىء عنها .فترى ما الذى يدورفى أذهانهم؟

صدرت علينا الأحكام فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ وكانت كلها بالأشغال الشاقة لمدة خمس، أو ثمانى أو عشر سنوات وكان نصيب ثلاث منا عشر سنوات هم "حليم طوسون" و"محمد شطا" وأنا. على أثرها نقلنا من سجن مصر إلى "ليمان طره"، إلى ذلك المكان الذى يتردد اسمه فى رهبة عندما يتحدث المساجين عن تجاربهم، أو عما سمعوه في الليالى الطويلة يقضونها فى زنازن العنبر، يتداولون فيها لفائف التبغ، وكيزان الشاى، وأشياء ظلت حية فى أحاديثهم.

بعد أسبوع من وصولنا جاء أبى فى زيارة خاصة. جلست أنا وهو على أريكة من الجلد تفصل بيننا المسافة المطلوبة فى زيارات السجن. من النافذة ألمح رجالا فى لباسهم الأزرق يرشون الحوش بالمياه أو يكنسونه بمكانس من الجريد، أو يستريحون فى ظل الأبواب ويلقون بنظراتهم فى حرص نحو مكاتب الضباط خوفا من أن يفاجئهم خروج أحدهم إلى الحوش. أسمع صوت حارس يرتفع فى تهديد "أنت يا مذنب انزاح من هنا بسرعة ولا حتعرف شغلك" أو رنين السلاح عند برج الحراسة، أو صليل القيود تهتز مع خطوات العائدين إلى العنبر.

أبى يرهف السمع لهذه الأصوات تفرض نفسها عليه. ألمح ظلا من الخوف يطل من عينيه. هذه الأصوات المخيفة تأتى من العالم الذى أدخلونى فيه. كلمة "الليمان" تتردد فى أذنيه وتثير فى خياله صورا غامضة عن القسوة والتعذيب، عن سجن أقيم لأعتى المجرمين، للقتلة

والسفاحين، فكيف يرسلون شابا مثلى إليه؟ كلمة "مذنب" يخاطبون بها المساجين، كيف يطلقون هذا الوصف على ابنه يطل عليه بنظراته الصافية كأنه لم يحدث شىء، فأبى لا يعلم أن "الليمان" رغم القسوة الموجودة فيه، ورغم الصدمات الأولى التى تلقيتها عند دخولى إليه كان منذ اليوم الأول انتقالا من حيز الزنازن المغلق إلى المساحات الواسعة نسبيا يتحرك فيها ما يزيد عن ثلاثة آلاف من المساجين بين المحجرة والمزرعة وورش الأثاث والتماثيل. هو لا يعلم أنه منذ أن دخلنا من بوابة "الليمان" الضخمة تئن كالساقية القديمة لم يخاطبنا أحد من ضباط السجن أو حراسه بوصفنا مذنبين.

كانت هذه هى أول مرة يدخل فيها هذا العدد من السياسيين المنتمين إلى اليسار إلى سجن "الليمان". كان عددنا عشرة مسجونين بينهم عامل واحد والباقى من المهن أو من المثقفين ففوجئ القائمون على شئون السجن بنوع جديد من " المذنبين " لا يفترقون عن أفراد أسرهم أو الناس الذين يتعاملون معهم فى حياتهم اليومية خارج السجن حتى وإن كانت السلطات تطلق عليهم وصف الخطرين. لذلك كانوا حريصين على تفادى الاصطدام، وعلى التعامل معنا بطريقة تختلف عن تعاملهم مع باقى المساجين.

يوم أن دلفنا من بوابة الليمان جاءنى الإحساس أننا وصلنا إلى آخر الدنيا. قلبى يدق، وعيناى تبحثان حولى. لكنى لم أكن وحدى، والتجارب الماضية وهبتنى اليقين بقدرتى على مواجهة هذا العالم الغريب. كل الأشياء هنا مثيرة للهيبة، الأسوار العالية وأبراج الحراسة، والعزلة التامة عن باقى المدينة. المساجين أجسامهم قوية وقامتهم طويلة وبشرتهم لفحتها الشمس بصبغة نحاسية، منحوتون، صامتون كالتماثيل، حول سيقانهم ترن سلاسل الحديد. حركة الرجال هنا سريعة، مطيعة تنم عن نظام فيه جبروت. المبانى حجرها الأبيض تحيطه الحدائق، والشجيرات والأحواش، والممرات الرملية المرشوشة. مكاتب الضباط يقف عند أبوابها حراس، ومساجين فى وضع الاستعداد كأنهم ينتظرون الأوامر ليندفعوا هنا، أو هناك. المبانى لاترى عند الدخول من بوابة السجن فهى مختفية فى مكان قصى، منفية إلى بقعة أسطورية مجهولة لا تراها العين ولا يصل صداها إلى العالم الخارجى. هنا لا وجود للفوضى أو الضجيج الذى تعودنا عليه فى سجون الاحتياط والسوابق والأحكام البسيطة. إجراءات الدخول تتم بسرعة لا تردد فيها أو ثرثرة أو أوامر متناقضة يتم الرجوع فيها لتصدر أوامر جديدة. إذا صدرت تصدر بصوت عال يرن فى الصمت، وتسمع بعدها دقات الأحذية الميرى تجرى فوق الممرات، أو حفيف الأقدام الحافية وصليل السلاسل حول السيقان تعبر المساحات الرملية.

سجلوا أسماءنا فى الدفتر الكبير عند البوابة. فى المدخل وقف الشاويش وبعض الحراس واثنان أو ثلاثة من المساجين ولا أحد غيرهم كأنهم قد أخلوا المكان لدخولنا. ساقونا إلى

المكاتب حيث تسلموا منا الأمانات الخاصة بنا: ساعات ونقود وآقلام ودبل زواج وأشياء أخرى لا يجوز الاحتفاظ بها مثل صور الأهل والأحباب، والأصدقاء ثم سار بنا الحراس إلى مبنى منخفض محاط بجدار وفناء داخلى. فى الفناء ثلاث كتل حجرية مستطيلة، وقرب الجدار منضدة من الصاج عليها أدوات، ومسامير، وفى ركن الفناء كوم من القيود الحديدية.

أوقفونا فى طابور أمام إحدى الكتل الحجرية. أحضر اثنان من المسجونين بعض القيود الحديدية وألقوا بها إلى جوارنا. لاحظت أن سيقانهما خالية من القيود. عندما جاء دورى أوثقوا حزاما جلديا حول خصرى ثم طلب أحدهما منى أن أرفع قدما وأتبعها بالأخرى فوق الكتلة الحجرية. أدخلوا الجزء الأسفل من كل ساق فى حلقة حديدية وأغلقوها بمسمار غليظ دقوا على رأسه المربع بشاكوش.

بعد أن انتهى الحارس من مهمة وضع القيود سار بنا مسافة إلى أن وصلنا إلى عنبر كبير، ثم صعد إلى الدور الأول وقام بتسليمنا إلى شاويش الدور بمقتضى كشف كان يحمله معه. تسلمنا الأبراش، والبطاطين، وجرادل المياه والبول من الشاويش ثم أغلق علينا الباب.

فحصنا الزنزانة فهى ستكون بيتنا للسنوات القادمة. مستطيلة تسعنا بالكاد بابها فى الأول، وفى جدارها الخارجى أربع نوافذ عليها قضبان. وضعنا جردلى المياه والبول قرب الباب وقسمنا باقى المساحة فيما بيننا بحيث يختار كل منا المكان الذى يريد أن يضع فيه فراشه لينام. ساد الوجوم مدة قصيرة ثم ارتفعت الأصوات تتبادل الكلام ، والنكات. هكذا كان يومنا الأول فى الليمان.

عينا أبى تتفاديان النظر إلى أسفل، إلى حيث تبرز القيود الحديدية من تحت القميص الأزرق الطويل لتلتصق بالساقين وتلتف حول القدمين. يصارع حتى لا ينظر إليها لكنه لا يستطيع. عيناه تنجذبان إليها كالشىء المشوه نعرض عنه وننجذب إليه. من أجلى يريد أن يبدو عاديا كأنه لم يلاحظ شيئا لكنى ألمح حركة عينيه. يظن أن نظرة منه قد تنبهنى إلى ما أعانى منه أو ربما يخاف من مواجهة الحقيقة المجسدة فى الحلقات الحديدية تلتف حول جسمى كالثعبان انقض على. يحاول أن يتماسك رغم الألم فيتحدث حديثا متصلا لننشغل به ولكن بين الحين والحين تضيع منه الكلمات. يبحث عنها فلا يجدها. تطرف عيناه إلى أسفل بتلك النظرة الجانبية الخاطفة التى أعرفها والتى كنت ألمحها عندما يريد أن يخفى عنى شيئا لكن ما أجمل الإخفاء الذى يلجأ إليه فى هذه اللحظة. إنه يصارع الدموع التى تصعد خلف مقلتيه واليأس الذى يزحف عليه ويحتل كيانه جزءا بعد جزء وموقعا بعد موقع. إذا انهار الموقع الذى ما زال يحتفظ به سأرى مالا أريد أن أراه، سأراه وهو يبكى أمامى لأول مرة.

الآن أصبحت أدرك أن الذى سجن، وتعذب ليس أنا وإنما أمى وأبى. فطوال السنين التى توالت من ١٩٤٨ إلى نهاية ١٩٦٣ كنت مستغرقا فى نفسى، فى المشروع الكبير الذى وهبت له

حياتى، فى هذا الحلم بالمساواة بين البشر والغد المشرق الذى يهبنى رضاءً عن نفسى والذى أحقق به ذاتى. أنتقل من تجربة إلى تجربة، أبحث وأقرأ وأكتب، أحزن وأضحك، أصارع الضعف وأنتصر عليه فأقوى وأدرك، أحيا مشدودا كالوتر يغنى، يقوينى ويسندنى ذلك التضامن المدهش الذى ينشأ بين رفاق الطريق يعيشون أيامهم فى خطر، وينامون إلى جوار بعضهم كأنهم فى مأمن، أزحف على وقع الشعر يتفجر من المعاناة والفراق والخيال ويبحث عن وطنه الحقيقى، أحيا ذلك الإحساس الحاد المنعش بالسير على حافة الهوة.

أدركت بعد أن كبرت وتزوجت وأصبح لى بنت وابن ما كان غائبا عنى فى أيام الشباب والانشغال بالذات والحلم الكبير لكنى فى ذلك اليوم اقتربت من هذه الحقيقة. قبس من النور أضاء عقلى وجعلنى لا أترك أبى ليصارع وحده. ساعدنى الحب انتفض فى لحظة. تعودت منذ الصغر أن أدفن الأشياء فى صدرى، ألا أعبر عنها ولكن هذه المرة قررت أن أقتحم الجدار، قررت أن أنطق.

مددت قدمى أحاطت بهما سلاسل الحديد وقلت.

" أنت بتفكر فى الحديد اللى أنا لابسه؟ "

فوجئ. قطب جبينه ودارت عيناه حوله فى حيرة. تردد كأنه يبحث عن رد. لجأ إلى علبة السجائر فى جيبه أخرجها وأخرج منها لفافة أشعلها بأصابع فيها رعشة. التفت إلى الضابط الجالس خلف مكتبه وسأله ان كان يسمح لى بالتدخين. فتطلع إلينا الوجه الحليق الرسمى فى جمود يفصح عن الارتباك أمام الموقف فاللوائح تمنع التدخين فى السجن. قلت بسرعة.

" شكرا لم أعد أدخن" ثم التفت إلى أبى، وقلت:

"هه لم ترد على."

لمحت أصابعه الطويلة تشبه أصابعى تمتد إلى فمه وتمسك بشفته السفلى بتلك الحركة التى اعتادها عندما يفكر فى شىء قال:

" لم أتعود على رؤيتك هكذا فى القيود. "

" وأنا لم أتعود عليها أيضا".

" أتؤلمك"؟

" لا إطلاقا. أحس فقط بثقلها. يقولون إن وزنها ثلاثة كيلو جرامات لكنها تبدو أثقل من ذلك، ربما لأننى لم أتعود عليها. بعد أن تمر الأيام سأشعر أن وزنها خف. انظر "رفعت القميص" انها مربوطة حول وسطى بحزام".

" لم أكن أتصور أنه يمكن أن يفعلوا هذا بالناس."

" لا تقلق. ستندهش أنه عندما وضعوا على القيود آحسست بنوع من الزهو. أيخشون التمرد إلى هذا الحد. إنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منى."

" لكنها تؤلمك قطعا نفسيا على الأقل، أو تقلقك أثناء النوم."

" أبدا والله، أنت منشغل بما لا يجب أن تنشغل به. الأشياء تبدو دائما أصعب لمن لم يقع فيها."

القلق ما زال يطل من عينيه.

"هل حالتك كويسة حقا؟"

ضحكت بصوت عال. التفت إلينا الضابط بحركة من رأسه تنم عن الضيق لكن الابتسامة عادت إلى وجه أبى.

" هل يبدو على أى شىء يمكن أن يسبب لك هذا القلق؟ صحتى جيدة وبدأنا نرتب حياتنا هنا. سأخرج من السجن قريبا وستتذكر الحديث الذى دار بيننا. لكن الزيارة قاربت على الانتهاء وأريد أن أتفق معك على بعض الترتيبات. سأرسل إليك أحد الحراس كما كنت أفعل فى سجن مصر. أعطه خمسة جنيهات كل شهر وكافئه بما ترى. سأستخدم النقود التى ترسلها لشراء خضراوات من المزرعة ولحم من المطبخ وأشياء أخرى أحتاج إليها، وأرسل معه بعض الكتب. ستجد بها كشفا مع الرسالة التى سيحملها إليك. سلم على أمى وطمئنها قل لها إننى أريد أن أراها فى المرة القادمة وحافظ على نفسك، يالله مع السلامة."

قال الضابط وهو ينظر إلى ساعته :

"وقت الزيارة انتهى."

خرجت من باب الغرفة. كان الحارس ينتظرنى. تلفت نحو أبى ولوحت له بيدى. علت الابتسامة شفتيه هذه المرة دون تردد. سرت فوق أرض الحوش بخطوات بطيئة أتابع بأذنى صليل القيود.

"الجبل" كلمة فى الليمان لها رنين خاص ولها معنى. لم يرد ذكره فى الكتب. لم أسمع عنه فى المدرسة. لم يحدثنى عنه أحد قبل أن أدخل "ليمان طره". هناك أشياء كثيرة فى الحياة تظل طى الكتمان، مسكوتا عنها لكن فى الليمان جبل كان على أن أشهده حتى يضاف ركن جديد فى معرفتى بأمور الدنيا.

الشمس تسقط أشعتها فوق بحر من الرءوس الحليقة تختفى تحت الطواقى الزرق. بحر يمتد حتى رؤى العين إذا رفعت رأسى ونظرت إليه. ولكن رأسى يجب أن يظل مثل رءوس

الآخرين محنيا، وعينى يجب أن تظل مثل عيون الآخرين مثبتتين على المساحة الصغيرة من الرمل تفصل بين قدمى وأنا جالس القرفصاء عليها .

أشعة الشمس كالنار البيضاء تعكسها الرمال فتحرق جفون العين والننى. ضوءها مؤلم. حبات الرمل والحصى ترقد خشنة تحت بطن القدم، فى الشتاء باردة كالثلج ترعش، وفى الصيف كالإبر الساخنة تلسع، ومع الأيام تكون قشرة من الجلد الأسمر.

قانون الليمان مثل قانون البلاد، لكنه أوضح يحتم أن تظل الرأس محنية على الدوام فأى حركة إلى أعلى، أى التفاتة بسيطة إلى الأمام، أى صعود فى ميل العنق من أسفل إلى أعلى يعنى بداية التمرد ويستوجب العقاب الذى لا يرحم.

صفوف خلف صفوف من المساجين تجلس القرفصاء صامتة مستسلمة كالبحر بعد هبوط العاصفة ورياحها، مساحة مستكينة من الزرقة الباهتة ومن حولها " الجبل الأصفر، " كتلة آدمية ضخمة مسلوبة الإرادة لا تتحرك. الجذوع والأعناق والرءوس تصعد من بين السيقان فى خط متواز يميل إلى أسفل بالميل نفسه، كالأمواج المنتظمة تجمدت فجأة. آلاف الأقدام ثابتة فوق الأرض وآلاف الأجسام تلفها القمصان الزرق، وآلاف العيون تطل من تحت الجفون خلسة.

فى الصباح عندما خرجنا من العنبر حددوا لنا موقعنا فى مقدمة طابور "الجبل" ليسهل عليهم مراقبتنا ومنعنا من الاتصال بغيرنا. لمحنا خطا طويلا من الخيالة ينتشر حول جموع المساجين على الجانبين ليلفهم فى حصار محكم. صهيل الخيول كالصرخة، كالإنذار يتحدى، وأقدامها المندفعة فوق الرمال تثير سحبا صفراء خلفهم فأسمعها مثل إيقاع سريع على عشرات الطبول. أرى البنادق الأتوماتيكية والسيوف ترتفع ثم تختفى فى غمدها. صلب ونحاس وجلود تلمع فى الشمس مع كل حركة فى جسم الحصان المتوتر، وصوت البروجى كنداء للهجوم يتردد، والرمال سحبٌ طويلة تتهادى من الخلف. الخيول تجرى أو تدور حول نفسها ثم تندفع إلى الأمام مرة أخرى، العرف فى الهواء والذيل يتطاير، وبياض العين قلق مقلق.

الطابور الذى أصبحنا جزءا منه يمتد ما يقرب من نصف كيلومتر، مقسم إلى مربعات وعند كل مربع حارس يحمل "شومة." قبل أن يتحرك جاء "مأمور الجبل" ممتطيا حصانه وتوقف فى مقدمة الطابور بحيث تفصله عنه مسافة عشرين مترا. خصره محاط بحزام عريض من الجلد ومسدسه يبرز مقبضه الطويل الأسود عند جانبه الأيمن. جسمه العريض يربض على ظهر الحصان. ينتظر موليا ظهره إلينا دون أن يتحرك وإلى جواره يقف ثلاثة ضباط من الخيالة مثل أركان الحرب. بين الحين والحين يندفعون هنا وهناك كأن شيئا ينذر بالخطر ويصدرون الأوامر بأصوات فيها تشنج، فكل حركة فى هذه الإجراءات مدروسة كجزء من طقوس التحكم، والإرهاب تدربوا عليها حتى يحكموا هذه الجموع تجلس القرفصاء فوق الرمال، أعناقها محنية وعيونها فى الأرض كأنها تحمل جبلا فوق أكتافها.

لمحت حارسا أسمر نحيل الجسم تقاطعيه حادة يتقدم مسرعا نحو المأمور. أدى التحية ووقف كالسلك المشدود ثم هتف.

" تمام يا فندم. ألف وخمسمائة واحد وعشرين. "

" طيب يا شاويش طلع الجبل."

رن صوت هائل فى الفضاء وتردد كأن أصواتا أخرى تلقفته على طول الطابور فطارت الغربان فى موجة من الذعر الأسود.

" الجبل قف."

صرخت الصفافير صرخة حادة طويلة اخترقت طبلة الأذن. قام الطابور مثل غابة من الأشجار ارتفعت من الأرض فجأة ورنت آلاف القيود بصليل قوى كأن جنزيرا ضخما بدأ يدور، ثم خفت الصليل بالتدريج وتحول إلى اهتزازات متفرقة هنا وهناك فى الطابور. دوى صوت جهورى إلى جوارنا تلقفته أصوات أخرى على طول الطابور حاصرتها التلال الحجرية على الجانبين فعاد إلينا الصدى مضاعفا.

" إلى الأمام سر، إلى الأمام سر... إلى الأمام سر. "

تحرك جنزير الخيالة أعلى التلال وزحفت آلاف الأقدام فوق الرمال ليصدر عنها دبيب كالخف الضخم يتقدم. آلاف السلاسل ترن برنين مكتوم. الشريط الرمادى الطويل يتلوى فوق الطريق الممتد، وعلى الجانبين الفرسان خطان متوازيان يتقدمان ببطء.

سرنا ما يقرب من ثلث الساعة. عند نهاية الطريق أخذت الأرض تهبط بالتدريج ودخلنا فى حفرة ضحلة تشبه "السلطانية"، وتحيط بها تلال من الحجر الأبيض لا تنقطع إلا عند الطريق الذى جئنا منه. توقف الطابور وانقسم إلى فرق ذهب كل منها إلى مكان محدد عند أسفل التلال. مع كل فرقة تحرك عدد من الحراس يحملون "الشوم" بينما وقف الفرسان أعلى التلال يطلون عليهم. ألمح الخيول وهى ترفع رءوسها وتخفضها، أو تنقل جسمها من قدم إلى قدم بحركة متوترة ومن ورائها السماء الزرقاء أصبح لونها باهتا فى وهج الشمس.

على يسار الطريق الذى وصلنا منه فجوة تشق التل الأبيض من القمة حتى الأرض أسفل السفح كأنها قطعت بسكين ضخم، وقضبان للسكة الحديد تمر فى الشق لتدور حول "السلطانية" كالثعبان يرقد على الرمل محتميا بالجبل من حرارة الشمس.

زحف المسجونون على سفح الجبل ليصلوا إلى موقع العمل. سمعت صوت المعاول وهى تصطدم بالسطح الصلب وسقطت كتلة كبيرة من أعلى السفح تصاحبها صيحات تقول "حاسب عندك." من حين لآخر يتردد صوت حارس بالشخط " اعملك همة يا مذنب أنت وهو".

الأجسام تعلو وتهبط مع حركة المعاول، والوجوه السمر مشدودة ينهمر العرق عليها من الجهد يبذلونه فى فصل قطع الحجر وقطعها إلى كتل متقاربة فى الحجم يحملونها على أكتافهم ويضعونها فى العربات التى يدفعونها فوق القضبان لتخترق الفجوة المنحوتة فى الصخر وتختفى وراءه حيث ينتظر القطار ليسحبها.

يأتينى رنين السلاسل تهتز، وصوت الحديد يصطك بالحديد أو بالصخر، وصراخ العجلات فوق القضبان عند المنحنيات أو زعيق أحد الحراس الأجش. أما المساجين فلا صوت يصدر عنهم.

من أعلى ترمقهم عيون الخيل وعيون العسكر وعيون البنادق المصوبة إليهم. تنتظر أقل حركة لتصب رصاص الموت فى أجسامهم ولتترك بقعا حمراء فوق الجير الأبيض تختلط بالدماء التى سالت من يد أو قدم بترت أثناء إنزال الحجر أو رفعه من الأرض، أو نتيجة شظية طارت من "الديناميت" الذى يفجرون به الجبل لتقطع فى اللحم الحى.

اقترب منا أحد الضباط مختالا فوق حصانه. وجه خمرى، وشعر أشقر وملامح وسيمة تطل من تحت "الكاب." الحصان الأحمر يقفز راقصا فوق الأرض وهو يقترب منا كأنه سيدوس فوقنا. أوقفه فى آخر لحظة بحركة صغيرة من اليد. توقفنا أمامه وعيوننا مصوبة إلى أعلى فى صمت. رمقنا من فوق الحصان بابتسامة بدت كالاعوجاج فى الوجه. هذه الأجسام الهزيلة والعوينات!! شلة من الطلبة لا أكثر ولا أقل. ليسوا كالرجال الذى تعود أن يسوسهم. أشار بعصاه القصيرة إلى "محمد شطا" أكبرنا فى الحجم وله شارب أسود كث كأنه يقول لنفسه " سأبدأ باتخن شنب فيهم. "

" أنت، أيوه أنت تقدم خطوتين.

خطا " شطا " خطوتين إلى الأمام ووقف ينتظر. سأله :

" بتشتغل إيه؟ "

" باشتغل عامل نسيج. "

" عامل؟! وإيه اللى جابك هنا؟ "

ظل " شطا " صامتا لا يرد.

" ما ترد. "

" اتحكم على بالاشغال الشاقة. "

ضحك ضحكة قصيرة فيها سخرية .

" مانا عارف. أمال حيجيبوك هنا ليه ؟ أنت عبيط واللا ايه ؟ "

أصبح وجه " شطا " جامدا لا تتحرك فيه عضلة. جسده المربع ثابت فوق الأرض. عيناه فقط تتحدثان. مقلتان من السواد الغاضب. نقف وراءه دون أن نقول شيئا. لغتنا الصامتة تقول ليس الآن، ليس الآن وقت الصدام يا "محمد. "

مال الضابط إلى الأمام ورفع عصاته فى وجهه. لم يرمش له جفن. من بعيد تأتينا أصوات الجبل، حجارة تتدحرج وتسقط، وصوت حديد يصطك بالحديد. ردد الضابط سؤاله مرة أخرى.

" بقولك إيه اللى جابك هنا؟

" قضية شيوعية. "

" شيوعية؟! ما عاندناش حاجة اسمها شيوعية هنا. كلكم مذنبين فاهم ؟ مش عايز أسمع الكلمة دى مرة ثانية. "

أشار بعصاه إلى ركن منعزل من الجبل وأضاف:

" تشتغلوا هناك. عايزين ربع عربية على آخر النهار فاهمين. خدهم يا شاويش. "

قال الشاويش:

" حاضر يا فندم. يا لله يا مذنب انت وهو. "

وقفنا فى مكاننا لا نتحرك. تقدمت ووقفت إلى جوار " محمد شطا. " قلت:

" تسمح يا حضرة الضابط. "

كان قد أدار حصانه فمال ناحيتى بنصف وجهه. لمحت الرموش طويلة حول مقلة العين العسلية فيها رعشة.

" عايز إيه انت كمان؟ "

قلت:

" لن نعمل فى الجبل. "

نظر إلى فى دهشة. ظل صامتا كأنه فقد النطق. ثم تفتق ذهنه عن مخرج

" مالك أنت ومال البائيين. كل واحد يتكلم عن نفسه. "

قلت:

" أنا مندوب عنهم. "

أدار حصانه ليواجهنا.

" اللى رافض العمل يتقدم خطوتين. "

تقدم الباقون خطوتين كأنهم رجل واحد. ظل يحملق فينا لحظة ثم قال :

" انتو طبعا عارفين ان ده اسمه تمرد، والتمرد فى "الجبل" عقابة قاسى، قاسى جدا.

قلت: اطلقوا علينا الرصاص. مش حنشتغل فى الجبل. "

التفت إلى الشاويش والحارس الذى كان معه .

" محدش منهم يتحرك من مكانه فاهمين يا غنم ؟" وانطلق يعدو بحصانه نحو مبنى منخفض عند طرف الجبل. عيون الحارسين تختلس نظرات خاطفة إلينا انضمت إليها عيون أخرى أحست من بعيد أن شيئا يحدث. أخذ بعضنا يتنقلون فى المساحة الصغيرة التى توقفنا فيها بخطوات قصيرة متوترة وجلس "زكى مراد" على الأرض وأخذ ينقل الحصى كأنه يلعب السيجة. لمحنا الضابط ينطلق نحونا على حصانه. كان وحده. أبطأ حصانه، ثم توقف. خاطب الحراس دون أن ينظر إلينا "يا شاويش خد معاك أربعة عساكر ببنادقهم وارجع بيهم على التأديب."

سرنا فى صفين صامتين. كان كل منا مستغرق فى التفكير. ترى ما الذى ينتظرنا؟ تقدمنا فى كتلة صغيرة متكاتفة. منذ ساعة كان يسير معنا مئات المساجين. الآن أصبحنا وحدنا فى الفضاء الأصفر يمتد بلا نهاية. صوت أقدامنا فوق الرمل موحش. غراب أسود وحيد يطل علينا من فوق سلك للكهرباء يميل برأسه إلى أسفل ويتتبعنا بعينيه الصغيرتين، وجربوع يخترق سطح الأرض فجأة ويقفز أمامنا هاربا فى ذعر. تملكنى إحساس غريب. هذه المساحات الرملية وزملائى يرتدون الملابس الزرق، والقيود الحديدية تشخشخ فى الصمت، والحراس والغراب والجربوع كيف يحدث كل هذا؟ هل أصبحت شخصا غير الشخص الذى أعرفه؟ سأستيقظ بعد قليل لأجد نفسى راقدا فى سريرى أستمع إلى صوت أمى تنادى علىَّ.

***

زعق الحارس:

" اقلع المداس " .

قلت:

" لا مش حاقلعه. "

" أبل ما تدخل لمدير السجن لازم تقلع اللى فى رجلك

" مش حاقلعه ".

ارتفع صوته فى غضب.

" حاقلعه غصبا عنك يا مذنب. أنت عارف انت فين ".

" ما تقولش يا مذنب. "

فغر فاهه كأننى وجهت له لطمة. شفته السفلى الغليظة تتدلى فى بلاهة ويسيل فوقها اللعاب. فكه الضخم زاحف على الوجه ليضغطه تحت الجبهة. وجه قرد عجوز مفترس رضع العنف.

تجمع حولنا عدد من المساجين من نوباتجية المكاتب. الطواقى البيض والبدل الزرقاء الطويلة المكواة بعناية، والشيلان المصنوعة من التيل لها شراشيب. حاملو أخبار المساجين وتحركاتهم إلى الإدارة، جواسيس وقوادون يتاجرون فى الدخان والمخدرات والأعراض موجودون فى كل سجن.

سمعتهم يقولون :

" اقلع مداسك يا مذنب. أصول الليمان كدا. "

ارتفع صوتى يزعق. " مش شغلك أنت وهو. هو أنا داخل جامع "؟ من "الجبل" إلى المحاريق

اختفوا فى لحظة ولم يعد لهم أثر. التفت الشاويش إلى اثنين من الحراس اقتربا من المكان الذى نقف فيه بخطوات سريعة كأن الجلبة جذبتهما. قال الشاويش

" قلعوه البنص(1) اللى هو لا بسه دلوقت حالا. "

أحسست، بأيد قوية تقبض على ذراعى وترفعنى إلى أعلى، صرخت.

" دخلونى عند مدير السجن أكلمه. ما حدش يمد ايده على " وهبطت على إحدى ركبتى. فجأة أحسست بالأيدى تطلق سراحى وبالحارسين تجمدا فى مكانهما كأن تيارا كهربائيا صعقهما. رفعت رأسى لأجد أمامى رجلا نحيلا ضئيل الجسم يرتدى سترة عسكرية وعلى صدره شريط ملون. قال:

" هاته فى مكتبى يا شاويش " عوضين ".

ارتديت الحذاء الذى سقط من إحدى قدمى وسرت مع الشاويش. أدخلنى بعد قليل فى مكتب كبير وضرب تعظيم سلام للرجل الذى جلس خلف مكتبه غارقا فى المقعد وقد خلع " الكاب " من على رأسه. اصطدم حذاؤه الميرى الغليظ بالأرض محدثا صوت كالانفجار. قال المدير.

(1) حذاء بدون رباط.

" روح انت يا شاويش وسبهولى " .

أخذ يرمقنى فى صمت، ويميل إلى الوراء ثم إلى الأمام كأنه يبتعد عنى ويقترب منى ليفحصنى من كل الزوايا. مع كل حركة يصدر المقعد أزيزا يشبه الأنين. المكتب الذى يجلس عليه ضخم يكاد هو والمقعد أن يبتلعاه فلا يظهر إلا العنق والرأس والكتفان والجزء الأعلى من الصدر. قبعته ترقد إلى جواره وصلعته تلمع فى ضوء المصباح. رأسه عليه عدة شعيرات سود مشطها بعناية فى اتجاهات مختلفة حتى تغطى أكبر مساحة ممكنة فتبدو كل شعرة وكأنها مثبتة فى مكانها بالصمغ. سألنى:

" اسمك ايه ؟ "

صوته عادى، ووجهه عادى أيضا. أحسست بشئ من الاطمئنان .

اسمى الدكتور شريف حتاته " .

" دكتور " ؟

" نعم " .

" طب " ؟

" نعم " .

رفع منشه ترقد إلى جواره ليطارد بها ذبابة كانت تدور حوله .

" تقرب للواء صلاح حتاته "

" أيوه ابن عم والدى " .

" وإيه اللى جابك هنا بقى ياسى شريف " .

" قضية الجبهة الوطنية " .

" جبهة؟ وأنت تبقى فى آنى حزب بقى " .

" فى الحركة الشيوعية " .

" شيوعية ؟ وبتقولها كده؟ حاجة غريبة. مالنا ومال الشيوعية ؟ موضة جديدة طلعت الأيام دى. ايه اللى انت عايز توصلله مى الشيوعية بتاعتك دى. البلد بخير والحمد لله وبقينا فى ثورة والملك مشى عايز إيه تانى. عايز الحمار يبقى زى حصان السبق. دا نظام ايه ده. ربنا ما قالش كده. الغريبة إنها ما بتستهويش إلا ولاد الناس. بزمتك خدت ايه مى الشيوعية ؟ اديك فى اللمان أهه. مش تفكر فى أهلك شوية ؟

أخذ يطارد الذبابة مرة أخرى. لا يبدو عليه أنه على عجلة من أمره. التفت إلى فجأة وسأل:

" وإيه الفوضى اللى أنت كنت عاملها خارج مكتبى. انت فى الليمان هنا ولازم تحترم النظام ". هرش فى رأسه بحرص كأنه لا يريد أن يغير من ترتيب الشعيرات و " حكاية الجبل "، وضع القبعة على رأسه وشد على سترته " خد بالك كويس من الكلام اللى حقولهو لك ده. احنا فى الليمان مش فى لوكاندة. لازم تشتغلوا فى الجبل زى غيركم. أى خروج عن النظام مش مقبول. حطيناكم فى التأديب ودى أول خطوة ومفيش حاجة اسمها مندوب. كل واحد يتكلم عن نفسه، وفهم زملاءك كدا. من بكره كلكم حتخرجوا الجبل وإلا حنجلدكم " .

" بس زملائى كلهم رافضين يشتغلوا فى تقطيع الحجر " .

نظر من خلف المكتب بغضب .

" أمال حتشتغلوا ايه. " كانفاه "؟ عايزين تبثوا الفوضى هنا كمان. حنجلدكم واحد واحد ست جلدات وان ما نفعتش نزودهم " .

ظل صامتا لحظة فانتهزت الفرصة.

" عندنا اقتراح عايز أقدموا لحضرتك، واحنا عارفين أن حضرتك بتحل مشاكل أصعب من دى مش زى كثير من مديرى السجون. فيه ورشة فى الجبل للتماثيل. ليه ما نخرجش كل يوم مع الطابور زى الباقين ونرجع آخر النهار بس بدل منكسر حجر نشتغل فى ورشة التماثيل وكدا تبقى حضرتك عزلت الخطرين اللى زينا عن بقية الجبل. احنا مش عايزين نصطدم بالإدارة ولا عايزين نعمل فوضى بس كمان مستعدين نواجه أى حاجة ولا نخضعش لنظام تكسير الحجر .

حملق فى بنظرة جامدة كأنه غير راض عن كلامى. قال :

" مش عايز أسمع كلام زى ده خالص وإلا حنخليكم تعرفوا طعم التأديب الحقيقى. ارجع دلوقتى وقل لزملائك كدا. أنا حاتصرف فى الموضوع ده بنفسى وبالطريقة اللى تعجبنى أنا. ما حدش يقترح على حاجة. احنا عندنا نظام وحنفذه. يا لله يا بنى الشيوعية دى مش عندنا " .

دق على الجرس فجاء أحد الحراس .

" خذه للشاويش خليه يرجعه التأديب ".

خرجت من الباب وسرت فى الحوش إلى جوار الشاويش. أمشى ببطء. عصفور يزقزق فوق الشجر. جمع من المساجين فى أثوابهم الزرق يسوقهم حارس. اتلكأ . قال " يا لله يا بنى الشيوعية دى مش عندنا " قال " يا بنى " لم يستخدم لفظ " مذنب " وقال " زملاءك " ترى ما

الذى سيفعلونه بنا. لا زال يغزونى الإحساس بأن الواقع غائب عنى. أنا كالذى يدرك أثناء الحلم أنه يحلم. ترى متى استيقظ وإن استيقظت ما الذى يمكن أن يحدث ؟

استقر بنا الحال فى الحجرة رقم ١٤ إلى جوار السلم يصعد إلى الدور الأول فى منتصف العنبر ثم يستأنف صعوده. وضعونا قرب السلم حيث يسهل مراقبتنا .

ليمان طره" لم يكن كباقى السجون. فيه عدد قليل من مرتكبى الجرائم الخطيرة مثل تجارة مخدرات، سرقة سلاح أو سرقة بالسلاح أو سوابق دأبوا على مقاومة البوليس والهروب من حصارهم، ولكن أغلب "المذنبين" كانوا من الفلاحين، من وجه بحرى وأساسا من الصعيد. حكم عليهم فى حوادث القتل المرتبطة بالثأر، أو الشرف أو بالدفاع عن أرضهم. يخضعون للتقاليد الإقطاعية ولكن عندهم كرامة يعتزون بها. رجال أشداء، فى مشيتهم اعتداد بالنفس وفى سلوكهم نخوة وشهامة. لا زالت روحهم مشتعلة يحاولون القضاء عليها فى الليمان وإطفاءها فتخبو أحيانا أو تتوارى ولكن ليس تماما. يظل شىء فى أعماقهم كالجمرة إذا جاءها الريح علا لهيبها .

خلقوا ليفلحوا الأرض حتى تنبت. أجسامهم مفتولة تسير بثبات كأنهم فى الحقل خلف محراثهم. وجوههم عظامها بارزة قوية تنطق بالغضب والحزن والود والسذاجة الغافلة المدركة لما لا يعيه غيرهم. ملامحهم السمراء تطل على هادئة. يجلس الرجل منهم أمامى مستسلما كالطفل الكبير فأندهش كيف ضغط أصبعه على الزناد وأطلق الرصاصة القاتلة، وفى لحظة أخرى أدرك من نظرة العينين أن الأصبع فيه جاهز، أن يده تعودت أن ترفع الفأس أو النبوت عاليا لتهوى بهما بالرفق أو الشدة حسب الغرض، ومع الأيام ألمس الغضب يرقد فى الأعماق كالوحش النائم .

أصبحنا نسكن معهم فى العنبر فى حجرة مثل حجراتهم تمتد بالطول قرب السلم. لها باب داكن سميك صنع كالونه فى " شيفيلد ". عندما يفتح تصرخ المفاتيح ولكن أحيانا يفتح فى صمت ساعة الفجر لتفتيشنا. حركة غادرة أصبحت طبلة الأذن قادرة على التقاطها قبل أن تدخل من باب العنبر، حركة يدبرونها وهم جالسون فى مكاتبهم يحتسون فناجين القهوة المحوجة ويدخنون اللفائف. فى الباب عين تراقب لها جفن عندما يرتفع نحس به بغريزة المسجون تنمو فيه أجهزة الحس ليرى فى الظلام ويسمع الخطوة التى لم تأت بعد. عندما يرتفع الجفن أو عندما نسمع همس الخطوة ، أو صوت المفتاح قبل أن يدخل الثقب تلتقى نظراتنا فى صمت وتصبح عضلات الجسم مشدودة تحت الجلد. القلب قد يدق دقة ليتوارى على الفور. القضبان أصلبت عودنا. دخلت فى تكوين النفس. حملتها معى سنين طويلة. أراها تطل على من أعلى الباب مربعات صغيرة، متساوية الحجم يخترقها ضجيج العنبر أو أنفاسه حين ينام كالوحش الرابض فى كهف.

على الجدار الممتد من الباب حتى الطرف البعيد للزنزانة قمنا بدق عشرة مسامير على مسافات متساوية قرب ارتفاع الرأس لنعلق عليها القيود الحديدية علمنا المذنبون كيف نخلعها ساعة النوم. تشبه وهى تتدلى فوق الجدار رباط الدواب، وتحول شكل الحجرة إلى شئ يشبه الزريبة أو " الاصطبل ". الجدار المواجه للباب فيه أربعة نوافذ قضبانها موزعة هى أيضا فى شكل مربعات متساوية نطل من خلالها على السماء زرقاء يؤكد صفاؤها قبح القضبان. النوافذ تدخل منها أشعة الشمس أو ضوء القمر إذا ما اكتمل فى منتصف الشهر أو رذاذ من مطر أو شبورة الصباح أو نداءات الطيور تثير فى قلبى فرحة مفاجئة أو غصة حزن .

عزلنا الركن القريب من الباب " ببطانية " ربطنا طرف منها فى مسمار عند أعلى الباب والطرف الآخر فى قضبان النافذة. هكذا خصصنا مساحة من الزنزانة لنستخدمها فى إعادة طهى الطعام الذى نحصل عليه من مطبخ السجن واعداد بعض الخضروات نبتاعها من المسجونين الذين يعملون فى المزرعة قضوا خمس سنوات فى السجن ورفعت القيود عنهم، ويوم الجمعة نعد الحساء واللحم نحصل عليه من " النوبتجية " والشاويش الذى يحمل إلينا " اليمك"[١] من المطبخ بعد صلاة الظهر وندفع ثمنه بكمية من دخان اللف.

فى هذا الركن صنعنا مخبأ لنضع فيه موقدا للكيروسين من النوع الصامت. حفرنا حفرة واسعة عميقة فى الجدار وأخفيناها بقطعة من الكارتون وطبقة من الجبس الأبيض بحيث يسهل اخراج الموقد منه واعادته ساعة الخطر. وعند الركن الآخر للحجرة مخبأ ثان تحت الأرض غطاؤه قرص قطعناه بآلة حادة فى أسفلت الأرض يرفع ويعاد إلى مكانه. من تحته حفرة كبيرة أخرجنا منها كمية من كسر الحجارة والأسمنت والرمل وضعنا مكانها مكتبة صغيرة، وورق وأقلام، ودخان وشاى، وأمواس للحلاقة، ومذكرات مكتوبة على ورق سجائر اللف بقلم رفيع حاد. وبعض الكتب المدرسية للمطالعة وتعليم القراءة والكتابة .

أول من جاء لزيارتنا الجواسيس. عيونهم قلقة تدور حول الحجرة، وألسنتهم معسولة زلقة تنطلق بالكلمات التى لا يستخدمها عادة من يمشى وراء المحراث أو يعزق فى الأرض فهم " شبه متعلمين " يعرفون ما لا يعرفه غيرهم أو هكذا يظنون. يعرضون علينا خدماتهم وعلى الأخص تهريب الرسائل خارج السجن. نعلم أنهم يعملون بتجارة الممنوعات. يتظاهرون بألا صلة لهم بها لكنهم يعرفون أصحابها وهم على استعداد لأن يكونوا همزة الوصل بهم، ويحذروننا من المساجين الآخرين يصفونهم بأنهم "ولاد كلب ولا مؤاخذة، وحوش."

كل يوم جمعة كانت تقام الصلاة فى العنبر. يهبط ما يقرب من ألف وخمسمائة مسجون إلى الدور الأول. ملابسهم الزرق فى منتهى النظافة غسلوها على البلاط تحت صنابير المياه بقطعة من صابون السجن ثم طووها تحت الفراش وناموا عليها حتى تصبح " مكوية ". يرتدون

(١) كلمة تركية تعنى (التعيين) أى الغذاء المقرر فى السجن.

العمم البيضاء ، والشيلان تتدلى من آكتافهم مرسلة طويلة تصل حتى الساق . يفرشون البطاطين على الأرض ويجلسون. يتطلعون إلى الشيخ خطيب الجمعة يقف على منبر من الخشب. يستمعون إليه وهو يحدثهم عن المذاهب فى الوضوء ويعدهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار إذا أطاعوا أولى الأمر منهم، ويهددهم بنار جهنم إذا عصوا أو تمردوا وكأن ما هم فيه من عذاب لا يكفيه. يرتفع منهم النداء "الله أكبر" كالرعد ينذر بالقوى الكامنة فيهم.

ولكن يوم الجمعة هو أيضا يوم الراحة يقضونه بلا عمل فى المزرعة والجبل، يوم يتزاورون فيه فيما بينهم. يشربون الشاى فى علب من الصفيح، يخرجون أكياس التبغ من جيوبهم ويصنعون اللفائف بأصابع سريعة مدربة ثم يمرون عليها بلسانهم، يشعلونها بالقداحة أى حجرتان للولاعة غرست كل منهما فى قطعة من الخشب عندما يحكونهما فى بعضهما يطير من بينهما الشرار ليستقر فى طرف حزمة من الخيوط القطنية فيشتعل كالعين الحمراء. يقولون "ادينى عين". تدور السيجارة عليهم من باب الألفة، أو إذا كانت "معمرة" فيها حشيش، ويدور معها الحديث عن شئون دنياهم، عن أخبار السجن، عن القضايا والأحكام، عن تنقلات الحراس والضباط الذين ارتبطوا بهم أو أصبحوا يخشون بطشهم، عن "العفو" ومتى يصدر، وأحيانا عن أحد منهم كسر الحديد ورحل إلى سجن قريب من بلدته أو أصابه مرض أو توفى فى السجن، وإذا فاض بهم الحنين واخترق الجمود الذى يحيطون أنفسهم به كالمتراس تذكروا قراهم وأقاربهم والأرض وما تبقى منها إن بقى شىء. ولكن نادرا ما يتطرقون إلى هذه الأشياء فالأحكام الطويلة تستلزم دفنها فى أعماق النفس ونسيانها فى غياهب الستر، فنسبة كبيرة منهم محكوم عليهم "بتأبيده" أى خمسة وعشرين سنة أشغال شاقة. يدخل الشاب ليخرج كهلا أو حتى شيخا هذا إن لم يمت فى السجن.

والمسجونون فى "الليمان" يتجمعون حسب الموطن والأصل فهؤلاء من "المنوفية"، وهؤلاء من "أسيوط" ، وهؤلاء من "الشرقية" وبين كل مجموعة إقليمية صلات تضامن، يساعدون بعضهم، يقدمون العون لقليلى المال والحظ، يحلون مشاكلهم سويا، يرسلون الخطابات وطلبات النقود إلى أهاليهم مع حارس ينتمى إلى المديرية التى ينتمون إليها، وتمتد هذه الشبكة من العلاقات إلى إدارة السجن فيشارك فيها بعض الضباط ويشجعون العصبيات فهم يستغلونها لمعرفة الأخبار، أو لبناء مراكزهم وزيادة النفوذ الذى يتمتعون به وخدمة بعض أغراضهم الخاصة من منافع السجن، والمزرعة وورش الخراطة والأثاث، والتماثيل كما أنها أحد الأسلحة يستخدمونها للتفرقة بين " اللومانية " فى السجن. فالتحكم فى هذا الجمع الجبار يتم بتقسيم الصفوف وإثارة الفرقة لإمكان السيطرة عليهم.

لكل من هذه المجموعات الإقليمية قيادتها فهم يعرفون بعضهم بحكم الموطن، والسمعة والتجاور فى العنابر والشغل لمدة سنين. تفاصيل حياة كل منهم فى هذه القرية المحاطة

بالجدران كالكتاب المفتوح لا يوجد فيه سر، أو الأسرار موجودة لكنها ليست أسرار، إنها معلومات يعرفونها تظل تحت السطح ولا تتناول إلا فى الظلام وإذا لزم الأمر. أما ما عدا هذا فهو مسكوت عنه تماما لأنهم فى عرين الأسد يخافون منه.

يتصدر كل مجموعة رجل أو عدد قليل من الرجال بعد أن يتم التشاور بين أفرادها. هؤلاء هم القادة يتناقشون فى الأمور، ويصدرون التوجيهات، ويعقدون جلسات الصلح أو التحكيم بالأسلوب الريفى المعهود. والقادة رجال لهم نفوذ بحكم المال الذى يملكونه، أو مدتهم فى الليمان أو شجاعتهم أو ذكائهم فى تصريف الأمور، أو حتى الأسرة التى ينتمون إليها، ولكن مهما كان ثراؤهم، ومهما كانت مكانة أو قوة الأسرة لكن مثل هذه الصفات لا تكفى وحدها، فعلى غير ما يحدث فى المجتمع خارج الأسوار لابد أن يكون القائد صاحب شخصية تقنع زملاءه بالاستماع إليه والانصياع لآرائه. قسوة الحياة فى "الليمان"، ونوع المسجونين الذين ينفذون فيه أحكامهم لا تسمح إلا باختيار قادة يتمتعون بالاحترام خصوصا وأن القيادة هنا ليست لها أى صفة رسمية.

أصبحنا نذهب كل صباح إلى ورشة التماثيل. هكذا تحقق لنا النصر فى أول معركة خضناها. أدركنا من خلالها أن الإدارة حريصة على تفادى الصدام وأميل إلى ترك الأمور تسير فى سلام إلا إذا جاءتهم أوامر من سلطة أعلى أو من المباحث .

هكذا أيضاً أصبحنا موضوعا للحديث بين "المذنبين" وإن اختلفت حولنا آراؤهم. نقرأ الاهتمام فى نظراتهم وتجيئنا أحيانا شذرات مما يقولونه. مع ذلك لم يتزايد عدد المترددين على حجرتنا فهؤلاء الرجال حذرون، "تقال"، لا يجرون نحو الأشياء بسرعة، "يجسون خيمنا" كما يقولون وينتظرون الوقت المناسب.

ننام الليل ملء جفوننا. نستيقظ فى الصباح، نشرب الشاى ونرتدى القيود استعدادا للذهاب إلى العمل. نسير فى مقدمة الطابور إلى ورشة التماثيل حيث نقضى اليوم لنعود فى الساعة الثالثة. لم يكن أحد منا مثالا. من راقته الفكرة كان يجرب نفسه فى النحت لمدة ساعة أو اثنتين ثم ينصرف إلى شىء آخر. نقرأ فى كتاب، أو نكتب أو نجلس فى الشمس قرب الحارس يولى وجهه ناحية كشك الضباط ليراقب حركتهم. ساعة الطعام نطهى العدس أو الفول و "نقمر" الخبز ونصنع الشاى على الكور.

هكذا تمر الأيام دون أن يحدث شىء يبدل حياتنا وكأننا استسلمنا للأقدار مثل باقى الليمانية " إلى أن جاء ذلك الصباح. كنا نسير فى الركب كما نفعل كل يوم وندور بأعيننا على المناظر المعتادة أو نسرح على وقع الخطوات. قال أحد منا فجأة كأنه يبحث عن تغييريبدد الملل.

" ما تيجوا نمشى بالخطوة المنتظمة ونشد جسمنا ونرفع رأسنا بدل ماحنا ماشيين كده زى الغنم "

راقت لنا الفكرة تدفعنا الرغبة فى أن ننتزع أنفسنا من ذلك الإحساس بتسرب الحياة من أيدينا، بالاحتياج إلى شدة فى الجسم ، والروح تبث فينا نشاطا متجددا وربما أيضاً بالرغبة فى أن نتميز عن هذه الجموع الباهتة التى لا تخفى انكسارها، أن ندخل جديدا على هذا الموكب يمشى كالقطيع المساق إلى مصيره، فكرة لم ندرك مغزاها جاءت وحى الخاطر.

زعق " محمد شطا. "

" يا لله يا جماعة واحد اثنين واحد اثنين.

انتظمت خطواتنا. سرنا مسافة دون أن يلتفت إلينا أحد، لكن بالتدريج أخذت الصفوف السائرة وراءنا مباشرة تنظم خطواتها. علا صوت "محمد شطا" فى الفضاء "واحد اثنين واحد اثنين". الوقع المنتظم ينتقل من صف إلى صف عبر الطابور الطويل. الأقدام تدك الأرض والقيود يعلو رنينها. الأيدى والأذرع تروح وتجىء فى خط منسجم. الأكتاف فقدت انحناءها والرؤوس رفعت فوق الأعناق. لم تعد العيون مثبتة فى الأرض، تنظر إلى الأفق كأنها ترى شيئا هناك. الآن يتحرك "الجبل" كرجل واحد بإرادة واحدة بآلاف الأقدام على الأرض تدك بصوت واحد له وقع، بالقيود تصدح. هكذا مزق الجبل الصمت ونطق .

نظر شاويش الجبل خلفه باندهاش. نفخ صدره كالديك وأخذ يلوح بعصاه. دار دورة كاملة وأخذ يسير بظهره وينادى بأعلى صوت "واحد اثنين واحد اثنين". لمح فريقنا الصغير يمشى فى المقدمة فأشار إلينا. لمعت عيناه فقد أصبح قائدا عسكريا وعادت إليه أيام الشباب فى الجيش. لم يعد شاويشا على قطيع من المذنبين. الشريط الأحمر على ذراعه توهج، والشارب الأسود صار ينتفض. أصبح رجلا غير الرجل الذى كانه من قبل.

علا صوته فى الفضاء ينطق اللفظ المحرم.

"حاذى على الشيوعية. الجبل واحد اثنين، واحد اثنين".

لم يدرك أحد منهم خطورة هذا النداء فمنذ تلك اللحظة لم يعد "الجبل" سهلاً. وُلدت فيه بداية الإدراك لمعنى التنظيم.

الآن فى كل يوم تأتى إلينا وجوه جديدة لم نرها من قبل، فنحن متعلمون أتيح لنا ما لم يتح لهم. أنهم رجال أشداء، ولكنهم أحيانا مثل الأطفال العزل من كل سلاح. أقل الأشياء يمكن أن تعجزهم، كتابة خطاب للأهل، أو عريضة يحتجون فيها على الظلم، أو حمى تشلهم عن الحركة فيحتاجون إلى طبيب ينصحهم، استشارة قانونية، أو اتفاق مع محام يدافع عنهم.

أصبحت الحجرة رقم ١٤ مركزا للجذب. قام بيننا تقسيم طبيعى للعمل. "سعد كامل"(١) يكتب العرائض، والشكاوى، والتظلمات للسلطات، ويخاطب المحامين والنيابة حسب ما يطلبونه

(١) محام.

منه. "خذ يا زميل شغلنا بيجولو أيه كده فى الجواب ده. المحامى عايز خمسين جنيه مجدم واللا ما يتحركش. أيه رأيك؟ ما تعرفلناش محامى ابن حلال ياخد الجضية؟ استجرآ لنا الجواب كده لا حسن ما فهمتش أخوى بيجول أيه فى المصيبة دى". أتولى أنا شئون الصحة. والطب "عندى ألم فى الجنب اليمين يازميل بيشك على بالليل. أيوه هنا. بينجح على جوى جبل الفجر. بيخلينى ساعات أجول جاى. هارسيا؟ جاتلى منين دى؟ لا بشرب دخان، ولا جربت على الحشيش، وأكلى هوه، هوه مابيتغيرش. مى الميه؟ سبحان الله!! مى الترعة؟ آه طبعا باستحمه فى الترعة أمال حستحمه فين؟".

"محمد شطا" يكتب الرسائل للأقارب. إنه مثلهم من الريف. وجهه عريض، وشاربه كثيف، وحركاته فيها الوقار الذى تعودوا عليه. يبوحون إليه بشئونهم الخاصة ويستشيرونه فيها، و"محمد خليل قاسم[1]" ينشد لهم الشعر، ويحكى الحكايات، والأساطير، حفظها من قرى أسوان الرابضة قرب النيل، صبيا أسمر تلمع كعوبه البيضاء فى الليل وهو يخترق الرمال، ويمشى تحت النخيل، ثم شابا يستمع إلى الكبار جالسا أمام البيوت ويضحك بقلب ظل صافيا، أو يغضب غضبا شديدا إذا ما مسه شىء.

المسجون فى الليمان ليس عابر سبيل، ولا راحل إلى مكان أخر، أو سجن آخر يحيا قلق الرحيل. جاء ليبقى فيه سنين، ربما مدى الحياة. إنه بيته استقر فيه، ومع ذلك فى أعماقه حنين لا ينطفئ لليوم الذى سيغادر جدرانه. عنده إحساس بالمأساة حتى إذا تحمل مصيره. كان يدافع عن أرضه، أو شرفه، عن كيان الأسرة التى ينتمى إليها. الحكومة التى سجنته ظالمة. أما هو فبرىء يرى أيام حياته وهى تضيع. فى نفسه أشياء لا يعبر عنها، صامت، صابر يؤمن بيوم الآخرة، والمكتوب. هذا الإيمان يكفر به عن ذنوبه إن كانت له ذنوب. فقد قتل ولكن القتل كان مكتوبا عليه. الله هو الذى أمر يده بالضغط على الزناد. آمن بالسماء، ولكنه كفر بهذه الحياة، بما فرضته عليه من جهل، وهوان. يشعر برغبة قوية فى أن يعوض ما فاته، بحاجة ملحة إلى أمل جديد، بالأبواب تتفتح أمامه حتى أن لم تكن أبواب الليمان. فمن يحيا فى الليمان يحيا على الأمل وإلا مات.

فكرنا. أغلب هؤلاء الرجال أميون. فلماذا لا نساعدهم فى تعلم القراءة والكتابة؟ بدأت أنا بواحد منهم "بيومى عوض الله" فأنا أميل إلى التحدث معه. تعجبنى شخصيته الواضحة، وذكاءه ثم صاروا اثنين، وثلاثة، وأربعة فأنشأنا مدرسة. ناظرها "محمد خليل قاسم" ومدرسوها متطوعون منا. بعد قليل وصل عدد المواظبين على الدروس أربعين. قسمناهم على أيام الأسبوع حتى يتسع المكان، وعندما ضاق أغلقنا الباب ووعدت من لم يستطع الحضور بفرصة أخرى بعد ثلاثة شهور. ولكن بعضهم رفض الانتظار. كانوا يأخذون الدروس من غيرهم

(١) كاتب وشاعر من النوبة صاحب رواية «الشمندورة».

ويستذكرونها على ضوء فتيل يشتعل فى طبق من الزيت يرقص فى الليل على الجدران، ويحول المساجين إلى أشباح، إلى إياد، ورءوس وأنوف تبرز لحظة لتتوارى بعدها، ذائبة فى الظلام.

كانوا مثل الذى غرق ثم خرج من المياه إلى سطح الحياة يتنفس بملء رئتيه. يلتقطون الحروف، والصور والكلمات. يتابعون معانيها تحمل إليهم الكثير، فهم رجال عركوا الحياة، ولم يفسدهم التعليم. خيالهم مفتوح، وروحهم فيها تلقائية. عقولهم كأحجار الرحى تفرز الردة، والحصى من الدقيق، فمن عرف العذاب يطحن الأشياء، ويتمثلها، ولا يحفظها مثل الببغاء.

إن نسيت أشياء كثيرة لا أنسى هؤلاء الرجال يجلسون بين أيدينا كالأطفال. عيونهم تتابع الصور، والحروف، آذانهم تنصت لصوت الكلمات، أصابعهم القوية تلتف حول الأقلام، ترتعش وهى تخط الحروف، حروف ضخمة لها أرجل، وذيول مثل الحيوانات الغريبة تصعد، وتهبط بين السطور، منحرفة، متعرجة، أصابها تشويه. تعودت أصابعهم أن تلتف حول مقبض الفأس، أو المحراث، أو المعاول الحديدية يقطعون بها الأحجار، ولكن هذه الأقلام تتوه بين الأصابع الكبيرة الخشنة، تأبى أن تسير حيث توجهها، تفلت منها. لكن يمر الوقت، ومع ساعات الجهد تستقر الحروف، تتضح، تستقيم فوق السطور. يوما بعد يوم تلتف الأصابع العنيدة حول الأقلام، تتولد الثقة فى النفس، وتبرق العيون بهذه المعرفة الجديدة جاءتهم وهم خلف الأسوار، وحرموا منها فى قلب الحياة.

نعم إن أنسى أشياء مضت وانتهت لا أنسى هؤلاء الرجال. بهم اقتربت إلى واقع الحياة. بهم عرفت أن الزحف الطويل يصنعه الناس. رأيتهم ينحنون فوق الأوراق، يخطون الحروف بعناية تفسدها لحظة ارتعاش كأنهم من شدة الرغبة فى الإتقان، ومن شدة الحرص يعجزون. ينظرون باندهاش إلى القلم يخون. إنهم أقوياء ومع ذلك هذه الأداة الصغيرة لا تطيعهم. يعانون من الألم فى الأصابع، والذراع فالجهد الذى يبذلونه أصعب مئات المرات من لفح القنوات، وشق الخطوط، أو من تقطيع الحجر على سفح التلال. يسيل العرق من تحت العمم أزاحوها إلى الوراء، ينحدر فوق الجبهات والأنوف يمسحونه بالمنديل، وأحيانا يسقط نقاطا فوق الورق فتسيل الكوبيا أنهارا صغيرة، متعرجة بنفسجية اللون.

انتهت الشهور الثلاثة. كنسنا الحجرة، وغسلنا أرضها. علقنا أربع رايات ملونة عند النوافذ. أحضروا الشاى، وأطباقا معدنية من الحلوى "يا زملاء الدور علينا، اليوم دا يومنا" ثم ذهبوا ليرتدوا ملابسهم النظيفة. بعد صلاة الجمعة صعدوا. اكتظت الحجرة بعشرات المسجونين ملأوا كل ركن فيه. أسند بعضهم ظهورهم للجدران، ووقف آخرون فى الأركان، أو خارج الحجرة عند الباب. من وجد مكانا للجلوس طوى ساقيه تحت الردفين ليفسح المكان. وقف "محمد خليل قاسم" وسط الزحام، والى جواره "سعد كامل" ممسكا بأوراق سجلت فيها

الأسماء. ساد الصمت، وحملقت العيون نحوهما تطل من الملامح الجامدة، الجادة كأن مصيرهم معلق على سماع ما سيتلى عليهم بعد لحظات.

قرأ "سعد كامل" الأسماء من الكشف. "هاشم على شعبان" ناجح جيد جدا. "عبد الفتاح مصطفى" ناجح بامتياز. "فتحى المنقبادى" ناجح جيد جدا. "على عوضين" ناجح جيد جدا. "بيومى عوض الله" ناجح بامتياز. "علوى العساف" ناجح بامتياز. بعد كل اسم يقوم صاحبه ليتسلم الشهادة، ويعانق الناظر ووكيله وسط التصفيق يرن صوته لأول مرة فى عنابر الليمان.

شربنا الشاى، وأكلنا الحلوى ثم هبطنا جميعا إلى الدور الأرضى. فرشت البطاطين، وجلس عليها المسجونون تاركين مساحة من البلاط العارى. ظهرت العصيان الطويلة من أين لا ندرى، ومعها الطبول، ورقصوا. رقصوا بفرحة الرجل البسيط عندما ينسى الهموم. العصا تلوح فى الهواء، وتهوى دون عدوان. تهبط فوق الكتف برفق. تنصرف عنه بلمسة من الود. العيون تبرق فى الوجوه السمر، والأقدام تدك الأرض بعنف. خلعوا الشيلان من على الأكتاف ولفوها حول أجسامهم تنثنى لدنة مع وقع الطبول تدق وتدق فى العنبر الكبير. الأصوات ترتفع بالمواويل، بأحزان فيها فرح، وأفراح فيها حزن، بأغان تنعى غدر السنين وفراق الأهل، والأحباب.

فى ذلك اليوم بعد أن انتهى الحفل، وأغلقت الأبواب ساد فى العنبر صمت غريب كأنهم أفرغوا كل ما فيهم من طاقات.

الحجرة رقم ١٤ يدخل إليها المساجين، منذ لحظة فتح الأبواب فى الصباح حتى ساعة التمام آخر النهار. صلاتنا امتدت إلى مختلف أجزاء العنبر، بأدواره الأربعة. الآن أخذ يتبلور نوع من التنظيم الفضفاض بين المساجين. ما يشبه اللجنة، أو المجموعة التى تضم ممثلى المحافظات ولها مندوبون فى الأدوار، وفى العنابر الأخرى.

مطالب المسجونين فى عنبر "الجبل" تتلخص فى نقطتين: إلغاء العمل فى تقطيع الحجر، وإلغاء القيود الحديدية التى يكبلون بها. أرسلوا عشرات العرائض لمصلحة السجون، ووزارة الداخلية، والعدل، والصحف ومئات الرسائل لأهلهم يشرحون فيها وضعهم. مطالبهم معقولة فالعمل فى المحجر لا يدر دخلا على العكس يكلف ميزانية السجون آلاف الجنيهات. المحاجر عتيقة نفذت أحجارها الجيدة، والإنتاج منخفض. لم يعد للجبل هدف إذن سوى التعذيب. لماذا لا يعملون فى المزرعة، ويستصلحون أرضا جديدة بدلا من العمل العقيم فى قطع الأحجار؟ لماذا لا ينتجون غذاءً لأنفسهم، ولغيرهم؟ أليست الزراعة مهنتهم الأصلية مارسوها منذ سنوات؟

إنهم يدركون أن التمرد فى الليمان محفوف بالخطر، يبيح إطلاق الرصاص، لذلك يجب الاهتداء إلى وسيلة تنفى عنهم مثل هذه التهمة. قرروا ألا يمتنعوا عن العمل، أن يلجأوا إلى الإضراب البطىء. بدلا من أن تملأ الفرقة عربة سكة حديد، أو أكثر ستملأ ثلثها، أو ربعها أو حتى ثمنها. سيعتذرون فى هدوء وأدب "نحاول على جد ما نجدر لكن الجبل هد حيلنا".

أصبح كل شيء معدا لليوم الذى سيبدأون فيه التنفيذ. فى الجو توتر نشعر به، نراه فى العيون. النوم لم يعد يأتينا بالسهولة نفسها. نتتبع النجوم تظهر وتختفى، وأحيانا نستيقظ مع الفجر، نشرب الشاى ونتحدث بأصوات هامسة.

نخرج فى الصباح كالمعتاد، صفوفا مقرفصة، وبحرا من الرءوس. صمت غير عادى، شىء كالتحدى المستتر، سرعة فى إطاعة الأوامر، تحمل لكل إهانة من الإهانات التى تقترن بالجبل دون أدنى احتجاج، أو تذمر. الصبر، الصبر، ومن أقدر على الصبر من هؤلاء.

ذهبنا إلى ورشة التماثيل. أمسك بعضنا بأزاميل ليدقوا فى الحجر، ولكن سرعان ما توقفوا. نرهف السمع إلى الأصوات تأتينا من الجبل. ساعة الغداء سخنا العدس. والخبز، ووضعنا الشاى على الكور. تناولنا الطعام جالسين على كتل من الحجر ومن حولنا تماثيل لحيوانات أو طيور، أو وجوه إنسانية نحتها غيرنا. جو مريح فيه لمسة فن، كالجزيرة ننسحب إليها بينما يقطع غيرنا فى الجبل. مرت الساعات. عاد الطابور يتلوى تحت الشمس الحارقة. دخلنا إلى العنبر. صعد المسجونون إلى أدوارهم، الحديد حول سيقانهم، والقضبان من حولهم. عالم من الحديد، والأسوار، والحجر. اغتسلوا فى دورات المياه، ودخلوا إلى حجراتهم.

مرت أربعة أيام بعد اليوم المحدد لبدء الإضراب البطىء. نخرج فى الصباح، ونصعد إلى الجبل. يعود الطابور فى الساعة الثالثة، يزحف فوق الأرض، وتصلصل خطواته. فى اليوم الخامس ونحن نتناول طعامنا خيل إلينا فجأة أننا نسمع صياحاً يأتى من الجبل، وأوامر تلقى بصوت مرتفع، وحوافر للخيل تنطلق، ورنين بنادق تصطدم بالحجر تلاه صهيل حصان سريع متقطع كنذير المعركة، فأدركنا أن الوقت جاء.

انطلقنا نحو باب الورشة حيث وقف الحارس يراقب صحن الجبل تزحف فوقه أجسام المساجين. المعاول تعلو، وتنخفض بحركة بطيئة، مرهقة، وعربة للسكة الحديد تنزلق بصعوبة فوق القضبان. ضوء الشمس القوى، الأبيض يحول دون أن نرى جيدا. المأمور ومعه الضباط على ظهور خيولهم تجمعوا فى منتصف المحجر أو هكذا يبدو لنا فنحن لا نرى إلا ظهورهم. بين الحين والآخر ينفصل عنهم فارس، يدور دورة سريعة، متوترة حول فرق المساجين مازالت تعمل، ثم يعود من حيث أتى. الجنزير لم يعد منتشرا أعلى الجبل. كون الخيالة حلقة دائرية أخذت تقترب من صحن الجبل. بنادقهم مرفوعة، مصوبة نحو أجسام المساجين ترفع المعاول، وتهبط بها. حركة العمل تبدو عادية، ولكن حركة الحرس، والخيول، والسلاح تغيرت. يضيق حصارها بحركة بطيئة زاحفة كأنها تطبق على وحش مفترس لتضربه ضربة قاتلة.

قلبى يرتجف. أشعر به وحده كأن كل ماعداه توقف فحتى الحركة البطيئة للمعاول تبدو وكأنها ثابتة. عند صحن الجبل صراع بين قوتين ليس ظاهرا. انتهت كل الأصوات ما عدا صوت المعاول تقطع فى الجبل ويحملها الصدى لكن فى لحظة معينة حتى هذه الأصوات

اختفت. الأذن لم تعد.تسمع. العيون وحدها ترى. إذا وقعت الصدمة ستراه العيون. وإذا سقط الجسد ستراه العيون، وإذا انطلقت رصاصة ستراها العيون وهى تنطلق. العيون أصبحت تسمع. الأحداث التى تدور أمامنا تبدو كالفيلم الصامت. هناك كارثة تنتظر، مذبحة ستقع إذا ما كسر أحدهم هذا الشلل الغريب الذى هبط عليهم، معركة بين خصمين يتردد كل منهما فى اتخاذ الخطوة القادمة، يظل مستسلما للقدر، يغلق عينيه كأنه بعد أن خطا الخطوة الأولى أصبح عاجزا.

رأيت المأمور يلوح بيده، وشاويش الجبل يجرى ناحيته. لم أسمع شيئاً، لكن بعدها عادت البنادق إلى غمدها أو فوق الكتف. انسحب جنزير الفرسان إلى حيث كان ممتدا أعلى الجبل، وعاد الحراس إلى فرقهم. تجمع الجبل صفا وراء صف، وأخذ الحراس يحسبون العدد. رأيت الأصابع تعد الرءوس واحدا، واحدا. تقدم الشاويش نحو المأمور، أدى التحية، وزعق.

"تمام يا فندم، ألف وربعمية ثلاثة وأربعين".

قال المأمور فى صوت منخفض.

"نزل الجبل يا شاويش."

وقفوا صفوفا. الأجسام مرفوعة مثل جذوع الشجر. العيون تنظر أمامها، الخطوة تنتظم وحدها دون نداء. لم يعودوا فى احتياج له. عرفوا طريقهم. اليوم أصبح "المذنبون" أسياد الجبل".

فى منتصف سنة ١٩٥٥ قررت حكومة الثورة إلغاء الجبل. لم يعد يخرج المسجونون لتقطيع الحجر ثم صدر قرار آخر بإلغاء القيود الحديدية التى كان يكبل بها المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. أصبح "المذنب" يسمى "نزيلا" وأصبح فى كل سجن "كانتين" يبيع السجائر، وبعض الأطعمة. صرح لكل نزيل بشراء ما يريده فى حدود خمسة جنيهات شهريا، لكن ظلت الكتب، والصحف ممنوعة فى اللائحة.

أقيم احتفال فى "ليمان طره" بهذه المناسبة. لم تنظمه إدارة السجن. أغمضت عينيها عنه فقط. لم ينظمه أحد، ولا يعلم أحد كيف وقع. فهناك أشياء فى الحياة تحدث من تلقاء نفسها، تعبر عن مكنونات الإنسان وإحساسه.

لم أعد أذكر اليوم، ولا الشهر. مر عليه ما يقرب من أربعين سنة. أذكر فقط أنه كان فى الشتاء فالشمس غابت مبكرة. عاد "الجبل" من "الجبل". اغتسلوا تحت الصنابير فى دورات المياه. علا الضجيج فى العنبر إلى أوجه فهى ساعة تبادل الأحاديث السريعة، وآخر الأخبار، وغسل الملابس، والحصول على باكو شاى، أو دخان، أو قليل من الثوم، أو البصل أو الزيت لوجبة العشاء، وربما قطعة من الحشيش أو الأفيون تساعد على نسيان الواقع.

لذلك كان من الغريب أن يصمت العنبر فجأة. خرجنا من الزنزانة لنرى ماذا حدث. الأبواب مازالت كلها مفتوحة. تدفق منها المسجونون إلى الممرات، فساروا طوابير طويلة، متصلة تهبط فوق السلالم من كل الأدوار. لا أحد يتكلم. لا أحد من الحراس يعترض طريقهم. لا صوت يرتفع منهم سوى صليل القيود تهتز مع الخطوات. تلتئم الطوابير المتفرقة عند أطرافها لتكون طابورا واحدا متصلا يدور حول الأدوار كأنهم يمشون فى جنازة. الوجوه كلها جامدة، والعيون تحملق أمامها. وصل الطابور أسفل السلم، وأخذ يصب فى الدور الأرضى. سار مسافة قصيرة، ثم توقف. انفصل "بيومى عوض الله" عن الصف الأول ووقف بمفرده. خلع الحزام الجلدى من حول وسطه، وترك القيود تقع على الأرض. رفع قدما وفك الحلقة المربوطة حولها، ثم تبعها بالحلقة المربوطة حول قدمه الثانية. انحنى ليلتقط القيود ثم رفعها بذراعيه عاليا فوق رأسه، وألقى بها بكل قوته على البلاط فرن صوتها فى سكون العنبر مثل طلقة المدفع. سمعت صوته القوى يصرخ:

"لعنة الله على الظالمين".

رفع رأسه للصفوف المتراصة حول أدوار العنبر تطل عليه من أعلى فرددت الدعاء فى صوت واحد اهتزت له الجدران.

"لعنة الله على الظالمين."

استأنف الموكب سيره. كل مسجون يخلع القيود بدروه، ويلقيها على كوم الحديد الذى أخذ يرتفع. يدور حوله دورة، يبصق عليه، ثم يعود أدراجه صاعدا فوق السلم.

استمر الطابور يهبط ثم يصعد إلى أن تجاوزنا ساعة التمام، وزحف الليل، فأضيئت الأنوار فى العنبر. أجسام المساجين السائرة تتحرك على الجدران بظلها، ورنين القيود يتوالى، وهى تلقى فوق التل الأسود، والصفوف الصامتة، الساكنة تطل من الأدوار العليا للعنبر.

فتح باب الزنزانة فى صمت، وأضىء النور. استيقظنا فجأة. دخل المأمور إلى الحجرة ومعه ضابط وشاويش، ووقف عدد من الحراس عند الباب.

قال المأمور

"أعدوا أشياءكم للرحيل" فسألته:

"إلى أين؟"

تطلع إلى المأمور لحظة، ثم قال:

"لا أعلم".

"إذن لن نرحل".

"إذا لم ترحلوا فى سلام، سنرحلكم بالقوة".

التقت عيوننا فى صمت. أدركنا. يريدون إبعادنا من هنا. لا جدوى من المقاومة. المأمور سينفذ الأوامر التى جاءته، ولن يصاب أحد بالأذى سوانا. فى النهاية سنرحل. ليست هذه هى أول ولا آخر مرة. إنها حياتنا.

عبرنا حوش السجن فى نصف الظلام نحمل أكياسنا. خطر فى بالى أننا سنترك موقد الكيروسين، والكتب، والأوراق، وشفرات الحلاقة، وأشياء غيرها فى المخبأ. لماذا أفكر فى الأشياء التى سنتركها وراءنا ونحن نرحل؟ ما أهميتها أمام الحادث الأكبر؟ أهو التعلق بأشياء كانت جزءا من حياتنا لا نريد أن ننفصل عنها؟ أم التفكير الغريزى فى المستقبل لا نعرف إلى أين يقودنا؟

اقتربت من المأمور، وهمست فى أذنه. نظر إلى بشىء من الاندهاش، ثم نادى على أحد الحراس.

"ارجع معاه للعنبر وخليه يجيب الحاجات اللى سابوها هناك. فاهمنى".

تركت كيس ملابسى وسرت مع الحارس. أخرجنا الأشياء من المخبأين، وشاويش الدور يطل علينا بقلق. ربما سألوه بعد أن نرحل. قلت له:

"ماتخافش يا عم "عطا الله". المأمور حيفوت."

عدت بسرعة أحمل الكيس الثقيل على كتفى، وأجرى. عند الباب الخلفى للسجن قضبان للسكة الحديد وقف عليها قطار، وعربة للماشية ربطت خلفه. صعدت على سلم العربة العالى رافعا الكيس الثقيل فوقه وتبعنى أحد الضباط. أحصى عددنا ثلاث مرات قبل أن يهبط.

وقفت إلى جوار الباب. أرى وجه المأمور العريض من تحت الكاب، وشاربه الرفيع. كان يسمى فى هذا الوقت شارب "دوجلاس". رجل فيه قدر من الشهامة، و"المفهومية"، خصال ابن البلد. كان اسمه الصاغ "الحلوانى". قال:

"مع السلامة يا شريف. شدوا حيلكم".

سار القطار بطيئا كأنه يبحث عن طريقه، ثم توقف خارج "محطة مصر". على أحد الجانبين بيوت، وشرفات، وجدران، ونوافذ مغلقة تغط فى النوم موحشة، تغلق نفسها على نفسها. لا صديق، ولا قريب ولا أياد ملوحة. لا أحد سوى الضباط والحراس يقفون حول العربة المغلقة. لا أحد يحس بوجودنا. نرحل إلى مكان مجهول فى عربة للماشية. اختطفونا فى السر بعيداً عن أعين الناس. حركة غادرة. هل نرحل هكذا دون أن يشعر أحد بنا؟

صعد صوت فى داخل العربة يغنى فى تردد.

"بلادى، بلادى لك حبى، وفؤادى".

انضمت إليه أصوات أخوى ضعيفة مبعثرة، ثم أخذت تقوى. أضيئت المصابيح فى البيوت حجرة وراء حجرة، وفتحت النوافذ التى تطل علينا. الناس يقفون فيها بملابس النوم، أو يخرجون إلى الشرفات متدثرين فى الأرواب، والمعاطف، أو الشيلان. شبان، وفتيات، عواجيز، وأطفال يحملقون فى اندهاش نحو عربة للماشية استقرت على القضبان الحديدية، ونشيد يرتفع منها، يعلو فى الفضاء، ويرتد صداه القوى، لا يرون شيئا سوى العربة، ومن حولها الحراس.

فجأة أحسست بصدمة تهز العربة ثم بجسم حديدى يصطك "بالدنجل". أخذت العربة تتقدم فوق القضبان بقفزات متتالية. لمحت يدا فى إحدى النوافذ تلوح إلينا. فتاة إلى جوارها شاب. التفت إليها بحركة عصبية كأنه ينهاها عن التلويح إلينا. رفعت يدها فى الهواء عاليا ولوحت إلينا بحركة سريعة متحدية. فمد يده وأغلق النافذة.

أطللت من بين القضبان على المدينة، على سحابة كثيفة اخترقتها نقطة صغيرة حمراء. القطار تنزلق عجلاته فوق القضبان ويشق طريقه إلى خارج المدينة، وفى الفضاء يرتفع صوت الغناء.

فى يوليو سنة ١٩٥٨ ثار الشعب العراقى على حكم "الملك فيصل" و"نورى السعيد" الموالى للإنجليز، وسحلهما فى شوارع "بغداد". أعلنت الجمهورية وأصبح "عبد الكريم قاسم" أحد كبار الضباط فى الجيش رئيسا لها، ثم مرت شهور قليلة طرح بعدها موضوع الوحدة بين مصر والعراق.

كان رأى "عبد الكريم قاسم" أن تتم هذه الوحدة على أساس فيدرالى وسانده فى هذا الرأى الحزب الشيوعى العراقى الذى لعب دورا هاما فى ثورة الشعب والجيش، فالاتحاد على أساس فيدرالى وفقا لهذا الرأى كان يضمن لكل من البلدين استقلاله فى إطار الاتفاق العام الذى سيصلان إليه، وفى أجهزة الحكم الاتحادية ومنها أساسا الحكومة، والبرلمان.

أما "عبد الناصر" فكان الرأى الذى أصر عليه هو الوحدة الاندماجية لأنها كانت تضمن له السيطرة على مجالات مهمة مثل الشئون الخارجية، والدفاع، والأمن، وبالطبع كان لكل طرف من الطرفين أسبابه، وإن ظل جزء من هذه الأسباب غير معلن فى هذا الوقت. فمن ناحيته أراد "عبد الكريم قاسم" أن يحتفظ لنفسه بزعامة الثورة، والحكم فى العراق. لم يكن مستعدا للتنازل بهذه السهولة عما وصل إليه، ولتسليم العراق لزعامة "عبد الناصر". ومن ناحيته كان يسعى عبد الناصر إلى أن يظل هو الزعيم العربى الذى لا ينافسه فى الزعامة أحد. وقد رأى فى الوحدة الاندماجية الضمان لتحقيق ما يسعى إليه، فهى ستسمح له بأن يفرض إرادته، وسياساته فى العراق، ويتخلص من أى قوة تعارضه، أو تصبح خطرا على ما كان يخطط له.

وربما كان فى ذهنه قبل كل شىء الحزب الشيوعى العراقى، والخطر الذى يمثله خصوصا بعد الدور الذى لعبه فى الثورة، وقيام علاقات وثيقة بينه وبين الحكم. وكانت الوحدة الاندماجية تتيح له الفرصة لإزاحة الزعامة الجديدة فى العراق، والتخلص من "عبد الكريم قاسم" ومن الحزب الشيوعى العراقى إذا لم يخضعا له. أما الوحدة الفيدرالية فلم تكن لتحقق له ما يريده. وكان لحزب البعث العراقى أيضا دور فى هذا الصراع فالخصومة بينه وبين الحزب الشيوعى وليدة معركة قديمة ظلت مستعرة رغم معارضتهما لنظام الحكم الموالى للإنجليز. كان حزب البعث يرى فى الوحدة الاندماجية فرصة لضرب خصومه، وفرض سيطرته الأحادية على العراق، فهو يمثل القوة الوحيدة السياسية إلى يمكنها أن تحل مكان "عبد الكريم قاسم" والحزب الشيوعى العراقى المتعاون معه.

فى ظل هذا الجو السياسى المشحون بالتوتر والصراع والذى لم يظهر إلا جزء منه على السطح أعلن الحزب الشيوعى المصرى موقفه. قال إن الوحدة الفيدرالية ستكون أفضل من الوحدة التى تتم على أساس الاندماج. قالها فى همس، فى بيان لم يقرأه إلا القليلون من الناس. ولكن كانت نتيجته أن وقفت الدنيا، ولم تقعد بعدها. كان هذا هو كالفتيل الذى أشعل الحرب، رغم أن الحجج التى أبديت فيه لم تكن خالية من المنطق أو العقل، كما أثبتت الأحداث والتطورات المتعلقة بالوحدة ليس مع العراق فحسب، ولكن مع سوريا فيما بعد.

كانت حجج الحزب الشيوعى المصرى تتعلق بضرورة مراعاة الأسلوب الديموقراطى فى إتمام الوحدة بين الشعبين العربيين، وبين نظام الحكم فى العراق، ونظام الحكم فى مصر، وبمخاطر اللجوء إلى أساليب القصر، إلى الدمج من أعلى، وفرض الزعامة الواحدة ونظام الحكم الموجود فى مصر على العراق.

لم يقل البيان بالطبع أن الشيوعيين المصريين كانوا يخشون من الوحدة الاندماجية أيضا لأنها ستسهل على "عبد الناصر" تطبيق نظام التنظيم السياسى الواحد أى "الاتحاد القومى" فى العراق، ذلك النظام الذى حرمهم من تكوين حزب سياسى علنى معترف به قانونا. فالحزب الشيوعى المصرى كان يخشى من لجوء "عبد الناصر" إلى مطاردة الحزب الشيوعى العراقى بمقتضى السلطات التى سيصر عليها فى أى وحدة اندماجية يكون هو رئيسها، ومن أنه فى هذا السبيل سيتحالف مع القوى السياسية الأخرى فى العراق وعلى رأسها حزب البعث العدو اللدود للشيوعيين، حتى يتخلص ممن يريد التخلص منهم.

على أثر هذا البيان شنت حكومة "عبد الناصر" حملة شعواء على الحزب الشيوعى فى مصر، وفى العراق، وتوترت العلاقات بين حكم الضباط والشيوعيين كما لم تتوتر فى أى مرحلة من قبل. فوقف "عبد الحكيم عامر" قائد عام الجيش ووزير الدفاع فى اجتماع ضخم عقد فى ميدان عابدين وحضره الوزراء، وقيادات الجيش، وجميع المسئولين المهمين فى مصر، ورفع يديه

للسماء داعيا الله أن يرسل الطير الأبابيل ليضرب بهم الكفار، ويسحقهم. مشهد يذكر بالتاريخ فى قرون مضت وكأن المجتمع المصرى ارتد فجأة إلى الخلف.

امتلأت الصحافة بكتابات سوداء، كأن المجارى فتحت لتخرج كل قاذوراتها على سطح الأرض. اقترنت الحملة على الشيوعيين بحملة ضد التقدم ككل، ضد كل ما حققه المجتمع فى ظل الثورة، فالجو الذى سيطر على الحكم، سمح بإطلاق كل الكراهية والحقد اللذين كان يخفيهما الكثيرون إزاء ما جرى فى مصر. خرجت القوى المتخلفة والرجعية من المخابئ التى أخفت نفسها فيها من ضربات الحكم، وانتهزت الفرصة لتنشط من جديد، وانطلقت معها التيارات والاتجاهات اليمينية التى ظلت جزءا من ثورة "عبد الناصر" حتى فى أحسن أيامها..

هكذا أصبح الخلاف مع "عبد الكريم قاسم"، ومع الشيوعيين، ومع الاتحاد السوفييتى بمثابة الضوء الأخضر الذى انتظرته كل الاتجاهات المتخلفة والرجعية فى المجتمع لتنطلق من جديد وتحاول أن تضرب ضربتها لا ضد اليسار الشيوعى فحسب، ولكن أساسا ضد الثورة نفسها بعد أن سلبتها جزءا من امتيازاتها، ونفوذها، وحرمتها من السيطرة على نظام الحكم، ومصيره فى مصر.

فى ظل هذا الجو الملبد بالغيوم، المتفجر إلى أقصى حد قبض على الشيوعيين وأرسلوا بالمئات إلى المعتقلات والسجن، وتمت محاكمة العناصر القيادية منهم أمام محكمة عسكرية برئاسة اللواء "عبد الله هلال". بعد المحاكمة أرسلوا إلى سجن "أبو زعبل" وهناك لاقوا على يد ضباط المباحث العامة والسجن أبشع أنواع التعذيب، والهوان، والضرب المستمر الذى لم ينقطع عنهم إلى أن تم ترحيلهم إلى "المحاريق". وفى "أبو زعبل" مات "شهدى عطية الشافعى". ضربوه بالنبابيت وجروه بالخيل على الأرض إلى أن أسلم الروح، فمات شهيد مواقفه المؤيدة للثورة، وإنجازاتها فى الحكم.

فى هذه الفترة قررت الحكومة أن ترسل جميع المسجونين والمعتقلين من الشيوعيين، والإخوان المسلمين إلى السجن الجديد الذى افتتحته فى "المحاريق". وتقع "المحاريق فى أقصى جنوب الصحراء الغربية على الخط الموازى لـ"نجع حمادى" وهى قريبة من "طريق الأربعين" الصحرواى الذى كانت تسير عليه قوافل الجمال المسافرة من مصر إلى السودان وبالعكس. وهى ذات المنطقة التى أرسل إليها "حمد الباسل" وزملاؤه من الوفد عندما قامت ثورة ١٩١٩ فنفاه الإنجليز فى هذه البقعة الخالية من الناس والزرع.

وصلت من سجن مصر لأنضم إلى باقى الشيوعيين فى هذا السجن. كان ذلك فى صيف ١٩٦٠. كنا نسكن فى عنبرين طويلين مبنيين من الطوب لهما سقف من الصاج المجلفن. فى الشتاء يصبح العنبر مثل الثلاجة فالصحراء بردها قارس فى موسم البرد، وفى الصيف يتحول العنبر إلى فرن. هذا كان يمكن احتماله رغم استشراء آلام الجسم، والتهابات المفاصل، ورغم

نزلات الكحة والبرد، ولكن المشكلة الأخطر كانت تتعلق بالتموين، والأكل. ففى هذا المنفى البعيد الذى يصعب الوصول إليه كان طعامنا هو الفول أكله السوس وتركه بلا قلب، أو العدس تحول إلى مسحوق أصفر شبيه فى قوامه بالجبس، مضافا إليهما فى بعض الأيام العسل الأسود أصبح حامضا من الحر، والجبن الأريش اختلط بالديدان التى تزحف فى ثناياه، وتلتهمه. بقى بعد ذلك ما كان يسمى بالحساء، ماء ساخن له رائحة زفارة كريهة تسبح فيه بعض الأعشاب، وقطع من الشغت والجلد.

بعد شهور قليلة ظهرت على عدد كبير منا علامات الهزال والضعف الشديد فتناقشنا مع الإدارة فى الأمر. استمرار الوضع خطير ولا يمكن أن نستسلم له. نريد أن نتفادى المعارك فكفانا ما نحن فيه، ولكن قد نضطر إليها دفاعا عن حياتنا إذا لم نصل إلى حل. والحل موجود تحت عيوننا درسناه من جميع الوجوه. لن يكلف الإدارة شيئا، وليس فيه ما يمكن أن تعترض عليه، فعلى بعد كيلو متر ونصف من السجن يوجد بئر ارتوازى تتدفق منه المياه لتضيع فى الرمال، "عين" حفروها منذ زمن، تصعد منها مياه دافئة لها رائحة الكبريت. فلماذا لا نستصلح مساحة حولها ونزرعها بالخضروات التى نحتاج إليها؟ فى الجزء الخلفى من السجن عند نهاية الحوش الكبير توجد "زريبة" فيها زوج من الثيران وإلى جوارها مخزن صغير يحتوى على محراث، وزحافة وبعض الأدوات الزراعية البسيطة، ربما كان يستخدمها المسجونون العاديون من معتادى الإجرام الذين رحلوا من سجن "المحاريق" قبل أن ننتقل إليه. لم يبق بعد ذلك إلا "التقاوى" يمكن إحضارها من "أسيوط" أو "نجع حمادى" فالخبرة فى الزراعة متوفرة لدينا حيث يوجد بيننا مهندسون زراعيون متخصصون، وفلاحون ظلوا طوال حياتهم يعزقون الأرض، وحتى مهندسون فى الرى يمكن الاستعانة بهم إذا لزم الأمر. أما القوى العاملة المطلوبة لاستصلاح الأرض وشق القنوات، وزراعة الخضراوات وريها، وجمعها فهى تزيد ولله الحمد عما تحتاج إليها المساحة التى سنزرعها، والتى اقترحنا أن تكون عشرين فدانا يمكن زيادتها إن أردنا.

رحبت إدارة السجن بهذه الفكرة، فكما يحدث أحيانا فى الإدارات الحكومية لم تكن راضية عن الوضع الذى كان قائما فى "المحاريق" فالمباحث العامة، ومصلحة السجون لا يهمها كثيرا ما قد يحدث لنا، أو حتى يحدث للضباط والعساكر الذين نفتهم معنا فى سجن "المحاريق". إذا مات أحد المسجونين أو ساءت حالة بعضهم لن يسأل أحد سوى المسئولين المباشرين الموجودين معنا، وإذا وقعت "الفأس فى الرأس" ستبحث السلطات فى القاهرة عن كبش فداء، ومن يصلح لهذا الدور غير الذين ألقى بهم فى غياهب الصحراء. وهذا هو ما أوضحناه لمدير السجن.

هكذا تكونت "فرقة المزرعة". بادرت بتكوينها "حدتو" ورفضت التنظيمات الأخرى الاشتراك فيها على أساس أن استصلاح الأرض، وزراعتها ونحن فى السجن ليست إلا نوعا من أنواع

السخرة التى يجب أن نرفضها، لكن فيما بعد انضم إليها بعض أعضاء هذه التنظيمات من غير العناصر القيادية. أما الإخوان المسلمون فرفضوا المساهمة فى عمل يقوم به الشيوعيون رغم أننا عرضنا عليهم التعاون معنا بالأسلوب الذى يرونه مناسبا. وعلى أية حال فإن عدم المشاركة فى الجهد الذى بذلناه لم يحُل بين أى طرف من هذه الأطراف والاستفادة من التحسن الذى حدث فى مستوى التغذية بعد أن أصبحت الخضراوات جزءا أساسيا من كل الوجبات التى تطهى فى مطابخ السجن.

خططنا الحدود الخارجية لمساحة الأرض التى سنزرعها، أوصلناها بعد المناقشة إلى ثلاثين فدانا فالأرض مازالت ضعيفة مما سيضطرنا إلى "تبوير" أجزاء منها لمدة شهور. أزلنا عنها الزلط والتفل الذى تجمد فى بعض الأماكن ليصبح صلبا كالصخر. ربطنا المساحة خلف زوج الثيران ومسحنا بها الأرض حتى يصبح منسوبها واحدا فلا تتراكم المياه فى جزء منها أثناء الرى. أقمنا البتون لنقسمها إلى أحواض، وعند البئر حفرنا قناة وبطناها بالأحجار، والأسمنت لتصب فيها المياه التى تتدفق من البئر. ثم حفرنا شبكة من قنوات الرى، وعندما انتهينا من كل ذلك أنزلنا المياه فى الأحواض الواحدة بعد الأخرى لنغرقها، وبعد أن جفت المياه أغرقناها مرة ثانية، وثالثة، وخططنا المساحة حسب أنواع الخضراوات التى سنزرعها، أحواض للجرجير والفجل، وبتون عريضة للبطيخ، والقثاء، وخطوط متقاربة للفول مع بعض التعديلات التى كانت تتطلبها طبيعة الأرض الرملية التى لم تزرع من قبل.

بعد أن تمت كل هذه الأعمال اصطدمنا بعقبة جديدة لم ندخلها فى الحسبان فالمياه التى تصعد من باطن الأرض ليست كالمياه "الحلوة" التى تأتى من النهر، أنها مياه جامدة، نسبة المعادن فيها عالية لكن الأهم من ذلك أن درجة الحرارة فيها عالية، ودرجة الحرارة هذه من شأنها أن تقتل النبات الحى. لذلك لابد من تبريدها قبل استخدامها للرى. فتكونت فرقة من ثلاثين متطوعا مهمتها حفر خزان طوله خمسة وثلاثين مترا، وعرضه عشرين، وعمقه متر ونصف.

حرثنا السطح بالمحراث، ثم عزقنا فيه بالفئوس فالمساحة قرب "العين" كانت متجمدة من رشح المياه. أفرغنا هذه الطبقة الأولى بالغلقان وكومناها على جانب، وهكذا فعلنا بالطبقة الثانية ثم الثالثة، طبقة وراء طبقة إلى أن وصلنا إلى العمق المطلوب. كنا مثل عمال التراحيل حفروا قناة السيوس بالذراع، والفأس اختفت ملامحنا وأجسامنا تحت طبقة من العرق، والرمل. حول الخزان زرعنا النباتات المائية صفا خلف صف. بعد شهور صعدت أوراقها الخضر، وتفتحت الزهور بيضاء وبنفسجية، وبرتقالية اللون.

كانت عندنا قوة إرادة، وقدرة على الجهد رغم أن أغلبنا لم يكن تعود على مثل هذا العمل الشاق. كنا نريد أن نعيش، أن نفلت مما دبر لنا فخلعنا العوينات التى كنا نرتديها وحفرنا

بأيدينا فى الرمل. ولكن بعد أن حفرنا الخزان غدت أرواحنا تحن إلى لمسة من الجمال والفن، فزرعنا الزهور لتنطق ألوانها وسط مساحات الرمل.

بذرنا الأرض، وشتلناها ثم سقيناها، ثم انتظرنا. مرت الشهور. كل يوم تخرج فرقة المزرعة عندما يبزغ الفجر حتى نتفادى الحر. أصبحت أعشق الزراعة، والأرض، والجهد الذى أبذله فيها بالفأس. فقدت ذلك الشعور بالنقص الذى يأتى من الحياة فى الغُرف المغلقة، لا نستخدم فيها قدرات الجسم، وفقدت الشعور بالعجز فى يدى كنت أحس به عندما أشاهد النجار يدق المسامير بحذق، أو الكهربائى يولد الضوء من بين أصابعه، أو الفلاح يعزق فى الأرض بضرباته المنتظمة، ساعة بعد ساعة دون أن يكل. فما أجمل هذا اليسر فى حركات الجسم، هذه القدرة على الخلق، على البناء، على صنع ما نحتاج إليه.

أقف وقدمى فى الماء، أسند يدى على مقبض الفأس. أدور بعينى حول الأرض. أتتبع أشعة الشمس تجرى فى قنوات الرى يتبدل لونها مع موقع الشمس، وعندما يهبط القرص الأحمر ويكاد يختفى أذوب فى مهرجان للألوان يتركه، فى مساحات الذهب، والكركم، والزنجبيل، والورد تصبح كالموسيقى تحملنى معها فى الكون الممتد. أخلع ملابسى وأغطس فى المياه الدافئة الصاعدة من البئر. أذوب فى تيار من الدفء يحيطنى، يلمسنى، يدغدغنى. أسبح فيه بعد ساعات الجهد، يحتضننى بلطف، بشعور من السعادة الطاغية. يخلص جسمى من العرق، والرمل، من سموم السجن، من الألم تراكم فى العضل، وفى نخاع العظم من النوم منذ سنين على البرش فأخرج منه كأنى ولدت.

لكن رغم الجهد الذى بذلناه لم تستجب الأرض. ظل إنباتها ضعيفا، وفى بعض الأحواض خلت تماما من الزرع. كان مدير المزرعة المعين من تنظيمنا فلاحا من "دكرنس" فى محافظة الدقهلية أسمه "أحمد سليم". جمع لجنته. لجأنا إلى مدير السجن نطلب الحل، لكنه لم يسعفنا بشىء. فما الذى يستطيع أن يفعله؟ تسميد هذه المساحة من الأرض الصحراوية يحتاج إلى اعتماد ميزانية للصرف. قال لنا ابحثوا عن حل، فبحثنا. لا أتذكر من الذى اقترحه. ما أكثر السبخ فى السجن، فمجاريه تصب خارج جدرانه فى الرمال، صنعت بركة كبيرة فى أعماقها تراكمت كل فضلات السجن لتصنع طبقة فوق طبقة من السبخ الجيد يصلح لتقوية الأرض. يمكن نقله إلى المزرعة كلما احتجنا إليه على ظهر الحمارة، أو فى صندوق من الخشب نصنعه ليجره الثوران على عربة طويلة موجودة فى السجن. لكن هناك خطوة أولى لابد منها هى نزع بركة المياه الآسنة، القذرة الراقدة فوق طبقات الرمل المشبعة بالفضلات التى امتصتها، فترى من ينزعها، وكيف؟

دارت المداولات. اتضح أنه فى المخزن يوجد طمبور. إذا أدرنا الطمبور فى البركة يمكن سحب المياه منها، وإلقائها فى الأرض المحيطة بها والتى تنخفض عنها مقدار متر على الأقل.

هذا يتطلب أن يغطس طرف الطمبور فى مياه البركة، أن يثبت فيها بحيث لا يتحرك، أو ينقلب فيسقط فيها، وأن يوضع الطرف الآخر خارجها على الأرض الجافة ويثبت بدوره على ارتفاع منها، فمن منا مستعد أن يغطس فى هذه البركة، فى مياه قذرة مليئة بكل فضلات السجن، فضلات ما يزيد عن ألفين وخمسمائة مسجون، خليط من البول، والبراز، والمخاط، والدم ومياه الغسيل، ومياه المطبخ والورش، والفرن، ومن أشياء أخرى قد لا نعرفها مثل الجرابيع الميتة، أو الصراصير، أو الحشرات المجهولة التى تجرى فيها من تحت، فضلا عن آلاف من الذباب تحط فوقها، أو تدور حولها كالسحب السود بصوت كالوتر العملاق يطن فنسمع طنينه عن بعد؟

تطوعت. وتطوع "أحمد الرفاعى" الذى كان يلف منشفة حول رأسه ليحجب عن عينيه الضوء، ويغط فى النوم بينما نروح ونجىء من حوله وهو كالغاطس فى بئر. تطوع هذا الهارب من الجهد، من حياة السجن، مثل دودة القز تلف حول نفسها تابوتا من الحرير أو تنام إلى أن يأتى يوم تكسره لتطير بجناحيها. تطوع الرجل الذى كان لا يستيقظ أحيانا حتى فى مواعيد الأكل، وكأنه آمن بالقول: "أيام الخراء فائدتها نومها".

فوجئت، ولما أصبحنا نعمل سويا سعدت. نستيقظ فى الفجر ونذهب إلى البركة خارج السجن حيث نصبنا طرف الطبمور على هضبة صغيرة، وتركنا الطرف الآخر فى البركة التى تصب فيها المجارى. ولكن حتى يستقرّ على هذا الوضع، وحتى يمكن نقله من مكان إلى مكان لننزع به مياه البركة تماما ونكشف عن طبقات السبخ المتراكمة فى القاع كان لابد من الغطس. تكرر الغطس مرات، ومرات، والمياه التى نغطس فيها باردة كالثلج. نعمل قبل أن تصعد الشمس، فتستيقظ الحشرات، والذباب مع الدفء. نستنشق الروائح تثير الغثيان، فيصعد فى حلقنا السائل المر.مع ذلك كان "أحمد الرفاعى" قادرا على أن يحول التجربة إلى مرح يصعد من القلب، أن يرى فى هذه اللحظات ما يضحكه ويضحكنى، وفى هذه المجارى تصب فيها كل قاذورات السجن، ونغطس فيها حتى الذقن مادة للخيال الخصب، تنبته كما ستنبت الأعواد الخضر فى مساحات الرمل. يحكى الحكايات دون توقف بسخرية الفلاح يلبس سيماء الجد. حول شفتيه ابتسامة صغيرة تتأرجح عند الركن، وفى عينيه الشمس تذوب فى سائلها العسلى برفق.

كان كذلك. يظهر وقت الحاجة. وقت الخطر الملح، أو لأسباب لا يعلمها سواه. ربما من باب المزاح أو التحدى، أو التجديد فى الركود أصابه، أو ليفعل ما يهرب الأبطال المزيفون منه، فهو رجل شهم، "حيى" لذلك أحببته.

ربطت بيننا تلك الأيام برباط لا ينفك. فى أحد الأيام ونحن غاطسون فى المياه الآسنة قرب الفجر سمعته يصيح، وهو يكاد يغرق من الضحك. "ياهوه من البرد. ما عدتش حاسس بالجزء التحتانى من جسمى "البتاع بتاعى" باين سقط منى. آخر الكفاح حاخرج من السجن من غير "ظبر" الحقنى يا شريف. أنت مش "دكتور"؟".

أضحك كلما تذكرت "أحمد الرفاعى" المحامى، المزارع المناضل. هو هذا الشخص الذى وصفته. لم أوافه ما يستحق. كان بالنسبة إلى، وسيظل نقطة مضيئة أستطيع أن ارجع إليها كلما جنحت إلى اليأس مما يصنعه الناس بالناس فى هذا العصر.

أقمنا فى هذا المنفى البعيد مجتمعا يبدو لى أحيانا كالحلم. تحقق رغم كل الظروف الصعبة التى أحاطت بنا فأثبت أن إمكانيات التطور يخلقها الإنسان بتفكيره الفردى، والجماعى المستقل. رأيت هذا فى سجن "المحاريق" بعينى ليغرس فى يقينا بأن قدرة الإنسان الحر لا يزعزعه شىء، وعندما أعود إلى هذه الفترة أدرك أن "الاشتراكية" شوهت ثم سقطت فى الاتحاد السوفييتى وبلاد أوروبا الشرقية لأنها لم تراع هذه الحقيقة، لم تراع الإنسان، لم تراع العقل والإحساس، لم تراع عواطف البشر وتفكيرهم المستقل.

كان من بين الذين سجنوا واعتقلوا فى "المحاريق" عشرات من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعة، والمدرسين، والاقتصاديين، وعلماء النفس. وكان من بينهم عمال مهرة، وفلاحون، وحدادون، ونجارون، وأطباء، وحلاقون، ومهندسون، وشعراء وترزية، ومحامون فى استطاعتهم أن يقيموا مجتمعا كاملا قادرا على صنع ما يريد إذا ما فتحت أمامهم الأبواب قليلا، وهذا هو ما فعلوه. هربوا مذياعا يلتقطون به جميع محطات العالم. أدخلوا الكتب سرا ودرسوها، وناقشوها، وأحضروا من بينها كتبا مدرسية، وأخرى جامعية، ثم فتحوا مدرسة. فى المدرسة أصبح كل ذى معرفة يدرس ما يعرفه للآخرين. اللغات والرياضة، أو التاريخ أو الجغرافية، أو الفيزياء، أو الكيمياء، أو الاقتصاد، أو الفلسفة أو الصحة. وإلى جانب الفصول المنتظمة أقاموا ندوات ومحاضرات فى هذه الفروع أو غيرها. أنشأوا مدرسة خاصة للحراس "السجانة" منفصلة عن مدرستهم لها ناظرها، وإدارتها المستقلة، وشهاداتها. كونوها خدمة لهم وكى تتوثق علاقاتهم بهم فوفقا للقانون الذى صدر فى منتصف الخمسينيات لم يكن السجان يحصل على ترقية إلا إذا كان حاملا للشهادة الابتدائية. كان عدد كبير منهم أميا، أو ترك التعليم قبل حصوله عليها ليساعد والديه، أو إخوته. من هذه المدرسة تخرج عشرات من السجانة وتقدموا لامتحان الابتدائية ليقولوا فيما بعد، تخرجنا من "مدرسة المحاريق" ولولا الشيوعيون لظللنا طوال عمرنا دون ترقية.

لكن هذا النشاط لم يكن كافيا ليستوعب كل طاقاتنا فبحثنا عن وسائل لتوسيع الدائرة. قررنا أن نبنى مسرحا مفتوحا فى حوش السجن. كان من بيننا مهندس معمارى بنى عدداً من محطات السكة الحديد فى مختلف أنحاء القطر. قال ما الفرق؟ أنها مسألة عقل. عندى ذاكرة، وفى خيالى مسارح رأيتها فى كتب الآثار والفن. سأصممه على طراز المسرح الرومانى المفتوح. سأجعله كبير الحجم وأضع أمامه مصاطب ترتفع فى نصف دائرة يجلس عليها جمهور السجن. أما البناء فهو سهل. قواعد الهندسة لا تختلف كثيرا طالما أننا لن ندخل فى مشروع ضخم.

بعد أن انتهى من الرسم، وحدد التفاصيل، والمقاييس والزوايا، والمقاطع، وكل ما يتعلق بالشكل أسترشد برأى كاتب مسرحى كان معنا فى هذا الوقت، تحمس للفكرة. كانت لديه مسرحية كتبها فى السجن وأراد أن يخرجها. هذا المسرح سيكون كالمعمل، تجربة وسط جمهور من نوع خاص سيراها بعيون فيها تقدير، ورؤية للنقد.

ولكن من أين نحصل على الطوب الذى سنبنى به المسرح؟ لا يوجد "قمين" للطوب إلا على بعد مئات الكيلو مترات هناك عند وادى النيل حيث يوجد العمران والطمى فقال الفلاحون تبنيه بالطوب "النى" ونبنى المدرجات بطوب من نفس النوع ثم "نليسها".

حملنا فوق أكتافنا آلاف "الغلقان" من الرمل ومئات "الغلقان" من التفل الأحمر، ومن القش، وضعناها على شكل دائرة واسعة فى الحوش قرب السور، نأخذ منها بنسب معينة ثم نخلطها، ونسكب عليها الماء. هكذا صنعنا معجنة للطوب.

لم تكن لدينا أدوات للعجن فهبطنا إلى المعجنة لندك الطمى بالأقدام. عشرات الأقدام تدك، وتدك وعندما تتعب تحل محلها أقدام أخرى كانت تنتظر دورها. دككنا القوام اللزج الخشن إلى أن أصبح مطابقا للمواصفات، إلى أن سالت الدماء من أقدامنا واختلطت بالطمى، فلم تكن أقدامنا مدربة على هذا العجن، لم تكن سارت حافية فوق الزلط، والحجر، أو بين الخطوط فى الحقل. ولكن أردنا أن نغذى أرواحنا بالفن، كما غذينا بطوننا بما أصبحنا نزرعه، ولابد أن نحقق ما أردنا.

لم يكن بيننا "ضريب" فاستعنا برجل فلاح. صنع أفريزا من الخشب وفقا للمقاس وجربه. ثم صنعنا فى ورشة السجن خمسة أفاريز من نفس الحجم. درب عدد منا على "تضريب" الطوب فأصبح لدينا فريق من أربعة منهم أستاذ فى علم النفس.

ضربنا الطوب بالآلاف، ووضعناه صفوفا خلف صفوف فوق الرمل لتحرقه الشمس، وتقوم مقام الفرن. أصبح قوامها صلبا لا ينكسر إلا بجهد. شرعنا فى البناء "عرض طوبتين"، وصفا فوق صف، وبين الطوبة والطوبة "مونا"، طمى مبلل زادت فيه كمية التفل.

تكونت فرقة للتمثيل. واكتشف الكثيرون مواهبهم. عرفوا فرحة الاكتشاف. عادوا أطفالا يلعبون. انقلب الخيال جد، وصنعوا عالمهم. تخطوا أسوار السجن إلى عالم واسع، حملوه معهم وعبروا عنه. أصبح عدد منهم ممثلين محترفين فيما بعد، أو تخصصوا فى الإخراج، أو الديكور، فى المسرح، أو فى السينما.

لم تكن لديهم أدوات أو "إكسسوارات"، أو ملابس. لم يكن لديهم شىء مما يحتاجون إليه. صنعوا من ملابس السجن أثوابا ملونة، صبغوها فى أوعية السجن الضخمة يطهى فيها الفول، أو العدس، ثم نشروها فى الشمس. صنعوا من الأغطية ستارة زرقاء اللون، ومن الألياف تيل

حبال دهنوها بالزيت، ومن الأسلاك الشائكة حلقات ناعمة كالحرير تنزلق عليها الستارة ساعة الفتح أو الغلق. دهنوا وجوههم بالهباب، أو المازوت، أو التفل الأحمر، أو الطباشير استعاضوا بها عن ماكياج الممثلين. صنعوا قباعات من القش، وتيجان من الورق المفضض، والشمع الملون، وأوراق النبات والزهور المزروعة عند "العين" وصنعوا آلات موسيقية: صفافير من البوص، وأوتاراً من الأسلاك الكهربائية، وآلات نحاسية من حلل الطبيخ، وطبول فخارية.

وفى ليلة الافتتاح دعى حاكم الواحات، وضباطه، ومأمور السجن، والحراس، والسجناء، لم تكن هناك تذاكر أو أرقام وكان الشاى مجانا. فرحة لا تفوقها فرحة، وتوتر اللحظات الأخيرة. هل ستقع الستارة؟ هلى الإضاءة ستظل دون أن تنقطع فجأة من السجن كما كان يحدث فى بعض الأحيان؟ لكن لا شئ يمكن أن يبدد لحظات السحر. فوق رءوسنا يطل القمر باندهاش. نسيم الليل يتسرب إلينا فوق المساحات بتلك اللمسة الهادئة التى تميزه فى الصحراء. يحمل أصوات الحديث، والضحكات ففى القلوب وئام رغم أننا سجناء نرتدى ملابس السجن، وهم ضباط يرتدون ملابس الحراس، ويحملون المسدسات فى جراب من الجلد. فالفن يحطم الحواجز بين الناس.

كان التصفيق فى تلك الليلة، يتحدث عن أبواب تفتح، ومستقبل، وأيام. نسينا الصحراء، والجدران وعشنا ساعات من الفن لا تنسى. فمن يظن أن السجن دائما عذاب مخطئ. السجين يعرف لحظات من السعادة الحادة لا يعرفه الذين يعيشون حياتهم فى سلام. السجن كالبحر الرمادى تتشابه فيه الأيام والأشياء، سأم لابد من التغلب عليه، مقاومة للاحتضار البطىء. ولكن فوق هذا السطح الباهت، المتشابه لحظات وامضة تنبض.

عند ركن من أركان الحوش الواسع أقمنا ورشة للفخار نصب فيها الأوانى والأطباق من الطين الأحمر "الأسوانلى" يختبئ تحت الرمل. بعد أن نصب الفخار نحرقه فى فرن من الطين، ونتركه كما هو أو نلونه أو نرسم عليه زهورا، أو طيورا أو حيوانات صغيرة، أو أشكالا مجردة، وإلى جوارها أنشأنا ورشة أخرى للتماثيل، كان يعمل فيها كل من كان نحاتا قبل أن يعبر عن رأى يستوجب السجن، أو الاعتقال فيلقى به فى "المحاريق"، وكان يعمل فيه أيضا من لم يكن نحاتا، أو مثالا، ولكنه أحب أن يجرب بنفسه هذا الفن القديم ورثناه منذ آلاف السنين. ومن باب الورشة هذه أخذت تخرج التماثيل. طفل كتلة صماء ناطقة فى حركة الظهر والرأس تدرك أنه يبكى، دون أن ترى وجهه أو عينيه، امرأة فلاحة قوية فى حركتها كبرياء حر، ثوران يجران عربة من الحجر يلهثان من الحمل، حيوانات، وطيور، وأشياء أخرى كانت فى خيال من صنعها من الجبس.

بحثنا عن مكان نضع فيه التماثيل، وبعض الأوانى الفخارية المزدانة بالرسم. فقسمنا الحوش أمام العنبر إلى مساحتين. المساحة الأكبر لإقامة حديقة تفصل بين العنبر، والمسرح

الذى أقمناه من قبل، والمساحة الأصغر حولناها إلى ملعب لكرة السلة عدت إلى ممارسته بعد انقطاع دام ربع قرن.

تطوع أحد الزملاء ممن لم تنضب موارده بعد بشراء البذور التى نحتاج إليها لإقامة الحديقة فى الحوش. اتفق مع أحد الحراس أن يبتاعها لنا من "أسيوط" عندما يهبط من "المحاريق" فى الإجازة السنوية. فعاد الحارس حاملا معه كل ما طلب منه. تطوع زميلنا المسجون بزراعة الحديقة، ورعايتها. ومنذ ذلك اليوم اتخذ لنفسه مهنة جديدة. كان قد أحضر كتابا عن الزهور، والنباتات والشجيرات التى يمكن أن تزرع فى الصحراء انكب عليه بجد ليصبح هو البستانى الوحيد فى السجن، يتنازل بين الحين والآخر، ويترك واحدًا منا ليساعده. خطط الحديقة، وقسمها إلى ممرات، وأحواض، ودوائر صغيرة منتظمة للشجيرات التى سيزرعها. أزال عنها كل الزلط، والحجارة، وقطع التفل. سمدها بالسبخ الذى أحضرناه له من المجارى على ظهر الحمارة حملا بعد حمل، ثم زرع البذور، وسقاها بخرطوم من المطاط وجدناه عند حراس السجن.

كان يظل فيها طوال النهار كأنه وجد ملاذه فى إنبات أنواع الزهور، والنباتات، أصبح مولعا بها. يعمل تحت الشمس الحارقة طوال النهار. يحفر بفأسه، يزيل الأعشاب، والطفيليات الصحراوية هجمت عليه كأنها وجدته فرصة العمر، لكنه لم يكل إلى أن ارتفعت النباتات الخضراء الصحراوية بقوامها الممتلئ وسطحها المغطى بالأشواك تنغرس فى جلد يديه، وتفتحت الزهور بألوانها فوق الأعناق التى تحملها. كان ككل إنسان يبحث عن طفل، عن هوية، عن مشروع ينمو أمام عينيه تعبيرا عنه، عن قدرته، عن شىء يتولاه بالعشق، فزرع لنا حديقة جميلة نلوذ إليها فى أيام الشتاء، والبرد، ونتنزه فيها فى الصيف ساعة غروب الشمس.بنينا فيها مصاطب من الطوب، و"ليسناها"، ثم غطيناها بالجبس لتصبح بيضاء اللون وسط اخضرار النبات، وألوان الزهور، ونصبنا فيها تماثيل وأوانى من تلك التى كنا نصنعها.نجلس أمامها ساعة الغروب نقرأ، أو نسرح، أو نتحدث بأصوات هادئة عمن نحب.

كل هذا لم يشبع عطشنا للخلق. فبحثنا عن مشروع آخر ننشئه. خلف عنابر الإخوان فى ركن قصى من الحوش وجدنا مساحة لم تستخدم بعد تطل على المساحات المفتوحة ناحية الشرق. لجأنا مرة أخرى إلى مهندس محطات السكة الحديد فى مصر. قلنا له" "نريد أن نبنى جامعا" لكن هذه المرة لم يقم هو بالرسم. أشركنا معه فنانين تشكيليين درسوا الفن الإسلامى، وبعض الأسرار التى تتعلق به، وبعد أن انتهت التصميمات لجأنا إلى صنع الطوب فى معجنة جديدة قرب الموقع الذى اخترناه، ولما أصبح الطوب "النى" ناضجا للبناء، أقمنا الجامع وفقا للرسم، وغطيناه بطبقة سميكة من الجبس، وفتحنا فيه نوافذ تقسيماتها دائرية، أو مربعة، أو مستطيلة، وداخل هذه التقسيمات ثبتنا قطعا من الزجاج لوناها بفرش الرسم، مستخدمين

خليطا من الألوان ونوعًا من الصمغ، حتى تثبت الألوان رغم الرياح، والشمس، وعواصف الرمل، ثم مسحنا على القبة إلى أن أصبحت ناعمة كالنهد.

قبل أن تغرب الشمس كنت أجلس على ربوة متجها ناحية الشرق حيث الجامع يرقد كاليمامة الوحيدة على الرمل. نوافذه المخروطية الشكل يلمع فيها الزجاج فى أشعة الشمس تصبغه بلون غير اللون الذى أضفيناه عليه، وتبدله كلما هبطت نحو الأرض ثم تنتفض فيها الروح قبل أن تغرق فى بحر من الظلام يزحف سريعا على الكون، ويخنقه. أو أتتبع ألوان الغروب على سطحه الأبيض زرقاء أو رمادية، أو أرجوانية، أو حمراء كالطيف يمسح بيديه جحيم النهار تحت الشمس.

أصلى أمامها صلاة العيد. أسمع الأصوات المنغمة فى الفضاء العريض تصبح هامسة، تتلاشى، تضيع، ليحل محلها حفيف الريح. أقف فى الصفوف الأولى، كتفى محنيتان، وجسمى النحيل ملفوف فى الرداء المصنوع من التيل. وذهنى مع جدتى كنت أزورها فى العيد وأنا طفل تمسك بيدى الصغيرة وتسير.

كان الجو فى هذا المكان جميلا فى الشتاء بالذات، وفى الربيع، والخريف. فيه شفافية تتسرب إلينا. لكنه فى الصيف يصبح حارقاً فالحر يصل إلى أكثر من خمسين درجة مئوية. أحيانا تهب عاصفة رملية فتتحول الدنيا إلى ضباب أصفر ينقض علينا. إذا مددت يدى تختفى فيه، تلتهمها. يزحف الرمل إلى كل شىء، إلى الطعام، إلى المياه، إلى العيون، والآذان، والأنف، والحلق، يتسلل بين الأسنان، وفى ثنايا الملابس، إلى كل فتحة، أو فجوة، أو تجويف فى الجسم. يتحرك ببطء خلال الأعصاب كالمنشار فى الخشب يأكله، كالمبرد فى الصلب.

كنا نحصل على المياه من بئر ارتوازى على بعد كيلو متر ونصف من معسكر "المحاريق" الذى نقلنا إليه. نرفع المياه من البئر بواسطة طلمبة يدوية لتصب خلال خرطوم من المطاط فى فناطيس الشاحنات الثلاث التى كانت تكفى احتياجاتنا اليومية. كنت أقوم بملء الفناطيس ثلاث مرات فى الأسبوع مع زميل لى، فأصبحت أتوجه إلى البئر يومياً. أمتطى ظهر الفنطاس جالساً خلف الكابينة، ويصعد إلى جوارى زميلى ثم تنطلق بنا الشاحنة يقودها سائق من حرس السجون وإلى جانبه جندى يحمل بندقيته. تتبعنا الشاحنتان الأخريان فى كل منهما سائق وحارس ممسك بسلاحه.

نخرج من المعسكر قبل الغروب بمدة كافية. عندما نصل إلى البئر يحرك كل منا طلمبة اليد فى دوره بينما يستريح زميله. نواصل هكذا بالتناوب إلى أن تمتلئ الفناطيس. نتنافس فيما بيننا لنرى من منا يستطيع أن يواصل لمدة أطول فى ضخ المياه من البئر.

كان زميلى عامل نسيج من الإسكندرية اسمه حلمى، نحيف الجسم عضلاته رفيعة مشدودة مثل أسلاك من الصلب ، تحتمل الجهد. فى الأيام الأولى لم أستطع أن أجاريه فظل يتغلب على

ولكن بعد أن مرت الأسابيع أصبحت الكفة بينى وبينه متساوية. كنت أتنافس معه حتى لا يتغلب على فيسيل منى العرق، وتتصلب العضلات فى ذراعى، وساقى مع حركة الدفع، والجذب المستمرة أستعين فيها بثقل الجسم أميل به إلى الأمام، وإلى الخلف وأنا أشد بذراعى، أو أضغط بهما على اليد.

عندما ننتهى يكون الجهد قد استنفذ طاقتى. أعود راكباً فوق الفنطاس مستمتعا بالمساحات المفتوحة، بالشمس تغيب، وتنثر ألوانها لتصنع لوحة جميلة تتبدل فى كل لحظة بخيال لا يكل. أترك جسمى لشعور من التعب اللذيذ، للنسيم يتسلل إليه من فتحة القميص. أظل جالساً، ساكناً فوق الفنطاس. تتوقف الشاحنة بنا فى الحوش لتنتزعنى من الرحلة القصيرة وتسلمنى للخيام، والرمال والأجسام تتحرك بملابس السجن، للغسق يلف الصحراء بألوان الحزن.

تطوعت للعمل فى "الفرن" نصنع فيه الخبز للمساجين من الإخوان، والشيوعيين، والحرس، والجنود. أذهب إليه قرب الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. كان عدد العاملين فيه خمسة. أنا وزميلين آخرين، واثنين من نزلاء السجن العاديين. كان معنا فى الواحات سبعة عشر منهم "خطرين" بلغة السجن. نفرغ أكياس الدقيق فى وعاء خشبى طويل عمقه يقرب من نصف متر يشبه طاولة "الدريس" يتغذى منها البهائم، أو الخيل. نصب جرادل من الماء على الدقيق ونخلطها، ثم نبدأ فى العجن. أنهال على الخليط غارسا قبضتى وذراعى فيه رافعاً جذعى، هابطاً به عشرات المرات إلى أن يصبح عجينا له القوام الذى نريده. بعد ذلك نبدأ فى "اللت" إلى جانب العجن. أجرف كتلة كبيرة من العجين بين ذراعى، أحتضنها قرب صدرى، وأرفعها إلى أعلى بحركة سريعة، مائلا إلى الخلف بجذعى، ثم أنحنى قليلاً فوق الوعاء وأتركها تسقط فيها فإذا أحكمت المناورة يصدر عنها صوت مثل طرقعة كرباج من الجلد.

نظل نعجن، ونلت لمدة ساعتين إلى أن يصبح العجين طريا متناسق التكوين، "وعرقه يشد"، ثم نضيف عليه الخميرة ونغطيه بغطاء من التيل. أجفف العرق الغزير الذى يسيل منى بمنديل السجن. أشعر بساقى ترتعشان من الجهد. أسرع بالخروج من الباب قبل أن يلحق بى زميلى. أعشق الوحدة فى هذه الساعة المبكرة من اليوم. لا أريد أن أنشغل بالحديث. أمشى وسط الخيام تظهر كالأشباح فى ضوء الفجر. أتصور النائمين فيها لم يستيقظوا بعد، وأنا سائر بينهم كالرب. أسمع أنفاسهم، تتردد فى السكينة. أتتبع الوهج الأحمر يزحف ببطء. أسمع صوت الآذان هادئاً، دافئاً كالنعاس الطويل يحملنى. لم يعد لى جسم تركته يرقد مع العجين فى الصندوق الخشبى. أصبحت روحاً هائمة فى الفضاء العريض، سائراً فوق الرمال بلا وزن، وبلا جسم، خفيفاً كالنسيم، حراً كالريح. أخلع ثيابى، وأغتسل تحت المياه الباردة تسقط من صنبور البرميل، ثم أفترش بطانية على الرمل، وأشهد قرص الشمس يصعد، رع إله الكون العظيم الذى كنا نعبده.

كنت أريد أن اخرج من السجن أقوى مما كنت يوم أن أودعتنى السلطات فيه، أن تزداد قدرتى على احتمال الجهد، أن يصبح جسمى مشدودا بلا شحم، عضلاته تحت الجلد كأسلاك الصلب. فأنا لا أحب الضعف. يقلقنى أى نقص. اكتشفت أن التقدم، هو فى التغلب عليه. إنه لولا النقص لما أبدع الإنسان، أو اخترع شيئا. إن الإله وحده هو الكامل فى كل شىء، لذلك هو لا يتغير، أو يتطور، أو يبدل فيما هو فيه، بينما أريد للإنسان أن يكون ناقصا. لذلك لا يتوقف عن السعى، عن الاجتهاد فى كل شىء، عن صنع التاريخ، والفن، والعلم، والمجتمع الذى نحيا فيه، يصنع نفسه بجهد مستمر. كان جاهلا بكل شىء ثم أكل من شجرة المعرفة، فأدرك النقص الذى يلازمه، وتبخرت الجنة التى عاش فى كنفها.

يقولون "إن كل ذى عاهة جبار" وهذا صحيح لأن صاحب العاهة يحاول أن يتغلب عليها حتى يواجه الدنيا، ومصاعبها، يحاول أن يعوض النقص الذى يوجد فيه، يطور حركته، أو ذكاءه، أو إحساسه، أو الميزات التى يتمتع بها. لذلك فالأعمى شديد الإدراك للأصوات واللمسات التى تحيط به فهو مثل الخفاش لديه رادار يعتمد على الأصوات التى تصل إليه.

وجدت متعة فى هذا الجهد المستمر، فى هذه الحياة البدائية البسيطة تجعلنا نعيد اكتشاف القدرات الطبيعية التى أهملناها، تعود بنا إلى تشغيل أجهزة الجسم، وعضلاته وأعصابه وشرايينه. كنت أشعر بالسموم التى تفرزها ملايين الخلايا فى جسمى تتسرب منه فيصبح قوياً، خفيف الحركة متين، "بروحى" صافية لم يعد يشوبها شىء، بالحياة تتدفق منى فى شكل رغيف من الخبز يأكله زملائى، أو طوبة نبنى بها مسرحاً يرعى أشعارنا،أو وعاء من المياه يروى أجسامنا المحروقة فى قيظ الصيف. كنت أشعر أننى أعيش فى الحياة بكل حواسى، أقاوم الموت البطىء الذى أريد له أن يكون مصيرنا.

أردت أن ألمس الصخر، والرمل، ودقيق الخبز بيدى. أن أنفذ إلى حقيقتها المادية، أن أشهدها وهى تتغير بين يدى لتصبح شيئاً جديداً فتضاف إليها قيمة إلى قيمتها، أن أتغلب على النقص الذى يعانى منه أولئك العاجزون عن العمل بأيديهم، أن أرى الجماد يتحول إلى حياة ونبض فيدخل فى تكوين الجسم، والعقل، ويصبح وقوداً للحركة والفكر. كنت أريد أن ألمس دفء المياه وهى تصعد من البئر، أن أسكبها على الأرض، وأرى النبت الأخضر يصعد منها كالمعجزة تخرج من الرمل كتب عليها أن تظل بلا زرع، أن أمتص جمال الكون ليصبح جزءاً منى، أن أستنشق هواء الفجر فى أعماق الصدر قبل أن أخرجه، أن أتابع حركة الشمس لم أرها بهذا الوضوح من قبل، أتأملها فى بداية النهار، أشاهد دورتها فوق رأسى، وانعكاساتها وظلالها، أقف صامتاً مستغرقاً أمامها ساعة الغروب تبعثر ألوانها ثم تسقط فجأة فيصبح العالم عالماً آخر غير ما كانت تضيئه، أنتظر حتى يزحف الليل لأجلس إلى جوار زميل لى عمل فى مرصد

حلوان منذ سنوات يعلمنى أسماء الكواكب، والنجوم، يحدثنى عنها فأدرك أن فى الكون موسيقى لا نسمعها.

فى السجن سعادة لا يتحدث عنها من يكتبون عن السجن، سعادة الحياة البسيطة البدائية ضاعت منا، فرحة الأشياء الصغيرة، ونكهتها يضفى عليها الحرمان حدة، وطعم. فالعادة، والوفرة تربيان البلادة فى الحس، الجسم فى السجن يقظ لا يفوته شئ، البرد أو الدفء، رشفة الشاى، المذاق الحلو، قطعة من السماء تطل علينا، صوت يغنى فى الليل. الجسم فى السجن نابض، متحفز، شاحذ لقدراته. هنا تتوهج العواطف، الحب، والكره، الحرص على الآخر. هنا المساواة والمقاومة والتضامن فى مواجهة خطر يهددنا. فى السجن أوجه للحياة لا نعيشها، فالخطر يعطى للأشياء طعماً، لأننا مهددون بفقدانها، محرومون منها. السجن مثل الحرب يولد الحب، حب الحياة، وحب الأشياء، وخيال، وعشق.

كنا نجلس فى الصوان الذى أقمنا فيه المطعم، وأصبح نوعا من المنتدى نلجأ إليه. انتهينا من إفطارنا، شربنا الشاى، وأكلنا الخبز والعسل الأسود، والجبن "الأريش"، وانشغل كل منا بشئ، قراءة كتاب من الكتب التى هربت إلينا، إعداد محاضرة لإلقائها فى فصل من فصول المدرسة المخصصة للذين فاتتهم فرصة التعليم أواجتماع للجنة من لجان النشاط الثقافى أو الحزبى.

كنت أقوم بترجمة فصل من كتاب عن "مبادئ الاقتصاد السياسى" عندما سمعت صوتاً مثل رفرفة أجنحة كثيرة فى الهواء الطلق. ظننت أنه الريح أخذ يهز ساترا مصنوعاً من تيل القلوع كنا نغلق به باب الصوان فى الليل، لكنى لم أجد فيه شيئاً يهتز. تطلعت بنظرة شاردة من تحت فتحته الواسعة تطل على صفوف الخيام، ومساحات الرمل يحيطها سور من السلك الشائك. لمحت أحد الضباط يخطو خارج كشك الإدارة. رفع يده للكاب ليحمى عينيه من الشمس، وأدى له الديدبان التحية العسكرية بحركة فيها تشنج كأنه ضبط سارحاً فى شئ فوقعت عيناى على عشرات الكائنات الصغيرة الملونة تقفز فوق الخيام، وأكشاك المرافق، ومساحات الرمل. فركت عينى حتى أتأكد أنه ليس خيالا من خيالات الصحراء التى كانت تصيبنا فى هذه المساحات التى لا يقطعها شئ، ثم أدركت أنها مئات الطيور هبطت على معسكرنا بحثاً عن المياه والطعام أثناء رحلة الهجرة الطويلة التى أزف موسمها.

كانت جميلة إلى حد يصعب على أن أصفه. أضفت الطبيعة ألواناً على ريشها لا يستطيع غيرها أن يصنعها حية، قوية كأنها خرجت على التو من معملها. تنبض بالحياة كأن لا شئ يمكن أن ينال منها، لا شمس ولا غبار، ولا مرور الزمن مهما طال عليها، موزعة على أجسامها فى مساحات من الأزرق، والأحمر، والأخضر، والأصفر، والبرتقالى، والبنى صغيرة أو كبيرة الحجم، محددة معالمها بحيث لا يوجد أدنى تداخل رغم الاختلافات فى التوزيع، والشكل. على

جسم كل طائر توزيع يختص به كأن الجينات أرسلت أوامرها بألا تكرار، أو تقليد، وإنما نموذج أصيل يختص به كل واحد منها.

تجمدنا فى أماكننا، وكتمنا أنفاسنا، فأية حركة منا يمكن أن تفزعها. تتبعناها وهى تقفز فوق خيامنا، أو حولها على الرمل. تأملناها مثل جمع من العواجيز حرمتهم الشيخوخة من الجنس مرت أمامهم مجموعة من الفتيات نصف العرايا متجهات إلى البحر.

لا أعرف كم مر من الوقت ونحن على هذا الحال. بدا كأنه لا يمر كأنه توقف عند هذا المشهد ليتأمله، أو انطلق بسرعة تحول دون إدراكه كالمعجزة المبهرة سقطت من السماء على معسكرنا، على هذا الجمع المحروم، المجروح من الرجال أكلت الشمس، وقسوة الأيام والصحارى فى حياتهم فاستيقظوا فجأة لوجودها، لجمالها وأحلامها، وخيالها، تجسدت فى هذه الطيور جاءتهم لا يدرون من أين، لتذكرهم فجأة أنهم بشر لهم عيون، ومشاعر لم تمت بعد، ورجفة، أو رقة، تعيش تحد الجلد أو البشرة الخشنة دبغها الجفاف، وأشعة الشمس.

فى لحظة دون أن أعرف من أين جاءتها الإشارة أقلعت فى سرب جميل مثلث الشكل وتتبعتها وهى تدور دورة واحدة فوق معسكرنا كأنها تبحث عن اتجاهها، ثم انطلقت نحو الشمال الغربى كأنها وجدته. رأيتها تبتعد بسرعة فى رحلتها فوق الصحارى، والوديان، والبحار، والجبال إلى قارة لا أعرفها لكنى أتخيلها خضراء يحيا فيها الناس بلا قهر. أصبحت فى السماء نقاطاً صغيرة سوداء اللون تتحرك ببطء. ثم اختفت حاملة معها الحرية، والحب، وكل ما يصنع من الحياة حياة، أو من البشر بشر، وليس مطاريد نصيبهم التشرد فى الأرض والسجن.

فى إحدى الليالى انقض على ثقل فخرجت من الخيمة بسرعة. فرشت بطانيتى على الرمل، ورقدت عليها لعلى أتخفف من إحساس بالاختناق. تأملت النجوم فوق رأسى، بيضاء، تبدو كالمغسولة وتومض بنورها إلى. النسيم يحمل أصوات بعض الزملاء جلسوا على الرمل يتسامرون، ويحكون الحكايات. أسمع أصواتهم مثل جدول ينحدر فوق الصخور، ويصل خريره إلىّ. ضحكاتهم ترق كأنهم أرواح تحلق فى الليل تعودوا الحرمان الطويل فاستغنوا عن أجسادهم. هجروا الدنيا وتركوها وراءهم فاكتشفوا سعادة جديدة صارعوا سوياً ضد المخاطر ليصلوا إليها، وقامت بينهم لغة إنسانية فيها بساطة الصحراء والبدو، وفجأة خرج وجه "ديدار" من جوف الليل. ربما دفء الرمل، أو هلال يطل على، أو الحس المدفون فى هذه الأصوات توحى برقة وسحر الليل، أو لأننى أصبحت فى حاجة إليها، فانهارت خطوط الدفاع التى أقمتها حول نفسى، أو كنت أبحث عن حجة لأعيد العلاقة التى كانت بيننا، ومزقتها فى لحظة من الألم حتى أتخلص منه. طوال الشهور الماضية كنت أهرب منها. لكن الآن اقتحمتنى بكل عنفوان الرغبة المكبوتة. أقف ظهرى للنافذة وألمحها مقدمة على فى ذلك البيت الذى قابلتها فيه لأول

مرة. ضوء القمر يغمر قوامها يلفه ثوب من سواد الليل. الخيوط الفضية تبرق فى شعرها الأسود، وفى عينيها نظرة تدعونى إليها، ثم تتلاشى من ذهنى فجأة كما جاءت إليه. أجهد نفسى لاسترجاعها قبل أن تفلت منى فى الدهاليز المظلمة التى ذهبت إليها. عندما تعود إلى صورتها أترك العنان للخيال لم يعد يقف فى طريقه شىء. أقبل على موجات الرغبة الصاعدة، أتركها تكتسحنى. أسعى إلى جسد هذه الأنثى لأضمه إلىَّ. تراوغنى، فأمد ذراعى، وأجذبها إلىَّ. حلقى جاف والنبض يدق فى عنقى. أصابعى خلف ظهرها تبحث عن الأزرار. تتعثر ثم تهتدى إليها. أشعر بصدرها الساخن يضغط على. ألمس جسدها بيدى، أذوب فى شفتيها، فى النداء الغامض تحت إبطيها. أدفن وجهى فى الظلال أعلى ساقيها. يداها على ظهرى تقودنى إليها، وجسمها يرفعنى على أمواجه ثم يتركنى فى الفراغ قبل أن يعود إلى ليقربنى من الوهج المستتر أسعى إليه. تهمس فى أذنى فألقى بنفسى فى تيار منتفض من اللذة يندفع من ثغرة صغيرة فى رأسى، يحتوينى ثم يتركنى مفرغاً ضائعاً فى ظلام الليل. تمر لحظات مثل الموت، مهولة مخيفة، لحظات ينتهى فيها كل شىء، ثم أفيق إلى إصبع قدمى الكبير أحركه، إلى جسمى يعود إلى جزءا بعد جزء، إلى ملمس البلولة فوق وبر البطانية، ودموع من الراحة والحزن فى عينى.

الرغبة الجنسية فى السجن مثل شظايا للزجاج تسرى فى الجسم. تجعلنى أضغط رأسى على لوح من الخشب، أو فى البرش، أو عمود السرير الذى أنام عليه لأتخلص من صورة الأنثى تقحم نفسها على. أسارع بطردها من الذهن، ولكن عندما تشتد على الرغبة وتؤرقنى أقبل عليها، وأتركها تغزونى لأمارس معها الحب، وأتخلص من التوتر لم أعد قادراً على احتماله. أحيانا فى لحظة اللذة كنت أبكى، أو تصدر عنى صرخات كأننى أشكو من ألم عميق فأطلقها . كأننى أتخلص من عذاب أبدى. لذلك كنت أبحث عن مكان بعيد لا يسمعنى فيه أحد، أو يلتفت إلى.

كنت جالساً فى الصوان أقرأ فى كتاب. بدا لى أن شخصاً ينادى على. جاءنى صوته كأنه من مسافة. رفعت عينى عن الكتاب لكنى لم أسمع نداءً ثانياً فعدت إليه. بعد قليل تردد الصوت من جديد، وفى هذه المرة جاءتنى الكلمات واضحة "يا شريف يا حتاتة". ياالله يا عم جاتلك زيارة حاتنبسط منها أوى".

لم أقم من جلستى. ظننت أنه نوع من المزاح لأحد زملائى كان يحب أن يشاكسنى. فالصوت صوته وفى هذا المنفى البعيد كانت الزيارة دائماً حدث نتوق إليه، لكن لم يحدث أن زارنى أحد من أفراد أسرتى بعد أن نقلت إلى جنوب الصحراء الغربية. كان أبى يكتفى بإرسال الطرود، والحوالات البريدية أضعها تحت تصرف المسئولين عن تنظيم حياتنا وفقاً للنظام الذى كنا نتبعه بهدف تحقيق المساواة.

لم يكن عندى أدنى أمل فى أن يزورنى أحد. أمى لم تزرنى فى جميع المراحل. فى السجن الحربى كانت الزيارات ممنوعة وبعد ذلك قالت إنها لا تريد أن ترانى وأنا محلوق الشعر أرتدى لباس السجن وفى ساقى القيود. أما بقية أفراد الأسرة الكبيرة التى كنت أنتمى إليها فكانوا مشغولين عنى بأشياء أخرى، أو لا يريدون أن تكون لهم صلة بهذا "الشيوعى"، بل أكثر من هذا انقطعوا حتى عن زيارة أمى كأنها أصيبت هى الأخرى بالمرض المعدى قد يصل إليهم.

قمت إلى باب الصوان، وتطلعت ناحية أكشاك الإدارة المدهونة بالجير ، والمغطاة بألواح من الصاج. كانت سيارة جيب تقف قرب مدخل المعسكر هبطت منها امرأة مرتفعة القوام، عريضة الجسم ترتدى الملس الأسود فوق الجلباب. كان معها طفلان، ولد وبنت يرتديان ملابس جديدة ترفرف واسعة حول الجسمين. أنزلت من السيارة بعض الأكياس وسبتاً من القش غطته بمنشفة حمراء ثم سارت فى اتجاه البوابة لتكشف عن امرأة أخرى كانت تقف وراءها منتظرة حتى تفرغ من تنزيل الأشياء . لمحتها سمراء نحيلة تخللت الخيوط الفضية شعرها قصته على الطريقة المسماه "آلا جارسون". ترتدى بنطالاً ضيقاً يبرز خطوط جسمها أسفل البلوزة الزرقاء المغلقة حول العنق. من على كتفها تتدلى حقيبة يد كبيرة تتأرجح مع خطواتها سبقت بها المرأة وطفليها. بدت فى الصحراء كالسائحة الأجنبية قررت لسبب من الأسباب أن تقوم بزيارة سجن الواحات. قبل أن تدخل إلى كشك الإدارة توقفت، والتفتت إلى كأنها لمحتنى واقفاً عند باب الصوان. رفعت ذراعها فى الهواء ولوحت إلى بيدها عدة مرات.

بعد ذلك أكاد لا أتذكر شيئاً عن هذه الزيارة. ما قلته لها، وما قالته لى، وجهها، أو نظراتها، أو صوتها أثناء الكلام. هل تغيرت أم كانت مثلما عرفتها من قبل. حواسى توقفت منذ اللحظة التى أدخلنى فيها الحارس فى الغرفة لأجدها جالسة تنتظر حتى اللحظة التى ركبت فيها السيارة الجيب، واختفت. سرقتنى المفاجأة كالسكين يطعن الجسم دون أن نشعر به. لم أدرك أنها تجلس أمامى، أن عينى فى عينيها، أن صوتها يتردد فى الحجرة وهى تتحدث إلى.

أتذكر أنى رأيتها واقفة قرب السيارة ثم سائرة فوق الرمال إلى الكشك . إنها كانت ترتدى الملابس التى وصفتها، إنها رفعت ذراعها فى الهواء ولوحت إلى. أما بعد ذلك فلا شئ حتى عن لحظة الفراق وكيف ودعتنى. هل شدت على يدى؟ هل احتضنتنى بحرارة، أم خرجت من الباب دون أن تسلم على كما كانت تفعل أحيانا عندما كنا نفترق؟ كانت تقول : "أكره لحظات الوداع".

لم يبق من هذه الزيارة سوى أنها جاءت طائرة فوق الصحراء مثل الرمح الأسمر يشق الفضاء ثم رحلت. لم أكن فى هذا الوقت صاحب عقل يمكن أن يفهم أنها كانت تحبنى بطريقة الطائر الحر يعود إلى وليفه. لا أتذكر سوى يديها ترتعشان كالفراشتان تستقران لحظة، تتحركان من مكان إلى مكان وهى تشعل سيجارة بولاعتها الصغيرة، أو تخرج منديلاً من كيسها، أو توثق رباط الحذاء حول قدميها. لم أحاول أن أفهم منها مغزى هذه الزيارة. لمْ أسألها عن حياتها. تركتها تمضى ثم تساءلت بعد ذلك بسنين.

الفصل السادس عشر

النقاهة الصعبة

فى صباح يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٦٣ خرجت من قسم قصر النيل إلى الشارع سائرا تحت شمس الخريف، بعد خمس عشرة سنة فى السجن، أو النفى. إحساس يصعب وصفه ربما لأن الإحساس فى تلك اللحظة كان غائبا.

أصبحت أسمر نحيلا كالحطب فى الغيطان. منذ أكثر من ثلاثة أسابيع وصلت من معتقل "المحاريق" تمهيدا للإفراج عنى. ركبت قطار الصحراء البطىء يزحف كالدودة الحمراء تجر فقراتها فوق رمال الصحراء لتخترق الوادى الجديد. من النافذة أتطلع إلى الأراضى التى أصبحت تزرع، إلى حقول الفول والبرسيم الحجازى تمتد فى اخضرار أزرق، إلى المياه تجرى فى القنوات، أو تندفع من الطلمبات ثم تستكين فى سطح هادئ يعكس لون السماء. أرى الحدائق والمدارس، والبيوت، ومدن تنبت، وطرقا تمتد كالشرايين السود فى الرمل الأصفر. شاب يخلع قبعته من على رأسه ويلوح بها ناحيتنا ويضحك. أقول لنفسى هذه هى الثورة جعلت ألوان الحياة تتفجر فى الصحراء، وأستعجل دوران العجلات فوق القضبان تقودنى إلى الحياة.

ركبنا القطار فى السادسة صباحا ووصلنا "نجع حمادى" حوالى الساعة الواحدة ظهرا. فى المحطة وجوه سمر، وجلابيب بيض، ورائحة كالحلبة. لا أشعر بالجوع، ولكنى أبتاع سميطا وجبنا من أحد الصبية. أريد أن أمسك السميط الطازج بين أصابعى، وأتلمس سطحه المحمص، أن أنطق الكلمات التى لم أعد أنطقها منذ زمن، وأسمعها تتردد، أن أستنشق رائحة الجبن الرومى. أمتص الروائح، والأصوات والملامح، والحركة الدائبة للناس كأننى أعيش لأول مرة.

جلست عند بوفيه المحطة على مقعد من القش وأمامى فنجان من القهوة. عندما أرتشف منها تصعد نكهتها إلى رأسى فأشعر بدوار. إلى جوارى الحارسان يشربان الشاى برشفات بطيئة يتبدى بين أصابعهم كالعنبر. أتأمل، وأنسى السؤال المقلق. عندما أصل إلى القاهرة ترى هل سيفرجون عنى أم سيعودون بى إلى السجن؟ قيل أن الموقف تغير، وأن "جمال عبد الناصر" قرر الإفراج عنا بعد تأميمات سنة ١٩٦١، حتى نضم جهودنا إلى جهود الثورة.

الناس لا ينظرون إلىَّ. تعودوا رؤية المسجونين، والمعتقلين الرحل فى المحطة. اللباس الأزرق أو الأبيض، والقيود الحديدية، والحراس. أستمع إلى الكلمات تطير فى الهواء وحدها أو تشكل جملة. "العدس السنة ما جابش تعبه" "جلتله نصلح التابوت ياعم، بس أنت أؤمر".

جاء قطار القاهرة فركبنا. صوت البخار، ورنين الجرس وهو يتحرك بدفعات فيها تردد "مع السلامة، سلم عليهم جوى، وجلهم منتظرينكو، هى يعنى مصر أحسن من البلد دى"؟ يتوقف مدة طويلة خارج المحطة فأشعر بالضجر، ثم فجأة يقفز إلى الأمام ليبدأ الرحلة. ولكن الوقت يمر بطيئا رغم اندفاع العربة فوق القضبان وصوتها وهى تصفق. المحطات تمر بتتابع بطىء، وعند كل محطة نتوقف مدة طويلة كأن هناك عطل يحتاج إلى هذه الوقفات.

الشمس تسقط خلف الحقول قرصا أحمر، ثم نصف دائرة، ثم نقطة تختفى خلف الأشجار، والنخيل. الحارس نام إلى جوارى، تسقط يده من فوق ركبته، فتضغط القيود التى تربطنى به على لحمى. هذا الالتصاق المستمر بشخص آخر كأنك جزء منه!! تململت فى جلستى حتى أوقظه، وأحسست بالرضى، عندما توقف شخيره المتقطع. خليط من الطيبة، والقسوة، من الرقة، والغلظة، من الرضى والطمع يطل فى النظرة. عشت معهم منذ سنين. حفظتهم عن ظهر قلب. ربما أصبحت مثلهم من بعض النواحى، فنحن وجهان لعملة واحدة. أنا المسجون، وهم الحراس. أعرف مقدما ماذا سيقولون، فعالمهم صغير، وكل شىء فيه يتكرر. نظر أحدهم إلى ساعته وقال:

"أتظن أننا سنلحق بصلاة العشاء فى سيدنا الحسين؟"

تثاءب زميله بصوت عال. رفع البندقية من الأرض، ثم أسقطها فأحدثت ضجيجا أيقظ بعض النائمين. لمحت الطفلة الراقدة أمامى فى حضن أمها وهى تنتفض، وتفتح عينيها لتنظر حولها فى قلق.

فى مثل هذه الرحلات تعودت أن أتحدث إليهم. أقيم معهم علاقة تخفف من وطأة الالتصاق بهم، وتجعلهم يسهلون لى بعض الأشياء. التقط منهم بعض الأخبار أو وجهة نظرهم عما يجرى، ولكن هذه المرة ذهنى مشغول ممتص فى التفكير عما سيحدث. هل ستكون "ديدار" فى انتظارى؟ أم أنها لن تحضر؟

"لا يا شاويش محمد. سنصل بعد العاشرة مساء".

أخرج ساعة ضخمة من جيب البنطال، وضعها على أذنه لحظة ثم أضاف.

"الساعة تسعة دلوقتى."

نظرت من النافذة. بحر الليل بلا أنوار. أسندت جبهتى على الزجاج. لماذا تأخرنا فى الوصول؟ أحسست بالقطار يبطئ كأنه يقترب من إحدى المحطات. التفتت إلى امرأة زحفت الخيوط البيضاء فى خصلات شعرها. سألتنى:

"راج أن شاء الله"؟

"أن شاء الله يا ستى".

"ربنا يفرجها عنا جميعا.. والدتك عايشة؟"

"يوه عايشة يا ستى".

"بنا يديها الصحة".

عدت إلى النافذة. فجأة لمحت أضواء قليلة مبعثرة فى الظلام، أخذت تتزايد، وتتجمع. أبذل جهدا لأتبين الشوارع، والميادين، وعمارات ترتفع أدوارها فى الظلمة كالبحر ترقص فوقه مواكب السفن، وزوارق الصيد، كالجواهر المنثورة فى الليل تتلون. قلبى يدق، وينتفخ تحت الضلوع. فى حلقى غصة، وفى العينين دموع تبحث عن مخرج. القاهرة، "قاهرة" الأحلام، والشباب، لم أرها منذ سنين، "قاهرة" الحياة، والذكريات. مدينة يخترقها القطار وكأنها بلا قرار، وبلا حدود. يعبر كوبرى "أبى العلا". عجلاته دقات قلبى فوق القضبان. أرى الأضواء تتحرك على سطح النيل. أمد بصرى لعلنى ألمح منزلنا ينتصب بين المنازل. أنا عائد إلى مدينتى بعد فراق طويل ألف ذراعين من الإحساس حولها وأحتضنها.

هبطنا على رصيف المحطة. أضواء النيون تلقى على الناس شحوبا أزرق فى هذا العالم الغريب الذى لا أعرفه. سيل متدفق يهرب من الأبواب إلى التاكسيات، والأتوبيسات، والمترو تتزاحم فى الميدان الكبير. أما أنا فالبوكس الرمادى ينتظرنى، يفتح فاهه من الخلف ويبتلعنى.

نجتاز شارع إبراهيم باشا[١]، والأوبرا، ثم شارع محمد على[٢]، لنصعد نحو ميدان القلعة.

نتوقف أمام البوابة الصامتة. ألمح صبيًا أعرج يحمل صندوقا من الحلوى. أصابع من النعناع، وقطع كراميلا. الوقوف هنا بالنسبة إليه كالوقوف فى أى مكان فهو يبحث عن مأوى. ربما يتوق إلى الدخول فى السجن حيث الدفء، و"اليمك"، والعسل الأسود. أسمع صرير المفاتيح، وأحنى رأسى. أرفع قدما بعد قدم لأمر فوق الحاجز المنخفض عند أسفل الفتحة. ضابط نوبتجى يتثاءب فى وجهى ويقول للشاويش.

"حضر للإفراج. دخله فى العنبر".

مرت ثلاثة أسابيع. كيف مرت لا أتذكر. أنا كالآلة تخلصت من عقلى حتى لا أفكر، أو أتخيل ماذا سيحدث. ربما نوع من الدفاع عن النفس حتى لا أصدم إذا ما أعادونى إلى الواحات مرتديا اللباس الأبيض[٣] بدلا من الأزرق[٤]. كأننى فقدت الاهتمام بما سيجرى. كأن النفس تهيئ نفسها لكل الاحتمالات. تقتل إحساسها.

---

(١) شارع الجمهورية.
(٢) شارع القلعة.
(٣) الأبيض ثوب المعتقل.
(٤) الأزرق ثوب المسجون.

فى ذلك الصباح كنت أطل من فوق الحاجز أتتبع حركة العنبر. مئات الوجوه والأجسام فى لباسها الأزرق، كالوجه الواحد، والجسم الواحد المتعدد الأطراف. سمعت صوتا يعلو فوق الضجيج فجأة.

"مصطفى عبد العزيز حمدان".

"مرسى محمد الخمار".

"على على حسين".

ثم توقف قبل أن يضيف:

"شريف فتح الله حتاتة".

البوكس الرمادى قابع أمام البوابة ليبتلعنى فى صندوقه المغلق. أسمع أنفاس العسكر. أحدهم يجلس بجوارى على المقعد ويطلق رائحة كرنب، من أعلى ومن أسفل. هبطنا من السيارة أمام مبنى المباحث العامة. نما المبنى وتورم منذ أن رأيته فى آخر مرة. صعدنا السلالم حتى الدور الثانى. كان الشاويش يحمل خطابا فى ظرف صغير مختوم فوق المثلث. سأل أحد العسكر.

"حضرة المقدم "بهاء الدين محمود"؟"

"لم يحضر."

جلسنا فى حجرة تبدو مهجورة فيها مكاتب ومقاعد غطاها التراب. الجدران لونها رمادى قاتم مثل البوكس، كمثل كل شئ فى المباحث العامة. أخرجت سيجارة، وعزمت عليهم فرفضوا. لمحت الخوف فى العيون تبتعد عن يدى الممدودة إليهم.

المقدم "بهاء الدين محمود" جسمه بدين مترهل ووجهه أبيض تطل منه عينان زرقاوان يسبح فيهما رذاذ لونه أصفر. شعره يغطى قفاه بلا نظام، خصلات طويلة وخصلات أقصر. يبدو مهملا فى ثيابه على غير عادة ضباط المباحث العامة. أشار إلى بالجلوس أمامه وصرف العسكر بحركة سريعة من رأسه. سألنى:

"اسمك؟"

"دكتور شريف حتاتة."

"سنك؟"

"أربعين سنة.."

"مهنتك"؟

"طبيب".

"حكمك"؟

"عشر سنين أشغال شاقة".

يدون ما أقوله فى مفكرة سوداء وضعها أمامه. مال على المكتب مقتربا منى بوجهه. نظر إلى لحظة طويلة ثم سأل:

"ماذا ستفعل إذا أفرج عنك؟"

"لا أعرف".

"كيف لا تعرف. أهذا معقول؟"

"بعد ما يقرب من خمسة عشر عاما فى السجون، والمعتقلات أعتقد أن هذا معقول".

ابتسم ابتسامة فيها ود مثل الثعلب فى كليلة ودمنة.

"نريدك أن تنسى ما فات".

لم أرد. نظر فى عينى لحظة طويلة قبل أن يسأل:

"هل أنت شيوعى"؟

رأيت عينيه تضيقان مع السؤال.

"ماذا تقصد؟"

مال إلى الوراء ونقر بأصابعه على المكتب.

"أنا أنصحك كأخ أن تتصرف بطريقة أكثر حكمة".

"حتى أجيب على سؤالك، لابد أن أعرف ما الذى تقصده بالشيوعية".

"أقصد هل أنت منضم إلى تنظيم شيوعى"؟

"لا".

ابتسم وهز كتفيه باستهانة كأنه لا يصدق.

"لماذا حكموا عليك إذن؟"

"اسأل المحكمة العسكرية التى حاكمتنى".

انفجر غاضبا كأنه كان ينتظر الفرصة.

"أجب عن أسئلتى بالذوق".

"لم أخرج عن حدود الذوق إلا إذا كان الذوق يقتضى أن أجيب بما تريده أنت".

هدأ بنفس السرعة التى أظهر بها غضبه. أحسست أنه يجس نبضى. خمسة عشر عاما فى السجن والمنفى والآن الباب يفتح وتتحرك الرغبات التى كبتها فى نفسى. إنهم لا يتركون أية فرصة، فمن يعلم ربما فى آخر لحظة والحياة تتراءى لى على بعد خطوة أقع فريسة سهلة. حاولوا قبل ذلك دون جدوى. حاولوا، وأد روح المقاومة. حاولوا تحويلى إلى دمية.

"وإن خرجت هل ستنضم إلى تنظيم؟"

"ربما انضممت إلى الاتحاد الاشتراكى فقد صرح "عبد الناصر" أن بابه مفتوح لأمثالى".

بدا عليه الضيق. ساد صمت طويل فى الحجرة.

"وأفكارك؟"

"هذه مسألة تخصنى أنا وحدى. الحكم بينى وبينك هو القانون، إذا ألغيت المعتقلات طبعا، وأنا رأيى أنها ستلغى. ألا تشاركنى هذا الرأى يا حضرة المقدم؟"

تململ فى جلسته. أخذ يبحث عن شىء فوق مكتبه.أخرج الخطاب الخاص بى من تحت المنشفة وأشر عليه بقلم أحمر. دق الجرس فدخل أحد المخبرين. قال:

"سلمه للحرس".

خطر فى بالى أن أسأله أين سيأخذوننى بعد ذلك، لكنى امتنعت. سيراوغنى حتى يطيل عذابى، ويثبت لى أننى فى أيديهم مثل القشة.

رفع الضابط الشاب عينيه إلى وحملق فى وجهى. ثم صاح "يا شاويش عبد الغنى نزله فى التخشيبة".

هبطت السلم فى نصف الظلام مسندا يدى على الجدران. أحسست بالرطوبة فى كفى. وقف الشاويش أمام الباب الخشبى الداكن. أدار المفتاح فى الباب، ودفعنى بيده إلى الداخل. ساد الصمت عندما فتح الباب ثم استأنفت الأصوات ضجيجها العالى بعد أن انسحب مغلقا الباب وراءه. وقفت مكانى أحاول أن أخترق الظلام. لا توجد سوى كوة فى السقف يتسلل منها بصيص من النور. تنبهت إلى رائحة الهواء الفاسد. تعود أنفى عليها، لكن هذه الرائحة مركبة من كل إفرازات الإنسان تراكمت فى المساحة المغلقة، تصيبنى بالدوار، تثير رغبتى فى القىء، فى أن أكتم أنفى، وأنفاسى حتى أتفاداها، تغزونى من كل المسام فلا سبيل إلى الإفلات منها.

الزنزانة مزدحمة إلى درجة تستحيل معها الحركة، فيظل كل واحد ثابتاً فى مكانه. بالتدريج تتعود عيناى على الظلام. ألمح أجساما كالوطاويط الكبيرة تفترش الأرض، أو مكومة فى

الأركان، أو جالسة عند الجدار، أو وسط الحجرة بين السيقان، وأجساما أخرى تظل واقفة، فأدرك أنها لم تجد مكاناً للجلوس. بالقرب منى رجل تعرى جسمه من كل الثياب، شعره منكوش، ووجهه يختفى خلف اللحية. يفتش فى أسماله، كأنه ليس فى الوجود ما هو أهم من هذا التفتيش المتأنى عن القمل يختفى فى ثنايا قميصه. ينزع القملة من مكانها ويضعها فى كفه ويتأملها لحظة وهى تزحف، ينقلها بين الأظافر، ويسحقها، ثم يعود ليبحث عن غيرها فى استغراق منقطع الصلة عن كل ما يدور من حوله.

على بعد خطوات من الباب حيث ما زلت أقف جسم رجل مكوم فى الركن: رأس، وكتفان، وجذع، وساقان، أحدهما مبتور عند الركبة وملفوف برباط متسخ. من ورائه عكازان من الخشب يستندان إلى الجدار. أخذ يفك الرباط ثم يلفه بإصبعه لفة، وراء لفة حتى يكشف عن طرف الساق، عن الجرح المفتوح، عن مساحة متقيحة، غاضبة يسيل منها دم مختلط بالصديد. مسحها بخرقة قذرة أخرجها من جيبه ثم أعادها إلى مكانها، وأخذ يلف الرباط حول الساق المبتورة من جديد. رائحة الدم والصديد تنفذ إلى فتصعد فى بطنى وحلقى تقلصات الغثيان.

الحجرة لا تزيد مساحتها عن عشرين مترا مربعا ازدحم فيها عشرات من الرجال، قوادون، وشحاذون، وبلطجية، وتجار مخدرات. بين الحين والحين يفتح الباب ليلقى فى الحجرة بطعام كالفضلات تلقى فى صندوق للقمامة. الجالس أو النائم يبقى مكانه، والباقون واقفون فى التصاق، كتلة واحدة بلا فواصل. الأنفاس تختلط بالأنفاس، والعرق بالعرق. يبصقون على الأرض، وعلى الجدران، ويزحف البق ثقيلا فى كل مكان.

أحسست أننى سأختنق. صوت كأمواج البحر يطن فى أذنى، وصرخة تصعد فى حلقى. آخذ شهيقا عميقا فيدخل الهواء ثقيلا إلى الرئتين كالمياه تغمر الغريق عندما يفتح فمه. أضرب على الباب بقبضتى. لا أحد يلتفت إلى، ولا أحد يهبط من أعلى ليسأل عما يجرى. أشعر كأن شيئا يلمسنى لمسة خفيفة فى ظهرى، فألتفت ورائى. رجل ملامحه منحوتة فى مربعات. الأنف، والحواجب كتل بارزة كالأحجار، والعينان تنظران إلى فى ثبات، قاسيتان خاليتان من أى إحساس.

قال:

"أنت "كركى"[1] واللا إيه"؟

نبراته فيها ازدراء. تماسكت نفسى. الرائحة العفنة تضعف بالتدريج، والهواء يدخل إلى صدرى ويخرج منه. نقلت ثقلى من قدم إلى قدم.

---

(١) "جريد" ليس له سوابق فى السجن.

سأل:

"جابوك ليه؟"

"سياسى".

"آه سياسى. ورايح فين؟"

"ربما إفراج؟

سكت. مال بظهره على الجدار، وأغلق عينيه.

مرت الساعات بطيئة. لا أشعر بالجوع، لكن العطش يجفف لسانى، وحلقى. ساد الصمت بالتدريج. أصابهم الإعياء، فاستسلموا للنوم الواحد تلو الآخر. علا الشخير فى الحجرة، وتعالت الأنفاس كأن حيوانا ضخما يقبع بين الجدران. من حين لآخر التقط أنيناً خافتا أو يرتفع صوت سعال متصل مختنق يطلق رذاذا من اللعاب. ألمح الملامح تتقلص، والشفاه أزرق لونها أسفل الشارب، وأسمع صوت الغازات تنطلق من تحت الثياب. أطل على الوجوه فيها قبح الفقر والفساد القديم، المتأصل.

تنبهت إلى شىء يتحرك عن يمينى. الرجل ذو الملامح المربعة ينام إلى جواره شاب. رأيت يده تزحف فوق بنطاله، وتشد عليه لتهبط به. تململ الشاب فى نومه والتفتُ ناحيته فمال عليه الرجل بثقله وهمس "اسكت يابن القحبة." ثم لف ذراعيه حوله، والتصق بالشاب. رأيت حركة الجسد ترتفع، وتنخفض. صوت أنفاسه تلهث بوحشية الذئب ثم تتوقف. شد الرجل بنطاله وأغلقه من أمام. أزحت وجهى عنه حتى لا تلتقى نظراتنا. بعد قليل التفت، وأخذ يتأملنى بنظراته الباردة.

مكثت ثلاثة أيام فى تخشيبة "قصر النيل" أحيا على الشاى، والسجائر يأتى بها الشاويش مقابل جزية يقتطعها من المبالغ التى أدفعها له. أطلقوا سراحى بعد الليلة الثالثة. وجدت نفسى سائراً فى الشارع أتطلع كالمذهول إلى الناس، إلى السيارات والأشجار، والبيوت تمر أمامى فى سلسلة متصلة متداخلة لا فاصل بينها، لكن يعزلنى عنها شىء كلوح من الزجاج.

اجتزت الطرقة المبلطة تقود إلى بئر السلم، وصعدت الدرجات الضيقة تدور كالحلازون حتى الدور الثانى. ضغطت على الجرس فجاء رنينه كأنه يصعد من أعماق الماضى. ظل الباب صامتا مغلقا أمامى. أيمكن أن يكونوا خارج البيت يوم الإفراج عنى؟! عندما يخرج زملائى من السجن يجدون أسرهم عند البوابة، عشرات الرجال والنساء يندفعون نحوهم، يقبلونهم، ويحتضنونهم، ويتحدثون إليهم فى صوت واحد. أما أنا فلم أجد أحداً فى انتظارى. سرت فى شوارع "جاردن سيتى" إلى أن عثرت على سيارة للأجرة. جلست على المقعد الخلفى وإلى جوارى كيس الملابس. قلت للسائق "الزمالك ياسطى" فرنت الكلمات فى أذنى كأنها لم تخرج منى.

أنا كالعائد من سفر طويل عبر البحار لا يعرف أحد أنه قادم. أسندت كيس الملابس على الأرض، وضغطت على الجرس مرة ثانية. نظرت إلى الساعة فى معصمى. الرابعة والنصف. أسمع خطوات فى الداخل، وصوت المزلاج يرتد. انفتح الباب لأجد أمى واقفة أمامى. تنظر إلىَّ فى تساؤل. شعرها أبيض، وعيناها الزرقاوان يرقد فى أعماقهما حزن قديم ثابت.

هتفت بكلمة واحدة "شرف"(١)، ثم صمتت. ظلت بلا حركة كأن المفاجأة شلت قدراتها. تقلصت ملامحها، وارتعش فمها كأنها ستبكى. بذلت جهدا حتى تتماسك. خطت ناحيتى خطوتين، واحتضنتنى. أشعر بها بين ذراعى صغيرة الحجم كالطير الذى طال به الترحال. أمسكت بيدى، وقادتنى إلى الداخل. تفحصنى، تطمئن على سلامة جسمى، وأعضائى، وتشرق الفرحة فى وجهها مختلطة بالخوف، والتردد. أبى يقف فى الصالة. يمد يده إلىَّ، ويقبلنى قبلة واحدة، ثم ينظر حوله كأنه لا يعرف ما هى الخطوة القادمة.

تنبهت إلى امرأة تكاد تختفى وراءه كأنها تريد أن تترك لأمى وأبى الفرصة الكاملة لاستقبالى، أو كأنها غير واثقة من مكانتها، وتخشى أن تفرض نفسها علينا فى هذا اليوم غير العادى من حياتنا. جاءت اللحظة التى تخيلتها عشرات المرات لتجدها مختلفة عن كل ما مر على بالها، وأنا كذلك يتملكنى شعور من الانفصال. أنا فى قلب ما يدور، ومع ذلك لست جزءا منه، فهو لا يصل إلى جسمى، إلى إحساسى. إنه يدور فى عقلى، أراه، وأسمعه ولكنى لا أتفاعل معه. إنه خارج عنى. أبحث فيه عن الدفء الغائب. أحيا فى نوع من الفراغ. أحلق بعيدا ولكن ليس فى السماء. أنا فى حاجة إلى فرحة مجنونة تعبر عن نفسها بالرقص، بالزغاريد، بهز البطن، والأرداف، تكسر الصمت الذى أحاط بى من سنوات فأنا عاجز عن اجتياز المسافة التى تفصلنى عن الناس. طوال الأسابيع كنت أتساءل. ترى هل ستحضر "ديدار" من الجزائر لتكون فى استقبالى؟ هل ستعود علاقتنا كما كانت؟

تقدمت نحوها. ضغطت على يدها، وقبلتها على وجهها ثم قلت:

"جئت؟"

ضحكت ضحكة رنانة فيها فرحة، وفيها خجل. فيها بحة المرأة عرفت الألم. نبحث عن كلمات نقولها. نتخبط فى الصمت.

تناولت أمى كيس الملابس الذى كنت لا أزال ممسكا به فى يدى واختفت. عادت بعد لحظات وجلست إلى جوارى. سألتنى.

"أتأكل شيئا؟ أعددت لك الأطباق التى تحبها".

(١) شريف بالإنجليزية.

قلت:

"لا.. شكرا.. أريد أن أشرب فنجانا من الشاى فقط".

اختفت مرة أخرى خلف الباب الذى يفصل بين الجزء الخارجي والداخلى من الشقة. مر بعض الوقت قبل أن تعود ومن ورائها امرأة سمراء البشرة تلف حول جسمها المربع مريلة مطرزة بورود صغيرة، حمراء. كانت تحمل صينية وضعتها على المنضدة. وقفت لأعانقها فأحاطتنى بذراعيها القويتين وضمتنى إلى صدرها. أستنشق رائحة الصابون الطازجة فى ثيابها. قبلتنى عدة مرات فأحسست بدفء استقبالها يتسلل إلىَّ، بالترحاب التلقائى الحار الذى لا تشوبه أية تحفظات فـ"أم السعد" هى التى كانت ترعانى منذ أن كنت صبيا. جاءت إلى بيتنا وهى لا تزال فتاة لم يتعد سنها الاثنتى عشرة سنة تاركة أسرتها، هاربة من الفقر الذى أحاط بها فى بلدتها "كفر عشوش".

أتأمل إبريق الشاى فارع القوام يحيط به غطاء من الصوف ليحتفظ بحرارته، واللبانة والسكرية، والأقداح والمفرش المطرز بخيوط ذهبية. كل الأشياء فيها ذلك الذوق الذى ينم عن أصالة برجوازية تعيد إلى الاطمئنان وفى نفس الوقت تبث فى شعورا بالقلق، بالتناقض. أحس إزاء الأثاث، والأوانى، والورود، والتحف، إزاء إبريق الشاى الذى أصب منه بمزيج من الألفة والاغتراب. تفصل بينى وبينها خمسة عشر عاما من الحياة وسط نزلاء الأقسام، والسجون أو سكان الحوارى والأزقة، والقرى، وتربطنى بها النشأة والبيئة والأسرة. بينى وبينها ود كبير، ونفور، أعيش الأصل، والمنبع، والمشوار الذى قطعته. أنا إنجليزى مصرى، بورجوازى اشتراكى، فى أعماقى شرارة الثورة وسكون الاستقرار.

دار الحديث بيننا متقطعا، هادئا فاقد الشعلة. لم يبد على أمى أو أبى الضيق إزاء هذا الفتور كأننى مريض يمر بفترة من النقاهة، أو مسافر وصل بعد مشوار طويل فتملكه الإرهاق. المهم عندهما هو أننى عدت وجسمى سليم محتفظ بكيانه. لم يفقد طرفا من أطرافه، أو يصاب بمرض عضال.

سألتنى أمى:

"أتريد أن تنام قليلا. يبدو عليك أنك متعب؟"

تنفست الصعداء. قلت على الفور.

"نعم، أنا فى حاجة إلى الراحة. مكثت ثلاثة ليال فى القسم دون أن يغمض لى جفن".

"إذن قوما إلى غرفة النوم. سأوقظك عندما يحين موعد العشاء. أعددت لك حساءً، ولحم ضأن فى الفرن وبراما من الأرز، وأشياء أخرى تحبها".

غرفة النوم لم تعد تطل على الحقول. أصبحت محاطة بالعمارات. أغلقنا النوافذ، وجلست على أحد الأسرة، بينما رقدت "ديدار" على السرير الآخر. جسمى مرهق، ولكن عقلى يقظ

يرفض النوم كأننى ابتلعت أقراصا منبهة. أشعر أن بينى وبينها مسافة. أتعطش إلى القرب منها، إلى جسمها. فى يوم من الأيام وهبتنى فوراته ولكن الآن أتفادى التلامس، فلم تضع ذراعيها حولى، لم تحدثنى عن اشتياقها إلى. كلانا متحفظ فى تصرفاته، ولكل منا أسبابه. ربما فتر حبها، أو ضاع. ألم ترتبط فى فترة برجل آخر فقررت الانفصال عنها حتى تعيش حياتها وأتخلص أنا من العذاب الذى كنت أعانى منه، وأنا خلف الأسوار، تأتينى شذرات من أخبارها فأتقلب على "البرش"، وتؤرقنى صورتها وهى نائمة فى أحضانه.

لم أكن أدرك أن الفراق الطويل لابد أن يترك آثاره، أن العواطف لن تنساب فى أول لقاء فالخطوات التى سار عليها كل منا لم تكن متوازية. كنت أنا فى السجن، وكانت هى فى الخارج تكون صداقات وتخوض التجارب. نضجت، وتطورت، وزاد استقلالها، وأصبحت لها رغبات، وآفاق تتطلع إليها. وأنا أيضا مع فارق واحد. تجربتى ربما أعمق من بعض الوجوه لكنى عشت بعيدا عن الواقع. دخلت السجن وأنا لا أزال شابا، وخرجت بعد أن أصبحت فى العقد الخامس. أجهل كثيرا من الأشياء التى لا يدركها الإنسان إلا إذا عاش فى قلب الحياة. كنت فى بعض النواحى كالمراهق. حرمت من جسد الأنثى، ومن العواطف فغاب عنى أن إعادة العلاقة بينى وبينها كانت تحتاج إلى جهد، وإلى وقت حتى يتعرف كل منا على الآخر. عطشى إليها كأنثى طغى على كل شىء آخر. جعلنى أحادى التفكير، والمشاعر، راغب فى الاستحواذ على كل اهتمامها، ألا يكون فى حياتها حيز لشىء سواى. ووقف الصمت حائلا بيننا نحن الاثنين. أشياء أخرست لسانى، ولسانها. ربما لو كنا قد حاولنا الإفصاح عما فينا لفهمنا ما استعصى علينا. لسعتنى الخماسين الصحراوية وجففتنى. أما هى فعاشت فى مزارع البرتقال، على سفوح الجبال، أو فى الوديان. نامت على كثبان الرمال البيضاء، أطلت على زرقة البحر، ومع ذلك ماتت فيها الكلمات هى أيضا لسبب آخر. خنقتها حياة السياسة والسرية. كانت هناك عقيدة تعلمتها من أستاذها "هنرى كورييل". لا مكان للعواطف. المهم هو النضال، ففى حياة المناضل يمكن أن تكون العواطف خطيرة. يجب أن يتمركز الاهتمام حول القائد وحول المهام.

هكذا تقوقع كل منا حول نفسه. طباعنا كانت أقوى من أى شىء آخر، كالشلل إذا أصاب الإنسان أعجزه عن الفعل. كانت العيون تتحدث أحيانا ولكنها لم تكن كافية للإفصاح قلت:

"هل أنت على ما يرام"؟ تعتدل فى جلستها وترد باقتضاب:

"نعم". فنصمت من جديد.

قررت الهروب فى الأشياء العادية. انحنيت، وخلعت الجورب والحذاء. أنظر إلى قدمى العاريتين تبدوان كبيرتين وقبيحتين تغطيهما طبقة من الجلد الأسمر الخشن. ترى هل حملت معى رائحة التخشيبة؟ أصابنى هذا الخاطر بالرعب. إنها ستنفر منى، قمت بسرعة، وخرجت حاملا جوربى وحذائى. اجتزت الصالة الكبيرة. أتأمل المقاعد والمناضد، والرفوف وضعت

فوقها الصور والتماثيل والأوانى. لمحت الفتاة راقصة الباليه تميل برأسها ناحيتى كأنها اندهشت لوجودى فى هذا البيت. لا مكان هنا لوضع جوربى وحذائى. تقهقرت منسحبا من حيث جئت. باب المطبخ مفتوح. أسفل الحوض صندوق للقمامة. دسست الحذاء والجورب خلفه، وعدت إلى غرفة النوم. وجدتها راقدة على السرير تقرأ. ضقت بمنظر الكتاب بين يديها. رقدت إلى جوارها فأغلقت الكتاب ووضعته على الكومودينو. أسندت رأسى على كتفها فأدخلت ذراعها من خلفه، دون أن تلتفت إلىَّ. سألتها:

"لماذا جئت"؟

"ماذا تظن"؟

"لا قولى أنت. لماذا جئت؟"

"جئت لألقاك بعد أن خرجت من السجن، لأكون إلى جوارك".

"فقط؟"

"أليس كافيا؟"

صمتت ثم قالت.

"لنتحدث عن علاقتنا".

"وما رأيك أنت"؟

"الأمر يتوقف عليك. فأنت الذى قررت الانفصال عنى".

"سمعت أن لك رجلا آخر فأردت أن أحررك من القيود".

"لم تسألنى".

"أهذا يحتاج إلى سؤال؟"

لم تعلق. نظرت إلى وجهها، أصبح شاحبا جامدا كالشمع. سألتها :

"والآن؟"

"بالنسبة لى لم يتغير شىء".

"وأنا أيضا. بالنسبة لى لم يتغير شىء" ثم أضفت كأننى أعذبها.."أنا الذى كنت فى السجن".

"أعرف هذا. لم أنسه رغم كل ما قد تظنه ربما" ترددت ثم أكملت "نستطيع أن نستأنف ما بدأناه. أنت تحتاج إلى تغيير. إلى فترة من الراحة بعد السجن. لماذا لا أرتب لك زيارة إلى الجزائر لمدة شهر؟"

"ألا تنوين البقاء فى مصر"؟

بدا عليها الحرج. صمتت لحظة طويلة قبل أن ترد.

"ليس من السهل أن أغير حياتى فجأة. مازالت لى ارتباطات، وأعمال أقوم بها هناك. ثم الحياة فى مصر بالنسبة إلى.."سكتت

"مالها"؟

"صعبة".

تملكنى الضيق. شىء غامض فى سلوكها لا أفهمه. سألتها:

"كيف نستأنف ما بدأناه سويا، وأنت تريدين العودة من حيث جئت".

"المهم أن نقضى بعض الوقت سويا، أن نفكر فى الأمر، وسفرك إلى الجزائر سيتيح لنا أن نتبادل الرأى، أن ترى تلك البلاد، وأن تقرر هل تريد أن تبقى فيها أم لا؟"

"وأنت لماذا لا تبقين هنا بعض الوقت وتعطين لنفسك فرصة للتفكير"؟

صمتت لحظة طويلة. وجهها فيه جمود كأنها أغلقت نفسها أمام الكلمات.

"لا أستطيع أن آخذ هذه الخطوة على الأقل الآن. مع ذلك ربما نستطيع أن نبدأ من جديد فى مكان آخر. لهذا جئت".

نظرت فى عينيها، وقلت:

" نعم، ربما نستطيع". ثم سكتت.

وضعت خدها على خدى، ويدها على الجانب الآخر من وجهى. أحسست بها باردة. نحملق فى الفراغ كأننا لا نعرف الخطوة التالية. دارت عيناى حول الحجرة. سألتنى.

"عمّ تبحث؟"

خطر فى بالى أن أهرب مرة أخرى، فقلت.

"أريد أن أستحم. بعد ثلاثة أيام فى القسم أخشى أن تكون ملابسى كلها قمل."

بدا عليها الانزعاج، ولكنها لم تتراجع عنى. قمت من السرير، وفتحت الدولاب. تناولت منه غيارا داخليا، ومنامة من الصوف ابتاعتها أمى استعدادا للإفراج عنى. لمحت فى الدولاب بعض الملابس الأخرى التى أعدتها. لم تنس شيئا. أحسست بغصة فى حلقى.

سرت فوق البلاط على قدمين حافيتين. دلفت إلى الحمام، وأغلقت الباب. فى السجن كنت أستحم أو أقضى حاجتى "مقرفصاً" فى دورة المياه والعيون من حولى. تعودت على هذا مع

الأيام، ولم أعد أبالى، ما عدا إذا انكشف قضيبى أو ردفى أحاول أن أخفيه بيدى. وإذا عجزت أثبت عينى بعيدا عن الواقفين بالقرب منى حتى أنساهم.

خلعت ثيابى وألقيت بها فى سلة الغسيل. سأطلب من "أم السعد" أن تقوم بغلوها جيدا. وقفت تحت الدش، وفتحت صنبور المياه الساخنة. أشعر بها تنهمر على. أستمتع بملمسها الساخن، والبخار يصعد من حولى. أدعك جسمى بالصابون المعطر واللوف بحركات قوية كأننى أزيل ما تراكم عليه. أفرغ التوتر الخفى الذى لازمنى طوال النهار. الدماء تجرى فى الشعيرات فتضفى على جلدى الأسمر احمرارا. أشعر بدوار كالسكرة الفجائية، بانتشاء يستولى على. أريد أن تنبض خلايا الجسم أصابتها حالة كالبيات الشتوى. لا أريد أن يسألنى أحد عن السجن، عن حياتى فى السنوات الماضية. الحاضر هو المهم، وفى هذا الحاضر الأهم هو الأشياء الحسية. هو الوجود بعيدا عن القبح اليومى، عن البق يترك آثاره الدموية فوق الجدران، والقمل يختبئ فى ثناى القمصان، عن رائحة البول تتصاعد فى الزنازن، عن صرخات الألم، واللهاث الجنسى. عن قطيع يتزاحم، ويتعارك، عن الدناءة والوقاحة والقذارة التى تنضح بها نداءات المساجين. أريد فقط أن أشرب قدحا من الشاى، وأدخن سيجارة، أن أنصت إلى الصمت.

توجهت إلى المطبخ. أشعلت الموقد، ووضعت فوقه براد الشاى. جلست على المقعد المستدير الذى كنت أجلس عليه، وأنا تلميذ. أحسست براحة عميقة تزحف على.

احتضنتها فى تلك الليلة. ولكن عندما حاولت أن أدخل إليها أصابتها انقباضات فى عضلات البطن، والساقين ألقت بى بعيدا عنها، وكأن جسمها نفر منى بإحساس عجزت عن التحكم فيه. وبعد تلك الليلة لم أجرؤ على الاقتراب منها. كانت الصدمة عنيفة بالنسبة لى، صدمة ضاعفت الاغتراب الذى أحسست به. عشت ألم الرفض بعد أن كنت أتخيل هذا اللقاء الأول وأتشوق إليه. أصبحت أتساءل عن مدى حبها لى. فها أنا أشتاق إليها ولكنها لا تبادلنى هذا الشوق. أليس الجنس مقياس الحب بين المرأة والرجل؟ وهل يعقل أن تحب امرأة رجلا دون أن تشعر نحوه برغبة جنسية؟ فى أعماقى كان الجرح عميقا وظل الشك يفترسنى مع ذلك اتفقنا على الزواج قبل أن تعود إلى الجزائر. ربما كانت تريد أن تؤكد العلاقة القائمة بيننا. أما أنا فكنت فى حاجة إلى ما يثبت تمسكها بى. ذهبنا إلى مأذون الزمالك. كان شاهدا الزواج اثنين من زملائى اللذين حكم عليهما فى القضية التى حوكمت فيها.. أحدهما صحفى فى جريدة الأخبار والآخر طبيب عيون. كانت السماء مغطاة بسحب كثيفة، يسقط منها رذاذ من المطر الرفيع يثير التوتر، ويحول تراب الشوارع إلى قشرة رفيعة من الطين الأملس يتزحلق عليه حذائى.

جلسنا فى كشك خشبى ملحق بشقة المأذون. أحسست بنظراته وهو يفحصنا. كنا نتصرف إزاءه بنوع من الزجر كمن يريد أن ينتهى قبل أن يحدث شىء. لم تبد علينا الفرحة، ولم تحدث

تلك الهيصة المعتادة، أو تعلو الضحكات التى تعلو عادة فى مثل هذه المناسبات. بين الحين والحين التقط نظراته تجريان فوق ملامح "ديدار". إنها امرأة غريبة عليه، فيها نوع من التحفظ والكبرياء. تتخلل الخيوط البيضاء شعرها الأسود. ترتدى عوينات شمسية وتدخن. أجنبية رغم اسمها المصرى. تزوجت مصريا من قبل ثم انفصلت عنه وهاهى تتزوج مصريا ثانيا يبدو أنه ابن ناس فهو يسكن الزمالك. امرأة محنكة، لا يؤمن جانبها، فالنساء منبع الشر والفتنة فى هذه الدنيا. فما بالك بامرأة تبدو عليها الجرأة، تدخن فى يوم زفافها، أمام المأذون، تضع ساقا فوق ساق، وترد على أسئلته بصوت نبراته جافة كأنها تشعر بالضيق. عيناه تنزلقان على صدرها، وتستقران لحظة على ردفيها، فالتقط فيهما نهم الفقيه. يردد الكلمات المعتادة بصوت رتيب كأنه يريد أن ينهى مهمة فرضت عليه. أرى ملامحها الجامدة فى الضوء الرمادى، والكآبة التى أضفاها المصباح الكهربائى عليها.

تساءلت بينى وبين نفسى ترى هل انتهت قصة الحب الطويلة التى عشناها؟ أم أن هناك جمرة نستطيع أن ننفخ فيها لتشتعل من جديد؟ أحسست أن قلبى المهموم ينوء بحمله.

حجرة متوسطة الحجم لها ملحق أصغر منها. فى الحجرة ثلاثة مكاتب وفى الملحق اثنان. قرب باب الحجرة مكتب كبير يجلس عليه مدير الوحدات الصحية الريفية. طو له فوق المتوسط، وجسمه نحيل، وتقاطيع وجهه تبدو مصنوعة من الشمع. عيناه غارقتان فى قاع النظارة التى يرتديها. عندما ينظر ناحيتى لا أرى عينيه.

خرجت من السجن، والتحقت بوزارة الصحة. قال لى الوزير ستعمل مع الدكتور "إبراهيم الشربينى"، فلم أفهم ما يعنيه. كنت فى الحزب مسئولا عن وجه بحرى. أحيا حياة الخطر والقضايا التى أتخذ فيها قرارات تبدو لى مصيرية، تتعلق بأمور سياسية مهمة، وتدخل فى صلب صراعات المجتمع العصرية. أتصرف فى مسئولياتى بحرية. لا ألتقى بالمستويات الأعلى فى السكرتارية المركزية إلا نادرا، ولا أتناقش معها إلا فى خطوط السياسة العامة. لذلك ظلت الرئاسات الإدارية فى الحكومة مسألة استعصى علىّ قبولها، ومصدر المشكلات التى لم أنته منها طوال السنوات التسع التى تنقلت فيها بين ستة وظائف حكومية إلى أن "خرجت من الخية" وسافرت إلى الهند خبيرا فى "منظمة العمل الدولية".

لم أدرك أن كلام الوزير معناه أن الدكتور "إبراهيم الشربينى" سيصبح رئيسا لى، أو ربما تسربت إلى الفكرة بطريقة هلامية، دون أن أنتبه إليها وأعطيها مدلولا عمليا. كنت أحيا فى ملكوت الزعامة السياسية ثم وجدت نفسى فجأة موظفا حكوميا دون أن أدرى مغزى هذا التغيير.

فى الحجرة مكتب آخر يحتل ركنا فى مواجهة الباب. فى الصباح قرب الساعة التاسعة وأحيانا العاشرة تحضر امرأة شابة. عندما تدخل تهتز الأرض الخشبية تحت خطواتها

المسرعة، كأنها تضغط عليها بثقلها. تخلع سترتها، وتضعها على ظهر المقعد. تخرج أشياء من حقيبة يد كبيرة الحجم. تدير قرص التليفون الأسود الموضوع فوق مكتبها مرة، ومرتين، وثلاث. فى كل مرة تجرى حديثا سرعان ما ينتهى ثم تأخذ حقيبتها، وتنطلق كما جاءت مسرعة. لا أراها بعد ذلك إلا إذا عادت قبل أن أنصرف من المكتب لتأخذ سترتها قرب الواحدة، أو الثانية كأنها تهرب قبل أن يستوقفها شخص ربما سعى إليها.

ملامح وجهها عريضة، وشعرها غزير فضى اللون يغلب فيه البياض على السواد. عندما تمشى تهتز خصله. عيناها فيهما بريق، سوداوان كالفحم، حولهما أحيانا تضع الكحل. انطباعات جاءتنى متفرقة سابحة ببطء. تطل على من عالم آخر غير العالم الذى أعيشه. أشعر بوجودها، لكن لم يأت الوقت بعد لأتنبه إليها فهناك أمور فى نفسى تشغلنى عنها.

لا أعرف متى سمعت أن اسمها "نوال السعداوى"، ولا أعرف لماذا لم تفرض نفسها على حتى وإن كنت منشغلا عنها. شىء فى ذلك الوقت كان يقف بينى وبين رؤية ما كان يجب أن أتنبه إليه، نوع من العمى يأتى من الاستغراق فى الذات، ومشاكلها، أو ربما أشياء فى نفسى ذبلت فى السجن، ولم تتفتح بعد. فمن الصعب على أى شخص ألا يلتفت إلى "نوال السعدواى" سواء انجذب إليها، أو أعرض عنها، أو اختلطت مشاعره بالنسبة إليها. حضورها من ذلك النوع الذى يفرض نفسه عليك.

الحجرة التى أتردد عليها مختفية تحت بئر السلم. إلى جوارها دورة مياه عمومية بها ثلاثة مراحيض، وأربع مباول، وحوضان لغسيل اليد. تشبه أغلب دورات المياه فى بلادنا تفوح منها رائحة كريهة. "السيفونات"، والصنابير تتساقط منها المياه، أو لا تعمل والفضلات تتراكم يوما بعد يوم. لا أحد ينظف الأحواض، أو المراحيض، أو القيشانى الأبيض، كستها طبقة من القذارة الصفراء والبنية اللون. كانت دورات المياه فى السجن أكثر نظافة عن دورة المياه التى كانت تجاور حجرتنا فى وزارة الصحة. دخلت فيها مرة واحدة ولم أعاودها.

الهواء لا يجىء إلينا إلا من الباب، هواء محمل برائحة الدورة توزع نفسها علينا نحن الأطباء الخمسة الذين استقر بهم الحال فى الحجرة، وملحقها خصص لاثنين منا الدكتور "زكريا عربان"، والدكتورة "كوثر الهامى". مكتبى أنا كان هو الخامس، أدخلوه إلى ركن الحجرة، وظل هناك لا سبيل إلى إخراجه. إذا أردت أن أصل إليه، وأجلس على المقعد وراءه لابد من القيام ببعض الحركات البهلوانية فالمساحة بين مكتبى، ومكتب الدكتور "إبراهيم الشربينى" تكاد لا تسمح بمرورى منها. ولكن ساعدنى فى ذلك نحول جسمى، واعتقادى الراسخ بأن كل ما أتحمله فى وضعى الجديد جزء من تضحيات الكفاح من أجل الاشتراكية التى اختارتها الثورة طريقا لها، ومرحلة مؤقتة ستتحقق بعدها كل الأحلام. فلا شك أن رجلا مثلى سيكون له شأن. لذلك حتى المسمار الذى برز فى المقعد ليخترق بنطال البدلة الوحيدة التى كنت أمتلكها،

وليمزق جزءا منه تاركا قطعًا فى شكل مثلث كشف عن اللحم، حتى هذا المسمار لم ينل من حماسى للثورة، وأملى فى المستقبل الذى ينتظرنى.

مضى شهر منذ أن ذهبت إلى الدكتور "أنور المفتى". تداولت معه حول رغبتى فى العمل فى وزارة الصحة لأشارك بجهدى فى بناء المجتمع الجديد. لم يبد حماسا كبيرا لاقتراحى. كانت له تحفظات حول العمل فى الحكومة لم يفصح إلا عن جزء منها. قال لى: "أنت طبيب وعندك مهنة. استثمرها، وكن سيد نفسك". لكنى لم أول كلامه اهتماما. أنا رجل سياسى، ومكانى هو العمل العام فى جهاز من أجهزة الثورة. لم أتعود العمل الفردى فى عيادة فلما وجدنى مصرا لم يتردد. كانت له علاقة وثيقة برجال الثورة فاتصل "بعلى صبرى"، وبعد أسبوع ذهبت إلى قصر القبة. هناك التقيت "بحامد محمود" مساعد "على صبرى". قال لى إنه اتصل بالدكتور "النبوى المهندس"، وزير الصحة، وتحدث إليه فى شأنى وما على إلى أن أتوجه إليه فهو ينتظرنى.

كانت حجرة سكرتير الوزير ضيقة، مستطيلة تطل نافذتها على شارع مجلس الأمة، مزدحمة بالزوار يجلسون فى صمت ويحملقون فى الجدران، والسقف، أو يخطفون نظرات سريعة للساعة الكبيرة المعلقة على الجدار تشبه ساعات مكاتب البريد، أو محطات السكك الحديدية. ساعة ميرى يتحرك فيها العقرب الطويل من دقيقة إلى دقيقة بقفزة كأنه يفيق فجأة لمرور ستين ثانية، يعود بعدها إلى السكون. بين الحين والحين يقوم أحد الزوار من جلسته، يميل فوق مكتب السكرتير ليهمس فى أذنه فأسمعه يقول:

"نعم.. نعم.. لا أستطيع أن أدخل عليه. السيد الوزير مشغول".

وجه السكرتير أسمر البشرة، بيضاوى الشكل يرقد فوقه الشعر أسود لامع. جبهته صغيرة كأن وجهه نما على حساب الرأس. ملامحه جامدة لا تبدو عليها علامات الرضاء، أو الفرح، أو الغضب، أو الضيق. رأسه مغروس فى الجسم البدين يقبع خلف المكتب كأنه جزء منه لا ينفصل عنه. إلى جواره على المكتب جهازان للتليفون. أحدهما له يد لتوصيل الخط بالوزير. على الناحية الأخرى دكتافون. ينظر إليه السكرتير بين الحين والآخر كأنه ينتظر منه شيئا. تليفون الوزير له جرس خاص أجش. عندما يسمعه يقفز فى مقعده كمن أصابه مس كهربائى. يمد يده بسرعة إلى السماعة، ويختطفها. يلصق فمه بجزئها الأسفل ويسقط فيه كلماته كأن بينه وبينها علاقة خاصة لا يريد لأحد أن يفطن إليها.

نظر إلى بعينيه الصغيرتين وقال:

"دكتور شريف حتاتة. اتفضل. السيد الوزير".

دفعت الباب المبطن بالجوخ الأخضر، ودخلت. بدت لى الحجرة ضخمة، مزدحمة بالأثاث. الكنبة والمقاعد الجلدية متورمة الحجم. قام الدكتور "النبوى المهندس"، وخرج من خلف مكتبه.

قصير القامة، ممتلئ قليلا، جبهته عالية تطل من تحتها عيناه ببريق تختلط فيه الطيبة بالذكا وبشعاع من المكر. جفونه منتفخة، وملامحه متعبة كأنه يسهر الليالى، ويسرف فى الجهد يحمل سبحة تتدلى ساكنة بين أصابع اليد.

تقدم ناحيتى بابتسامة ودودة كأنه يستقبل صديقا قديما غاب عنه. شد على يدى بحرار قائلا:

"حمدا لله على السلامة. أنا سعيد برؤياك. اجلس يا دكتور. اجلس هنا" مشيرا إلى الكنبة جلست، وجلس هو على المقعد بالقرب منى ثم سألنى:

"متى أفرج عنك؟"

قلت:

"منذ شهرين تقريبا".

دخل الفراش من الباب. سألنى:

"تشرب إيه يا دكتور؟"

قلت:

"قهوة على الريحة إذا سمحت".

خرج الفراش، والتفت إلى. فى عينيه نظرة فاحصة، متسائلة. دار بيننا حديث فى أمور مختلفة ثم فجأة، كأنه أحس أن الوقت طال ويريد أن ينتقل إلى المهم، قال:

"سمعت أنك تريد أن تعمل معنا فى الوزارة" ثم سكت دون أن يوضح لى من أين سمع. أجبت بحماس.

"نعم. أريد أن أقدم جهودى فى مجال الصحة".

"حسنا. وأنت تعلم بالطبع أننا نتوسع فى الخدمات الصحية بسرعة. فى الريف أقمنا مشروع الوحدات الصحية. هدفنا وحدة لكل خمسة آلاف من سكان الريف، ونحن نخطط لتنفيذ التأمين الصحى فى الإسكندرية ثم القاهرة. الخدمات الصحية يجب أن تصبح حقًا لكل المواطنين. أليس كذلك؟" لم يمهلنى فرصة للرد. "أنشأنا حتى الآن ما يزيد عن الف وثلثمائة وحدة ريفية تقدم الخدمات الطبية الأساسية فى الوقاية والعلاج. وهذا في فترة لا تتجاوز السنتين. دفعنا بهذا المشروع خطوات كبيرة إلى الأمام، ولن نتوقف. سترى كل هذا بعينيك. إننا فى عهد الاشتراكية، والثورة تزيل كل العقبات حتى تحقق خدمات صحية لائقة لكل المواطنين".

تبدو عليه علامات الحماس، والرضى بالنفس، وهو يستعرض أمامى إنجازات وزارته. أكتفى بالإنصات. أهز رأسى تأييدا لما يقوله فأنا لا أعرف إلا القليل عن الأشياء التى يتحدث عنها. استطرد.

"نحن فى احتياج إلى الاشتراكيين أمثالك. الرئيس يقول دائما الاشتراكية تحتاج إلى اشتراكيين لتنفيذها. وأنا أريد أن أفتح المجال أمام كل عنصر يريد أن يخدم الثورة بإخلاص"

أخذ رشفة من فنجان القهوة الذى أحضره الفراش، فأخذت رشفة من فنجانى. رمقنى من فوق فنجانه كأنه يريد أن يرى تأثير كلامه.

"أنا أريد أن أستفيد من كفاءاتك. ستعمل معى مباشرة. ادرس الوزارة، وتقدم لى باقتراحاتك. وهناك أمور سأحولها عليك للدراسة".

قلت:

"أنا مستعد للقيام بأى عمل يوكل إلى".

"فى هذه الفترة سأتخذ الإجراءات لتعيينك فى الوزارة. لن يأخذ هذا الموضوع كثيرا من الوقت. مع ذلك لا داعى للانتظار. أريد منك أن تحضر إلى الوزارة من باكر، أن تبدأ فى العمل منذ الآن، ولنترك موضوع التعيين يسير فى طريقه. فما رأيك؟"

"ليس لدى مانع من البدء فوراً".

"فى التعيين سنسعى إلى تعويضك عما فاتك" توقف لحظة، ونظر إلى متسائلا "هل أنت مستريح لهذه الترتيبات؟"

"مستريح جدا".

"حسنا".

صمت، فظننت أن المقابلة انتهت. قلت:

"أشكرك. والآن لأستأذن"

ظل يفكر لحظة ثم قال:

"انتظر دقيقة. أريد أن تلتقى بالدكتور "إبراهيم الشربينى". نظر حوله كأنه يبحث عن شىء ثم أضاف. "توجه غدا إلى مكتب الدكتور "الشربينى". سأتحدث أنا معه فى شأنك".

ودعنى عند الباب. شد على يدى مرة أخرى بحرارة. عيون الواقفين فى الصالة تفحصنى فى فضول. هبطت على السلالم. كلمات الوزير تتردد فى أذنى مع خطواتى. الأبواب تتفتح أمامى. سأعمل معه مباشرة. طلب منى تقريرا عن الوزارة. أعبر الحوش إلى الباب الخارجى.

الأشجار فى شارع مجلس الأمة تبدو أكثر اخضرارا، والسماء تطل على صافية. أرفع رأسى إليها. ألمح رعشة الأوراق وسحابة بيضاء تتبعنى وأنا سائر. أملأ صدرى بالهواء. انتهى الكابوس. الثورة تحتاج إلى أمثالى. سينهى الإجراءات الخاصة بتعيينى فى مدى أسابيع أو ربما أيام. لا أعرف شيئا عن هذه الإجراءات، ولا أتساءل لكن ألم يقل أنه يريد أن يعوضنى عن كل ما فاتنى؟

فى اليوم التالى دلفت من الباب لأجد رجلا يرتدى عوينات واقفاً خلف مكتبه. سألت: "الدكتور "إبراهيم الشربينى"؟" قال : نعم. قلت "أنا الدكتور شريف حتاته". احتوانى بين ذراعيه. أجلسنى إلى جواره. طلب لى فنجانا من القهوة أحضرها الفراش فى "كباية" ومعها كوب من الماء عليها علامات الأصابع. ذهنى يلتقط التفاصيل دون أن يتوقف عندها. أرى الأشياء لكنى لا أراها. قلبى ملئ بالسعادة. فى أعماقى أصوات غامضة لا تتضح ألفاظها. كل الأشياء تبدو جميلة حتى القهوة رغم أن بها رائحة زفارة. لم أتبادل معه سوى كلمات قليلة لم أخرج منها بشىء واضح. ففى الحجرة ما يشبه الدوامة. سيل من الزوار كلهم أطباء شبان، وكلهم يريدون التحدث إليه فى أمور يقولون أنها مهمة.

أصبحت أحضر كل يوم فى الصباح، وأجلس إلى جواره. يتحدث إلى عن مشاريع الوزارة، عن الوحدات الصحية الريفية، وما يسميه هو "بالفلسفة" التى تكمن فى أهدافها وتوزيعها، والطريقة التى تقدم بها خدماتها. مر أسبوع، وهو يكرر على هذا الكلام دون نقصان، أو زيادة، ثم أعطانى بعض التقارير عن الوحدات، وتوزيعها، وعن العدد المزمع إنشاؤه فى الخطة الخمسية للوزارة. سألنى "ما رأيك فى أن نعمل سويا فى هذا المشروع "الثورى" الموجه لخدمة فقراء الريف دون سواهم؟" لم أتردد. وافقت على الفور. فهل يوجد ما هو أنسب لثورى مثلى من مشروع يوجه إلى الفقراء؟ أليس استمرارا منطقيا للطريق الذى سرت فيه ؟

بعد أسبوعين خصص لى مكتبا فى ركن الحجرة. أجلس على مقعدى صامتا. أتتبع ما يدور أمامى. تعرفت على زملائى فى الحجرة، طبيب وطبيبة يعملان فى المشروع. الدكتور "زكريا عربان"، من قرية فى الدقهلية، أو ربما "دمياط"، أبيض الوجه، مكتنز الأوداج، فى نظرة عينيه شئ يذكرنى بالضفادع. يسمع الكلام، وينفذ التوجيهات من "سكات". يقول عنه "إبراهيم الشربينى" "إنه كادر من الكوادر النادرة". أتحدث معه عن ضرورة المرور على الوحدات لنرى كيف تقدم خدماتها، ولنتعرف على النواقص. يهز رأسه موافقا. نذهب إلى الدكتور الشربينى، ونقترح عليه السفر إلى المحافظات لهذا الغرض فيقول:

"لا مانع. بس مش لما تستوعبوا المشروع، والعمل فى الوزارة" كأننا نستطيع أن نستوعب مشروع الوحدات الصحية دون أن نراها، ولكن كلامه فى تلك الأيام كان يبدو لى منطقيا رغم الإرهاصة الصغيرة من عدم الاقتناع تجولت فى أعماقى.

أعود إلى جلستى خلف المكتب. على سطحه بقع من الحبر، وخطوط متعرجة حفرت فى الخشب بأداة حادة، وأجزاء تآكلت من عليها القشرة الخارجية تاركة مساحة خشنة تنغرس منها شظايا فى الأصابع. أتململ على مقعدى تمزقت فيه بعض خيوط القش أحرص على ألا أضغط عليها فتنهار.

الدكتورة "كوثر إلهامى" طويلة، نحيلة على عنقها مساحات من البهاء. ترتدى نظارة، وتتحدث بصوت شاك. يأتى زوجها فى بعض الأيام ليصحبها ساعة الانصراف. يكاد أن يكون شبيهها تماما. يقول الدكتور "الشربينى" عنها أنها ممتازة لكنه لا يصفها بأنها كادر من الكوادر ربما لأن فى منظوره يصعب على المرأة أن تصبح "كادرا". أما "نوال السعداوى" فتظل غائبة، ألمحها فقط عندما تدخل، أوتخرج بتلك الحركة الخاطفة.

من حين لآخر عندما يخف الزحام يدور بينى وبين الدكتور "الشربينى" كلام. يقول فيه إنه يريد أن يكون "فريقا ثوريا" لمشروع الوحدات، وأن هذا الفريق بدأ تكوينه فعلا بوجودنا معه نحن الثلاثة ، فيبدو منذ البداية أن الدكتورة "نوال السعدواى" ليست جزءا من هذه النواة. يضيف. "بلدنا حلوة، وناسها طيبين، إذا ماكناش حنخدمهم يبقى حنخدم مين؟ القيادات الثورية هى إللى تقدر تبلور المسائل بجدية. هى اللى تقدر ترسم السياسة الواضحة، وتقضى على بقايا الميوعة اللى مازلنا بنعيش فيها حتى يومنا هذا. وضوح الرؤية... وضوح الرؤية مهم يا سيدى".

يهز "زكريا عربان" رأسه الكبيرة. يعض على شفته السفلى بحركة عصبية، ويقطب جبينه كأنه يركز تفكيره ليستوعب الأفكار التى يعرضها الدكتور "الشربينى" علينا، فأهز رأسى أنا أيضا على ما قيل. ولكن مع الوقت أصبحت أستمع دون أن أهز رأسى فلا عمل يوكل إلى لأقوم به. بين الحين والحين يحول إلى ورقة عليها تأشيرة "للدكتور شريف": خطاب للتموين الطبى يستعجل الأدوية التى طلبتها وحدة من الوحدات الريفية، أو طلب من طبيب يريد أن ينقل من "المنوفية" إلى "البحيرة" لان أهله مقيمون فى الإسكندرية فأقوم بالتأشير عليه، وأعيده إليه، ذلك أن المراسلات وفقا للنظام يجب أن تعرض عليه ليقرها قبل إرسالها إلى الجهات المعنية. وهو يختار من كل ما يأتى إليه موضوعا أو اثنين يحولهما على، ثم سرعان ما يستعيدهما خشية أن يفلت شىء من بين يديه.

بعد قليل اتضح لى أن العمل الأساسى لإدارة الوحدات الصحية هو توزيع الأطباء المتخرجين حديثا عليها، وفقا لرغبات الأطباء، والأماكن الشاغرة فيها. كانت عملية التوزيع هذه تهم الوزير لأنها تتعلق بمشروع بادر هو بتنفيذه، ويعتبره ركنا أساسيا من أركان الخطة الخمسية التى يتباهى بها، ولأنها تتعلق أيضا بعدد كبير من الأطباء الذين يسعى كوزير للصحة على نيل رضاهم.

كان همزة الوصل بين الوزير وهؤلاء الأطباء هو الدكتور "إبراهيم الشربينى" الذى حرص على هذه المسؤولية ليدعم بها نفوذه السياسى وعلاقاته النقابية التى وصل بها إلى منصب

السكرتير العام لنقابة الأطباء. ونقابة الأطباء، بسبب خضوعها للتنظيم السياسى كانت أحد السلالم المهمة التى يصعد عليها الطامعون فى أن يصبحوا وزراء الصحة.

أما أنا فظللت جالسا فى الركن خلف مكتبى الصغير منتظرا تلك اللحظة العظيمة التى فيها سأجد نفسى وقد أصبحت أحد دعائم الوزارة، يستشيرنى الوزير فى أهم الشئون الصحية، وربما فيما هو أهم، وأكبر شأنا منها. ألست صاحب خبرة سياسية كبيرة لم تتح لأحد من العاملين معه؟ ثم من سيخلص مثلى للاتجاه الاشتراكى الذى أعلنت الثورة عنه فى يناير سنة ١٩٦١؟ أطل من ركنى المنزوى. كل شىء يبدو لى كأنه ليس واقعاً حقيقياً أمسك به بين يدى لكن فى لحظات أخرى يبدو لى طبيعيا، وأنا الغريب. فلم تكن لدى فى تلك المرحلة ثقة كبيرة فى إحساسى العميق الذى يقول لى أن أشياءً تتحقق، ولكنها تقف فى حالات كثيرة عند القشرة الخارجية، وأن الكلام عنها فيه قدر كبير من المبالغة، والتزييف. أرى التناقضات لكنى لا أتوقف عندها أو أتساءل عنها بجدية، فأنا نفسى منغمس فيها بسبب ما أطمح إليه. أسكت صوت الصدق كان يجب أن أحرص عليه. لم أر ما كان يدور حولى، لم أتأمله مليا، فمثل هذا التأمل كانت فيها خطورة علىّ. كان معناه أن أسبح ضد التيار مرة أخرى بينما البشائر تشير إلى حياة سأحقق فيها أشياءً حرمت منها. لفنى نوع من الضباب صنعه الجهل. ربما كنت فى حاجة إلى أن أسمع أصواتا أخرى تدعم الصوت الخافت يتحدث إلى بأن الحال ليس وردياً.

فى كل يوم يتدفق سيل من الزوار من الباب، كلهم أطباء، وكلهم جاءوا ليلتقوا بـ"إبراهيم الشربينى". يظل واقفا خلف مكتبه منذ اللحظة التى يحضر فيها حتى اللحظة التى يستقل فيها سيارته "الفولكس" الصغيرة متجها إلى بيته. لا فاصل بين زائر، وزائر يليه فلا مناص إذن من أن يظل منتصبا بدلا من الجلوس لحظة والوقوف فى اللحظة التى تليها. يستقبل كل زائر بترحيب كبير، وبطريقة لا تبديل فيها "أهلا، أهلا.. أزيك يا دكتور. أتفضل يا سيدى. كرسى أهه لا. لا. أى خدمة. طبعا لازم نريحك. أمال حتريح الناس ازاى؟" يشد على اليد الممدودة بين يديه. على ملامحه علامات السعادة الكبيرة بهذا اللقاء. ينقضى اليوم من أوله حتى آخره على هذا المنوال دون أن يفعل شيئا يتعلق بمشروع الوحدات الريفية الذى يحمل الصحة والعافية للفلاحين الغلبانين.

أصعد إلى مكتب الوزير. فى المصعد يحيينى الفراش باحترام عميق. يشعرنى بأهميتى الكبيرة. ألست من الذين يستقبلهم الوزير فى الحال لأبقى معهم طويلا؟ أجلس أمام مكتبه العريض، ويتحدث إلىّ. فإذا دخل أحد وكلاء الوزارة يظل واقفا على قدميه. يخاطبه قائلا: "يافندم إذا سمحت معاليكم. بالضبط. نفذنا تأشيرة سعادتك فى الحال. لا.. لا.. دول ناس ما بيفهموش. حاجة تضحك" .

يضحك تأكيدا لما قاله، ويضيف "هى نظرة سعادتك دايما فى محلها".

أزداد شعورا بأهميتى عندما أرى تعامله مع الآخرين. لا أدرك أننى لا أصلح للدور الذى يريده لى. لا أدرك أن الثقة بيننا مفقودة منذ زمن قديم، وأن السلطة تتذكر الصراعات القديمة. أنا سياسى، ولكنى ساذج، جاهل بالواقع الحقيقى.

أمد يدى إليه بالتقرير الذى سهرت عليه ليالى متتالية. يأخذه منى، ويضعه فى جيب المحفظة الجلدية التي يحتفظ بها للتقارير كأنه لا يريد لأحد أن يطلع عليه. يقول. "عندما انتهى منه سنتناقش فيه".

فى هذه الفترة جاءتنى دعوة لزيارة الجزائر من وزير الخارجية "بوتفليقه". كانت "ديدار" تعمل مستشارة مع حكومة "بن بلا" فى معسكرات الشباب التى أنشأتها جبهة تحرير الجزائر بعد تحقيق الاستقلال. وكان "بن بلا" قد تدخل لدى "عبد الناصر" للإفراج عنى فرد عليه بأن المسجونين والمعتقلين سيفرج عنهم عن قريب، ولا داعى لاستصدار عفو خاص طالما أننى سأخرج معهم من السجن بعد قليل.

كتبت إلىَّ تقول أنها رتبت كل شىء. ستنتظرنى فى مدينة الجزائر لنرحل سويا فى أنحاء البلاد. سأقضى معها شهرا هناك أتفقد العمل الذى يقومون به وسط الشباب. بلاد جميلة فيها بحر. وجبال، وغابات، ومزارع عنب، وبرتقال وثورة حققتها الجماهير بعد صراع مرير سميت بعدها الجزائر "ببلد المليون شهيد". فرصة لكى نستأنف ما انقطع بيننا، ولنقرر ما الذى سنفعله فى حياتنا فنحن زوجان ولكن مازالت تفصل بيننا المسافات.

لم أقل للوزير أن زوجتى هناك. ذهبت إليه لأستأذنه وأسأله عن المدة التى أستطيع أن أقضيها فى الرحلة. قال:"كما تريد فهى فرصة للترويح عن نفسك، ولننتهى من الإجراءات الخاصة بتعيينك فى الوزارة." شد على يدى، وتمنى لى رحلة موفقة. كنت سعيدا. سأنطلق إلى بلاد خاضت معركة خالدة فى سبيل الاستقلال. سأرى "ديدار" وأرحل معها لأطل من أعلى الجبال على الشطآن الجميلة.

السيارة "الفولكس" السوداء تزحف كالخنفسة فوق الطريق الجبلى. "ديدار" تقودها وأجلس أنا إلى جوارها. أتأمل المشاهد من خلف الزجاج. الجو بارد، والجبال ينهمر حولها المطر، ويلفها بالظلال. الشمس تظل مختفية خلف السحب طوال النهار. لم أر زرقة البحر، أو السماء، ولا مزارع للعنب، أو البرتقال، ولا غابات أشجارها خضراء. لم أر سوى الصخر، والأسفلت، وسماء ممطرة، لونها كالرماد. لم أسمع صوت المياه تتدفق فى نهر، أو تتحدر فوق الصخر.

أنتقل بين معسكرات الشباب. أجسامهم الملفوفة فى ثياب رثة قديمة تذوب فى الظلال، فى الجو الموحش للصخور السوداء أو المبانى الخشبية والأكشاك، فى الحديد، والأسلاك، وهم

يجلسون على الدكك الخشبية. أمامهم على موائد الطعام أطباق معدنية فيها قليل من البطاطس، أو الخضراوات تشبه الأعشاب، وقطعة من الجبن النستو، والخبز الجاف. لا أعرف ماذا يفعلون فى هذه البقاع. لا أحد شرح لى أو قدمنى إليهم، أو تحدث معى، أو قال لهم من أنا، أو من أين جئت. أنا ضيف والناس جميعهم مشغولون بأشياء هامة، مكبلون بالمسئوليات تشغلهم عنى، وتملأ يومهم من بداية النهار حتى يأوون إلى الفراش فى التاسعة مساء فهم مصممون فى إعداد جيل سيصنع المعجزات. لا أحد منهم يوجه إلى الكلام، أو يسألنى سؤالا. إنهم منهمكون فى تغيير العالم، وإذا عجزت أنا عن إدراك كون التاريخ يصنع أمامى، إذا لم أندمج، وأشارك وأبدى الانفعال المطلوب فالعيب هو عيبى. المسائل واضحة ولا وقت عندهم لفرد مثلى أتى إليهم فى زيارة استكشاف. حياتهم هى هذه الجموع، والجموع هى التى تصنع الغد دون سواها.

"ديدار" تتصرف مثلهم تماما. لا تبذل جهدا لإشراكى فى حياة المعسكرات. تقضى يومها منهمكة ولا أراها إلا ساعة الطعام. لا تبدى ناحيتى أى اهتمام كأنها تخجل من هذا الرجل يصاحبها فى تجوالها من مكان إلى مكان. إنها مناضلة مسئولة، والمعركة صعبة، ومستقبل الثورة هم هؤلاء الشباب. لا وقت للعواطف الشخصية فى هذه الدوامة من الناس يتحركون فى المعسكر دون أن أهتدى إلى النشاط الذى يقومون به. يعقدون اجتماعا وراء اجتماع، والاجتماعات تطول. تمتد ساعات. يتحدثون بكلمات غريبة، دارجة لا هى بالعربية، ولا هى بالفرنسية يصعب علىّ تتبع معناها. لا أحد يدعونى إلى هذه الاجتماعات، كأن كل ما يدور فى المعسكر لا يجوز أن أطلع عليه، فأنا لم أشاركهم الزحف الطويل، ولا التضحيات ولا الجهود. هذا المشروع الضخم يجب أن يصان، ألا أتسلل إليه فمن أين لهم أن يثقوا فى، أو ربما هى الطباع فيها جفاف، فيها محدودية الإحساس، والذكاء.

فى الليل أنام على سرير سفرى إلى جوار "ديدار". لماذا لم أحصل على سرير؟ قالت لى لا توجد أسرة فالشباب ينامون فى العنابر على ألواح خشبية تعلو فوق بعضها، ولكل مسئول سريره الخاص. لم أعترض. تعودت حياة التقشف. أتحمل على نفسى ولا أميل إلى الشكوى فى مثل هذه الظروف. السرير الذى ننام عليه لشخص واحد لا يسمح بأن نتقلب عليه. البرد ينفذ إلينا فالغطاء صغير ينزلق من علينا. نظل متيقظين أغلب ساعات الليل ولكن يكاد لا يدور بيننا كلام. احتضنها ليسرى الدفء فينا، لنخترق الصمت بلغة الأجسام، لنذيب الحواجز فى لحظة من الجنس. تظل راقدة إلى جوارى جامدة، رافضة. فأنقلب على جانبى وأعطى ظهرى إليها.

كانت بالنسبة إلى رحلة غريبة إلى عالم غريب. أنا إنسان بلا قيمة فى مكان لا لزوم لى فيه. لا أحد يريدنى حتى "ديدار" التى رحبت بمجيئى وسعت إليه وبذلت جهدا حتى جاءتنى الدعوة من الوزير بوتفليقة فلماذا؟ سألتنى إن كنت أريد أن أبقى فى الجزائر. أهذا هو ما كانت تريده؟ أن أستقر إلى جوارها، وأشاركها الحياة التى سارت فيها؟

شىء فى داخلى تحرك كالغريزة. جعلنى أرفض الفكرة لأسباب لم أعيها تماما. ربما الطريقة التى استقبلت بها جعلتنى أدرك أنه فى بلد لا رصيد لى فيه، ولا تاريخ سأظل غريبا، قشة فى مهب الريح، دخيلا.

قبل أن تنتهى مدة الشهر كنا جالسين فى الصباح على مائدة الإفطار أنا وهى واثنان من المستشارين أحدهما يوغوسلافى، والآخر صينى قلت فجأة:

"أريد أن أعود إلى العاصمة اليوم".

رأيت الوجوه الثلاث تلتفت إلى .

قالت:

"ألم نتفق على الذهاب إلى معسكر "بليده ".

قلت:

"بليده" ليست بعيدة عن الجزائر. أربع ساعات أو خمس بالسيارة على أكثر تقدير. يمكننا أن نسافر الآن. أن تصطحبينى إلى الجزائر، وتذهبى أنت إلى "بليدا" باكر". .

تدخل اليوغوسلافى.

"لكن كنا سنسافر سويا، وعندنا بعض الأعمال يجب إتمامها قبل الرحيل".

التفت إلى "ديدار".

"القرار لك. السيارة سيارتك. أنا أريد أن أسافر الآن. إذا أردت أن تنتظريه" أشرت إلى الرجل بيدى "يمكننى أن أطلب من مدير المعسكر تدبير وسيلة للعودة. سأشرح له أن هناك ظروفاً ملحة تحتم على السفر إلى الجزائر اليوم".

ساد الصمت. قمت من المنضدة وقلت:

"سأعد حقيبتى. يمكننا أن نتقابل عند السيارة بعد نصف ساعة؟"

كنت أنتظر فى السيارة جالسا خلف عجلة القيادة عندما وصلت إليها "ديدار" ومعها اليوغوسلافى. نظرت إلى متسائلة قلت:

"لدى رغبة فى قيادة السيارة".

لم تعلق. ألقى إليها اليوغوسلافى نظرة سريعة كأنه يستنجد بها. ظلت جامدة الوجه، فالتفت إلى قائلا.

"لكن الطريق صعب وأنت لا تعرفه".

قلت:

"إن كنت لا تريد أن تركب معنا فأنت حر".

صمت. فتحت الباب، وقمت. أزحت المقعد حتى يدخل فى الخلف فدخل.

قطعنا الطريق من المعسكر حتى مدينة الجزائر فى أكثر من عشر ساعات. وصلنا إليها فى الليل. وقفنا مرة واحدة فى منتصف المسافة لنريح أجسامنا، ونحرك أطرافنا تجمدت من البرد. تبادلت "ديدار" بعض الكلمات مع اليوغوسلافى فى بداية الطريق، ولكن صوت السيارة كان عاليا فبعدها ساد الصمت. ظللت مركزا حواسى وانتباهى على الطريق يلف ويدور حول سفح الجبل. فى بعض الأجزاء يظل معلقا على شفى هاوية ينحدر فيها الصخر فجأة إلى واد عميق. لأول مرة منذ أن جئت أفعل ما أريد أن أفعله. أمسك بزمام الأشياء التى تخصنى. أقود السيارة تحملنى حيث أريد. أواجه مخاطر الطريق. أستمتع بمنظر الجبال الشاهقة تتبدل عليها الظلال الرمادية والزرقاء، وبين لحظة وأخرى يضيئها شعاع من الشمس. جسمى مشدود. أشحذ حواسى فى حساب المسافات، وتقدير الزوايا والتحكم فى سرعة الدوران عند المنحنيات. أشعر أننا معلقون فى الفراغ تربطنا خيوط رفيعة بالحياة يمكن أن تنقطع إذا أخطأت الحساب. أقلقهم. أرد على التجاهل الذى عوملت به.

هكذا انشغلت عن أشياء أخرى تحركت فى الأعماق. أعرف أن هذه هى اللحظات الأخيرة لقصة الحب التى عشناها. مرت بانحناءات عنيفة، بلحظات من التأجج والسعادة، وأخرى من الغيرة والألم والحزن. قاومت السجن، والجدران، والزمن، والمسافات وبعد أن أصبحت حرا لا تفصل بيننا هذه الأشياء ارتطمت بما حدث لى، ولها من تغييرات أثناء سنى الفراق، أو ربما حافظت المسافات على الخيال، وأضفت عليها جمالا لم نعد نراه، فالجمال قد يظل جمالا طالما أنه صعب المنال. أهى طبيعة البشر فى كل مكان لا سبيل إلى الهروب منها، أو تغييرها؟

أدخل من باب الوزارة كل يوم فى الساعة الثامنة والنصف صباحا. أجلس خلف مكتبى مقبلا على يوم العمل كالخريج الجديد تتفتح أمامه الحياة. أنا جزء من مشروع كبير سأصنع فيه المعجزات. عدت إلى حلمى القديم عن العمل فى الريف. صورة المستقبل مبهرة. الاشتراكية طريق طويل، ولكننا وضعنا عليها أقدامنا. ماذا يهم ضيق المكتب، أو قبح المكان؟ ماذا يهم لو بدأت فى مستوى متواضع؟ البعض يجلسون فى حجرات ضخمة، ويتمتعون بالامتيازات لكن، الفوارق لم تعد كما كانت. تمت خطوات ستليها خطوات.

أكتم بداية القلق الذى أخذ يستولى على. عيناى تريان، ولا تريان ما كان يجب أن أراه. الوعود سمعتها بأذنى ولا داعى للشك. الخوف الذى يغرسه السجن يكبلنى، يؤثر فى كل ما أفعله. ألم يبتدعوا السجن لهاذ الغرض؟ أخاف من أن تفوتنى الفرصة لتعويض ما ضاع منى. أخاف من السلطة تملك مصيرى بين يديها. الثقة فى النفس تنقصنى. أواجه واقعا جديدا لم

استوعبه، أشياءً لا أعرفها، خبرات ضاعت منى، مياها لم أتعلم كيف أسبح فيها. الأفكار تتزاحم فى ذهنى تثقلنى، تسكتنى. لى قدرات، لكن لا أحد يهتم بها. الجميع منشغلون عنها بأمور تبدو بلا أهمية.

كل هذه الأشياء تعتمل فى نفسى. تروح، وتجىء فى الظل. لا أراها فى نور واضح، أبيض، ولا تختفى فى ظلام حالك أسود. تحيا فى ضوء الغسق، ما بين الاثنين، فى تلك الظلال الرمادية للسجن، التى تحول دون أن أستقر على وضع. أرى الموظفين يدخلون من باب الوزارة الرؤوس تنحنى، والشفاه تهمس، والأصابع تحكم أزرار السترة. أراهم مع الوزير يسيرون فى الركب، أسمع صوت وكيل الوزارة، أو المدير يتردد عاليا مع المستوى الأدنى، وأراه فى حضرة الوزير يخفض صوته إلى الهمس. كيف ينسجم التقدم مع النفاق، والذل؟ أصبحت جزءا مما يدور دون أن أكون منه. أنتظر الإشارة تأتى من أعلى حتى استقر. صوت يتحدث إلى من باطن العقل يقلقنى، يجعلنى أتوتر. يشعرنى أن الشخص الذى يجلس خلف هذا المكتب ليس هو أنا، إننى دخلت فى مكان ليس هو مكانى، إننى مرة أخرى غريب. أقول لنفسى ربما أكون أنا المخطئ وعلى أن أتكيف.

مررت على الإدارات المختلفة ألتقط التقارير، والمعلومات. الدكتور "سعد فؤاد" مدير الخدمات الطبية العلاجية، وأمين مساعد الاتحاد الاشتراكى فى وزارة الصحة، وزميلى فى الدفعة رجل طويل، أسمر يحكى النكتة تلو النكتة، ويضحك. يستقبل كل من يدخل عليه بالأحضان، وبقبلتين على الخد تمصمصان، وتطرقعان بصوت يتدرج حسب قرب الزائر من المستويات العليا. طيب القلب يتحدث إلى فى حماس قائلا "الوقاية يا "دكتور شريف" الوقاية أولا. أقول هذا وأنا مدير الخدمات العلاجية لأنه رأيى وبإخلاص. فالاشتراكية فى الطب تعنى الوقاية ضد المرض قبل العلاج منه. تصور أن نسبة ٩٥٪ من ميزانية الوزارة تصرف على الخدمات العلاجية. لابد أن نتبنى هذه القضية. أنا سعيد بوجودك معنا هنا فى الوزارة. يجب أن نستفيد من خبراتك، وأفكارك. والله وحشتنا. فاكر يوم ما هربت من القصر العينى" يضحك بأعلى صوته ويكركر "يانهار أسود قلبوا الدنيا علينا، وحققوا معانا. تقولش إحنا اللى هربنا مش أنت. تاريخك المجيد ما ننساهوش أبدا".

أسأل، وأستقصى، وأقرأ كل ما يقع تحت يدى من مشاريع الوزارة وأعمالها. مر الشهر الرابع منذ أن جئت، وفى الشهر الخامس أعددت تقريرا يتضمن بعض الاقتراحات الخاصة بإعادة توزيع الأعمال، والإدارات بحيث تتوحد الجهات المشرفة على مجال واحد، منعا للازدواجية، وضمانا لتنسيق الجهود، وقدمت برنامجا زمنيا لتنفيذها. كنت فخورا بهذا التقرير بذلت فيه جهدا. طلبت مقابلة الوزير. هذه المرة لم يستقبلنى كما كانت عادته فى اليوم نفسه. انتظرت أربعة أيام قبل أن استقل المصعد إليه.

وأنا فى المصعد لاحظت أن تحية الفراش فقدت جزءا من حماسها الأول. لماذا أنتبه إلى ما لم أكن انتبه إليه؟ شيء فى الجو يتسلل إلى، يخنقنى. وجه الوزير أيضا فيه تغيير. ملامحه جامدة تطل على من خلف المكتب. تنتقل الانفعالات فى أجهزة السلطة من أعلى إلى أدنى بسرعة البرق. إذا ابتسم الوزير يبتسم الجميع، وإذا كشر فى وجهى لمحت تكشيره على كل الوجوه. راودت نفسى. ربما يهيأ إلى ما ليس صحيحا. إنه التعب، وضغوط المنصب تؤثر عليه. علامات الإرهاق فى الجفون المتورمة تكاد تخفى عينيه، وفى التجاعيد حفرت خطوط عميقة حول أنفه.

ظل يحملق فى لحظة طويلة ثم سألنى:

"كيف أحوالك؟"

قلت:

"على ما يرام، ولكنى بلا عمل. ترى ما الذى تم فى موضوع التعيين؟"

"اكتشفنا أنه غير جائز تعيينك طالما أن لديك سابقة حكم فى قضية جنائية. فاضطررنا إلى اتخاذ الإجراءات لاستصدار عفو جمهورى عنك. وهذا الإجراء استغرق منا بعض الوقت كدنا أن ننتهى منه. بعد ذلك لم يبق سوى الخطوات الخاصة بحساب المدة لإصدار قرار التعيين".

بدت لى الحجج التى ساقها لتفسير سبب التأخير مقنعة فصمتُّ. أخرجت التقرير الذى كان معى من الدوسيه ومددت به يدى. أخذه. قرأ العنوان ثم وضعه فى الدرج.

"شكرا. سأقرأه وأبعث إليك لمناقشتك فيه".

صمت فصمتُّ أنا أيضا. لم أسأله عن التقرير السابق الذى قدمته إليه. رمقنى بنظرة فيها تحفظ. أحيانا يتملكنى الإحساس بأن هناك من يحذره منى. يقولون عنه أنه "ودنى" لكنى لا أعرف ما معنى هذا اللفظ. اكتشفت معناه بالتدريج. فى نظام يفتقد إلى الديموقراطية يصبح الجميع ودنيين على الأخص إذا كانوا أصحاب سلطة.

هبطت على السلم. عند أسفله، التقيت بالدكتور المسئول عن العلاقات العامة صاحب الوصف الذى شاع عنى فى الوزارة خلال هذه السنين بأننى "شيوعى دولى خطير". كان ينطقها بالإنجليزية فالأطباء يحبون إدخال الكلمات الإنجليزية فى الحديث ليثبتوا أنهم يعرفون مالا يعرفه غيرهم.

"إزيك يا دكتور شريف مبسوط فى الوزارة؟"

قلت:

"الحمد لله كويس".

دخلت من باب الحجرة. الدكتور "الشربينى" واقف كعادته يتحدث مع أحد الأطباء، والدكتور "زكريا عربان" منكب على مكتبه يقرأ فى ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة. يعض على شفته السفلى. يؤشر بخطه المنمق على الورقة ثم يميل إلى الوراء وعلى وجهه علامات الرضا عن إنجاز عظيم. الفراش يلملم أقداح القهوة ويضعها فى الصينية بحركة عصبية.

تسللت وسط الزحام، وجلست خلف مكتبى. لا أريد أن ينتبه إلى أحد. بدت لى الحياة بلا طعم، أو معنى.

الطائرة الحربية تحملنا إلى أسوان. ضجيج المحركات يصم أذنى. أميل برأسى ناحية النافذة. أرى النيل يتعرج بين شاطئيه شريطا من المياه ترابى اللون. على جانبيه اخضرار الحقول تضيق مساحاتها كلما اتجهنا إلى الجنوب.

فى المقعد الأمامى يجلس الوزير. اقترح على أن أسافر معه إلى أسوان حيث سيفتتح بعض الوحدات، فتحمست للفكرة. كنت أريد أن أرى السد العالى.

منذ أن بدأت الرحلة لم أتحدث إليه. رآنى واقفا على أرض المطار. مر أمامى والسبحة تتدلى من بين يديه، كأنه لم يرنى. لم يحينى ولم أحيه. حوله المقربون إليه "ماركسيون" سابقون أصبحوا "ناصريين" بعد أن وقفت الثورة على قدميها، أو اشتراكيون اصبحوا اشتراكيين بعد قرارات سنة ١٩٦١ أو موظفون خدموا فى كل العصور. يضبطون خطواتهم ليظلوا قريبين منه، محيطين به. يحسبون المسافة بحيث لا تفتح ثغرة يمكن لغيرهم أن يتسللوا منها. أنا أيضا أريد أن أتقرب منه، ولكن تنقصنى الدربة التى حصلوا عليها، أو هناك فى تكوينى ما يحول دون حصولى عليها. تشدنى قوة جذب خفية لأجد نفسى سائرا عند الأطراف الخارجية. شذوذ فى حركة الجسم، أو التربية، أو التركيبة النفسية. فحركة أجسامهم الطبيعية تجعلهم جزءا لصيقا من الزحام الضاغط عليه. شىء كالصدفة يجعلهم ينتظرون فى الموقع الملائم الذى لا يستطيع الوزير إلا أن يمر عليه، أو على باب كبار الزوار لاستنشاق الهواء فى اللحظة التى سيتوجه فيها لركوب الطائرة الحربية، أو إلى جوار المائدة أو المقعد الذى سيجلس عليه، أو يظهر موضوع طارئ يفرض عليهم التحدث إليه. فإذا أردت أن يستريح إلى وان يهتم بى ربما يجب أن افعل مثلهم، أن أصبح جزءا من الركب يتحرك حوله ككتلة واحدة متماسكة تصعد، وتهبط، وتتجه معه نحو اليسار، أو اليمين. فى يوم من الأيام وهو يمر فى إحدى المستشفيات بدلا من أن يدخل من باب العنبر الذى كان يريد أن يتجه إليه، دخل خطأ من باب دورة المياه الملحقة به فانطلقوا وراءه وبعدها بلحظة انطلقوا خارجين وقد اضطربت صفوفهم. فتذكرت المشاهد الساخرة فى الأفلام الصامتة الأولى "لشارلى شابلين".

لكنى لا أستطيع أن أفعل مثلهم. بينى وبينهم حدود فاصلة. إنهم مجموعة واحدة، تربط بينهم الأسرار، والعلاقات، والمصالح برباط وثيق. بينهم صراعات، وانتقادات، ونميمة ولكنهم متضامنون. أنا الوافد، الغريب، يغلقون فى وجهى الأبواب. أنا موضع ريبة، مدرب على المؤامرات السرية ولى سمعة تزعجهم، "لومنجى" "شيوعى" جاءهم من المنافى الصحراوية، وأنا أيضا منافس لهم، لى ماض ولى شخصية. يلوكون الكلمات عن الاشتراكية وأنا جالس بينهم صامت. قضيت شبابى فى السجون، والمنافى من أجلها. عشتها، وتشبعت بها وعركتها جيدا. أصبحت جزءا من جسمى. دخلت فى عقلى، وقلبى فى السلوك، فى بروتين الخلية. دفعت من أجلها ثمنا غاليا. لكنهم سبقونى إليها. فعندما كنت فى السجون، كانوا هم فى الحرية، شاركوا فيما لم أشارك فيه. احتلوا مواقع، أو تسللوا إليها مع حركة التغيير فى العلاقات الاجتماعية. اكتسبوا خبرات، ومعارف، وعلاقات لم أحصل عليها، فكيف أجىء الآن بعد مرور السنوات لأنافس من يعتبرون أنفسهم أصحاب النظام وبناته، كيف أزاحمهم السلطة، والمكاسب التى حصلوا عليها ظلت مختفية خلف الشعارات الاشتراكية؟

خمسة وثلاثون ألف عامل جاءوا ليعملوا فى موقع السد. أغلبهم من الصعيد. مازال بعضهم موجودين بعد أن رحل اغلبهم. أرى أجسامهم السمر تتسلق الجبل. تنتقل على سطح الحجر الأبيض أو الأصفر اللون. أحد الواقفين يقول. "كسارة الحجر يخرج منها غبار خطير على صحة العاملين. تحدث تكلس فى الرئة "سيليكلوزيس" شبيه بما يحدث فى مناجم الفحم تحت الأرض".

أعرف معنى هذا الداء. تكلس الرئة يحول دون التنفس الطبيعى، دون توصيل الأكسجين للجسم يعنى الموت لا يمهلهم سوى بضع سنوات ينقض بعدها عليهم. هكذا دائما، يبنون ويموتون، الأهرامات، وقناة السويس، والسد العالى وأشياء كثيرة أخرى. يقيمون المبانى والإنشاءات، والصروح مقابل كسرة من الخبز، والمش، والفول، والبصل، والفجل.

هبطت إلى التوربين. لم أر آلة بهذه الضخامة من قبل. أشعر بالرهبة أمامها. قدرة الإنسان تتجلى فى هذا الصرح، ينقلنا من عصر إلى عصر، من الكيروسين، والمازوت، والفحم، إلى طاقة نظيفة بيضاء اللون. أنتقل فى صمت. عيناى تنتقل لاهثة من شىء إلى شىء. أتأخر. أسير ببطء بعيدا عن الزحام، عن المسئولين، يشرحون للوزير، يسألهم ثم يهز رأسه. حوله الوجوه، نفس الوجوه، لا تتركه. تسير معه خطوة بخطوة حتى لا يفلت منها. فمن يدرى، لحظة غفلة بعدها يضيع منهم. صلعاتهم تلمع فى الشمس. أضع يدى فوق رأسى أتحسسه. الشعر قل لكن الصلع لم يأت بعد. الوزير يقول شيئا. يضحكون جميعا. لا يتخلف أحد منهم.

هنا عيون الناس فيها بريق. ليست كعيون الموظفين فى الدواوين. هنا يبنون الحياة الجديدة. لم يعد يهمهم الفراش المريح، ولا أضواء المدينة. ربما وحشتهم الأسر تركوها وراءهم، لكنهم يعيشون على الرسائل، ومنظر البناء يرتفع أمامهم ليتحكم فى النهر.

عندما صعدنا مرة أخرى فوق جسم السد وجدت إلى جوارى رجلا قصير القامة، مدكوك الجسم، يرتدى قميصا مفتوحا، وبنطالا من الجبردين وصندلا من الجلد. عيناه ضيقتان زاد من ضيقهما النظر فى ضوء الشمس. ألمح فيهما بريقا حادا يطل من بين الجفون نصف المغلقة مثل عيون القط. خطواته فيها حيوية رغم الغضون تفرعت فى الوجه. سألته:

"منذ كم سنة وأنت هنا".

"قال:"

"منذ ثلاث سنوات".

أقف أعلى السد العالى وفى عينى الشمس. الريح يعبث بالسترة، ويطيرها. أحكم أزرارها، وأغلقها . المساحات تمتد أمامى بلا حدود مثل الحرية، مثل الحياة التى أنتظرها. هنا النظرات مثبتة على شىء بعيد. لا تنظر تحت قدميها فأمامها البراح تستكشفه. الوجوه فيها صحة. لفحتها الشمس، وصقلها الجهد، فعلا بها ما فعلته الطبيعة فى الصخر، أصبحت تقاطيعها مثله، مثل صيادى البحر، يرتدون القبعات ويضعون الأيدى فوق الحاجب ليحموا العين من الشمس، ويشيرون إلى الجبل شقوه بالديناميت، وآلات الحفر، أزالوا عنه الحطام، وفى الفراغات التى صنعوها صبوا الأسمنت، وحجر الجرانيت والرمل.

آلاف العمال جاءوا ليبنوا السد. لا بالسخرة، وإنما بالأجر، لا بالإجبار والقهر وإنما هذه المرة بقدر من الرضى، وفى لحظات بالفخر. نقلوا عشرات الآلاف من أطنان الحجر، والرمل ليقيموا السد عرضه عند القاعدة مائة متر، وارتفاعه ثمانون مترا وطوله أكثر من ثلاثة آلاف متر، ليحتجز وراءه بحيرة مساحتها خمسمائة كيلو متر مربع. عمل ضخم أشرف عليه مئات من المهندسين، والفنيين والعمال المهرة من مصر، ومعهم عدد من السوفييت.

يقف بعض المهندسين بالقرب منى. لا يملون من الشرح. أليس هذا العمل ملكهم، صرحهم بنوه للغد؟ سيبقى بعد أن يرحلوا هم ليغذى الوادى بالمياه، وينظم الرى، وليولد طاقة كهربائية تصل إلى أبعد قرية، وحى، ويدير المصانع التى نحتاج إليها. يقولون عشرة مليار كيلو وات ساعة فأهز رأسى كأننى أدرك معنى هذه الرقم، وضخامته. أتصوره فى الخيال قادرا على إضاءة مصر، وأكتفى بهذا القدر من الفهم. يشير أحدهم إلى المياه تتدفق شلالا أبيض من إحدى البوابات "هذا هو التوربين الأول". الرذاذ على وجهى ينعشنى. أستنشقه. أملأ صدرى بتدفق جديد للحياة فى الجسم. يضيف "بعده سيتم تركيب التوربين الثانى، والثالث".

"الحياة صعبة هنا. أليس كذلك؟"

"إلى حد ما لكننا تعودنا عليها. والعمل يستوعبنا. أنا لا أتعب إلا فى الصيف. عندى دوزنتاريا تعل على. مسألة بسيطة مقدور عليها".

ساعة تناول الغداء جلسنا على مائدة طويلة خصصت للضيوف. جلس هو فى الطرف البعيد على آخر مقعد، وجلست أنا إلى جواره. سألته.

"ما هو عملك فى المشروع؟".

قال:

"أنا "قناوى" نائب المدير التنفيذى للمشروع".

صباح عودتى من أسوان تأخرت فى ميعاد المجىء إلى الوزارة. كانت الساعة تقترب من العاشرة عندما عبرت الصالة الكبيرة، ودلفت من باب الحجرة المنزوية تحت السلم.

رفع الدكتور "زكريا عربان" رأسه، وابتسم إلى "مبروك. صدر قرار التعيين الخاص بك. طلبوا منى أن أسلمه إليك. توجد ورقة خاصة باستلام العمل يجب أن توقع عليها".

مد يده بملف. فتحته. ورق من أوراق مكتب الوزير كتب عليها كلام بالآلة الكاتبة. قرأت الديباجة دون أن أفهم منها شيئا. القوانين والقرارات مازالت بالنسبة إلى طلاسم، أو شكليات. وصلت إلى القرار. قرأته مرة، واثنتين، وثلاث. لابد أننى أخطأت. لم أفهمه فهو قرار بالتعيين فى أول مربوط الدرجة السادسة. التفتُّ إلى الدكتور "الشربينى". كان منهمكا كعادته فى الحديث مع أحد الزائرين. قلت مقاطعا حديثهما.

"أريدك فى أمر هام".

جلست خلف مكتبى. أشعر أننى فى دوامة، فى حالة من الارتباك الشديد. أنهى كلامه مع الزائر فقمت وجلست إلى جواره. أكتم التوتر والضيق. أحاول ألا يطغيا فى نبرات الصوت. قلت:

"ما هذا القرار بتعيينى فى الدرجة السادسة؟ لأ"حملق فى بعينيه المختفيتين فى قاع النظارة. خطر فى بالى أنه كان يعرف ماذا يرتب لى منذ البداية فقد بدا عليه الارتباك. ضحك ضحكة عصبية وقال:

"وريني.." قرأ كأنه لم يقرأه من قبل. "مالك زعلان كده؟ دا شىء طبيعى. هو أنت عايز تقفز على طول فوق زملائك وأنت لسه جاى الوزارة؟"

كتمت غيظى. كان يجب أن أسأل لماذا لم يوضح لى الأمر منذ البداية. هل أقول نعم أريد أن أقفز فوقك، وفوق غيرك. إننى لست مقتنعا بأن تكون أنت رئيسى؟

قلت:

"الدرجة السادسة يا دكتور "إبراهيم" كمن تخرج بالأمس من كلية الطب؟"

"يا دكتور شريف. هون عليك يا أخى. أنت نسيت ظروفك واللا أيه؟ هل تعتقد أن كل الأمور ممكن تتصلح بين يوم وليلة. أنت راجل مكافح. مش قادر تتحمل ما هو أخف بكثير؟"

يخجلنى. يجعل الرد صعبا على. أنا المكافح أهتم بأمور تافهة. حق يراد به باطل، ولكن كيف أرد عليه.

"هذه خطوة أولى. المهم أنك بقيت فى الوزارة. اهدأ يا أخى. تشرب فنجان قهوة؟ تعالى يسمك أيه هات فنجان قهوة للدكتور". ينظر إلى.

ترددت. هل أرفض القهوة. أنا غارق فى لعبة لا أجيدها، ولا أعرف قوانينها، ولا كان يجب أن تكون مهمة بالنسبة إلى.

"سأقابل الوزير، وأسمع ما الذى سيقوله لى".

"مفيش مانع. قابله. ربما أفادك بما لا أستطيع أنا أن أفيدك به، بس اشرب القهوة قبل ما تطلعله عشان تتكلم معاه وأنت رايق".

شربت القهوة. طلبت السكرتير فى التليفون ليعطينى موعدا مع الوزير، فأمهلنى حتى يستشيره ثم اتصل بى وقال أن الوزير منتظرنى باكر فى الساعة الواحدة ظهرا.

فى اليوم التالى صعدت إلى مكتب السكرتير. انتظرت ما يقرب من ساعة دون أن أدخل إلى الوزير. الضيق يتصاعد فى صدرى. لم أعد أحتمل ما يحدث لى، فقمت. هبطت على السلم، وغادرت الوزارة عائدا إلى منزلى.

فى الصباح دق جرس التليفون. رفعت الدكتورة "كوثر الهامى" السماعة لترد عليه. قالت بصوتها الشاكى انخفضت نبراته إلى شىء قريب من الهمس.

"مكتب السيد الوزير".

كلمات السكرتير تجيئنى كأنها تصعد من كهف.

"أنت رحت فين امبارح يا دكتور شريف. قعدنا ندور عليك لقيناك مشيت. لو سمحت تتفضل عندى. السيد الوزير عايزك".

كان الوزير جالسا خلف مكتبه يقرأ فى بعض الأوراق عندما دخلت عليه. وقفت أمام المكتب أنتظر. بعد قليل رفع رأسه ورمقنى فى صمت. لم أعد أفهم موقفه منى. هذا التأرجح بين الحال، والحال، بين الإقبال الشديد، والانسحاب الفجائى. والآن هذه النظرة الصامتة يطل منها الضيق. ربما لأنى تركت الموعد بالأمس وانصرفت من الوزارة دون أن أقول شيئا.

لم يدعنى للجلوس. ترددت لحظة ثم جلست. قلت:

"وصلنى بالأمس قرار التعيين".

لازال يرمقنى فى صمت فاستطردت.

"وعدتنى بتعويض ما فات عند استصدار قرار التعيين. فكيف أعين فى أدنى الدرجات؟"

مال إلى الخلف. قال فى صوت هادئ، بارد النبرات:

"لا يوجد سبيل قانونى إلا بتعيينك فى أدنى الدرجات، ثم تعديل الوضع. فالقانون لا يسمح بالتعيين فى الدرجات العليا إلا بقرار جمهورى".

"ومتى يمكن أن يتم هذا التعديل".

"لن يستغرق وقتا طويلا. اترك الأمر لى".

صمتُّ. بدا لى الاعتراض على كلامه صعب. وقفت وقلت:

"أشكرك. سأوقع القرار الخاص باستلام العمل".

توجهت ناحية الباب. قبل أن أنصرف منه كان قد عاد إلى الأوراق وانشغل بها.

الفصل السابع عشر

امرأة اسمها "نوال السعداوى"

أصبحنا فى شهر يونيو ١٩٦٤. أجلس فى القطار يحملنى إلى الإسكندرية. مؤتمر وزراء الصحة لدول أفريقيا تستضيفه مصر فى فندق "سان ستيفانو". أنا من بين المدعوين لمشاهدة جلساته مع عدد من العاملين فى وزارة الصحة. أجلس فى العربة المخصصة لنا وللصحفيين الذين سيغطون جلساته لينشروا عنه.

عربة السكة الحديد التى تحملنا من النوع المخصص لركاب الدرجة الثالثة. مقاعدها من الخشب، ونوافذها صغيرة الحجم. المساحة المتاحة لنا نصف عربة وليست عربة بأكملها. ضجيج الأصوات، والضحكات تملؤها، والراكبون فيها لا يكفون عن الحركة، والتنقل المستمر. جو الرحلات التى تنظمها الوزارة للموظفين فى الصيف، نكات، وقفشات، وقهقهات بأعلى صوت، ساندوتشات، وترامس شاى، وزجاجات الكازوزة تفتح عند المحطات، ومذياع يذيع أغنية السد، وسجائر تصعد منها سحب الدخان فى جو العربة، وتملؤه.

أتطلع إلى ما يدور فى صمت. أطل من النافذة أغلب الوقت. إذا حدثنى أحدهم أرد دون أن أسترسل معه فى الحديث ليس من باب العزوف ولكن لأنها طبيعتى. مازال فى أعماقى حزن لا يبارحنى. أشعر أن كل هذه الضجة غريبة على فيها نوع من الافتعال للفرحة، أو المبالغة فيها أو على الأقل أسلوب للترويح عن النفس لا يجذبنى.

فى لحظة التفت. لمحتها تجلس إلى جوار النافذة على بعد قليل منى. ترتدى سترة من الجلد بنية اللون، وحذاء منخفض الكعب. إلى جوارها حقيبة يدها وعلى الرف أعلى رأسها حقيبة سفر صغيرة الحجم.

تطل من زجاج النافذة بنظرة من رحل بعيدا كأنها لا تنظر إلى الحقول، وإنما تتركها لتنزلق أمام عينيها، وهى منشغلة عنها بأشياء أخرى. فى نظرتها تأمل، وحزن. شىء يقربنى منها. هذا التأمل الحزين؟ هذا الابتعاد عن الجمع، امرأة تجلس وحدها وسط حشد من الذكور

صراخهم مستمر؟ جاءتنى رغبة فى الاقتراب منها. إحساس لم آحلله جعلنى أقوم، وآتجه إليها حيث تجلس على مقعد منفرد، بعيدة عنهم. قلت لها دون مقدمات.

"ما تيجى تنتقلى على الكرسى ده نتكلم مع بعض".

لم تتلكأ، ولم تتمنع، أو تنظر إلى من طرف عينها. قامت، وانتقلت كأن انتقالها حركة طبيعية تقوم بها، فحدثنى حسى أنها كما رأيتها. استرحت إلى البساطة التى تعاملت بها معى.

لا أتذكر ما الذى قلته لها أثناء الحديث الطويل الذى دار بيننا لكنى أعرف أنه دار حول حياتى الماضية، حول فترات السجن. كانت منصتة. من حين لآخر تعلق بشىء أو تسأل عن نقطة لم تتضح لها. ظل انهماكنا كاملا، ولم نفترق عن بعضنا طوال المدة التى انقضت فى القطار، رغم محاولات بذلها أحد الصحفيين لإقحام نفسه على حديثنا.

وصلنا محطة "سيدى جابر" دون أن أدرى كيف. ودعتنى فجأة وسط الزحام، واختفت. لم أقل لها أريد أن أقابلك، ولم تقل لى سنلتقى فيما بعد. لا أعرف لماذا افترقنا هكذا. ألم يكن من الطبيعى بعد هذا الحديث الطويل أن نتفق على لقاء آخر، أو على الأقل أن نقول شيئا يناسب الوضع؟ ربما لما أفقنا مما كنا فيه عادت الحياة العادية بكل محظوراتها لتؤثر فيها، أو كان هو الارتباك الذى ساد ساعة وصولنا للمحطة التى افترقنا فيها فقد ذهبت إلى مكان آخر غير فندق "سان ستيفانو" الذى توجهنا إليه.

جاء الصيف. الأيام تمر، والوزارة تغط فى السكون الذى يهبط على الناس فى الجو الحار. الزوار كادوا أن ينقطعوا، أو صاروا يأتون فرادى على فترات ويتحدثون فى صوت خفيض نبراته هامسة كأنهم استنفذوا قواهم من طول المشوار الذى قطعوه، ليصلوا إلينا. حتى الخطابات القليلة التى كانت تحول إلى لم أعد أراها، فالدكتور "الشربينى" ذهب إلى "جمصة" للاصطياف، وربما طلب تحويلها إليه هناك. أحضر متأخرا قرب الساعة العاشرة. يعطينى الدكتور زكريا صحف اليوم، والمجلات، ونتناول أقداح القهوة، والشاى، ونتناقش فى خبر أو مقال.

فى ذلك الصباح أعطانى مجلة روز اليوسف قائلا: "خد اتسلى". جلست على مكتبى وأخذت أقلب فى الصفحات. فى منتصف المجلة قصة العدد. الصورة بريشة "مأمون" أصبحت أعرف خطوطه الغليظة السوداء توحى بعالم شديد الكآبة، ملىء بالظلال. انتقلت عيناى من الصورة إلى العنوان "نادية لم أستطع" بقلم: "نوال السعداوى"

"نوال السعداوى"؟ أتكتب قصصاً، وتنشرها فى المجلات؟ جرت عيونى على السطور، وأخذت أقرأ فى اهتمام. القصة عن امرأة شابة تستقبل عشيقها فى حجرة النوم. تخلع ملابسها، وترقد فى السرير عارية تماما، لكن بدلا من أن تضمه فى عناق الحب كما يفعل

العشاق يدور بينهما حوار عن العلاقة القائمة بينهما. تقول أن أهم شئ فى الحب بالنسبة إليها ليس هو الجنس، أنها تريد منه آن يحب فيها قدرات العقل، ورقة الإحساس، أنها لا تستطيع أن تقترن برجل لا يرى فيها سوى الجسد يرتوى منه. فهل يستطيع أن يرى فيها هذه الأشياء؟

ينصت إليها وهى تحدثه. تبدو عليه الحيرة. يدرك أن ما تطلبه منه ليس سهلا فهو رجل يجد صعوبة فى أن يرى فى الأنثى أكثر من جسمها يضمه بين أحضانه. صمته ونظراته، وملامحه تقول أن ما تطلبه منه صعب المنال. لا يستطيع أن يدفع الثمن النفسى، والمعنوى الذى تتطلبه علاقة على هذا المستوى، فينصرف عنها، مغلقا الباب وراءه ويتركها وحدها راقدة حيث هى فى السرير حزينة على حبيبها الذى انصرف عنها، سعيدة إزاء إحساسها بقيمتها كإنسان.

انتهيت من قراءة المجلة، وأعدتها إلى الدكتور "زكريا عربان". بعد قليل قمت من جلستى لأطلب رقما فى التليفون وفى تلك اللحظة دخلت "نوال السعداوى" إلى الغرفة، واتجهت نحو مكتبها لتلتقط السترة التى تركتها معلقة على ظهر المقعد تمهيدا للانصراف. فبادرها الدكتور "زكريا" قائلا:

"أنا قريت القصة اللى أنت نشراها فى مجلة روزا يا دكتورة "نوال".

أضافت الدكتورة "كوثر إلهامى".

"وأنا كمان قريتها".

فالتفتت إليهما وفى عينيها بريق مثل أم أنجبت طفلا جميلا وتنتظر ما سيقولانه عنه.

قال "زكريا عربان".

"هى القصة كويسة يادكتورة. بس" تردد لحظة، وبلع ريقه ثم أضاف بشىء من التوتر. "أنا شايفها جنسية شوية".

سألت "نوال السعداوى" كأنها استعدت للنزال.

"جنسية إزاى؟"

تدخلت "كوثر الهامى".

"مش "نادية" دى يا دكتورة نايمة فى السرير عريانة، يعنى مستعدة لاستقبال حبيبها إلى جاييلها لحد أودة نومها؟"

اقتربت من حلقة النقاش وقلت.

"أنا الحقيقة ما حسيتش أن دى قصة جنسية، بالعكس. دى واحدة رافضة علاقتها براجل لأنه بيبوصلها على أنها جسم بس، ومش مهتم لا بعقلها، ولا أحاسيسها. يبقى فين الجنس؟"

قال "زكريا عربان".

"الله. أزاى بس. إذا كانت قالعة عريانة ملط، ومستنياه حايعملوا، ايه سوا؟"

قلت:

"صحيح قالعه، ونايمه فى السرير، ومعاه فى أوضة النوم، وكل شىء فى الوصف يوحى بأنهم مقدمين على الجنس. ولكن بدل ما تحتضنه فى لحظة مفروض أنها مثيرة جنسيا سايبت كل ده، وقاعدة تناقش معاه العلاقة اللى بينه وبينها لأنه مش شايف فيها إلا أنها جسم للجنس. لو كانت لابسه هدومها وبتناقشه ما كانتش القصة تبقى بنفس القوة الفنية. العرى هنا مش غرضه الإثارة وإنما يبدى شحنة فنية للحظة، ويبين التناقض بين راجل لابس هدومه لكن بيفكر فى الجنس وحده، وامرأة قالعه هدومها، وما بتفكرش فى الجنس خالص".

لمحت "نوال السعداوى" وهى تنظر إلى وقد أشرقت فى وجهها السعادة.

مرت الأسابيع دون أن أراها لكن فى نهاية الأسبوع تصادف أن كنا جميعا فى الحجرة عندما مر علينا مسئول العلاقات العامة ليخبرنا أن مباراة لكرة القدم ستقام بين فريق وزارة الصحة، وفريق وزارة الزراعة يوم السبت الساعة الثالثة بعد الظهر فاتفقنا أن نذهب جميعا لمشاهدتها.

جاء يوم السبت، وقرب الساعة الثانية والنصف ونحن نتأهب للتوجه إلى العباسية حيث كان سيقام "الماتش" التفت إلى "نوال" وسألتها.

"أتريدين حقا أن تذهبى إلى مباراة الكرة؟"

قالت:

"لا... لا أشعر بحماس كبير للذهاب إليها.

"وأنا كمان أخشى أن تكون مملة وألا نجد هناك أناسا نستطيع أن نتسلى معهم".

"ما الذى ستفعله إذن؟"

"ما رأيك أن نذهب سويا إلى مكان آخر؟"

"إلى أين؟"

فكرت قليلا ثم قلت:

"معى السيارة. يمكننا أن نصعد إلى جبل المقطم لنرى المدينة من أعلى".

قدت السيارة صاعدا إلى جبل المقطم. جلسنا فى "الكازينو" بحيث نرى المدينة وقد أزاح الريح غبارها فتلألأت تحت الشمس. طلبنا كوبين من الليمون، وتحدثنا طويلا إلى أن غربت ثم هبطنا عائدين حتى "ميدان التحرير".

منذ هذه الجلسة فى الكازينو بدأنا نلتقى على فترات متقاربة. أحيانا أقوم بتوصيلها إلى منزلها فى شارع "مراد". وفى أحد الأيام سمعت أنها مرضت، ورقدت فى البيت، فزرتها زيارة سريعة. أتذكر أن الشهر كان أغسطس فقد حملت إليها كيسا من ثمار المانجو. جلست إلى جوار سريرها وتحدثنا إلى أن جاء زوار آخرون فانصرفت. بعد ذلك دعتنا نحن الثلاث فلتناول الشاى فى منزلها. تداولنا فى القيام ببعض النشاط فى الوزارة لا أذكر طبيعته، لكنى أتذكر اهتمامها بنا، وإقبالها علينا. بدت مسرورة بهذا اللقاء. تتصرف بتلقائية ودفء، فأحسست بنفسى منجذبا إليها. وبعد ذلك أصبحنا نقضى ساعات طويلة سويا. أصعد إلى شقتها، وأقضى معها الأمسية. عرفتنى على ابنتها "منى"، فتاة فى السابعة مرتفعة القوام تفحصنى بعينيها العسليتين وهى جالسة على الكنبة فى حجرة المكتب بينما انشغلت "نوال" فى داخل الشقة بشىء تريد أن تنجزه.

نشرب الشاى، وتقدم إلى وجبة من الخبز، والجبن،، والطماطم، واللفت. أو سلطانية زبادى تضع فيها مكعبات السكر لأنها لا ترى أن هناك داعيا لوجود نوعين من السكر فى البيت، أو لأن عندها ما يشغلها عن مثل هذه التفاصيل فتهملها. يتدفق الكلام، فأحكى لها عن أيام كلية الطب، أو عن السجن، أو تتركنى أقرأ فى الكتب المصفوفة على رفوفها، بينما تنشغل هى بالكتابة، جالسة أمام أوراقها، والمصباح يسكب ضوءه على شعرها يلف حول وجهها كالهالة.

أحسست أننى أقترب منها. إنسانة قوية فيها إشراق غريب يصعد من داخلها، وفيها حزن المرأة الفنانة فى مواجهة عالم لا يكف عن ممارسة التفرقة، والقهر. أجد معها الاطمئنان والراحة. المسائل بالنسبة إليها واضحة. لا تعرف الالتواء الذى يمارسه النساء والرجال فى علاقتهم. أصبحت الساعات التى أقضيها معها كالملاذ، أركن إليه.

هكذا نما حبى لها دون عواصف أو هزات، كالنهر الهادئ يتدفق ليصب فى البحر الواسع لحياتنا. كتبت لها رسالة طويلة لأعبر فيها عن مشاعرى وامتنانى لموقفها. تعرفت عليها فى فترة صعبة. وهبتنى عواطف صادقة، وساعدتنى بتلقائية نابعة من أعماقها. قلت لها إننى لن أنسى ما فعلته، لن أنساها مهما حدث لى فى الأيام القادمة. ما يهمنى هو أن تبقى العلاقة الجميلة التى نشأت بيننا مصدر سعادة فى حياتنا.

لم يفتح بيننا موضوع الزواج. كانت هى عازفة عنه بعد تجربتين سابقتين. وكانت حريصة على حماية ابنتها "منى" من أى هزات. فأين الرجل الذى يستطيع أن يتعامل بحساسية مع طفلة مثلها فى كل تفاصيل الحياة؟

أما أنا فكنت خارجا من صدمة عاطفية بعد الخروج من السجن. كنت أحلم باستئناف الحياة مع المرأة التى أحببتها، أن أرتوى بحنانها فوجدتها معرضة عنى أو على الأقل متباعدة لا تشاركنى الأحلام التى ملأت بها زنزانتى لمدة سنوات. لم أكن أعرف ماذا سيكون مصيرى فى الأيام المقبلة فكيف أفكر فى الزواج، وأطلب من امرأة مثل "نوال السعداوى" لها حياتها أن تجازف بها؟

مع الأيام أصبحنا نقضى أغلب أيامنا سويا. إذا ما جاء وقت الفراق أشعر أننى أريد أن أبقى إلى جوارها. ينتابنى الضيق والحزن عندما أودعها لأقود سيارتى الفيات فى الشوارع عائدا إلى شقتنا فى الزمالك.

فى أواخر شهر أكتوبر قضينا يوما على شاطئ العجمى فى الإسكندرية، وعدنا فى قطار الليل إلى القاهرة. أقول لنفسى إلى متى نظل هكذا نلتقى لنفترق؟ لو عشنا سويا ألن تكون حياتنا أجمل؟ أنظر إلى وجهها فى نصف الظلام، وهى نائمة. أضع ذراعى حولها لتسند رأسها على كتفى. أتتبع رموشها الطويلة ترتعش ثم يسكن سوادها فوق خدها لوحتها الشمس والريح وملح البحر.

قررت أن أتحدث معها فى موضوع الزواج. لا أعرف إن كانت ستوافق أم لا لكن لا داعى للتردد. إن رفضت ستبقى علاقتنا كما هى، مصدرا للسعادة والعاطفة الباقية. فالزواج لا علاقة له بالعاطفة الصادقة إلا نادرا. الزواج مؤسسة فرضتها ضرورات الحياة، وقوانينها تظل قائمة بعد أن يموت الحب، ثم ما الذى يدفع امرأة مثلها إلى الاقتران برجل لا يملك شيئا من تلك الأشياء التى تغرى النساء بالزواج، لا منصب، ولا ملك، ولا مال، ولا حتى مكان يأويان إليه بعد الزواج. رجل قضى حياته فى السجون. لكن شيئا فى أعماقى كان يقول لى أنها ستوافق، فهى تبادلنى الحب، وهى ليست من ذلك النوع العادى من النساء اللاتى ألتقى بهن أحيانا. لن يهمها سوى هذا القرب نشأ بيننا، وهذه العاطفة تأججت، سوى الطريقة التى أفكر بها فى الحياة، وإيمانى بمكانة المرأة فيها، وقدرتى على التعامل معها على قدم المساواة.، وإلا لما فتحت لى قلبها. إنها محاطة بعشرات الرجال فى كل المجالات التى تتحرك فيها، محاطة بأطباء وصحفيين، وفنانين، وكُتَّاب فلماذا قادها عقلها وقلبها إلىَّ؟

فاتحتها فى تلك الليلة. توقفنا بالسيارة على الشاطئ قرب كوبرى الجامعة، وفى يوم ١٠ ديسمبر ذهبنا سويا إلى المأذون فى حى "عابدين" وتزوجنا. لم نتبادل أى شىء سوى الدبل. شهد على زواجنا اثنان، أخ أكبر "لنوال" اسمه "طلعت السعداوى"، وصديقى "أحمد الرفاعى".

انتقلت من بيت الأسرة فى الزمالك إلى شقة نوال فى شارع "مراد". لم أحمل معى سوى حقيبة فيها بعض الملابس. استقبلتنى بين أحضانها دون أن يفكر أحدنا فى شىء سوى أنه أخيرا أصبح يجمعنا نفس البيت.

وجدته منتظرا عندما دخلت إلى مكتبى فى الصباح. احتضننى بين ذراعيه وضحك بمرحه المعتاد، ثم قال:

"ازيك يا دكتور"شريف". وحشتنا يا أخى. مالك مختفى كده. سايبنى ومش سائل فى. أنت زعلان منى واللا إيه؟"

"أبدا يا دكتور "سعد" حازعل منك ليه؟"

"أمال مابتظهرش ليه؟ أقعد، أقعد، عايزين نتكلم شويه. بس اطلب لنا فنجان قهوة الأول عشان أعرف أتكلم... أيوه على الريحة. شوف بقى يا سيدى بصراحة كده الاتحاد الاشتراكى فى الوزارة عايز شوية تنشيط، لأمش شوية، عايز كثير. الناس نايمة فى الخط. بيقولوا مرحلة حاسمة، لكن الحسم مش موجود". يسحب من سيجارته. "الناس عايزة توعية، وأنا طبعا فكرت فيك. إيه رأيك تعمل لنا برنامج تثقيف، وتوعية؟ أنا على أن اللى تقول عليه أنفذه يا دكتور شريف".

"عايزنى أعمله لوحدى يا دكتور سعد."

"زى ما تشوف. عايز حد تانى معاك ليه؟"

"مش أفهم الوضع فى الاتحاد الاشتراكى هنا شكله ايه؟"

"طب بتقترح إيه؟"

"نعمل لجنة صغيرة تناقش البرنامج وتنفيذه. أنت وأنا وواحد أو اثنين تختارهم".

"وهو كذلك. اعتبر اللجنة موجودة .

"بس فيه حاجة. أنا مش عضو فى الاتحاد الاشتراكى".

"وده كلام تقوله برضه؟لأ أحنا عايزينك معانا. الله يا دكتور شريف جرى إيه؟ أنت مش أى واحد لازم نستفيد من وجودك. ثم أحنا كلنا مواطنون، والاتحاد الاشتراكى ده بتاعنا أحنا بنعمل لمصلحة الوطن مش لإسرائيل. ومصلحة الوطن فوق كل الأشخاص. مالكش دعوة سيبها لى دى. هه إيه رأيك"؟

"موافق."

"طب حاتجيب البرنامج أمته؟"

"يوم بعد ما تجتمع اللجنة".

"يبقى اتفقنا. تقدر تفوت على بكرة الصبح فى المكتب. تعال بدرى قبل الزحمة. ودلوقتى حسيبك. عندى لجنة الساعة تسعة، والساعة بقت تسعة ونص".

هرول خارجا من الباب. رأيت قامته الطويلة من الخلف. يزحف مثل النعامة المسرعة واضعا كل ثقل قدميه الكبيرتين على الأرض. أستمع إلى صوته الرفيع النبرات فى الحوش، "أهلا عزيزى. أهلا. أهلا"، يتلوه صوت القبلات ثم الكلام. سيثرثر نصف ساعة أخرى فى الطريق رغم اللجنة التى تنتظره فى مكتبه هناك.

تشكلت اللجنة، واجتمعنا بعد يومين. منذ البداية كنت العنصر المحرك فيها. طاقتى ظلت مختزنة وانطلقت من العقال. عدت أسبح فى مياه سبحت فيها سنوات. قدمت برنامجا للمحاضرات وافقت عليه اللجنة مع بعض التعديلات. ذهبت مع أمين التنظيم لنبحث عن مكان يصلح لعقد الاجتماعات. وجدنا صالة تسع خمسين أو ستين شخصا تستخدم لعرض الأفلام وظلت مغلقة سنوات. اتفقت معه على تقسيم موظفى الديوان إلى مجموعات حسب الإدارات، وعلى عقد الاجتماعات يوميا من الساعة الواحدة والنصف لتنتهى ساعة انصراف العاملين من الوزارة.

أصبحت الصالة تمتلئ كل يوم بستين أو سبعين موظفا يشكلون إحدى المجموعات. يأتون فى الميعاد هابطين من مكاتبهم إلى المبنى الصغير المنزوى قرب السور الخلفى للوزارة. فى البداية ظلوا صامتين، يستمعون إلى المحاضرات دون أن يعلقوا أو يسألوا، رغم أن البرنامج كان يشمل عددا من الموضوعات الجديرة بالنقاش. ما حققته الثورة، وما عجزت عن تحقيقه حتى الآن. العيوب، والثغرات فى عمل الاتحاد الاشتراكى، وما هو العلاج، واجباتنا فى العمل الصحى، دور العمل السياسى فى تحسين أداء الوزارة. يتتبعون هذا النشاط الفجائى الذى يثير قضايا لم يتعودوا إثارتها من قبل بقدر كبير من الحرص. هذه الصراحة فى الكلام أهى نوع من الفخ؟ ولكن مع الأيام زاد الحماس، وبدأت المناقشات تقتحم ما كان مسكوتا عنه بجرأة متزايدة. وفى إحدى الجلسات طرح موضوع المثل السيئ الذى يقدمه بعض القادة ولكن دون أن تُذكر أسماء. ووقفت "نوال" لتقول إن أول من يجب أن يعطى المثل هم القادة، وكبار المسئولين إذا كنا نتحدث عن التطور الاشتراكى لا من باب الكلام، ولكن بهدف التطبيق. أشارت إلى البذخ، والغرف الضخمة، والنجف، والامتيازات التى يصر عليها الكثيرون. مثل هذا الكلام فى المبنى المتهالك، القديم، اهتزت له الجدران فأخذ الناس يتدفقون خلال الباب الصغير كل يوم. فى البداية كان يغيب بعضهم ولكن بعد قليل ازدحمت الصالة بالجالسين، وبصفوف من الواقفين فى الاجتماعات وحل محل الصمت دفء المناقشات ، ولم يعد يتخلف أحد. حتى كبار الموظفين، والمديرين، ووكلاء الوزارة يجيئون. يجلسون فى الصفوف الأمامية، يضعون الساق فوق الساق، ويسمعون دون أن يعلقوا بشىء. ربما جاءوا ليشهدوا هذه الظاهرة الجديدة، تثير فيهم قلقا، وتهز الاستقرار كالحجرة ألقيت فى بركة آسنة أثارت أمواجا وبددت السكون.

أصبح لأعضاء لجنة العشرة مكانة فى الوزارة. هاهم يقومون بعمل يتحدث عنه الجميع سواء بالرضى أو النقد، أو التشكيك. أرى الابتسامات على الوجوه والحماس من حولنا. ربما

كان بعضهم غير راض، ولكنهم أخفوا هذا الشعور فطالما أن هذا النشاط يتم لابد أنه حاصل على موافقة المسئولين. هكذا تعودوا فى كل ما قاموا به أثناء السنين. أنا سعيد بالجهد، والنتائج التى أدى إليها. فى أعماقى شىء من التوجس ولكنه بسيط، وأنا حريص، لست مثل "نوال" ما فى قلبها يصعد إلى لسانها على الفور. أحيانا أعلق بهدف التنبيه إلى نقطة أراها مهمة، أو للخروج من الاستغراق فى تفاصيل ليست لها مغزى كبير، لكن أغلب الوقت أظل جالسا على مقعد بعيد، وأستمع إلى ما يقولونه. أمتص هذا الواقع يعبر عن أفكار وحياة الموظفين الذى لا أعرف عنها الكثير. أتابع ما يدور أمامى دون أن أفكر فيما سيجىء.

فى أحد الأيام فوجئت بالصفوف الأولى يملأها كبار المسئولين فى الوزارة ففرحت. ظننت أنها دليل التشجيع يأتينا منهم. انتهى الاجتماع دون أن يحدث جديد. كنا فى نهاية الأسبوع فودعنا بعضنا . جاء يوم السبت. هبطت من مكتبى إلى الصالة الصغيرة قرب الساعة الواحدة والنصف. وجدتها على غير المعتاد خالية تماما من الناس. المقاعد فيها صفوف منتصبة فى صمت. عند الباب وقف رجل أبيض البشرة بارد النظرات، كأن على عينيه طبقة عازلة تخفى ما تحتها. سألته؟

"ألم يبدأ الاجتماع بعد؟"

حملق فى لحظة كأنه يفحصنى.

"صدر الأمر بتأجيل الاجتماع".

قلت:

"من أنت"؟

"أنا مسئول عن الأمن؟"

"ومن أصدر الأمر"؟

"لا أعرف".

توجهت إلى إدارة الوحدات الصحية الريفية لعل أحدًا هناك يعرف شيئا عن الموضوع. الغرفة خالية. فى الطريق إلى مكتبى قابلت الدكتور "زكريا عربان". استقبلنى بوجه واجم. سألته:

"هل سمعت أن اجتماع اليوم تأجل"؟

هز كتفيه، وألقى إلى بنظرة قلقة، ثم قال:

"سمعت".

"ما تعرفش ليه؟"

"لا... بس بيقولوا الوزير جمع بتوع الاتحاد الاشتراكى يوم الخميس وقالهم مفيش اجتماعات بعد كده لحد ما تصدر أوامر أخرى".

اقتربت الدكتورة "كوثر إلهامى". كانت تقف قريبا منا وتستمع إلى حوارنا. قالت:

"يا دكتور شريف. احنا مالنا ومال الاتحاد الاشتراكى. إحنا نخدم بعملنا. دكاتره مسئولين عن صحة الناس. مفيش فايدة من الكلام ده."

تسربت بالتدريج تفاصيل الاجتماع الذى عقده الوزير مع أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى فى حجرته. ظلت اللمبة الحمراء مضاءة على بابه ورفض سكرتيره طوال الاجتماع أن يحول مكالمات تليفونية إليه. جلس الوزير على رأس المائدة فالسلطة هى التى تأمر تحالف قوى الشعب العاملة، وجلس ممثلو التحالف حولها يستمعون إليه.

قال لهم إن حملة التوعية مفيدة بلا شك، وهنأهم على جهدهم، لكنه سمع أن هناك أشياء تقال فى الاجتماعات ضارة بوحدة الصف، وفيها إثارة للسخط ضد الثورة، ومنها مثلا أن تذويب الفوراق بين الطبقات بدأ لكنه لا يتقدم بالقدر المطلوب فمازال الكثيرون من القادة والمسئولين يمارسون حياتهم وأعمالهم بطريقة تتعارض مع هذه الفكرة، ويتمسكون بامتيازات ومكاسب ليست فى محلها، وأن جماهير الشعب يجب أن تشارك فى تسيير الأمور بقدر أوفر، وأن تفتح لها فرص التعبير عن رأيها. أوضح أن "الريس" نفسه قال هذا الكلام، ولكن يجب التنبه إلى من يردده بهدف تقويض الثورة، لا تدعيمها، فهناك عناصر تندس فى الاتحاد الاشتراكى بهدف هدمه. قال "يجب أن تكونوا واعين بذلك. ألا تسمحوا بأن يلعبوا هذه اللعبة. ألا تتركوا لهم الفرصة لكى يأخذوا الكورة منكم."

حصلت "نوال" على منحة من اتحاد الجامعيات فى أمريكا للحصول على الماجستير فى الصحة العامة من إحدى جامعاتها. ترددت فى السفر. فكرت فى ابنتها "منى"، كيف تتركها وراءها. أضيف إلى هذا مشكل آخر، فبعد ثلاثة شهور من زواجنا أصبحت حاملا، ومعنى هذا أنها إذا وافقت ستواجه وحدها موقفا صعبا، ستواجه أعباء السفر، والإقامة فى بلد غريب، وأعباء الدارسة، والحمل، والولادة ورعاية مولودها دون أن يكون إلى جوارها أحد.

تناقشنا. قلت لها إننى أرى أن فى ضياع هذه الفرصة خسارة خصوصا وأن المنحة لا يمكن تجديدها، أو حتى تأجيلها. إنه فيما يخصنى شخصيا فأنا سأجد صعوبة فى فراقها ولكن زواجنا ليس من النوع التقليدى الذى يفترض بقاءنا بالقرب من بعضنا دائما، إن حياتنا المشتركة سيبنيها فتح الفرص أمام كل منا، فتقدم أى طرف هو تقدم للطرف الآخر. أما عن ابنتها "منى" فهى ابنتى، أشعر بالمسئولية إزاءها، وسأرعاها، فلا داعى لكى تقلق عليها إذا ما سافرت.

الأسبوع الأول من شهر أغسطس. جاء ميعاد السفر. قدت السيارة بقلب ثقيل. إلى جوارى تجلس "نوال"، وعلى المقعد الخلفى استقرت "منى" وإلى جوارها حقيبة كبيرة منتفخة بالكتب والأوراق. وقفنا أنا و"منى" فى شرفة الزوار. نشعر بنفس الفقدان. نفترق عن أعز إنسان. نراها تلوح إلينا. شعرها الأبيض الفضى علامة مميزة تجعلنى ألمحها وسط الزحام. مشيتها السريعة، وملابسها تقول أن الإنسان البسيط بسيط فى كل الأشياء، وهذا الشعر الأبيض تحمله كالتحدى المرفوع للزمن، والظلام.

بدأت الرسائل تجيئنى منها، وبعد شهر تقريبا وصلتنى رسالة تخبرنى فيها أن اتحاد الجامعيات الأمريكى بعث إليها بخطاب يبلغها فيه أنه قرر سحب المنحة الدراسية التى أعطيت لها لأنها وصلت إلى الولايات المتحدة وهى حامل، فهى لن تستطيع أن تجمع بين الحمل، والولادة، ورعاية طفلها وبين أعباء الدراسة. ثم أضافت فيها أنها إزاء هذا الموقف لم تعد لديها أية رغبة فى البقاء. كرهت بلدا يتعامل فيه تنظيم نسائى بهذه العجرفة، والقسوة إزاءها بدلا من أن يقدر إقدامها على الدراسة. فقدت حماسها وتفضل العودة إلى مصر دون انتظار.

كتبت إليها خطابا قلت فيه إن رأيى هو عدم الرضوخ لمثل هذه المعاملة الظالمة. فالعقد الخاص بالمنحة لم تكن فيه أية شروط تتعلق بالحمل أو مسائل من هذا القبيل. ربما تستطيع أن تستشير محاميا ليدلها على وسيلة لاسترداد حقوقها. بعد أسبوعين كتبت إلىَّ لتقول أنها لجأت إلى محام فبعث بإنذار إلى اتحاد الجامعيات الأمريكى يُهدد المسئولات عنه برفع دعوة ضد الاتحاد إن لم تعد المنحة إليها فورا ودون أدنى تأخير. وبعد هذا الإنذار بأيام أرسل الاتحاد خطابا إلى المحامى، يتضمن اعتذاراً عما حدث.

اتضح لنا فيما بعد أن السبب الحقيقى للموقف المتعجرف الذى بدر من الاتحاد هو العنصرية التى تسيطر على المجتمع الأمريكى بشكل عام، والتى جعلت الاتحاد يظن أن "نوال" جاءت إلى الولايات المتحدة وهى حامل بهدف حصول طفلها على الجنسية الأمريكية، فالقانون الأمريكى ينص على أن الطفل الذى يولد فى الأراضى الأمريكية يحصل على هذه الجنسية فور ولادته. وهى حقيقة لم نكن نعلمها. لذلك لما جاء الوقت لكى تعود "نوال" إلى مصر أصرت السلطات الأمريكية ألا تدعها تغادر البلاد ومعها الطفل الذى ولدته إلا إذا استخرجت له جواز سفر أمريكى. وهكذا عرفنا سبب المشكلة التى أثاروها فى البداية.

مرت الأسابيع والشهور. ننتظر رسائل نوال ونقرأ المقالات التى تنشرها فى مجلة "رزو اليوسف" عن حياتها، والتجارب التى تخوضها. وفى يوم ١٠ ديسمبر، أى بعد سنة من زواجنا بالضبط، ولدت "نوال" طفلها فى المستشفى "البريسبيتيريان" القريبة من الحجرة التى كانت تستأجرها. جاءها الألم فى منتصف الليل، فهبطت منها إلى الشارع، وسارت على قدميها وحدها فى الظلام مسافة كيلو متر حتى المستشفى، وقرب الفجر ولدته. نظرت إلى وجهه

لتتعرف عليه حتى لا تخطئه عندما يعيدونه إليها. نامت حتى جاءوا به لترضعه، وفى اليوم التالى عادت به إلى غرفتها القريبة من نهر "الهادسون" فى الجزء الشمالى من "نيويورك" حيث جامعة "كولومبيا" التى التحقت بها.

فى أواخر شهر يونيو ١٩٦٦وقفت أنا و"منى" فى المطار مرة أخرى ننتظر هبوط الطائرة التى كانت تحملها من "نيويورك". رأيتها تتقدم نحونا حاملة طفلها على ذراعها. وجهه الأسمر يطل من غطاء الرأس الأزرق الفاتح المربوط تحت ذقنه. لكن "نوال" اختطفت انتباهى . فقدت جزءا من وزنها. بدا قوامها نحيلا فى الملابس العملية التى ارتدتها. تبدو مشرقة، ممتلئة نشاطا، وصحة.

عادت تحمل الماجستير الذى حصلت عليه، وطفلا ورث عينيها، فيهما نفس البريق، ونفس النظرة ، تتأمل، وتتساءل. اسمه "عاطف" اتفقنا عليه يوم أن جاءنا صوتها يقفز بحيوية فوق أسلاك التليفون لتقول لنا أنها ولدته.

هكذا أصبحنا أربعة. أضيف إلى بيتنا هذا الطفل نشهده وهو ينمو هادئا، دون ضجة. فتحت له "منى" أخته ذراعيها، كأنها كانت تنتظره بفارغ الصبر لتحيطه بالحنان والحب .

وضعنا شهادة الماجستير فى برواز وعلقناها على الجدار. اشترينا سريرا صغيرا للطفل بدا لى صورة مصغرة من "نوال". بعد قليل انتقلت شهادة الماجستير إلى الصندرة بين حجرة نومنا، والحمام ونسيناها مع الملابس القديمة وسخان المياه وكتب الطب. انشغلنا بإنسان جديد عمره ستة شهور، بطفل هادئ اسمه "عاطف" ينظر إلىّ فى اندهاش. كانت علاقتى به إلى أن رأيته فى المطار مكالمة تليفونية جاءتنى فى منتصف الليل من "نوال". أتانى صوتها فوق المسافات كأنه من كوكب آخر فأسمعه بالكاد، تقول: "أصبح عندنا ابن، فماذا تقترح أن نسميه؟

مرت الأيام واستقررنا فى شقة الجيزة. أصبحت أدس أصبعى فى يده الصغيرة فيتشبث به ثم يرفس بساقيه فى حركات سريعة قوية وينظر إلىّ كأنه يشهدنى على قدراته. أطعمه بالملعقة من برطمانات التغذية أحضرتها "نوال" من أمريكا تحتوى على اللحم أو الكبدة المفرومة، أو خضراوات أو مستحضرات الألبان أو السمك، أو البيض، ليتغذى بالبروتينات منذ أول شهوره فينمو جسمه وتقوى أعضاؤه. أغير له اللفف الملوثة ببوله أو برازه فألمحه وهو يفحصنى بنظرة فيها تساؤل. أجلس إلى جواره والاعبه بسلسلة المفاتيح فيقبض عليها بيده، ويرفعها بسرعة إلى شفتيه، فإن منعته يقاوم إلى أن أشغل انتباهه بشىء آخر.

حياتى مع "نوال" جعلتنى أمارس أشياء يتركها الرجال للنساء. كانت كاتبة وطبيبة تعمل خارج البيت مثلى، وتتحمل معى المسئولية عن حياة الأسرة. لم تكن تؤمن بتقسيم للعمل مبنى على الجنس، وأنا كذلك، ولم يكن من الممكن أن تتحمل هى أعباء العمل فى البيت وحدها، أن تبذل جهدا مضاعفا بينما أعود أنا من الخارج لأرتاح. هذا السلوك لم يكن واردا فى حياتنا

منذ البداية، لكن عندما أصبح علىّ أن أمسك المكنسة لأنظف البيت، أن أقف فى المطبخ وأقوم بتقشير الخضراوات، وتنظيفها ثم وضعها فى الإناء مع الصلصة والبهارات لأطهيها، أن أضع الملابس فى الغسالة وأنشرها على حبل الغسيل، أن أخيط الرتق فى جواربى، أو أثبت الزرار الذى سقط من ياقة القميص، أن أقوم بعشرات الأشياء التى تقوم بها المرأة فى البيت، والتى ننظر إليها على أنها وظائفها الطبيعية خلقت من أجلها، أصبحت المساواة بين المرأة والرجل التى أدعى اقتناعى بها تحتاج إلى نمط للحياة لم أتعود عليه، إلى تغيير عاداتى والى جهود أبذلها فى أمور لا أحب أن أضيع وقتى فيها. فى الطفولة والشباب ظلت أمى ترعانى وتقوم على خدمتى إلى أن تخرجت طبيبا وانتقلت إلى سكن الأطباء فى مستشفى فؤاد الأول. طوال هذه السنين كنت أستيقظ فى الصباح لأجد الخف فى المكان الذى تهبط فيه قدمى أسفل السرير لا ينحرف عن مكانه سنتيمترا واحدا إلى اليسار أو إلى اليمين. القمصان مكوية والأزرار مثبتة بخيوط متينة. طعامى جاهز فى أى وقت أريده. لذلك لم يكن علىّ أن أفكر فى مثل هذه الأشياء أو أعيرها اهتماما.

أما مع "نوال" فللحياة منطق جديد. خارج البيت يتحمل كل منا مسئولياته، نتعاون سويا مع الآخرين، أو نتصارع معهم حسب الموقف، بيننا تضامن قوى، لا أرضى لها الظلم، ولا ترضاه لى، الأفكار الأساسية والقيم التى نؤمن بها متقاربة هى اشتراكية بالنشأة والسليقة عاشت فى أسرة مكافحة من أب وأم وتسعة من البنات والبنين، وأنا تأثرت بالفكر الاشتراكى ولم أهجره رغم ما عانيته فى سبيله، ويجمع بيننا الفن وحب الثقافة ومحاولة فهم ما يدور فى المجتمع والعالم.

لكن فى شئون البيت جئت إليها بعادات تتنافى مع ما كنت أدعى الاقتناع به عن المساواة بين المرأة والرجل. كنت أتوقع أن تقوم بالعبء الأساسى وكانت رافضة لهذه الفكرة بإصرار وبحساسية مفرطة بدت لى شاذة، فطلباتى تبدو لى معقولة ومتواضعة: أن أرتدى قميصا أزراره فى موضعها لم تسقط منه، أن أعود إلى البيت فأجد وجبة بسيطة جاهزة، أن يكون البيت نظيفا، وفيه ترتيب، أن أشارك فى كل هذا شريطة أن تطبق المقاييس التى نشأت عليها منذ أن كنت صبيا، فلماذا أقابل بالرفض العنيد كلما أشرت إلى شىء من هذا القبيل؟

لم أكن أدرك أنه عندما أطلب منها شيئا يتعلق بشئون البيت مهما كان صغيرا فإن هذا الطلب يرمز إلى وضعها كامرأة يفرض عليها أن تتقبل القيام به، فيعيد إلى ذهنها كل الظلم الذى ظلت تقاومه منذ الصغر لأنها ولدت بنتا. لم أدرك أنه مهما بدا الطلب تافها فإنها لا تنظر إليه فى ذاته وإنما فى علاقاته بكل الوضع الذى عانت منه.

عانينا لمدة طويلة من هذا الصراع. كان علىّ أن أدفع ثمن ما أدعيت أننى مؤمن به، أن أشارك فى كل أعمال البيت، أن تبنى العلاقة بيننا على تقسيم مختلف للعمل بحيث يستطيع كل

منا أن يحل محل الآخر فى أى شىء، أن يكون كل منا أب وأم يقتسم كل أعباء الحياة دون تمييز.

فى هذا التقسيم بدا لى فى البداية أننى الخاسر فهو يجبرنى على القيام بتلك الأعمال اليومية السخيفة التى تستنزف الجهد حتى وإن كانت تجلب معها فى بعض الأحيان شعورا بالراحة لأنها تعتمد على حركة اليدين والجسم أكثر من اعتمادها على إشغال الذهن. لكنى كنت حريصا على علاقتى "بنوال"، مدركا لقيمتها ولثراء الحياة المشتركة معها.

كان على كل منا أن يغير فى نفسه أشياء. لكن فيما يتعلق بالعلاقة المتساوية بين المرأة والرجل كانت هى القادرة على دفعى نحو أسلوب جديد فى الحياة وكان لدىّ الاستعداد لذلك فاخترت أن أتغير فى هذا المجال. لم يكن هذا التغير سهلا. العلاقة بين الرجل والمرأة فى مجتمعنا مليئة بالتعقيدات، فهى ليست مسألة عقلانية فحسب، إنها ترتبط بممارسات وعادات، وردود أفعال مغروسة منذ الصغر، لكن العاطفة التى ربطت بيننا، ورغبة كل منا فى الحفاظ عليها جعلتنا نتجاوز ما قامت بيننا من صراعات .

أحيانا عندما كان يشتد الخلاف بيننا كنت أفكر فى ترك البيت لفترة . أهبط بحقيبة من أعلى الدولاب ثم بعد قليل أهدأ وتبدو لى الفكرة سخيفة فأعيد الحقيبة إلى مكانها. بالتدريج، وبصعوبة أخذت أتعود على نمط آخر من الحياة غير النمط الذى تعودت عليه. عشت حياة السجن وقضيت شهورا وسنوات فى الزنازن القذرة تزحف فيها الحشرات وتنقض علىّ، سكنت فى الأكواخ أو فى حجرات على أسطح فى قلب الأحياء الشعبية أثناء النشاط السياسى السرى، لكن ظلت بعض عاداتى فى الحياة متأصلة لا أتخلف عنها. يوما بعد يوم، وشهرا بعد شهر، وسنة بعد سنة، حدث التغيير. أصبحت أتحمل أعباءً فى البيت، أعمالاً يأنفها الرجال، ويحتقرونها، ويعتقدون أنها تنتقص من رجولتهم فمجالهم هو العمل خارج البيت والكسب، والفكر واتخاذ القرارات. المرأة ليست مثلهم، ولدت لتقوم بوظائف أخرى تنبع من طبيعتها، من جنسها، والعمل خارج البيت طارئ عليها، وإن كنا نقبل عمل الفقيرات منهن مثل الفلاحات والكناسات وحاملات القصعة تحملن الأسمنت إلى الأدوار العليا على رءوسهن أثناء البناء.

عندما أصبحت أشارك فى أعمال البيت ووجهت بأن زملائى وأصدقائى ينظرون إلىّ كأننى أصبحت خاضعا للمرأة التى تزوجتها. فى البداية كنت أشعر إزاءهم بشىء من الخجل. إذا دق الجرس وأنا فى المطبخ أسرع إلى حجرة أخرى، لأعدل من هندامى قبل أن أتوجه إلى الباب لفتحه خوفا من أن يدرك أحدهم أننى كنت أقوم ببعض أعمال البيت، لكن مع الوقت وثقت أن هذا الأسلوب فى الحياة هو الأرقى، يخلق علاقة جديدة بينى وبين "نوال"، يجعلنى ألمس الوضع الذى تعيشه المرأة، ويفتح فى ذهنى آفاقا تتعلق بالأسس التى يجب أن نقيم عليها حياتنا. كذلك تطورت علاقاتى بأطفالنا. اقتربت منهما ونشأت بينى وبينهما تلك العاطفة التى لا تنشأ إلا

نادرا بين الأطفال والأب فى الأسرة، فالأب عادة هو رمز السلطة، متباعد، لا يمارس تلك الأشياء اليومية التى تدخله فى صميم حياة الأسرة وتقربه من أفرادها، وتولد الدفء والتفاهم بينه وبينهم.

أصبحت أشعر أن علاقة المساواة التى نعيشها خلقت منا أسرة مختلفة عن الأسر التى أراها من حولى، أسرة لكل فرد فيها رأى، وكرامة. نتشاور فى كل الأمور، ولا نتخذ قرارات إلا بالرجوع إلى كل أفرادها، فمنذ البداية، منذ أن كان أولادنا أطفالا صغارا عودناهم على ذلك، على المسئولية والاستقلال، وعلى الحوار المفتوح بلا أسرار.

بعد أن مرت السنون إذا دق جرس الباب وأنا فى المطبخ أعد الطعام أصبحت أفتح الباب والفوطة على كتفى بدلا من إخفائها. إن كان الطارق أحد أصدقائى أدعوه أحيانا للجلوس على مقعد لنتحدث أثناء قيامى بغسل الأوانى أو إعادة ترتيب بعض الأشياء ثم ننتقل داخل البيت.

كانت الشقة فى شارع "مراد" مكونة من ثلاث غرف وصالة، غرفة ننام فيها أنا و"نوال"، وغرفة للأطفال والغرفة الثالثة نقرأ ونكتب فيها، ونستقبل فيها الأصدقاء، أما الصالة فحولناها إلى غرفة للطعام.

هكذا لم يكن لى أو لـ"نوال" مكان مستقل يستطيع أحدنا أن يأوى إليه بمفرده إن أراد. استعنت بنجار كان زميلى فى السجن، طويل القامة يشبه شجرة النخيل فصنع لنا مكتبة تصعد حتى السقف وتمتد قرب الجدار مسافة خمسة أمتار أو تزيد، ثم أسقط من المكتبة ضلفة عريضة من الخشب السميك يمكن تثبيتها بمفصلين لأجلس أنا على ناحية منها وتجلس "نوال" فى مواجهتى على الناحية الأخرى. عندما تنتهى من الكتابة نتركها كما هى، أو نرفعها لتنغلق على صفين من الرفوف والأدراج الصغيرة نضع فيها أدوات الكتابة والورق، والمشابك والدبابيس والحبر.

فى الأمسيات بعد أن نعود من العمل يستقر كل منا فى مكانه على جانب من المكتب المشترك. أفتح كتابا لأقرأ فيه أو أدون بعض الملاحظات أو أكتب تقريرا على الورق المسطر الذى تعودت عليه، أما "نوال" فسرعان ما تنهمك فى الكتابة على صفحات من الورق الأبيض فهى لا تحب الكتابة على الورق المسطر، تشعر أن السطور كالقيد تحول دون انطلاق قلمها. عندما أرفع رأسى ألمح شعرها الأبيض يلمع فى ضوء المصباح.

فى إحدى الليالى مرت فى ذهنى فكرة بينما كنت أقص عليها لقاءً تم بينى وبين طبيب كان زميلى فى الكلية. عشت أحداثا وتجارب كثيرة لم تتح لغيرى من الناس فلماذا لا أحكيها لها حتى تستعين بها كمادة لرواية من رواياتها؟ عرضت عليها الفكرة فاستقبلتها بحماس ومنذ تلك اللحظة فى المساء بعد العودة نجلس أنا وهى لمدة ساعتين أو ثلاث على جانبى المكتب، أنا أحكى وهى تكتب.

مرت ثلاثة شهور على هذا المنوال. ملأت صفحات وصفحات بخطها المتموج، يختلف كثيرا عن خطى المربع الكبير ثم جاء اليوم الذى قالت فيه "الآن عندى مادة تكفينى فلنتوقف عند هذا الحد" فتوقفنا. عدت أنا إلى القراءة وانكبت هى على أوراقها. فى الحجرة لا نسمع سوى حفيف القلم فوق ورق الجرائد الأسمر ترتاح إليه. الأيام تمر، فألمح إلى جوارها صفحات فوق صفحات من الورق ملأتها. يتملكنى الفضول لكنى لا أسألها كأن علاقتها بالقلم مسألة تخصها، وليس من حقى أن أتدخل فيها. لكن فى إحدى الليالى لمحتها ترتب أوراقها وتضعها فى ملف ثم مالت إلى الأمام وقالت بمزيج من الفرحة والتحفظ.

"أنا خلصت الرواية تحب تقرأها."

مددت يدى وأخذتها منها. أول رواية كتبتها بعد أن تزوجنا، وأول رواية أقرأها لها، فلم يسبق أن قرأت لها سوى قصة أو أكثر نشرتها فى مجلة فوقعت عليها عيناى بالصدفة. كنت مشغولا بأشياء أخرى، فمازال عالمنا المشترك هو معارك الوزارة، والاتحاد الاشتراكى، نتفق حولها أحيانا وأحيانا نختلف. لا تفهم ما الذى يجذبنى إلى هذا العالم السياسى الملىء بالصراعات والمناورة رغم أنها أخذت تنغمس فيه بقدر. عالم الفن ما زلت أطل عليه من باب المتعة. إن ذهبنا للسينما أو المسرح أو قرأنا قصة أعجبتنى نتبادل الرأى فى جوانب مما شاهدنا أو قرأنا، لكن مناقشاتنا، اتفاقاتنا وخلافاتنا الأساسية تتعلق بالتطورات السياسية العامة أو ما يجرى منها فى مجالنا.

قرأت الرواية باهتمام فقد كتبتها بعد أن أصبحنا نعيش تحت سقف واحد. توقعت أن أجد فيها ما قصصته عليها من أحداث للحياة مرت علىّ. كان اسم الرواية "الغائب"، والغائب هو "فريد"، الذى أحبته "فؤادة" ولكنه يختفى بعد لقائها به فى البداية ولا تكتشف أنه قبض عليه، وأودع السجن إلا فى نهاية الرواية. فيما عدا مسألة غياب "فريد" فى السجن فلم أجد فى الرواية أية صلة بين ما كتبته "نوال" وبين ما قصصته عليها.

أعجبتنى الرواية ولكن فى الوقت نفسه، أصبت بخيبة أمل بعد كل الجهد الذى بذلته، وبعد الأحداث المثيرة التى كنت أحكى لها عنها ليلة بعد ليلة لمدة قاربت على ثلاثة أشهر. عبرت لها عن إعجابى بالرواية، وسألتها لماذا لم تستفد بالأشياء التى تحدثنا عنها، واكتفت بأن تضع "فريد" فى السجن منذ البداية كأنها تتخلص منه لتنصرف باهتمامها إلى حياة البطلة "فؤادة"، وتصنع من "فريد" مجرد رمز للأشياء الغائبة فى حياتها، فقالت:

"أنا أكتب عما يعبر عنى، عما عشته، وعرفته فى حياتى. لا أستطيع أن أكتب ما لم أعشه، وأتمثله فى جسمى ووجدانى. القصة التى حكيتها لى قصتك، لا يستطيع أن يكتبها سواك."

"أكتبها أنا، مستحيل؟ أنا لا أجيد الكتابة."

"هل جربت؟"

"لا لم أجرب."

"إذن كيف يمكن أن تعرف إن كانت لديك القدرة أم لا؟"

" هذا هو إحساسى وأنا متأكد أن إحساسى فى محله."

" لكنى أحس غير ما تحسه أنت. فعندما حكيت لى عن حياتك قلت لنفسى إنه يحكى بطريقة فيها فن. إنه فنان".

لم آخذ هذه المناقشة مأخذ الجد. ولم أفكر فيما قالته. تمر الأيام وبين الحين والآخر تسألنى:

"مش حتكتب القصة؟ صدقنى أنت تقدر تكتبها. الكتابة دى مهياش سحر."

شهر انقضى ثم شهر دون أن أفعل شيئا. لكنها تلح. وتحت الإلحاح فى إحدى الليالى جلست وملأت ثلاث صفحات ثم قرأت ما كتبت. أحسست بالضيق. أمسكت بالأوراق الثلاثة ومزقتها كأننى انتهيت من هذه المسألة، ولا رجعة فيها. لكن بعد عدة أسابيع عدت إلى المحاولة من جديد، وعادت هى تسألنى. تكررت المحاولات وفى كل مرة تنتهى المحاولة بالأوراق أمزقها. لكنها لم تتركنى. ظلت تحدثنى بكلمات بسيطة عن أشياء فى اكتشفتها، بينما أنا غافل عنها.

الساعة تجاوزت منتصف الليل. شهر أغسطس ونسيم الصيف يهب علينا، يتسلل من النافذة المفتوحة عن آخرها. لا أسمع صوتا. "منى" نامت والتليفزيون أطفئت شاشته. قلمى يزحف فوق الورق. لا أشعر بالوجود. لا أشعر بشىء سوى بالقلم يخط الحروف. أنا كتلة هلامية تفرز فى الحبر دون أن تعى ما تفرزه. أشعر بنشوة لم أشعر بها من قبل. القصة تخرج منى وحدها دون جهد، كلمة وراء كلمة وسطرا وراء سطر كأنها تكونت داخلى وانتظرت هذه اللحظة لتخرج منى.

كل ليلة أجلس لأكتب جزءًا منها. إلى جوارى ملف أضع فيه الأوراق التى أكتبها. شهر بعد شهر إلى أن مرت سنة ونصف. يوم أن انتهيت كتبت على الملف "العين ذات الجفن المعدنى" رواية، ووقعت "شريف حتاتة". القلم فى يدى فيه رجفة لم أعهدها، شحنة تصعد إلى جسمى. تأملت العنوان الذى كتبته فأعجبنى. تأملت التوقيع أسفله. تملكتنى سعادة رفعتنى كأجنحة الطائر ترفعه ليرى العالم كله.

سنة ونصف السنة عشتها بإحساس غريب وكأن الرواية كتبت نفسها دون تدخل منى. ناس، وصور، وأفكار، عالم يولد مستقلا عنى بإدارة من عنده لها قوانينها. أحيا فيه. أعمل ما يطلبه منى، فهو ذاتى لا انفصل عنها.

أصبحت بدلا من شخص واحد شخصين. الأول يفعل ما كان يفعله من قبل، يذهب إلى "شركة ممفيس"، يتحدث مع الموظفين، يؤشر على الأوراق، يرد على التليفون، يحضر الاجتماعات ويناقش ما يعرض عليه حتى الثالثة بعد الظهر ثم ينصرف بسرعة ليلحق بالأوتوبيس الذى سيحمله فى العودة حتى ميدان "التحرير" فبين ميعاد الأوتوبيس الذى سيحمله فى العودة والميعاد الذى يليه نصف ساعة، وأى تأخير معناه انتظار للأوتوبيس الثانى الذى سيحمله من ميدان "التحرير" إلى "الجيزة". كل هذه الأشياء تتكفل بها ساقاه، ويده الممسكة بالمقبض يتشبث به بقوة ومن حوله زحام الناس فيكاد لا يوجد موطئ لقدم. وللأوتوبيس حركات لا يمكن التنبؤ بها، ينحرف أو يميل، أو يتوقف فجأة لكنه لا يشعر بكل هذا، فالشخص الثانى هو الأهم، هو الحقيقى وإن كان يحيا فى الظل، فى الخيال، والصور، والأفكار تتوالى، وتتشابك ثم تنفصل لتتشابك من جديد. بينما الوقت يمر، محطة بعد محطة، وشارع بعد شارع إلى أن يصل إلى البيت قرب الساعة الخامسة ليتناول وجبة سريعة ثم ينام حتى الثامنة ثم يستيقظ من النوم مع قدح من القهوة وفى الساعة التاسعة مساء يكون جالسا على المكتب وأمامه الورق. عندئذ يصبح الشخصان شخصا واحدا، أصبح أنا أنا. أنكب على الكتابة لمدة ثلاث أو أربع ساعات ثم آوى إلى الفراش لكن إذا ظل القلم يجرى على الورق دون أن أشعر بالتعب أستمر إلى ساعة متأخرة من الليل، وأحيانا حتى الصباح. آخذ دشا ساخنا، وأتناول إفطارى لأكون مستعدا للذهاب إلى الشركة فى الميعاد، وفى لحظة الهبوط إلى الشارع يعود الإحساس بأننى أصبحت شخصين من جديد.

مضت الأيام والشهور وأنا لا أدرى ما يدور. أتأرجح بين الإحساس بمتعة غريبة، وبين الخوف على مشروع ساحر بدأته وأخشى أن يعطله شىء. أفكر فى الموت. أخشى أن ينقض على قبل أن انتهى منه. تحاصرنى الهواجس. لابد أن أسرع فأنا لا أعرف ما يمكن أن يحدث لى. هكذا يحدثنى صوت داخلى، يهمس إلى فى الليل فأتناول بدلا من قدح واحد من القهوة قدحين، وأذهب إلى العمل بجفون فيها حمل ثقيل لأختطف لحظات من النوم مسندا رأسى على ملف للتقارير.

"نوال" هى التى جعلتنى أكتشف فى نفسى قدرة ظلت مدفونة فيها. الحب عندها كان عطاءً، كان حلما. أن ترانى أنمو، أن ترانى أمارس الفن الذى رأته بإحساسها الدفين. لم تكن تسعى لاستخدامى، لم تكن تحكمها الاعتبارات العملية، والأشياء التى تجعلها تصعد وحدها. كانت تدرك أن النجاح هو أيضا أن تساعد أقرب الناس إليها على اكتشاف الإبداع الكامن فيهم. ففى كل منا قدرة إبداعية قد نكتشفها بجهودنا، وقد نحتاج إلى إنسان آخر لينبهنا إليها.

الفصل الثامن عشر

حرب الأيام الستة

حجرة الوزير معتمة، كئيبة. على زجاج النوافذ طلاء أزرق وأشرطة من الورق البنى ألصقت عليه فيبدو وكأنه انكسر ثم رمم بهذه الطريقة البدائية.

نجلس فيها حول منضدة الاجتماعات يضىء جزءًا منها مصباح وضع فوقها. أرى وجه الوزير محاطا بالظلال لكنى لا أرى عينيه. جفونه المنتفخة تخفيها عنى. بين الحين والآخر يبرق فيها المصباح بلمعة معدنية. تبدو ملامحه معجونة فى بعضها بلا فواصل، ربما من القلق، والتعب. أما الوجوه الأخرى الملتفة حول المائدة فهى غارقة فى الظلال، وتكاد لا ترى.

قاربت الساعة على الثانية صباحا. لا يوجد فى الوزارة سوانا. إبراهيم الشربينى، و"سعد فؤاد" و"طلعت حمودة" و"زكريا عربان"، و"نوال" وأنا. معنا أيضا "عبد الوهاب شكرى" وكيل وزارة الصحة، ونقيب الأطباء.

إلى جواره وضع الوزير صندوقا أسود صغير الحجم. ضغط على المفتاح فجاءنا صوت المذيع: "الطائرات الإسرائيلية المغيرة لم تصل إلى أهدافها. أسقطنا أربعين طائرة للعدو، وولت البقية بالفرار" ثم تجيئنا أصداء الموسيقى العسكرية.

شىء فى الجو لا يوحى بالانتصار. ربما وجه الوزير القلق، أغلق بابه وقبع فى هذا الضوء الأزرق يضفى على كل شىء لون الفناء. عيناه تضيقان عندما ينظر إلينا كأنه لم يعد يثق فينا، تدوران بنظرة متوترة فاحصة حول المائدة، تتحركان وحدهما وسط الملامح بحثا عن شخص تجدان الاطمئنان عنده.

جلس الدكتور "عبد الوهاب شكرى" على يمين الوزير قرب رأس المائدة. قصير القامة تبرز شفتاه الغليظتان تحت الشارب المهندم. على يسار الوزير احتل "إبراهيم الشربينى" مقعدا متقهقرا كأنه يبحث عن متسع لنفسه. مد الوزير يده وضغط على مفتاح المذياع فساد صمت مفاجئ ظل معلقا فى الفراغ وكأنه نذير شىء سيقع. التفت إلينا قائلا:

"أنا معكم. الاعتماد على أجهزة الوزارة وحدها ليس كافيا. يجب إقامة نظام للطوارئ الطبية فى منطقة القنال بسرعة. عليكم أن تسافروا فورا إلى "بور سعيد"، و"الإسماعيلية"، و"السويس."

قال الدكتور "عبد الوهاب شكرى" بلهجة رسمية:

" فى رأيى أن أجهزة الوزارة قادرة على القيام بمسئوليتها."

لم يلتفت إليه أحد. أنتظر ما الذى سيقوله الدكتور "إبراهيم الشربينى" الساعد الأيمن للوزير فى كل ما يتعلق بالنشاط العام بين الأطباء. مال إلى الأمام وقال:

"السيد الوزير وافق على اقتراحنا. إذن يجب أن ننتقل إلى خطوات التنفيذ. اقترح أن يذهب الدكتور "زكريا" إلى "بور سعيد"، والدكتورة "نوال" إلى "الإسماعيلية"، والدكتور "سعد" إلى "السويس."

ظللت صامتا. الاقتراح الذى تقدمنا به يعنى أن نتواجد فى منطقة الخطر. فلماذا يقترح إيفاد جميع الموجودين بما فيهم "نوال"، ويُسقطنى أنا؟ إنه بذلك يوحى إليهم أننى لست موضع ثقة، أننى لست من الذين يجب إرسالهم إلى منطقة القتال فى مواجهة العدو الزاحف، أننى لست مضمونا فى هذه الأزمة. لم يعترض أحد. ربما تشاور مع الوزير قبل أن نجتمع. ماضىَّ السياسى يُلاحقنى حتى فى لحظة الخطر على البلد، حتى عندما أتقدم كمتطوع للذهاب حيث تدور المعركة. أحسست بالغضب. لمحت عينا "نوال" تنظران إلى من فوق المنضدة. قلت:

"وأنا. لم تذكر اسمى يا دكتور "إبراهيم." أنسيته؟"

قال:

" لا ... إزاى بأقترح أنك تفضل هنا معى فى "القاهرة" ننسق العمل."

قلت:

" مش محتاجة اثنين ينسقوا العمل. وأنت عندك خبرة طويلة فى تنسيق العمل."

تململ فى جلسته، وصمت.

تدخل الوزير بسرعة قائلا:

"مفيش مانع تروح "بورسعيد". لكن قبل ما تسافروا حاتصل بالمحافظين عشان يقدمولكو أى مساعدة تكونوا عايزينها. ده حيسهل عليكم العمل."

انصرفنا فى سكون، وبقى معه الدكتور "إبراهيم الشربينى". هبطنا الدرجات العريضة، ونحن نتحسس طريقنا فى الظلام.

الحوش الواسع مهجور. تسللت السيارة من الباب تومض كشافيها بزرقتهما المريضة. تفحصان السور، والأشجار، والطريق الممتد أمامنا. أصابع "نوال" تبحث عن ذراعى. أشعر بأطرافها مثل قطع من الثلج. هكذا دائما أصابعها إما ساخنة فيها جمرات دفينة مشتعلة، أو باردة كالثلج. لا مكان للوسط عندها. اختلاف آخر بيننا يملأ حياتنا بحيوية نادرة. أشعر بها قريبة منى. غدا سنفترق هى إلى "الإسماعيلية"، وأنا إلى "بورسعيد".

السيارة تسرع فوق الطريق. الرياح الساخنة تزأر فى أذنى والشريط الأسفلتى الأسود يتلوى من شدة القيظ الواقع عليه. السائق صامت، جامد كالتمثال لا يتحرك إلا ليمسح العرق من على جبينه. عيناه على الطريق، وعنقه منتصب لا يميل إلى اليسار، أو اليمين. تعود أن تحمل سيارته أصحاب السلطة وأصبحت أنا منهم طالما أننى جالس إلى جواره بأمر الوزير.

عندما هبطت على سلالم الوزارة فتح لى الباب الخلفى للسيارة وقال:

" تفضل يا فندم."

قلت:

" متشكر. سأركب فى المقعد الأمامى."

جلست. أغلق الباب ودار حول السيارة ليأخذ مكانه. سرنا فى اتجاه الأزهر. سألته:

" ما اسمك؟"

" فؤاد يا فندم."

قلت:

" اسمى الدكتور شريف."

لمحت شبح ابتسامة تحت الشارب الكث. سألته.

" من أين؟"

"من الكنال."

نصيح حتى تعلو أصواتنا فوق زئير الريح. بعد قليل أغلقت جفونى. رحت فيما يشبه السبات، نصف نائم نصف يقظ. مرت ست عشرة سنة منذ أن حملتنى سيارة "حامد الألفى" على هذا الطريق هاربا من السجن إلى "بور سعيد."

جاءنى صوت السائق متوترا.

" انظر. انظر يا دكتور. اليهود على الضفة الثانية."

يشير بحركة خفيفة من رأسه كأنه لا يريد أن يلفت نظرهم إلينا. التفت. يتحركون كالحشرات الصحراوية قرب كثبان من الرمل. أهذا هو العدو الذى نتحدث عنه؟ لا أرى ملامحهم ولا أشعر نحوهم بشىء محدد. ربما لأننى لا أرى وجوههم. أفحصهم كأنهم كائنات غريبة جاءت إلينا فجاة لكن فى الوقت نفسه أشعر بخطر غامض يتهددنى. رصاصة يمكن أن تنطلق منهم أو قذيفة مدفع لتنهى حياتى. علمهم يرفرف فى اطمئنان كسول على الضفة الأخرى. أتطلع إلى النجمة الزرقاء على السطح الأبيض. أتتبعهم يتحركون كالخنافس حوله. ألمح يدى السائق تلتفان حول عجلة القيادة فى توتر. تبرز مفاصلها شاحبة تحت جلد الأصابع السمراء، كأنه يكتم خوفه، أو ربما هو الغضب الذى استولى عليه فهو من أرض "الكنال". إنهم يدوسون بأحذيتهم العسكرية على أرضه. أما أنا فأستطيع أن أضع بينى وبينهم مسافة للتأمل. ألتفت ناحيتهم من بعيد. أنظر من طرف عينى كأننى أخشى أن يلاحظوننى وأنا أحملق ناحيتهم فيعقدون بينى وبينهم صلة تقول أننى عدوهم. أدرك فجأة أنهم على مرمى البصر لا يفصل بينى وبينهم سوى مياه القنال، مسافة لا تزيد ربما عن مائتى مترا. أشعر بعيون تختفى وسط تلال الرمال، عيون الجنود، وعيون البنادق ، فأنا صيد سهل ينطلق فوق الطريق المكشوف. أصبع واحد يضغط على الزناد فأسقط. بدا لى أن السيارة تزحف ببطء لكننى آثرت الصمت. لا أريد أن أظهر خوفى أمام السائق الجالس إلى جوارى. مال ناحيتى وقال:

" سأسرع. الطريق مكشوف."

قفزت السيارة إلى الأمام، وقفز معها مؤشر السرعة إلى مائة وثلاثين كيلو متر. انحنيت لأفك رباط الحذاء. قدمى تؤلمنى فى بعض الأحيان. آثار الضرب بالعصى على سمانة الساق فى السجن الحربى.

جنود العدو على الشاطئ الأخر، فأين جنودنا؟ طوال الطريق لم أشاهد جنديا واحدا، أو ضابطا مصريا واحدا كأنهم ذابوا، أو ابتلعتهم الأرض. ابطأت السيارة فجأة كأن السائق رأى شيئا يعترض الطريق فدق قلبى. لمحت صفا من السيارات، بعضها مازال يحترق. ألسنة النيران الحمراء تصعد وسط الدخان الأسود من أتوبيس تحول إلى هيكل من الحديد ضلوعه تتلوى، وبينها ثغرات كالأفواه الفارغة. إلى جانب الطريق مقعد سيارة انقلب على ظهره، وحقيبة نصف مفتوحة يطل منها سراويل، وجثة مفحمة اسنانها البيضاء تضحك.

سمعت السائق يقول:

" ضربتها "الطيارات" الإسرائيلية بالمدافع."

سألته: أكنت فى الجيش؟

قال نعم.

وصلنا "بورسعيد". المدينة تبدو مهجورة. رجل عجوز جالس على الرصيف وامرأة تغسل جلبابها تحت صنبور. الغيوم تحلق فى الجو، ورائحة حريق، أو ربما خيالى عادت إليه صور الطريق. الشوارع خالية. بعض الجنود يقفون بالبنادق أمام أسلاك شائكة. مواسير المدافع تحملق فى السماء باحثة. شال أسود على كتفين منحنيتين، وخلف الشبح الأنثوى حجرة تكشف عن أحشائها. سرير من النحاس وصندوق من الخشب، ولحاف، ولمبة مكسورة تتدلى من بقايا سقف، كالمسرح تركه الممثلون فجأة.

توقفت السيارة أمام مديرية الصحة. التفت إلى السائق وقلت.

" ابحث عن مكان تستريح فيه، وتلاقى لقمة تآكلها، وارجع بسرعة. حاجيلك بعد شويه؟."

تطلع إلى الرجل الجالس خلف مكتبه. ملامحه سمراء، ممسوحة وشعره الأشيب أصبح أصفر اللون من صبغة الحناء. ينظر الى من خلف النظارة بضيق. نظرته تقول "أليست عندى متاعب كافية حتى يأتينى هذا "المفتش" بعث به الوزير . اليهودعلى الضفة الأخرى ، وما زالوا منشغلين بالتفتيش". بعد قليل اختفى الضيق لتحل محله الحيرة فأنا لا أشبه المفتشين الذين أتوا إليه من قبل . لم أسأله الأسئلة التى أعتاد عليها. لم أفحص الدفاتر، ولا العهدة، ولم أهتم بإشغال الأسرة أو عدد العمليات أو الغياب.

أرسل طلبا لمد خدمته. هكذا عرفت قبل أن أغادر القاهرة. سألنى عن الطلب فقلت إننى لا أعرف عن مصيره شيئا. جئت لأسباب أخرى. يفحصنى كأننى أتيت من عالم آخر. ما هذا الكلام عن الطوارئ الطبية، عن حجرة للعمليات تحت الأرض، عن بنك احتياطى للدم. اليهود احتلوا سيناء، وغدا سيزحفون على المدينة، وأنا أتصرف كأن المعركة لم تنته. يقول.

" يا دكتور. طوارئ إيه، وغرفة عمليات إيه؟! داحنا سامعين الضرب قريب منا. ما خلاص."

قالها بشىء من التشفى كأنه استعد للاحتمال، ولم يعد يزعجه، كأنه ينتقم من سنين الوظيفة قهرته ومن كل المفتشين الذين جاءوا وأنا منهم.

حملقت فى العينين المدفونتين على جانبى الأنف الغليظ. أدركت أنه لن يفيدنى فى شىء قلت " أُريد كشفا بما يوجد فى التموين الطبى."

قام وتوجه إلى أحد الدواليب. استخرج منه ملفا، وعاد إلى. فحصت الكشف وهو صامت كمن قرر أن يتحلى بالصبر. سألته.

" ألا يوجد مولد كهربائى فى المخازن."

قال: " لا... طلبنا مولدا احتياطيا عدة مرات ولم يجبنا أحد. عندى المراسلات"... هم بالعودة إلى الدولاب فأوقفته بحركة من اليد.

ألا يوجد مولد كهربائى فى جهة يمكن استعارته إذا احتجنا إليه؟"

" لا أظن."

" هل سألت؟"

" ومن أسأل؟."

" شركة القناة مثلا."

" لا توجد صلة إدارية بيننا وبين شركة القناة حتى أسألها."

مددت يدى بعلبة سجائرى. قال بحركة تراجع كمن يرفض رشوة.

" شكرا... لا أدخن.

سألته:

" كم احتياطى الدم فى البنك؟.."

" لا أعرف بالضبط."

" هل عندنا بنك احتياطى؟"

" لسنا فى حاجة إلى بنك احتياطى. الاتحاد الاشتراكى يرسل إلينا المتطوعين كلما احتجنا إليهم."

مال إلى الوراء وابتسم كأنه كسب جولة.

" ماذا لو سقطت قنبلة على البنك الموجود فى المستشفى العام؟."

اختفت أسنانه بسرعة خلف شفتيه كأنه يسحب الابتسامة.

" هل يوجد مكان آخر يصلح لإنشاء بنك احتياطى؟"

" لا أظن."

" ومستشفى النصر؟"

" لا يتبعنا."

أحسست أننى سأضيع الوقت معه دون فائدة. قلت:

" أحتاج إلى مكان للمبيت، والسيارة التى معى سيعود بها السائق إلى القاهرة."،

" مستشفى الرمد بها استراحة تصلح للمبيت. أما السيارة فموجودة فى الجراج."

رفع السماعة وتمتم فيها ببضع كلمات، ثم مال إلى الوراء، وقد بدا عليه الارتياح. سيتخلص منى بعد قليل. دخل رجل قصير القامة يرتدى معطفا للسائقين عليه بقع من شحم التشحيم. قال مدير المنطقة.

" تخليك مع الدكتور يا "عبد البديع". معاك بونات للبنزين؟ خذ خلى دول معاك ولما تعوز تانى روح لجرجس أفندى يديك."

قلت:

" أريد أن أرى السيارة."

" اتفضل مع" عبد البديع" يا دكتور يوريهالك."

هبطنا إلى جراج يجاور مبنى المديرية. تأملت الهيكل المتهالك للسيارة التى أشار إليها السائق. عدت قافزا فوق درجات السلم بسرعة، واندفعت من باب المكتب، وقد بدا علىَّ الغضب.

قلت:

" هذه السيارة لا تصلح. يمكن أن تتوقف بى فى أى لحظة وأنا أنتقل من مكان لمكان."

" لا توجد سيارة أخرى يمكن تخصيصها لك يا بيه."

قلت بصوت عال فيه اصرار.

" وفى المستشفى العام؟"

أخذ يرسم بإصبعه فوق المكتب كأنه يعيد توزيع السيارات، ثم هتف فجأة كأن الحل جاءه." آه نسيت. أنا من حقى استخدام سيارة من اثنين. سيارة بصفتى مدير المنطقة، وسيارة بصفتى انتدبت مديرا للمستشفى العام بعد وفاة مديرها السابق. يمكن أن أسلمك سيارة منهما."

مددت ساقى المتعبتين فوق السرير. جسمى يشتاق إلى الراحة. ثلاثة أيام بلياليها قضيتها أنتقل بين أحياء المدينة. هنا، وهناك خرائب تشبه العظام العملاقة ترتفع فى ضوء الهلال الخافت أو جثة تتعفن فى الشمس كأن المدينة توقفت أجهزتها عن القيام بوظائفها المعتادة. أكوام الفضلات متراكمة فى أغلب الأماكن تحوم فوقها سحب الذباب، وسيول المهاجرين تتدفق من شرايين المدينة كأنها ستنزف حتى الانتحار. الشوارع فى الليل مهجورة، خالية توحى بأننى أشهد موت المدينة، لكن مع الصباح تأتى ساعات الأمل. فى بعض المناطق يجلس الناس على المقاهى وتلمع أكواب الشاى بين الأصابع، وتفتح الحوانيت أبوابها، وتدق أجراس الدراجات .

فى عينى الطبيب الشاب تجمدت المرارة. الكلمات تخرج من صدره كأنه صندوق أجوف، كلمات مرهقة مثقلة بعبء فظيع، قال:

" الناس يهربون من "بور سعيد" . من أين جئت؟"

" من القاهرة."

" من القاهرة؟!"

" نعم."

" ولماذا جئت؟"

نبرات صوته خالية من رنين الاهتمام الحقيقى. مجرد شكل لملء الفراغ، أو تحفز يسبق شيئا سيأتى.

" لتنظيم الطوارئ الطبية."

" الطوارئ الطبية؟! أية طوارئ طبية يادكتور؟ أنت جى تضحك علينا؟ مدافع اليهود، ودباباتهم وجنودهم عند "بور توفيق". يصرخ "سامعنى"؟ "عند بور توفيق"، والقاهرة ترقص وتغنى كل ليلة على شاشات التلفزيون كأن شيئا لم يحدث. القاهرة التى أنت منها بلد غير البلد. عُد إليها لترقص وتغنى، وتستمتع معهم. لا شأن لك "ببور سعيد" . إنها ليست جزءًا من بلدكم."

تطلعت خلال النافذة المفتوحة على البحر، أمواجه تتسابق نحو الشاطئ، جدار خلف جدار من الزجاج اللامع الأخضر، حصانا وراء حصان يعدو مسرعا، يتردد لحظة كأنه أمام حاجز، يرفع جسده عاليا فى الهواء، وينحنى عنقه كالقوس، ثم يهبط بكل ثقله لينطلق نحو الشاطئ عرفا أبيض متمردا فوق الجسم الغارق فى البحر، ورذاذا كاللعاب يتطاير فى الشمس. التفت إليه وقلت.

" إن كنت تريد يمكننى أن أنصرف."

صعدت الدماء إلى وجهه فزاد سماره، قال:

" ما الذى تطلبه منى؟"

" إقامة مستشفى ميدان فى مخبأ هذه العمارة."

صمت كأنه يصارع. جلس على المقعد وأشعل سيجارة.

" وما الفائدة بعد أن انتهى كل شىء؟"

" لا نعرف ما الذى انتهى، وما لم ينته. فلنستمر حتى يقال لنا كفوا لنبدأ شيئا آخر. نريد أن ننشئ حجرة عمليات، وعنبر للمصابين تحت الأرض. نحتاج إلى تجهيزات، وأسرة، وطبيب بنج، وجراح. أنت جراح أليس كذلك؟"

" نعم، وحاصل على زمالة الجراحين من لندن" . قالها بنوع من الفخر كأنه أخذ يعود إلى نفسه.

" وطبيب البنج؟"

" موجود يعمل معى فى العمليات. لكن عندى اقتراح آخر غير المخبأ الذى أشرت إليه. هناك مبنى جديد للجمعية التعاونية للبترول. يوجد بدروم للمبنى جدرانه من الأسمنت المسلح وكذلك السقف. مساحته ألفى متر مربع. جزء منه غرفة تصلح للعمليات والباقى مفتوح، مزود بالكهرباء، وأحواض ودورة مياه كما توجد به أسرة.. أعدوه لكى يكون مخبأ، لكنه لم يستخدم، والمستشفى الذى أعمل فيه قريب منه."

الآن يتحدث وحده دون أن انتزع الكلام منه. يستطرد." سأعد كشفا بالاحتياجات. هل تضمن الحصول عليها؟"

" أضمن ذلك. أو على الأقل ما يمكن أن يحل محلها."

نظرت من النافذة. أمواج البحر مازالت تتسابق. فوق الرمال تجرى طفلة وحدها، نقطة صغيرة فى الكون الواسع.

أضواء الفجر ترفع غطاء الليل فى حرص ثم تلقى به جانبا دفعة واحدة. فتحت الشيش على مصراعيه، واستنشقت الهواء المشبع بالرطوبة المالحة. سمعت وقع أقدام، وصوت رجل يتحدث بصدى مكتوم كأنه مازال يرقد تحت الغطاء. فى الحديقة خيمة تبدو كالشبح الأبيض خلال تكعيبة العنب التى أخفيت تحتها. أسفل الشجرة الضخمة سيارة لا سلكى ومدفع ماسورته تظهر خلال الشبكة التى غطوه بها. لمحت جنديا يتمطع فى كسل، وذراعيه المرفوعتين إلى أعلى كأنهما يتضرعان إلى السماء، ثم سار يتحرك هنا وهناك بلا هدفٍ كأن غيوم اليوم الوليد مازالت تلفه.

ابتلعت ساندويتشا من الجبن، وكوبا من الشاى أعددته على الموقد، وهبطت على السلم مسرعا. تطلع إلى حارس البوابة بفضول وأنا أمرق نحو السيارة ينتظرنى فيها السائق. الزهور الصفراء، والبنفسجية اللون تصعد مع اللبلاب فوق مبنى المستشفى الأبيض يعلوه سقف مائل مصنوع من القرميد الأحمر. مستشفيات الرمد تشبه بعضها. بناها الإنجليز وتركوها ذكرى لنا مع السجون، واستراحات الرى، ومحطات السكك الحديد.

كانت سيارة النقل تنتظر فى حوش التموين الطبى محملة بالأجهزة. تبعتنا حتى وصلنا مبنى الجمعية التعاونية للبترول واتجهت إلى الباب الخلفى للبدروم. أسمع رجلا يصيح " لا، مش هنا.. هناك... ايوه... على مهلك يا عم"، وصوت زجاج يقع على الأرض، وينكسر.

وجدت الطبيب الشاب جالسا على مقعد يدخن، ويتتبع عددا من الرجال ينقلون بعض الأثاث، وأشياء أخرى من مكانها. قام وضغط على يدى. خطوط المرارة اختفت من حول الشفتين الممتلئتين يعلوهما شارب مقصوص أسود. قلت:

" صباح الخير. أرجو تفريغ الأدوات والأجهزة التى أحضرناها حتى يعود السائق باللورى إلى التموين الطبى."

اصطحبنى حتى السيارة. لف ذراعيه حولى وشد على يدى مودعا. ظل واقفا حيث هو والسيارة تبتعد. لمحته فى المرآة قواما منتصبا يرتدى المعطف الأبيض ثم اختفى.

أسابق الزمن. فى كل خطوة أواجه اليأس، أو المقاومة. أجهزة لم تغير الثورة جمودها ثم أصابها التفكك بعد أن رأت العدو وقد زحف إليها. أتساءل. ما الذى جاء بى إلى هنا؟ أنفخ فى قربة مثقوبة بألف ثقب. لكنى أتفادى التفكير فى ذلك. أتفادى التفكير فى هول ما وقع أو ربما لا أدركه. أهرب منه فى هذا النشاط المحموم يوهمنى بأن هناك مجال لرد ما وقع. إذا أعطيت لنفسي فرصة للتفكير سأتوقف أنا أيضا. أقول لنفسى فلأعش مع الناس فى لحظات يأسنا، حتى لا أشعر به. أنا لا أريد أن أستسلم بينما المنطق، والعقل يقول لى "استسلم". وهم جديد أضيفه لأوهام سبقته. أردد كلمات ربما تعلمتها فى المعتقل. كلمات تعبر عن إصرار يقترب أحيانا من العمى. كنت أعتقد أننى جئت لأشارك فى معركة كبرى فاكتشفت أننى أدور وحدى فى حلقة مفرغة. ربما هى الحياة تظل ترفض الموت، تظل تنتفض بعد أن يتوقف حتى قلبها. أصبحت الحركة عندى كالمخدر يخفى الواقع لأن الواقع لم يعد ممكنا.

القميص الذى يظهر من معطف الطبيب المفتوح نسيجه من حرير. والسواران الظاهران عند آخر الكم من الذهب. جبهته تمتد حتى الصلعة وتحت الجبهة عينان فيهما نظرة تعلو فوق الأشياء، وتفحصها من علوها.

إنه أشهر طبيب أمراض نساء وولادة فى المدينة. رجل يجيد المهنة، ويعرف الأصول، واثق من نفسه. أسمعه يقول:

" بنك للدم، فى هذه المستشفى؟! سنملؤها قذارة. من سيتطوع الآن بدمه غير من ليس له مأوى. انظر حولك. هل رأيت مستشفى بهذه النظافة من قبل، وفى مصر؟" يستبعد اقتراحى من احتمال التنفيذ بحركة بطيئة من يده كأنه يهش ذبابة تطير ببطء من شدة القيظ. فص الخاتم حول إصبعه يبرق فى شعاع الشمس.

قلت بإصرار.

" نعم بنك للدم؟

وما شأنى أنا بهذا؟"

"شأن كل طبيب مسئول يرى الناس من حوله يموتون فى الحرب ويحتاجون إلى نقل الدم."

اعتدل فى جلسته. أين هى الحرب التى أتحدث عنها؟! أنا القادم من القاهرة رأى من أمثالى الكثيرين. يحملون بطاقة الاتحاد الاشتراكى فى جيبهم، وكلمات عن الوطنية والتضحية يتحدثون بها من فوق المنبر. يقول لنفسه: مازالوا يتكلمون. ستضيع مدينته، ومازالوا يتكلمون. عاش فيها أغلب سنين العمر. يكاد يعرف كل شارع من شوارعها. استنشق هواءها النقى يهب من البحر. رأى البواخر تأتى إليها من كل أنحاء الدنيا. بنى لنفسه مركزا، واسما، وثروة ومع ذلك ربما أجبر للرحيل عنها لأنها هى والبلد لم تكن معدة للحرب التى دخلتها. وهذا الرجل الذى يجلس أمامه، هذا الموظف الذى لا يساوى شيئًا جاء ليعلمه؟لأ بنك للدم؟ سخف!لمحت الضيق على وجهه ثم مسحة من الحزن. ابتسم ابتسامة بعيدة وقال:

"تفضل باكر صباحا لنبحث الأمر."

ساد الصمت لحظة. قلت:

"لم آت من القاهرة فى هذه الظروف حتى تقول لى "تعال بكرة" كأى موظف مراوغ يريد أن يهرب منى. لا أظن أنك من هذا النوع. ولن أترك المستشفى قبل أن نتفق على إجراءات إنشاء البنك."

حملق فى وجهى بنظرة غاضبة كأنه سينفجر فى، ثم تمالك نفسه. طال الصمت. انتظرت كأننى لست على عجلة من الأمر. وفجأة انتصب واقفا وقال:

"هيا بنا لأريك ما فى ذهنى."

قادنى إلى العيادة الخارجية. نمشى فى ممر خلف صف من حجرات الكشف فى نهايتها ملحق يجاور مبنى المستشفى مكون من أربع غرف. قال:

"الثلاجات، والمعمل بالقرب منا. نستطيع أن نخصص غرفتين للانتظار، وغرفتين لأخذ الدم. لا نريد طوابير. من يأتى يجلس دقائق قبل أن يعطى دمه وفقا للبطاقة التى حصل عليها من قبل والمدون فيها مجموعته، ونتائج الكشف. وبعد أن يؤخذ منه الدم يستريح، ويتناول وجبة خفيفة، وكوب لبن ثم ينصرف. المكان كما ترى منفصل عن العيادة وله بابان أحدهما للدخول، والآخر للانصراف، وهذا يسهل الحركة بلازحام، ودون أن نحول المستشفى إلى مزبلة" يخرج الكلمة الأخيرة من بين شفتيه كالطلقة.

قلت:

"مكان مناسب جدًا، والإجراءات كذلك. لم يستغرق التفكير فيه وقتًا طويلاً منك."

ضحك بشيء من الرضى. ذابت الخطوط الحادة المتعالية فى وجهه كأنه أسقط عنه قناعًا فجأة، وأطل الحزن فى عينيه من جديد.

"كنت أفكر فيه ونحن نتحدث. جزء منى يريد أن يتخلص منك، وجزء منى يبحث عن شخص، عن شىء يعزينى فى هذه المحنة. ما رأيك؟ نتغدى سمك، وبيرة ساقعة بكرة عشان تشوف اللى عملناه كمان فى إعداد الملحق".

كانت الشقة فى الدور الأول. تحسست خطواتى، وأنا أصعد فى الظلام. لافتة نحاسية بجوار الباب تلقى شعاعًا غامضا. حاولت أن أقرأ الحروف المكتوبة عليها دون جدوى. ضغطت على زر فى الحائط اصطدمت به يدى. دق جرس فى الداخل. لم يفتح أحد. ضغطت عليه مرة ثانية. بعد قليل فتح الباب ليكشف عن رجل لم أستطع أن أرى ملامحه. أحسست فقط أن شعره أبيض وأنه يتفرس فى. سأل .

"من أنت؟"

قلت:

"أنا الدكتور شريف حتاتة. أريد مقابلة الأستاذ فهمى عوض الله."

"بطاقتك".

أخرجت البطاقة. حملق فيها طويلا فى ضوء الكشاف الذى أخرجه من جيبه ثم أدخلنى إلى الصالة، وقادنى إلى باب يتسرب الضوء من تحت عقبه. نقر عليه مرتين بشىء صلب وانتظر. سمعت صوت رجل يقول.

"ادخل".

خطوت إلى الداخل وتوقفت أغمض عينى فى الضوء. بعد لحظات أخذت أميز الأشياء. مكتب صغير على يمينى جلس خلفه رجل أشعث الشعر، عيناه غائرتان خلف النظارة. على الناحية الأخرى من الحجرة رجل آخر يجلس على كنبه قديمة تمزق جزء منها ليكشف عن أحشائها. أسمر، نحيف يفحص ملفا تناثرت أوراقه على المنضدة الموضوعة أمامه. فى الركن خلف الباب الذى دخلت منه امرأة ترتدى الثوب الأبيض والكاب الكبير الذى يميز رئيسة الحكيمات فى المستشفى . تمسك فى يدها بسماعة التليفون قرب أذنها وتقول:

"طيب حامر عليكو بكرة الصبح بدرى".

وضعت السماعة، والتفتت لتفحصنى. وقف الرجل الجالس خلف المكتب ومد يده إلى. قامته طويلة، وصوته جهورى كأنه يخطب.

"أهلاً وسهلا. الدكتور شريف حتاتة أظن. أنا "فهمى عوض الله". أمين الاتحاد الاشتراكى،" ثم مشيرا إلى الموجودين معه فى الحجرة: الآنسة "علية الشطى" رئيسة الحكيمات فى المستشفى العام، والمسئولة فى الاتحاد الاشتراكى عن خدمة الجنود العائدين من الجبهة. "

جلست على المقعد قرب المكتب تركته لى رئيسة الحكيمات وانتقلت إلى الكنبة. ساد الصمت لحظة دخل أثناءها ثلاثة شبان ظلوا واقفين دون أن يقولوا شيئا. سألت:

" اية آخر الأخبار يا أستاذ "فهمى"؟"

مال إلى الأمام فوق المكتب.الكلمات تنطلق من فمه بسرعة ومعها نقاط من اللعاب الأبيض.

" المقاومة الشعبية احتلت مراكزها فى جميع انحاء "بور سعيد". كل شىء جاهز ونحن ننتظر التعليمات".

" ما هى التعليمات التى تنتظرها؟".

" إذا دخل اليهود "بور سعيد" ماذا نفعل؟".

تدخل أحد الشبان باندفاع.

" حنقاومهم طبعا. ودى عايزة تعليمات؟!".

حملق فيه "فهمى عوض الله" وقال:

" بص يا بنى. مش عايزين فوضى. لازم نتحكم فى أعصابنا؟".

دق جرس التليفون فرفع السماعة.

" أيوة. أنا "فهمى". ثم زعق فجأة بصوته الجهورى.

" بص يا سيدى مش كده، ما تعملش حاجة دلوقتى. خلى مراكزنا زى ما هى. مش أنت اللى تحدد. إحنا مستنيين التعليمات. أنا معاى ناس فى المكتب. حا تصل بيك تانئ بعد ما أخلص معاهم".

ساد الصمت فى الحجرة من جديد قال الشاب:

" إذا احتل اليهود "بور سعيد" أنا شخصيا مش حستنا تعليمات". ثم خرج من الباب، وخرج الشابان الآخران وراءه.

منافذ الحجرة كلها مغلقة، والجو ملىء بدخان السجائر، وأعقابها متناثرة تفيض من المنافض. رائحة عرق تختلط بعطر نفاذ. رائحة عفونة كالزهور الذابلة فى عنابر الدرن عادت صورها إلى. رائحة التحلل فى الأجسام قبل أن يدركها الموت. أشعر بالاختناق. المقاعد، والجدران تدور فى رأسى بحركة بطيئة كالخيول الخشبية فى ملاهى العيد ينصبونها على ترعة بلدنا. العرق يتصبب باردا تحت القميص. ربما هو الجوع. كان يجب أن أتناول شيئا من الطعام قبل المجىء. نسيت ثم أغلقت الحوانيت. أريد أن أغادر هذا المكان بسرعة. قليل من الهواء النقى هو ما احتاج إليه. قلت:

" جئت أناقشك فى موضوع المتبرعين بالدم الذين يرسلهم الاتحاد الاشتراكى. نحتاج إلى عدد أكبر منهم. اتفقت مع المدير على إقامة مركز احتياطى لتخزين الدم فى مستشفى النصر".

" كم العدد المطلوب؟"

" عشرين يوميا بدلا من عشرة".

" هذا أمره سهل. أى شىء آخر؟"

" أريد أن أزور مركز إيواء الجنود العائدين من الجبهة".

" متى؟".

" باكر إن أمكن".

التفت إلى رئيسة الحكيمات انهمكت فى فحص إصبعها المجروح فكت من حوله الرباط.

" يا ست "عليه" تقدرى تروحى بكرة مع الدكتور؟".

" الساعة كام"؟

قلت:

" بعد الظهر الساعة ثلاثة".

" ممكن. أنت قاعد فين يا دكتور؟".

" فى استراحة الرمد. بس مش حاكون هناك فى الوقت ده".

" أنا ما عنديش عربية. إذا كان عندك عربية فوت على فى المستشفى العام. حاستناك فى مكتب سكرتيرة المدير".

دلفت من باب العمارة. وقفت على الرصيف أملأ رئتى بهواء الليل، ثم توجهت إلى السيارة. كان السائق غارقا فى نوم عميق واضعا يديه ورأسه على عجلة القيادة. انقطع شخيره عندما فتحت الباب.

كانوا قد حولوا المدارس إلى مراكز لإيواء الجنود العائدين. أُخليت مما فيها لتحل محلها أسرة أو بطاطين فرشوها فوق الأرض، وجنود يتزايد عددهم كلما مرت الأيام. ياتون منفردين، أو جماعات صغيرة يصلون تباعا بعد مشوارهم الطويل على الأقدام فى "سيناء". يجتازون بوغاز البردويل. تاركين وراءهم كل شىء فهم كالقطعان ضاعت فى الصحراء، وتتعرض لرشاشات ومدافع الطائرات الإسرائيلية احتلت السماء.

عيونهم تحملق فى حائرة فارغة، أو ذاهلة لا حيرة فيها. أقدامهم الحافية تورمت من السير فوق الرمال الزجاجية والحصى الصغيرة. أنسى أننى طبيب. أحملق فيها بفزع. تتجسد أمامى الهزيمة فى هذه العيون المفتوحة تنظر إلى كأنها لا ترى شيئا، فى هذه الأقدام تشبه خف الفيل، فى الجروح المفتوحة ينز منها الصديد، فى الأيدى تمتد بالأوانى المعدنية فتملؤها المغرفة بسائل تخرجه من وعاء كبير، فى الأسمال الممزقة حول أجسامهم الهزيلة.

قاربت الساعة على السادسة مساء. لم أعد أطيق. سألتنى:

" هل تريد أن تزور باقى المراكز؟"

" لا... هذا يكفينى":

" أين ستذهب الآن. أريد أن أمر على إحدى الوحدات البحرية الصغيرة".

" كم تستغرق الزيارة؟"

" ساعة على أكثر تقدير".

" لا مانع. أريد أن أتحدث فى التليفون قبل أن نذهب".

توقفنا عند كشك للسجائر. هبطت من السيارة وطلبت مدير مستشفى النصر فى عيادته. جاءنى صوته القوى عبر الأسلاك.

" أنت فين يا دكتور.. ماجتش تزور بنك الدم ليه؟"

" مش لما يشتغل؟"

" ما هو اشتغل فعلا. وصل أول فوج من المتبرعين النهارده. بتتكلم منين؟"

" من كشك سجائر بس ما عرفش هو فين".

" حاستناك بكرة بعد الظهر فى المستشفى".

تركنا السيارة عند باب الميناء، ودخلنا سيرا على الأقدام. رفع الجندى الحارس يده فيما يشبه التحية العسكرية كأنه يعرفها وتركنا دون أن يسألها شيئا. اتجهنا ناحية اليمين. أسمع صوت المياه تصطدم موجاتها الصغيرة بجدار الرصيف. اقتربنا من زورق للطوربيد سكن إلى جواره. أراه يرتفع وينخفض بحركة بطيئة. الصلب الرمادى اللون، والمقدمة كالسكين. القوة المتأهبة للقتال مثل كلب الصيد أو سمك القرش ينتظر الإشارة لينطلق خلف الفريسة.

وقفنا أمام كشك. الواجهة مدهونة بذات اللون الرمادى. دخلت، وأشارت إلى لأتبعها. وجدت نفسى فى حجرة فيها مكتب، وبعض المقاعد وسريرين مثبتين فوق بعضهما فى الجدار الخشبى. فى منتصف الحجرة جلس ضابطان بحريان على جانبى منضدة يلعبان الكوتشينة.

التفتا عندما دخلنا، وقاما تاركين اللعب. بدت على وجهيهما علامات الانشراح لهذه الزيارة. يقولان بترحاب.

" أهلا، وسهلا "ست علية" . أتفضلى، اتفضلى. المكان نور بصحيح. ايه المفاجأة الحلوة دى" .

تومض أسنانها وسط طلاء الشفتين. انشغلا بها ثم تنبها إلى وجودى. اتجهت عيونهما إلىّ فى تساؤل. فقالت:

" الدكتور شريف حتاتة. النقيب بحرى "عصام"، الملازم "رجائى"" .

" مرحبا، مرحبا، اتفضل يا دكتور. لا مؤاخذة المكان ضيق شوية. كرسى أهه. اتفضلى باست "علية" . شلته أهيه. الكرسى اللى انت قاعدة عليه دا ناشف شويه بتاع ظباط زينا كده" .

النقيب "عصام" هو الذى يتكلم أغلب الوقت. شعره أشقر، وعيناه خضراوان.

" كدا تنسينا المدة دى كلها، لا زيارة، ولا سؤال. يعنى لازم نعيى ولا إيه؟ يا رجائى بذمتك كام مرة أقولك وحشتنا الست "علية"؟" .

يؤكد "رجائى" كلامه بابتسامة وهزة من الرأس ثم يخرج من صمته.

" أى والله. وحشتنا زياراتك بالفعل" . يلتفت إلى " ازيك يا دكتور أهلا، وسهلا، فرصة سعيدة اللى جابت حضرتك لحد عندنا فى الحتة المقطوعة دى" .

النقيب "عصام" مشغول بالست "علية"، ولا يريد أن يعطى لحظة لغيرها. أسمعه يقول "وأنا كمان أصبت بالتهاب فى عينى، ومالقتش حد يعالجنى. داحنا ملناش حد هنا غيرك. ولا سائلين فينا خصوصا الأيام دى. أهو بصى شوفى كده عينى عاملة أيه" ."

مال ناحيتها ورفع عينيه الخضراوين إلى السقف كمن يستعد لتكشف عليهما، فوقفت. وضعت يديها على جانبى رأسه، ومالت به قليلا إلى الأمام ثم أخذت فى تقليب جفنيه. استسلم لها فى سكون كأن أصابعها فراشة يمكن أن تطير عند أقل حركة.

قالت:

" أنت بتضحك علىّ؟ عينيك زى البرلنت مفيهمشى حاجة خالص" .

" شفيت من أول لمسة. أصل ايديك فيها الشفا. وأكثر من الشفا" .

رنت ضحكاته المرحة تحت سقف الكشك فبددت كآبة الحجرة. جلست صامتا أتتبع ما يدور. اختطف لحظات من الراحة، من الحياة البسيطة السهلة. مال علىَّ الملازم أول "رجائى" . نحيل القوام، عيناه العسليتان فيهما براءة. فى الوجه رقة الشاب الذى ظل محاطا بالدفء، والرعاية. سألنى فى تردد.

" أنا للأسف مالقطش اسم حضرتك بالظبط".

" اسمى شريف حتاتة".

" حتاتة؟ حضرتك من "القضابة؟!"

" أيوه أنا من "القضابة". تعرف حد من هناك؟"

وقف على قدميه فجأة، وأخذ يهز يديه فى اندهاش.

" أنا بقى اسمى "رجائى حتاتة". وأنا ابن "طاهر حتاتة".

لم أكن أعرف "طاهر حتاتة". ربما تردد الاسم أمامى مرة أو مرتين خلال السنوات فأغلب أفراد الأسرة بالنسبة إلىَّ غرباء. أخذتنى مسالك الحياة بعيدا عنهم. غلبتنى السعادة الطاغية التى أشرقت فى وجهه، وتخللت كل حركة من حركاته. قمت وأحطته بذراعى كأنه الابن التقى بأبيه بعد فراق طويل. هتف:

" يا سلام أنا مش مصدق. دانا سمعت عنك كثير يا دكتور شريف وكان نفسى أشوفك قوى. وهو ربنا جابك لى هنا عشان نتقابل. أما مفاجأة صحيح. دانا لما أقول لأبوى على الصدفة دى"!! يلتفت إلى رئيسة الحكيمات "أنت دائما كده جمايلك علينا يا ست "علية".

عيناه تطلان على فى صفاء. بدا سعيدا كالطفل حصل على هدية كان يلح على أهله بشرائها ولا يسعه إلا أن يشارك الجميع فى الفرحة التى استولت عليه. توجه إلى النقيب "عصام" الذى انشغل عنا بالحديث إلى رئيسة الحكيمات قائلاً.

" تصور. احنا من نفس العيلة، وماتقابلناش أبدا قبل كده. لازم نحتفل". كاد أن يقع من على المقعد وهو ينطلق إلى الباب زاعقا."يا إبراهيم، يا إبراهيم".

جاء رجل يضع على بزته البحرية عدة شرائط. وجه أسمر جامد وشارب كث. عيناه تنظران إلينا بذلك الثبات الذى يأتى مع سنين الخبرة.

" نعم يافندم".

" عندنا بطيخ فى الثلاجة؟"

" فيه يافندم".

" ابعث لنا اثنين بسرعة".

أزاح الكوتشينة، وعلب السجائر، وأشياء أخرى من على المنضدة. وضع فوقها مفرشا أخرجه من تحت المرتبة. شق البطيختين بمطواة كبيرة. أكلنا. الشفاه والأسنان تنغرس فى اللحم الأحمر والعيون تضحك فى العيون من أعلى القشرة الخضراء كأنها تلتقى فوق كئوس

نشرب منها، والعصارة تسيل فوق الذقون، وتسقط على الأرض بين أقدامنا، واللب الأسود يتطاير مع الكلمات.

مر الوقت بسرعة البرق. قلت:

"هذا الكتاب هدية منى لكما. مسرحية اسمها "الإنسان الطيب".

قال:

" شكرا كنا نبحث عن شىء نتسلى فيه. لكنك ستعود لزيارتنا مرة أخرى أليس كذلك؟ وأنت كمان يا ست "علية". أوعى تغيبى الغيبة الطويلة دى مرة ثانية".

أحنيت رأسى خارجا من باب الكشك المنخفض. احتضنته طويلا بين ذراعى، وشددت على يد النقيب "عصام". مررنا قرب زورق الطوربيد الرابض فى الظلام كأنه مازال ينتظر إشارة. أوصلنا الصول "إبراهيم" حتى باب الميناء.

عدت إلى استراحة الرمد. كنت مرهقا للغاية، فلم أنتظر حتى يعود الدكتور "زكريا عريان" من مستشفى الميدان. دخلت فى الفراش. سقطت فى النوم بعد لحظات، ولم أستيقظ إلا فى الصباح على صوت خرير المياه فى الحمام.

نظرت إلى ساعتى. قاربت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل. جلس السكرتير على مكتبه وأمامه رغيف من الخبز، وثلاثة أقراص من الطعمية سال منها الزيت على صفحة الجريدة، وشرائح من الجبن الرومى، ولفت مخلل. إلى جوارها كوب من الشاى يبدو كالعرقسوس فى الضوء الأزرق القاتم.

فى ركن الحجرة سرير عليه ملاءة بيضاء، وبطانية " ميرى". قال معتذرا.

" نحن ننام، ونأكل هنا. تفضل لقمة بسيطة. لم أستطع أن أتناول عشائى. كنا فى المرور، ولم نعد إلا من نصف ساعة".

أحسست أنه يريد أن يثرثر معى. سألت:

" السيد المحافظ موجود؟"

" أيوه يافندم. ومنتظر حضرتك. تفضل".

دخلت حجرة تمتد مسافة بالطول. عند أخرها مكتب كبير. لمحت ظل رجل يجلس وراءه. لا أرى وجهه. المصباح يلقى ضوءه المحدود على الأوراق الموضوعة أمامه. ماعدا هذا كل الأشياء غارقة فى ظلام يحول دون أن أراها. قام ومد ذراعه فوق المكتب ليشد على يدى. النافذة التى تمتد وراءه بطول الجدار مغلقة، وعليها ذلك الطلاء الأزرق الذى انتشر فى كل مكان. أشار إلى

بالجلوس فجلست. ملمس الجلد الطرى مريح بعد يوم من الجهد طالت ساعاته. أتوق إلى قدح من القهوة فقال كأنه قرأ أفكارى:

" للأسف ما عندناش قهوة دلوقتى. لكن الترموس فيه شاى جبته من البيت. تشرب معايا؟"

أومأت برأسى موافقا فصب من الترمس فى كوب، ومد يده إلى به ثم سأل:

" سيجارة؟"

قدم لى علبة من الصدف، ثم أشعل سيجارتى بالولاعة. ذراعه تعبر المكتب بسهولة. يبدو طويل القامة. فى شعره احمرار خفيف يلمع فى ضوء المصباح عندما يقترب منه.

" هه. كيف الحال. أرجو أن تكون المسائل ماشية".

" فى حدود الإمكان. بنوك الدم تعمل بانتظام. نقلنا مولدًا للكهرباء من مخازن شركة القنال إلى مستشفى الميدان أصبح جاهزا. وحصلنا منها على مولد احتياطى. العنبر معد فى بدروم الجمعية التعاونية للبترول والدكتور يمر على مراكز إيواء الجنود بانتظام لإدخال تحسينات عليها. ولكن هناك مسائل لم تستقر حتى الآن.

" ونظام الإسعاف؟"

" لم أتفقده حتى الآن. سأذهب إلى الإدارة المركزية باكر".

" الوزير اتصل منذ ساعة. أبلغته أننا سنلتقى، وأننى سأطلعه فى الصباح عما تم. هل تريد شيئا من الوزارة؟"

" لا شكرا. نستطيع بمساعدتك أن نحل المشاكل محليا".

نظرت إلى ساعتى. لمح الحركة فقال:

" لازم عايز ترجع تنام".

" لا أبدا. لكنى أريد أن أتركك لأعمالك".

مد يده بعلبة السجائر مرة أخرى كأنه يغرينى بالبقاء. قال:

"خذ سيجارة. هذه السجائر طازجة. نحصل عليها من السفن المارة بالقنال. لكن الآن.."

ينظر إلى كأنه يحاول أن يتذكر شيئا.

" يا دكتور شريف. ألم نلتق من قبل؟"

أعصر ذهنى. هذا الوجه. أين رأيته من قبل؟. وهذا الفم بالسنة الأمامية المكسورة. ابتسم وقال:

"فى المندرة بالإسكندرية. منذ سنين طويلة. كنت طالبا فى كلية البوليس وكنت أنت هناك مع الأسرة".

فجأة عادت إلى صورة الشاب الفارع الطول بسنته الأمامية المكسورة عند طرفها تاركة فجوة فى شكل مثلث صغير، وشعره المحمر قليلا يبرق فى الشمس بالدهان الذى وضعه حتى تبقى خصلاته الخشنة مكانها. الآن تعود إلى ملامحه، تضاء أمامى جزء بعد جزء. أصبحت أكثر خشونة عما كانت فى تلك الأيام البعيدة، وجسمه امتلأ. لكن السنة كما هى، والشعر، وتقاطيع الوجه. أراه مرتديا بزة الكلية، البنطال الأسود فيه شريط أحمر يمتد بالطول على جانب الساق، والسترة البيضاء بأزرارها النحاسية على كتفها ضفيرة ربما ذهبية اللون، وعيناه العسليتان فيهما صفاء الشاب المقبل على الحياة. يضع عصا رفيعة تحت إبطه ويختال على رصيف " الكورنيش" فترمقه عيون الفتيات من طرف خفى.

" ده من ثلاثين سنة".

ضحك.

"حسبتهم. فاكر أسرة "البنان"؟. كنت أنت دائما مصاحبهم".

" أيوه فاكر. اتربينا سوا، وجينا "المندرة" نصيف سوا. وأنا فاكر كمان أنك كنت عايز تتجوز بنتهم الشقرة دى أم عيون زرق".

ضحك فى سرور كأن ذكريات الشباب أنعشته. الحب، والبحر، والشمس، والرذاذ يتطاير فى الهواء على الشاطئ. أجسام جميلة تسبح فى المياه، أو ترقد فوق الرمل، ونظرات تتبادل خلسة من تحت الأهداب فيسرع النبض المدفون فى الأعماق.

" أين هى الآن؟"

" تزوجت ولكنها لم توفق فى زواجها فانفصلت عن زوجها. تعمل مدرسة، وتعيش وحدها".

كان سنى إذ ذاك اثنتى عشرة سنة. تأتينى إشارات غامضة بأشياء تدور من حولى، بشحنات تجتاز المسافة بينه وبين الفتاة كانت تكبرنى بأربع سنوات. كان الشباب مفتونين بها، بذلك الجمال الشمالى. كنت أخطو خطواتى الأولى فى عالم مشحون بتيارات الجنس دون أن أنتبه إليها، أو لما تفعله فى نفسى. سألته:

" كنت تريد أن تتزوجها أليس كذلك؟".

قال:

" نعم لكننا لم نوفق". ثم صمت.

تذكرت. رفض أهلها. قالوا إنها صغيرة على الزواج، وإنه مازال طالبا لم يتخرج بعد فمات الموضوع مثل كثير من غراميات الصيف تنتهى عندما يعود الناس إلى الحياة الجادة بعد شهور التسلية. لها رونقها حتى إن لم تنته إلى شىء.

قال:

" كل شىء نصيب"، وتنهد.

ساد الصمت. جفونى تسقط من التعب. ربما شعر الرجل بالوحدة بعد أن غادرت أسرته المدينة، وتركته يواجه المجهول، وينتظر فى المدينة التى ظل مسئولا عنها.

قفز ذهنى إلى موضوع آخر أعادنى إلى الواقع الذى نعيشه. سألته:

" من هو المسئول عن الإسعاف فى بور سعيد؟"

التفت إلى كأنى أعدته من بعيد.

" اسمه "حامد الألفى".

دق قلبى. الرجل الذى حملنى فى سيارته من القاهرة إلى "بور سعيد" بعد أن هربت من مستشفى القصر العينى، ثم آوانى فى بيته إلى أن سافرت فى باخرة للشحن إلى مرسيليا؟!

قلت:

" حامد الألفى؟!"

لاحظ اهتمامى فسألنى:

" هل تعرفه؟"

" لا. "

استطرد:

" شخصية نادرة. سنه سبعون أو يزيد. ولكن كلما وقعت غارة يستقل سيارة من سيارات الإسعاف ويذهب إلى مكان الضرب ويشرف على عمليات الاسعاف بنفسه. يرفض أن ينتظر حتى تنتهى الغارة. ينطلق مع أول إشارة تصلهم. القنابل تسقط من حوله وهو يجرى هنا وهناك يحثهم. قلبه لا يعرف الخوف رغم سنه".

خطر فى ذهنى. ظل هكذا طوال عمره. يعرف الخوف مثل غيره، لكن قلبه الكبير يطرده حتى يتسع لأشياء أخرى.

سمعت المحافظ يقول:

" العمل الذى أقوم به يتطلب منى أن أعرف الناس جيدا. إنه عمل سياسى فى المقام الأول". يعتدل فى جلسته كأنه فى اجتماع رسمى." تنقلت كثيرا فى أنحاء القطر أثناء الخدمة لكنى لم أقابل رجلا مثله.

زال التعب، واختفى ثقل الجفون الذى كنت أشعر به. لم أعد أريد أن أنصرف. أريد أن أسمع.

"حامد الألفى" ابن بور سعيد جزء من لحمها، ودمها، لا توجد فيها أسرة إلا وتعرفه، بل ربما لا يوجد طفل وصل سن الكلام لم يسمع عنه. إننى لا أبالغ. أقول لك أنا محافظ المدينة إنه لو تقدم عبد الناصر نفسه فى انتخابات حرة حقا لنجح أمامه "حامد الألفى" فى أى دائرة من دوائر بورسعيد يختارها".

قلت:

" لكنى لم أسمع أنه دخل مجلس الشعب، أو حتى مجلس الأمة".

" ستندهش. رفض أن ينضم إلى الاتحاد الاشتراكى، ومن قبله إلى الاتحاد القومى. حاولنا معه المستحيل عن طريق أقربائه، وأصدقائه، وعن طريق القائمين على السلطة. سلطنا عليه جميع من يعزهم أو ربما يعمل لهم حساب ولكن دون جدوى. أنا شخصيا حاولت معه. وعدته بأن نغلق عليه أية دائرة فى "بور سعيد" يريدها. رفض تماما. رأسه صلب كالحجر".

" ولكن لماذا؟"

" قال أنتم تبحثون عن اللقمة السهلة ومستعدين فى سبيل ذلك أن تغيروا جلدكم. ولكن عندى أنا اللقمة السهلة صعبة. أخذت كل الأشياء فى حياتى بجهدى حتى عندما كان الوفد فى السلطة. ربما النحاس باشا وحده هو الذى كان يفهمنى. مع ذلك سأحيا وفديا، وأموت وفديا. من حقى أن يكون لى حزب، والوفد هو حزبى". سرح قليلا قبل أن يضيف: "رجل أطواره غريبة".

الجملة نفسها سمعتها عنه عندما كان نائبا فى البرلمان. إنه كما هو لم يتغير. غدا سألتقى به. سأضع يدى فى يده. سألمح بريق السخرية والحنان يطل من بين جفونه المثقلة بالتعب. لماذا لم أسأل عنه طوال هذه السنين؟ سؤال يحرك فى أعماقى الضيق، والخجل من نفسى.

تردد فى نوافذ الحجرة اهتزاز طال لمدة ثوان ثم تكرر وسمعت صوتا بعيدا كالانفجار المكتوم. أرهفت السمع. مرة ثم مرة ثم مرة أخرى ثم صمت تلته عدة انفجارات متتالية سريعة حجمها أصغر، كأن هناك فريسة يتم الإجهاز عليها.

علق المحافظ:

" تبدو لى أنها آتية من ناحية البحر". اجتاز القلق وجهه. أطفأ المصباح المضاء فوق مكتبه. قام وفتح النافذة ليطل منها. عند الأفق شىء كالوهج الأحمر تلاشى بسرعة. أغلق النافذة وعاد إلى جلسته. قال وهو يفكر.

" تبدو كالمعركة البحرية. ربما حاول الإسرائيليون الاقتراب من شواطئنا. فتصدت لهم وحداتنا الدفاعية".

قلت:

" يستحسن أن أتركك حتى ترتاح. الساعة الآن قاربت على الثالثة صباحا".

" وهو كذلك. لا تنس أن تظل على صلة بى إذا احتجت لأى شىء".

قام وشد على يدى بقوة. سرت نحو الباب. سمعت قرص التليفون يدار بسرعة ثم صوته يقول:

" ألو. غرفة العمليات. أدينى..."

أغلقت الباب خلفى. خرجت من المبنى. النجوم تبرق فى السماء كالجواهر القوية. فتحت باب السيارة وجلست. أطفأ السائق السيجارة التى كان يدخنها وأدار المحرك. خطر فى ذهنى. ترى أين الملازم "رجائى حتاته"؟

أعيش الماضى مئات المرات كأنه حاضر متجسد أمامى. التاريخ لا يكتب مرة واحدة. يتجدد مع الزمن يلقى عليه أضواء جديدة فيزداد ثراء. الحاضر أحيانا يفلت من بين يدى، أوأعيش المستقبل كأنه واقع أمامى. كالمثال أغلق عينى وأتصور تمثالى، كالأعمى ألمس وجه حبيبتى فأراه. فأين الزمن، وأين الواقع فى حياتى؟

صعدت إلى حجرتى فى الاستراحة. فى السرير الآخر جسم ينام. يرتفع الغطاء وينخفض بحركة خفيفة تكاد لا ترى، أتوقف أمامه. هل مازال حيا فالموت فى كل مكان؟

أدخل فى السرير. أستسلم لنوم قلق. السرير يتحرك فى أحلامى على أربع عجلات كأننى فى سيارة. رأسى مضغوط تحت سقف صلب، وركبتى تصطدم بشىء كالجدار. صوت المطاط على أسفلت الشارع يصفر فى أذنى. السيارة تحملنى فى الظلام نحو فضاء لا أرى له نهاية. تركت كل شىء ورائى حتى الذكريات. أتحسس جيوبى خاوية، ليس فيها شىء، لا نقود، ولا صور، ولا جواز سفر، ولا بطاقة، ولا حتى مفتاح للبيت. لا أملك شيئا سوى جسمى يرتدى قميصا، وبنطالاً، وحذاءً يتحمل الحصى، والحجارة. توقفت السيارة فجأة، وارتفع غطاء الصندوق أرقد فيه ملفوفًا حول نفسى. شبح رجل يطل، ومن ورائه النجوم. صوته المبحوح يسألنى." ألا تريد أن تمد ساقيك". أنظر فى وجهه. القمر يضىء جانبا من ملامحه. أندهش.

إنه "حامد الألفى". ما الذى جاء به فى هذه البقاع المغطاة بالرمال؟ أرى أحبالاً تتدلى من سقف عال أقيم فوق عواميد من الأسمنت ورجلا عجوزا يجلس وسط قطيع من الأغنام ويحلب نعجة من بينها.

استيقظت فجأة على صوت "زكريا عربان".

" الساعة تسعة".

فتحت عينى. قال:

" أنا نازل. حاروح الهلال الأحمر. أنت رايح فين النهارده؟"

فكرت لحظة.

" حاروح الإسعاف. بس قبل كده عايز أفوت على المينا".

" المينا. حاتعمل إيه فى المينا".

" لى واحد قريبى حازوره هناك".

التفتُّ إليها جالسة على المقعد الخلفى للسيارة تقرأ فى كراسة. سألتها:

" ما سمعتيش حاجة بالليل؟"

" زى إيه؟"

" حاجة زى الانفجار كده حوالى الساعة اثنين ونص صباحا".

" لا كنت غطسانه فى النوم".

" كنت عند المحافظ. سمعنا انفجارات، وشفنا حاجة زى الوهج فى البحر".

صمتت لحظة ثم قلت.

" ما تيجى نفوت على الميناء النهاردة".

" دحنا كنا هناك من ثلاثة أيام".

" عندى رسالة عايز أبلغها للملازم رجائى".

توقفت السيارة عند باب الميناء. هبطنا منها. مررنا أمام الحارس وسرنا حتى الرصيف. زورق الطوربيد لم يعد موجودا. حملقت فى المساحة الخالية. المياه رمادية اللون متسخة فيها بقع كبيرة من الزيت الأسمر اللون، وبعض علب السلامون. الأمواج الصغيرة تحتك بالجدار بصوت كالهمس. السنتها تلحسه كأنها تسخر منى.

دخلنا فى الكشك. وجهان جديدان يلتفتان إلينا. نظراتهما فيها ضيق لاقتحامنا المكان عليهما. قلت:

" لا مؤاخذة. نبحث عن الملازم "رجائى حتاته".

رد أحدهما فى برود.

" نُقل."

" والنقيب "عصام"؟

" نقل هو أيضا".

" متى؟ "

" التنقلات يا أستاذ فى زمن الحرب لا يعلن عنها. من أنت؟"

" أنا الدكتور شريف حتاتة قريب الملازم "رجائى". وهذه الأستاذة " علية الشطى" رئيسة الحكيمات بالمستشفى العام".

لمحت كتابا فوق المنضدة. اقتربت منه وقلت.

" هذا الكتاب استعاره منى الملازم "رجائى". هل يمكن أن أستعيده منكما؟"

قال الضابط الآخر بصوت فيه ود.

" تفضل يا دكتور، تفضل".

خرجنا من الكشك. المياه القذرة تلحس الرصيف بلسانها كأنها لازالت تسخر منى. سرنا نحو البوابة. أحسست بعينين تتبعاننا عن بعد. تلفت. على مسافة لمحت الصول. اقترب منا. وجهه جامد، وتحت الشارب الكث الشفتان مطبقتان. ينظر إلينا دون حركة فى عينيه. انتظرت. ظل صامتا فسألته:

" أين الملازم "رجائى حتاتة" يا حضرة الصول؟"

قال :

" نُقل".

قلت:

" الملازم "رجائى" قريبى يا حضرة الصول. قل لى أين هو".

نظرة عينيه مازالت ثابتة، صامتة تنطق بصمتها. وقفت أمامه لحظة طويلة. عيناى فى عينيه. لسانه يقول نقل، وعيناه تقولان لا أستطيع أن أفصح. ربما تهيؤات. لماذا هو بالذات؟

ربما زورق آخر، أو ربما خرج آخرون بالزورق، أو ربما لم يكن زورقا هو الذى احترق، أو ربما نقل الزورق بهما إلى مكان أخر، أو ربما...

لكن لسانى مازال يسأل :

" متى نقل؟ "

" بالأمس".

" إلى أين؟"

" لا أعرف".

الآن أعرف كل الإجابات. لن تتغير، كالأسطوانة، كشريط للتسجيل ردىء كئيب. الإجابات تقول نقل، والعيون تقول لا نستطيع أن نتحدث عما حدث. العيون أصدق من اللسان. العيون فيها حزن صامت، حزن لا يبكى. رأت الكثير، وتحملت ولم تعد تبكى. ربما مجرد تهيؤات.

رافقنا حتى الباب. مد يده إلىَّ، يدا خشنة كبيرة احتوت يدى "مع السلامة". أدى التحية، وانتظر حتى تحركت السيارة، ثم استدار. لمحت ظهره العريض يعبر الباب كالكلمة الأخيرة، كالستارة أُسدلت على فصل فى الحياة.

الملازم "رجائى حتاتة"، لن أراه بعد اليوم. تأكدت الآن. كان يمكن ألا ألتقى به، أن أقرأه اسما على كشف فيجيئنى خاطر سريع أنه قريبى، أو أسمع عنه فى حديث عابر، أو يظل مجهولا بالنسبة إلى تماما. لكنه الآن دخل حياتى، ولن يخرج منها. لماذا؟ ما الذى يربط بيننا؟ لقاء عارض؟ لحظات فى كشك؟ ضحك فى العيون؟ ماذا؟

وضعت الكتاب أمامى خلف زجاج السيارة. لمحته. مدت يدها بينى وبينَ السائق وقالت:

" ما هذا الكتاب؟ ورينى".

سمعتها تقرأ بصوت هامس.

" الإنسان الطيب".

أمسية صيفية. مرت ثلاث سنوات منذ يونيو سنة ١٩٦٧. لم يمت "عبد الناصر" بعد، ومن كان يظن أنه يمكن أن يموت؟ كان جزءًا من حياتنا بخيره وشره. موجود فى الصحف والإذاعات كل يوم، فى صلب الأحداث عشناها سبعة عشر عاما تغيرت فيها البلاد.

دق جرس الباب. فتحته. الرجل الواقف أمامى قوى الجسم، طويل القامة. عيناه واسعتان متأملتان. الوجه عريض، أسمر، لفحته الشمس كأنه قضى حياته فى الحقول؛ فى يده يحمل سبحة تتدلى بين الأصابع. قال:

"أنا "طاهر حتاتة".

لأول لحظة لم أنتبه. أضاف.

" أنا والد "رجائى حتاتة".

صدمت. القدر جاء ليدق بابى. قلت:

" أهلا وسهلا. تفضل".

أدخلته فى حجرة المكتب. جلس على الكنبة أمامى صامتا ينظر إلى ثم قال:

" لا أريد أن أضيع وقتك".

" لا أبدا ليس عندى شىء يشغلنى الآن".

دخل فى الموضوع فورا كأنه جاء فى مهمة يريد أن ينهيها بسرعة. مجرد إجراء نهائى يغلق بعده الملف أو ربما يريد ألا يظهر أمامى ألما أضناه منذ زمن. قال:

" سمعت أنك آخر من رأى "رجائى حتاتة".

اندهشت. كيف عرف الرجل هذه الحقيقة.

" نعم رأيته فى موقعه بميناء بور سعيد".

" جئت لأعرف منك شيئا واحدا. هل مات "رجائى"، أم مازال على قيد الحياة. مرت ثلاث سنوات ومازال مسجلا فى كشف المفقودين".

ماذا أقول؟ هل أقضى فيه على البقية من الأمل؟ ربما لحظة من القسوة أفضل من طول العذاب.

"رأيته فى يوم مع زميل له فى الميناء، ورأيت الزورق الحربى الذى يبحران فيه، ولما عدت لزيارته بعد معركة بحرية حدثت فى الليل لم أجدهما، ولم أجد الزورق. الموجودون فى الموقع قالوا لى إنهما نقلا إلى موقع آخر، ولم يُضيفوا إلى قولهم شيئا".

" راح إذن فى البحر".

" أعتقد أنه استشهد فى تلك الليلة. الظواهر كلها تدل على ذلك".

قال:

" شكرا. هذا ما جئت من أجله. والآن سأستأذن". وقف.

قلت:

" لماذا العجلة؟ ابق قليلا".

قال:

" لابد أن أنصرف على الفور. عندى أشياء تنتظرنى".

سرت معه حتى باب الشقة. شد على يدى. لم يرد أن أطلب المصعد. هبط على السلم. رأيت قامته الطويلة وهو يهبط.

دخلت وأغلقت الباب.

الآن أدركت أننى أخطأت. كان يجب أن أبقيه، أن ألح. أن أحكى له عن ابنه، كيف رأيته، وكيف أحببت البراءة تشع من عينيه. أن أساعده على إفراغ الحزن، على البكاء أشاركه فيه، لكنى لم أفعل. ذلك أننى لم أدرك الأشياء المهمة فى الحياة إلا بعد أن سار بى الزمن أشواطًا ممتدة.

الساعة الثامنة والنصف صباحًا. مازال الموظفون يدخلون من الباب متجهين إلى مكاتبهم، الأكتاف محنية، والصحيفة تحت الإبط، والسبح تتدلى من أيديهم. أصواتهم تتلاشى فجأة، وهم يصعدون درجات السلم، وحركة الأصابع فوق حبات السبحة تسرع كلما اقتربوا من الجزء الذى يحتله المحافظ. أدخل معهم أحيانا لأقضى بعض الأعمال. أتطلع إلى أوراق الشجر وأنا أدخل من الباب ترتفع على جانبى الطريق. أتساءل كيف احتفظت بنضارتها؟

بحثت عن "حامد الألفى". لا أريد أن أعود من حيث جئت دون أن ألتقى به. هكذا فى ذلك اليوم ذهبت إلى مكتبه آخر النهار فوجدته يتأهب للعودة إلى البيت. كان يقف عند الباب مع رجل يتحدث إليه. يميل برأسه ليقترب إليه بأذنه. فى ملامحه زرقة داكنة صدمتنى عندما نظرت إليه. شد على يدى وحملق فى وجهى من بين جفونه تكاد تخفى عينيه.

" هه. جيت. بعد كل السنين دى افتكرت "حامد الألفى"؟

صعدت الدماء إلى وجهى. قرأت فى عينيه الحزن، حزن طويل كالحياة نفسها. حزن الذى يرى الأصدقاء ينصرفون عنه.

قلت:

" معك حق. أنا آسف".

قال:

" هه. يالله بينا. اتعشيت واللا لسة؟"

قلت: "لسه"؟

" طب تعالى ناكل سمك عند "جيانولا". بس حنمشى. معنديش عربية دلوقتى".

" معاى سيارة".

عدنا إلى بيته بعد أن أكلنا. الآن يكاد لا يسمع. أصرخ حتى يلتقط ما أقوله. يمسك بذراعى ونحن نصعد السلم. تفاصيل صغيرة تذكرنى بتلك الليلة، بليلة ١٧ يونيو سنة ١٩٥٠. ضوء المصابيح الخافت فوق كل باب، رائحة التقلية تصل إلى من الشقق، أصوات النساء والأطفال تتسرب من خلف الجدران، الصالة الصغيرة، والمرآة، والستائر، النجفة تتدلى من السقف، وفراشات الصيف ترتطم بسطحها. الأشياء كما هى، ولكن ثمة تغيير طرأ عليها. راح عنها اللمعان. شاخت، وتشققت وتجعدت، وتسرب إليها التراب، بعد أن أصابها الإهمال.

قادنى إلى حجرة الاستقبال. المقاعد المذهبة الغليظة، وقطع الأثاث، والأوانى المصنوعة من زجاج سميك، ثابته، كئيبة لا تتزحزح عن مكانها. جو الأشياء المنتمية إلى ماض بلامعنى. أقدمت علينا الحاجة من داخل الشقة بحركة فيها تثاقل. زاد اسمرارها داخل الطرحة البيضاء. وجهها أصبح نحيلا، مستطيلا، ولكن فى عينيها مازال الدهاء. تقول فى صوت هامس فيه حشرجة.

" أهلا، وسهلا. حمدا لله على السلامة" كأن لا شىء تغير. تلك الليلة البعيدة لفتها السنوات عادت إلىّ كما كانت محاطة بإحساس أننى أمثل بالنسبة إلى هذه المرأة كل ما كرهته فى الرجل الذى شاركته الحياة.

قامت تتكئ على ساقيها كأنهما قطعتان من الخشب لا علاقة لهما بالجسم الذى تحملانه.

قالت:

"الحاج قالى إنك حتبات معانا الليلة. أودتك جاهزة. والميه السخنه فى الحمام".

فى الصباح أطل على شعاع من الشمس خلال الشيش المكسور فاستيقظت. فتحت النافذة. البحر مساحة خضراء باهتة تمتد حتى الأفق كالملل. لا بواخر بألوانها الزاهية، ولا خيوط من الدخان تتهادى فى السماء، ولا عيون يحيطها بريق النحاس.

تناولت معهم طعام الغداء. أطباق الأرز الأبيض، والبورى المشوى يرقد صفوفا مفحمة. ذيوله كالمراوح، وعيونه كالخرز الأخضر نظراتها صماء. "حامد الألفى" جالس عند قمة المائدة. البطريق العجوز المشرف على طقوس فقدت الحيوية، والحياة. عيناه نصف مغلقتين تطل منها نظرة مرهقة كأنه ضاق بكل لحظة يقضيها على رأس المائدة بين أناس بالنسبة إليه غرباء. إلى جواره تجلس الحاجة، وجهها مشوب بصفرة مريضة، وعيناها تدوران حول المائدة كأنهما تدبران شيئا. و"فاطمة" كل شىء فيها تضخم. الذراعان، والنهدان، والبطن المنتفخة تحت الجلباب، والوجه الملتحف بالسواد. عيناها ترنوان إلينا كالذبيحة تحت يد الجزار، و"محمد"

يمسح على شاربه بحركة بطيئة من إبهامه. يشفط من سيجارته بصوت مسموع، ويضحك ضحكة ممدودة، ممطوطة ثم يصمت كما بدأ فجأة. الوجوه تطل فى صمت، والأصابع تمتد فى صمت، وحركة الفك الأسفل على الفك الأعلى هى وحدها التى تملأ الفراغ.

بعد الغداء انصرفنا. تنفست الصعداء عندما أحسست بالباب يغلق وراءنا. "حامد الألفى" يضع يده على كتفى أثناء الهبوط كأنه لم يعد يرى تحت قدميه. سرنا بخطوات بطيئة فوق الرصيف. عند ناصية الشارع وقف رجل ممتلئ الجسم يرتدى بزة الاسعاف. مد يده وشد على يده ثم سأله.

" ازيك يا "مرزوق". جيت بدرى يعنى. الدكتور شريف حتاتة جه يزورنا من مصر".

أصابع الرجل تلتف حول يدى قوية كأنها تقبض على خشبة النقالة حتى لا تفلت منها. التفت إلى "حامد الألفى" وقال:

" محتاجين أسطوانات أكسجين يا حاج".

"هه".

مال على أذنه وكرر الجملة مرة أخرى بصوت أعلى، فرد عليه "حامد" قائلا:

" حاروح المحافظة فى المسا. تعالى معانا القهوة نشرب شاى".

جلسنا على مائدة صغيرة لها قرص نحاسى. المقهى لا يوجد فيه سوى رجل واحد نام على المقعد. يفتح عينيه بين لحظة وأخرى، ثم يغلقها دون أن يغير من وضع جسمه.

قلت:

" يا حاج. أنا مسافر مصر بكرة".

" مستعجل ليه؟ مش تخليك معانا شوية. مش حاتشوف الإسعاف؟"

" بكرة الصبح ينفع".

" آه طبعا. وحترجع أمتى؟"

" مش عارف بالظبط".

نظر إلىَّ وابتسم ابتسامة واهنة. ثم ضحك ضحكته الصغيرة فعاد إلى كما كان.

" فاكر المرة اللى فاتت لما رحنا القهوة الثانية". ضحك مرة أخرى ثم تنهد. ألمح شيئا فى ملامحه كأنها أخذت تتفكك.

شددت على يده وهبطت إلى الشارع. أسرعت الخطوة كالهارب من شبح. أشعر أن الموت يواجهنى فى كل خطوة، وأننى لم أعد أحتمله.

صعدت سلالم المستشفى كأننى فى سباق. كدت أن أصطدم فى الممر بإحدى الممرضات تطرقع بكعبين عاليين فوق البلاط. صرخت: " وسعى السكة" فنظرت إلى مذعورة وأخذت جانبا بسرعة. التقط أنفى رائحة الدم، والصديد والليزول. دفعت الباب الهزاز بسرعة ثم توقفت. الأسرة كلها موجودة بما فيها "إبراهيم"، طويل، نحيل، وشعره أشيب يتفحصنى من خلف النظارة. يرمش إلى الجالسين على المقاعد فى صمت. حملقت فيهم لحظة ثم قلت:

" أين هو؟"

أشار "محمد" برأسه إلى باب مغلق. فتحته ودخلت. أسطوانة أكسجين صدئة، وقبيحة فى الركن وسرير حديدى أبيض يرقد عليه. ألمح الجسم المربع مستلق على المرتبة ناءت بثقله والغطاء مشدود من تحته فى إهمال. الجلباب مفتوح عند العنق يطل منه شعر الصدر الأشيب، المجعد. فمه مفتوح واللعاب عند الركن جف.

مددت يدى إلى معصمه أبحث عن النبض. يهيأ إلىَّ أنه يوجد شىء، خيط يتحرك، ثم أُدرك أنه نبضى أنا عند طرف الإصبع. رفعت ذراعه إلى أعلى وتركتها، وقبل أن تسقط تلقفتها فى الهواء.

قلت:

" يا حاج حامد. يا حاج حامد. إزيك. انت تعبان واللا إيه؟"

سؤال يائس أبله خرج منى. أعرف الإجابة عليه، وأرفضها. جلست إلى جوْاره أنتظر. ما الذى أنتظره؟ لن يتحدث إلىَّ، لن يقول لى شيئا.

قمت، وخرجت من الباب.

نظر الجالسون إلى فى صمت. ماذا ينتظرون؟ لا أريد أن أواجههم. ليس بينى وبينهم شىء. دلفت بسرعة إلى الطرقة. هبطت السلم إلى الميدان. صبى صغير يجلس القرفصاء على الرصيف وامرأة تحمل مشنة من الفجل على رأسها أنزلتها، واستقرت إلى جوار المدخل. فوهة المدافع مفتوحة للسماء. ما الذى تنتظره ؟ جاء صوت المذيع يصك أذنى:

" أعلنت حكومة الجمهورية العربية المتحدة قبولها وقف إطلاق النار".

ساقى تتحركان وحدهما. لا أعرف إلى أين. الصبى مازال يجلس على الرصيف وحده، والمرأة ترتب الفجل. و"حامد الألفى" تركته راقدا على السرير بلا نبض وفى أذنى صوت المذيع يردد خبر وقف إطلاق النار

النافذة مفتوحة. وضجيج المرور فى شارع مراد كالزئير، لا يتغير. نجلس أنا و" نوال" فى حجرة المكتب. جاءنى رنين التليفون فى الصالة فقمت. صوت "إبراهيم الشربينى" فى أذنى يزعق كأنه يتحدث فى حجرة مزدحمة بالناس.

" آلو دكتور "شريف". مساء الخير".

" مساء الخير".

" الريس سيلقى بيانا مهمًا فى الساعة السابعة والنصف".

" أعلم هذا".

" أقترح أن نجتمع جميعا فى الوزارة لسماعه. ما رأيك؟"

التفت إلى "نوال" وهمست إليها. ثم عدت إليه.

" موافق. أين سنجتمع؟"

" فى حجرة الدكتور "عبد الوهاب شكرى" وكيل الوزارة."

جهاز التليفزيون ينتصب أمامنا على المكتب. نجلس على صفوف المقاعد رصت خلف بعضها. توتر، وقلق، وأصوات تهمس. جاء عدد كبير من الأطباء الذين عملوا سويا فى الوزارة أو النقابة، وجاء عدد من الموظفين الإداريين أيضا. فى الصف الأمامى يجلس "عبد الوهاب شكرى". وإلى جواره "رمسيس عبد العليم" مستشار الوزير فى شئون التخطيط الطبى. يرتدى البزة ورباط العنق، ويضع ساقا فوق ساق دون أن يبدو عليه شىء كأنه فى اجتماع عادى دعى إليه فحضر لينفذ ما سيطلب منه.

أجلس أنا و"نوال" متجاورين فى آخر صف. أضاء جهاز التلفزيون، وانتظرنا. موسيقى عسكرية، وعلى الشاشة حبات رمادية تشبه الأرز تظل تهتز. لا أحد يتكلم. ثم فى لحظة يظهر عبد الناصر جالسا على مقعد. عيناه واسعتان حولهما دائرتان من السواد والوجه متعب فيه انكسار كالأسد المهزوم. ولكن حتى فى هذه اللحظة، أو ربما فى هذه اللحظة بالذات شىء يشدنا إليه، المحنة التى تجمع، أيام مضيئة، وأيام مظلمة. مشوار اجتزناه منذ بداية الثورة.

الآن جسمه الكبير ينوء تحت الحمل، تحت وطأة الكارثة. صوته هادئ يشرح ويهتز فى لحظة لكنه خال من الانفعال، كأن شيئا أرهقه، واعتصره حتى آخر قطرة. ضمن كلامه يقول أشياء لا تدخل العقل ليبرر الهزيمة التى لحقت بالجيش. جاءت طائرات من الغرب، أو السفير السوفيتى نصحنا ألا نكون البادئين بالهجوم عليهم، أو أمريكا شدت أزرهم فى هجماتهم علينا. أشعر بلحظة ضيق. أهذا وقته؟ هذه المقدمات أين تقود؟ ماذا سنفعل الآن هذا هو ما نريد أن نعرفه.

فجأة رنت الكلمات فى الحجرة. أتحمل المسئولية وحدى. قررت أن أتنحى عن الحكم، أن أصبح مواطنا عاديا يعمل فى الاتحاد الاشتراكى. نحتاج الآن إلى من يستطيع التفاهم معهم. أفسح الطريق لهذا الشخص ليتولى مسئولية القيادة فى هذه الظروف.

أُطفئت الشاشة. لحظة طويلة من الصمت، من الذهول. الناس جامدون فى أماكنهم كأن صاعقة سقطت عليهم، ثم ارتفع ضجيج الأصوات. أُزيحت المقاعد إلى الوراء، وسقط بعضها على الأرض. نتحرك هنا وهناك بلا هدف. انطلقت الألسنة. يتنحى؟ كيف؟ الناس من حولى كالسكارى يترنحون تحت الضربة التى أصابتهم، يتصايحون دون أن يكون للصياح معنى. "عبد الوهاب شكرى" يدور فى الحجرة ويقول: "إزاى، إزاى". سمعت صوتا يصرخ فوق الضجيج فالتفت. "سعد فؤاد" أمين الاتحاد الاشتراكى يقف فوق منضدة :

" أرجوكم... أرجوكم... الهدوء. الهدوء. اسمعونى".

عيناه تتذبذبان فى جنون، ورذاذ من اللعاب يخرج من بين شفتيه. يلوح بيده فى رجاء وهو يردد من جديد.

" الهدوء.. الهدوء.. انتظروا هنا. سأذهب إلى الاتحاد الاشتراكى فورا وأعود إليكم بالتعليمات".

النظام يتفكك، وربما ينهار، ومازالوا ينتظرون التعليمات. تملكنى الغضب. قفزت فوق المنضدة إلى جواره وصرخت.

"إلى الشارع... إلى الشارع. عبد الناصر. عبد الناصر. الرجعية لن تمر.. ناصر.. ناصر".

تطلعت إلى الوجوه مشدوهة. سمعت "عبد الوهاب شكرى" يقول "استنوا يا جماعة"، ثم بدأ الهتاف؟ "إلى الشارع إلى الشارع.. ناصر.. ناصر..".

اندفع السيل من الأبواب. هبط على السلالم. ملأ الحوش، وصب فى الشارع. مئات الأصوات تنضم إلى الآلاف وجدناها سبقتنا إلى الشارع، إلى جموع أخذت تسير فى صمت. أنهُر من البشر تصب من كل شارع، تتجه إلى ميدان التحرير وتجتازه. الطريق معروف، إلى المنشية، إلى بيت الرئيس. نمشى صفوفا، الأذرع متشابكة، ذراع "نوال" فى ذراعى، وعلى الناحية الأخرى" عبد الغفار خلاف" أشعر بأصابعه تلتف حول ذراعى، كأنها معلقة على طوق للنجاة. بالقرب منا "عبد الوهاب شكرى" يسير معنا فالمحنة تجمعنا. أحبه فى هذه الليلة. أحب كل هؤلاء الناس. نسير على موجة عارمة ترفعنا. نرى جميعا شيئا واحدًا، ونسمع جميعا صوتا واحدًا يهز الليل، ناصر، ناصر، ثم يتلاشى فلا أسمع سوى آلاف الأقدام تهمس كأمواج البحر. من حين لآخر أصوات تقول: " على مهلكم. احذروا السيارة. اتجهوا إلى اليمين." فألمح "كوردونا" من الشباب يحيط بجمع من الفتيات ليحميهن.

توقفنا أمام محل للعصير. قالت " نوال" :

" عطشانة" .

" تشربى عصير"؟

هزت رأسها بالموافقة. أخذنا كوبين من عصير القصب، ثم كوبين آخرين. رأيت رجلا يقف إلى جوارنا جلبابه ممزق وعيناه تطلان من بين جفونه الملتهبة سقطت منها الرموش. وجه شاب عجوز لمحته فى ضوء المصباح. سمعته يقول:

" أدينى شوية ميه ياعم" .

مددت يدى إليه بكوب من العصير وقلت:

" تشرب عصير؟"

" متشكر يا فندى" . أخذها .

" من أين جئت؟"

" من البدرشين" .

" أزاى؟"

" شويه ركوب، وشوية مشى" .

" كل المسافة دى؟ ليه؟"

لحظة صمت كأنه يفكر فى الرد .

" اللى أخذناه فى عهد عبد الناصر إذا مشى يروح منا" .

عدنا إلى المنزل فى الساعة الرابعة صباحا . الجموع لا تزال سائرة فى الليل. أطل عليها من النافذة فى حجرة المكتب. تسألنى "نوال" :

"آلا تريد أن تنام؟ الساعة قاربت على الرابعة والنصف" .

قلت:

" اجلسى إلى جوارى" .

مددت ذراعى واحتضنتها، وظللنا هكذا نستمع للهتافات تأتى إلينا .

الفصل التاسع عشر

التحدى

أجلس فى حجرة الدكتور "على حجازى"، رئيس مجلس إدارة شركة القاهرة للأدوية نقلت إليها من وزارة الصحة بقرار من السلطات. لم أنتبه إلى الطرق على الباب، ولا إلى الشخص الذى دخل منه وتقدم فى الحجرة ليقف أمامه. سمعت صوتيهما وهما يتبادلان الكلام، فالتفت لأجده جالسا فى المقعد، حليق الذقن قمحى اللون، ملامحه مستقيمة تبدو أقرب إلى الشباب منها إلى الكهولة. كان يقول:

" يا دكتور "على". عندكم واحد اسمه الدكتور "شريف حتاتة" أظن؟"

هز الدكتور "على حجازى" ساقه بتلك الحركة العصبية التى اعتاد عليها. ارتعشت ملامحه فى ابتسامة سريعة ثم اعتلاها الجمود الذى يفرضها عليها عندما يريد أن ينفى علاقته بشىء يدور أمامه. أشار إلىّ بحركة من يده دون أن ينظر إلىّ.

" قاعد أدامى أهه يا سيدى."

قال الرجل:

" أنا جاى أفتح معاه محضر تحقيق بعد إذنك".

" اتفضل خد راحتك يا عم. عايز منى أنا حاجة؟"

" نقدر نقعد فين. فيه أوده ثانية عشان ما نزعجكش".

" وعشان إيه. ما تقعدوا على الترابيزة دى" مشيرا إلى منضدة الاجتماعات الموضوعة عند الطرف الآخر من الغرفة بعيدا عنه.

التفت إلى الرجل قائلا:

" ممكن نتنقل على الترابيزة دى يا "دكتور حتاتة"؟

قمنا ليجلس كل منا على ناحية من المنضدة. وضع حقيبته عليها وفحصنى لحظة كأنه يحاول أن يزن الشخص الجالس أمامه. فتح الحقيبة، وأخرج منها ملفا أصفر اللون، ورزمة من الورق المسطر. سحب قلما من جيبه الداخلى ثم قال فى صوت هادئ:

" يا دكتور "حتاتة". أنا آسف لكنى مكلف بالتحقيق معك فى موضوع يتعلق بعملك فى الشركة. لو سمحت اسمك بالكامل".

فحصته بدورى. عيناه صافيتان، وحول شفتيه المتلئتين قليلا ابتسامة خجولة. أصابع يديه طويلة هذب أظافرها بعناية. أحسست بنوع من الاطمئنان إليه. سألت:

" هل يمكن أن أتشرف باسم حضرتك، والصفة التى تحقق بها معى؟" بدا عليه شىء من الارتباك قبل أن يرد:

" اسمى "محمد عبيد"، وأنا موفد من الإدارة القانونية للمؤسسة".

من كلفك بالتحقيق؟"

"السيد "عبد المجيد فريد"[1] نائب رئيس المؤسسة".

"ما هو موضوع التحقيق".

"المقالات التى كتبتها فى جريدة "الأخبار" عن مسائل تتعلق بقطاع الدواء". أخرج رزمة من المقتطفات الصحفية كانت فى الملف ووضعها إلى جواره. لمحت الدماء تصعد إلى وجنتيه.

"وما المشكلة فى هذا؟"

" قانون العاملين يمنع الموظف الذى يعمل فى القطاع العام وشركاته من الكتابه فى أمور تتعلق بالمجال الذى يعمل فيه".

"هل تستطيع أن تطلعنى على النص؟"

أزاح بعض الأشياء الموضوعة فى الحقيبة جانبا، وأخرج من تحتها كتيبا غلافه أبيض أخذ يفر فى صفحاته ثم مده إلىَّ مفتوحا. أشار بإصبعه إلى أحد البنود. قرأته مرة ثم مرة ثانية قبل أن أعيده إليه.

"هذا النص لا ينطبق على."

كيف؟"

" النص يقول إنه لا يجوز لأحد العاملين الإدلاء ببيانات أو معلومات، أو إفشاء أسرار تتعلق بأعمال وظيفته. وأنا لم أكتب شيئا عن أعمال وظيفتى. أنا كتبت مقالات عن قطاع الدواء،

(١) غير عبدالمجيد فريد أمين عام الاتحاد الاشتراكى فى محافظة القاهرة.

والسياسة الدوائية فى شركاتها، عن حمايتها من محاولات الشركات الأجنبية للالتفاف حوله، والتسلل إليه، بهدف إعادة سيطرتها على سوق الدواء، وهذه كلها قضايا لا تتعلق بأعمال وظيفتى كرئيس لقسم التخطيط فى شركة القاهرة للأدوية."

صمت لحظة باحثا عن منفذ يدخل منه.

" لكنك كتبت مقالات عن السياسة الدوائية وهذا ممنوع وفقا للتعليمات الصادرة من المؤسسة".

أخرج ورقة من الملف كتبت على آلة طباعة رونيو. قرأتها. كانت منشورا صادرا من نائب رئيس المؤسسة يمنع العاملين فى قطاع الدواء من نشر مقالات أو كتابات تتعلق بصناعة الدواء أو توزيعه دون إذن مكتوب من رئيس أو نائب رئيس المؤسسة. قلت:

"هذا المنشور باطل قانونا لأنه يستند إلى نص قانون العاملين الذى أشرت أنت إليه. وهذا النص كما سبق أن قلت خاص بأعمال الوظيفة دون غيرها. المنشور تطبيق متعسف وخاطئ للقانون يهدف إلى إغلاق باب النقد للسياسات الدوائية التى تطبقها المؤسسة أو شركاتها وعدم الكشف عن نواحى النقص فيها. ومعناه إغلاق باب الكتابة فى الصحف أمام المختصين، وإباحة الكتابة فيه لكل الذين لا صلة لهم بموضوع الدواء، وهذا الكلام مضحك".

قال:

" يا دكتور شريف لا أستطيع لا أستطيع أن أكتب هذا الكلام".

" وأنا لا أستطيع أن أرد على أسئلتك إلا إذا وافقت على تسجيل كل ما أقوله فى محضر التحقيق".

" ماذا تقصد؟ هل أنت ممتنع عن التحقيق؟"

" لا لست ممتنعا. أنت ممتنع عن تسجيل ما أقوله. أنا أريد أن أثبت أن هذا التحقيق غير قانونى، وأن منشور السيد نائب رئيس مجلس الإدارة باطل، ولا يقوم على أى منطق. تستطيع أن تبلغه هذا الكلام، وتخلى مسئوليتك. وأرجو ألا تعتبر هذا الموقف ضدك أنت شخصيا".

قمنا من المنضدة. شددت على يده، وانصرفت عائدا إلى مكتبى. لا أعرف ما دار بينه وبين الدكتور "على حجازى" بعد أن تركتهما فلم يفتح الموضوع معى مرة أخرى، على الأقل فى الشركة.

مر أسبوعان أو ثلاثة دون أن يحدث شىء، ثم أبلغنى الدكتور "على حجازى" أن السيد "عبد المجيد فريد" يريد منى أن أتوجه إلى مكتبه صباح اليوم التالى للالتقاء به. قال:

" عايزك تمر عليه بكرة الساعة اتناشر".

ذهبت. أدخلنى السكرتير على الفور. وجدت أمامى رجلا طويل القامة، نحيل الجسم، شاحب البشرة كأنه لا يتعرض للشمس. شعره الأكرت الملتصق بالرأس فيه خصلة بيضاء، وشاربه رفيع يمتد فوق فم عريض وشفتين مضمومتين فى حزم. صوته وحركاته فيها نعومة، ونوع من التعالى أو البعد. عندما رأيت وجهه الشاحب تذكرت ما قيل عن إصابته بمرض فى القلب.

دخل فى الموضوع مباشرة دون أن يدعونى إلى الجلوس، أو يسألنى عن شىء كأنه يريد أن ينتهى منه فى أسرع وقت. قال إن نشر المقالات التى أكتبها عن قطاع الدواء يمكن أن يضر بمستقبلى، إنه مستاء من إقدامى على مثل هذا العمل إنه كان يمكن أن يوقع على عقابا، لكنه قرر أن يترك المسألة تمر، فكفانى ما عانيت. الإجراء الذى اتخذه بإرسال المحقق إلى هو بمثابة إنذار لأتوقف عن الكتابة حول مسائل تتعلق بسياسة الدواء.

استمعت إليه حتى انتهى من كلامه، ثم سألته:

" ما هو العقاب الذى يمكن أن توقعه على؟"

اختفت الابتسامة الخفيفة التى كانت تراود شفتيه وهو يحدثنى. قال:

" يمكن أن يصل إلى الفصل."

انتابنى إحساس بالمهانة إزاء الأسلوب الذى تحدث به إلىَّ. تعامل معى كما يتعامل مع صغار الموظفين فى مكتبه. لم يدعنى إلى الجلوس. يظهر العطف على ثم يُهددنى. كرهت فيه النعومة المتعالية لأصحاب السلطة، قررت أن أتحداه، أن أرد ما وجهه إلىَّ وأستريح من شعورى بالقهر. سألته:

"هل تعلم سيادتك أننى قضيت ثلاثة عشر عاما فى السجن؟ وهل تعتقد أن الفصل بالنسبة لشخص مثلى يمكن أن يؤثر فى موقفى؟

اعتدل فى جلسته وقال:" نحن حريصون على حماية صناعة الدواء مثلك يا دكتور بشريف" ولا داعى أن تدخل فى مثل هذه الصراعات. هذه المرة سأعتبر الموضوع كأن لم يكن.

قلت :

"إذن يمكن أن أستأذن" وخرجت مغلقا الباب ورائى.

قضت ثورة يوليو على الحيوية الفكرية، والقدرات الإبداعية فى الكثيرين من المثقفين الذين ظهروا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مع موجة الحركة الوطنية الصاعدة ضد الاستعمار، أو إذا أردنا الدقة سمح هؤلاء المثقفون لثورة يوليو بأن تخنق فيهم روح الاستقلال فى القول والفكر. القلة هى التى قاومت، ورفضت، أما الأغلبية فقد استأنستهم. حاصرتهم فى نطاقها،

فى نطاق الأهداف التى حددتها، والتى فرضت عليهم ألا يخرجوا عنها. لكن هذه الأهداف كثيرا ما تأرجحت فى السعى إليها فخلقت جوا من الانتهازية. ضاعف هذا التأرجح من حرص الناس وشل مبادراتهم خوفا من أضرار ليست هينة يمكن أن تصيبهم. منعت كشف أوجه الفساد التى تسللت إليها. ظلت السلطات المهيمنة على مسار الثورة تطرقع الكرباج حتى يحنى الناس رءوسهم، أو تهوى به عليهم. لم تستطع أن تفلت من هذا المنطق طوال مسارها إلى أن تجمعت قوى الثورة المضادة لتنقض عليها.

كان الطريق المعادى للديمقراطية الذى سلكته نتيجة للظروف التى أحاطت بها، لسيطرة البورجوازية الجديدة التى ترعرعت فى القطاع العام، وكان لطبيعتها العسكرية دور مهم فى تشكيل آفاقها الفكرية والسياسية. جسدها عبد الناصر بما كان فيه من تقدم، وتخلف رغم أنه كان أكثر وعيا وحكمة من زملائه فى حركة الضباط الأحرار، وأكثرهم إحساسا بالشعب. مع ذلك عجز عن رؤية أشياء كان يمكن أن تحمى الثورة، وتوسع آفاقها إلى أن وقع فى الفخ الذى نصب له سنة ١٩٦٧ ليكتشف متأخرا أن القوى المضادة للثورة نمت وترعرعت ثم ترك لنا السادات ليقود الردة باسم الانفتاح والسلام والديمقراطية التعددية والرفاهية تأتى بها رءوس الأموال الأجنبية وأصدقاؤها من الغرب.

جاء موعد انتخابات نقابة الأطباء حدد لها شهر أبريل سنه ١٩٦٩ فشرعت الأطراف المتنافسة فى الإعداد لها. كان الاتحاد الاشتراكى يعد لقائمة يضمن بها السيطرة على النقابة العامة والنقابات الفرعية فى القاهرة، والإسكندرية، ومدن القناة والأقاليم، وعندما اقترب الميعاد المحدد لإجرائها دعت أمانة القاهرة فى الاتحاد الاشتراكى إلى اجتماع يضم عددًا كبيرًا من الأطباء والطبيبات فى مقرها بشارع صبرى أبو علم.

وصلنا إليه "نوال" وأنا فى حوالى الساعة العاشرة صباحا. أتذكر أن اليوم كان مشمسا والجو جميل، وأننى كنت مقبلا على الاجتماع يراودنى الأمل الخفى فى أن أكون بين المرشحين فى القائمة. لم أفتح هذا الموضوع مع أحد. كانت أول تجربة لى فى الانتخابات وكنت أجهل أبسط القواعد المتعلقة بها، والألاعيب التى تمارس فى ظلها. لذلك كنت هادئا لا يشغلنى سوى التطلع إلى المناقشات التى ستدور فى هذه الجلسة.

صعدنا السلالم إلى الدور الأول. وجدنا بابا مفتوحا سبقنا إليه الآخرون فتبعناهم إلى صالة واسعة نوافذها كبيرة وجدرانها مبطنة بالخشب. حولها صفت مقاعد، وآرائك من الجلد، وبعض المناضد الصغيرة عليها طفايات للسجائر. على الأرض سجادة كبيرة ألوانها داكنة. السقف يرتفع عاليا ويتدلى منه النجف المضاء رغم أشعات الشمس كانت تدخل إليها.

لم نجد مقعدين متجاورين فجلس كل منا فى مكان بعيد عن الآخر. بعد قليل خرج الدكتور "إبراهيم الشربينى" من إحدى الحجرات. توقف عند بابها ثم نادى على الجالسين والواقفين فى الصالة قائلا:

" يالله يا سادة تفضلوا الاجتماع".

اندفع الموجودون نحو الباب بتلك الحركة المتوترة التى يقبل بها الناس على أصحاب السلطة. وقفت منتظرا حتى يخف الزحام. عندما وصلت إلى حيث كان يقف "إبراهيم الشربينى" مال بجسمه إلى الأمام ليسد جزءا من فتحة الباب ثم همس بصوت يكاد لا يسمع:

" يا دكتور شريف أنت مش مدعو لحضور الاجتماع ده".

صدمت بهذا القول غير المتوقع. وقفت حيث أنا صامتا لا أعرف كيف أتصرف إزاءه ثم سألته:

" ليه".

قال:

" هذه تعليمات السيد "عبد المجيد فريد"(١) أمين القاهرة".

قلت:

" طيب ليه أنا بالذات"؟

كان ينظر إلى الأرض طوال الحديث القصير الذى دار بيننا.

قال:

" ما أعرفش. لكن ما دام دى تعليماته ما أقدرش أدخلك ".

كنت لا أزال تحت وطأة المفاجأة. ماذا أفعل؟ إذا طلبت مقابلة "عبد المجيد فريد" سيرفض بحجة انشغاله فيزيد الضيق الذى أشعر به. لا أريد أن ينتبه الآخرون إلى ما حدث حتى لا أبدو حريصا على حضور الاجتماع. لم يبق لى إذن سوى أن انصرف.

تراجعت فى الصالة لأجد "نوال" جالسة مكانها. أحست من التعبير على وجهى أنه حدث شىء. فسألتنى:

" أيه. هو حصل حاجة؟

(١) أمين عام الاتحاد الاشتراكى بالقاهرة وأحد العناصر القيادية المهمة فى ذلك الوقت.

قلت:

"منعنى "الشربينى" من دخول الاجتماع. بيقول إنها تعليمات "عبد المجيد فريد".

أحسست بها تشتعل بالغضب. برقت عيناها ببريق منذر. سكتت لحظة كأنها تتمالك ثم قالت:

"وأنا كمان مش حأدخل. دول ناس ما يستهلوش إن الواحد يعبرهم. ياللا بينا. الجو بره جميل. تعال ندور على حته نقعد فيها فى الشمس أحسن من تضييع وقتنا فى اجتماعاتهم المقرفة".

امسكت بذراعى وهبطنا السلم. سرنا فى الشارع. أشعر بأصابعها تضغط مشجعة. أسمعها تقول:

" ما تزعلش نفسك. أنت مش موظف فى الاتحاد الاشتراكى علشان تجرى زى دول ما بيجروا كل ما واحد من المسئولين يشاور لهم. إنت لك تاريخ ولازم تحس إنك مختلف".

رنت كلماتها فى أذنى. كنت أشعر أننى مختلف ولكن كثيرا ما كنت أتشكك فى هذا الإحساس، فلم يقل لى أحد شيئا من هذا القبيل. ربما أمى وهى تمسك بأصابعى بين يديها قائلة" هذه أصابع فنان أو جراح ماهر" أو عندما كنت أعود من المدرسة حاملا شهادة الدرجات فى آخر السنة. أرى البريق فى عينيها كالوهج فى البحر الأزرق. أما أقرانى فى المدرسة أو الكلية، أما الأساتذة، أما القادة الذين أرادوا أن يتزعموا، فلم يقل منهم أحد أننى مختلف. بثوا فى الإحساس أننى عادى، عاجز عن العطاء المتميز. لم أدرك قبلها مدى السحر الذى يكمن فى كلمة "مختلف"، مدى القوة الكامنة فى الرغبة المنفردة للإبداع فى الفن أو العلم، أو العمل.

هل أنا مختلف؟ أحيانا أتساءل. كل ما أعرفه هو أننى لم أنل أى لقب. لم يصفنى أحد بالكاتب أو المفكر الكبير، أو المثقف الألمعى. أننى لم أشارك فى الزفة، أو أتطلع إلى الجوائز. أحيانا الصدفة تسوق إلى رجلا أو امرأة، شخصا لم أره، أو لم يتصل بى منذ سنين ، أو غريبا عنى سائر فى الشارع يتعرف على من صورة نشرت فى الصحف. يستوقفنى ويقول "قرأت لك كتابك، كم هو رائع"، ويحدثنى عن تفاصيل فيه. أو تأتينى مكالمة تلفونية عن مقال نشرته. يقول صاحبها "أنا أتتبعك منذ زمن. فى كلامك نبض الحياة وصدقها. أنت مختلف". فى الماضى كنت أكتفى بقول أشكرك. أشكرك. لكن الآن يطول الحديث. أتركه يتفرع. أنهل منه وأتغذى به. أطفئ ظمئى إلى الشعور بأننى نجحت دون أن أنحن. لم أجار أمواج الزيف، أو صراخ الصحف، أو هرولة المثقفين إلى كلام يستقونه من الكتب، أو الصحف الأجنبية أو قنوات الفضاء، تحت اسم العصرية والتطور، فأنا أريد أن أقول كلامى البسيط. أن أمد يدى للذين جردوا من الأسلحة. فما أجمل أن أسمع "نوال" وهى تقول : "أنت مختلف".

عرفت فيما بعد أن "عبد المجيد فريد" أبلغ "إبراهيم الشربينى" أنهم لا يريدون "هذا الشيوعى" فى النقابة. وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى. دخلت إلى الحوش من الباب الحديدى المطل على شارع مجلس الأمة سائرا على قدمى. وجدت "إبراهيم الشربينى". و"عبد الغفار خلاف"، يقفان قرب السلم الرخامى الذى يصعد إلى المدخل. أقبلت عليهم وفى نيتى أن أحييهما، وأتحدث معهما، ولكن عندما اقتربت وقعت أنظار "عبد الغفار خلاف" على، فأدار وجهه، وتظاهر بالاستغراق فى الحديث. لمحت عيونهما وهى تتحرك بحركة جانبية تفصل بينى وبينهم. أحسست بشىء كالطعنة. هؤلاء هم أصدقائى. عملنا سويا فى النقابة. ضحكنا، وغضبنا، وسهرنا الليالى لننجز العمل. جمعنا شعور من يربطهم جهد مشترك، وأهداف يسعون إلى تحقيقها. والآن لمجرد أن "عبد المجيد فريد" منعنى من حضور الاجتماع مستخدما كلمة " شيوعى" تغير كل شىء. استفادوا من جهودى والآن لفظونى، كأننى جسم غريب تسلل إلى صفوفهم.

غيرت اتجاهى لأبتعد عنهم، وصعدت السلالم من الناحية الأخرى. اختلط الألم، بالغضب. إنهم بلا شهامة وبلا خلق. كل ما يقولونه عن الاشتراكية، والثورة ليست سوى ألفاظ هم على استعداد للتخلى عنها عند أول خطر. أنا وهم كالمياه والزيت لا يمكن أن نختلط. دخلت حجرتى وجلست على الكنبة مغلقا الباب ورائى. الحجرة تحاصرنى وتضغط على أنفاسى. كرهت هذا المكان وكل من فيه. أريد أن أنطلق، أن أتركه ورائى إلى الأبد. خرجت مندفعا من الباب، وهبطت السلالم بقفزات سريعة. أريد أن أمشى، وأمشى إلى ما لا نهاية وأن أفكر فيما جرى. هذه الصفعة لابد أن أردها، ولكن كيف؟ كيف أواجه هذه السلطة تشيع الخوف من حولها، تحاصرنى، وتطاردنى فى كل خطوة.

سرت فوق الرصيف دون أن أعرف أين أنا سائر. وجدت نفسى عند كوبرى الجيزة. نظرت إلى الساعة فى معصمى قاربت على الواحدة. لا أستطيع أن أتجول بلا نهاية. سأجلس قليلا على "مقهى السلام" أو الأفضل أن أعود إلى البيت. لن أجد أحدا هناك وهذه الفكرة تريحنى. أريد أن أكون وحدى، ألا أتحدث مع أحد. كراهيتى تتحول إلى كل الناس. تأكلنى المرارة التى لا منطق لها.

حملنى المصعد إلى الدور الخامس. أسمع أزيزه المتهالك وهو يرتفع. مساحة الأحذية امام بابنا قديمة ممزقة والشقة تبدو بائسة. كل شىء فيها يتآكل. أجلس على السرير. عقلى يطن بالأفكار، وصدرى بالأحاسيس المتضاربة. حياتى كلها فشل. أنا المناضل يفعلون بى ما يريدون. فى السجن على الأقل كنت أقاوم، كنت مشدودا كالوتر. أما الآن... منذ أن خرجت يوجهون إلى الضربات. لا أحد يدافع عنى سوى "نوال"، وهذا يرضينى أحيانا، وأحيانا يحز فى نفسى فكأننى أصبحت عاجزا.

سمعت المفتاح فى الباب، وخطوات "منى" تدخل فى حجرتها لتضع حقيبتها فى مكانها، وتستبدل ثيابها. أنكمش فى مكانى. لا أريد أن أقابل أحدا. ثم دخلت "نوال" إلى الحجرة. وجدتنى جالسا على السرير بملابسى كأننى حضرت منذ لحظة. أتفادى النظر إليها، وأظل صامتا.

سمعتها تقول بصوتها المرح:

" الله. أنت هنا من إمتى يا شريف. كويس إنك جيت بدرى شوية. النهاردة الخميس و"منى" خرجت من المدرسة الساعة واحدة ونص. مالك قاعد كده كأن الدنيا اتطربقت."

أشعر بها تتفحصنى فيمتلكنى الخجل. لكن اليأس الذى أعانى منه أقوى فلا أتظاهر حتى بالمقاومة.

"أنت جيت إمتى؟"

" من ساعة تقريبا".

" طب ما تقوم تقلع، وترتاح على ما حضر لقمة. أنا حاسخن وأحضر السفرة ".

خلعت ثيابى. وضعت أشيائى فى مكانها. فى أحلك الظروف لا أنسى أن أعلق سترتى، وبنطلونى على الشماعة، أن أضع جرابى وقميصى فى سبت الغسيل، وحذائى فى رف الأحذية كأن هذا التكرار الصارم يعيد إلى التوازن ويبدد التوتر الموجود فى أعماقى. يُشعرنى أن الحياة مستمرة فى نظامها. أتعلق بالتوافه عندما يكون عقلى تائها.

جلسنا على المائدة نتناول طعام الغداء. لم أحك لـ"نوال" ما حدث فى الصباح. آكل فى صمت وذهنى شارد. ما زلت أجتر منظر زميلىَّ وهما واقفان فى الحوش يديران وجهيهما بعيدا عنى، بينما توقفت شفاههما عن نطق الكلام. قالت فجأة:

" حاتقعد كده ساكت على طول؟ ما تقول حاجة. إنت لسه بتفكر فى حكاية "عبد المجيد فريد" والاتحاد الاشتراكى. هم يعنى قفلوا فى وشك باب الجنة. حاتفضل تجرى وراهم لحد إمتى؟"

" أنا ما بجريش ورا حد. ما بلاش الكلام ده يا " نوال" . أنا عايز أعمل حاجة، وكل ما أتحرك يسدوا السكة قدامى".

" ما احنا عارفين ده. هم مش عايزين حد ينشط إلا اللى يكون تبعهم. وما بيخرجش عن الحدود اللى يرسموها له خطوة واحدة."

"هو أنا خرجت عن الحدود. أنا بأشتغل فى إطار الاتحاد الاشتراكى والنقابة".

"ما هو تشتغل آه. إنما تترشح فى قائمة الاتحاد الاشتراكى لا. يستخدموك إنما لازم تفضل باستمرار كده فى الركن اللى هم عايزينه. مش حايسيبوك تستفيد من الاتحاد الاشتراكى عشان تبقى عضو مجلس نقابة ويبقالك وضع تتكلم منه. إنت شيوعى. عايزهم يرشحوا شيوعى؟ مش عارف أنهم بيكرهوا الشيوعيين؟"

" أمال ليه فيه شيوعيين تانيين صعدوا فى الجرائد وخدوا مسئوليات وطلعوا فوق فى تنظيمات؟ اشمعنى أنا يعنى. ما عنديش كفاءات. ماحى؟!

" ما أعرفش؟ أنت بتاع السياسة مفروض تعرف. يمكن "إسماعيل صبرى"، و" فؤاد مرسى"، و"محمود العالم" وغيرهم عندهم مداخل، أنت أصلك صامت. ما بتعرفش تحليط، وتأخد بالحضن، وتبوس زى غيرك. مش داخل فى المجتمع المصرى. دى بلد علاقات".

"يعنى لازم أبوس" عبد المجيد فريد". ما أقدرش. لو موتونى ما أقدرش أبوسه".

ضحكتها ترن فى جنبات الصالة.

" ما هى دى أحسن حاجة فيك. لو كنت بواس زيهم ما كنتش اتجوزتك. ما تقعدش كل شوية تشك فى نفسك. أنت اخترت طريقك إمشى فيه. لك تاريخ وضحيت عشان الاشتراكية اللى بيتكلموا عنها. خليك مختلف علشان تقول اللى غيرك ما يقدرش يقوله".

" طب ما أنا ما بأقولش حاجة".

" إيه اللى حايشك. اكتب يا "شريف"."

" إنت كاتبة، ودى حياتك ومستقبلك. أنا مش كاتب".

" مين قال. ما إنت كتبت رواية أهه"؟

" ما هى لسه فى درج المكتب ما اتنشرتش".

" حتتنشر. ما تستعجلش. وإذا كنت مصراً على السياسة خليك فيها بطريقتك. إنت فاكر اللى زيك خدوهم فى الحتت اللى هم فيها من غير ما يدفعوا ثمن، من غير ما يعملوا حاجات إنت رافضها، أو ما تقدرش تعملها، أو استحملوا حاجات أنت ما ترضاش تستحملها؟

" ما هى السياسة كده".

" علشان كده أنا ما ليش فى السياسة ومش عايزاها. ثم اللى عايز يعمل حاجة لها قيمة ما يقدرش يبقى نص نص. خليك ما شى دوغرى. يعنى حتخسر إيه؟"

طب ما إنتى يا "نوال" ساعات تقولى كنت مشيت بطريقة تانية واتصالحت مع السلطة كنت بقيت فى القمة".

" لما بأقول كده مابيقاش أنا "نوال". بأبقى واحدة تانية لكن بعد كده بارجع لنفسى".

" يعنى نعمل إيه دلوقتى؟"

" أنا ما عنديش مشكلة. أنا مش عايزة أدخل فى القائمة بتاعتهم. حتنقصنى مش حتزودنى. أنا نازلة الانتخابات ومش عايزة قائمة السلطة عشان تسندنى ولا عشان أستخبا فيها. الأطباء عارفنى. دانا الوحيدة اللى انتخبت من النقابة لمؤتمر القوى الشعبية سنة ١٩٦٢".

تبرق عيناها وهى تتذكر. تتدفق حماسا كالفيضان يكتسح. أستمع إليها وهى تتذكر مرة أخرى.

" لمّا جم يعرفوا العامل والفلاح قلت الفلاح هو اللى بوله أحمر(١) . اللى بولهم أبيض هم الملاك. طبعا مفيش حد عجبه الكلام ده وكانت النتيجة أن اللى دخلوا مجلس الشعب كانوا لابسين جلاليب وطقيان لكن ما كانوش فلاحين فقراء. كان لازم يكشفوا على بولهم قبل ما يدخلوا البرلمان".

تبتسم فى سعادة لهذه الذكرى.

" بعد كده فتحوا لى ملف فى المخابرات العامة. اللى ألعن من كده إنى اتجوزتك ومن يومها وهم ورايا. لكن أنا فى الانتخابات حاخد أعلى الأصوات. الأطباء كلهم يعرفونى، وكمان أنا نازلة تحت الخمستاشر سنة ومفيش حد حيقدر ينافسنى".

أنظر إليها فى حسد، لكن كلامها يشجعنى. ماذا لو رشحت نفسى أنا أيضا؟ ربما سقطت ولكن المهم هو التحدى.

قلت:

وأنا كمان حأنزل الانتخابات، لكن على مستوى نقابة القاهرة. مش حأقدر أنزل على مستوى الجمهورية وتبقى عندى فرصة للنجاح".

" أهو كده نوزع الأدوار حسب ظروف كل واحد".

شعرت بالراحة. لن أقف مكتوف الأيدى. أخذ ذهنى يتوقد، ويفكر فى الخطوات التى يجب أن أتخذها. تنظر إلىَّ بذلك الإشراق الذى يشع منها كلما وجدت نفسها مقبلة على معركة. تتملكها ثقة مطلقة فى الانتصار. الفشل لا يخطر على بالها. تمتد يدها إلىَّ وتسألنى.

" هه كده مرتاح؟"

---

(١) نتيجة شيوع الإصابة بدودة البلهارسيا.

قلت:

" أيوه مرتاح وبأفكر إيه اللى نقدر نعمله فى الإعداد للانتخابات".

" طب تعالى نفكر سوا. أنا وأنت مع بعض مش هينين. بكره تشوف إن كلامى حيطلع صح، وأننا إحنا الاثنين حننجح، وأن أنا حاخد أعلى الأصوات، أصل اللى عاملين قادة دول ما بيشفوش إلا نفسهم."

أجلس فى قطار الليل القشاش. أطل من النافذة على المحطة تبدو وكأنها قفص من الزجاج له ضلوع حديدية زادها الدخان سوادا فوق سوادها. ألمح الناس يسيرون ببطء على الرصيف تضىء وجوههم زرقة الأنوار الفلوريسنت المتناثرة كأن الزمن كاد أن يتوقف فى هذا العالم المسكون بالأشباح تسبح فى نصف الظلام، تظهر وتختفى كالومضة تحت الأنوار قبل أن تتوارى فى مكان ما من القفص. من خلال النافذة ألمح رجلا يرقد على دكة من الخشب. عيناه مفتوحتان يطل منهما على سقف المحطة كأنه استيقظ منذ لحظات، وأخذ يلملم شتات نفسه، كأنه تعود هذه الدكة يرقد عليها لينام، فهذه هى دنياه ألفها، واستراح إليها، لا يملك فيها إلا كيسا من التيل الأسمر يحتوى ممتلكاته وضعه تحت رأسه.

أجلس فى عربة الدرجة الثالثة وسط الزحام، وسط رجال، ونساء، وأطفال، وأقفاص، وأمتعة، و"غلقان"، تغطى الدكك، والممرات. أسمع شخيرا، وسعالا، وبكاء طفلة استيقظت منذ لحظات وأخذت تصرخ بأعلى صوتها. أستنشق رائحة حلبة، وبصل، ودخان. أصابع قدمى فى الحذاء باردة، وجسمى يتوق إلى كوب من الشاى، لكنى لا أشعر بالضيق أو التوتر. تخلصت من الفاصل الذى عزلنى عن الناس. عدت إلى الحياة الخشنة، والتجول فى الأرياف فوجدت نفسى التى أحببتها. أصبحت أنتقل من قطار إلى قطار. آكل سندوتشات الفول طعمها لذيذ، وحاد، وأحتسى، أكوابا من الشاى فى المقاهى، والمحطات. أشعر بالإرادة، والإصرار، والقوة.

بعد أن تحددت قائمة الاتحاد الاشتراكى قام المسئولون بتنظيم سلسلة من الاجتماعات فى الأقاليم ليلتقى المرشحون بجماهير الأطباء. لم يخطرنا أحد بمواعيدها حتى ينفردوا وحدهم بهذه الإمكانيات. أخفوا الترتيبات عنا لكن عرفناها من أحد موظفى النقابة قامت بينه وبيننا علاقة فيها ود، ففوجئوا بنا نحضر الاجتماعات.

كان المرشحون فى القائمة يسافرون فى الدرجة الأولى على نفقة الاتحاد الاشتراكى. ينامون فى استراحات الحكومة ملء جفونهم، يأكلون فيها الوجبات المعدة لهم. فى أغلب المحافظات كانت تقام لهم الولائم يحضرها المحافظون، وأمناء الاتحاد الاشتراكى، والمسئولون فى مديريات الصحة، ورؤساء النقابات الفرعية وسكرتيروها. أما أنا و"نوال" فكنا نصرف من جيوبنا على كل النشاط الانتخابى الخاص بنا، على المنشورات، وعلى البرنامج الذى أصدرناه، على تذاكر السفر فى قطارات الدرجة الثالثة، ومصاريف المبيت فى فنادق المدن التى نهبط فيها وذلك رغم الظروف المالية الصعبة التى كنا نمر بها.

كنت مسافرا إلى "المنيا" سبقتنى إليها "نوال" بعد أن رتبت لها إحدى صديقاتها مبيتا فى استراحة الرمد. قررت أن أستقل القطار الذى يصل إليها فى الصباح لأوفر نفقات المبيت فى أحد فنادق المدينة، وأتفادى عذاب الحشرات التى كانت تنهش جسمى طوال ساعات الليل، فضلا عن الصراصير، ورائحة المراحيض الزاحفة على.

وصلت محطة "المنيا" بعد الفجر بقليل. كان معى عنوان استراحة الرمد وطريقة الوصول إليها. خرجت إلى ميدان المحطة مع عدد من الناس هبطوا من القطار. بعد قليل وجدت نفسى سائرا وحدى. أخرجت من الحقيبة الجلدية التى كنت أحملها معى الرسم الكروكى الذى تركته لى "نوال". أطلعت عليه ثم انحرفت فى أحد الشوارع. سرت على مهل مستمتعا بالمدينة الخالية، لكن بالتدريج أخذ الناس يهبطون من المنازل. سألت أحدهم عن مكان الاستراحة فأعطانى وصفا دقيقا لطريق الوصول إليه. أدركت أننى لست بعيدا عنه. بعد قليل وصلت إلى مبنى لونه أصفر يرتفع إلى ثلاثة أو أربعة أدوار أخذت أشعة الشمس الأولى تسقط عليه.

كان الباب الخارجى مغلقا، وكذلك السواتر الخشبية فوقفت حائرا. "نوال" فى الداخل لكنى لا أستطيع أن أقرع الباب على النائمين، خصوصا أن الاستراحة مخصصة للطبيبات، ولا يوجد على الأرجح رجال من العاملين يبيتون فيها.

قررت أن أتنزه قليلا ثم أعود. فالمدينة جميلة تذكرنى بالمنصورة، تمتد على شاطئ النيل. السماء صافية والشمس بدأت تسطع. بعد المسافة التى قطعتها من المحطة أشعر بجسمى نشيطا، مشدودا، وبالعروق تنبض. ربما وجدت مكانا أتناول فيه سندوتشا من الفول أو الطعمية، وكوبا من الشاى بالحليب. لعابى بدأ يسيل. رفعت رأسى باحثًا مرة أخرى عن نافذة فتحت سواترها ففوجئت "بنوال" تطل من أعلى وكأنها أحست بقدومى. لمحت البريق فى عينيها، والدماء تجرى فى خديها كالطفلة استيقظت من نومها. ضحكاتها تسقط من أعلى كالشلال كأن شيئا فى وقفتى يثير المرح، سمعتها تقول:

" أنت وصلت يا شريف.؟ حمد الله على السلامة. واقف بقالك كثير؟ أنا حالبس حاجة وأنزل أفتح لك الباب عشان تستريح شوية. أنت لازم تعبان".

" لا. مش تعبان يا "نوال". وما أقدرش أطلع فى استراحة الطبيبات والساعة لسه ستة إلا ربع".

" هو يعنى حد حيشوفك؟ دا كلهم لسه نايمين".

" معلش. حا ألف لفة وأرجعلك".

" لا خليك. أنا حالبس بسرعة، وأنزلك. لكن أنت لازم اتهلكت فى القطر. ما تطلع تستريح شوية على السرير بتاعى. اسمع كلامى"!!

" مقدرش يا "نوال". هو احنا حنفضل نتكلم كده وأنا واقف فى الشارع. الناس حيقولوا علينا أيه؟"

" ما يقولوا اللى يقولوه. تقولش بنرتكب جريمة. إحنا روميو وجوليت. أنا واقفة فى الشباك وأنت فى الشارع بتغازلنى".

" رميو وجوليت الساعة ستة الصبح؟"

أسمعها تضحك من جديد.

" وماله. طب خمس دقائق وحتلاقينى نزلت".

انتظرت حتى هبطت وفى يدها حقيبة السفر الصغيرة تحتوى احتياجاتها. وضعت يدى على كتفها وسرنا. قالت:

"الله الجو حلو ما تيجى نتمشى فى البلد شوية. لسه بدرى على الاجتماع، والنهاردة الجمعة. أنت فطرت؟"

" لا، أبدا. ومت من الجوع".

" تحب ندور على حتة نفطر فيها. أنا كان عندى جبنة وعيش بس كلتهم فى العشاء. يمكن نلاقى محل فاتح على النيل. يا سلام على طبق فول وكباية شاى فى الشمس جنب الميه!!.

" ما فتكرش حنلاقى حد فاتح دلوقتى".

" تعالى بس ندور. ما تقولش مش حنلاقى. إش عرفك؟"

" طب ندور. إنت عارفة مكان الاجتماع؟"

" طبعا سألت إمبارح لما جيت وعرفته. ممكن نفضل قريبين منه".

تناولنا الإفطار فى مطعم صغير فتح أبوابه مبكرا ليبيع لبعض المشترين. الناس ينظرون إلينا من طرف خفى فمنظرنا يبدو غريبا بالنسبة إليهم، ثم توجهنا إلى مكان الاجتماع فى الساعة العاشرة والنصف بعد أن تجولنا فى المدينة، وجلسنا على دكه عند النيل.

عندما وصلنا إلى قاعة الاجتماعات الكبيرة كان مرشحو القائمة قد احتلوا أماكنهم على المنصة خلف منضدة طويلة مغطاة بالجوخ الأخضر. كان من بينهم الدكتور أحمد كامل مازن وكيل وزارة الصحة و"أحمد أبو ذكرى" الجراح المعروف، و"إبراهيم الشريبى"، و"محمد راغب دويدار" الذى أصبح فيما بعد وزيرًا للصحة فى عهد "مبارك"، و"عبد الغفار خلاف"، و"حمدى السيد" (عضو مجلس الشعب، ونقيب الأطباء)، و"إبراهيم بدران" الجراح ووزير الصحة فى عهد "السادات"، و"فتحى خليل" و"حلمى الحديدى" (أصبح أيضا وزيرًا للصحة فى عهد "السادات") وغيرهم.

دخلنا بعد أن بدأ الاجتماع بمدة قصيرة، وجلسنا فى الصفوف الخلفية نستمع إلى الخطب المعتادة التى تلقى فى مثل هذه المناسبة بما تحتوى عليه من وعود مختلفة خاصة بالمعاشات، وعلاج الأطباء، وقانون للنقابة جديد.

عندما انتهت وقفت "نوال" وطلبت الكلمة. لمحت عيون بعض الجالسين خلف المنضدة تتفادى النظر إليها، وشحوبا خفيفا متوترا يزحف على ملامحهم. ركزت كلمتها على أسلوب الانتخابات، على القائمة الرسمية التى وقف وراءها الاتحاد الاشتراكى بكل ثقله، وجند لها أجهزة الدولة، وإمكانياتها، فوفر لمرشحيها سبل السفر، والمبيت فى مختلف المدن، وحشد لها الأنصار، ووسائل الانتقال، ونظم لها حفلات الاستقبال، والولائم يحضرها المحافظون، وأمناء الاتحاد الاشتراكى، والمسئولون عن الحكم المحلى، ومديرو مديريات الصحة، والصحافة، كما ضمن لهم مساندة كبار المسئولين فى الأقاليم المختلفة، فكيف نتحدث عن الانتخابات الحرة، وإرادة الأطباء، والديمقراطية بعد كل الضغوط التى يُمارسها الاتحاد الاشتراكى، ومختلف الأجهزة المركزية والمحلية؟. إن الانتخابات بهذه الطريقة ليست انتخابات وإنما تعيين باسم الانتخابات.

بعد أن ألقت كلمتها سادت لحظة صمت طويلة فى الصالة المزدحمة بالأطباء كأنهم كتموا أنفاسهم ثم تفجر تصفيقهم. مست وترا حساسا فيهم، فقد أحسوا أنهم سُلبوا حقا من حقوقهم، سُلبوا فرصة التعبير عن آرائهم. كانت تتحدث بصوت هادئ مقنع يرن فى جنبات الصالة بصدقه، وباقتناعها صبته فى كلامها فأثرت فى الحاضرين والحاضرات. انتقدت جهازًا أصبح مكروها لأنه فرض تسلطه على الناس، ولم يعد يعبر عن مصالحهم، وإنما عن مصالح المستفيدين منه، والمسيطرين عليه، عن تطلعات طبقة انتهازية جديدة نبت، وترعرعت فى ظل الثورة.

تحدثت بعدها. قلت إن كل محاولة لكى يساق الناس بالسلطة وحدها، وليس بالاقتناع لن تُغير شيئا لأن الناس هم الذين يُغيرون الأشياء، القرارات المفروضة تبدل ظاهر الأمور ويظل ما تحتها فاسدا. إننا فى حاجة إلى حرية الرأى، إلى حوار واسع بين الأطباء عن مستقبل المهنة، وحقوق الأطباء فى ظل الأوضاع الجديدة وعن التطور الحادث فى الخدمات الصحية. لذلك أتقدم باقتراحات تشمل بعض هذه النقاط. لقد زاد عدد الأطباء وعلى الأخص الصغار منهم لكن تمثيلهم فى النقابة لا يعكس هذه الأعداد مما يترك السيطرة فيها للكبار. لابد من تغيير قانون النقابة. يجب أن نهتم بتغيير مناهج التعليم الطبى لتدخل فيها أبعاد ظلت غائبة، منها البعد الاجتماعى لمهنة الطب الذى يتعامل مع البيئة، والظروف الاقتصادية، والمعيشية للناس، وللتجمعات السكانية فى المدينة والريف، ويعطى أولوية للوقاية من المرض والتثقيف الصحى حتى يدرك الناس وسائل حماية أنفسهم. أن يتم تطوير العلاقات بين الأطباء والفئات الأخرى

العاملة فى مجال الصحة مثل الحكيمات، والممرضات، وأخصائيى المعامل، والأشعة والعلاج الطبيعى، أى المهن الفنية المساعدة حتى يتكون الفريق الطبى الفعال فى كل منشآت الصحة.

هكذا تتبعناهم من اجتماع إلى اجتماع، ومن مدينة إلى مدينة. أسوان، وقنا، أسيوط، سوهاج، المنيا، بنى سويف، الجيزة، ثم بنها، وطنطا، ودمنهور، والإسكندرية فضلا عن اجتماعات القاهرة.

جاء يوم الانتخابات، وتدفق الأطباء على مبنى النقابة فى شارع القصر العينى حتى ملئوا قاعة المؤتمرات الواسعة. قضينا اليوم فى النقابة إلى أن تم فرز الأصوات. أعلنت النتيجة. نجحت "نوال" على مستوى الجمهورية بأعلى الأصوات. تفوقت على النقيب "عبد الوهاب شكرى" بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين صوتا. أما أنا فقد نجحت فى نقابة القاهرة.

الفصل العشرون

خمسة وعشرون قرشا

المسافة بين طنطا وقريتى ثلاثة وعشرون كيلو مترا يجتازها قطار الدلتا فى ثلاث ساعات أو أكثر. فى قديم الزمان كنت أستقله فى طنطا قرب الساعة الحادية عشرة لأصل إلى "بسيون" فى الثانية والنصف إذا سارت الأمور كما يجب أن تسير. لكن أحيانا يتأخر فى القيام، أو تقابله العراقيل، والعراقيل كانت كثيرة ومتنوعة تبدأ بخلل فى القضبان، أو سقوط فى الأرض تحتها، وتنتهى بحمار لا يريد أن يتزحزح عن مكانه فوق السكة الحديد، أو سائق قرر أن يشرب الشاى مع قريبه تحت شجرة فى الغيط فضلا عن الأعطاب التى يمكن أن تصيب القاطرة نفسها.

كنت أحب ركوب قطار الدلتا رغم زحفه البطىء وفترات توقفه الطويلة عند القرى التى يمر بها: " محلة "روح"، و"برما" التى "تباع فيها الكتاكيت فنشأ القول "هى حسبة برما يا أخى" و"كفر الحداد"، و" كفر سليمان"، و" قرانشو" وهو اسم فرعونى قديم ثم "بسيون".

القطار مفتوح على الجانبين مثل عربات الترام القديمة. فى كل عربة مقصورة واحدة مخصصة للأعيان والحريم. كنت أفضل الجزء المفتوح. أجلس على الدكة الخشبية كأننى فى سفينة تشق الحقول. أتأمل الأرض السمراء، والمساحات الخضراء، والمياه تجرى فى القنوات بين الخطوط، داكنة أحيانا، أو لامعة فى الشمس ذهبية أو وردية اللون. تأتينى الرائحة الحادة للحطب المشتعل فى الأفران، للروث، والجاموس، للأرض يقلبها المحراث، للعرق فى الأجسام.

القطار متقلب المزاج. أحيانا ينطلق كالحصان أفلت من اللجام، ولم يعد من الممكن إيقافه. تتأرجح عرباته من ناحية إلى ناحية كأنها ستتخلع من فوق القضبان لتلقى بنا فى الحقول، وفى أوقات أخرى يصبح كالرجل العجوز أصابه الإعياء التام. يزحف كأنه لن يصل إلا بعد أيام ثم مرة أخرى يفاجئنى ويعدو بنا كالمجنون. كان غريب الأطوار لا يمكن التنبؤ بما سيقوم به من أفعال.

الحقول فيها حركة وناس، رجال ونساء، عواجيز وأطفال. هنا الإنسان والطبيعة لا ينفصلان. أشعر بجهده فى كل مكان يعطى معنى للمساحات الخضراء. يمشى خلف المحراث،

أو يستحم فى الترعة، أو يحفر القنوات، أو يلقى بحبات القمح فى الهواء بالمدراة. هنا المرأة مرئية تشتل الأرز، أو تحمل الحطب، أو تغسل الأوانى، أو ترفع عينيها للقطار عند المزلقان. هنا الماعز الرضيع يقفز مع الأطفال، والعصافير، والفراشات، والكلاب، والجاموس يرنو إلى بعيون حزينة. هنا موسيقى الكون والشمس، والسماء بلا جدران. هنا تتفتح شهيتى للحياة. أشعر بالجوع، جوع يفتح كل المسام مختلف عن جوع المدينة. تراودنى صورة الرقاق تفردنه النسوة فوق الطبالى، وعيونهن السود ترتفع إلى من طرف خفى وأنا أجتاز القاعة الخارجية فى الدوار.

أهبط فى المحطة وأسير مسافة قصيرة حتى موقف السيارات. أبحث عن ثغرة وسط الأجسام فأستقر على المقعد الأمامى لإحدى سيارات الأجرة تحملنى مسافة الكيلو مترات الثلاثة حتى "القضابة". لكن إذا تعطل القطار أصل أحيانا بعد الغروب، أو فى الليل، وأقطع المسافة بين "بسيون" والقضابة سائرا على قدمى بين الحقول، ثم فى حوارى البلدة بين البيوت تشتعل فيها لمبات الغاز فتلقى بظلالها خلال النوافذ ومن تحت الأبواب. أتصور جدتى وهى تهبط على السلالم الحجرية حاملة فى يديها اللمبة يرقص لسانها الأصفر وينكمش فتحميه بيدها. ينعكس ضوءه على وجهها الشاحب العجوز فيبدو وكأنه رأس ساحرة يسير وحده بلا جسم فى الليل.

لكن عندما عاودت السفر إلى بلدتنا سنة ١٩٦٨ كان قد اختفى قطار الدلتا. أصبحت سيارات الأجرة هى التى تحتل الميادين. ماتت عمتى " زكية " بعد أن كان دوارها هو الوحيد فى "بسيون" الذى أذهب إليه. ألعب الاستغماية فى دهاليزه وأركانه المظلمة مع أولادها وبناتها. ألمس صدر البنت الذى نضج من تحت الثوب فتلمع عيناها بلمعان الزجاج فى قمر الليل. لم أعد آكل عندها "الفطيرة المراسية" الصفراء اللون لها مذاق أشتاق إليه حتى اليوم. أتخيل الصينية الكبيرة خارجة من الفرن تقطع فيها عمتى " زكية " بيدها الكبيرة الخشنة حول المقبض. قامتها طويلة مرفوعة، وملامحها قوية كالرجال. تخرج منها قطعة كبيرة وتضعها بين يدى. عندما أنتهى منها تقول بصوتها المبحوح "خد كمان حته يا بن "فتح الله" ربنا يفتح عليك دايما، وتسعد عينين أمك، وأبوك".

أصبحت أسافر إلى القضابة بسيارتى الفيات. قبل أن أصل إليها اخترق الشارع الرئيسى فى "بسيون". أخوض برك المياه، وروث البهائم، والمطبات، وأسراب الذباب. اجتاز عسكرى المرور الوحيد يرتدى بزته الخاكية وحذاءه الميرى الأسود المتسخ بالتراب والطين وعلى رأسه القبعة الكبيرة تسقط على عنقه وكتفيه. يحيينى قائلا: "الحمد لله على السلامة يا دكتور". أتسلل ببطء وسط زحام العربات الكارو تحمل الرمال والطوب الأحمر، والبرسيم، وسط الحمير، والجاموس، وأطفال المدارس يقفزون فجأة أمام العجلات، والرجال والنساء المتجهين

إلى السوق، أو إلى دكان "الحفناوى" لشراء قطعة من القماش، أو مبيد، أو مسامير أو سكين، أو فأس، أو لقضاء شأن من الشئون فى البنك التعاونى، أو المساحة، أو المحكمة، أو الشهر العقارى، أو الضرائب، أو التأمينات.

أصبحت "بسيون" هى المركز، مدينة ريفية، فيها قبح التخلف والفقر يزيد من قبحها المبانى الجديدة أخذت تنمو مثل الفطريات فى كل مكان، مدينة ريفية لا يميزها شىء سوى أغان شعبية قديمة متكررة الكلمات، رتيبة الإيقاع تسمى "البساينة" كادت أن تنقرض فى الوقت الذى صرت أتردد فيه عليها.

فى هذه المدينة فى الدور الثانى لبيت قديم كان يملكه تاجر للمانيفاتورة والفراشات يدعى "طه فسيخ" أقمت أول عيادة طبية فى حياتى منذ أن تخرجت فى سنة ١٩٤٧. قلت لنفسى سأكون طبيبًا يعالج فقراء الريف. حلم قديم استيقظ من جديد، طموح يقودنى فى المسالك الغريبة، أن أكون رجل دين فى الكنيسة يحيا مع البؤساء، أو ثائر فى صفوف الثائرين، أو طبيب يعالج فقراء الريف.

قبل أن أقدم على أية مشاريع كان على أولا أن أباشر المسئولية التى أوكلها إلى أبى فى الإشراف على أرضه الزراعية، أن أدخل فى عالم الملكية الزراعية، وصراعاتها، ذلك العالم الذى لم أكن أعرف عنه شيئا. أولى خطواتى كانت لابد أن تمر عن طريق الخولى الذى عينه أبى ليعاونه، رجل من الأسرة اسمه " فتح الله ماهر حتاتة "، مدرس فى المدرسة الثانوية للبنين فى "بسيون"، ومالك هو نفسه أربعة فدادين.

كان يسكن فى "القضابة" على بعد مائة متر من الدوار القديم لم يبق منه شىء سوى بقايا جدران استراحة قديمة كان اسمها "بيت خريمى" نسبة إلى التاجر اليونانى الذى كان يملكها ثم باعها لجدى ليضمها إلى سبعة الفدادين من الأرض العقار التى دخلت فيما بعد فى كوردون المدينة. جزء من هذه الأرض مساحته فدان ونصف يزرع بواسطة أحد الفلاحين فى القرية أسمه "عبده تليمة". أما الباقى فكان أرضا خرابا توزعت فيه بقايا المبانى القديمة فامتلأ بالحجر والطوب والحشائش والجحور. لذلك لم يكن لى بيت فى القرية وظل هذا الوضع قائما حتى سنة ١٩٨٦.

قال لى أبى: ما زالت "قهوة بدوى" على الطريق الخارجى "للقضابة" بعد الجامع، ونقطة المرور بخمسين مترًا. سينتظرك "فتح الله ماهر" هناك عند الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الخميس".

هبطت من السيارة وسألت أحد الصبية كان يدحرج أمامه عجلة صغيرة مثبتة فى عصا فرد على بعد أن سألته مرتين "أيوه دى جهوة بدوى". عبرت الطريق تحت رذاذ من المطر خفيف سقط فجأة من سحابة داكنة معلقة فى السماء. خلال باب الحجرة لمحت ظهر رجل يرتدى

جلبابًا من " الزفير " الأزرق يقف أمام منضدة مغطاة بالصاج، عليها موقد كيروسين وبراد وأكواب وفناجين. وقفت اتأمله لحظة دون أن أنادى عليه فالتفت إلى كأنه أحس بعينى ترمقه من الخلف. خرج من الباب فقلت:

"السلام عليكم. هى دى " قهوة بدوى ".

رد:

" عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ".

تقدم نحوى بعرجة خفيفة. وجدت أمامى رجلاً شاحب الوجه حول ذقنه المدببة نبت من الشعر، وعلى رأسه طاقية بيضاء. قال:

" أى خدمة يا بيه؟ ".

قلت:

" فين "بدوى"؟ ".

قال:

" أنا "بدوى" يا بيه".

قلت:

" أنا الدكتور شريف حتاتة. بدور على "فتح الله ماهر حتاتة". كان مفروض إنه حيستنانى هنا".

قال:

"أهلاً وسهلاً إنت نورت البلد يا بيه. ماجتش من زمان جوى. حمد الله على السلامة". صمت لحظة ثم استطرد كأنه تذكر سؤالى. "لا ماجاش "فتح الله ماهر" النواحى دى. كان هنا إمبارح إنما النهاردة ماشفتوش. أنا تحت أمرك فى أى خدمة. أبعت أشيعلك عليه؟".

استدار وزعق بصوت رفيع "، واد يا "سمير" "فظهر الصبى الذى كان يدحرج عجلته عندما وصلت والتفت إلى "بدوى" الذى استدرك قائلا:

" اتفضل يا بيه اتفضل. هنا تحت الدروة دى. كرسى أهه. الحمد لله النطرة وقفت. أعملك كباية شاى. واد يا "سمير" أجرى بسرعة نادى على عمك " فتح الله ماهر". قله الدكتور شريف حتاتة وصل ومستنيك عند "بدوى". ثم ملتفتًا إلىَّ: " ولا تحب يوصلك لحد بيت "فتح الله ماهر؟"

قلت:

" لا حأنتظره هنا".

كان المطر قد توقف فجلست تحت الخص. أحضر لى "بدوى" كوبا من الشاى رفض أن يتقاضى أجره عندما أخرجت النقود من جيبى. قال:

" ودى تيجى يا بيه؟ دانت نورت البلد. المرة الجاية".

أرتشفت كوب الشاى، ودخنت سيجارة. بعد ما يقرب من نصف ساعة لمحت رجلا يتكئ على عصاة ويسرع الخطوة فى حارة ضيقة خارجة من قلب القرية. أقدم علىَّ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. لمحت أنفه كمنقار الطيور، ووجهه الكبير المضغوط المدبب يبرز من تحت جبهته العالية يرتدى فوقها الطربوش. شد على يدى بحماس ثم قال:

" أهلا وسهلا، أهلا وسهلا. دانت نورت "القضابة" يا دكتور. فين من زمان. يا خبر أما دى دنيا صحيح". يمصمص بشفتيه فى أسى، وينظر إلى. عيناه جاحظتان قليلاً وجسمه منتفخ تحت الجلباب الصوفى الداكن. عندما يبتسم يبدو كالطفل المرح البدين، فإذا اختفت الابتسامة يتحول وجهه إلى البرود القاسى كأنه يدبر شيئًا. ذكرنى بالمسجونين فى ليمان طره، فيهم هذا الخليط من البساطة الطفولية والقوة الباردة.

قال:

"يا لله. يا دكتور. يا الله بينا على البيت. أنت لازم تعبت من السفر. أهلا وسهلا. أهلا وسهلا. "القضابة" نورت".

كان الجزء الأساسى من أطيان أبى فى الحقول المحيطة "بعزبة الكوادى" تبعد عن "القضابة" مسافة أربع كيلو مترات على الطريق الذى يربط بينها وبين "دسوقى". عندما أذهب إليها فى الصيف أتوقف عند الساقية تدور تحت شجرة كبيرة للتوت. أجلس فوق الربوة أستنشق الهواء يصل إلى محملاً برذاذ المياه، وأتأمل الحقول. أستريح قليلا بعد المسافة التى اجتزتها سائقا سيارتى من القاهرة إليها. أوصى أحد الفلاحين عند التابوت "خذ بالك يا عم جمعة من العربية" فيقول "حاضر يا دكتور. ما تخفش عليها. مفيش جنس بنى آدم حيجرب ناحيتها".

أهبط متجهًا إلى تجمع الأكواخ على بعد خمسين مترًا منها، يربط المدك العريض بينها وبين الطريق كالحبل السرى. إلى جواره قناة للرى تصب فيه مياه التابوت. يجتازه الفلاحون، وأطفال المدارس والجاموس، والراكبون على ظهر الحمير، وأحيانا جمع من النساء فى جلابيبهن السود، فهو طريقهم الوحيد إلى العالم الخارجى، إلى قرية "صالحجر"، ومركز "بسيون"، و"دسوق"، و"كفر الزيات"، إلى "طنطا"، و"القاهرة".

فى منتصف المدك تلتقى قناة الرى الأساسية الممتدة بالطول بقناة للرى فرعيه تمتد بالعرض تصل بينهما ماسورة تحت الأرض. الملتقى يصنع بركة مياه تظللها شجرة جميز أوراقها وارفة وتاريخها قديم. كانت هناك وأنا طفل أجرى فى الحقول. فى البركة حجر أبيض عريض يضع عليه النسوة الثياب، وقوالب الصابون الأسمر وأوانى النحاس، وقفف القمح. فهى مغسل العزبة يجلس فيها النساء والفتيات فى ظل شجرة الجميز تغسلن وتثرثرن فى حركة دائبة لليد واللسان، وترفعن عيونهن بين الحين والحين لفحص الغرباء القادمين من الطريق.

عندما أصل إلى العزبة أنحرف ناحية اليمين إلى الجرن المملوك لأسرتنا. عرفت فيما بعد من ابن عمى "صلاح" انتقل إلى القرية ليزرع الأرض التى تركها أبوه بعد وفاته أن أرض العزبة أيضا هى ملك أسرة حتاته. وفى إحدى الجلسات التى جمعتنا فى البيت الصغير الذى أقام فيه قال أثناء الكلام "الفلاحين دول عايشن على أرضنا من سنين ببلاش احنا نقدر نسترد الأرض دى منهم عشان نستفيد منها". فسألته: "وهم يروحوا فين؟".

ضحك، وهو يقول: "أما إنت غريب بصحيح يا بن عمى. وإحنا مالنا. ما يروحوا مطرح ما يروحوا أو يدفعوا ثمن الأرض اللى هم قاعدين عليها من غير ما يدفعوا ولا مليم".

فى الجرن ينتظرنى الفلاحون الشركاء. جاء موسم حصاد الغلة أحضر فيه الدريس، والتخزين. عند آخر النهار أجلس معهم فى كوخ من الطين نحتسى الشاى الأسمر المسكر يسبب لى "حرقانًا" فى المعدة. أبتلعه فى استسلام حتى أجاريهم ثم أقول فى امتنان "شاى دايم" كما سمعتهم يقولون. أتتبع الحديث الدائر عن الحساب كأننى مدرك تمامًا لأدق التفاصيل، وأحيانا أسرح فى شىء آخر. أما هم فطوال النهار يتتبعون المكيال يروح ويجىء أمام أعينهم، فحياتهم معلقة به. يصبون القمح فى الزكائب على نغمة "الله واحد مالوش تانى". لا تفوتهم حبة قمح ولو بقيت فى ذمة غيرهم منذ سنين. لكن ذاكرتهم قد تتعثر عندما يتطرق الكلام إلى المستلزمات التى حصلوا عليها.

عيناى تدوران حول الجمع الصغير يقف تحت الشمس الحارقة، على "عم واعر" لا يعرف كم عدد السنين التى عاشها. أنفه حاد مقوس وعيناه الصغيرتان اللامعتان تتحركان بسرعة فى الوجه الضامر وسط شبكة التجاعيد. جسمه الصغير المحنى فيه أتب بارز، وذراعاه الطويلتان تكادان تلمسان الأرض وهو سائر. كل شىء فيه مرتعش ينطق بالهزال فأتعجب كيف يزرع فدان الأرض وحده ويجمع حصاده. ولد ابنه بقدمين معوجتين إلى الداخل فعجز عن المشى. يحملونه أينما ذهبوا إلى أن أجريت له عملية فى الرباط الخلفى لقدميه فأصبح قادرًا على المشى بطريقة عادية مثل سائر الناس.

إلى جوار "عم واعر" يقف "أحمد قرمان". لم أسمع صوت مثل صوته فى حياتى. صوت رفيع شاكى كالمنشار يقطع فى لوحة من المعدن السميك. له عين واحدة تتفرس فى بريبة. أما

الأخرى فجفونها مغلقة عليها تماماً. يرتدى جلبابا ممزقًا مربوطا حول وسطه بحبل من التيل. يداه وساقاه، وعنقه مغطاة بالطين دائما كأنه لا يكف عن العمل فى رى الأرض. و"لفح القنايا". لم أره أبدًا وهو يرتدى جلبابًا نظيفا، ومداسًا سائرًا مثل الناس فى الحوارى، أو جالسًا على المصطبة فى الأمسيات.

على مسافة منى "إبراهيم النكلاوى" يمسك بإبرة كبيرة مقوسة يتدلى منها "الدوبار" ويخيط زكيبة من القمح حتى يغلق فتحتها بإحكام. أكلت البلهارسيا فى جسمه فأصيب بأنيميا حادة. تحت اللون الأسمر للجلد يطل الشحوب. يتكلم ببطء، ويفهم ببطء، ويمشى ببطء كأنه مصاب بنوع من البلادة فى كل وظائف الجسم.

فى البداية كنت أقشعر من هذا البؤس. أحيانا يبدو لى كأنهم ليسوا بشرا وإنما نوعا من الحيوانات تعيش مغروسة فى الطين، إنهم من عالم آخر لا أعرفه. بينى وبينهم لا يوجد سوى الأرض، وحساباتها، أو سلامات وتحيات، وكلام، وألفاظ تخفى ما وراءها من أشياء تشغلهم. أيديهم كبيرة خشنة حول الفأس، وأجسامهم ضئيلة ضامرة كأنها ملحقة بها، وضعت فى خدمتها. عيونهم تآكلت جفونها، ورموشها، وزحفت الشعيرات على بياضها تحاصر سوادها قبل أن تنتقل إليه لتلتهمه.

بالتدريج اقتربت منهم. جلسة هنا وجلسة هناك. كشف على طفل فى أسرتهم، حقنة فى الوريد، أو حبوب تعالجهم. خطوة وراء خطوة أصبحت أفهم كلامهم، ما يخفونه، وما يظهرونه. فاللغة الخاصة بهم كالظلال فى ضوء الفجر، وبالتدريج عرفت حساباتهم التى طلب منى أبى أن أعرفها فاكتشفت أن "فتح الله ماهر حتاته" لا يعطى أبى إلا جزءا ضئيلا من مستحقاته، ويبتلع الباقى فى بطنه الكبيرة تماما كما يبتلع "بيراما من الأرز" عندما يعود من عمله آخر النهار. أدركت أنه لص، أن شكوى أبى من قلة دخل الأرض لم تكن وهمية كما كنت أظن.

قلت لأبى لا يوجد حل سوى أن نتخلص منه، فقال: "لكنى لا أطمئن إلى ما يمكن أن يفعله، ثم من أين ستعثر على خولى ليقوم مكانه".؟ قلت "لنترك الأمر كما هو بعض الوقت. تحملته أربع سنوات فلن يحدث شىء لو انتظرنا حتى نجرى التغيير دون أن يضطرب الوضع. ربما لحسن حظك أننى دخلت السجن، وواجهت فيه المجرمين من كل صنف".

كلما هبطت فى "القضابة" أو "صالحجر أو "الفرسدق"، أو "بسيون"، وقضيت بعض الوقت فيها يلح على الناس قائلين "ليه ما تفتحش عيادة يا دكتور نقدر نجيلك فيها لما نعوز؟. أهل بلدك مش أولى بيك؟ فأرد "حا أفكر بس مش دلوقت". فيجيئنى الرد "خير البر عاجله يا دكتور هو إحنا مش عاجبينك وإلا إيه. عايز تفتحها للناس الأبهة بتوع مصر".

إذا سرت وسط الحقول ألمح أحد الفلاحين يلقى بفأسه جانبا ويجرى ليلحق بى حتى يحكى قائلا "الواد سخن جوى من ليلة امبارح ما تجدرش تطل عليه كده يا دكتور وتشوفلنا حكايته دى

إيه"؟ إذا جلست فى الجرن وهم يقومون بدراس الغلة أو تعبئة الأرز يقول لى المدراوى: " أخوى وديته لدكتور فى "بسيون" عمله عملية. جالنا حصوة فى الكلى لازم تتشال. فتح له فتحة وأهو لحد النهاردة ما جفلتش ولابس حزام، وعايز يعمله عملية ثانية. خد مننا لحد دلوجتى ربعميت جنيه، وعملها له فى المستشفى المركزى. مفيش رحمة وإلا إيه؟".

أشعر أنهم ضحايا دائما، ضائعين وسط أطباء الكثيرون منهم جهلة وكلهم لا يفكرون إلا فى الفلوس. كانت فكرة فتح عيادة فى الريف موجودة عندى منذ سنى الشباب فى كلية الطب. أتصور نفسى سائرا فى الحوارى والناس يسلمون على بترحاب، متنقلا من كوخ إلى كوخ، أفتح الخراريج وأقوم بتطعيم الأطفال، أنقر على الصدور وأقرأ فى العيون نظرة امتنان، أدس الإبرة فى الوريد، وقبل أن أنصرف يشرق الوجه الحزين. عندما أدخل عيادتى أراهم ينتظرون. أقف معهم قليلا ويدور بيننا حديث قبل أن أنتقل إلى حجرة الكشف وأبدأ فى استدعائهم حسب الدور. لا أمرق بسرعة أمامهم عندما أحضر كما يفعل الأطباء فى عيادتهم حفظاً للمسافة، لألوهية المهنة وكهنوتها، كأن هناك سراً لا يستطيعون أن يواجهوا به الناس.

غابت هذه الصورة عن ذهنى سنوات ثم عادت عندما زاد إلحاحهم. لم أعد بالنسبة إليهم شبحا غامضا سمعوا عنه، فمرة فى السجن، ومرة هربت، ومرة فى بلاد بره، ومرة عدت ولا أحد يعرف ما الذى أفعله. لم أعد ابن الأسرة الذى لم ير فى بلدته منذ أن كان طفلا مدللا يمرح فى حوش البيت، أو لغزا يخافه الناس، ويحتاطون منه. الآن رأونى إنسانا من لحم ودم. أتعارك معهم وأغضب منهم ثم نتصالح ونحكى الحكايات سائرين فى الغيط. أتحدث معهم بصراحة ويسر فى كل شىء. لا أخفيهم رأيى مهما كان الأمر. إن وعدت وفيت بالوعد. وإن عجزت اعترفت بالعجز. وبين الحين والآخر أشاركهم وجبة من المش والخبز الجاف، والبصل والفجل ثم أنام تحت الشجرة الكبيرة فى أول الأرض.

كان يوم جمعة بعد صلاة الظهر. قررت أن "أشج" (يعنى المرور على الأرض بلغة الفلاحين) على زراعة القطن. سرت إلى جوار المصرف مع "فتح الله ماهر". لمحت أحد الفلاحين من مستأجرى الأرض وهو يخطو خارج الفدان الذى كان يزرعه. قصير القامة مفتول الجسم يرتدى صديرياً وسراويلاً مربوطاً حول وسطه بحبل أسمر من التيل. قدماه مبللتان بمياه الرى وبقايا من طين الحقل. توقف أمامى لحظة صامتا ينظر إلى بمقلتين مستديرتين فيهما الهدوء، والوحشية الكامنة للقط. فمنذ سنين كان شيخاً للمنصر يقتل بالأجر، ثم تاب على حد قول الذين يحكون عنه. كلما رأيت عينيه تذكرت فيهما القسوة الباردة القادرة على تدبير القتل، وهدوء من لا ينشغل بجريمته بعد أن يقدم عليها. قال:

" السلام عليكم. إزيك يا دكتور. والله بركة إنك جيت "تشج". كنت بأدور عليك.،مالك غايب عنا. ماعدناش بنشوفك ليه؟"

قلت:

" كنت هنا من أسبوعين. يا عم "عبد اللطيف"."

قال:

" عايزينك معانا هنا على طول. هو يا دكتور مش حتفتح عيادة بجه. سايبنا كده لايصين ومش لاجيين حد يشوفنا لما نعيا. الجماعة عندنا كانوا تعبانين جوى الأسبوع اللى فات وخدتهم "طنطا"، وصرفت اللى صرفته. لكن الحمد لله. جلت فين الدكتور كان نجدنا لو كان هنا. إيه رأيك أنا عرفت بالصدفة أن فيه شجة فاضية فى وسط "بسيون" واسعة وفى سرة البلد. اللى رايح واللى جاى يعدى عليها. بتاعة الراجل اللى اسمه "طه فسيخ". أيوه هو يا سى "فتح الله" اللى عنده محل مانيفاتورة وبيشتغل فى الفراشة كمان".

" أفكر يا عم "عبد اللطيف". "

" تفكر.. مانت بجالك كثير بتفكر. أنا مستعد أسيب شغلى وألبس هدومى وأروح معاك دلوجتى. مش معاك العربية؟ ".

" أيوه معاى".

" طيب يا الله بينا. على ما "تشج" أكون خلصت ولبست هدومى. حأستناك عند التابوت. مش العربية هناك؟ نطرج الحديد وهو سخن زى الناس ما بتجول".

قلت:

" طيب يا عم "عبد اللطيف"." عشان خاطرك نروح ونشوفها".

" أيوه كده. ماحناش خسرانين حاجة. أن ما عجبتكش ما ناخدهاش. لكن أنا عارف أنها حتعجبك ".

دكانة "طه فسيخ" فى منتصف الطريق الرئيسى لمدينة "بسيون" وجدناه هناك يراجع بعض الحسابات. صعدنا فى البيت ليس فيه سوى دور واحد ومن تحته الحوانيت. فى الدور شقتان إحداهما استقر فيها طبيب عيون سمه الدكتور "ناجى"، والأخرى خالية تفقدناها. فيها صالة، وحجرتان متوسطتا الحجم، وحمام به حوض ودش. دورة المياه "البلدية" مستقلة عن الحمام. للشقة شرفة خارجية طويلة مغطاة بالمشربيات.الجدران يبدو عليها القدم وفيها بعض التشققات البسيطة لكنها متينة، والأرض من الخشب غطاها التراب. بدت لى مقبضة لكنها تصلح كعيادة فى الريف. أهم ما فيها موقعها.

عيناى تدوران حول الشقة. عدت إلى بداية الطريق. الآن حوصرت أحلامى فى هذه الشقة القبيحة. انكمش حجمها لتتحول من آفاق العمل الثورى الواسعة إلى طبيب فى مدينة "بسيون"

يطل من نوافذها على السوق، على أكوام الفضلات، وأسراب الذباب، وصراخ الأصوات الخشنة كأنها فى عراك.

التفتُّ إلى "فتح الله ماهر" وسألت:

"إيه رأيك؟".

قال:

" عظيمة يا دكتور. مش حتلاجى أحسن منها فى "بسيون".

خطر فى بالى. ربما استطعت أن أفعل هنا شيئا ينفع الناس. أحسست بشجاعتى تعود إلىَّ، بالتفاؤل. قلت:

" يا لله بينا نمضى العقد. هو الإيجار كام؟".

قال عم "عبد اللطيف":

"بيجولوا سبعة جنيهات. نسأل الراجل "طه فسيخ". يمكن يخفضها لنا شوية".

هبطنا عائدين إلى دكان "طه فسيخ" قصير القامة عريض الجسم يرتدى جلبابا داكنا، ويترك رأسه عارية يغطيها شعر أسود كثيف. صامت لا يتكلم إلا ليؤكد أنه لا يستطيع أن يقبل أقل من سبع الجنيهات. أخرجتها من جيبى تاركا فى المحفظة جنيهين. وقعنا العقد وسرنا حتى السيارة قال "فتح الله ماهر":

" أستأذن أنا بجى عايز أفوت على المدرسة جبل ما أروح".

تركنا وسار فى الشارع وسط الزحام. قلت لعم "عبد اللطيف":

" تعال أوصلك "الكوادى" ".

قال:

" لا يمكن والله لا يمكن. إنت لسه مشوارك طويل. أنا حلفت. إتكل إنت، وأنا حاروح على مهلى كده. يمكن أعدى على "الحفناوى" اشتريلى فاس. حاكم الفاس اللى عندى كان حلو لكن شاف زمانه بجا". ينظر إلى وفى عينيه الصغيرتين بريق ثم يستطرد:

" أدينا خلصنا شغل. وإن شاء الله العيادة دى نيجى نبارك لك فيها. المهم تجيب العدة بسرعة من مصر عشان تشتغل على طول. أنا كنت عارف أن الشجة دى حتعجبك. جلت ما يملهاش إلا الدكتور بتاعنا".

لم يكن عندى فائض من المال لأبتاع الأثاث والمعدات القليلة التى كنت فى حاجة إليها. مرتب "نوال" أصبح خمسة وثلاثين جنيهًا. مرتبى أنا ارتفع إلى خمسين جنيهًا بعد أن أصبحت

فى الدرجة الثالثة. من أين أستطيع أن أحصل على المبلغ الذى أحتاج إليه بينما دخلنا يكفينا بالكاد؟.

جلست أعد كشفًا بالاحتياجات. كنبة من الجلد الصناعى للكشف، دولاب صاج أبيض بواجهة زجاجية، ومنضدة صغيرة على عجلات، أسطوانة تعقيم، وأحواض من الصاج، ملاقط ومشارط، وجفت، جهاز لقياس ضغط الدم، وسماعة، مكتب ومقعد أجلس عليه، وبرافان، وبعض المقاعد للصالة، آه وصفيحة للفضلات فى كل حجرة، حقنة وإبر لخياطة الجروح من مختلف الأحجام، موقد كيروسين وغلاية. ربما استطعت أن أقسم المشتروات على مراحل.

بعد أن استأجرت الشقة بأسبوع كنت فى زيارة لأمى. جلسنا فى الصالة متجاورين على الأريكة كما تعودنا أن نفعل، وكعادتها أخذت تسألنى عن أخبارى فحكيت لها عن مشروع العيادة. أشرق وجهها بنور قوى، قالت:

"طول عمرى أحلم بك فى عيادتك. ترتدى المعطف الأبيض وتشفى الناس. لو كنت قد سرت فى هذا الطريق لو صلت إلى القمة. خلقت لكى تكون طبيبًا " صمتت لحظة ثم أضافت "بعد أن استأجرت الشقة كيف ستقوم بتجهيزها. هل معك نقود؟".

قلت:

" ليس معى نقود الآن لكن المبلغ ليس كبيرًا. أنا واثق أننى سأهتدى إلى وسيلة للحصول عليه. ربما اقترضته من صديق. لم أقترض من أحد فى حياتى لكن إذا لم تكن هناك طريقة أخرى "...

قاطعتنى:

" أنا أيضًا لا أحب الاقتراض. كم هو المبلغ الذى تحتاج إليه؟".

" ربما مائتا جنيهٍ أو أكثر قليلا. لكن المشكلة هى الأثاث. أحتاج منضدة، وبعض المقاعد، ومكتب، وبرافان، أو ربما أستطيع الاستغناء عن "البرافان".

قالت:

"عندى بعض المدخرات ويمكننى أن أعطيك المبلغ الذى تحتاج إليه. أما الأثاث فربما نستطيع أن ندبره من البيت. على ما أتذكر يوجد مكتب ومنضدة، وبعض المقاعد قمنا بتخزينها على السطح".

فوجئت. لم أتوقع أن تكون أمى هى التى ستقرضنى. تضيف:

"ويمكننى أن أذهب معك لترتيب الأثاث هناك. قد تحتاج أشياء أخرى مثل ستائر على النوافذ يمكننى أن أخيطها لك".

تصورتها وهى تدخل الشقة القبيحة المعتمة وتفحص الحارة التى أدلف منها، والمدخل والأرض ودورة المياه أجلس القرفصاء عليها، هى التى عاشت فى بيت يشع فيه بريق من كل ركن. ستصاب بصدمة لن تفيق منها ربما أعنف من صدمة السنين التى قضيتها فى السجن. ستراني طبيبا فاشلا فى نظرها، والفشل لابنها كفيل بأن يهدمها. النضال السياسى بكل عواقبه كان فيه لحظات يمكن أن تعتز بها. عندما هربت من السجن خافت علىّ، لكن كانت أخبارى وصورى فى جميع الجرائد، وكان الناس يتحدثون عن جرأتى. يسألونها أين ذهبت فتقول: "لا أعرف بالضبط" وكأنها تعلم شيئا لا تريد أن تكشف عنه.

قلت:

"سأنقل الأثاث والأدوات وأرتبها، ثم أصطحبك معى فى أحد الأيام لتضفى اللمسات الأخيرة عليها، وتغيرى ما ترين تغييره".

تضحك ضحكة صغيرة خجولة متواضعة كأننى أحملها ما هو أكبر من قدرتها، ولكن عينيها تلمعان بفرحة لم أرها فيهما من قبل.

لم تر العيادة أبدًا. بعد هذا الحديث بثلاثة سنوات سافرت إلى الهند. بين الحين والآخر تسألنى فأحكى لها عن بعض الحالات التى ترد على. لم تفاتحنى فى الذهاب إليها كأنها نسيت، أو صرفت النظر عنه.

أصبحت أمارس عملى فيها بانتظام لكن بعد أن مر بعض الوقت أخذت تظهر على علامات التعب فقد أصررت على اتباع نظام قاس لأجمع بينه وبين عملى فى الشركة.

كنت أقضى يومين فى "بسيون" وأحيانا ثلاث. يوم الخميس كانت "منى" ابنتنا تصطحب أخاها "عاطف" إلى الزمالك فى الترولى باص، توصله حتى المدرسة وتتركه لتلحق هى بمدرستها. أستولى أنا على السيارة لأذهب بها إلى مقر عملى فى حدائق الزيتون حيث كانت "شركة ممفيس". أترك العمل مبكرًا فى الساعة الواحدة أو الواحدة والنصف لأقود سيارتى على الطريق الزراعى. بعد "طنطا" أنحرف إلى اليمين وأجتاز مسافة الثلاثة والعشرين كيلو مترا حتى "بسيون" لأصل إلى عيادتى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر.

أعمل فى العيادة يوم الخميس ويوم الجمعة وأحيانا السبت وأعود قرب منتصف الليل، أو فى فجر اليوم التالى لأذهب مباشرة إلى الشركة حتى أكون هناك قبل الساعة الثامنة والنصف.

لم يكن فى استطاعتى أن أجازف بترك عملى فى الشركة حتى أتفرغ لعيادتى، أو ربما لم تكن لدى رغبة فى أن أترك القاهرة وأحيا فى الريف بعيدًا عن أسرتى، وعن الحياة التى

ارتبطت بها رغم الإحباطات التى أصبت بها. فأصبحت أوزع جهدى على هذا النحو بين عيادتى فى الريف وبين عملى الأساسى كمدير للتخطيط فى شركة ممفيس.

خلعت السترة وعلقتها على الشماعة فى الركن. ارتديت المعطف الجديد الذى ابتعته. جلست على المقعد خلف المكتب. الجو بارد وقدماى فى الحذاء تؤلمنى. هبطت من بيتنا فى الجيزة ساعة الفجر. اليوم بداية العمل فى العيادة. لا ينقصها شىء. ربما فاتنا أن أحضر مدفأة من البيت، فالعيادة دافئة عندما تشرق الشمس لكن عندما تختفى تصبح كالثلاجة.

أطل التمورجى "إبراهيم" برأسه الكروية من الباب. فى عينيه لمعة. قال:

" يا دكتور فيه عيان عايز يخش".

اعتدلت فى جلستى. أزحت الكتاب الذى كنت اقرأ فيه وأخرجت السماعة من الدرج. ألقيت نظرة على الحجرة لأتأكد أن الأشياء فى مكانها. قلت:

" دخله يا "إبراهيم". "

" آخد منه الكشف. "

ترددت لحظة ثم قلت:

" لا. بعدين حاشوف".

غاب لحظة ثم عاد يدفع أمامه ثلاثة أشخاص، رجلين، ومعهما صبى رأسه مربوط بكوفية تخفى جزءا كبيرًا من وجهه. حيانى الرجل الأكبر سنًا يرتدى جلبابا قديما، ولبدة على الرأس. قائلا: "السلام عليكم".

قلت:

" عليكم السلام" وحتى أتأكد سألته: "مين فيكم اللى عيان"؟ فرد الرجل على "الواد ابنى".

قلت:

" اسمه أيه؟ ".

" محمد يا بيه. محسوبك "محمد عبد الرحمن البربرى" ".

" لما تكلمنى قول يا دكتور. بلاش يا بيه دى. انتو منين يا عم؟".

" من "كفر جعفر" ".

" أمال فين والدته؟ ".

" جاعدة برة يا بيه".

" واحد منكم يقعد برة، وخليها هى تخش. هى اللى واخدة بالها منه وهى اللى تقدر ترد علىّ لما أسألها ".

خرج الرجل الأصغر سنا، وبعد لحظة طالت دخلت المرأة. بدأت تبكى فى اللحظة التى اجتازت فيها عتبة الباب.

قلت:

" بصى يا ست. إذا كنت حتعيطى مش حاعرف أسألك عن الولد. يبقى تخليك برة أحسن".
قالت:

" حاضر يا بيه". ومسحت دموعها بطرف الطرحة.

قلت:

أقعد يا عم "عبد الرحمن" على الكرسى. وأنت يا ست نيمى ابنك على الكنبة، وغطيه بالبطانية وشيلى الكوفيه من على رأسه عشان أقدر أكشف عليه".

قمت. الوجه أمامى أبيض فى لون جدار الحجرة، والعينان سوداوان واسعتان تحيط بهما رموش طويلة تشبه الكحل. أسأل فيجيب على ببطء. تتدخل الأم فأطلب منها أن تنتظر حتى انتهى منه. قدماه حول الكاحل منتفختان. أضغط عليهما فيترك إصبعى حفرة مكان الضغط. أضع يدى على بطنه وأنقر عليها، ثم أجعله يرقد على جانبه، فيتغير صوت النقر. سائل فى تجويف البطن. أضع السماعة فوق القلب. أسمع صوت كالهواء يهرب من تحت الباب، كالوشوشة، كالهمس البعيد. الشفتان زرقاوان، وكذلك أصابع اليد، وضربات القلب تتعثر أحيانا، تسقط ضربات كالطبال يدق على الواحدة وبين الحين والحين يسقطها.

تقول الأم:

" دخنا يا دكتور. صرفنا اللى قدامنا واللى ورانا. وزى مانت شايف أهه. فى النازل على طول. جالولنا شوية تعب فى الجلب".

ضيق فى الصمام الميترالى، وهبوط فى وظائف القلب. كان يعانى من اللوز وآلام فى المفاصل. روماتيزم انتقل إلى القلب. سيعيش سنة أو سنتين، أو ثلاثًا أو ربما خمسًا راقدا فى البيت يستنزف كل قرش يصل إليهم. لا حل سوى أن أصارحهما بالوضع. لن يقتنعا، لكن لا أستطيع أن أكذب عليهما.

ساعة الانصراف وقف أمامى الرجل. أنظر فى عينيه. تردد لحظة فانتظرت. يسألنى:

" كام الكشف يا بيه ".

قلت:

"خمسة وعشرون قرشا "، وتأهبت لأقول له "لما تخرج أديهم للتمورجى". ثم تداركت. الكشف خمسين قرشا، وفى الريف كان يعتبر مرتفعًا فى هذا الوقت. فتح الكيس وأخرج منه ورقة بخمسة وعشرين قرشا، ومد يده إلى سمراء معروقة، كبيرة الحجم عليها طبقة سميكة من الجلد. الأظافر بعضها مقوس وبعضها مكسور، وعلى ظهرها شئ كالحرق. مددت يدى وأخذتها منه.

خرجوا من الغرفة. وأطل "إبراهيم" من الباب. سألنى:

"أدخل اللى بعديه".

قلت:

"لا انتظر شوية"، وجلست أقلب ورقة الخمسة وعشرين قرشا بين يدى. أول مبلغ أتقاضاه من مريض، بعد ثلاثة وثلاثين سنة من التخرج. ملمسها فى يدى غريب غير ملمس الأوراق النقدية التى تعودت عليها. تفوح منه رائحة عرق، وتراب، ورائحة أخرى كالزهور عندما تذبل فى حرارة الصيف، رائحة أنفر منها، وأنجذب إليها مثل العاهرة الأولى التى عرفت طريقى إليها. تملأ جو الغرفة، وتلتصق بى. أفحص الرسومات المطبوعة عليها. أدرس الألوان، والظلال الموجودة فيها. أتخيلها تنشطر كالخلية السرطانية لتولد عنها مئات، وآلاف الأوراق النقدية. أملأ بها جيوبى، أملأ بها أدراج البيت.

فى الماضى كنت أتسلم مرتبى فى نهاية كل شهر. أفتح المحفظة وأضع الأوراق النقدية فيها. أصرف منها، وأتسلم غيرها دون أن ألتفت إليها. لكنى منذ لحظات أخذت هذه الورقة النقدية من دم صبى مريض لن يشفى من المرض الذى ألم به، من أسرة فقيرة دفعتها إلىَّ من قوت يومها، كما دفعتها من قبل لغيرى من الأطباء يقبعون فى عياداتهم، وينتظرون المرضى كما ينتظر الصياد الفريسة لتقع بين يديه. أطباء يسعدون مثلى عندما تزدحم العيادة بالأجسام العليلة، بالقرح، والأورام الخبيثة، عندما تمتلئ بالنزيف، والصديد، بالديدان الزاحفة فى الوريد، وأصوات الألم، والأنين. يسعدون بهذه الورقة المكتوب عليها خمسة وعشرون قرشا، أو خمسون، أو جنيه. يضعون الورقة فوق الورقة ليصنعوا منها رزمة يوثقونها برباط مطاطى.

لأول مرة أدرك معناها الحقيقى. إنها كالطوطم لها قوة سحرية. ليست سوى رمز، قطعة من الورق طبعت عليها صورة، وحروف، وأرقام، وفيها مساحات من اللون الأزرق والأخضر، والأصفر أو البنى، ومع ذلك فهى أكثر من ذلك بكثير. تستطيع أن ترفعنى فوق مستوى البشر العاديين. يتقاتل عليها الناس إلى درجة الجريمة. يستعبدون بها الآخرين. يفعلون من أجلها أى شىء.

كنت أريد ألا تتوقف هذه الأوراق عن الانتقال من الأيدى الخشنة المعروقة إلى يدىَّ الناعمتين. أن أعدها وأنا جالس على مكتبى والمصباح منحن بضوئه عليه. لكن فى ثنايا هذه الرغبة، شعور خفى بالإثم وأنا ألمح الأصابع تمتد بها إلىَّ، فتزحف ظلالها على الجدار كبيرة، متضخمة كأصابع وحش سينقض علىَّ.

أيقظت العيادة فى أعماقى رغبات من نوع جديد. أهبط على سلالم الشركة بسرعة إلى السيارة المنتظرة إلى جوار الرصيف. أضغط على بدال البنزين فتقفز فوق الطريق. ساعة وصولى إليها أجد أفواج المرضى منتظرين فى الصالة، وإذا زاد العدد أجدهم فى الحارة، أو بئر السلم، أو جالسين على درجات البيت.

أستمع إلى شكواهم. أنقر بأصابعى على ضلوعهم. أضع السماعة عند موضع القلب لأسمع ضرباته. عيونهم تنظر إلى كأننى أقبض على مصيرهم بين يدى. أتحدث إليهم بلهجة الحكيم العالم بالأمور. أكتب بالقلم على ورق أزرق فاتح اللون مطبوع عليه اسمى بالحروف السود وبالتدريج أنسى أن كل قرش يدفعونه منتزع من قوت يومهم ليحول دون شرائهم سراويلاً يسترون به العورة تطل من الثوب القديم عندما يرقدون على الكنبة لأقوم بالكشف عليهم، أو نصف كيلو من اللحم يمكن أن يصلب عودهم بين الحين والحين. أدرك أنه لن يتحقق الشفاء الذى يسعون إليه فمنذ اللحظة التى يهبطون فيها من العيادة سيعودون إلى ما هم فيه، إلى العمل الشاق يستنفد ما بقى لهم فى الصحة من رصيد، إلى المياه الملوثة بالسموم، والجراثيم، إلى أكوام الروث، والفضلات تحيط بهم من كل جانب، إلى الغذاء الذى لا يوفر لهم ما يحتاجون إليه من مواد أو سعرات حرارية، وإلى جهل يجعلهم فريسة سهلة لأى شىء.

الوقت الذى أقضيه بينهم كل أسبوع لا يزيد عن يومين أو ثلاثة. تمر الساعات التى أقضيها معهم فى طرفة عين لأكتشف أن الوقت انتهى، ولابد أن أقود سيارتى عائدًا فوق الطريق الذى أصبحت أعرف كل منحنى، أو مطب، أو ثغرة، أو جحر فيه.

فى الليل يقرعون بابى فأستيقظ من النوم. أصعد من بئر عميق لأرتدى ملابسى وأذهب معهم حيث يريدون طالما أن هناك وسيلة للانتقال إليه. لا أشبع من النوم يداعب جفونى وأنا جالس خلف عجلة القيادة رغم أقداح من القهوة ابتلعها للتغلب عليه، وبالتدريج يتبخر الحلم. أصبحت علاقتى بهم لا تخرج عن القيام بالكشف عليهم، وعلاج الداء الذى جاءوا إلى به إن كان هذا فى مقدورى. لا وقت لشىء بعد ذلك سوى أن أختطف قليلا من النوم حتى لو أُتيحت لى فرصة للحديث، أو لأعاونهم فى شىء. أصبحت مثل أى طبيب فى الريف غير أننى لا أكذب عليهم، ولا أضللهم فى أى خطوة أقدم عليها. لا أختلق عمليات، ولا أنواعًا من العلاج بهدف استنزاف النقود القليلة يضعونها فى الكيس، ويفكون رباطه ليخرجوا من جوفة الأتعاب التى يدفعونها إلىَّ، وإذا عجزت عن تشخيص المرض الذى يشكون منه أحولهم على جهة أخرى متخصصة فيه.

كان الحل هو أن أقيم فى البلدة حتى يمكن أن أصبح طبيبا للريف حسب النموذج الذى كنت أحلم به، لكنى لم أكن على استعداد لاتخاذ هذه الخطوة التى كان من شأنها أن تقلب حياتى رأسا على عقب. أصبحت لى أسرة، والتزامات، وانتقلت حياتى إلى مرحلة لها مقتضيات جديدة، ولن تكون هذه الخطوة سوى قفزة فى الظلام فى سن متأخر نسبيًا.

كانت تراودنى الفكرة فى بعض الأيام، وربما لو كان لى بيت فى البلدة لأصبح تنفيذها ممكنا. لكن فى أغلب الليالى كنت أبيت فى العيادة، فى الشقة القبيحة لا توجد فيها وسائل للراحة، أو الخدمة، أو إنسان آنس إليه. كانت ليالى كئيبة خصوصًا عندما تهجرنى الرغبة فى النوم، فأظل أعد الدقائق والساعات حتى يأتى اليوم الجديد.

مرت سنة ونصف قبل أن أنقطع عن الذهاب إلى عيادة "بسيون". دفعت الإيجار "لطه فسيخ"، وبعت محتويات العيادة لجارى الدكتور "ناجى". لم أحتفظ بشىء سوى الحقيبة الجلدية فيها جهاز لقياس ضغط الدم، وسماعة، وحقنة وغيارات، وقفازٍ من المطاط، وأمبوبة فازلين وميزان حرارة فى جرابه، ومطرقة صغيرة لاختبار أعصاب الجسم.

وضعت الحقيبة فى الصندرة ونسيتها إلى أن أقمت البيت فى "القضابة" سنة ١٩٨٦ فنقلتها إليه لعلى أحتاجها للكشف على مريض حالته تحتاج إلى إسعاف سريع. وضعتها فى الجراج داخل صندوق خشبى مع دهان، ومنفاخ للدراجة، ومقص لتشذيب الشجيرات، والجهنمية المزروعة فى حديقة البيت، وأكياس من الأسمنت الأبيض والسيبيداج، والجبس.

فى أحد الأيام كان السائق "حسين" يقوم بتنظيف الجراج، والتخلص من الأشياء التى لا نحتاج إليها، فأخرج محتويات الصندوق، وعرضها على. لمحت من بينها حقيبة بُنيَّة اللون. تأملتها، وهى راقدة على الأرض مهملة، قديمة، عليها تراب، وخدوش، وبقع من الحبر. رفعتها بين يدى. وضعتها على ظهر الصندوق، وفتحتها. أخرجت جهاز قياس ضغط الدم، والسماعة، والحقنة، وكل ما فيها، ونظفتها، وأعدت كل شىء إلى مكانه. شكلها يوحى بأنها ملك طبيب عجوز يعمل فى الريف منذ سنين. أتصوره وهو يهبط من سيارة قديمة للأجرة، ويتقدم بعرجة المصاب بآلام فى الركبة. جسمه محنى، ورأسه يميل به نحو الأرض ليتفادى الحفر، وبرك الطين. شعره أبيض والتجاعيد فى جبهته عميقة. يدخل الكوخ. يفحص المريض الراقد على حصيرة. يصف له كاسات الهواء، أو لبخة، وحقن فى الوريد. يجلس إلى جواره قليلا، ويتحدث إليه عن أشياء مختلفة، ثم ينصرف ومن ورائه ترتفع الدعوات وهو سائر نحو السيارة تنتظره فى الحارة، ومن حولها بعض الصبية يتفرقون عندما يصل إليها.

أتأمل الحقيبة المنتصبة أمامى على الصندوق. يجيئنى الإحساس بأنها تمت إلى حياة أخرى لم أعشها. تثير فى إحساسا بالضيق. مع ذلك فهى عزيزة على، جزء منى لا أستطيع أن أتخلى عنه. أرفعها بين يدى، وأضعها بحرص فى الصندوق الخشبى.

بعد أن أغلقت العيادة قلت زياراتى "للقضابة". لم أر "فتح الله ماهر" منذ أن استغنيت عن عمله كخولى للأرض. لم يفاتحنى فى الموضوع، ولم يقدم لى الحساب الذى وعدنى به.

مر أكثر من شهر وفى أحد الأيام عدت متأخرًا من العمل. فتحت صندوق البريد، وأخرجت محتوياته. صعدت إلى الشقة. أعطيت "نوال" ما يخصها، ووضعت الباقى على مكتبى. خلعت ثيابى، ثم جلست على المكتب أفحص البريد: ثلاث مجلات، التقرير السنوى لجمعية الاقتصاد والتشريع، ومظروف صغير ملصق عليه طابع بريد بقرشين. أمسكت بالمظروف. الحروف مكتوبة بخط نموذجى واضح. فتحته، وأخرجت الورقة المطوية فيه كانت من النوع المسطر الرخيص الذى يباع مع المظروف. قرأت.

" إلى الدكتور شريف حتاتة ".

أكتب إليك هذا الخطاب لأقول لك أنك شخص متآمر، بلا خلق، ولا مبادئ. آويتك فى بيتى، وحافظت على مصلحتك لكن هذا لم يمنعك من أن تغدر بى. الناس هنا فى "القضابة" يحترمون عائلة "حتاته"، ويضعونها فى منزلة رفيعة فأفضالها عليهم كثيرة. أما أنت فرجل شاذ عنها. شيوعى متآمر لا يؤمن جانبه. كنت أحميك من الذين ضاقوا بوجودك بيننا، فأنت لا تعلم أن الجميع يكرهونك، ولولا حمايتى لك لما استطعت أن تضع قدمك فى "القضابة". أما أنا فقد رفعت يدى عنك وعن كل ما يخصك. لن تجد من يقف إلى جوارك، أو يتركك تعيث فسادك، وتلوث سمعة أسرتنا. فالجميع هنا سيقفون ضدك. لا تظن أننا سنتركك تفعل ما تريد، وتتحرك كما تشاء بيننا. لن نسمح لشيوعى قذر مثلك أن يدنس بلدتنا فابتعد.

فتح الله ماهر حتاتة

لم تكن الرسالة مؤرخة. قرأتها مرة ثانية. فكرت أول الأمر أن أمزقها وألقى بها فى سلة المهملات، ثم عدلت عن هذه الفكرة. وضعتها فى حقيبة صغيرة من الجلد، وبعدها بسنوات طويلة وجدتها فى مكانها فنقلتها إلى "القضابة" ووضعتها فى أحد أدراج المكتبة الكبيرة فى الدور الثانى للبيت. قلت لنفسى ربما فى يوم من أيام أحتاج إليها.

سنة ١٩٧١ انتدبت للعمل فى "المجلس الأعلى للسكان". وبعدها بسنة جاءنى عرض من منظمة العمل الدولية لأعمل خبيرا للهجرة والسكان فى آسيا. كنت لا أزال أحلم أن يكون لى دور فى مصر، خصوصا أننى قضيت سنيِ الشباب فى السجن، فرفضت العرض وقررت أن أستمر فى المجلس رغم الحصار الذى كنت أعانى منه، لكن مع مجىء "السادات" إلى الحكم أصبحت الظروف المحيطة بى أسوأ مما كانت من قبل ففكرت فى أن أقدم استقالتى وأبحث عن فرص العمل الحر.

تشاورت مع "نوال". فقالت "أقدم ولا تخف. لكنى أقترح قبل أن تتخذ أى خطوة أن تكتب إلى الرجل الذى عرض عليك العمل كخبير فى "منظمة العمل الدولية".

قلت:

" لكن مر على عرضه أكثر من تسعة شهور. لابد أنهم أعطوا العمل لشخص آخر".

قالت:

أرسل له خطابا. قل له أنه لم تعد لديك ارتباطات تحول دون السفر. لن تخسر شيئًا".

كتبت الخطاب، وهبطت معى لنضعه فى صندوق البريد. أخذت منى المظروف، وأسقطته فى الفجوة المفتوحة عند أعلاه. رفعت الغطاء المعدنى بحرص، وحملقت فى الأعماق المظلمة كأنها تريد أن تطمئن على أنه لم يوقفه شىء، ثم عدنا إلى البيت. يدها الممسكة بيدى تضغط عليها. تنقل إلى شحنة من التشجيع. تقول لى أنا معك فلا تقلق، ولا تحزن.

بعثت بالخطاب ونسيته. مرت تسعة أيام. دق جرس الباب. ساعى البريد يقف على عتبة الشقة يقول:

" صباح الخير. جواب مسجل. أمض هنا لو سمحت".

حملت المظروف الأزرق بين يدى. العنوان مكتوب بالآلة الكاتبة، وفى الركن طابع عليه اسم "هلفيسيا". فتحته. قرأته بسرعة. بدا لى أننى أخطأت الفهم، فقرأته مرة ثانية. فى أصابعى رجفة. قرأته مرة ثالثة. عيناى تمران فوق السطور ببطء، فأنا أكاد لا أصدق ما يقوله رئيس الإدارة الذى كتبت إليه "إن وظيفة الخبير الإقليمى لجنوب شرقى آسيا ما زالت خالية، وإنه يسره أن يعرضها على مرة أخرى فهو يرى أننى أصلح من تقدم إليها. يسألنى إن كنت موافقا، ومتى أستطيع أن ألتحق بالعمل حتى يبعث إلىّ بشروط التعاقد، ووصف تفصيلى للمهام التى أقوم بها، والحقوق التى ترتبط بوظيفتى.

كتبت إليه بالموافقة. وبعد عشرة أيام وصلتنى الأوراق التى وعدنى بإرسالها. المرتب الذى سأبدأ به ستة وثلاثون ألف دولار فى السنة أى ما يقرب من سبعين ضعف المرتب الذى أتقاضاه فى الحكومة المصرية، تأمين صحى كامل فى أرقى العيادات، والمستشفيات، مصاريف الأطفال فى المدارس تدفعها جهة العمل، إجازة سنوية فى الوطن تشمل مصاريف الطيران فى الذهاب والعودة، أو إنتقال الأولاد أو الزوجة فى الإجازة إلى مقر عملى "بنيودلهى"، معاش بعد خمس سنوات من بداية التعاقد يئول إلى أسرتى فى حالة الوفاة، ومكافأة عند نهاية الخدمة.

يوم ١٧ أغسطس قابلت الدكتور "عبده سلام" وزير الصحة السابق أصبح رئيس مجلس إدارة شركة أكديما". جلست معه دقائق قليلة وحكيت له ما حدث. حملق فى وجهى لحظة طويلة ثم قال:

" أفلت من الخية. مبروك".

ليلة ٣١ أغسطس وضعت الحقيبة المعدة للسفر فى الصالة وتركت حقيبة اليد على مقعد حتى أضع فيها الأشياء الأخيرة التى قد أحتاج إليها. آخر ليلة فى القاهرة قبل رحيل سيحملنى إلى الناحية الأخرى من الدنيا. إلى الهند، وإلى أسيا.

هبطنا من الشقة أنا، و"نوال"، و"منى"، و"عاطف". ركبنا فى السيارة، وانطلقنا. المدينة متلألئة تجتازها تلك النسمة الصيفية الجميلة التى لم أعرف مثلها فى كل البلاد التى زرتها. لها ملمسها الخاص على جلدى. لها مكانتها الخاصة فى قلبى.

فى السيارة حملنا معنا بطانية، وحصيرة، وعددًا من الشلت، وأطباقًا، وأكوابا، ومفرشا. أردت أن آخذ بعض الملاعق والشوك، والسكاكين، فقالت "نوال": "يا شروفة عشان إيه؟ الأكل بالأيدين أظرف".

توجهنا إلى شارع القصر العينى، وتوقفنا أمام مطعم "أبو شقرة". هبطنا منها، ودخلنا. الرجل الجالس خلف الخزينة ينظر إلينا بتلك النظرة اللامبالية الخالية من أى شىء التى نراها فى عينيه كلما ذهبنا إلى هذا المطعم. يطل علينا شاحب البشرة، أبيض الوجه أصلع الرأس الخالى من الشعر تماما. مرت السنون وهو يجلس هذه الجلسة كـ"بوذا" فى معبد. لم يتغير شكله، نفس الشحوب، والصلعة والملابس القاتمة، والنظرة الحيادية تمر على وجهى كما مرت عليها عشرات المرات كأنها تمر على مقعد، أو على ضلفة الباب يفتح.

أخذ منى النقود وقال:

"ثلث ساعة".

قالت "نوال":

" سأتمشى فى الخارج مع "منى" تيجى معانا يا "عاطف" ولا تقعد؟".

قال "عاطف":

"حاقعد مع شرف. عايز أشوفهم بيشووا اللحمة".

جلس إلى جوارى صامتا يتتبع. أشعر بجسمه ملتصق بجسمى، بالألفة. يركن إلىَّ مطمئنا. لا شىء يفصلنى عنه. إنه من لحمى ودمى لكنْ ليس هذا هو ما يهمنى. تربطنى به أشياء أقوى. إنه المستقبل الذى سيعيش من بعدى. أراه حلم حياة تتحقق.

خرجنا نحمل لفف الأكل. قدت السيارة حتى كورنيش المعادى. افترشنا الحشيش ووضعنا فوقه الحصيرة، والبطانية والأطباق والأكواب، ولفة الكباب والكفتة. ذهبت إلى كشك قريب وعدت حاملا زجاجات من البيرة المثلجة.

جلست بينهم آكل، وأشرب. أصواتهم تصل إلى، تتدفق مثل النهر تجرى أمواجه الفضية الصغيرة فى ضوء القمر. الوقت يمر دون أن آشعر. كل شىء من حولى يتداخل فى نسيج واحد من الأحاسيس: القمر والنيل، الأشجار تلقى بظلالها فى السائل الفضى، فلوكة ألمح جناحها الأبيض، صوت أم كلثوم يغنى، وضحكات كالمياه النقية تكركر، الطعام فى فمى، والبيرة تصعد إلى رأسى، وحزن بعيد أنصرف عنه فلا مكان فى هذه الليلة إلا للفرحة، لطائر سيفرد جناحيه، ويطير بعيدا نحو آفاق الدنيا.

الطائرة الضخمة رابضة على الأرض، كالصقر العملاق سينطلق من الأسر، تستجمع قواها قبل أن تصعد. جاذبية الأرض تمسك بها مثل القيد. صوت نسائى كسول يتكلف نطق الكلمات يعلن عن موعد إقلاعها ألتقطه بأذنى تنتظران هذه اللحظة فى توتر فربما تفوتنى، فأنا كالعداء فى سباق يرهف السمع لطلقة المسدس.

كان يجب أن أشعر بالحزن. عقلى يقول لى أنى سأفتقدهم، سأفترق عنهم لمدة لا أعرف مداها. لكن قلبى مفعم بالفرحة، بشعور عارم قوى متدفق لم أعرفه. وجدانى يسبقهم إلى الآفاق تنتظرنى، ويتركهم ورائى فى هذه اللحظة. ألان الحرية أقوى حتى من الحب؟

أجلس فى المقعد وأطل على المطار. فى جيبى جواز للسفر الدولى لونه أزرق يفتح كل الأبواب، ويخترق الحدود دون أن يتوقف، وفى جيبى دولارات أحملها لأول مرة. الطائرة تزحف ببطء على نغمات الموسيقى أخذت تخفت. تلف فى الممرات، وتتحنى ثم تتوقف، وفجأة تنطلق مثل كتلة من الرعد حالوا طويلاً دون انطلاقها. تهتز، وترتعد فى نشوى، فى فرحة الصعود، والطيران دون قيد صاعدة فى السماء أعلى وأعلى.

أطل على القاهرة. فى أذنى طنين، وفى قلبى يسرع النبض. أرى الجناح الضخم يلمع. أرى البيوت صغيرة، ومساحات الخضرة تحاصرها، ورمال الصحراء بلونها الأصفر. أسند رأسى على ظهر المقعد، وأصعد مع الطائرة على موجة من السعادة. أتخلص لأول مرة من قيود الوطن أثقلت جسمى وقلبى وعقلى لسنوات طويلة وأرهقتنى.

الدولة فى بلادنا انتزعت منى الوطن الذى أنا جزء منه. لم تشعرنى أبدا أننى أملك فيه شيئا. قالت لى لا صوت لك ولا رأى. طاردتنى ببوليسها، ومحاكمها، ومشايخها، حتى تبيعه مقابل ما يمكن أن تحصل عليه. سعت إلى القضاء علىَّ، إلى تحطيم ما لدىَّ من موهبة، وقدرات، وثقة فى النفس. كلما قاومتها كشفت عن أنيابها، أو غرستها فى لحمى. أرادت أن تحولنى إلى دمية بلا شخصية، بلا صوت، أن تجعلنى أردد ما تقوله، وأفعل ما تريده. ظلت تهمشنى وتجعلنى بلا قيمة. كل هذا باسم الوطن، باسم مصر، أو السلام الاجتماعى، أو الدستور، أو القيم، أو الرفاهية القادمة، أو وحدة الصف، أو مواكبة العصر. إنها لا تستطيع أن تبيع الوطن، الا إذا أسكتت كل صوت أو استأنسته فى اللعبة الديمقراطية تعلمتها من أسيادها.

فى يوم من الأيام كان لى حزب أنتمى إليه، وكنت أظن أن الاشتراكية تبنى على ثلث الأرض. كان لى وطن نسعى إلى استقلاله. لكن الوطن أخذوه منى، والاشتراكية انهارت مثل البناء الهش. فما الذى بقى لى بعد ذلك حتى أنتمى إليه؟.

الوطن لم يعد سوى بؤرة أقاوم منها، تاريخ وذكريات، طفولة، رائحة فى الجو، أمواج من البشر سائرون دون أن يعرفوا إلى أين. ما الذى تغير، وما الذى بقى مما كنت أعرفه؟ هل أظل محصورًا فى رؤيتى أم آن الأوان لكى تمتد فوق الأرض حتى أواجه مع غيرى خصما بلا وطن، ولا جنس، ولا لون، ولا شكل. كيف نحاصره؟ هل علينا أن نعمق معنى الإنسانية؟

انهار البناء الذى من أجله تركت كل شىء. لكن خارج السجن التقيت "بنوال". معها اكتشفت الفن، وعالم المرأة كنت أجهله.. اكتشفت قوة إبداع وتغيير خطيرة لازلنا نهملها. بينى وبينها قامت صداقة والصداقة هى التى أنقذت زواجنا. الزواج فى مجتمعنا علاقة فاسدة مفروضة علينا، بوتقة للزيف والظلم، معمل يفرخهما يومًا بعد يوم، ركيزة المجتمع الطبقى الأبوى الرابض علينا بكل أثقاله، علاقة لا تستقيم إلا بالصراع ضد قوانينها.

الصداقة خلقت منه علاقة جديدة، فيها مساواة وفهم، فيها رقة، وإحساس، وحرص على الآخر يعبر عن نفسه فى اللمسات، فى لغة العيون، فى الحضن، فى غطاء أشده من حولها لأقيها من البرد، فى نافذة الصباح تفتحها لتدخل على الشمس، فى حوار نتبادله سائرين على كورنيش النيل فى الفجر، فى يدها تمسك بيدى قبل النوم فأطمئن.

علاقتنا أصبحت كالبحر الهادئ العميق نغطس فيه دون أن نخاف الغطس. نمارس فيها نوعا من الوفاء لا علاقة له بالزواج ولا يجبرنا عليه عقد، أو مال، أو أولاد، أو رغبة فى الاستقرار أو قوة العادة أو خوف من الوحدة، ولا أى شىء. فهو مبنى على الاختيار الحر.

وصلنا إلى ما وصلنا إليه بعد صراع. كشفنا الجرح لنعالجه. غصنا فى الألم إلى قاعه حتى نتغلب عليه. أحيانا تقول لى. لكن الصداقة خالية من الأوهام والحب وهم. فى غياب الوهم لا يبقى إلا واقع خال من وهج الخيال، من لحظات الجنون ربما نحتاج إليها.

شىء فى الرحيل والسفر يفتح شهيتى للحب. حركة الطائرة تنساب فى الفضاء، وأنا كالذرة الهائمة فى الكون تحررت من جاذبية الأرض، من الماضى، والتاريخ، من علاقات تثقلنى. هنا أنا وحدى لا يعرفنى أحد. هنا أنا حر.

جالس فى مقعدى فى يدى كتاب. أفتحه، أحملق فى سطوره، أغلقه. ألتفت حولى. أبحث عن ملامح تجذبنى، عن عيون فيها شىء، فيها قصة أو شعلة، لغز أريد أن أكتشفه، سؤال يوجه إلى.

على يمينى رجل أمريكى ذراعاه، وساقاه طويلة وجسمه صغير الحجم كالعنكبوت حشر نفسه فى الحيز المحدود للمقعد، وانكب على القراءة. سألته فقال أنه يعمل فى مصر خبيرا فى زراعة الكانتالوب، والفراولة بدلا من القمح. فلما أبديت انحيازى لزراعة القمح بدلا من الكانتالوب عاد إلى القراءة فى الكتاب الضخم الذى كان منهمكًا فيه قبل أن أسأله.

على يسارى يفصل الممر بينى وبين امرأة فى مقتبل العمر، لا تكف هى وابنها البدين عن المضغ. أفكر فى أن أطلب كأسا من الويسكى، أو "الجين" ثم أعدل عنه. ما زال أمامى ساعات من السفر والخمر سيتعبنى. أغلق جفونى. أسمع صوتا نسائيا يسألنى "أتريد برتقالا، يا سيدى". أفتح عينى. المضيفة تميل على بكئوس صغيرة. أتناول كأسا، وأرتشف منه.

تركت مدينة "درهام" فى الصباح. أوصلتنى "نوال" للمطار بسيارتنا "الرينو" الحمراء الصغيرة. ودعتنى قائلة "أوعى تلعب بديلك. حاكم أنا عارفاك" وضحكت ضحكة صغيرة كركرت منها. غمغمت "حألعب فين" فنظرت إلى بتلك اللمعة الشيطانية فى عينيها التى أحبها، وأخاف منها.

أضع الكأس على الرف أنزلته من ظهر المقعد المنتصب أمامى. أغلق عينى. حلقى جاف، وفى جسمى يتحرك الشبق لامرأة مجهولة لم أرها من قبل تشبه المومس التى التقيت بها فى باريس وأنا شاب. وهج فى الشعر الغزير يلمس وجهى وشفتان حمراوان بلا أحمر شفاه، وعينان أقرب إلى الزرقة الداكنة تصعد نظراتهما من الأعماق وهى تميل على. أسمع البحة فى صوتها وهى تحدثنى "أنت لا تعرفنى. وأنا لا أعرفك لكنى أريدك؟ هل تريدنى أنت؟".

التقطت المضيفة كأسى الفارغ من فوق الرف. فتحت عينى وأغلقتهما. عدت إلى الخواطر والصور تدور فى رأسى. هل تفكر "نوال" فى رجل آخر عندما أكون بعيدا عنها؟ هل الجسد الذى عرفناه، واعتدنا عليه عاجز عن أشباعنا، لم يعد فيه أسرار، أو أغوار نكتشفها؟ هل المجهول هو الذى يشعل خيالنا، هو القادر على إثارتنا؟.

صوت الميكروفون يقحم نفسه على. يقول: "أنا قبطانكم" بريان تشيزويك". اقتربنا من مطار "هيثرو"، وسنهبط فيه بعد نصف ساعة. الجو فى لندن فيه سحب قليلة، وبرودة لكن يقولون أن الشمس ستسطع باكر. أرجو أن تكون قد استمتعتم برحلتكم معنا".

أفتح عينى. المرأة وابنها يمسك كل منهما بكيس من "التشيبسى". أسمع صوت الشرائح الرفيعة الجافة وهى تتكسر مع حركة المضغ. الخبير يضع كتابه الضخم فى حقيبته المنتفخة. يلقى إلىَّ بنظرة ضيق كأنه لا زال يتذكر حوارنا حول الكانتالوب، والقمح. أرسلته الحضارة الأمريكية لكى ينقذنا فقلت له إن خبرته لن تنفعنا.

قمت، وتوجهت إلى دورة المياه. طالت وقفتى أمام الباب. أشعر بالمثانة تثقلنى. أخيرا فتح الباب وخرج منه صبى أشقر الشعر يرتدى قميصا مشجرًا فاقع الألوان رمقنى بنظرة فيها صفاقة كأننى لم أعجبه.

تبولت مسندًا يدى على الجدار فالطائرة أخذت تهتز. غسلت وجهى ويدى ومشطت شعرى. فحصت وجهى فى المرآة فشعرت بالضيق. مرايا الطائرات تبرز التجاعيد أكثر من غيرها.

فتحت الباب، وخرجت. شابة تقف فى الممر، وتدخن. عندما مررت أمامها مطت شفتيها الممتلئتين ونفثت دفعة من الدخان فى وجهى. عدت إلى مقعدى. ربطت الحزام حول خصرى. فحصت محتويات الجيب الموجود أمامى، والمساحة تحت قدمى لأتأكد أننى لم أنس شيئا. أرحت جسمى فى المقعد فى انتظار صدمة العجلات وهى تهبط فوق الممر.

هبطنا. أحسست بالطائرة تجرى ثم سمعت هدير المصدات الهوائية وهى تبطئ. صوت الميكروفون يتردد. التقط الكلمات بمشقة "الرجاء من المسافرين إلى القاهرة أن يتجهوا فورًا إلى الباب رقم ٣٢ ليستقلوا طائرة الخطوط البريطانية المتجهة إليها. لم يبق سوى أربعين دقيقة على ميعاد إقلاعها".

أعدو فى الممرات. عيناى تلتقطان الأرقام. لافتة تنذرنى بنهاية الممشى المتحرك الذى انطلقت عليه، ومن شدة الحرص تتعثر قدمى عندما أمر عليه. أحرك ذارعى فى الهواء لأعيد التوازن إلى جسمى. أصل إلى البوابة رقم ٣٢. أقدم بطاقتى وجواز سفرى للمرأة الشابة المنتصبة خلف الكاونتر. أسألها عن مصير الحقائب بها أوراق أنا قلق عليها. تستمر فيما هى فيه كأنها لم تسمعنى، ثم ترفع إلى نظرة زرقاء لا مبالية وتقول ليس لدينا وسيلة للتأكد من أن حقائبك نقلت إلينا، ولكن اطمئن ستجدها فى مطار القاهرة عندما تهبط.

أتوجه إلى الطائرة بسرعة. أبحث عن مكانى. أضع حقيبتى فى الخزان أعلى رأسى. أجلس وأربط الحزام ثم أنتبه إلى أن الراكب الذى سيجلس إلى جوار النافذة لم يصل بعد فأفكه وأترك جزئيه يتدليان على مسندى المعقد. أتطلع إلى الواقفين فى الممر. ترى من منهم سيكون جارى فى هذه الرحلة؟

بعد قليل توقفت امرأة على مقربة منى، ونظرت إلى المقعد الخالى ثم إلىّ. قمت وتركتها تدخل. فى مقتبل العمر، سمراء البشرة ترتدى ملابس بسيطة فيها ذوق. ربما مصرية تعودت السفر إلى أوروبا. كانت معها بعض المجلات أخذت تتصفحها دون أن تنظر إلىّ.

طال الانتظار والطائرة واقفة فى مكانها. الأبواب مغلقة، والمقاعد كلها مشغولة بركابها. انتهيت من قراءة الجريدة التى أخذتها من الرف، ولم يحدث شىء. ثم تردد صوت رجالى

نبراته متفائلة كأن كل شىء على ما يرام "لم يبق سوى عشر دقائق ونقلع فى طريقنا إلى القاهرة. مشكلة فنية بسيطة هى التى عطلتنا".

مرت دقائق عشر، وبعدها دقائق عشر أخرى. أخذ الراكبون فى التململ. المضيفات ترحن وتجئن دون أن تتمخض هذه الحركة النشيطة عن شىء، ثم اختفين ولم تبق سوى الموسيقى الخافتة قطعت فجأة وجاءنا صوت حزين لينبئنا أن الطائرة لن تستطيع أن تقلع، إن هناك عطبًا فنيًا يحتاج إلى قطعة أرسلوا فى إحضارها، إننا سنبيت الليلة فى فندق "هيلتون" وهو موجود على بعد مائتى مترًا، إنه علينا أن نتواجد فى المكان نفسه باكر صباحا فى الساعة الثامنة لأن الطائرة ستغادر المطار فى التاسعة والنصف.

أخرجت الحقيبة من مكانها ووقفت. كان فى الطائرة ما يزيد عن ثلاثمائة راكب بدا على أغلبهم أنهم من رجال الأعمال. وقفوا فى الطابور الطويل يحملون فى أيديهم حقائب لليد مصنوعة من الجلد ومزودة بأرقام فضية أو ذهبية اللون للفتح. نظراتهم المتعالية تقول أنهم عركوا الدنيا ولم يعد فيها ما يستحق اهتمامهم. بين الحين والحين يتبادلون التعليقات باللغة الإنجليزية ويضحكون بضحكة تهز أجسامهم.

وسط الضجيج المتزايد التقطت صوتا نسائيا من ورائى يسأل "ما الذى يعطلنا عن الذهاب إلى الفندق؟".

التفت. لمحتها طويلة، نحيلة، تميل إلى السمرة. عيناها الواسعتان تفحصاننى فى ثبات فخفضت عينى، وانحنيت لأطل من النافذة على حركة المطار. سمعت أحد الرجال يرد عليها قائلا إنهم ينهون الترتيبات مع الفندق فعدد الراكبين كبير، ولابد من توزيعهم على الغرف قبل أن يتوجهوا إليه.

رفعت قوامى واستدرت لأراها مرة أخرى. فحصتنى بنفس النظرة الثابتة من الزرقة القاتمة لعينيها. ثم بادرتنى قائلة:

"لدى إحساس أننا التقينا من قبل فملامحك ليست غريبة على."

استيقظت الحيوية الضائعة منى. تبخر الإحساس بالضجر والإرهاق. قلت "ربما شخص يشبهنى. فى بلادنا نقول "يخلق من الشبه أربعين"."

أضاءت ابتسامتها. أزاحت الشعر الطويل من على كتفيها بحركة من الرأس. سألت "من أى بلد أنت؟".

قلت:

"من مصر".

هتفت:

" صحيح من مصر؟ أنا ذاهبة إلى مصر لأول مرة". صمتت لحظة كأنها انشغلت بخاطر جاءها قالت:

" الآن تذكرت أننى رأيتك فى فيلم".

قلت مندهشًا:

"لم أظهر فى فيلم أبدًا ".

واصلت كلامها كأنها لم تسمع تعليقى.

" كان الفيلم عن الكاتبة "نوال السعداوى"، وظهرت أنت فى جزء منه على شرفة البيت فى القرية".

قلبت الموضوع فى ذهنى. تذكرت. المخرجة الإنجليزية الشابة التى جاءت إلى القاهرة منذ سنين لتصور فيلمًا عن حياة "نوال".

قلت:

" عندك ذاكرة قوية. لم أظهر فى فيلمها إلا لمدة قصيرة ".

" ليس مع كل الناس. أعجبنى كلامك".

وجهها يطل على بلا أصباغ. فيه نضوج، وتأمل. سنها ربما خمس وثلاثون سنة.

تسأل:

" ما هو العمل الذى تمارسه؟ ".

" أنا أصلا طبيب. لكنى منذ مدة تفرغت للكتابة. وأنت؟".

"أنا راقصة باليه".

عدت أفحصها. القوام الممشوق يميل إلى النحافة. والزرقة الداكنة فى العينين، والشعر الكستنائى كأن هناك وهجًا يشعله. جمالها من نوع خاص يبعدها عن النمط المسمسم لفتيات الغلاف.

قلت:

"الرقص مهنة جميلة أحسدك عليها. ما أجمل الجسم عندما يتحرك مع الأنغام، ويعبر عما يكمن فى أعماق النفس".

تتنهد وتقول:

" أنا معجبة بالكتاب، بقدرتهم على التعبير عن أدق الأشياء. ماذا تكتب؟".

أكتب روايات أساسًا".

الرجال الواقفون حولنا يتتبعون ما نقوله. فى عيونهم فضول وربما الحسد أو الضيق. هذه المرأة الجميلة كيف تتركهم، وتنهمك فى الحديث مع رجل مثلى كبير السن، وليس من عالمها؟ سمعوا كلمة راقصة فانتصبت آذانهم مثل كلاب الصيد.

فوجئت بها تقول:

" يبدو أننى ضايقتك بأسئلتى الكثيرة".

قلت بسرعة:

لا أبدًا. على العكس. الحديث معك ممتع.

اقتحمنا صوت المضيفة فى الميكروفون وهى تقول:

" يمكنكم الآن التوجه إلى فندق "هيلتون" المطار. اتجهوا إلى اليمين عند النزول من سلم الطائرة واستمروا فى السير فى خط مستقيم إلى أن تصلوا إليه. الرجاء التأكد قبل النزول من عدم ترك أية أمتعة خاصة بكم فى الطائرة".

وقفنا صفوفًا فى بهو الفندق إلى أن حصل كل منا على مفتاح حجرته. كارت الكرتونى لم أره من قبل فسألتها. ضحكت. وقالت:

" سأصعد معك لأريك كيف يفتح الباب. لن تجد أحدًا يرشدك وسط هذه الفوضى".

فى المصعد أشعر بها قريبة منى. يدها تلمس يدى ثم تبتعد عنها. وصلنا إلى باب حجرتى فتحته أمامى وقبل أن تتركنى ترددت لحظة ثم سألتها:

"ما رأيك فى أن نتناول العشاء سويًا؟"

حملقت فى وجهى كأنها تحاول أن تستشف منه شيئا ثم قالت:

" لِمَ لا.. سأصعد إلى حجرتى لمدة ربع ساعة، وبعدها يمكن أن نلتقى فى المطعم".

كانوا قد خصصوا لكل منا "بونًا" للعشاء قيمته أربعون دولارًا فجلسنا إلى إحدى الموائد واختار كل منا ما يريد. اكتشفنا أن عندنا فائضًا مقداره عشرون دولارًا سألتها:

" ما رأيك. هل تريدين حلوا، أم زجاجة نبيذ نقتسمها ".

قالت:

" أنا حالتى المزاجية تغرينى بالنبيذ. وأنت؟ "

قلت:

" وأنا كذلك. سنحتفل بهذا اللقاء".

أضافت:

" وبأول زيارة لى إلى مصر".

أحسست بخيبة أمل بسيطة. ابتسمت.

" طبعًا.. مصر كانت أم الدنيا. من أى بلد أنت".

قالت:

" بلد سخيفة للغاية اسمها كندا ".

" لماذا تقولين أنها سخيفة. أسمع أنها جميلة جدًا خصوصا فى الخريف".

" الطبيعة جميلة. لكان الناس". هزت كتفيها. ثم أضافت.

" لا طعم لهم. ليسوا إنجليز، ولا فرنسيين، وأمريكا تقلقهم. تائهون لا يعرفون من هم".

أكلنا، وشربنا. سألتنى عن مصر، وسألتها عن حياتها. تحيا فى مدينة "فانكوفر" فى مدينة نظيفة، منسقة فيها زهور وأشجار، ومبان بيضاء راسخة فى الأرض لكن الحياة فيها مملة. صنعت لنفسها فيها ركنًا، "استديو" صغير تحتمى فيه عندما لا تنشغل بالرقص. تذهب إلى عملها كل يوم على دراجتها. تواظب على التدريب حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، ثم تعود إلى البيت. عمرها ثلاث وثلاثون سنة. ترقص فى فرقة "فانكوف " للبالية منذ اثنتى عشرة سنة. راضية عن حياتها. تعلمت كيف تحيا فى اللحظة الحاضرة دون أن تنشغل كثيرا بالغد. أسألها:

" لماذا إذن مسحة الحزن قرأتها فى عينيك".

تضحك وتقول:

" من الذى يسأل، الطبيب أم الكاتب". فأرد:

" الاثنان".

" لأننى أحلم بالذهاب إلى "نيويورك" لأنضم إلى فرقة للرقص أتعلم فيها ما ليس متاحًا لى فى فرقتنا. فى ذهنى رقصات أريد أن أصممها، وهناك يمكننى أن أجد الجمهور الذى سيشجعنى لكنى مترددة. ماذا لو ذهبت ولم أوفق فى شىء؟ " أشجعها. أقول لها أن التغيير مهم، أن كل تقدم هو قفزة لا نستطيع أن نضمن نتيجتها قبل الإقدام عليها. تتنفس بعمق. الزرقة الداكنة فى عينيها فيها لهب صغير أتتبعه. فى جسمى يتحرك النبض. أحكى لها عن حياتى، عن السجن. أسعى إلى إثارة اهتمامها. أريد أن أنال إعجابها، أن أراها وهى تنظر إلىَّ

بنظرة الأنثى إلى رجل يعجبها، أن أستمتع بلعبة الحب اللذيذة لم أعد أمارسها. أنسى من أنا، ومن أين جئت. أتخفف من العبء. أحيا هذه اللحظات فى عينيها. أنا وهى وحدنا، وعلى أطراف الوعى ألمح الأدوات الفضية والمفارش البيض، ووجه النادل يسألنا عن شىء فأهز رأسى دون أن أعرف ما الذى يسأل عنه. أصب لها فى الكأس وأتأمل أصابعها تحتضنه، ثم ترفعه إلى شفتيها لترتشف منه، فتصعد الرشفة إلى رأسى، وتظل هناك دون أن تهبط منه. أراها قريبة منى أكاد ألمسها، وأراها بعيدة عنى ففى مكان ما، ربما فى قمة الرأس حيث لم يصل الخمر نقطة وحيدة ينبض فيها الوعى، مثل العين الكاشفة، تلتقط الإلكترونات الطائرة فى الجو، مثل الرادار الحساس يسجل الذبذبات قبل أن تفلت منه، يراقبنى وأنا أترك نفسى لهذا التأرجح المسكر لا أعرف إلى أين يمكن أن يقودنى.

سرنا فى الممر تحت الأضواء خافتة. أرى أنفها فوق الشفتين، وخصلة من الشعر تسقط على جبهتها. يدها فى يدى مستقرة تحدثنى عن لحظات قادمة أتوق إليها. الصبى الصغير يفتح باب المصعد أمامنا ويضغط على الزر. أتأمل قبعته لأتفادى النظر إليها ففى التقاء العيون اعتراف بالرغبة التى طغت على. أنا هارب من الإثم الجميل مقبل عليه.

افتح الباب. أسمع أنفاسها بالقرب منى ثم تبتعد. مصباح صغير يضاء إلى جوار السرير. تقف لحظة فى شرود. تخلع السترة التى ترتديها، وتلقيها بعيدًا، ثم تخلع ثيابها فى هدوء دون أن تنظر إلى. تستدير فأراها جسدًا عاريًا، وتساؤلا فى العينين، جسدًا نابضا لا أعرف كيف أصبح بين ذارعى.

هل حدث كل ما رويته أم أنه لم يكن إلا خيالا تبخر عندما استيقظت لأجد نفسى راقدًا وحدى فى سريرى ورنين الإيقاظ ينتزعنى من النوم العميق. فعندما أعود إلى تلك الليلة كل ما أتذكره هو أننا تحدثنا إلى أن اقترب منا النادل الشاب بابتسامة رقيقة ليخبرنا بأنه لم يبق سوى خمس دقائق قبل أن تغلق أنوار المطعم علينا، فقمنا وسرنا حتى المصعد ارتفع بنا بحركات ناعمة سريعة، إنها عندما وصلت إلى الدور الذى توجد فيه حجرتها قالت:

"شكرًا على الليلة الجميلة" ثم خرجت لتتركنى أصعد وحدى إلى غرفتى فى الدور الذى يليه.

وصلت طائرتنا إلى القاهرة قرب الساعة الثانية. عند ممر الخروج

كانت تقف ابنتى "منى". وضعت يدها على كتفى كما تفعل دائما، وقالت:

"إزيك يا شرف. حمد لله على السلامة."

لمحت "عاطف" ابنى يقف على مسافة قصيرة ويبتسم إلىَّ.. وفى اللحظة نفسها لمحت راقصة الباليه وهى تسير على بعد خطوات. كان ينتظرها شاب طويل القامة، أسمر البشرة له

شارب صغير. قبلها على وجنتيها وأخذ منها حقيبة اليد التى كانت تحملها.

احتضننى "عاطف" بين ذراعيه. وسألنى:

" الرحلة كانت كويسة؟".

فقلت:

"أيوه كويسة. وانتو إزيكم يا صغيرين؟".

الفصل الحادى والعشرون

(إلى أمريكا)

فتحت عينى على صوت يشبه رنين الجرس. تلفتُّ حولى. لم أجد سوى الظلام. أحسست بالوسادة تحت رأسى مبللة. مسحت بيدى عليها، وعدلت وضعها. العرق يسيل على جسمى العارى تحت الجلباب. نحيت الغطاء جانبا، وأرهفت السمع لالتقاط الرنين لكنه لم يتردد من جديد.

قبل أن أستيقظ كنت أحلم أننى أقف على شاطئ يحف به النخيل، أرى رءوسه وهى تميل، والقمر فوقها يطل من بين غصونها، وينعكس فى الخليج. يظل ساكنًا على سطح مياهه، ثم فى لحظة ينكسر إلى شظايا مثل الصواريخ النارية عندما تنفجر فى سماء العيد، تثير فى جسمى فرحة طفولية أشبه بالنشوة، تسرى فيه مع همس المياه، والريح. عند قدمى تزحف أمواج دافئة، صغيرة، تصعد حول ساقى ثم تنسحب لتكشف عن صخور ذات أشكال غريبة، عن مدينة مدفونة تحت المحيط. وفجأة يختفى كل شىء لأجد نفسى واقفًا على رصيف من الأسمنت. الزمن تراجع، وأصبحت شابا شعرى أسود طويل. أرتدى قميصا خشنا من التيل لونه أزرق. ألتفت إلى جانبى فألمح فتاة بيضاء نحيلة ترتدى ثوبا فضفاضا، وجهها المضىء يغمرنى بإشراقه. عيناها واسعتان فيهما قوة غريبة تجذبنى إليها، وملامحها حادة لا ميوعة فيها. وجه لم أر مثله فى حياتى، ولا يمكن أن أنساه. أمد لها يدى لكنها تتراجع بعيدًا عنى ثم تعدو فوق الرمال. أرى ثوبها يرفرف وراءها وشعرها المسترسل الطويل. أفكر فى اللحاق بها. أشعر أن شيئا ثمينا فى حياتى سيضيع، أن هذا اللقاء لن يتكرر لكن قدماى تلتصقان بالرصيف. أحاول أن أخلعهما منه بكل ما أوتيت من قوة. عضلاتى تنقبض، وأنفاسى تتلاحق حتى أكاد أختنق. يصيبنى الهلع كمن يغرق فى البحر، وفجأة جاءنى الرنين. أحسست أننى أصعد من بئر عميق إلى سطح الحياة. تملكنى شعور بالراحة كأننى أفلت من الموت، لكن شعور الراحة تخلله حزن عميق. كأننى كنت أبحث عن هذه المرأة طوال السنين فلما وجدتها ولت منى هاربة، مثل كل الأحلام التى راودتنى دون أن يتحقق منها إلا القليل.

انقلبت على جانبى ساعيا إلى الحلم من جديد. إلى الفتاة ذات الملامح الحادة، ونظرة العينين القوية المضيئة التى ملأتنى بالسعادة، وكأنها تجسدت فيها رغبات، وأشياء فى نفسى عميقة لم أكن أعيها فلما وجدتها أمامى خاطبتنى قائلة " أنا هى".

مرت هذه الخواطر فى ذهنى بسرعة، وفى تلك اللحظة دق جرس الباب من جديد. هذه المرة لم أتشكك فيه. أعادنى إلى الواقع المضطرب أعيش فيه. بدا فى السكون حادا كالسكين يحفر بينى وبين الحلم هوة عميقة. مددت يدى باحثا عن مفتاح النور أعلى السرير، لكن قبل أن تصل يدى إليه توقفت فـ"نوال" نائمة، أو هكذا خيل إلىَّ، وهى تنتفض فى توتر عندما يضاء النور فجأة فى ظلام الليل.

جلست على حافة السرير، وبحثت بقدمى عن الخف. اصطدمت ركبتى بالمنضدة نضع عليها الصحف، والمجلات والكتب التى نقرأ فيها قبل النوم. قمت مسندا يدى عليها. جاءنى صوت "نوال" وهى تقول فى صوت هادئ:

" على مهلك. ما تفتحش الباب إلا لما تعرف مين".

أدركت أنها استيقظت على الرنين، وأنها أخذت تتتبع ما يدور دون أن تعلق بشىء. أضأت نور الصالة فغمر المكتبة الكبيرة، وصفوف الكتب والجدران البيضاء المدهونة حديثا. على المائدة انتصبت آنية فيها ورود حمراء، وإلى جوارها طبق به بقايا من الخبز، وجبن "أريش". زحف على الإحساس باستقرار الحياة اليومية فزال عنى جزء من التوتر الذى سببه لى رنين الجرس فى ظلام الليل.

وقفت خلف الباب. لمحتهم فى العين السحرية يرتدون القمصان البيض، ورءوسهم عارية، كانوا ثلاثة رجال أحدهم يتأبط قبعة ضباط البوليس. أحسست من وقفتهم أنهم لم يحضروا للتفتيش أو للقبض علينا. ملت برأسى لأتبين ملامحهم. لم التقط فى الضوء الضعيف سوى أنفًا كالمنقار الطويل، ويدا تمسح العرق من فوق الجبهة بمنديل، ثم أذنا تقترب من الباب لتلتقط ما يدل على وجود حركة فى البيت.

فتحت شقا فى الباب، تاركا السلسلة فى المزلاج، وأطللت عليهم. مازالت ملامحهم غامضة تتأرجح أمام عينى فى الظلال فقد قمت من السرير فى الظلام، وفاتنى أن أرتدى عويناتى. تفرست فى وجه الرجل الذى بدا من وقفته أنه رئيسهم. شاب يرتدى القميص، و"البنطلون" فى وجهه تلك الوسامة التى لا توحى بشىء. كانت تتدلى من بين أصابعه سبحة قصيرة، وضعها فى جيبه عندما فتحت الباب. قال:

" مساء الخير يا فندم. نأسف لإزعاجكم فى هذا لوقت المتأخر من الليل. أنا العقيد .... حضرت من مديرية أمن الجيزة. أريد أن أتحدث مع الدكتورة "نوال السعداوى". هذه هى شقتها أليس كذلك؟".

" نعم هى شقتها. وأنا زوجها الدكتور شريف حتاته ".

لمحت ابتسامة صغيرة على شفيته كأنها حقيقة لا تخفى عليه. قال: "تشرفنا، هل يمكنك أن تبلغ الدكتورة برغبتى فى التحدث إليها؟".

قلت:

" أستأذنك فى رؤية البطاقة الخاصة بك".

نظر الرجلان الآخران إلى أقدامهما. حملق العقيد فى وجهى لحظة ثم مد يده إلى جيبه الخلفى وأخرج منها محفظته. فتحها أمامى وانتظرنى حتى فحصت البطاقة الموضوعة فيها، وأعادها إلى جيبه.

قلت:

" الدكتورة كانت نائمة عندما سمعنا الجرس. هل أستطيع أن أقوم مكانها، أن تبلغنى بما تريده منها؟.

ظل صامتا لحظة ثم قال:

" لا مانع. نستطيع أن نقوم بمهمتنا دون إقلاقها. جئت لأبلغها أن السلطات المسئولة عن الأمن قررت أن تضع عليها حراسة .

" حراسة؟ ".

" نعم حراسة. هناك ظروف تستدعى ذلك ".

" وما هى هذه الظروف ".

قال:

" اليوم حدثت محاولة لاغتيال أحد الكتاب المعروفين".

" فرج فوده؟ ".

هز رأسه فى وجوم.

"نعم".

أخذت نفسًا عميقًا. لم يكن ليمر الهجوم العنيف الذى كان يشنه على الجماعات السلفية بسهولة. فى الفترة الأخيرة اتسع نطاقها ليشمل مشايخ الأزهر، وعددًا من رجال الدين. رأيته منذ أيام قليلة فى السفارة السويدية. كان متفائلا سعيدًا. اتفقت معه الحكومة على أن يلقى

بعض الأحاديث فى التليفزيون، وأبلغه مصطفى الفقى[1] أن الرئاسة وافقت على التصريح بقيام "حزب المستقبل" الذى سعى إلى تأسيسه منذ أكثر من سنة. ربما لكل ذلك أسرعوا باغتياله.

نزعت السلسلة من المزلاج وفتحت الباب. شىء فى نظرات الرجال الواقفين أمامى، فى الشحوب البادى على وجوههم يجعلنى أدرك أن الحدث خطير، وأن "فرج فوده" مات.

قلت:

"تفضل. يمكننا أن نتحدث فى الداخل".

ألقى العقيد بنظرة سـ إلى الرجلين قبل أن يتوجه معى إلى الصالة. أشرت إلى أحد المقاعد فجلس دون أن يدور بعينيه حول محتوياتها كما يفعل رجال البوليس عادة.

قلت:

"مات "فرج فوده" أليس كذلك؟."

أتى بحركة عصبية من يده قبل أن يجيب:

"حالته كانت سيئة. هذا هو كل ما أعرفه بالتحديد."

قلت:

"أستأذنك لحظة حتى أبلغ الدكتورة "نوال" بسبب حضورك إلينا".

غبت فى الداخل ثم عدت إلى الصالة. لمحته يعتدل فى جلسته كأن النوم كاد أن ينقض عليه. قلت.

"أستطيع أن أصنع لك كأسًا من القهوة."

قال:

"لا.. أشكرك. هل أبلغت الدكتورة بموضوع الحراسة التى ستوضع عليها؟"

" نعم فوضتنى فى أن أكمل معك أى جانب قد تريده. لكن لديها استفسارا طلبت منى أن أطرحه عليك. هل لديكم معلومات محددة عن خطر يتهددها؟."

" لا أعرف شيئا بهذا الشأن. طلب منى فقط أن أتوجه إليها لإبلاغها بأن سلطات الأمن ستقوم بوضع حراسة عليها. سنرسلها باكر صباحا. عدد الحراس ثلاثة. أحدهم سيقف عند باب الشقة، والثانى أسفل العمارة، أما الثالث فستكون مهمته مرافقتها كلما غادرت البيت".

(١) مساعد رئيس الجمهورية للمعلومات آنذاك.

أخرج بطاقة من جيب القميص، وأعطاها لى.

" هذه أرقام تليفوناتى فى العمل، وفى البيت. يمكنكما الاتصال بى فى أى وقت أن احتجتما إلى شىء. وأعتذر مرة أخرى عن إزعاجكما فى هذا الوقت المتأخر من الليل".

"لا يوجد ما يدعو للاعتذار".

اصطحبته حتى الباب. كان الرجلان الآخران ينتظرانه. هبط على السلم، وتبعاه فى صمت. أغلقت الباب، وعدت إلى حجرة النوم. لمحت عينى "نوال" تلمعان فى ظلام الليل كأنها تنبهت للخطر الذى أخذ يحوم حولها. جلست إلى جوارها على السرير، وقلت:

"يبدو أن حكاية "فرج فوده" أزعجتهم".

"ماذا قال لك الضابط عنه؟"

"قال أن حالته سيئة. وأنهم نقلوه إلى المستشفى".

"وما رأيك؟".

"رأيى أنه مات. لذلك جاءوا إلينا على عجل. حادث الاغتيال وقع فى الساعة السابعة والنصف، الساعة الآن الثانية إلا ربع. قرار الحراسة اتخذ على الفور مما يدل على أن المسألة خطيرة".

قالت:

"كان رجلا شجاعًا، والشجاعة نادرة هذه الأيام. مسكينة زوجته، وأولاده. هم الذين سيعانون من غيابه. شىء فظيع. لا أتصور أنه مات. كان معنا منذ أيام، والآن..".

" أبلغنى الضابط أن الحراسة الخاصة بك ستحضر فى الصباح."

ساد الصمت لحظة طويلة بعدها سمعتها تقول.

" إنه كبش فداء فى لعبة السياسة، شجعوه ليصدر نفسه، لكنهم لم يدافعوا عنه أبدًا، أو يساندوا مواقفه، على العكس مهدوا لاغتياله. الآن سيضعون على أنا الحراسة. هل عندهم معلومات معينة تتعلق بى دفعتهم إلى هذا؟".

" سألت ضابط المباحث. لكنه أصر على أنه لا يملك أية معلومات، أنه جاء فقط لإبلاغنا بالقرار الذى اتخذوه ".

ألم تكن هناك حراسة على "فرج فوده"؟.

" أعتقد هذا. منذ أيام عندما كنا مدعوين إلى السفارة السويدية لمحت حارسه يركب إلى جوار السائق لحظة خروجنا من البوابة".

وضعت وسادة ثانية على السرير، ورقدت إلى جوارها. اهتزت العمارة بهدير شاحنة مرت مسرعة فى الشارع. أبحث عن كلمات أملأ بها الفراغ الصامت. أشعر بها مستيقظة، بعقلها يطحن الأفكار. يدى أضغط بها على يدها، وجسمى ألمس به جسمها، ففى هذه اللحظة تعبر لغة الأجسام عما عجزت فى التعبير عنه بالكلام. نتلامس فى الظلام مثل الأطفال عرفوا بالفطرة لغة الأجسام.

مر الوقت وأنا راقد إلى جوارها. أسمع أنفاسها تنتظم بالتدريج. أدركت أنها نامت فسحبت يدى من بين أصابعها وقمت إلى الحجرة المجاورة. أضأت النور. عيناى تدوران حولها كأن كل شىء فيها جديد، لم أره من قبل، ولم أكتشف وجوده إلا الآن. هذه هى حجرة "منى" هكذا كنا نسميها حتى بعد أن تركتنا لتسكن وحدها. أنا مجرد زائر دخل إليها ليحتل ما كان لها. أصبح البلاكار الأصفر الكبير يحتوى ثيابى بدلا من ثيابها، وأصبحت رفوف المكتبة تحمل كتبى بدلا من كتبها لكن روحها تحلق فيها رغم غيابها. الأشياء كلها تتحدث عنها. بصمات شخصيتها مطبوعة على الفيل الصغير يطل على من ركنه بنظرة ماكرة، على كتب جامعة لندن والقاهرة خصصت لها رفا بطول المكتبة، على راقصة الباليه وهى تنحنى فى لوحة من " الكانفاه " طرزتها فى ليالى الشتاء الباردة. عادت إلى فى هذه الليلة برقتها الجارحة، بالتواضع الذى تنطق به تحفها، "بنوال" النائمة فى الحجرة المجاورة. إنهما جزء من حياتى ومن نفسى أستعيده، وكأن لحظات الخطر تنتزعنى من غفلة الحياة اليومية وتفاهاتها.

فتحت النافذة، ووقفت أطل على الشارع تنتصب مصابيحه العالية مثل حراس الليل زحفت عليهم أحزانهم. ضوؤها الأصفر الشاحب يسقط على الإسفلت الأسود وعلى سواتر الحوانيت الصامتة. الطريق خال فيما عدا شاب وحيد يسير بخطوة بطيئة متعثرة، يدفع أمامه ساقه النحيلة العاجزة فى حركة نصف دائرية مرهقة ثم ينقل ساقه الثانية، ويميل عليها بثقل جسمه. أتتبعه وهو يتمايل من ناحية إلى ناحية. رأسه تعلو وتهبط مثل الكرة فوق أمواج البحر، وفجأة يظهر كلب صغير من شارع جانبى ويعدو وراءه. يتوقف محملقا ناحيته ثم ينطلق بسرعة ليلحق به. يجتازه بمسافة ثم يتوقف فى انتظاره كأنه يصعب عليه أن يتركه وحده فى الطريق الطويل الشاق الممتد أمامه.

أغلقت النافذة، وجلست على المكتب ترتفع على جانبيه رفوف الكتب. أشعر بثقلها على جسمى كأننى مدفون تحتها. ما فائدة كل هذا، كل الكتب التى قرأتها، وكل الصفحات التى ملأتها بالكلام؟ ما قولى أمام الموت يحلق فوق رءوسنا. لكن "نوال لن تموت". لا يمكن أن تموت هى بالذات فبعدها لن تكون الحياة. إنها هى الحياة. "فرج فوده" لم يمت. إنها مجرد أوهام انقضت على فى الجو الرمادى المعتم، فى شبورة الفجر المحملة بحرارة الصحارى وبخار النفط ورائحة البارود. إنها خيالات تستتر وراءها سرعان ما ستتبدد مع الشمس المشرقة.

فتحت الدرج، وأخرجت منه مفكرة غلافها من البلاستيك البنى تمزقت أطرافه. أخذت أقلب فى صفحاتها وأقرأ بعض الأشياء التى قمت بتسجيلها. منذ أن عدت من الهند فى نهاية سنة ١٩٧٩ تعودت أن أكتب فيها أشياء لا أريد أن أنساها. بيتًا من الشعر أو مناقشة مهمة، خاطرًا مر فى ذهنى وأنا سائر، أو فكرة قرأتها فى كتاب. عادة اكتسبتها أثناء رحلاتى فى قارة كان لها أثر عميق فى حياتى. كنت أعمل طوال النهار فى مجالات الهجرة والسكان، أختلط بناسها من مختلف الطبقات، والأجناس، والأعمار، وأعود فى ساعة متأخرة من الليل لأجلس على المكتب أو المنضدة فى غرفة الاستراحة أو الفندق حيث أقيم وأدون ما علق فى ذهنى.

وقعت عينى على آخر فقرة سجلتها.

" ١٥ أبريل سنة ١٩٩٢. تصبح الحياة فقيرة، وتفقد مغزاها عندما يضيع منا الاستعداد للمغامرة بفقدانها. تغدو خاوية، بلا أعماق مثل قصص الحب التافهة التى نشاهدها فى أفلام السينما الأمريكية.

" سيجموند فرويد "

أسفل هذه الفقرة كتبت.

"بالأمس قرب الساعة السابعة والنصف مساءً اغتال الإرهابيون "فرج فوده " أمام مكتبه. كان رجلا شجاعًا فعاش حياته رغم قصرها بملء كيانه. إن الذين يخافون الموت هم الذين عاشوا حياة لا معنى لها، وما زالوا يأملون فى تعويض ما فاتهم".

أغلقت المفكرة، وأعدتها إلى درج المكتب. خلعت الجلباب وارتديت بزة التدريب الرياضى وحذاءً من المطاط للمشى. كان ضوء الفجر يتسرب من فتحات الشيش. اقتربت من السرير الذى ترقد عليه "نوال" وقلت بصوت أقرب إلى الهمس "نوال، نوال" فتحت عينيها، وحملقت فى بدهشة ثم سألتنى.

"حنمشى"؟

قلت:

" أيوه يا "نوال" حنمشى. أنا مستنيكِ لما تجهزى على مهلك".

هبطنا السلالم. أبواب الشقق مغلقة على سكانها، لكن أجراس الكنيسة فى "شارع مراد" تدق دقات صاخبة. تتحدى حصارًا يراد أن يضرب حولها. ألمح علبة "بيتزا" كبيرة فارغة تركها ابن صاحب العمارة أمام باب الشقة، له فى كل يوم واحدة فأصبح جسمه كالبرميل. فى المساء يتدحرج هابطا مع كلبه يشبهه تمامًا كأنه يشاركه وجباته. عند الدور الثانى تحطم زجاج النافذة فبرزت بقاياه كالأسنان المتوحشة تستعد لالتهامنا. أسمع صفير الهواء وهو يمر خلالها.

أسفل العمارة وجدنا ثلاثة رجال. جلس اثنان منهم على دكة البواب. أحدهما كان يمد ساقه ويمسح على حذائه بمنديل. له شارب كث يخفى فمه انفتح فجأة وهو يتثاءب أمامنا ليصبح كالفجوة السوداء، بينما انشغل زميله بفحصنا كأننا ظاهرة لم يسبق أن رآها قبل ذلك. أما الثالث فقد وقف على مقربة من باب العمارة، أبيض الوجه، عيناه خضراوان باهتتان تطل منهما نظرة مسطحة فيها يقظة الحيوان المتنبه للخطر. نحيل يرتدى بزة تنم عن الفقر، لمعت ونحلت من كثرة ارتدائها.

مرقنا أمامهم وسرنا بخطوة سريعة مخترقين الشوارع إلى كورنيش النيل. الجو صحو والسيارات ما زالت قليلة فى هذا الوقت المبكر. كوبرى الجيزة يحمل إلينا ريح الشمال معبأ برائحة نقية منعشة. عند الطرف الآخر للكوبرى جلس جندى الحراسة فى ثوبه الأسود. صغير الجسم ملفوف فى ردائه يبدو كالغراب المنكمش. رأسه ساقط على حجره فى نوم عميق. بدا وحيدًا بائسًا فى الفضاء العريض.

عبرنا الكوبرى وانحنينا لنسير قرب شاطئ النيل. الشارع فى هذه الساعة ساكن، لا سيارات ولا ضجيج. مساحات من الخضرة، ومشاتل تفصل بين النوادى، والكازينوهات. أسرة افترشت الرصيف. انتقلت إلى هذا المكان منذ سنين. تصنع الشاى للناس فى الأمسيات أو تبيع الذرة المشوية، أو الترمس، أو الفول فى علب من الصفيح. الآن رءوسها تطل بشعرها الأشعث من تحت البطاطين، وعند الناحية الأخرى تبرز الأقدام بطونها مشققة. رجل عجوز يجلس على الجدار ويقرأ جريدة الصباح وامرأة قوامها ممشوق تسير بخطوة مسرعة، وتحيينا بابتسامة من ربطت بينهم عادة التريض.

عدنا بعد ساعة. كان الرجال الثلاثة منهمكين فى الكلام. توقفت أمامهم "نوال" وخاطبتهم قائلة: "صباح الخير. انتو هنا تبع العمارة؟".

التفتوا إليها. تقف أمامهم "ببنطلونها" الواسع القديم وحذائها ذى النعل المطاطى السميك. ظلوا جالسين يتأملونها قبل أن يقف الرجل ذو الشارب الكث، ويجيب: لا.. احنا حراس".

" حراس؟.. حراس على مين؟".

" على واحدة ساكنة هنا فى العمارة".

" مين دى؟".

قال: " اسمها الدكتورة "نوال السعداوى".

برقت عيناها. ابتسمت ابتسامة فيها ود خبيث.

" شفتوها؟".

" لا.. والله. إحنا لسه جايين النهاردة".

" يعنى لو فاتت قدامكم مش حتتعرفوا عليها".

بدا على وجوههم أنهم لم يفهموا ما ترمى إليه.

قالت: "أنا الدكتورة "نوال السعداوى". "

رفع الحارس الذى كان يجيب عليها قامته، وأدى التحية. تركته وسارت فى اتجاه المصعد، وسرت وراءها، فاندفع الحارسان الآخران ليسبقاننا إليه. فتح أحدهما باب المصعد، ووقف الآخر على مقربة منه كأنه ينتظر أوامر ستصدر إليه. فى عينيه الخضراوين الباهتتين نظرة فضول، وعلى شفته العليا نبت من الشعر كأنه لم يتعد سن المراهقة. من تحت السترة برز المسدس كبير الحجم، أسود اللون.

قال "متأسفين يا دكتورة. معلهش لو سمحت ممكن أطلع مع حضرتك فوق عشان تقوليلى إنت رايحة فين النهاردة، وحتخرجى إمتى. أصل أنا مفروض أبقى معاك فى كل مشاويرك".

قالت: "بلاش دلوقتى. ممكن تطلع لنا بعد الساعة عشرة".

قال: "حاضر يا فندم. وإحنا آسفين على اللى حصل."

ارتفع بنا المصعد. قالت: "شايف. أهو دول اللى مفروض يحرسونى. ما عندهمش فكرة عنى، ولا حتى أنا شكلى إيه. حيحرسونى إزاى؟ وأنا كمان أطمئن لهم إزاى؟ مش جايز الشاب ده يطلع من بتوع "الجهاد" ولا مجموعة ثانية. مش أجهزة الأمن نفسها ممكن تبقى مخترقة. إزاى الحكومة اللى بتكرهنى حاتحرسنى؟".

ذات صباح ونحن نتناول طعام الإفطار ظلت سارحة ثم رمقتنى بنظرة متأملة وهى تقول:

" الخوف هو الذى يقتل، وليس المدفع. إنه يقتل صباح مساء، ومئات المرات بشكل متكرر. يأتى إلى الإنسان فى ثياب تختلف فى كل مرة. لن أغير فى حياتى شيئا. يجب أن أعيشها كما عشتها دائمًا".

أدركت أنها أصبحت تفكر فى أشياء لم تكن تفكر فيها من قبل. ترى ما الذى يمكن أن أقوله لها لأخفف عنها؟ هل أنفى أن هناك خطرًا يتهددها؟ هل أنصحها بضرورة الاحتياط فأؤكد مخاوفها؟ كان الخطر جزءا من حياتنا. خلقت عندى المعارك والسجون نوعًا من القدرية، من اليقين بأن هناك أشياء لا نستطيع أن نغيرها، واقع يفرض نفسه علينا. لكن الخطر فى هذه المرة يتعلق بحياتها هى، وهو خطر حقيقى يجب الاحتياط منه.

قلت: " الاحتياط مهم. لكن يجب ألا يؤدى بنا الحرص إلى أن ننكمش داخل جدران البيت".

قلت هذا الكلام لكننا لم نتفق على الخطوات العملية التى يمكن اتخاذها. ظللنا نتصرف كأنه لا يوجد ما يستدعى أن نخشى منه. نمارس الرياضة الصباحية كما كنا نمارسها من قبل. نسير فى الشارع دون أن يرافقنا الحارس المعين عليها. نهبط مبكرًا قبل أن يحضر. نخفى عليه تحركاتنا لنتخلص من وطأة وجوده معنا. ربما كنا نشعر أن الحراسة المعينة عليها ليست هى التى تستطيع حمايتها. اليقظة، والإمكانيات والجدية كلها مفتقدة لدى أفرادها.

كان الخطر يتأرجح على أطراف الوعى دون أن يتحول إلى اقتناع حقيقى فى أعماقنا مثل الذبابة الطائرة فى العين نراها للحظة ثم بعد قليل تختفى عن أبصارنا. شعورنا أقرب إلى الضيق منه إلى الخوف، فالحراس موجودون دائما على مقربة منا. نجد أحدهم جالسا على الباب كلما خرجنا كأنه يسد علينا المنافذ التى يمكن أن نفلت منها. نستنشقه فى رائحة البصل، والثوم، والدخان، والعرق يفوح منه. الثانى صاحب الشارب الكث، والحذاء الميرى ذى النعل السميك ينتظرنا أسفل العمارة. عندما نخرج من المصعد يسرع نحونا، ويحيينا بذلك الأدب الجم والمبالغ فيه الذى ينظر به الناس لأصحاب السلطة، فارتفعت أسهمنا فى العمارة، وأصبح ملاكها، وسكانها، والبوابون، وأصحاب المحلات أسفلها يعاملوننا كأننا أصبحنا من زمرة الحكام فى بلدنا. أشعر أنه يتوقع مقابلا ماديا لما أضفاه علينا من سلطان فيصيبنى مزيج من الإشفاق والضيق منه. عندما نهبط مبكرا نجده نائما على الأريكة، وقد بدت على رقدته، وملابسه، ووجهه علامات البؤس.

الثالث هو الشاب الذى كان يرافقنا فى جميع تحركاتنا إلى أن أصبحنا نهرب منه. فى الصباح يصعد إلى شقتنا، ويدق جرس الباب ليسألنا عن برنامج اليوم، ثم ينتظرنا أسفل العمارة مع زميليه. عندما نتأهب لركوب السيارة يثب وراءنا ليجلس إلى جوار السائق واضعًا مسدسه الآلى الكبير على حجره.

مع ذلك ظل الإحساس بالخطر يحلق بعيدًا عنى. فأنا مثل كل الناس علاقتى بذاتى هى الأساس، ملتصقة بجسمى. رصاصات الإرهاب أن وجهت ستوجه إلى "نوال"، وأنا أخاف عليها، ولكن هل خوفى عليها يمكن أن يكون مثل خوفى على نفسى. أحيانا أشعر أنه أكبر وأحيانا أتساءل هل هذا الشعور محاولة للتغطية على حقيقة تبدو قبيحة فأتهرب منها.

مرت الأسابيع وفى أحد الأيام هبطنا للتريض. سرنا على الرصيف أمام جنديين يحرسان بنك قناة السويس جلسا على السلم يتناولان طعام الإفطار: طبقا من الفول، وحزمة جرجير وعددا من أرغفة الخبز الأسمر. عند ناصية الشارع بائع الجرائد، يصنف الكتب، والصحف، والمجلات حول كشكه. لمحت شابا يسرع بدراجته البخارية فى شارع الجيزة متجها إلى ناحية المنيب. استقرت عيناه لحظة على "نوال" وهى تستعد لعبور الشارع. نظرة خاطفة لم تدم أكثر من لحظة لكن لحيته السوداء، ونظرة عينيه تلمع فيهما الكراهية جعلتنى أتنبه. أصابتنى هزة.

الشابان اللذان اغتالا "فرج فوده" كانا يستقلان دراجة بخارية. ثم اللحية السوداء والنظرة التى سلطها الشاب على "نوال" تشبه النساء الأجنبيات بشعرها الفضى تركته حرًا، وبزتها الرياضية الفسدقية اللون وجسمها المنطلق فى نشاط يندر أن نراه فى المصريات وخصوصا من هن فى سنها.

لم أر وجه الشاب جيدًا، فقط اللحية والعينين. مع ذلك أحسست فجأة أن حياة "نوال" معلقة على شعرة، فما أسهل التقاطها وهى تسير هكذا دون حماية. إنها صيد سهل، مكشوف، لا شىء يحول دون إطلاق وابل من الرصاص عليها. ما فائدة وجودى معها إذا كنت لا أبذل جهدًا لكى أنتبه إلى ما يدور من حولها؟ ماذا لو فقدتها إلى الأبد؟ لو نجحوا فى اغتيالها؟ ما هذا الاستهتار الذى تملكنى إزاءها وكأن العشرة، والعادة وصراعات الحياة الصغيرة جعلتنى أفقد الإحساس بقيمة المرأة التى ارتبطت حياتى بحياتها؟

حقا راحت الأيام التى كنت فيها أصعد الجبال، وأغوص فى أعماق البحار. لكنى لن أتركهم يلمسون حياتها. قلبى ما زال ينبض بقوة. عند الحاجة يمكن أن تتولد عندى قدرات خارقة. سأقفز فوق المسافة التى تفصلنى عنها. سألمح الرصاص قبل أن ينطلق، سأنبطح فوقها كما تفعل الأم لتحمى طفلها. الإرادة القوية قادرة على كل شىء، وللحب إرادة ليس لها حد.

فى أعماقى يدور حوار صامت لا أفصح عنه. أتخيل جسمى راقدا فوقها والدماء تسيل منه. الموت شىء لا مفر منه فماذا يهم أن كان بالرصاص أو بغيره؟ الموت بالرصاص أفضل من الموت راقدًا فى الفراش وانتظاره حتى يأتى.

أبتسم للخواطر التى تمر بذهنى. تبدو لى طفولية مضحكة. لكن فى اللحظة بعدها أشعر بالخوف، بسحابة سوداء تلفنى. فأنا أعزل بلا سلاح والحراس لن يفعلوا شيئا. سيهربون إذا ما لاح الخطر. ماذا يهمهم فى امرأة بيضاء الشعر لا يعرفون عنها سوى أنها تكتب، امرأة سمعوا عنها إشاعات تثيرهم ضدها. فى الليل عندما نعود نجدهم نائمين على المقاعد، وفى الصباح كثيرًا ما نكتشف أنهم انصرفوا قبل الموعد. الحراسة مجرد شكل يشرف عليه جهاز لا يهمه أمرنا. ربما سيشعر المسئولون بالرضى إذا ما حدث لها شىء فقد ظلت طوال السنين ناقدة للنظام تكشف عوراته. سيتخذونه فرصة لتشديد الإجراءات التى يحمون بها سلطانهم، لسن قوانين جديدة تقيد حرياتنا، أو ليضعوا من يريدون وضعه فى معتقلاتهم. لماذا نتوقع منهم أن يحرصوا على حياتنا؟ وهل يمكن أن نعرف من أين ستنطلق الرصاصات الموجهة إلى قلبها؟

إنها مثلى لا تكف عن التساؤل. تعبر عنه بصوت عال فالصمت عندها استسلام. أحيانا أوافقها وأحيانا أقول لها إن الصمت يمكن فى بعض الأحيان أن يكون أسلوبا للمقاومة.

فى أحد الأيام رفعت سماعة التليفون واتصلت باللواء المسئول عن الحراسات. سألته إن كانت لديه معلومات محددة عن الخطر الذى يهددها. ما هى بالضبط، وما هى الأسس التى

يستندون إليها فى هذه المعلومات؟ أم أن الموضوع مجرد تقدير عام للموقف الذى نشأ فى البلاد نتيجة نشاط الجماعات الإرهابية؟

جاءها صوته ناعما مهذبا، فيه قسوة الجدار الأملس، قسوة الحكام الذين تعودوا التصرف فى مصير الناس دون أن يسألوا.

قال:

" سؤالك يا دكتورة يتعلق بسر من أسرار الدولة لا نستطيع أن نبوح به. والدولة هى المسئولة عنك. حياتك ليست ملكًا لك إنها ملك الدولة. فاتركى الأمر لأولى الأمر، للمسئولين عنك".

قالت:

" لكنها حياتى أنا. أنا التى ستموت أو تعيش وليس أحد منكم. لذلك من حقى أن أعرف، ومن واجبى أن أسأل. المعرفة قوة تساعدنى على التصرف بما يتفق والحفاظ عليها، تتيح لى أن أفهم حتى لا أخطئ فلماذا تريدون منى أن أظل أجهل ما يتعلق بوضعى؟ وما هى مصلحتكم فى هذا؟ ".

قال:

" يا دكتورة. هناك أسرار للدولة لا يجوز إفشاؤها. أنصحك بترك هذه المسائل لنا نحن. إننا ندرك ما قد يغيب عنك، ولا داعى أن تنشغلى به".

لمحت بريق الغضب فى عينيها. قالت: " سيادة اللواء قرر أننى ملك للدولة. أصدر قرارًا بتأميمى والتصرف فى حياتى بما يتفق والمصلحة العامة. ما هذا الذى يحدث؟ ما هذا الذى سمعته؟.

الأيام تمر. جدران الحجرة تزحف علينا، تخنقنا. أشعر بها تقاوم الكآبة الزاحفة عليها. أشفق عليها من هذا الحصار ينغلق عليها، فأنا أتحرك بلا حراس. ألتقى بأصدقائى كلما أردت. يتملكنى القلق عندما أنظر إلى وجهها. تصارع القوى التى سعت دائما إلى قهرها. لديها إحساس دفين أن الحراسة التى عينوها بحجة حمايتها هى فى الوقت نفسه موجهة إليها لتقييدها، أنها مثل دروع من الصلب تحتضنها، ولكنها فى الوقت نفسه تضغط على جسمها.

رفعت سماعة التليفون مرة أخرى لتتصل باللواء الذى خاطبته من قبل. سمعتها تقول:

"فى المرة السابقة رفضت أن تعطينى أية معلومات عن الخطر الذى يتهددنى حتى أكون قادرة على مواجهته. أنا الآن أتصل بك لكى نضيف إجراءً جديدا إلى الإجراءات التى تقول أنكم اتخذتموها لحمايتى، فأنتم لا شك حريصون ألاَّ يحدث شىء لكاتبة مثلى".

قال الصوت الممعن فى أدبه وتهذيبه:

" أهلا بك يا دكتورة. أنا سعيد بسماع صوتك مرة أخرى لأطمئن عليك. ما الذى أستطيعه من أجلك. أؤمرينى".

"أطلب أن تعطونى تصريحا بحمل السلاح، أنا وزوجى والسائق الخاص بى. أنا مدربة على حمل السلاح وكذلك زوجى. أما سائقى فهو أصلا من رجال الأمن. هكذا يمكن أن نحكم الحماية المتوفرة لى، ونقلل من ثغراتها. فأنت تعلم أن الحراسة الموضوعة على ليست كافية لحمايتى."

قال:

" حاضر. ولكن لست أنا المسئول عن هذا الأمر. اتصلى باللواء فلان، ورقم تليفونه فى المكتب.. ".

فى اليوم التالى اتصلت بالمسئول الذى أشار إليه فطلب منها أن ترسل السائق للحصول على الاستمارات والأوراق اللازمة. فأرسلنا السائق كما طلب منها.

ملأنا الاستمارات، وأرفقنا بها كل البيانات، والأوراق المطلوبة منها. ذهب بها السائق إلى الإدارة المختصة ومعه خطاب من "نوال" إلى سيادة اللواء. عاد قرب الساعة الثانية ظهرًا ومعه صورة من الخطاب يحمل إمضاء الشخص الذى تسلم أوراقنا.

انتظرنا أسبوعين ولكن أحدًا لم يردعلينا. فاتصلت به "نوال" لتسأله عما تم. كانت إجابة السيد اللواء هذه المرة "نأسف لعدم استطاعتنا تلبية طلبكم بحمل السلاح لدواعى تتعلق بالأمن".

سألته:

" أمن من يا حضرة اللواء؟ ".

قال:

"أمنك أنت بالطبع يا دكتورة، وأمن البلد. ألاّ يهمك البلد الذى تنتمين إليه؟".

لمحتها تبتسم وهى ترد عليه.

" البلد تصبح بلدى، وأنتمى إليها إذا ما تعاملت معى كإنسانة لها حقوق عليها. أما ما يحدث لى نتيجة موقفكم فهو دليل على أنكم بلد غير البلد الذى أنتمى إليه".

قلت لها:

"ما عليك، هذا قدرنا لا نستطيع فى بعض الأحوال أن نغير منه".

قالت:

" لا أؤمن بالقدر."

فأقول:

" أريد ألاَّ تكسرى رأسك".

فيأتينى الرد:

" لم أكسر رأسى بعد".

ظننت أن الأيام ستخفف من وطأة ما تعانى منه لكنها تمضى تعيسة، ثقيلة لا تنفتح فيها ثغرة تأتينا منها ومضة من الضوء أو نجمة تبرق فى سواد الليل. أشعر أننى سأفقدها بهذا الحصار البطىء الزاحف علينا. لم أدرك قدرها عندى مثلما أدركته فى هذه اللحظات الصعبة فى حياتها. تذكرت أنه فى بعض الأحيان عندما كانت تقف بينى وبينها رغبة تلح على كنت أرى فيها حائلا أتمنى أن يزول عنى. كنت أكرهها فى تلك اللحظة ويتملكنى غضب أحمق. أتحول إلى أنانية الكائن البيولوجى يصارع من أجل جسمه بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى، إلى طفل حال أهله دون خروجه إلى البحر، أو شراء لعبة رآها خلف زجاج المحل.

أتأملها ونحن سائرون على شاطئ النيل. شعرها الأبيض يتطاير حول رأسها، ومشيتها مندفعة كأنها تريد أن تلحق بما ينتظرها. أبذل جهدًا حتى لا تتسع المسافة التى تفصلنى عنها. حفر الجهد خطوطه فى وجهها. أحيانا أحب الإرهاق الذى يطل على من عينيها وفى لحظة أخرى أحب فيها أنها ظلت طفلة تغضب وتتمرد وتواجه الحقائق بصرامة مقلقة لكن بعد لحظة تضحك، ويسطع الإشراق فى وجهها. إنها لا تترك فرصة لموقف محايد منها. تثير الكراهية أو الحب ولا شىء غيرهما. تشق العالم كالسهم. الرجفة عندها لحظة تتغلب عليها.

جمالها فى أعماقها تطل من عينيها. تندفع صائحة بأعلى صوتها: "كم هو جميل الجديد فى حياتنا". لكنها قبل كل شىء تمشى فوق الأرض ملكة متوجة بأعمالها.

أتخلف قليلاً حتى أجعل من جسمى سياجًا يحميها من رصاصات قد تطلق نحوها، أو لأقفز إذا لاح لى الخطر رابضًا فى طريقها. أدور بعينى فى كل الاتجاهات. أتصرف كأننى حارسها. أتفرس فى كل من يمر إلى جوارنا، أو يقف على الرصيف، أو يتسكع قرب العمارة التى نهبط منها. أرى ظهرها المحنى قليلاً عند كتفيها كأنها حملت ثقلا طوال حياتها، ولأنها مسئولة لم تحاول التخلص منه. أتعجب من نفسى وأنا سائر، من الأفكار التى تمر فى ذهنى. أنا شاب مقدام يتأهب لحماية المرأة التى يحبها وأنا فارس أعزل فى عصر الصواريخ والديناميت تنفجر بتوجيه من الرب الأعلى المهيمن علينا. أنا رجل عجوز تجاوز سن السبعين. فقد جسمى الليونة، وسرعة الحواس، و سرعة البديهة، ومع ذلك سأجعل منه سدا ضد

رصاصات الموت الموجهة إليها. سأحمى المرأة التى أحببتها وصارعتها، وأعطيتها سعادة قليلة، وحزنًا كثيرًا. خطواتنا تدق فوق الأرض بدقة واحدة، وطريقنا نمشى عليه إلى آخر مداه.

صورة تلح على عندما أسترجع هذه الأيام. الحجرة المعتمة تسربت إليها غيوم الحياة فأثقلت هواءها. المصباح تضاءل نوره وأصبح شاحبًا. أرى "نوال" جالسة أمامى على سريرها مستغرقة فى أغوار انسحبت إليها. لأول مرة راح عن عينيها البريق. ملامحها مشدودة، زحفت عليها التجاعيد فى ظلام الليل، فوجئت بها فى الصباح عندما استيقظت وفتحت الشيش. تلوذ بالصمت أو تنفجر فى الكلام، فى الذكريات الأليمة فى حياتها كأنه جاءتها طاقة انطلقت من أعماقها وبعدها تنكمش كأن روحها انسحبت داخل جسمها، كأنها تحتضر فى صمت، أو كأنها تختزن ذخيرتها لتطلقها بقوة. كلامها يجتر الآلام ويجتر الحصار، والإحساس بالفشل، وجبن الأصدقاء، وخيانة أقرب الناس وانصرافهم عنها. رأيتها تعانى الاكتئاب من قبل يوم أو يومين أو أسبوع يمر ثم تنكب على الورق، أو تنشغل بمشروع أو بنشاط فيعلو صوتها بحيويته المعتادة، وترن ضحكاتها مشرقة مثل أوراق الشجَر فى أشعة الشمس. لكن هذه المرة اختلف الأمر. يوم بعد يوم، وأسبوع بعد أسبوع تظل قابعة فى الركن. انتهت من روايتها. كتبت العنوان على الورقة البيضاء الأولى، "الحب فى زمن النفط"، أطلقت القلم من بين أصابعها، ولمع فى عينيها نور قوى كبريق الانتصار ولكن سرعان ما حل محله الحزن وكأن حتى هذا الإنجاز عاجز عن إسعادها.

الصوت الداخلى البعيد يتحدث إلىَّ، ينذرنى. فى البداية أهملته. لم أتعود الخوف عليها. إنها قوية. عندى يقين ألاَّ شىء يهزمها. تكاتفت عليها الصعاب، وأصابتها السهام من قبل، لكنها فى كل مرة تخرج من الأزمة بعزيمة مضاعفة، وأحلام جديدة وردية مثل ألوان الفجر. تؤمن بقلب الهزيمة إلى نصر، إلى تحد جديد تواجهه. ظلت لذلك عنصر قوة فى حياتنا. هذه الفلسفة جمعتنا، أنا المسجون الخارج من السجن، وهى المرأة التى تكاتف المجتمع والناس منذ أن كانت طفلة لهزيمتها. سلاحها الإرادة وقلم موهوب، وتحد جارح للزيف.

لكن الصوت يلح. يقول لى إننا لا نتنبه إلى أقرب الناس إلينا. نفقد الحساسية إزاءهم. العادة تولد بلادة الحس. صوت يقول لى لا تتركها فريسة لقوة احتمالها كأن عليها أن تقفز فوق حواجز بلا حد. أتساءل ما الذى أستطيعه غير محاولات التخفيف عنها تبدو هزيلة بلا نفع، غير اللمسات الصغيرة أعبر بها عن شعورى إزاءها، كوب من عصير البرتقال أعده فى الخلاط وأحمله إليها، كلمة تشجيع أهون بها عليها، يدى تربت على خدها عندما أقرأ شيئًا فى عينيها.

فى إحدى الليالى كنت أقرأ فى كتاب بينما راحت هى تخط على الورق بقلمها كأنه طوق النجاة لا تريد أن تلقى به من بين أصابعها. ذهنى شارد لا يستوعب ما يقرؤه. أشباح قاتمة، مفزعة تحلق فى الجو كأننا أوشكنا أن نستسلم لقوى قاهرة تزحف علينا فى هذه الحجرة بجدرانها ونوافذها، بأثاثها ورفوف الكتب ترتفع عالية حتى السقف.

جاءنى الخاطر كأنى لم أفكر فيه من قبل، كالفقاعة تظهر فجأة على السطح، كأننى كنت فى مستنقع وألقى إلى بحبل. قفزت جالسًا من رقدتى وهتفت: " يا" نوال". لابد من أن تسافرى، أن تتركى مصر".

رفعت رأسها ونظرت إلى. لمحت عينيها تتأملانىِ بلا أمل، بلا فهم كأن ما قلته لم يخترق الضباب إليها.

قالت فى صوت فاتر: "أسافر"؟

"نعم. يجب أن تتركى البلد. لا فائدة من البقاء هنا. أغلقوا علينا المنافذ كلها وتركونا فى المصيدة. تحتاجين إلى التغيير إلى فترة من الراحة".

أحسست بالروح تعود إليها، بالدماء تجرى فى وجهها "أسافر؟! إلى أين؟ وكيف سأسدد احتياجات المعيشة فى بلد ليس لى فيها عمل"؟

" المهم هو السفر. أنت معروفة، ولك أصدقاء يمكن أن يساعدوك".

" لا. لا أستطيع أن أسافر دون أن أتأكد من عمل أقوم به. الإقامة فى الخارج مكلفة. ربما وجدت أصدقاء على استعداد لاستضافتى، ولكن إلى متى؟ لا أريد أن أكون عبئًا على أحد".

" الخطوة الأولى هى اتخاذ القرار، بعد ذلك سنبحث وسائل تنفيذه. سنجد حلاً، أنا متأكد من ذلك".

" وأنت ماذا ستفعل؟"

" يمكننى البقاء هنا مع الأولاد، وإن أردت يمكننا أن نسافر معًا. ولكن سفرك أنت وحدك أسهل. من الصعب أن أعثر على عمل بينما ستجدين أنت فرص كثيرة أمامك".

مر شهر ونصف. فى لحظات كان ينقض على اليأس ثم أفيق منه. أقول لنفسى سيجىء الحل، وأتذكر مآزق خرجت منها من قبل.

الشهر أغسطس، واليوم يوم الأحد. الجو فى حجرة المكتب يبدو لى خانقًا رغم أن جهاز التكييف يئز أزيزًا خافتًا. أرهف السمع حتى ألتقط الكلام. سمعى لم يعد كما كان. أسمع الكلمات مدغمة متداخلة خصوصا إذا كان نطق المتكلم غير واضح. يرهقنى الجهد الذى أبذله. أسكت التوتر الصاعد فى أعماقى، وأستمع.

فى تلك الليلة جاء "بول" لزيارتنا كما كان يفعل دائما عندما يعود إلى القاهرة. تعرفت عليه "نوال" فى الجامعة الأمريكية. كان تلميذها فى فصل "الإبداع" الذى قامت فى السنة الماضية بتدريسه.

فى هذه المرة اصطحب معه صديقة وصلت من أمريكا منذ أيام وأعربت عن رغبتها فى التعرف علينا. أثناء العشاء اتصل بنا تليفونيا ليأخذ رأينا ثم قال لها "أستأذنتهما فى أن تأتى معى فرحبا. هيا بنا".

كان اسمها " اليزابيث". شابة عمرها ثلاثون سنة سمعت عن "نوال" وقرأت لها الأعمال المترجمة بالإنجليزية فأرادت أن تراها حية بجسمها.

"بول" أصبح يجيد اللغة العربية، ويتحرك بسهولة فى أحياء القاهرة. عاش فترة فى " السيدة زينب وأصبح مولعًا بها فدار الحديث بيننا وبينه وجلست هى تلتقط هذا العالم الجديد فى صمت.

سألنا عن سبب الحراسة التى فوجئ بها عندما أصر أحد الحراس على الصعود معه حتى باب الشقة فلما شرحت له الظروف تدخلت "اليزابيث" وسألتنا عن تفاصيل ما جرى فى حياتنا. شرحنا لها ما طرأ عليها من صعوبات فى الفترة الأخيرة. استمعت إلينا ثم قالت لنوال.

" كيف تقبلين العيش فى ظل هذه المخاطر؟"

فردت "نوال": "وما الذى يمكن أن نفعله. إنها فترة لابد أن نعيشها ونتقبل صعوباتها مثل غيرنا من الناس".

" لكنك لست مثل غيرك من الناس. لماذا هذا الاستسلام للأوضاع؟!"

" لم نستسلم. نكتب، ونفعل ما هو فى إمكاننا. نواجه الحياة رغم ظروفنا".

" لكنهم أغلقوا عليك جميع فرص النشاط، وجعلوا منك هدفًا سهلاً لأى مجنون يطلق عليك الرصاص. لماذا لا تسافرين إلى الخارج؟"

" لأننى لا أستطيع أن أسافر بلا عمل."

قالت " اليزابيث " فى حماس.

"وما الصعوبة فى ذلك؟ أنت كاتبة معروفة. وهناك عشرات الجهات فى أمريكا سترحب بك إن أبديت الرغبة فى العمل".

تنبهت إليها شابة نحيلة ترتدى ثوبًا بسيطًا من القطن وصندلاً مفتوحا حول قدميها. شعرها البنى اللون مشطته بعيدًا عن وجهها وأوثقته بشريط. تبدو مثل أى طالبة فى الجامعة الأمريكية جاءت لدراسة اللغة العربية. رأينا مثلها الكثيرات، لكنها تتحدث بتلك الثقة الملفتة للنظر فى الشابات الأجنبيات جاءتهن من خوض تجارب الحياة، والاستقلال المبكر عن الأهل.

سمعتها تقول: "يمكنكما الذهاب للتدريس فى جامعة "ديوك". "جامعة ديوك" خامس أو سادس جامعة فى أمريكا من حيث الأهمية، وتوجد فيها أستاذة اسمها "ميريام كوك" تقوم بتدريس الأدب العربى. من بين المؤلفات التى تستعين بها فى منهجها روايات وقصص "نوال". وهى معجبة بها جدًا. سترحب بذهابك وحدك أو مع الدكتور شريف هناك. أنا أعرفها وأستطيع أن أتحدث إليها فى هذا الشأن، فما رأيكما؟"

بدا لى ما تقوله مجرد خيال. نظرت إلى "نوال". لم أقل شيئًا فردت هى قائلة: "موافقة. إيه رأيك يا شريف؟"

"أنا .... المسألة تتعلق بك أساسًا، وما دمت موافقة فأنا موافق بالطبع لكن الأفضل يا "اليزابيث" أن تفاتحى الأستاذة "ميريام كوك" فى إمكانية ذهاب "نوال" وحدها، فربما يستعصى الأمر إذا ما تعلق بنا نحن الاثنين".

قالت: "على أية حال لا ضرر من طرح فكرة ذهابكما سويًا، وإبلاغها فى الوقت نفسه أن "نوال" على استعداد للسفر وحدها. سأتصل بـ"ميريام كوك" باكر، وأعطيها رقم تليفونكما حتى تتحدث معكما مباشرة".

لم آخذ ما قالته "اليزابيث" مأخذ الجد. تعودنا على الوعود التى لا تتمخض عن شىء. ثم هذه الطالبة التى جاءت إلى القاهرة لتدرس اللغة العربية فى الجامعة الأمريكية لمدة سنة والتى تتحدث كأنها تملك أن تساعدنا فى الذهاب إلى جامة "ديوك" ما وزنها حتى تتوسط فى ذهابنا؟! مع ذلك تركت هذه الزيارة فينا أثرًا طيبًا. أحسسنا بالسعادة إزاء الساعات التى قضيناها مع الزائرين. خفف عنا سؤالهما وتعاطفهما معنا من الظروف التى نعانى منها. قالت "نوال": " هذان الغريبان هما اللذان اهتما بأمرنا بينما اختفى أقرب الناس إلينا".

مر يومان على هذه الزيارة وفى اليوم الثالث قرب الساعة العاشرة مساءً دق جرس التليفون بذلك الرنين المميز للمكالمة الدولية. رفعت السماعة فجاءنى صوت نسائى ينطق الكلمات الإنجليزية بلكنة أمريكية منغمة. سألت المتحدثة عن "نوال" فأعطيتها السماعة وعدت أقرأ فى كتاب، ولكن أذنى كانت تلتقط ما تقوله. دام الحديث مدة طويلة كأن الطرف الآخر على سعة من أمره، ثم أنهيت المكالمة والتفتت إلىَّ "نوال". وجهها تغير كأن الحياة دبت فيها، وأعادتها إلى الشباب. اختفى العناء من ملامحها وتطلعت إلىَّ بسعادة. كلامها يتدفق فى حماس.

"إنها الأستاذة "ميريام كوك". اتصلت بها "اليزابيث"، وشرحت لها الظروف الخاصة بنا، فتحدثت فى أمرنا مع العميد. قال إنهم يرحبون بنا فى جامعة "ديوك"، نحن الاثنين، أو أنا وحدى كما نشاء ويمكننا أن نذهب فورًا أو أن نتوجه إلى الجامعة فى الفصل الدراسى القادم. سيرسلون إلينا خطابًا يتضمن شروط الاتفاق. سيخصصون لنا مبلغًا من المال لتغطية المرتب،

وتذاكر الطيران، والسكن. وستعاود بنا الاتصال بعد أسبوع للاتفاق على كل التفاصيل. قالت إنهم يعتبرون قدومنا إليهم شرفًا كبيرًا".

أخذت نفسًا عميقًا. لم أكن أتوقع أن يحدث كل هذا حتى فى الأحلام. هل يمكن أن تتم الأشياء بهذه السهولة ففى حياتنا كل خطوة تقف دونها عقبات، وعقبات؟ ننحت فى الصخر كما تقول "نوال". كأن هناك عالمًا غير العالم الذى نعيشه فتحت لنا أبوابه. لكن ليست هذه أول مرة يحدث فيها ما بدا كأنه بعيد المنال. ساعدتنا الشابة الأمريكية "إليزابيث"، لكن السبب الرئيسى وراء الفرصة التى انفتحت أمامنا هو "نوال"، هو جهدها المثابر، وقلمها صنعا ما كان يبدو مستبعدًا عندما بدأنا نفكر فى السفر.

نظرت إلى وسألت: "ما رأيك"؟

"رأيى؟! موافق طبعًا. سنخرج إلى العالم يا "نوال". سنخرج من الخية التى أرادوا أن تنتهى فيها حياتنا".

سرنا على أقدامنا وسط المساحات الخضراء. الشمس مشرقة، والبرودة منعشة وفوق رءوسنا زرقة السماء.

صعدنا سلالم المبنى واجتزنا ممرا يلمع فيه الرخام. دفعنا باب المدرج وجلسنا. لمحت عيون الفتيات والشباب تتطلع إلينا. لمحت فى الخدود حمرة الدماء. خلعت الساعة ووضعتها أمامى على المنضدة. المربعات الصغيرة تشير إلى يوم ٦ يناير سنة ١٩٩٣، والعقارب إلى الساعة التاسعة. خارج النافذة ألمح الخضرة والأشجار، ترفرف أوراقها فى شمس الصباح. مرت عيناى مرة أخرى على الوجوه. تفحصنا العيون. يطل منها السؤال. ترى ما الذى سيقوله لنا هذان الغريبان جاءا إلينا من بلاد بعيدة لم نرها فى حياتنا؟ التفتت إلىَّ "نوال" وسألتنى: " تبدأ أنت؟!"

قلت: "لا ابدأى أنت"

قالت موجهة إليهم كلامها: "أريد أن يقدم كل منا نفسه. ماذا يفعل؟ ماذا يدرس؟ من أين جاء؟ ولماذا اختار هذا المنهج بالذات؟"

هكذا بدأ درسنا الأول فى جامعة ديوك افتتحنا به المنهج الذى سميناه

" التمرد، والإبداع ".

الفصل الثانى والعشرون

أشياء فكرت فيها بعد فوات الأوان

تزوج أبى من زوجته الثانية سنة ١٩٥٦ . كان ينتقل بين شقة الأسرة فى "الزمالك" وشقة أخرى فى "المنيرة" مخفيًا عن والدتى أنه تزوج عليها . لكن بعد أن مرت أربع سنوات أو خمس انكشف السر الذى أخفاه عنها . رفضت أن تشاركه حياته فتركها وأقام فى "المنيرة" . انقطعت الصلة بينهما تماما وإن ظل يتكفل بمصاريفها، وبمصاريف أختى وأخى إلى أن تخرجا وأصبحا مستقلين عنه، كما استمر فى إعطائى المساعدات التى كنت أحتاج إليها وأنا فى السجن.

لم تطلب والدتى الطلاق منه، فبعد أن وصلت إلى سن السابعة والخمسين كان من المستحيل أن تعود إلى بلادها، فماذا تصنع هناك وكيف ستعيش؟ لا تستطيع أن تطلب من أخواتها شيئًا رغم أنهم أصبحوا من الأثرياء. لم يبق أمامها حل سوى أن تظل فى بيتها، ومع أولادها . كانت ضحية للعلاقة المشوهة بين الرجل والمرأة وهى علاقة يكرسها فى بلادنا قانون الأحوال الشخصية بما يعطيه من حقوق للرجل فى الزواج والطلاق على حساب المرأة.

ربما كان حظ أمى أفضل من غيرها من النساء. عاشت فى شقة واسعة فى الزمالك لم تنقصها فيها أساسيات الحياة، وإن ظلت محرومة من أى قدر من الترف أو الرفاهية. كانت شخصية قوية، قادرة على أن تدير شئون حياتها، وأن تخضع نفسها لنظام صارم يحميها من اللجوء للآخرين فى أى وقت، أو من ظروف غير متوقعة تداهمها، فلما ماتت تركت لأختى بضع سندات اشترتها من مدخراتها، وشقة الأسرة فى الزمالك لم يصبها خدش، وطلبت منا أن تكون أختى وريثتها الوحيدة فأبدينا أنا وأخى ارتياحنا لهذا الوضع.

واجهت الكارثة التى ألمت بها فى مرحلة متأخرة من حياتها دون أن تضعف أمامها رغم الصدمة العنيفة التى أصابتها فى البداية. فبعد أن استعادت توازنها النفسى قررت أن تبحث عن عمل تشغل به وقتها ويضمن لها نوعا من الحماية فى مواجهة أية ظروف طارئة. هذا على الرغم من أن سنها فى هذا الوقت قارب على الستين وأنها لم تعمل فى أى مرحلة من العمر حتى وهى شابة فى بلادها . أخذت تسأل هنا وهناك إلى أن وجدت عملا يناسبها فى "مدرسة

الحرية" بشارع الجيزة تلقن أطفال الحضانة مبادئ اللغة الإنجليزية، وتساعدهم على التكيف مع حياة المدرسة فى أول المشوار التعليمى الممتد أمامهم.

بمرور الوقت شاعت سمعتها الطيبة بين الأسر التى تولت رعاية أطفالها. لما خرجت من السجن كنت ألتقى صدفة برجال أو نساء فى النادى، أو فى ندوة، أو حفل، فعندما يتعرفون على يسألونى "ما صلتك بالسيدة "دورا حتاتة"؟" أقول إنها أمى. لمَ تسألون؟ يقولون:" إننا مدينون لها بأن ابننا (أو بنتنا) أحب المدرسة، واللغة الإنجليزية، وأصبح أكثر تهذيبًا عندما قضى بعض الوقت فى فصلها. "مسز حتاتة" مدرسة ممتازة ونحن نتذكرها دائما. أين هى الآن؟ لقد سمعنا أنها ستترك المدرسة السنة القادمة. خسارة."فأشعر بالفخر. أول مرة فى حياتى يهتم بى الناس لأننى ابن هذه المرأة التى عجزنا عن إدراك قيمتها لكنها أصبحت شخصية يذكرها الناس، ويعترفون بفضلها.

قررت أن أزورها فى المدرسة فقد أثارت تعليقات الناس رغبة لدى فى أن أراها فى فصلها. فمن كان يظن أن أمى التى كنت أعرفها تقضى حياتها فى المطبخ، وتنظيف البيت، وتطريز الملابس يمكن أن تصبح وفى هذا السن شخصية يهتم الناس بنشاطها؟

لم أتفق معها على موعد للزيارة. أردت أن تكون مفاجأة. سألتها عن مواعيد التدريس بطريقة عارضة، وفى أحد أيام شهر أبريل سنة ١٩٧٠هبطت من بيتنا فى الصباح قرب الساعة العاشرة. كانت المدرسة فى شارع الجيزة فى منتصف المسافة بين كوبرى الجامعة وميدان الجلاء، فسرت على قدمى مستمتعا بجو الربيع، بهذه الخطوة التى أقدمت عليها جعلتنى أشعر بسعادة غريبة كأننى مقبل على شىء كنت أتمناه منذ زمن.

وجدت مبنى المدرسة على ناصية أمام محطة بنزين. "فيلا" كبيرة على الطراز الأوروبى الكلاسيكى الذى شاع فى مصر أيام الملك، وحكم الإقطاعيين. نوافذ عالية، وعواميد، شرفات واسعة وكرانيش، وسلالم من الرخام تصعد حتى المدخل الرئيسى، ربما قصر من قصور الأغنياء استولت عليه الثورة من بين الأبنية العديدة التى استولت عليها وحولتها إلى معاهد، ومدارس ومؤسسات أو مراكز علمية. كان المبنى مكونًا من طابقين وعددًا من الغرف محاطًا بحديقة فيها شجيرات مختلفة للزينة تشبه حديقة "الأورمان" لا تبعد عنها كثيرًا.

صعدت السلالم، ودخلت من الباب إلى صالة فسيحة مغطاة بسجادة تبدو كأنها من مخلفات العهد القديم وفى تلك اللحظة خرجت امرأة من إحدى الغرف المحيطة بها. شعرها الأشيب مشدود إلى الخلف، ومربوط بشريط أسود، وأنفها بارز فى وجهها البيضاوى ذى البشرة الناعمة يشبه وجوه الراهبات فى الدير. فحصتنى من خلف العوينات المعدنية بنظرة مستريبة كأنها فوجئت بهذا الغريب يقف فى الصالة ويدور بعينيه على الأبواب المغلقة، فقلت:

" صباح الخير، أبحث عن "مسز "حتاته"."

قالت:

" مسز "حتاته" فى الفصل الآن، ولن تنتهى من التدريس قبل الساعة الواحدة والنصف. ماذا تريد منها؟"

نسيت فى لهفتى أننى لست فى البيت فسألتها:

أين يوجد فصلها؟"

رمقتنى بنظرة فيها ضيق. ضغطت على شفتيها قبل أن تجيب ناطقة الكلمات بلكنة أجنبية:

" ممنوع حضرتك تروح لها الفصل. ممكن تنتظرها هنا ". أشارت إلى أريكة وحيدة موضوعة فى الصالة، "أو ممكن ترجعلها الساعة واحدة ونص".

"أنا ابنها. كنت غائبًا منذ سنوات، ولم أرها وسط الأطفال فى الفصل. فجئت لأزورها".

اختفت نظرة الضيق، وابتسمت مثل ربة البيت ترحب بضيوفها. أسنانها الكبيرة برزت من بين شفتيها فى لحظة ثم اختفت كأنها تريد أن تحول بينها وبين الظهور من جديد. قالت:

"تعالى معاى. حاوصلك لحد الفصل بتاعها فى الدور الأرضى".

هبطنا السلالم إلى الحديقة، وسرنا خلف المبنى، ثم دخلنا فيه خلال نافذة عريضة. اجتزنا صالة صغيرة مبلطة قبل أن نقف أمام باب مفتوح مرتفع جاءنى من خلاله صوت أطفال يرددون كلمات بالإنجليزية فى إيقاع واحد مرتفع.

تقدمت بخطوة مترددة. أمى تجلس على مقعد فى مواجهة صفوف من الأطفال استقروا خلف دككهم الصغيرة. لا تفصل بينها وبينهم منضدة أو حاجز من أى نوع. على السبورة كلمات مكتوبة بالطباشير الملون حروفها كبيرة الحجم مستديرة، مرسومة بدقة.

أحست أمى بى وقد تقدمت داخل الغرفة، فالتفتت. بدت عليها الدهشة ثم مزيج من القلق والفرح. فتحت شفتيها قليلاً ونطقت اسمى فى شهقة كأنها نسيت أنها فى الفصل.

" شرف ..... "

ثم أضافت بالإنجليزية:

" ما الذى جاء بك إلى هنا؟"

ابتسمت.

" اطمئنى. كنت أريد أن أراك فى الفصل مع الأطفال".

لمعت عيناها. ندت منها ضحكة طفولية قبل أن تستعيد ملامحها جدية المدرسة. التفتت إلى الأطفال الجالسين خلف "تخوتهم" ملقية إليهم بنظرة سريعة كأنها تطمئن على أنهم لم يلاحظوا شيئًا. كانوا يحملقون ناحيتنا بتلك العيون المتأملة للأطفال عندما يشعرون أن هناك شيئا غير مألوف يحدث أمامهم. خطر لى كم هى جميلة هذه النظرة المفتوحة فى العيون. قالت أمى بنبرة فيها اعتزاز:

"يا أطفال. هذا هو ابنى الدكتور "شريف حتاتة".

نظروا إلى كأننى ظاهرة لا تستحق الاهتمام. فى عيونهم زحف الشرود. ترى ما الذى يفكرون فيه؟ سمعت أمى وهى تضيف كأنها تريد أن تنقذ الموقف:

" جاء ليراكم. سمع عنكم أنكم أذكياء وشاطرين. أريد أن ترددوا أمامه الجملة التى تعلمناها اليوم".

رفعت يدها فى الهواء، فارتفعت الأصوات برنين مضطرب تداخلت نغماته.

" صباح الخير يا أصدقاء. سنلعب فى الحديقة. الزهور جميلة، والعصافير تغرد، لكن "سوسن" حزينة فلماذا؟".

" مرة أخرى يا أطفال مع بعض". فترددت أصواتهم ناطقة الكلمات بوضوح. تطل عليهم سعيدة، فخورة. أنها هنا فى عالم تملك ناصيته. تجد نفسها فيه، فى هذا الجمع من الأطفال، فى هذه العيون ترتفع إليها.

" رائع. لكن أنت يا "عمر" كنت ساكتًا. لماذا؟"

اتجهت بعض العيون إلى عمر، أسمر، ينكمش بجسمه الصغير فى المقعد. أسمع صوته الخفيض. يشير إلى بطنه بحركة سريعة من يده.

" عندى ألم. أريد أن أذهب إلى دورة المياه".

" طيب، اذهب بسرعة. وعندما تعود سأطلب منك أن تردد ما حفظناه. من فيكم يريد أن يسألنى عن شىء؟"

بنت صغيرة رفعت يدها بحركة مندفعة، سريعة، قافزة إلى أعلى بجسمها.

" أنا يا مسز. ماذا يعنى "سنجنج"؟.

" من فيكم يعرف؟ أنت "يا سحر"؟ قولى لنا ماذا يعنى "سنجنج".

صوت كاليمامة دافئ وعينان واسعتان.

" سنجنج" يعنى .... يعنى بيغنى. أنا عايزة أغنى يا مسز، عايزة أغنى".

مش دلوقتى يا "سحر" بكرة. اللى يعرف يغنى حنخليه يغنى".

لأول مرة أقرأ سعادة التحقق فى وجه أمى. تجاوزت سن الستين. تركب آتوبيس المدرسة فى الساعة السادسة والنصف صباحًا. لا تتخلف عنه حتى إذا اشتد البرد أو أمطرت السماء بمطر غزير، وتعود بعد منتصف النهار. تقول لى:

" ضاعت حياتى. كنت غبية. الزواج نكبة. الرجال لا يستحقون أن تكرس المرأة جهودها لهم". وتضيف: خصوصًا الرجال المصريين. كان يمكن أن أفعل شيئًا بحياتى".

تركتها جالسة فى مقعدها أمام صفوف الأطفال. الناس يوقفوننى ويقولون لى: " أنت ابن "مسز حتاته". كانت أحسن مدرسة إنجليزى لأولادنا. علمتهم أهمية الاجتهاد والاعتزاز بالنفس".

علمتنى أنا أيضا أشياء أدركتها بعد أن ماتت. فالموت أحيانا كالضوء القوى يكشف. استمرت فى المدرسة إلى أن وصل سنها إلى السادسة والسبعين. لم تحصل على عقد للتدريس لأن القانون لا يبيح لها العمل بعد سن الخامسة والستين. لكن أصرت المدرسة على بقائها طوال هذه السنين وأخفت عن المسئولين فى المنطقة التعليمية أنها تجاوزت السن المسموح به إلى أن وصلتهم شكوى مجهولة فأرغمت الناظرة على الاستغناء عنها.

يوم أن تركت العمل أصابتها حالة نفسية. أصبحت تعانى من التوتر والاكتئاب. كانت تبكى لأتفه الأسباب. فقدت شهيتها للأكل ولم تعد تذهب للنادى لتلتقى بصديقاتها فاصطحبتها إلى عيادة أستاذ الأمراض النفسية فى كلية طب عين شمس. قال لها: "عندك ما يسمى بعصاب المعاش، وهى حالة تصيب الرجال والنساء الذين يحبون العمل، ويضطرون إلى التوقف عنه، والقعاد فى البيت".

بدأت تخرج، وتأكل، وتتصل بصديقاتها. لكنها لم تعد أبدًا كما رأيتها فى ذلك اليوم جالسة أمام الأطفال فى الفصل، سعيدة، فخورة بالوجوه الصغيرة والعيون الصافية ترتفع إليها، وتتعلم منها أول كلمات اللغة الإنجليزية وأشياء أخرى مهمة فى الحياة.

احتفظت بكل الصور التى تركتها أمى. أغلبها محفوظة فى "القضابة". فقد أحبت البيت الذى أقمته. أتذكر سعادتها عندما أخذتها معى إليه أول مرة لتقضى فيه بعض الوقت. تجلس فى الشرفة أمام حديقة البرتقال ما زال شتلاً خضراء تبرز من الأرض. وتسأل: "متى تتفتح زهوره لأستنشق أريجها؟" كلما ذهبت أتذكر سؤالها. فقد ماتت دون أن تستنشق رائحة زهور البرتقال تحتوينى فى الصباح عندما أخرج إلى الشرفة فأتخيلها جالسة تتأمل الحديقة بنظرة راضية فى عينيها الزرقاوين.

وضعت إحدى صورها على رف المكتبة الكبيرة فى الدور الأرضى. ساعة وصولى من السفر أفتح الباب لأجدها أمامى. أتأملها لحظة طويلة قبل أن أنصرف عنها، العينين، والأنف

المستقيم، الشفاة ممتلئة فيها سخاء وحزم، والشعر يحيط بوجهها كالجناح يحتضنه، فأدرك أن أمى كانت امرأة جميلة.

مرت السنون وأخذ أبى يتردد على بيت الزمالك حيث مازالت أمى تعيش. فى البداية كان يذهب إليه مرة فى الشهر، ولكن بالتدريج زادت زياراته. أصبح يزورهم كل يوم جمعة. يصل قرب الساعة الثانية عشرة، يشاركهم طعام الغداء، ثم ينتقلون إلى الصالة الكبيرة. يتسامرون لبعض الوقت وفى الساعة الخامسة وفقًا للتقاليد الإنجليزية يتناولون الشاى وشطائر الحلوى. لا يتكلم كثيرًا. يسمع أغلب الوقت، ويتتبع. أحيانًا يغفو قليلاً فى المقعد الذى تعود أن يجلس عليه كأنه مرتاح فى هذا الجو. قرب الساعة السابعة مساءً يهبط إلى الشارع ليستقل سيارة أجرة عائدًا إلى الزوجة الأخرى.

كنت أنضم إليهم أحيانًا. نتجمع حول أمى فهى المحور الذى ننجذب إليه. أتأملها جالسة بيننا صامتة. أدخل الحجرة التى كنت أنام فيها، أو أجلس على المقعد الذى كنت أجلس عليه فى المطبخ لأتناول إفطارى قبل أن ألحق بأوتوبيس المدرسة. أتبادل الحديث مع "أم السعد". أتذوق الأطباق التى أعدتها. أسترجع نكهة الأشياء التى كنت أحبها. نتناول الغذاء سويًا فى حجرة الطعام ابتاعها أبى سنة ١٩٣٢ من محل "بونترومولى" فى شارع سليمان باشا (طلعت حرب). كتل ثقيلة من الأثاث محفورة "بالأويمة" ومصنوعة من خشب الورد. خلف زجاج الخزان تبرق الأوانى، والأدوات الفضية وحوامل الشمع، وكئوس الكريستال لا تستخدمها أمى إلا فى المناسبات مثل يوم ٢٥ ديسمبر عيد ميلادها، وعيد الكريسماس. نأكل فيه الديك الرومى المطهو فى الفرن، والأرز بالخلطة، وحلو انجليزى اسمه "كريسماس بودنج" يوضع عليه بعضٌ من البراندى ثم نقوم بإشعاله. نقدم لها قطعة منه وهو لا يزال يشتعل وننشد لها "عيد ميلاد سعيد" عندما تضع أول قطعة فى فمها. تقول فى سعادة "طلعت كويسة المرادى".

نجلس حول المنضدة البيضاوية وضعت عليها مفرشًا أبيض اللون مصنوع من الكتان الرفيع، وزهرية ورد، وأطباق من الصينى مرسوم عليها قصور، ووديان، ونهر. أستنشق رائحة الراحة، ورائحة الحساء تفوح من المطبخ قبل أن تحمله إلينا "أم السعد".

أمى تحتل مكانها عند رأس المنضدة، وأبى يجلس عند الطرف الآخر. تتأمله عبر المسافة البيضاء بنظرة لا مبالية غير ملتفتة إليه، أو تميل بوجهها فى اتجاه آخر لتتفاداه، أو تستغرق فى طبقها كأنها تذكرت شيئًا.

كانت تحضر له ما يريده من طعام أو شراب، وتسهر على احتياجاته دون أن توجه إليه الكلام كأن العادة عندها أقوى من كل ما حدث بينهما من خصام. أحيانًا ألمح فى عينيها الزرقاوين الغضب المكتوم كالغيام الداكن اللون أو الحزن العميق الذى لا سبيل إلى شفائه، وفى

لحظة نادرة تطل منهما نظرة إشفاق وهى تراه جالسًا أمامها يتناول طعامه فى صمت، أو يقول لأختى" يا منى" عايز كمان شوية شوربة".

جاء اليوم الذى وجه سؤالاً إليها عن فرن يريد أن يتأكد من سعره قبل أن يبتاعه فردت عليه. بعدها أصبحا يتبادلان بعض الكلمات القليلة، كأنهما يختطفانها سرًا. كانت البداية لممارسة نوع من الألفة بدا وكأنها ضاعت إلى غير رجعة، ألفة لم أرهما يمارسانها حتى عندما كنت طفلاً أذهب إلى المدرسة فى الصباح، وأعود منها آخر النهار لأجد أبى وقد استيقظ من نومه وأخذ يستعد ليخرج فى سهرة من السهرات التى لم يتخلف عنها مرة واحدة طوال السنوات.

فى حياتى ظل أبى مثل الشبح، أو الحلم الغائب يظهر فى لحظة ثم يختفى كأنه محطة من المحطات فى سفر طويل أركب قطاره. كلما تذكرت إحدى محطاته عاد إلى وجهه إلى أن مات، وتركنى أكمل مشوارى. أعيده إلى الحياة بالقلم فوق الورق أو عندما أنظر فى المرآة وألمح كتفى المحنيتين، أو عندما أرقد فوق السرير وأرى قدمى تطلان من المنامة، فأندهش لتلك الشفرة الجينية الساحرة التى تتحكم فى الوراثة.

مات فى سنة ١٩٧٦ قبل أن تموت أمى بعشر سنوات. كنت فى الهند إذ ذاك أعمل فى منظمة العمل الدولية رئيسًا لفريق من الخبراء فى مشاكل الهجرة، والسكان. المكتب أمامى عريض يمتد على يمينى فى جناح يحمل على سطحه التليفون، ومنفضة فضية، وصندوقين مفتوحين من الخشب للبريد الوارد، والصادر وتحته صف من الأدراج وضعت فيها أوراقى، ومن بينها مسودات الكتاب الذى نشرته فيما بعد عن رحلاتى فى الهند بعنوان "طريق الملح والحب".

فتحت المظروف البنى الصغير، وأخرجت الورقة الملتصقة بطياته جزءا بعد جزء حتى لا تتمزق وقرأت. "عزيزى شريف توفى الوالد إلى رحمة الله صباح اليوم. تعازينا القلبية. عادل حتاته."

قمت وسرت نحو النافذة. الدنيا كلها صامتة، لا يقطع صمتها سوى صوت الآلة الكاتبة يخترق الجدران. دقاتها منتظمة خافتة تكاد لا تسمع مثل دقات القلب أو الزمن تسير دون أن نشعر بها يوما بعد يوم، وشهرا بعد شهر وسنة وراء سنة إلى أن يحدث شىء هكذا فجأة، فنتتبه.

أطللت من النافذة. فى الحديقة شجيرة زهورها حمراء أحب أن أتطلع إليها وأنا أقف خلف النافذة. العصافير تحط عليها كل يوم فى الصباح وتعود إليها آخر النهار.

أخرجت البرقية من جيبى حيث وضعتها، وقرأتها من جديد. لا أشعر بالحزن. لا أشعر إلا بشىء كالفراغ الداخلى، بالفتور الكامل، بالعبث كأن موت أبى مجرد حادث عارض، مثل كل

الأحداث العارضة التى تمر بى، وتنتهى. صعدت إلى ذهنى صورة صوان للتعزية فيه مقاعد من القش، وأخرى مذهبة، ووجوه ارتدت حزن المناسبة. وأخى ينتصب عند الباب يلف سترته حول جسمه ويحكم غلق أزرارها. يدس أصبعه بين ياقة القميص، وعنقه كأنه يخفف من ضغطها قبل أن يمد يده ليشد على الأيادى بحركة آلية متكررة يدب فيها الحماس مع ذوى النفوذ والسلطة. رجل معمم يجلس فى منتصف الصوان على مقعد مرتفع، يرفع كفه إلى صدغه، ويصيح بالآيات القرآنية وعروقه نافرة كأن الدماء ستنفجر منه، وناس جالسون صفوفا يتحدثون فى همس، أو ينظرون أمامهم، أو إلى أقدامهم، وينتظرون حتى ينتهى الرجل المعمم من تلاوة الربع ليقوموا فى طابور، وينصرفوا ساعين إلى شئونهم وكأن أبى لم يمت.

لم أشعر بالحزن إلا بعد وفاته بشهر، أو شهرين، أو ستة أشهر لا أذكر. كان حزنا عميقًا، هادئًا كأننى أدركت فجأة أنه غاب ولن يعود، أننى لن أراه ثانيا. أقول لنفسى كيف؟ إنه ما زال موجودًا ولم يمت. لم يحدث شىء. سأعود إلى القاهرة. سأدخل من الباب الخلفى للعمارة التى يسكنها فى شارع القصر العينى كما أفعل دائما، وأصعد إلى الدور الرابع. سأدق الجرس وأرى عينيه وهن الضوء فيهما، سأراهما تطلان إلى فى حرص من فجوة الباب فتحه نصف فتحة ليتأكد ممن يقف خلفه، ثم تضيئان بنور مدفون فى أعماقه. سأسمع الجملة المعتادة "أنت جيت يا بنى" وكأننى مازلت صبيا صغيرا عائدا من المدرسة.

أثناء الإجازة السنوية الأخيرة التى عدت فيها من "دلهى" إلى "القاهرة" اصطحبناه "نوال" وأنا إلى عيادة طبيب الأشعة. صعدنا السلم إلى الدور الأول وجلسنا فى صالة الانتظار. أتأمل المقاعد المتهالكة، والألوان القاتمة والمنضدة البيضاوية الموضوعة أمامنا تناثر فوقها رماد السجائر، وأعقابها المطفأة. النافذة تغطيها ستارة بيضاء تحول لونها إلى لون التراب، وعلى الأرض سجادة قديمة باهتة تآكلت من أقدام أصابها القلق.

جاء الممرض، رجل أسود عجوز لف هيكله الضخم المنحنى فى معطف أبيض. ذكرنى بالفراش فى مشرحة كلية الطب باعنى إحدى الجثث بجنيه عندما كنت طالبا فى الكلية فالفقراء لم يكن لهم أهل يسألون عنهم ساعة الوفاة. عيناه الصغيرتان تتطلعان الينا من تحت الحاجبين الاشيبين فى تساؤل.

"نعم."

قلت: "والدى عنده ميعاد مع الدكتور."

" اسمه."

" الأستاذ "فتح الله حتاته"."

اختفى خلف ستارة، ولم يعد. يجلس أبى فى المقعد صامتا. يغلق جفونه ثم يفتحها كأنه فى الترام، ويخشى أن تفوته المحطة التى يريد أن يهبط فيها. فى الحجرة امرأة تحمل حقيبة يد

كبيرة تضغط بها بين يديها فوق بطنها كأنها تخشى عليها أن تفلت منها. ساقاها البيضاوان السمينتان تبرزان من تحت الثوب القصير الذى ترتديه. تشد عليه من جانب ثم من الجانب الآخر فى محاولة لستر ما لا سبيل إلى ستره. فتحت حقيبة اليد، وأخرجت منها مرآة. تطلعت إلى الطلاء الأحمر فوق شفتيها، وإلى رموشها الطويلة المكحلة بالسواد، ثم أعادتها إلى الحقيبة أغلقتها بصوت معدنى، ففتح أبى جفونه، وتطلع إليها ببريق خافت أطل من عينيه ثم أغلقها وراح فى سباته من جديد.

دخلت مع أبى حجرة الأشعة. الطبيب رجل نحيف، أبيض البشرة، وردى الخدين يرتدى معطفا نحل عند الياقة، ونظارة طبية إطارها مذهب. قال فى صوت ناعم.

"أهلا، وسهلا. "فتح الله" بيه، " ثم أضاف بسرعة ".لو سمحت اخلع البنطلون والكلسون".

وقفت إلى جانبه أساعده فى خلع ملابسه. يده المرتعشة تتعلق بكتفى، وجسده الهزيل يترنح. كان قوى البنية فى يوم من الأيام، عضوا فى فريق التجديف بكلية "كريستشورش" فى جامعة "كامبردج"، ولاعب الكرة "الرجبى" يناور فريق الخصوم بسرعته الفائقة. الآن يتحرك ببطء مضن. هذه أول مرة أرد فيها جزءا مما أعطاه لى طوال السنوات.

أخيرا رقد فوق المنضدة. وقفت إلى جواره. الجلد فى جسمه تهدل حول العظام، وقدماه متورمتان. رأسه خال إلا من بضع شعيرات بيض يمر عليها بكف يده كلما أفاق لنفسه. مازال يحافظ على مظهره رغم السن، والمرض. أحب امرأة فراشة من فراشات المجتمع تجيد الثرثرة، ولعب "البريدج". أمى كانت أجمل منها. كانت صاحبة شخصية جادة لا تصلح لنوع الحياة التى اختارها.

لمحته ينظر فى شىء من القلق إلى الأسطوانة المخروطية السوداء تهبط عليه من أعلى جهاز الأشعة كأنه يخشى الا تتوقف، فتخترق جدار بطنه بطرفها البارز. قلت:

"ما تخفش. حتقف."

ابتسم ابتسامة واهنة، وتنهد. الآن عاد طفلا يحتاج إلى من يرعاه. أشعر لأول مرة فى حياتى أننى أريد أن أحميه، أن أحتضنه بين ذراعى. أمسكت بمبسم الحقنة الشرجية الطويل، ودسسته برفق بين فخذيه، ثم رفعت الخزان الذى يحتوى على سائل "الباريوم" إلى أعلى. وضعت يدى على كتفه.

"أطمئن، أنا معك."

قال:

"ما أقدرش أحبس كل السائل ده فى بطنى. بيسقط من تحت غصبا عنى."

"ريح عضلات بطنك وما تتوترش. حتلاقى كل شىء سهل."

أصابع يده تتشابك مع أصابع يدى. انقلبت الأدوار وأصبحت أنا الأب وهو الطفل. أشعر فجأة أننى لم أعش حياتى أبدًا كطفل. انفصل عقلى عن جسمى، وعن قلبى منذ البداية، وظل يراقبنى. لم أعرف الحركة الإنسيابية الخلاقة للكل. عشت أشلاءً. فى المدرسة جعلونى روحا خيالية هائمة بلا جسم، وفى الطب جعلونى جسما بلا جنس أو نفس. لحظات قليلة عرفت فيها الطفل، أتحرك فيها بكل أجزائى ويضيع الحزن. نظرت إليه يرقد أمامى. بعد شهور أو سنين قليلة سيموت ويتركنا. سألحق به دون أن أعرف طعم السعادة.

أتحدث معه بصوت هادئ. أخفى الحزن الذى فاجأنى. أحكى له أشياء حتى ينسى. عاد إلينا الطبيب. ضغط على شىء فأصدرت آلة الأشعة أزيزا حادا. قال:

" نام على جنبك اليمين".

لففت ذراعى حول كتفيه، ورفعته إلى أن انقلب على الجانب الأيمن. عاد الأزيز. واحد، اثنان. البداية والنهاية. عينا الطبيب تفحصانه فى برود مثل فتحة الآلة المخروطية السوداء تشع شيئا دون أن نرى ما تشعه.

اصطحبته إلى دورة المياه. وقفت أمامه وهو يفرغ أمعاءه من سائل "الباريوم" الأبيض الثقيل. عيناه الباهتتان تضيئان بالتدريج مع سقوط السائل فى المرحاض. وجهه يتحول من لون الرماد إلى شىء آخر فيه نبض الحياة. أمسكت بقطعة من القطن المبلل بالماء وأخذت فى إزالة آثار السائل من على جسمه، ثم ساعدته فى ارتداء ملابسه.

هبطنا إلى الشارع. كانت "نوال" تنتظرنا فى مقهى إلى جوار سينما مترو. جلسنا نحن الثلاثة إلى منضدة فى أحد الأركان. قال فى صوت تخللته رنة فرح.

"أعزمكم على إزازة بيرة".

كان الجو حارا فرحبنا بالفكرة. نادى على فتاة ترتدى "المينى جيب". على وجهها الأسمر تتدحرج حبات من العرق. قال:

"عايز ازازة بيره سائعة. أوعى تجيبيها سخنة، حاكم أنا عارف محلات الأيام دى، وفنجان أهوة مظبوط يكون سخن. إذا ما كانش سخن حأرجعه."

التفت إليه ضاحكا، وقلت:

" ما تاخدش المسائل جد كده، مع الناس"

" بتضحك. عايزنى أضحك معاها. أصلك أنت مانتاش عارف. واخد كل المسائل سهلة."

شربنا البيرة، وتحدثنا، ضحكنا معه، وضحك معنا. انتهى من عذاب الحقنة الشرجية والأشعة، وأحس أنه محاط بالرعاية.

قلت له.

"قبل أن نفترق أريد أن أطلب منك شيئًا. سأسافر بعد يومين. اسأل على أمى. ربما صدتك ومع ذلك اسأل عنها."

زاغت عيناه كأنه ضبط وهو يرتكب إثما. تردد لحظة، ثم قال:

" حاضر يا بنى حاضر."

أول مرة يخاطبنى فيها بكلمة حاضر. قلت:

" والآن لننصرف. يجب على أن أرتب بعض الأمور قبل السفر.. "

أشار بيده فجاءت إلينا الفتاة. أخرج رزمة نقود ورقية من جيبه بحركة فيها حرص كأنه يخشى أن يرى أحد ما يوجد معه. أخذ يقلب فى الأوراق النقدية طويلاً، والفتاة واقفة تنتظر. أخيرا حزم أمره ودفع إليها بورقتين، وبضعة قطع من الفضة راجعها بدقة قبل أن يدسها فى يدها ثم قمنا.

الفصل الثالث والعشرون

يوم أن ماتت أمي

جاءنى صوتها يناديني. اخترق الغيوم السود المحيطة بى، وارتد عنها مصطدما بشىء كالجدار. انصرفت عنه، غائصًا فى بحر الليل، مستسلمًا للسكينة، والدفء، هاربًا من الدنيا، ملتفًا حول نفسى كالجنين. لكنه ألح على كأنه يحاول أن ينتزعنى من اللاوعى أشتاق إليه.

صارعت الغيوم، وصعدت من بحر الليل لأجد نفسى فجأة راقدا فوق سريرى. نور الكهرباء يصب فى عينى ، ويبدد الظلال الكثيفة بالتدريج فيبرز منها وجه "نوال" قبل أن أتنبه إلى السماعة العاجية اللون تمسك بها فى يدها الممدودة إلىَّ. أشعر برغبة فى العودة تحت البطاطين، ولكن صوتها يتردد برقة هادئة ينبئنى بشىء يلح عليها ولكنها تخفيه، فتتحرك المخاوف كاليرقات القلقة فى مياه ساكنة.

" شريف. أختك "منى" على التليفون. "..

أبحث عن جسمى ألقت به أمواج الليل على شاطئ مهجور، رمادى اللون، وأسترجعه بالتدريج جزءا بعد جزء. أجمع شتاته وأعيد تكوينه ليقوم بالحركات المعتادة التى يقوم بها فى بداية اليوم. أمر بطرف لسانى على شفتى فأشعر بملمسهما جافا كأننى جريت مسافة طويلة أثناء الليل. أسألها.

"كم الساعة الآن؟ "

" لا أعرف. سأبحث عن ساعتى."

أبقيها حيث هى بحركة من يدى تلتف حول ذراعها. أطمئن لوجودها بالقرب منى، وأبحث بيدى الأخرى عن ساعتى تحت الوسادة. أمسك بها وأقربها إلىَّ، محملقًا فيها بقصر النظر الذى أصابنى منذ أن كنت وليدا. ألمح العقربين وقد انتظما فى خط مستقيم. قلت:

"الساعة الآن السادسة".

أحملق مرة أخرى فى الساعة لأتأكد من التوقيت. القرص شاحب مريض مثل وجه أمى يروح ويجئ أمامى منذ اللحظة التى أخبرتنى "نوال" فيها أن أختى تريدنى. أرى تقاطيعه

تتأرجح، وتميل ثم تتفتت تاركة أنفًا بدا كبيرًا، ومن فوقه عينيها. يتسلل الخوف إلى كيانى مثل الرمال العصبية لها حركة دقيقة غير مرئية تنذر بالعاصفة.قبل أن تهب فى المناطق الصحراوية. أمد يدى وأرفع السماعة من فوق المنضدة حيث وضعتها. أشعر بجسمها ينسحب فجأة من مكانه إلى جوارى تاركًا فراغًا تضيئه أنوار الكهرباء القاسية. ألمح هالة الشعر الأبيض تتمايل فوق قوامها وهى تخرج من باب الحجرة باحثة عن شى فيستولى على إحساس بأنها تركتنى وحدى لأواجه ما ينتظرنى.

قلت " آلو" فجاءنى صوت أختى جافا، باردًا.

" شريف، لابد من الحضور حالاً. والدتك تعانى تعبًا شديدًا منذ الأمس. لم تنم ولم أنم أنا أيضا طوال الليل."

أتخيلها جالسة على مقعد طراز لويس السادس عشر إلى جوار التليفون فى الصالة الكبيرة تضع ساقا فوق ساق وتهز قدمها بعصبية. بين الحين والآخر تضغط على شفتيها فى امتعاض موجه إلىَّ. منذ أن أصيبت أمى بأعراض الشيخوخة تحملت أعباء رعايتها بصبر تتخلله أحيانا لحظات من الضيق عندما تحس بالحمل يثقل عليها. عندئذ يتسرب جزء من ضيقها إلىَّ، فى كلمة عابرة تقولها دون أن تنظر إلىَّ، كلمة يشتم منها أننى لا أقوم بالواجبات المفروضة على وأن هذا ليس أمرا جديدًا، فتوقظ فى أعماقى شعورًا قديمًا بالإثم. قضيت مدة طويلة فى السجن ولما خرجت من خلف الجدران شغلتنى الحياة بمشاكل العودة إليها. ربما تكون أختى على حق، ولكنى لا أسكن مثلها فى بيت واحد مع أمى. رفضت ذلك عندما عرضته علينا، فلكل منا طريقته فى الحياة، ومزاجه الخاص، وأسلوبه فى تربية الأولاد وأمى شديدة التمسك بالنظام وبما تراه هى مفيدا. حياتى مزدحمة بأشياء كثيرة. منذ اللحظة التى أستيقظ فيها أفكر فيما ينتظرنى من أعمال وفجأة وسط زحام الأشياء ألمح وجه أمى يطل على بنظرة عتاب، وأنا أجتاز كوبرى الجلاء، وأتوقف عند الإشارة، لماذا فى هذا المكان بالذات لا أعرف، أو قبل أن أنام، أو فى الصباح عندما أعد شاى الإفطار فى المطبخ، أو أحيانا وأنا جالس فى اجتماع حزبى أستمع إلى الأفواه تلوك الكلام. أتذكر صوتها وهو يأتينى خلال أسلاك التليفون سائلاً عن أحوالى، معبرا عن اشتياقها لرؤيتنا، منبها إياى بأننى لم أمر عليها منذ أسابيع.

ربما أبالغ فى أهمية ما أقوم به من أعمال. فى لحظة ينتابنى الإحساس أن ملمس يدها الخشنة الضامرة بين يدى، ورؤية السعادة وهى تضىء فى عينيها، تساويان كل ما عداهما من أشياء، لكن سرعان ما أنسى. أتساءل أحيانا لماذا هذا الجنوح إلى العمل المتواصل؟ هل هو تكوين؟ أم أنه ينبع من إحساس مستمر بعدم تقدير للجهود التى أقوم بها؟

أمى مريضة، يجب أن أزورها ولكن بالأمس لاحظت نقاطًا من الزيت تسقط أسفل مقدمة السيارة ولابد من الكشف عليها. سأتركها فى ورشة "الحاج صابر" أسفل البيت الذى تسكن فيه. حسنًا فعلت باختيار هذه الورشة، كلما احتاجت سيارتى إلى الإصلاح تركتها وصعدت لزيارة أمى. أضرب عصفورين بحجر. أنا رجل منظم أعرف كيف أستفيد بالوقت.

عاد شعور الانقباض إلىَّ، وأنا أتخيلها راقدة فى السرير. إذا دخلت عليها سيمتلئ وجهها إشراقًا، ولكن أحيانًا تلقى إلىَّ بنظرات فيها لوم، وحزن. سأنتهى من أعمالى بسرعة، لأذهب إليها. لابد أن حالتها سيئة حتى تتصل بى أختى فى هذا الوقت المبكر من اليوم. ربما أغاظها أن أغط فى النوم بينما ظلت هى ساهرة إلى جوارها.

قاربت أمى على سن التسعين. فى الأشهر الأخيرة أخذت صحتها تتدهور. أحيانا أرى عينيها، وقد انطفأت فيهما الشعلة. تصبحان مثل قطعتين صغيرتين من الحجر الأزرق الباهت تطل منهما اللامبالاة الحزينة. انكمش جسمها بشكل غير عادى وعندما تمشى تتعثر خطواتها وتحنى رأسها كأنها تبحث عن مكان يصلح لدفنها. أتمنى ألا أشهد موتها. لا أريد أن أقرأ فى عينيها الأسى، أو الخوف ولا أن أشارك فى تلقى العزاء، أو فى إجراءات الدفن، وكتابة النعى، فى الطقوس التى تتمسك بها الأسر، فى مظاهر الحزن التى لا تمت إلى الحزن بصلة. أتمنى أن أكون مسافرًا خارج القطر كما حدث مع أبى.

فى بعض اللحظات ألمح على شفتيها ابتسامة فيها سخرية كأنها تدرك ما يجول فى خاطرى. أصبح كمن ضبط متلبسًا بخطأ فادح ويتضاعف شعورى بالإثم.

نفذ صوت أختى إلى مرة أخرى. ما زالت نبراته خالية من الود، فتطايرت أفكارى مثل أوراق الشجر فى الريح:

" هه.. لم ترد.. لا أستطيع أن أظل إلى جوار التليفون حتى تستقر على رأى.. أمك تناديني من الداخل..".

" كنت أفكر ..."

" فيم"؟.

" فى الساعة التى أستطيع عندها الحضور.. "

السماعة فى يدى صامتة. فجأة اندفعت منها الكلمات مرتعشة، غاضبة.

"كان من المفروض أن أسافر اليوم فى مهمة عاجلة خاصة بالعمل. ولكنى قررت أن أؤجل السفر لمدة أسبوع. ألا تستطيع أن تؤجل عمل اليوم حتى تزور أمك..؟!".

أحسست بالضيق إزاء لهجتها الحادة. لست واثقا أن حالة أمى سيئة إلى هذا الحد. تبالغ حتى تشعرنى أنها تتحمل الأعباء وحدها، إننى أستحق اللوم، فأخف إلى نجدتها ولكن لا يجوز

أن أعتمد على مثل هذه الافتراضات. ففى هذا السن قد يحدث أى شىء. عاد إلىَّ الإحساس بالجرم، قلت بسرعة.

"سأحاول أن أمر قبل الحادية عشرة ".

أغلقت التليفون بسرعة دون أن أترك لها الفرصة لترد. ليست هذه أول مرة توحى إلىَّ فيها بأن حالة أمى تستدعى حضورى على الفور. يجب أن أعترف أنها لا تلجأ إلى هذا الأسلوب إلا نادراً، ولكن فى الفترة الأخيرة زاد إلحاحها علىَّ بالحضور. أخذ صبرها ينفذ، فأنا الأخ الكبير، كما أننى طبيب وهى تريد أن تطمئن. عندما انتقلت هى وزوجها وأولادها للإقامة فى بيت الأسرة لم تعمل حساب اليوم الذى ستصبح فيه أمى امرأة عجوز. فى السنة الأخيرة أصبحت تعانى شعوراً بأن الموت يطاردها فى كل خطوة. تخشى أن ينقض عليها وهى وحدها فى الشقة فتصر على وجود أحدهم إلى جوارها مما يحول فى أوقات كثيرة بينهم وبين الخروج.

فى بعض الأحيان أصطحبها إلى شقتنا فى "الجيزة" لتقضى معنا جزءاً من اليوم.. تحب الجلوس معنا، والحديث مع "منى" و"عاطف" فهما يهتمان بما تقول. يدور بينهم حوار طويل فيه أُلفة، وهدوء ويعزف "عاطف" على قيثارته الألحان التى تطلبها. أما أنا فأجلس معهم وأستمع. أعد لها شاياً خفيفاً، أو عصير "الجريبفروت" ووجبة من الدجاج والخضار المسلوق. ولكن سرعان ما تلح على العودة إلى البيت، إلى حجرة نومها حيث توجد حاجاتها، وتستطيع أن تستريح.

يجب أن أكون إلى جوارها فى لحظة الموت. أن أمسك بيدها، وأخفف من روعها. أن أساعدها على تقبل النهاية بهدوء. فأنا أعلم أنه عندما يجيئها لن تستسلم له، ستصارعه حتى آخر ما عندها من قوة فطوال حياتها كانت تشعر بالظلم، إن عمرها ضاع فى خدمة الأطفال، والزوج خصوصاً بعد أن اكتشفت أنه تزوج عليها فى السر. كانت تتمتع بذكاء وحيوية وبقدرة على العمل، والجهد. تشعر أنها أخطأت طريقها. لم تكف عن القول.. "ليتنى أكملت تعليمى، واخترت لنفسى مهنة ترضى طموحى بدلا من البحث عن زوج.."

طوال الأشهر الماضية كان يتردد فى أذنى رنين بعيد، جرس يدق. إنه رنين خاص، غير الرنين الذى يصدر عادة من التليفون، رنين خافت، وبارد وبلا شعور، رنين أبيض مثل وجهها الخالى من الدماء التى تجرى فى العروق. أسمعه وأنا سائر فى الشارع أو جالس فى السيارة، أو على مكتبى أحرك قلمى فوق السطور. يتسلل بصوته الشاحب وسط الكلمات التى أصب جهدى فيها. رغم هزاله يخترق الضجيج الذى يصعد من المدينة العملاقة مثل خوار الثور. فيه عناد، وفيه إصرار مثل حقيقة الموت قد يختفى لبعض الوقت، ولكنه يعود..

أنظر فى المرآة. ملامحى أصبحت تشبهها. الأنف والشفة العليا، أشياء فى النظرة والروح. أما أبى فقد ترك لى انحناءة الكتفين، والفم يبتسم فى ود. فى كل يوم يختفى أحد الذين

أعرفهم أو فرد من أفراد الأسرة. جيلى أصبح جيل الموت أفكر فيه أكثر مما كنت. أحاول أن أتخيله، أن أتلمسه عن قرب. أسقط فى هوة مظلمة مثلما يحدث لى أحيانا فى بداية النوم، فأفزع. ترى إلى أين يقود..؟ كيف تنتهى الحياة لتتحول إلى سكون؟ كيف تتلاشى حركة الجسم أثناء المشى، وصوت الغناء، ورائحة الخبز؟ كيف تتحول كل الأشياء إلى لا شىء، إلى فراغ أسود لا نبض فيه، ولا نور، إلى وقفة نهائية، وسكون يغلفه السكون..؟ كيف ينتهى الإحساس بالوجود؟

مازلت متعطشًا للحياة، لكلمات أخرى لم أسطرها، للعيون تنصت إلى ما أقو له، لعناق الجسد الأنثوى فى حر القيلولة. الموت لغز، قد أدور حوله، أو أقترب منه، أو أدرسه عن قرب، أو أحاول أن أغوص إلى عمقه لكنى سأعجز عن النفاذ إليه، عن معرفته إلا إذا مت. وإذا مت لن أكون.. الموت ينفى الإحساس، والعقل، فكيف أدركه؟ إنه يثير فى الغضب، فأنا لا أستطيع أن أفلت منه، أن أقاومه وأنتصر عليه، وهذا الشعور بالعجز يغضبنى. مهما تمردت يظل قدرًا محتوما. ربما أستطيع أن أحاوره، أن أؤجله لبعض الوقت بشىء من الحرص، وبالحفاظ على صحة البدن، والعقل ولكنه سينالنى مهما فعلت. فى أغلب الأوقات أتجاهله.. أشعر أنه لن يصل إلىَّ، فلم أربط بينه وبين ذاتى حتى الآن.. الآخرون ربما ولكن أنا..؟!

خرجت من الحمام حليق الذقن. "نوال" راقدة على السرير تقرأ قلت: -

"سأذهب إلى الزمالك. أمى ليست على ما يرام...".

" الآن..؟"

ترددت ثم أجبت "نعم الآن.."

" ألا تريد أن تتناول قدحًا من الشاى قبل الذهاب؟".

" لا... أريد أن أذهب على الفور.."

قالت: "سآتى معك.. " ثم قامت بسرعة متجهة إلى خزانة الملابس.

قدت السيارة بحرص. إحساس بالخطر يحلق فى الجو. الشوارع خالية، والشمس قرص أصفر باهت معلق فى السماء، والتراب يتسرب إلى كل المنافذ، والشقوق والمسام. صعدنا السلالم الدائرية كأننا نرتفع فى بئر. ضغطت على الجرس فانفتح الباب كاشفًا عن أختى ترتدى ملابس النوم ومن فوقها "روب" كأنها كانت تنتظر وراءه. ألمح ظلالاً قاتمة تحت عينيها، وتقطيبة الحاجبين. ضغطت على يدى بين أصابعها بفتور، وهى تشيح بوجهها بعيدًا عنى وكأن بيننا خصومة. الصمت يرقد حولنا ثقيلاً، فالحى ما زال نائمًا بعمق.

عبرنا الصالة الداخلية على أطراف الأصابع كالأشباح تتسلل فى طابور، ودلفنا إلى حجرة النوم فى الطرف البعيد للشقة. على السرير ارتفاع ضئيل كأن طفلاً يرقد تحت الغطاء. أسمع أنينًا خافتًا يروح ويجىء مع الأنفاس فأمسك بطرف اللحاف، وأهبط به قليلاً لأفاجأ بعينى أمى تنظران فى عينى. السواتر الخشبية مغلقة والحجرة تلفها الظلال فأرى زرقتهما وقد أصبحت سوادا. تصوب نظرتهما إلى مثل الخناجر القاتمة فى وجهها الشاحب. أقرأ فيهما مزيجا من التحدى، والخوف. فتحت أختى إحدى النوافذ، ورفعت الساتر فانقشع السواد عن زرقة باهتة فيها حيرة، وضعف. سمعتها تهمس:

"جئت يا شريف. أنا متعبة على الآخر. النوم هجرنى منذ البارحة.. " أرى الحيوية وهى تعود إليها بالتدريج كأن مجيئنا أعطاها شحنة. أتتبع الضوء يصب فى العينين فيتحولان إلى فصين من الزرقة المصقولة اللامعة، ثم يزحف عليها اليأس من جديد فتغشاهما طبقة حجرية جامدة. لكن سرعان ما تطل منهما الأسئلة الحائرة فأتعجب للتبدل السريع، وكأن عينيها نافذتان أرى منهما روحها البائسة المناضلة حتى آخر رمق فيها.

جلست على طرف السرير. وضعت يدى فوق يدها. أحسست بعظامها كأنها لا يوجد حولها لحم. تنقلب من جانب إلى جانب بحركة متوترة، مبعدة شيئًا عن جسمها وكأنها تشعر بثقل يجثو عليها، أو تصارع طيفا لا يراه أحد غيرها..

قالت: "أصبحت عجوز، ولم أعد نافعة.. "

فى عينيها نظرة رجاء تلقى بها إلينا.

كانت الحياة عندها حركة دائبة. الآن أصبحت تجلس على مقعد أو ترقد على سريرها، وتفكر فى الموت قد ينقض عليها وهى وحدها. جسمها يذوى بسرعة، وخطواتها غدت بطيئة مترنحة، ولكن عقلها يقظ فيه شغف للمعرفة. تلح على حتى أشركها معى فى عمل ما، كأن تذهب مثلا إلى القرية لتساعدنى فى الإشراف على زراعة الأرض التى أملكها. أبتسم لصورة المرأة العجوز الواثقة من نفسها تقف فى الغيط وسط الفلاحين وهم يتطلعون إليها فى ذهول بينما تلقى عليهم تعليمات باللكنة الأجنبية التى ظلت عالقة بكلامها.

فى عينيها الآن نظرة شاردة، متأملة. بين الحين والآخر تعود إليها الحركة المتوترة ليديها تدفع بهما ثقلاً يربض فوقها.

التفتت إلىَّ فجأة وقالت بلهجة هادئة كأنها تقرر حقيقة لا سبيل إلى إنكارها:

" أشعر بالموت يمد إلىَّ ذراعيه ليحتوينى."

سرت فى جسمى قشعريرة. ابتسمت إليها مطمئنا وقلت:

" الموت لا يأتى إلا فى أوانه، وأوانه بالنسبة إليك ما زال مؤجلا. لابد إنك أكلت شيئا سبب لك هذا التعب."

أرى الابتسام يزحف فوق وجهها. تبدو كالطفل المشاكس ضبط متلبسا.

قالت:

" بالأمس أكلت فلفل محشى."

ندت منها ضحكتها السريعة المرحة. تبدو راضية عن نفسها، ساخرة، مرتاحة للتفسير الذى قدمته لها. يكاد يتبدد القلق الذى أشعر به، فأضحك معها مطلقًا العنان لنفسى المتوترة. ولكن هذه الحركة الدائبة التى ترفع بها الغطاء، وهذا التنفس السطحى السريع الذى ينقلب إلى شهقات عميقة أليست علامات تنبئ بالخطر..؟! أمامها أتحول من طبيب إلى ابن قلق أتشكك فيما تعلمته.. أفكر فى المستحيل هاربا من الواقع.

" سأبحث عن طبيب، وأحضره لتطمئنى"..

زحفت الراحة على ملامحها. ربتُّ على يدها الباردة وخرجت مسرعًا.

هبطت السلالم وأنا أبذل جهدا حتى أتذكر أين تركت السيارة قبل أن أصعد. لا مفر من تأجيل إصلاحها إلى وقت آخر. كان يجب أن آخذ سيارة أختى ولكنى نسيت. ترى أين أعثر على طبيب يوافق على الحضور معى..؟ فكرت فى أحد زملائى ألتقى به أحيانًا فى غرفة الملابس بنادى الجزيرة فنتبادل بعض الأخبار والنكات. مسيحى يقدر فى معارضتى للتعصب الذى يجتاح المجتمع.

جلست فى الصالة أنتظر حتى تفرغ العيادة من زوارها. أكره عيادات الأطباء ومرضاها والمجلات القديمة الموضوعة فوق المنضدة عفى عليها الزمن.، أستنشق رائحة التراب فوق المقاعد، وفى الستائر، وعلى النوافذ مختلطة برائحة المرض. أكره الزهور الصناعية فى آنية من الخزف، والبساط الناحل تحت قدمى. جو يوحى بالبخل، والنهم. سألت الممرض.

"كم أجر الزيارة المنزلية؟"..

نظر إلىَّ بخبث حذر ثم أجاب.

" الدكتور يرفض الزيارات المنزلية عادة. إذا وافق سيكون أجره مائة جنيه".

كانت الساعة قد قاربت على الثالثة بعد الظهر عندما وصلنا إلى البيت. أدخلته على الفور إلى غرفتها وأجلسته على مقعد إلى جوارها. أتأمله وهو يلعب دور الحكيم المرح. ضحك وقال:

"أصبحت صغيرة الحجم كاليمامة. لابد من التغذية لتعويض ما ضاع منك، ولإعادة التوازن فى الأملاح والمعادن داخل جسمك. أقترح أن تقضى بضعة أيام فى مستشفى "السلام". سنغذيك بالمواد السائلة، والمقويات عن طريق الحقن التدريجى فى الوريد."

ذهنى يحسب. كم ستتكلف حجرة خاصة فى مستشفى "السلام" مع الأدوية، وأتعاب الأطباء.. لابد من حجرة خاصة بها. طوال حياتها لم أدرك قدرها. أما هى فجالسة الآن فى الكواليس تشاهد أدوارنا. لم يعد شىء خافيا عليها. سقطت الأقنعة لنقف عراة أمامها. الطبيب يبيع لها الآمال الكاذبة، ونحن نشارك فى اللعبة حتى آخر لحظاتها. لا مانع عندها من قضاء بعض الوقت فى المستشفى لتستمتع بالراحة. كل الأشياء أصبحت من حقها.. أول مرة فى حياتها صارت محور اهتمام الأسرة. خاطر يمر فى ذهنى. ترى هل نزفها إلى حتفها؟ ألمح مسحة من المرارة على وجهها تجىء وتروح فى لحظة خاطفة. أفنت أيامها من أجل أولادها والآن لم يبق سوى أن يشيعوها إلى قبرها ليرتاحوا منها. ترى كل شىء بوضوح الحقيقة العارية، المجردة من غلالاتها. فعقلها يعمل بكفاءة، ولكن جسمها يذوى من تحتها، يتخلى عنها. مأساتها أن تموت وروحها نابضة.

جلست على المقعد تعد حقيبتها. أندهش عندما أتأمل حجمها. أستطيع أن أحتويها فى كف يدى. تحيا اللحظات الأخيرة كأن الزمن ممتد، وتعد نفسها لرحلة طويلة.. تمارس الأشياء بدقة الساعة السويسرية فتضع فى الحقيبة قمصان النوم، والملابس الداخلية، وعلب الأدوية، ومقص الأظافر، وخف من الجلد الطرى. حتى أدوات الزينة لها مكان فى الحقيبة، فى ثنايا الجيب الداخلى. يجب ألا ينقصها شىء. تفحص المحتويات مرة أخيرة ثم تغلق الحقيبة بمفتاح صغير معلق فى سلسلة بها عدد من المفاتيح ظلت محتفظة بها لأسباب لا يعرفها أحد.

بعد أن انتهت من إعداد الحقيبة فتحت "دولابها" ومرت بيدها على الملابس المعلقة كأنها تتعرف على ملمسها لآخر مرة. أخرجت جلبابا صيفيا مطرزا بخيوط زرقاء، وفضية أسدلته أمام جسمها، وأخذت تفحص نفسها فى المرآة. طلبت منا أن نمهلها قليلاً حتى ترتدى ملابسها فخرجنا تاركين أختى معها لتعاونها.

غرفة المستشفى تطل نافذتها على النيل، وعلى الأهرامات خلف شاطئ الجيزة. خلعت حذاءها بنفسها ورقدت على السرير. تأملت قدميها العاريتين فيهما خشونة السير فوق المسافات الطويلة. تسعون سنة من الذهاب والمجئ من الصعود والهبوط من الوقوف أمام الحوض، والموقد وحبل الغسيل، من الحركة المتوترة المستمرة. ترفع عينيها إلى أعلى تفحص جهاز التليفزيون يطل عليها من فوق الرف المثبت فى الجدار الذى يواجه سريرها. أضغط على المفتاح أعلى "الكوميدينو" فتظهر بعض الأشباح الملونة ترقص على أنغام الموسيقى. أطفئه وأقول لها "فى المساء تستطيعين متابعة المسلسل وأنت راقدة على السرير". فتهز رأسها بهدوء دون أن تعلق بشىء. أقترب من النافذة التى تمتد بطول الجدار. أرى الوادى الأخضر، والنخيل، ومياه النيل يتحرك فوقها زورق يجر من ورائه صندلا، انتصب على ظهره رجل يرتدى عمامة

بيضاء، وجلبابًا رفعه كاشفا عن ساقيه. ينظر أمامه متتبعا حركة الصندل يشق طريقه. على الشاطئ الآخر تبدو الصحراء جرداء قاسية.

سألتها إن كانت تريد شيئًا فحركت رأسها إلى اليمين ثم إلى اليسار كأنها تضع فاصلا نهائيا بينها وبين الطلبات. أصبحت زاهدة، فاقدة الرغبات. راح احتياج الجسد، وبقى تعطش الروح إلى يد تربت على يدها، إلى الاهتمام. أشياء بسيطة لم أفعلها من قبل. أردت أن أقف على قمة جبل، أن أقول ما لم يقله أحد. تحدثت كثيرا عن الإنسان، وفى زحمة الكلام نسيته.

أسدلت الغطاء على قدميها وسكت. درت بعينى حول الغرفة باحثًا عن شىء أفعله. أشرت إلى أختى وأخى بحركة من اليد، ووقفنا فى الركن نتداول. بدت منصرفة عنا ولكن أدركت أن أذنيها تلتقطان كل شىء. اتفقنا على تقسيم اليوم فيما بيننا. أنا فى الصباح وأخى وأختى بقية الوقت، على أن تبيت أختى معها إذ لزم الأمر.

خرجت من الحجرة باحثًا عن الطبيب "النوبتجى". وجدت شابا ناعم الملامح، أبيض الوجه يرتدى عوينات ويتحدث بتلك اللامبالاة العصبية التى تبين أنه مرشح للمجد، لمستقبل باهر فى الطب. سألته عن العلاج، ومتى ستعطى لها المحاليل بالحقن التدريجى فقال "حالا" وانطلق نحو باب المصعد، فتوجهت إلىَّ الممرضة المسئولة عن القسم. وجدتها جالسة خلف حاجز خشبى مع عدد من بنات التمريض، وقد انهمكت فى تدوين بعض الأشياء فى السجل. أوضحت لها أن حالة أمى تحتاج إلى ملاحظة دقيقة وأننى أعلم أن هناك عجزًا فى عدد الممرضات، فكيف أطمئن أنها ستجد الرعاية الواجبة. كانت أجنبية، تنظر إلىَّ بعينيها الزرقاوين أتت بهما من بلاد الشمال، وترد على دون اكتراث كأن الأمر لا يخصها.

"ستقوم الممرضة المسئولة عنها بما هو مطلوب".

ثم عادت إلى السجل فأوقفتها بحركة من يدى "أنا طبيب وأعى ما أقول. لابد من تخصيص ممرضة".

بدت عليها مسحة اهتمام. سحبت ورقة من أحد الأدراج وكتبت بضعة كلمات عليها ثم التفتت إلىَّ "سنخصص لها ممرضة، أرجو أن توقع بالموافقة على تحمل المصاريف المطلوبة.."

انتظرت حتى أدخلوا إبرة المحلول فى وريدها، وفى أعماقى تساؤل جاءنى لحظة. ترى هل يتحمل قلبها ضغط السوائل الإضافية.؟ ألا يتطلب الأمر مراقبة مستمرة لحالة القلب؟ تركت التساؤل دون أن أفكر فى الإجابة عليه. عدت إليها وجلست على طرف السرير بالقرب منها قلت:

"الآن سأنصرف. "منى" ستبقى معك، وسأعود أنا باكرًا "..

أمسكت بيدى. عيناها تجرى من تحتها تيارات غامضة. قالت:

" شريف. أشكرك. " فنفذت الكلمة إلىّ كالطعنة.

"هذا الشكر علام ما؟. إنها أبسط الأشياء."

ظلت ممسكة بيدى كأنها لا تريد أن تتركها تفلت منها. تبث إلىّ رسالة وداع خفية فيها خوف، وشوق، وحنين، وحب، واستسلام ورفض، فيها حياتها كلها. أنظر إليها طويلاً، وتتلاشى الأصوات المحيطة بنا فكأننا أصبحنا لأول مرة وحدنا، أنا وهى.

"تستطعين الجلوس على الشرفة آخر النهار. المنظر جميل والشمس ستغيب خلف الأهرامات".

تركت يدى كأنها تستسلم لما لابد أن تستسلم له. ربتُّ على خدها الضامر فأحسست بجلدها المتهدل يهرب من تحت أصابعى كأن عظامها أصبحت عارية. خرجت من الغرفة كاللص، راغبا فى الهروب، مشدودا نحو العودة إليها. هبطت على الدرجات ببطء دون أن أنتظر المصعد حتى يصل إلى. شعور استولى على، بأننى أطوى فصلا من حياتى استعدادا للموت. أبطئ الخطو لأمارس الحياة على مهل، أمتصها، أستمتع بها بهدوء قبل أن تنتهى. أمارس حالة من الانفصال عن مشاغل الدنيا، من الزهد عن كل شىء ما عدا الوجود فى ذاته.

لا أتذكر ماذا فعلت فى هذا اليوم. ربما قرأت، أو سرحت، أو انشغلت بأشياء صغيرة أقتل بها الوقت. لم أكن أريد أن أبذل جهدا وعندما جاء الليل اتصلت بأختى فى التليفون لأطمئن على حال أمى ثم نمت. بعد الفجر بقليل دق جرس التليفون. اخترق المسافة من الصالة حتى غرفتنا برنينه الواهن كأنه غير قادر هو الآخر على الجهد. سمعته على الفور، فقفزت من السرير، وأسرعت نحوه دون أن أرتدى الخف. جاءنى صوت أختى يقول:

"أحضر بسرعة ماما فى حالة سيئة"..

عندما وصلت وجدت أختى، وأخى يقفان فى البهو خارج الحجرة. ملامحهما فيها ذلك الجمود الذى يعتبره الناس تعبيرا مناسبا عن الحزن فأدركت. نظر إلى أخى كأنى غريب، دون أن يقول شيئا فسألت.

" متى فارقت الحياة ...؟"

قالت أختى.

"بعد الفجر بقليل. توقف قلبها، فحاولوا تدليكه دون جدوى." انصرفت عنى والتفتت إلى أخى كأننى قطعت حديثا يودان مواصلته. مرت لحظة من الحيرة الصامتة، وأنا أقف أمامهما. ألمح السيارات المسرعة على كورنيش النيل تروح وتجىء دون أن يصدر منها صوت. أنا فى دنيا

أخرى غير دنياهم، تفصل بينى وبينهم مسافة بعيدة. صدرى مفرغ من مشاعر الود، مفرغ من مشاعر الحزن، أحيا فى زمن مجرد ممتد فى مساحات للكون لا يملؤها شىء.

تركتهم حيث هم، سائرًا فوق نعلين من المطاط بحرص كأننى أخشى أن أكسر الصمت. دفعت باب الحجرة برفق ودخلت. على السرير يرقد جسم كاللوحة الخشبية الملفوفة بأربطة من التيل الأبيض، كالمومياء، أو الجثة المعدة لكى تلقى فى البحر. عند الرأس "فيونكة" بيضاء كبيرة الحجم. كل شىء فى الحجرة أبيض، غارق فى الصمت. اقتربت حتى أصبحت على مسافة قصيرة من الجسم. خطر فى ذهنى أن أفك الرباط الملفوف حولها حتى أراها ولكنى تراجعت فقد أعجز عن إعادة الرباط إلى وضعه السابق. ظللت واقفا إلى جوارها دون حركة كأن الجمود الذى أصاب كل شىء انتقل إلىَّ. ألقيت نظرة من النافذة. لم تستمتع بالأهرامات، بالنيل والشمس. هكذا الأشياء تأتيها بعد فوات الوقت.

خرجت من الحجرة. أختى وأخى ما زالا يتداولان فى أمر ما. اقترحت عليهما أن نتم إجراءات الدفن، فهبطنا فى المصعد إلى الدور الأول، واجتزنا صالة الاستقبال الكبيرة على أنغام الموسيقى الراقصة. وجدنا مسئول الأمن جالسا خلف مكتب صغير فى حجرة ضيقة ممسكا فى يده بوردة حمراء. اقترح علينا أن نضع "الجثة" فى الثلاجة مقابل عشرين جنيها حتى ننتهى من استخراج تصريح الدفن. رنت كلمة جثة فى أذنى بوقع غريب. أهذا هو الموت الذى يتحدثون عنه؟ أن يغدو الإنسان فى لحظة مجرد قطعة ميتة من اللحم. توضع فى ثلاجة؟

جلسنا فى صالة الاستقبال نتفق على باقى الخطوات. كلما اقترحت شيئا عارضه أخى. كان فى تلك الحالة من الهياج التى تنتابه عندما يضع ذاته فجأة فى الميزان.

ذهبت إلى مكتب الصحة فى الجيزة ثم عدت إلى شقة الزمالك حاملا فى جيبى ورقة صفراء عليها أرقام وكلمات. تركت أخى مع بعض أفراد الأسرة ليقوموا بصياغة النعى، وتوجهت إلى الحجرة المنزوية عند الطرف البعيد للشقة. فتحت الباب ودخلت. على ظهر ماكينة الخياطة طبق من البرتقال غسلت حباته بعناية، وعلى الجدار صورنا ونحن صغار. جلست على الكرسى الهزاز ملقيًا على الحجرة نظرة وداع. تملكنى إحساس بأننى لن أستطيع أن أدخلها بعد الآن.

توجهت إلى المستشفى صباح اليوم التالى. رأيتهم يخرجونها من باب الثلاجة. لم يتغير شىء عن الأمس ما عدا الأربطة البيضاء التى أصبح لونها أصفر، ورائحة مثل هواء المبرد الذى ظل مغلقا مدة طويلة على الأكل. دخلت وراءها إلى الغرفة التى سيتم فيها غسلها وتبعنى أخى. وقف يصدر الأوامر، ويلوح بذراعيه هنا وهناك "حاسب. على مهلك. إيه يا أخى ده ما تعرفش تشيل زى الناس"..خرج الرجلان اللذان أحضراها على النقالة وبقينا نحن مع المرأة التى ستقوم بغسلها. سمعت أحدهما يغمغم "الرجال لا يحضرون الغسل".

قامت المرأة بفك الأربطة من حولها فغدت عارية. عظامها بارزة تحت الجلد، وأطرافها متخشبة. تقلبها المرأة على جانب كتلة واحدة، ثم تعيدها إلى رقدتها على الظهر. اصطبغ جلدها بلون أصفر، فتحولت إلى ما يشبه تمثالاً من الشمع. وجهها الضامر، وجبينها يعكسان مزيجًا من الألم والحيرة كأنها تلقت طعنة من الخلف أضيفت إلى كل الطعنات التى تلقتها من قبل. ترقد ساكنة مستسلمة لما يفعلونه بها .بينما المرأة تسد منافذ جسمها بقطع من الشاش والقطن، قبل أن تلفها فى ثنايا الكفن.

أتوا بالصندوق ليضعوها فيه. خرجوا به من الحجرة وهم يحملونه فوق أيديهم، ومن ورائهم أخى يصدر تعليماته بصوت غاضب حتى وصلوا إلى السيارة "البيجو" المنتظرة أسفل الدرجات. توجهت إلى موظف الأمن الجالس على مكتب. رجل أصلع الرأس ذراعاه القويتان يغطيهما شعر أسود. جرت عيناه فوق وجهى، وجسمى بحركة حذرة، قلقة تفحص كل شىء قبل أن يوقع على ورقة الخروج من البوابة.

جلس أخى إلى جانبى فى السيارة. توقفنا أمام جامع " الرابعة العدوية" فقفز منها بسرعة، وتركنى ليلحق بالنعش ويشارك الآخرين فى حمله على الأكتاف. أحسست أنه يقوم بدوره فى تمثيلية، يفعل الأشياء التى يفعلها الناس فى هذه المناسبات. يريد أن يبدو كالآمر الناهى الذى يتصرف بحذق، أن يتميز عنى أمام الناس. أغلقت السيارة، وصرت إلى صحن الجامع. لم أكن قد صليت منذ زمن طويل فلما ارتكزت بثقلى على كعب قدمى أحسست بالألم عند الرسغ.

عندما عدنا إلى السيارة ألقى إلى بنظرة جانبية سريعة وسألنى "هل كنت متوضئا عندما صليت؟" أمى كانت إنجليزية، ولا أظن أنها أسلمت عن قناعة حقيقية، فالمسألة بالنسبة لها لم تكن سوى رغبة فى مسايرة العرف، وتثبيت وضعها الشرعى فيما يتعلق بالمعاش والإرث، وها هو أخى يسألنى هذا السؤال، وكأننى قد أكون سببا فى حرمانها من رحمة الله!! مرت لحظة طويلة من الصمت التقطت أذنى أثناءها دبيب العجلات فوق الطريق، وصوت أنفاسه يخرجها كأنه يعانى من انسداد فى فتحة الأنف ثم أضاف دون أن ينظر إلى"أحيانا يتسرب منا بعض من الريح دون أن ننتبه إليه" فألقيت ناحيته بنظرة سريعة دون أن أعلق بشئ. لمحت يده تشد على رقبة القميص، والأساور أسفل كم السترة تلمع فى الشمس.

توجهنا إلى المقابر الجديدة، التى تقع إلى جوار مدافن "الكومنويلث" فى مدينة نصر. خطر فى بالى أن والدتى ستسعد بهذا القرب من موطنها الأصلى.

كان المدفن الصغير غارقًا فى الصمت، فى عالم لا حركة فيه، ولا حياة. بدت أصواتنا عالية، فاقدة الحياء ترن بصداها الأجوف فوق المسافات. وقع الأقدام على الرمال خشن، وصوت الفقيه غليظ أجش. ألمح أنفه الأفطس، وفمه المعوج كالفجوة السوداء تسقط منها الكلمات مع اللعاب فى تتابع سريع كأنه يريد أن ينتهى من مهمته فى أقرب وقت.

فى أحد الأركان شجرة خضراء جلست فى ظلها على مصطبة مصنوعة من تفل الصحراء. أتأمل الهوة التى أخذت أمى تهبط فيها تحت الأرض واثنين من الرجال يسدانها بالأحجار، وبعضا من الإسمنت والرمل. فوق رأسى تتوهج عين الشمس. أجلس دون حراك كالمتفرج يتلكأ فى ترك مقعده بعد أن انتهى العرض. أبحث عن أشياء تختزن للغد، عن خيوط كانت بيننا، وقطعت منذ الأمس. أتخفف من أعبائها، شاعرًا بنوع من الراحة، فقد انتهى ما كنت أخشى منه. أستمتع بالكون الواسع، والصمت، بالبعد عن صخب الحياة فى شوارع المدينة المكتظة بالناس. لا أشعر بالحزن، أشعر فقط أن كل الأشياء أصبحت سيان. ألاّ شيء يستحق الاهتمام أو الجهد. أنفصل عن ذاتى، عن جسمى وأنامله. أمد يدى فى الشمس، وأحرك أصابعها. ترى هل هى يدى بالفعل؟لا! وهذه الحركة أليست غريبة بعد أن سكنت أمى إلى الأبد..؟ أسمع صوتها يهمس إلى كالريح يتسلل إلى مقابر الأموات. "هذه يد فنان، أو جراح ماهر" تتحدث عن شخص آخر. الموت حقيقة الحياة، ونقيضها، والفاصل بينهما شعرة، لحظة من الزمن. ترقد تحت الأرض كومة ضئيلة من العظام ملفوفة فى الكفن، وغدا أو بعد غد سترتفع منها رائحة العفن.

دخلت غرفتها فى اليوم التالى. ألقيت عليها نظرة وخرجت. ومنذ ذلك اليوم لم أدخلها فقد كرهت أن أراها وهى غائبة عنها، أو بعد أن احتلها شخص آخر استباح لنفسه أن يستخدم أشياءها. ما فيها كان ملكها لا يجوز لأحد أن يلمسها. عاشت فيها أكثر من نصف قرن فكان الأثاث، والجدران، والسرير، والدولاب كلها امتداد لحياتها يجب أن تظل لها وحدها. كانت أمى، ولن توجد لى أم غيرها. كنت أضيق بها أحيانا، ولكن كم من الأشياء ضاعت، أو اغتصبت، أو فقدت معناها منذ أن ماتت.

لم يكن أحد من المحيطين بها فى مستواها. أتخيلها أحيانًا وقد عادت إلينا طفلة، حفيدة من الأحفاد فى عينيها نظرتها الزرقاء الجادة، وفى صوتها شلال ضاحك. فإذا حدث هذا وأنا على قيد الحياة سأعود إلى الغرفة التى تركتها وراءها. سأجتاز الصالة على أطراف الأصابع. سأفتح الباب وفى قلبى شوق.

ماتت أمى وأنا فى الرابعة والستين من عمرى. أحسست أن مرحلة الشباب فى حياتى انتهت، فلم يعد لى أم تسأل عنى، وتقلق علىَّ أو تنصحنى بإحكام الغطاء حول جسمى فى الليل، أو توصينى بالراحة وتفادى الاستغراق فى العمل أكثر من اللازم، أو تتصل بى للاطمئنان على.

كنت بالنسبة إليها طفلا يحتاج إلى من يرعاه، ويحميه من نزعاته. عندما أذهب لزيارتها تجلسنى إلى جوارها. أشعر بعينيها تفحصان ملامحى. تلح على بأن أتناول بعض الطعام، وتحاول إغرائى بالأصناف التى تعرف أننى أحبها. تعاملنى كأننى لست مسئولا عن نفسى.

تفرض على نوعا من الوصاية، كأننى ما زلت فى رعونة الشباب واندفاعاته. كان وجودها يبقى على الإحساس بأننى لم أكبر بعد، أن السنين لم تمر بالقدر الذى تسجله الأرقام. فأمى كانت تكبرنى بما يقرب من ربع قرن، وأنا بالنسبة إليها كنت فى سن الشباب أو ربما حتى طفل.

الموت جزء لا يتجزأ من حياتى، فأنا طبيب، وكاتب، ومع ذلك فموتها هى بالذات نفذ إلى أعماقى. ليس فقط لأنها أمى، قريبة منى قرب الجلد من اللحم، مرتبطة بأخص الأشياء فى كيانى، ولكن لأنها عندما ماتت أخذت شبابى معها.

الفصل الرابع والعشرون

قرب آخر المشوار

سرنا إلى جوار الترعة. على الشاطئ صف من الأشجار زرعتها عندما أقمت بيت القرية سنة ١٩٨٦. مرت على زراعتها عشر سنوات فارتفعت قامتها، وتفرعت أغصانها لتصنع مظلة خضراء مورقة تهمس فى الريح.

أتوقف تحتها. أتأمل مياه الترعة يتراقص سطحها الأسمر فى ضوء الشمس. منذ أيام كنت سائرا فى غابة "ديوك". كان الجو باردًا والثلج غطاء أبيض يلف الكون. الشباب والشابات فى ملابس التدريب الصوفية يتسابقون فوق الطريق نزحوا عنه الثلج بالكساحات. أنفاسهم سحب بيضاء. يلوحون إلى بأيديهم ويقولون "هاى" قبل أن يختفوا بين الأشجار. الآن أنا فى "القضابة"، إلى جوارى الخولى "محمود النفياوى" وأخوه "حسن" موظف فى مركز شباب "الفرسدق" و"مصطفى تليمة" حارس البيت، وراعى حديقة البرتقال. يرتدون الجلاليب وطواقى من الصوف فوق رءوسهم. أيديهم كبيرة خشنة، ووجوهم حفرت فيها المعاناة خطوطها العميقة.

العصر الذى أعيشه يختصر الزمن مئات وآلاف المرات. فى ذهنى تتلاشى الحدود وتمتزج الصور. يجعل من الكون منظومة واحدة يرحل فيها جسمى فوق المسافات فيحيط خيالى بالعوالم أشق فيها طريقى بين البلاد. السماء فوق رأسى زرقاء، أملأ عينى وصدرى بصفائها لا تشوبها غيوم المدينة يصنعها التراب، وأبخرة النفط والدخان. أتذكر سماء "نورث كارولينا" وأنا سائر فى بلدتى. يسمونها هناك "كارولينا بلو" وتلمع عيونهم مع الكلمات. بالأمس كنت فى "درهام" أعمل أستاذا فى "جامعة ديوك". واليوم أنا فى "القضابة" مركز "بسيون" مالك لدوار تحيطه حديقة برتقال، ولتسعة فدادين من "أجود الأراضى" كما يقول "الحاج إبراهيم" قياس القرية، وكاتب جميع عقودها رافعًا حاجبيه أعلى وجهه ذى البشرة الشاحبة الصفراء. أسير فى حواريها وبين غيطانها. استنشق رائحة الحطب تصعد فى الهواء عندما يشتعل فى الأفران، ورائحة درع الجاموس، والروث فى الأحواش ورائحة الزرع والمياه، والعرق فى الملابس والتراب، وفى الأمسيات أستنشق هذه الروائح كلها كأن الحيوان والنبات والأرض وكل شىء فى الوجود تختمر خصوبته فى الظلام، كأن الفناء حدث عارض يمهد للحياة.

منذ أيام كنت أسير على طريق من الأسفلت، وأخترق الحدائق، والمبانى الراسخة فى الثراء. حرم الجامعة تمتد مساحته على أكثر من ألف فدان ينطلق فيه الشباب، والشابات فوق دراجاتهم. أجسامهم ممشوقة، وشعورهم طويلة طائرة فى الهواء. حقائبهم المربوطة على ظهورهم تحمل كتب الفلسفة، والأدب، والعلم، والتاريخ. الآن أمشى إلى جوار الترعة. ألمح الفتيات عند الشاطئ جلاليبهن الملونة مرفوعة حول الخصر ورءوسهن المحنية ملفوفة فى المناديل تسقط منها ضفائر الشعر، وأيديهن تدعك الأوانى النحاسية بالطين، والحصى، والقش، وعيونهن السود ترتفع إلينا بنظرة جامدة تقول إن عالمهن غير عالمى ثم تنخفض لتعود إلى أيديهن لم تتوقف عن حركة الدعك.

تقدم الحارس ليقترب منهن. أسمعه يصيح بصوت عال ملقيًا نظرة جانبية إلىَّ كأنه يشهدنى على يقظته، وحرصه على حرمة البيت.

"أنت يا بت أنت وهى. روحو أغسلوا بعيد هناك. يعنى مالجتوش إلا الحتادى تغسلوا فيها. ما الترعة واسعة أهيه. جاتكم داهية تاخدكم."

تتفادين النظر إليه وتواصلن الدعك. يعود إلينا وقد بدا عليه الخذلان، يتمم "مفيش فايدة فيهم". أشير إليه بيدى حتى يكف. أريد أن أحافظ على نظافة الشاطئ الظليل أمام البيت، وأخشى أن تحولنه إلى ملقف للفضلات كما فعلن من قبل. لكن هنا تجدن الظل خصوصا فى شهور الصيف، ومساحة ليست بعيدة عن بيوت القرية تسعهن. وجودهن يبث الحياة فى مساحات المياه والزرع. أسمع أصواتهن من بعيد، وألمح ألوان الجلاليب، وبريق الشمس على الأوانى المبللة بالماء، وحركة الأجسام قوية لدنة وهن تملن عليها وترفعنها فوق أعناقهن لتسرن بها فوق الجسر.

سار الحارس ورائى ورأسه منكسة إلى الأرض. يرتدى حذاءًا كبير الحجم، أوسع من قدميه فيكاد يفلت منهما. كان يروى الحديقة ساعة أن هبطت إليها فوق سلم البيت. أسمع وقعه الثقيل المبلل عندما يحتك بالأرض. الإصبع الكبير فى قدمه يبرز من ثقب فى الجلد. يزحف به كالطفل ارتدى حذاء أبيه أو أخيه الأكبر منه.

عندما خرجنا من البوابة إلى الطريق ملت عليه وسألته عن مقاس الحذاء الذى يرتديه. حملق فى وجهى مندهشًا، وفكر قليلاً قبل أن يرد "اثنين وأربعين تجريبا" قلت لنفسى فى المرة القادمة عندما أحضر من القاهرة سأحمل له حذاء من البيت فمقاسه هو مقاسى. أحسست بومضة من الرضى عن النفس. من الحين للآخر أشعر بالذنب إزاءه أسكته بمبلغ من المال أعطيه له، أو قطعة من ملابس يحتاج إليها. عندما ألتحق بالعمل عندى كان شابا هادئا يرمقنى بنظرة سريعة فيها شك. فى لحظات قليلة يندفع ويثور، ويتخذ قرارات تحت تأثير

الضيق من وضع يعجز عن تغييره. ربما يتذكر أنه قبل بناء البيت كان يستغل هذه الأرض هو ووالده نظير جزء من المحاصيل يسلمها إلىَّ، وأنه بعد أن أكملت بناء البيت أصبح أجيرًا فى الأرض. لكن ثورته لا تدوم وسرعان ما يعود إلى هدوئه المعتاد ويطل من عينيه التوجس مما أقدم عليه. مرت السنين وأصبح كهلاً. راحت منه الثورات المفاجئة التى كانت تستولى عليه. غلظت ملامحه، وتضخمت يداه من خلع الحشائش والأشواك. أعامله بحذر الملاك، أعطى له بميزان حتى أتفادى تأجيج آماله وتكرار الطلبات، وحتى أبقى على حافز للإنتاج فأنا كثير الغياب عن البلدة أحيانا لمدة سنوات.

فى بعض الأيام أسعى إلى تكسير الحاجز القائم بيننا بحكم الأوضاع. أمسك بذراعه ونمشى فى الحديقة فوق الممرات لنتفقد أحوالها. يدور بيننا حوار عن العنزة التى ابتاعها بثلاثين جنيها، عن طرح النخلتين التى زرعتهما "نوال"، عن مفاصل زوجته و"الروماتيزم" الذى أصيبت به، عن الجيران الملاعين لا يكفون عن إلقاء الفضلات من الشبابيك. يسألنى عن ابنى "عاطف" الذى صور فيلمه "عروس النيل" فى "القضابة" و"صالحجر" وهل سيحضر إلى البلد لتصوير فيلمه الجديد، ولا تخلو مثل هذه الجولات من الحديث عن الجهود التى لا يكف عن بذلها وضرورة رفع الأجر الذى يتقاضاه فهو فى "هذه الأيام التى لا يعلم بها إلا ربنا" لم يعد يساوى شيئًا.

فى بعض الأمسيات نقف عند الشاطئ لنستمتع بالنسيم. نشاهد الترعة كالمرآة تتحول فيها الأشجار إلى زرقة قاتمة فى السائل القرمزى. نستمع إلى الكروان يشق السماء بندائه الحزين. عندئذ أصمت أنا، ويصمت هو. نترك الإحساس بالوجود يتسرب إلينا. نتقارب فى لحظة عابرة لا تعبر عن نفسها. إنسان مع إنسان فى الكون الكبير.

انحنينا إلى اليسار قرب الزاوية تكاد تغطس عواميدها فى مياه الترعة كأنها تغسل أقدامها فيه. سرنا فى الحارة الطويلة تفصل بين بيوت الفلاحين والحقول لتحدد زمام القرية. عند أول ناصية انتصب شابان يرتديان القميص والبنطال ويدخن كل منهما سيجارة. فى وجهيهما بلادة شاحبة توحى بأنهما يئسا من كل شىء. أحدهما يقف مسندا ظهره إلى الجدار رافعًا قدمه على كتلة من الحجر بينما انصرف عنه الآخر ليحملق فى حقل البرسيم الممتد أمامه. عندما مررنا إلى جوارهما لم يلتفتا إلينا كأنهما لم يلاحظا قدومنا، أو لم يجدا مبررًا للاهتمام بنا. فى عيونهما نظرة تجاهل مصمتة تعبر عن العجز، عن الضيق بعالم لا يلتفت إليهما. تركتهما دون أن أوجه إليهما التحية كما يفعل الناس فى القرية عادة. كان يسدان الطريق، ولم يفكر أحد منهما فى التنحى جانبًا أو فى إبداء لفتة من تلك اللفتات التى تعودتها من الشباب فى بلدتى. بعد أن اختفى ذلك المزيج من الفضول والإقدام والخجل الذى يظهر عليهم عندما أمر بهم. علق "محمود النفياوى" بعد أن اتسعت المسافة التى تفصلنا عنهما قائلاً:

"شباب بطال ما عندوش حاجة يعملها".

قليل الكلام يرصد المظاهر فى جملة واحدة ثم يعود إلى صمته. مرت ثلاث سنوات منذ آخر مرة رأيته فيها. حركاته تنم عن الثقة فى النفس، راض بما قسم له لكن سعيه لا ينقطع. صبره على العمل، وعلى الحياة لا ينفذ، رغم ضغوط الأسرة الكبيرة، وصعوبة تلبية احتياجاتها. فالجميع يعتمدون عليه فى ترتيب شئونهم. مجلس الأسرة مكون منه، ومن أمه، هو فى الغيط، وهى فى البيت يتشاوران، ويكملان بعضهما.

أحب أن أجالسه عندما يكون مع بناته الخمس. يداه كبيرتان وحضنه قوى. لكن رقته معهن ملفتة للنظر. يرفعهن على حجره كأنهن كائنات هشة يخشى عليهن. يتحدث إليهن بصوت هادئ وفى عينيه بريق. أندهش لطريقته فى التعامل معهن تختلف عنها فى الأسر الريفية حيث الغلظة فى المعاملة ضرورية لتربية الطفل وتقويم أخلاقه. فخور ببناته الخمس والصبى الذى جاء فى الآخر فاتفق مع زوجته على إيقاف الإنجاب.

لم يتغير خلال السنين الماضية. ربما أصبح يعبر عن قدر أكبر من الآراء المحافظة بحكم الجو الدينى المتزمت الذى ساد فى البلد، لكن إذا "نكشته" يعود إلى ميوله الحرة ويضحك معى على نفسه. تطورت حياته بالتدريج إلى الأفضل بحكم جهوده. أصبح عنده تليفون، جدد مقطورة الجرار، ودهنها. ابتاع قطعة من الأرض فى قريته "صالحجر"، وأقام عواميد وجدران منزله الجديد ثم توقف إلى أن يدخر مبلغا يكفيه ليكمل به الشبابيك، والأبواب، والمحارة وخلافه. يقول باطمئنان الواثق أن ربه سيوفر له المبلغ الذى يريده.

يجعل إقامتى فى القرية مسألة ميسرة. أترك شئون الأرض والدوار، ودودة القطن، وحسابات الغلة، وغيرها له وأتفرغ للكتابة، أو التريض إلى جوار الترعة لمدة ساعة والعودة مع الشمس وهى تسقط فى البحر الأخضر المتموج أو التحدث مع المزارعين عندما "أسرح" على الفدادين التسعة المزروعة بالمناصفة وهى إحدى طقوس الملكية أؤديها نادرًا. أترك نفسى كالزورق مع تيار الحياة. أستمع لأصوات الطبيعة، وحيواناتها، تحجبها عنى المدينة، أو لسكان "عزبة الكوادى" يحكون عن حياتهم ونحن جالسين على الكنب.

فى بعض الأمسيات عندما ينتهى يوم العمل يحضر "محمود النفياوى" إلى الدوار ونجلس على الشرفة ليبوح لى ببعض ما يدور فى ذهنه، بتساؤلات عن الجنس، والخلف، عن مشاكل الأسرة، عن رفع الدعم على مستلزمات الإنتاج وأثرها، عن الأرواح وأين تذهب بعد موت أصحابها.

فى الصباح أشرب الشاى على صوت اليمام، والهدهد ينقر بمنقاره. أشجار البرتقال تمتد أمامى. أرى أوراقها الخضراء الجديدة وهى تلمع وسط القديم الداكن. ماكينة الرى تدور بصوتها المتقطع لتدفع بالمياه فى القناة من عند البوابة إلى السور الخلفى المبنى بالطوب اللبن.

ألمح جلباب "مصطفى تليمة" يتحرك بين الأشجار مثل الجناح الأبيض. يظهر لحظت ثم يختفى ليظهر من جديد لأفاجأ به على مقربة منى وهو يقول "أنا بأروى أهه زى ماجلتلى".

أجلس على الشرفة وأنتظر قدوم "النفياوى". وصلت فى الليل فعرف أنى جئت. لا أعلم من أين عرف. ربما أخوه "حسن" مر على البلدة وهو عائد من مركز الشباب فى "الفرسدق". دق جرس التليفون فى الصباح الباكر. رفعت السماعة سمعته وهو يقول: "مسافة السكة، وتلاجينى عندك. إذا ما لجيتش عربية حاجى بالجرار".

أسمع صوت الجرار وهو يقترب ثم يتوقف خلف البوابة فأعرف أنه وصل. أتتبع قامته المرفوعة وهو يسير على "المشاية" بخطوة ثابتة، يصعد الدرجات إلى الشرفة. ألمح أسنانه تومض فى الوجه الأسمر. احتضنه، ويحتضنى بحرارة تغلبت على الحواجز. يقول "حمد لله على السلامة."

أدعوه للجلوس على المقعد فيجلس ثم يردد مرة ثانية:

" حمد لله على السلامة" ثم يظل صامتًا لحظة قبل أن يضيف:

" والله كانت لك وحشة كبيرة."

فأشعر أننى أصبحت فى الوطن.

قررت فى هذا اليوم أن أتفقد مدفن الأسرة سجل على خريطة القرية تحت اسم "جبانة مسلمين". لم أذهب إليه من قبل إلا مرة واحدة. اصطحبنى إليه ابن عمى "محمد رجاء" فهو مولع بزيارة الأموات فى الأسرة يستمد من مكانتهم السابقة علو شأنه. استأصل ورمًا حميدًا من مخه وبعدها أصبحت فكرة الموت تلح عليه.

أوحى إلىَّ أن أستعد أنا أيضا "ليوم الأجل" قد أعيش سنين طويلة ولكن من يعلم. فسرت فى ذلك الصباح إلى حيث يوجد المدفن. بناه "جدى الكبير" "يوسف" على قطعة من الأرض أوقفها لهذا الغرض. كانت أرض رديئة مالحة فيها نشع رغم أنها تطل على الحقول الممتدة جنوب البلد، فرأى أنها لن تنفع لأى غرض سوى دفن من يموت من أفراد الأسرة.

فى بداية الحارة الضيقة التى دخلنا فيها وجدت نفسى فجأة أمام بوابة ضخمة من الخشب عليها ترباس طويل من الحديد الصدئ، وقفل يتدلى من الحلق. أمام البوابة وقفت معزة تأكل فى كوم صغير من أعواد الذرة. تلتقط العود بين شفتيها الرفيعتين وتمضغه بين فكيها بحركة سريعة متوترة. رفعت رأسها وتوقفت لتفحصنى بنظرة حانقة كأن هذا المكان يخصها هى وحدها.

بادلتها حنقًا بحنقها. فأنا المالك أشاهد اعتداءها على مساحة من الأرض أوقفها جدودى بغرض الحفاظ على مكان متميز لنا بعد رحيلنا عن هذا العالم. ولكن فى اللحظة نفسها

هرعت امرأة نحونا ورفعت المعزة بين ذراعيها، ثم أسرعت بها ملقية نظرات قلقة فى اتجاهنا لتختفى فى الحوارى خلف سور المدفن.

وجدت من الأوفق ألاَّ أجعل من وجود المعزة فى هذا المكان مشكلة. مهما قلت بعد انتهاء زيارتى للمدفن ستعود المعزة لتحتل مكانها أمام البوابة. ثم أليس الأحياء أهم من الأموات حتى لو كان الحى مجرد معزة؟! بعد قليل ظهرت امرأة عجوز نحيلة يصعب تمييزها عن المرأة السابقة. جسمها الضامر ملفوف فى جلباب ممزق لونه أسود، وقدماها عاريتان علقت بهما آثار الروث. خاطبها "محمود النفياوى" قائلاً:

" يا أمّ عزب افتحيلنا المدفن بسرعة."

غابت فى بيت من البيوت المجاورة، وعادت تحمل مفتاحًا كبيرا مربوطًا بحبل من التيل الأسمر. تقدمت نحو البوابة وأدخلته فى ثقبه ثم أخذت تديره من ناحية إلى ناحية فصرخ صرخات متقطعة قبل أن تهتز ضلفة الباب المغلق. مال عليها "محمود النفياوى" بثقل جسمه فانفتحت بصعوبة.

دلفت إلى حوش المدفن. توقفت لحظة أتفقد المكان. تراب الأرض تصعد منه رائحة عفونة خفيفة وتغطيه أعشاب شوكية مدببة أضفت عليه جوًا قبيحًا متوحشًا. على الجانب الأيسر منه ثلاث قاعات ترتفع عن سطحه. القاعة الأخيرة مغلقة، والمتوسطة سقط سقفها فى بعض الأماكن، وتراكمت الأحجار المكسورة على أرضيتها. قرب الجدران المتصدعة آرائك ومقاعد قديمة متهدمة تحول خشبها إلى لون الرماد شأنها شأن خشب الأبواب والشبابيك. الأرضيات مبلطة بأحجار مربعة برزت من بينها أعشاب جافة وحشائش.

رفعت رأسى إلى الفجوات المفتوحة فى السطح. السماء الزرقاء تطل علينا من خلالها. تبدو وسط هذا الخراب عميقة، مبهرة. أسمع تغريد عصفور بنى عشه فى فجوة صغيرة عند السقف ظهر منه برأسه وتفقدنا بدهشة كأنه لم يتعود وجود الأحياء فى هذا المكان المخصص للأموات وحدهم.

عند نهاية الحوش الأمامى فتحة اخترقناها لنصل إلى الحوش الخلفى حيث القبور التى دفن فيها أفراد الأسرة. فى الجزء الأيسر منه قبران كبيران لكل منهما قبة عالية أحدهما مطلى بلون وردى بهت وتآكل مع الزمن، والثانى بلون أخضر فاتح لم تبق منه إلا بقايا متناثرة ظهر من تحتها الجير الأبيض.

سألت حارس المدفن انضم إلينا. قال إن القبر الأول فيه الرجال، وأن الثانى فيه النساء، فتوقفت أمامه. تخيلت جدتى تخرج من أعماقه بجسمها العجوز المنكمش. أصبحت كومة من

العظام مدفونة فى التراب، وسأصبح أنا إلى جوارها كومة أخرى من العظام. أقف فى الحوش الخلفى للمدفن ومن حولى الأشواك تتعارك باحثة عن الهواء. ترفع أصابعها الشريرة حولنا. لونها أخضر مريض، زرعتها الساحرات وروتها بالدماء. أستنشق رائحة الغدر والخيانة فى هذا المكان. كيف عاشت جدتى وسط هؤلاء الناس؟ كان لجدى "خليفة" سجن خاص فى الدوار، بئر تحت الأرض يضع فيه الفلاح إذا رفع صوته ضد قسوة الاستغلال. وأنا وريث هذا الميراث آلت إلى الأرض التى أملكها وفقًا للشرع والأعراف، ولا يقلقنى ما أحصل عليه من خراجها.

التفت إلى الواقفين حولى وقلت:

" أريد أن أدفن مع جدتى".

نظروا إلى فى دهشة، ثم ارتفعت منهم الضحكات. صعد رنينها فى الخراب. قال الحارس:

" لكن الرجالة ما يتدفنوش مع الحريم. ممكن تتدفن هناك مع جدك، وأعمامك".

" لكن أنا كنت بأستريح مع جدتى أكثر من جدى".

بدت عليهم علامات التحفظ إزاء هذا الكلام. فلا يجوز الحديث عن خصوصيات الأسياد. أشياء راسخة فى الوجدان تثقل ألسنتهم.

قلت:

"إذن أفضل أن أندفن وحدى. الوحدة فيها براح. تخلينى حر مفيش حد ينازعنى فى المساحة اللى لىَّ. ما سمعش أصوات ما تعجبنيش، ولا أشم روائح تضايقنى، ولا يفرض على جليس مش عايزه. فى قبر لواحدى أقدر أكتب كمان".

يضحكون. أحب الفرحة على وجوههم. المرح كالموت يساوى بين الناس.

أشار حارس المدفن إلى ركن فى الحوش وقال:

"هذا المكان مناسب".

حملقوا ناحية المكان الذى أشار إليه. ظلوا صامتين كأنهم يقلبون الاقتراح فى ذهنهم. اقترب منه "محمود النفياوى" وداس بقدميه على التراب ثم قال:

" الأرض هنا فيها نشع. الميه حترتفع فى المقبرة زى ما عملت فى المقبرة اللى بناها ابن عمك هناك ".

التفت. وجدت مقبرة مفتوحة. اقتربت منها لأفحصها. كانت مرتفعة قليلاً عن الأرض. جدرانها مبنية بالأسمنت هى، والغطاء الذى أزيح جانبًا ليكشف عن المياه التى ارتفعت فيها.

تصورت نفسى غارقاً فى المياه الأسنة فتراجعت عنها وعدت إلى المكان الذى أشار إليه الحارس.

قال "حسن النفياوى".

"ما يمكن الأودة المقفولة تكون أحسن"

قلت:

"لا عايز أرقد فى الخلا" وأضفت " وإيه يعنى لو الميه غطتنى؟ مانا حكون زيهم شوية عظام".

تدخل "محمود النفياوى " محتجاً:

" مهو برضة يا دكتور نتفادى الميه أحسن".

قلت:

" ما نقدرش نرفع مستوى الأرض شوية؟ نحط شوية ردش أو رمل؟

هزوا رؤوسهم بالموافقة، قال "مصطفى تليمة".

" أيوه. أهه كده ينفع".

أحسست بالرضى. أصبحت خبيرا فى شئون الدفن. خطوة جديدة فى الحياة تزيدنى معرفة بأسرارها.

سألت:

"هتتكلف أد أيه يا "محمود" ؟"

قال:

"يعنى سبعمائة ولا ثمنمائة جنيه على الأكثر، عايز تدهنها لون إيه؟

قلت:

" لا مش عايز دهان. ابنيها بالطوب الأحمر وغفأها بس. خليها يا دوب كده على قدى، أو خليها تاخد كمان واحد أو اثنين. يمكن حد يحب يجاورنى".

مر شهر وذهبت أتفقد المدفن. فوجئت ببناية ترتفع ما يقرب من متر فوق مستوى الأرض. جزؤها الأمامى فى شكل مثلث. كنت أريدها بسيطة، إنما هذا البناء يعكس عقلية بقايا الإقطاع، وقيمها.. لمحت نظرة الفخر فى عينيه وهو يشرح لى ميزاتها. فقلت كويسة يا "محمود" لكن مش كبيرة شوية. زى ما تكون كدة مبنية لواحد مهم؟!

ضحك وقال:

"لا أبدًا. ما هو أى حاجة غير كده ما تنفعش".

سكتت. قلت لنفسى ما أهمية اختيار شكل القبر الذى سأدفن فيه. تصورت "نوال" إذا جاءت لزيارتها. ستقول" شريف" ده كان بيحب المظاهر" وربما خاطبتنى وأنا راقد تحت الأرض قائلة "تأثير الأسرة باين عليك حتى فى طريقة الدفن. ما عرفتش تتخلص منه لحد آخر لحظة فى حياتك".

الخاتمة

أتحرك وسط شبورة الصباح كأننى فى حلم. ماذا أفعل فى هذا المكان؟ كل شىء من حولى ساكن. لا نسمة هواء ترعش أوراق الشجر، ولا رفرفة عصفور أصابه القلق، ولا خطوة مبكرة تسعى إلى العمل. حتى صفير الحشرات المنتظم توقف كأنها كتمت أنفاسها عندما أحست بى قادمًا. لا شىء سوى السكون الموحش وشعور بأن السعادة أفلتت. أهو الشعور بأن المشوار كاد أن ينتهى؟ أم الخيال جامح يلهث الواقع وراءه؟

ارتعش شعاع ذهبى فى الضوء الشاحب. لمحت الورود فى الحديقة تفتحت. سرت خلف البيت ودخلت إلى المطبخ من بابه. أخرجت المقص من درجه وعدت إلى الحديقة أنتقل بين أحواضها. أسمع صوت الفكين الصلبين ينغلقان فى حركة سريعة باترة فتميل الوردة مع ساقها. أتلقفها بين يدى وأضعها جانبًا.

جمعت الورود. نزعت أوراقها الخضراء الزائدة، وأزلت الأشواك. حملتها بين ذراعى إلى الحوض. رششتها بقليل من الماء، ثم وضعتها فى وعاء كبير من الزجاج الشفاف. فتحت الصنبور فجاءنى خرير المياه وهى ترتفع فى الوعاء يبث فى نفسى إحساسا بالراحة.

صعدت الدرجات إلى حجرة المكتب التى تقضى فيها "نوال" نهارها، تكتب، وتقرأ، وترتب أوراقها. وضعت الزهور على المكتب تناثرت فوقه أشياؤها. تأملتها فى وعائها، منتصبة، متفجرة بألوانها ثم عدت هابطًا على السلالم باحثًا عن خيط حياتنا.

القضابة أكتوبر ٢٠٠٢

الفهرس

أعمال المؤلف

روايـات		
١- العين ذات الجفن المعدنى	دار الطليعة	١٩٧٣
	دار الثقافة	١٩٨٣
٢- الهزيمة	دار الطليعة	١٩٧٨
٣- الشبكة	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	١٩٨١
	دار الثقافة	١٩٩٠
٤- قصة حب عصرية	دار الآداب	١٩٨٤
٥- نبض الأشياء الضائعة	دار الآداب	٢٠٠١
	دار المحروسة	٢٠٠٨
٦- عمق البحر	دار ميريت	٢٠٠٢
٧- عطر البرتقال الأخضر	دار الهلال	٢٠٠٦
٨- ابنة القومندان	دار ميريت	٢٠٠٨
٩- الوباء	دار ميريت	٢٠١٠
مذكرات:		
تجربتى فى الابداع	دار الثقافة الجديدة	٢٠٠٠
فى الأصل كانت الذاكرة	الأهالي	٢٠٠٢
يوميات روائى رحال	دار المحروسة	٢٠٠٨

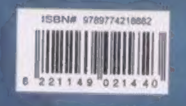
فى هذا الكتاب يحكى " شريف حتاتة " حياته منذ أن ولد فى " لندن " من أم إنجليزية فقيرة وأب مصرى كان ينتمى إلى أسرة إقطاعية . ثم بعد مجيئه إلى الوطن ليستقر فى بيت جده. فيجعلنا نعيش معه طفلاً يكتشف عالمًا غريبًا عليه . وتلميذاً فى المدرسة الإرسالية . وطالبًا فى كلية الطب وطبيبًا فى المستشفى الجامعى. ومشاركًا فى الحركة الوطنية ضد الإنجليز و الملك فاروق . وعضوًا فى حركة يسارية يُصبح فيها محترفًا سياسيًا ويرحل إلى مدينة الإسكندرية . ومسجونًا يهرب من سجنه ويسافر فى قاع سفينة للشحن . ولاجئًا فى " باريس " يقع فى حب امراة زائرة جاءت من مصر

نعود معه إلى الوطن سرًا بعد ثورة يوليو : حيث يستأنف نشاطه السياسى فى قرى الوجه البحرى إلى أن يُقبض عليه مرة أخرى ويصدر عليه حكم بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات نقضيها معه فى السجن الحربى . وليمان طرة . وسجن مصر. ثم تتخذ حياته مسارًا جديدًا ينقله إلى الكتابة الروائية

تصميم الغلاف / ماجدة محمود عبد العليم



الهيئة المصرية العامة للكتاب



٢١ جنيهًا